فقه الدعوة وتزكية النفس

بقلم

حسين بن عودة العوايشة

دار ابن حزم




رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فقه الدعوة وتزكية النفس

(١ - ١٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

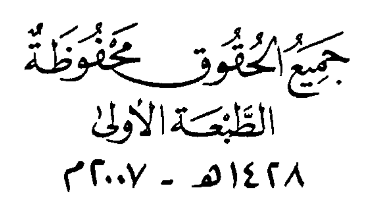
فقه الدعوة وتزكية النفس

(١ - ١٥)

١ ـ الإخلاص	٢ ـ التحذير من الشيطان وبيان مكايده والتحصُّن منه	٣ ـ أوليات العلم والعمل والدعوة
٤ ـ القبر عذابه ونعيمه	٥ ـ الصلاة وأثرها في زيادة الإيمان وتهذيب النفس	٦ ـ مصيبة موت النبي ﷺ وأثرها في حياة الأمة
٧ ـ وصية مودع	٨ ـ الدعاء	٩ ـ البكاء من خشية الله
١٠ ـ سورة المطففين وأثرها في السلوك وتزكية النفس	١١ ـ الغيبة وأثرها السيء في المجتمع	١٢ ـ تسوية الصفوف وأثرها في حياة الأمة
١٣ ـ كيف تحكم نفسك وأهلك ومن تلي أمورهم بحكم الله	١٤ ـ المظهرية الجوفاء وأثرها في دمار الأمة	١٥ ـ الفصل المبين في مسألة الهجرة ومفارقة المشركين

بقلم
حسين بن عودة العوايشة

دار ابن حزم



ISBN 978-9953-81-522-0

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: 14/6366
هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)
بريد إلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb





المقــدّمــة

إنَّ الحمْدَ لله، نحمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفِرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنْفُسِنا، وسيِّئاتِ أعمالِنا، من يَهدِه الله فَلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلل فلا هاديَ لهُ .

وأَشهَدُ أنْ لا إله إلا الله، وحدَه لا شريكَ له، وأَشْهَدُ أنَّ مُحمَّداً عَبدهُ ورَسولهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾[3].

أمَّا بعد:

فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدْي هدْي محمّد ﷺ، وشرّ

(١) آل عمران: ط ١٠٢.
(٢) النساء: ١.
(٣) الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١.

الأمور مُحدثاتها، وكلَّ مُحدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وكلَّ ضلالة في النَّار.

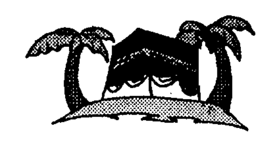
فلقد بدا لي ـ ووافق اقتراح بعض الأحبّة ـ أن أجمع **«سلسلة فقه الدعوة وتزكية النفس»** في كتابٍ كبير أو كتابين، ففعْلتُ فبلغَت مجلّدين.

وإنّي لأسأل الله ـ تعالى ـ بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن يتقبّل مني، ويغفر لي ويرحمني وأن يجعلني هادياً مهديّاً، وأن يجعَل كتبي سبب خيرٍ وفوزٍ وسعادة؛ لي وللأمّة الإسلامية إنّه سميع مجيب.

وكتب:

حسين بن عودة العوايشة

٢٢ محرّم ١٤٢٦هـ



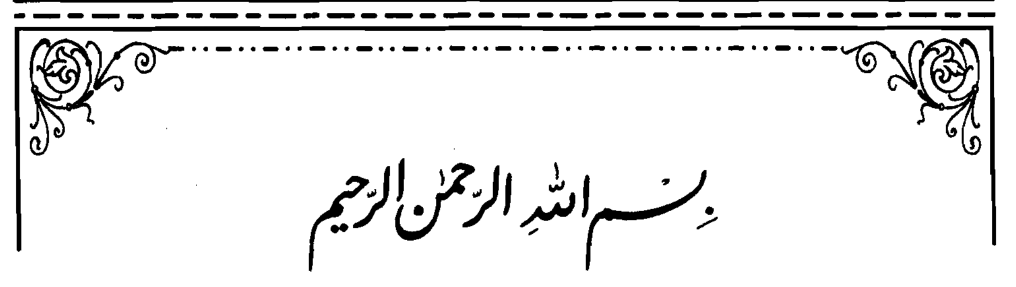
فقه الدعوة وتزكية النفس

(١)

الإخلاص

بقلم
حسين بن عودة العوايشة





ماذا يُشترط للعمل حتى يُقبل؟

قبل أن تخطو خطوة واحدة ـ أخي المسلم ـ عليك أن تعرف السبيل التي فيها نجاتك، فلا تتعب نفسك بكثرة الأعمال، فرب مُكثر من الأعمال لا يفيده إلا التعب منها في الدنيا والعذاب في الآخرة(١)، فلتعلم قبل كل شيء ماذا يشترط للأعمال حتى تقبل.

۞ لا بد من أمرين هامين عظيمين أن يتوفرا في كل عمل وإلا لا يقبل:

أولهما: أن يكون صاحبه قد قصَد به وجه الله ـ عز وجل ـ.

ثانيهما: أن يكون موافقاً لما شرعه الله ـ تعالى ـ في كتابه، أو بيّنه رسوله في سُنّته.

فإذا اختل واحد من هذين الشرطين لم يكن العمل صالحاً ولا مقبولاً ويدل على هذا قوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾(٢)، فقد أمر ـ سبحانه ـ أن يكون العمل

---

(١) ومن مِثل هذا قوله ﷺ: **«رُبّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر...»** أخرجه ابن ماجه والنسائي من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ وغيرهما، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٠٨٣): «حسن صحيح».

(٢) الكهف: ١١٠.

صالحاً أي: موافقاً للشرع، ثم أمر أن يخلص به صاحبه لله، لا يبتغي به سواه*[١].

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره»: «وهذان ركنا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصا لله، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ، وروي مثل هذا عن القاضي عياض - رحمه الله - وغيره».

الأمر بالإخلاص والتحذير من الرياء والشرك:

اعلم - أخي المسلم - أنه لابد للأعمال من نية: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»[٢].

ولا بد من الإخلاص لله في النية لقوله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾[٣].

وقال - تعالى -: ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾[٤].

وقد حذر الله - تعالى - من الرياء فقال - سبحانه وتعالى -: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[٥] وكان ﷺ يقول عند تلبيته للحج: **«اللَّهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة»**[٦].

وحذَّر منه رسول الله ﷺ تحذيراً شديداً، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرّفه نعمته فعرَفها، قال: فما عملت فيها؟**

---

(١) ما بين نجمتين من كتاب «التوسل أنواعه وأحكامه» بحوث كتبها وألقاها شيخنا الألباني وآلف بينها ونسقها الشيخ محمد عيد عباسي - حفظه الله تعالى -.
(٢) أخرجه البخاري: ١، ومسلم: ١٩٠٧.
(٣) البينة: ٥.
(٤) آل عمران: ٢٩.
(٥) الزمر: ٦٥.
(٦) أخرجه الضياء بسند صحيح، وانظر «المناسك» لشيخنا - رحمه الله - (ص١٦).

قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء! فقد قيل، ثم أُمر فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلّمه وقرأ القرآن، فأُتي به فعرَّفه نعمه فعرَفها، قال: فما عملت؟ قال: تعلمتُ العِلم وعلّمته، وقرأتُ فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمتُ ليقال: عالم! وقرأت القرآن ليقال: قارئ! فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار، ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأُتي به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت في سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك» قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال: جواد! فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار»[١].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«قال الله ـ تعالى ـ: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[٢].**

وقال رسول الله ﷺ: **«من تعلّم عِلماً مما يبتَغى به وجه الله ـ عزّوجلّ ـ لا يتعلمه إلا ليصيب به عَرَضاً من الدنيا[٣]، لم يجد عَرْف الجنة[٤] يوم القيامة»[٥].**

۩ تحذير من الشيطان وبيان مكائده

إذا كان الأمر قد بلغ من الخطورة ما بلغ فلا شك أن المسلم الصادق يهمه الخلاص من الرياء ومبطلات الأعمال؛ وأول ما يجب التنبه له في هذا

---

(١) أخرجه مسلم: ١٩٠٥.
(٢) أخرجه مسلم: ٢٩٨٥.
(٣) أي من متاعها وحُطامها.
(٤) يعني: ريحها الطيبة والعَرف: الريح» «النهاية».
(٥) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه وغيرهم، وصححه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٠٥).

الأمر؛ هو معرفة أسباب هذا المرض الخطير، فلتعلم أن عدوك الشيطان لا يتوقف هو وجنده عن محاولة التسبب في إحباط أعمالك ووقوعك في الرياء» وانظر إلى التحذير من كيد الشيطان الذي جاء في الكتاب والسنة؛ فإنه خير شفاء لشر مرض.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[(١)].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[(٢)].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[(٣)].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[(٤)].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[(٥)].

وقال رسول الله ﷺ: **«إنّ الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه حتى يحضره عند طعامه، فإذا سقطت لقمة أحدكم فليأخذها؛ فليمط ما كان بها من أذى ثم ليأكلها ولا يدعها للشيطان، فإذا فرغ فليلعق أصابعه، فإنه لا يدري في أي طعامه البركة»**[(٦)].

والشاهد هنا: **«إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه»** فهو يحضر ليفسد النية والقول والعمل، فإن حسنت نيتك، دلك على عمل غير مشروع تفعله بهذه النية الحسنة، وإنْ حسُن عملك أفسد عليك نيتك، وإن حسنتَ نيّتك أفسد عليك أسلوبك مع الناس؛ ليوقع العداوة والبغضاء بينك وبينهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

---

(١) فاطر: ٦.
(٢) البقرة: ٢٦٨.
(٣) يوسف: ٥.
(٤) النور: ٢١.
(٥) النمل: ٢٤.
(٦) أخرجه مسلم: ٢٠٣٣.

وقال ﷺ: **«ما منكم من أحد، إلا وقد وكِّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة، قالوا: وإياك؟ قال: وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»**[١].

وقال ﷺ: **«ما منكم من أحد إلا ومعه شيطان»** قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: **«وأنا، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم»**[٢].

وقال ﷺ: **«إنّ إبليس يضع عرشه على الماء، ثمّ يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً. قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نِعْم أنت»**.

قال الأعمش: أراه قال: فيلتزمه»[٣].

وقال ﷺ: **«إنّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»**[٤].

فكن من هذا العدو الرجيم على حذر، واعلم أنه لا يقيل، لقوله ﷺ: **«قيلوا، فإنّ الشياطين لا تقيل»**[٥]. ولا يمكن أن يذَرَكَ إن لم تستعن بالله عليه، وتراقب الله ـ تعالى ـ في أعمالك كلها.

التوسل بالإخلاص لله في الأعمال:

ولا يفوتني في هذا الباب أن أذكر لك من فوائد الإخلاص في الدنيا قبل الآخرة، فإنك تستطيع التوسل إلى الله بأعمالك التي أخلصت فيها له ـ سبحانه ـ لينقذك من كل كرب وشدة.

عن أبي عبدالرحمن بن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ قال:

---

(١) أخرجه مسلم: ٢٨١٤.
(٢) أخرجه مسلم: ٢٨١٥.
(٣) أخرجه مسلم: ٢٨١٣.
(٤) أخرجه البخاري: ٣٢٨١، ومسلم: ٢١٧٥.
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الطب» وغيره، وانظر «الصحيحة» (١٦٤٧).

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدّت عليهم الغار فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله ـ تعالى ـ بصالح أعمالكم قال رجلٍ منهم: اللَّهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق**[١] **قبلهما أهلاً ولا مالاً فنأى بي طلبُ الشجر يوما فلم أُرِح**[٢] **عليهما حتى ناما فحلبْتُ غبوقهما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما؛ حتى برق الفجر**[٣] **والصبية يتضاغَون**[٤] **عند قدمي، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللَّهم إنْ كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرَجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه.**

قال الآخر: اللَّهمّ إنه كانت لي ابنة عمّ؛ كانت أحبَّ الناس إليَّ» وفي رواية: **كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء، فأردتها على نفسها**[٥] **فامتنعت مني حتى ألمتَّ بها سَنةٌ من السِنين**[٦] **فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها؛ ففعلت، حتى إذا قدرتُ عليها.**

وفي رواية: **فلما قعدت بين رجليها، قالت: اتق الله ولا تفضّ الخاتم**[٧] **إلا بحقه فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي، وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللَّهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.**

وقال الثالث: اللَّهم استأجرت أجراء، وأعطيتهم أجرهم غير رجل

---

(١) أي: لا أقدّم قبلهما أهلاً ولا مالاً من رقيق وخادم.
(٢) أي: أرجع.
(٣) أي: ظهر ضوؤه.
(٤) يصيحون من الجوع والضّغاء: هو البكاء بصوت.
(٥) أي: الجماع.
(٦) أي: نزلت بها سنة من السنين الجدبة.
(٧) كناية عن فض الفرج وعذرة البكارة.

واحد؛ ترك الذي له وذهب، فثمَّرت أجره حتى كثُرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أدِّ لي أجري. فقلت: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق. فقال: يا عبدالله لا تستهزئ بي. فقلت لا أستهزئ بك، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً. اللَّهم إنْ كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون»[1].

فانظر أخي كيف فرَّج الله ـ سبحانه وتعالى ـ الصخرة عن هؤلاء المكروبين؛ بصالح أعمالهم وإخلاصهم لله ـ تعالى ـ.

وما سبب الذل والهوان الذي تقع فيه البشرية وتتخبط به؛ إلا عدم الإخلاص لله ـ تعالى ـ فيا عبد الله! ألا يوجد لديك من صالح الأعمال؛ ما تتوسل فيه إلى الله ـ تعالى ـ ليخلصك من كربك وشدتك!

نجاة يوسف بسبب الإخلاص:

وانظر إلى البلاء الذي وقع به يوسف ـ عليه السلام ـ إنه بلاء التعرض للزنا، ثم انظر كيف اشتدت الإغراءات به، وتجمّعت عليه، وأراد الشيطان أن يوقعه في الزنا فلم يفلح، فمن الإغراءات الملحة كونه شاباً يفيض بالحيوية والجنس وكان عزباً حسن الوجه.

قال رسول الله ﷺ: **«أعطي يوسف شَطر الحُسن»**[2]. فهذا يجعل داعي الإلحاح والإغراء من جانب امرأة الملك العزيز أشد وأقوى، وكذلك البعد عن رقابة الأهل والغرباء ممن قد يفضح أمره، ومع ذلك فقد ثبت ـ عليه السلام ـ ثباتاً شديداً بفضل الله ـ تعالى ـ وتوفيقه، ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[3].

---

(١) أخرجه البخاري: ٢٢٧٢، ومسلم: ٢٧٤٣.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد وغيرهما، وانظر «الصحيحة» (١٤٨١).

(٣) يوسف: ٢٤.

فبالإخلاص لله ـ تعالى ـ كانت نجاته ـ عليه السلام ـ فهل أنتم يا معشر الشباب معتبرون؟ وهل أنتن يا معشر الفتيات معتبرات؟ كم من الشباب والفتيات من لا يستطيع غض بصره - وما فوق ذلك - بسبب نقصان الإخلاص لله ـ تعالى ـ فحسبنا الله ونعم الوكيل.

قصة الغلام المؤمن:

في هذه القصة ـ عبرة لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد ـ فلنتدبر هذه القصة، متلمّسين ما فيها من معان عظيمة في الإخلاص.

عن صهيب ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إليّ غلاماً أُعلمه السحر، فبعث إليه غلاماً يعلّمه، وكان في طريقه إذا سلك راهب[1] فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، وكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا خشيت الساحر فقل حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو على ذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً فقال: اللّهمّ إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره. فقال له الراهب: أي بنيّ أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل عليّ. وكان الغلام يبرىء الأكمه[2] والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء[3] فسمع جليسٌ للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ماها هنا لك أجمع، إن أنت شفيتني فقال: إني لا أَشفي أحداً إنما يشفي الله فإن آمنتَ بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله ـ تعالى ـ**

(١) مُتعبد من النصارى ممن كانوا على الدين الصحيح.
(٢) هو الذي ولد أعمى.
(٣) أي: الأمراض.

فشفاه الله ـ تعالى ـ فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من ردّ عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: أو لك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله. فأخَذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام فقال له الملك: أي بنيّ قد بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل. فقال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى يدل على الراهب، فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرِق رأسه[1] فشقه حتى وقع شقاه، ثمّ جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه، ثمّ جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته[2] فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه. فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: اللّهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل، فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قُرقور[3] وتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه به، فقال: اللّهم اكفينهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. قال: ما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع[4] ثمّ خذ سهماً من كِنانتي[5] ثمّ ضع السهم في كبد القوس[6] ثمّ قل: بسم الله رب الغلام، ثمّ ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع، ثمّ أخذ سهماً من كنانته ثمّ وضع السهم في كبد القوس، ثمّ قال: بسم الله رب

---

(١) هو وسطه.
(٢) أعلاه.
(٣) القُرقور: السفينة العظيمة.
(٤) هو العود من أعواد النخل.
(٥) بيت السهام.
(٦) كبد القوس: وسطه.

الغلام، ثمّ رماه فوقع السهم في صُدغه[١]، فوضع يده في صُدغه فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، فأتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر، قد والله نزل بك حَذَرُك، قد آمن الناس فأمر بالأخدود[٢] بأفواه السكك فخدت[٣] ، وأضرم فيها النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها[٤] أو قيل له اقتحم، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها تقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أُمّه اصبري فإنك على الحق»[٥].

فانظر كيف كان الله يستجيب الدعوات المخلصة! وكيف كانت السنن الكونية تتبدل وتتغير بسبب الإخلاص لله ـ تعالى ـ! لقد وقع الغلام في خطر عظيم عندما أخذوه ليطرحوه عن الجبل، فدعا الله بإخلاص شديد: «**اللّهم اكفنيهم بما شئت**» فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك، لقد كان الإخلاص سبباً في نجاته من الموت واستطاع بفضل الله ـ سبحانه ـ أن يقتل بالإخلاص أعداء الله ـ تعالى ـ ثمّ أخذوه في السفينة ليتخلصوا منه ـ حيث إنهم رأوا الإخلاص سِرَّ قُوته ـ أخذوه وتوسطوا به البحر فدعا الله بإخلاص العبد للرب: «**اللّهم اكفنيهم بما شئت**» فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك.

هذا هو الإخلاص الذي مَنَّ الله به على هذا الغلام، نجّاه من خطر عظيم، وقضى به على أعداء الله ـ تبارك وتعالى ـ.

ثمّ انظر كيف كان يشتد إخلاص ذلك الغلام فقد باع نفسه لله شهيداً، ضحى بنفسه من أجل أن تكون كلمة الإخلاص هي المقولة على الأرض وهي المعمول بها، من أجل أن يقول الناس: «**آمنا برب الغلام**».

لقد قال للملك: «**إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به قال: ما**

(١) الصُّدغ: ما بين العين إلى شحمة الأذن» «النهاية».
(٢) الشقوق.
(٣) أي: شقت.
(٤) أي: ألقوه.
(٥) أخرجه مسلم: ٣٠٠٥.

هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع ثمّ خذ سهماً من كنانتي ثمّ ضع السهم في كبد القوس ثمّ قل: بسم الله رب الغلام، ثم ارمني فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني».

وما هي نتيجة هذا الأخلاص؟ أجرٌ كبير ومنزلة عظيمة عند الله للغلام، وإيمان من الناس برب الغلام فما أن مات هذا الغلام، حتى قال النّاس: آمنا برب الغلام.

هذه هي ثمرة إخلاص الغلام، إيمان شعب بكامله.. إيماناً ثبتوا به على التحريق. وكان من ثمرات إخلاصه أيضاً، ما أنطق الله به ذلك الصبي الصغير، عندما تقاعست أمه أن تقع في النار: «**يا أمه اصبري فإنك على الحق**»..

نطق هذا الصبي بالأمس، واليوم أفواه البشرية مقفلة لا تهمس بشيء - إلا من رحم الله وقليل ما هم - فهل من مدكر..؟

قصة إبراهيم وزوجه عند البيت:

وهيا بنا نرتع في جو من الإخلاص والإيمان، ونحن نقرأ قصة إبراهيم ﷺ وزوجه، وذلك في حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «**جاء إبراهيم ﷺ بأمّ إسماعيل وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت[١]، عند دوحة[٢] فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هناك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثمّ قفّى[٣] إبراهيم منطلقاً فتبعته أُمّ إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له مراراً، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً لا يضيّعنا. ثمّ رجعت فانطلق إبراهيم ﷺ حتى إذا كان عند**

(١) أي: الكعبة.

(٢) الدوحة: هي الشجرة الكبيرة.

(٣) ولّى.

الثنيّة[١] **حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت ثمّ دعا بهؤلاء الدعوات، فرفع يديه فقال: ﴿رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع﴾ حتى بلغ: ﴿يَشْكُرُونَ﴾ وجعلَت أمّ إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال يتلبّط**[٢] **- فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه، ثمّ استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثمّ سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثمّ أتت المروة، فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات**، قال ابن عباس - رضي الله عنهما : قال النبيّ ﷺ: «**فلذلك سعى الناس بينهما**» **فلما أشرفت المروة سمعت صوتاً فقالت: صه - تريد نفسها - ثمّ تسمّعت فسمعت أيضاً فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندك غواث فأغث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه** - أو قال: **بجناحه - حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف**»، وفي رواية: «**بقدر ما تغرف**». قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: قال النبيّ ﷺ: «**رحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم** - أو قال: **لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً**» قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة فإن ههنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وأن الله لا يضيع أهله»[٣].

لقد كان من مظاهر الإخلاص عند إبراهيم امتثاله لأمر الله - تعالى - بوضع زوجه وابنه في أرض لا أنيس فيها ولا شيء، وهذا المظهر كذلك كان موجوداً في زوجه حين قالت أخيراً: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم؛ قالت: إذاً لا يضيعنا.

---

(١) هو الموضع الذي دخَل النبيّ ﷺ مكة منه.

(٢) أي: يتمرغ ويضرب بنفسه في الأرض.

(٣) أخرجه البخاري: ٣٣٦٤.

فهل ضيّعهم الله ـ تعالى ـ؟ لقد كان لإخلاص إبراهيم وزوجه أثر في اهتزاز كل قلب مؤمن أسلَم وجهه إلى الله، لقد فجّر الله ـ تعالى ـ بالإخلاص والتضحية زمزم، لا لإسماعيل وأمه فحسب، ولكن لألوف الألوف من الناس على مر السنين.

وبالإخلاص لله ـ تعالى ـ فجرت زمزم ليشرب منها من أدى الحج أو العمرة من جميع أقطار الأرض.

زمزم التي قال فيها رسول الله ﷺ: «**ماء زمزم لما شرب له**»[١]، فمن شرب زمزم بنية أن يعلّمه الله علّمه الله ـ تعالى ـ ومن شرب بنية الثبات على الدين، ثبته الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومن شربه بنية الشفاء من مرض شفاه الله، وقال ﷺ ـ أيضاً ـ: «**إنها مباركة وهي طعام طُعم**[٢] **وشفاء سُقم**»[٣]، وقال ـ عليه السلام ـ أيضاً: «**خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم، فيه طعامٌ من الطعم وشفاءٌ من السقم**»[٤].

من الإخلاص أن تعمل الصالحات مع خوف عذاب الآخرة

قال الله ـ تعالى ـ في حق طائفة من الصالحين وهم الأبرار: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾[٥].

فهؤلاء لم يفعلوا الخير انتظار جزاء الناس وشُكرهم، ولم يكن منهم منٌّ بتقديم الطعام والشراب والعون، إنما صحب هذه الأعمال خَوفٌ من الله

---

(١) أخرجه أحمد وابن ماجه وغيرهما، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الإرواء» (١١٢٣).

(٢) أي: يشبع الإنسانُ إذا شرب ماءَها؛ كما يشبع من الطعام» «النهاية».

(٣) أخرجه الطيالسي وغيره، وانظر «الصحيحة» (٣/٤٦).

(٤) أخرجه الطبراني وغيره، وانظر «الصحيحة» (١٠٥٦).

(٥) الإنسان: ٨ ـ ١١.

ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾ فهم يطعمون الطعام وهم يخافون من ربهم يوم القيامة، ولم يكونوا شامخي النفوس، متعالين على من يقدمون لهم العون.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «**سألتُ رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾** قالت عائشة: هم الذين يشربون الخمر ويسرفون؟ قال: لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يُقبَل منهم أولئك الذين يُسارعون في الخيرات»[١].

لماذا تُستجاب دعوة المظلوم والمضطر؟ وما معنى فرَّغ قلبه لله؟

قال رسول الله ﷺ: «**دعوة المظلوم مستجابة، وإن كان فاجراً، ففجوره على نفسه**»[٢].

وإذا تأملنا الأمر، وجدنا الداعي يخلص في دعوته، ويجمع قلبه في الدعاء، ولا يشغله شاغل عن الإلحاح في دعوته، لأنه يرى أنه لا بد من تحقيق استجابة دعائه، وقد بيّن رسول الله ﷺ سبب عدم استجابة الدعاء بقوله: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاهٍ**»[٣].

فالقلب الغافل اللاهي لا يستجاب له دعاء، والمظلوم لا يلهو قلبه عن دعوته لضرورة الأمر، وكذلك المضطر فإن دعاءه مستجاب، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[٤].

---

(١) أخرجه الترمذي والحاكم وغيرهما، وانظر «الصحيحة» (١٦٢).
(٢) أخرجه أحمد وابن أبي شيبة وغيرهما، وانظر «الصحيحة» (٧٦٧).
(٣) أخرجه الترمذي والحاكم وغيرهما، وانظر «الصحيحة» (٥٩٤).
(٤) النمل: ٦٢.

فليس مع المضطر مجال ليشغل قلبه ويلهو بغير ما اضطر إليه، فهو مخلص أشدّ الإخلاص لحظة اضطراره.

ثمّ إن حديث مسلم يوضح لنا هذا الشغل الشاغل عن تحصيل الأفضل، عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يصعد الثنية ثنية المرار**[١] **فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل**» وكان أول من صعدها خيلنا خيل بني الخزرج ثم تتام[٢] الناس فقال رسول الله ﷺ: «**كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر**»[٣] فأتيناه فقلنا: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ قال: لأن أجد ضالتي أحب إلي من أن يستغفر لي صاحبكم[٤].

فهو ها هنا شغل بالضالة عن المغفرة له والإخلاص لله ـ تعالى ـ ويحسُن بنا في هذا المقام أن نورد حديث رسول الله ﷺ ليزيدنا وضوحاً لهذا الأمر، وهو قوله ﷺ: «**ما منكم من رجل يقرّب وضوءه، فيتمضمض، ويمج، ويستنشق، فينتثر إلا خرّت خطايا وجهه وفيه وخياشيمه، ثمّ إذا غسل وجهه كما أَمَره الله إلا خرّت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثمّ يغسل يديه إلى المرفقين، إلا خرّت خطايا يديه من أطراف أنامله مع الماء، ثمّ يمسح رأسه كما أَمَره الله إلا خرّت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثمّ يغسل قدميه إلى الكعبين كما أَمَره الله، إلا خرّت خطايا رجليه من أطراف أنامله مع الماء، فإن هو قام فصلّى، فحمد الله وأثنى عليه ومجّده بالذي هو أهله، وفرّغ قلبه لله، إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمّه**»[٥].

فقوله ﷺ: «**فرّغ قلبه لله**» هو الشاهد هنا، وتفريغ القلب لله هو

---

(١) موضع بين مكة والحديبية عن طريق المدينة.
(٢) تكامل.
(٣) وهو عبدالله بن أُبيّ رئيس المنافقين.
(٤) أخرجه مسلم: ٢٨٨٠.
(٥) أخرجه مسلم: ٨٣٢.

صرف الانشغال عما سواه، فكلاً من المضطر والمظلوم يفرغ قلبه لله ـ تعالى ـ عند الدعاء فيستجيب الله ـ تعالى ـ لهما الدعاء جزاء إخلاصهما، ثمّ إنه كان من دعاء إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾(١)، ودعا نوح ـ عليه السلام ـ ربه: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٢). فهذه أدعية لا بد من استجابتها وهي دعوات مضطر يترتب على عدم استجابتها ضلال وخسارة، وهذه الصيغ من الدعوات، تدل على تفريغ قلب صاحبها لله ـ تعالى ـ وعدم انشغاله بسواها، وجعل همّه استجابتها وتقديم ذلك على كل شيء، حتى إن الشيطان لما دعا الله ـ تعالى ـ بدعوة عَظُم الضلال فيها: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾(٣) فإنه فرغ قلبه لله، وهي دعوة مضطر لم يبق له إلا هي، وماذا يبقى له سواها إذن بعد أن خسر كل شيء؟ وماذا كانت النتيجة؟ ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾(٤).

فكيف كان شكر الشيطان لربه على استجابة الدعاء؟! ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾(٥)، فاستثنى الشيطان ـ نعوذ بالله منه ـ المخلصين لأنهم فرّغوا قلوبهم لله، فلم تكن المنكرات مزيَّنةً في نفوسهم.

من هنا نجد الداعي المظلوم والمضطر قد فرغا قلبهما لله ولا يزين في نفس أحدهما شيء يلهيه عن دعوته حتى يتحقق مراده ومن هنا نلحظ كذلك أن الثلاثة الذين خُلّفوا قد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم، وهذا هو وصْف الله ـ تعالى ـ لهم.

قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ

(١) الأنعام: ٧٧.
(٢) هود: ٤٧.
(٣) الحجر: ٣٦.
(٤) الحجر: ٣٧ ـ ٣٨.
(٥) الحجر: ٣٩ ـ ٤٠.

بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[1].

فهؤلاء مضطرون بدعوتهم فهم قد فرّغوا قلوبهم من كل شيء سوى مرضاة الله، ولقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، فلم يستطع الشيطان أن يزين لهم شيئاً لأنهم رأوا أن لا بد من رضوان الله عليهم، فتاب الله عليهم ـ سبحانه ـ.

ومن هنا نفهم حديث الرسول ﷺ: «**إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها**»[2].

فبمقدار ما يفرغ قلبه لله ـ تعالى ـ يكتب له من الأجر في صلاته[3] وبمقدار ما يفرغ قلبه يتقبل الله منه، وكذلك الدعوات؛ تختلف فيها الاستجابة بحسب تفريغ القلوب لله ـ تعالى ـ وتشتد الاستجابة عند المظلوم والمضطر بسبب هذا التفريغ القلبي الشديد لله ـ تعالى ـ.

وكيف كان وضع الغلام المؤمن عندما أُخذ ليلقى به من فوق الجبل! لقد فرغ قلبه لله بالدعاء فقال: «**اللّهم اكفنيهم بما شئت**» ثمّ بم ينشغل عن الدعاء وهو يرى نفسه سيلقى به من فوق الجبل؟ من هنا يشتد إيمان من يفهم حديث رسول الله ﷺ: «**الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك**»[4]. فإنّ من رأى القرب من الجنة وأحسها بقلبه؛ فرّغ نفسه عما سواها لها ومن رأى النار قُرْبها بهذا القدر، فإنه لا ينشغل بشيء سوى البعد عنها، وهذا من الإخلاص لله ـ تعالى ـ.

---

(١) التوبة: ١١٨.

(٢) أخرجه أبو داود وابن حبان في «صحيحه» وغيرهما، وحسّنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٣٧).

(٣) ويطلب من المسلم أن يصلّي كما صلّى رسول الله ﷺ في الهيئات وسائر أعمال الصلاة كذلك، وعدم فِعله ذلك ينقص من صلاته.

(٤) أخرجه البخاري: ٦٤٨٨.

ولنتدبر في هذا الموطن حديث رسول الله ﷺ: **«لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد»**[١].

فلو علم ما عند الله من العقوبة فإنه سيفرغ قلبه للنجاة من عذابها، ولن يطمع بالجنّة التي هي مراد كل عبد مؤمن، والله ـ تعالى ـ أعلم.

في مصاحبة أهل الإخلاص والانتفاع بإخلاصهم

تقدّم معنا حديث الثلاثة الذين كانوا في الغار، وتقدّم أيضاً كيف دعا أحدهم بصالح أعماله؛ فانفرج جزء من الصخرة، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها، فانتفع الجميع بدعوة المخلص الواحد، ثمّ تكرر الدعاء من صاحبيه، وكل مرة ينفرج جزء من الصخرة، وكان الانتفاع يعم الثلاثة، حتى خرجوا من الغار.

فاحرص على مصاحبة أهل الإخلاص تنتفع ـ بفضل الله ـ بإخلاصهم ودعائهم.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ قال: **«إن لله ـ تبارك وتعالى ـ ملائكة سيّارة[٢] فُضُلاً[٣] يَتَبَّعون مجالس الذكر، فإذا وجدوا مجلساً فيه ذِكر قعدوا معهم؛ وحفّ بعضهم بعضاً بأجنحتهم؛ حتى يملؤا ما بينهم وبين السماء الدنيا، فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء، فيسألهم الله ـ عزّ وجلّ ـ وهو أعلم بهم: من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عباد لك في الأرض: يسبّحونك، ويهللونك، ويحمدونك، ويسألونك.**

قال: وما يسألوني! قالوا: يسألونك جنتك. وقال: وهل رأوا جنتي! قالوا: لا أي رب. قال: فكيف لو رأوا جنتي! قالوا: ويستجيرونك. قال: ومم يستجيروني! قالوا: من نارك يا رب. قال: وهل رأوا ناري! قالوا: لا،

---

(١) أخرجه مسلم: ٢٧٥٥.
(٢) سائحون في الأرض.
(٣) زيادة على الحفظة وغيرهم.

قال: فكيف لو رأوا ناري! قالوا: ويستغفرونك؟ فيقول: قد غفرت لهم، فأعطيتهم ما سألوا، وأجرتهم مما استجاروا. قال: فيقولون: رب فيهم فلان عبد خطّاء إنما مرّ فجلس معهم، فيقول: وله غفرت، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»[١].

فاحذر من البعد عن أهل الإخلاص وانظر إلى وصية رسول الله ﷺ لك من خلال هذا الحديث: **«ما من ثلاثة في قرية، ولا بدو، لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليكم بالجماعة، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»**[٢].

وسيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ في علاج الرياء والاستبراء منه مصاحبة أهل الإخلاص.

* * *

من أنواع الرياء[٣]

١ ـ **الرياء البدني**: ويكون بإظهار النحول والصفار، ليرى العباد بذلك شدة الاجتهاد، وغلبة خوف الآخرة، ويقرب من هذا خفض الصوت وإغارة العينين، وإظهار ذبول الجسم؛ ليدل بذلك على أنه مواظب على الصوم.

٢ـ **الرياء من جهة الزي**: كإبقاء أثر السجود على الوجه وارتداء نوع معين من الزي؛ ترتديه طائفة يعدّهم الناس علماء، فيلبس هذا اللباس ليقال عالم.

٣ ـ **الرياء بالقول**: وهو ـ على الغالب ـ رياء أهل الدين بالوعظ

---

(١) أخرجه البخاري: ٦٤٠٨، ومسلم: ٢٦٨٩ واللفظ له.

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي وغيرهم، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٤٢٧): «حسن صحيح».

(٣) هذه الأنواع جميعاً نقلت من كتاب «مختصر منهاج القاصدين» بحذف وتصرف يسيرين (ص٢٢٣ ـ ٢٢٥).

والتذكير وحفظ الأخبار والآثار لأجل المحاورة، وإظهار غزارة العلم، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس، وإظهار الغضب للمنكرات بين الناس وخفض الصوت وترقيقه بقراءة القرآن، ليدل بذلك على الخوف والحزن والخشوع.

٤ ـ **الرياء بالعمل**: كمراءاة المصلّى بطول القيام وتطويل الركوع والسجود وإظهار الخشوع، والمراءاة بالصوم والغزو والحج والصدقة ونحو ذلك.

٥ ـ **المراءاة بالأصحاب والزائرين**: كالذي يتكلف أن يستزير عالماً أو عابداً ليقال: إن فلاناً قد زار فلانا» ودعوة الناس لزيارته كي يقال: إن أهل الدين يترددون عليه.

* * *

ما يتوهم أنه رياء وشرك وليس كذلك

۞ ١ ـ حمد الناس للرجل على عمل الخير:

عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قيل لرسول الله ﷺ أرأيت الرجل الذي يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ قال: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**»[١].

۞ ٢ ـ نشاط العبد بالعبادة عند رؤية العابدين:

قال المقدسي ـ رحمه الله تعالى ـ في «مختصر منهاج القاصدين» (ص٢٣٤): قد يبيت الرجل مع المتهجدين، فيصلّون أكثر الليل، وعادته قيام ساعة، فيوافقهم، أو يصومون فيصوم، ولولاهم ما انبعث هذا النشاط، فربما

---

(١) أخرجه مسلم: ٢٦٤٢.

ظن ظانٌّ أن هذا رياء، وليس كذلك على الإطلاق، بل فيه تفصيل، وهو أن كل مؤمن يرغب في عبادة الله ـ تعالى ـ ولكن تعوقه العوائق وتستهويه الغفلة، فربما كانت مشاهدة الغير سبباً لزوال الغفلة، ثمّ قال: «**ويختبر أمره بأن يمثل القوم في مكان يراهم ولا يرونه، فإن رأى نفسه تسخو بالتعبد فهو لله، وإن لم تسخ كان سخاؤها عندهم رياء، وقس على هذا**».

قلت: كسل المرء عند انفراده آت من باب قوله ﷺ: «... **فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية**»[1]. ونشاطه داخل من باب امتثاله لقوله ﷺ: «**عليكم بالجماعة**»[2].

۞ ٣ ـ تحسين وتجميل الثياب والنعل ونحوه:

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ أنه قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر**، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا، ونعله حسنة؟ قال: **إن الله جميل، يحب الجمال الكبر بطر**[3] **الحق وغمط الناس**[4]»[5].

۞ ٤ ـ عدم التحدث بالذنوب وكتمانها:

وهذا واجب شرعاً على كل مسلم ولا يجوز المجاهرة بالمعاصي لقوله ﷺ: «**كل أُمتي معافى إلا المجاهرين؛ وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً؛ ثمّ يصبح وقد ستره الله عليه فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله**»[6].

---

(١)(٢) ونص الحديث: «**ما من ثلاثة في قرية، ولا بدو، لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليكم بالجماعة، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية**»، وقد تقدّم غير بعيد.

(٣) أي: دفعه وردّه.

(٤) أي: احتقارُهم.

(٥) أخرجه مسلم: ٩١.

(٦) أخرجه البخاري: ٦٠٦٩، ومسلم: ٢٩٩٠.

والتحدث بالذنوب فيه مفاسد كثيرة ليس هذا موضع تفصيلها؛ منها التشجيع على ارتكاب المعاصي بين العباد، والا ستخفاف بأوامر الله ـ تعالى ـ.

ومن ظنّ أنّ كتمان ذلك رياء والتحدث بالذنوب إخلاص؛ فهو ممن قد لبّس عليه الشيطان، نعوذ بالله منه.

٥ ـ اكتساب العبد الشهرة من غير طلبها:

قال المقدسي في «مختصر منهاج القاصدين» (ص٢١٨): «المذموم طلب الإنسان الشهرة وأمّا وجودها من جهة الله ـ تعالى ـ من غير طلب الإنسان فليس بمذموم، غير أن في وجودها فتنة على الضعفاء».

* * *

فضائل الإخلاص في الأعمال

١ ـ الإخلاص في التوحيد:

قال ﷺ: **«ما قال عبد: لا إله إلا الله قط مخلصاً؛ إلا فتحت له أبواب السماء، حتى يفضي إلى العرش، ما اجتنبت الكبائر»**[١].

وقال ﷺ: **«ما من نفس تموت وهي تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، يرجع ذلك إلى قلب مؤمن، إلا غفر الله له»**[٢].

وقال ﷺ: **«إنّ الله قد حرّم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله»**[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي، وحسنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٥٢٤).

(٢) أخرجه أحمد وابن ماجه وغيرهما، وانظر «الصحيحة» (٢٢٧٨).

(٣) أخرجه البخاري: ٤٢٥، ومسلم: ٣٣.

٢ ـ الإخلاص في النية:

قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى»[١].

٣ ـ الإخلاص في الصلاة:

قال ﷺ: «ما من مسلم يتوضأ، فيحسن الوضوء، ثمّ يقوم فيصلّي ركعتين، يقبل عليهما بقلبه ووجهه، إلا وجبت له الجنة»[٢].

وقال ﷺ: «ما منكم من رجل يقرّب وضوءه، فيتمضمض، ويمج، ويستنشق، فينتثر إلا خرّت خطايا وجهه وفيه وخياشيمه، ثمّ إذا غسل وجهه كما أمره الله إلا خرّت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثمّ يغسل يديه إلى المرفقين، إلا خرّت خطايا يديه من أطراف أنامله مع الماء، ثمّ يمسح رأسه كما أمره الله؛ إلا خرّت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثمّ يغسل قدميه إلى الكعبين كما أمَره الله، إلا خرّت خطايا رجليه من أطراف أنامله مع الماء، فإن هو قام فصلّى، فحمد الله وأثنى عليه ومجّده بالذي هو أهله، وفرّغ قلبه لله، إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمّه»[٣].

٤ ـ الإخلاص في السجود:

قال ﷺ: «ما من عبدٍ يسجد لله سجدة، إلا كتب الله له بها حسنة، وحطّ عنه بها سيئة ورفع له بها درجة، فاستكثروا من السجود»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري: ١، ومسلم: ١٩٠٧، وتقدّم.
(٢) أخرجه مسلم: ٢٣٤.
(٣) أخرجه مسلم: ٨٣٢، وتقدّم.
(٤) أخرجه ابن ماجه، وصححه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٨٦).

٥ ـ الإخلاص في قيام رمضان:

قال ﷺ: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدّم من ذنبه»[١].

٦ ـ الإخلاص في قيام ليلة القدر:

قال ﷺ: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدّم من ذنبه»[٢].

٧ ـ الإخلاص في حب المسجد:

قال ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظله، إمام عدل، وشابٌّ نشأ في عبادة الله ـ تعالى ـ ورجل قلبه معلّق في المساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»[٣].

وقال ﷺ: «ما توطن رجل المساجد للصلاة والذكر إلا تبشبش الله ـ تعالى ـ إليه كما يتبشبش[٤] أهل الغائب بغائبهم، إذا قدم عليهم»[٥].

٨ ـ الإخلاص في الخروج للصلاة:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة

(١) أخرجه البخاري: ٣٧، ومسلم: ٧٥٩.
(٢) أخرجه البخاري: ١٩٠١، ومسلم: ٧٦٠.
(٣) أخرجه البخاري: ١٤٢٣، ومسلم: ١٠٣١.
(٤) البَشُّ: فرح الصديق بالصديق... والإقبال عليه» «النهاية».
(٥) أخرجه ابن أبي شيبة وابن ماجه والحاكم وغيرهم، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٢٧).

أحدكم في جماعته تزيد على صلاته في سوقه وبيته بضعاً وعشرين درجة، وذلك بأنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثمّ أتى المسجد لا يريد إلا الصلاة لا ينهزه[1] إلا الصلاة، لم يخطُ خطوة إلا رفع بها درجة، وحط عنه بها خطيئة، والملائكة تصلّي على أحدكم مادام في مصلاه الذي يُصلّي فيه يقولون: اللَّهم صلّ عليه، اللَّهم ارحمه، ما لم يحدث فيه، ما لم يؤذ فيه»[2].

۩ ٩ ـ الإخلاص في الانتظار في المسجد:

للحديث السابق.

۩ ١٠ ـ الإخلاص في القول كما يقول المؤذن:

قال رسول الله ﷺ: «إذا قال المؤذن: الله أكبر الله أكبر، فقال أحدكم: الله أكبر الله أكبر، ثمّ قال: أشهد أن لا إله إلا الله، قال: أشهد أن لا إله إلا الله، ثمّ قال: أشهد أن محمداً رسول الله، قال: أشهد أن محمداً رسول الله،ثمّ قال: حي على الصلاة، قال: لا حول ولا قوّة إلا بالله، ثمّ قال: حي على الفلاح، قال: لا حول ولا قوّة إلا بالله، ثمّ قال: الله أكبر الله أكبر، قال: الله أكبر الله أكبر، ثمّ قال: لا إله إلا الله، قال: لا إله إلا الله، من قلبه دخل الجنة»[3].

۩ ١١ ـ الإخلاص في الصوم:

قال ﷺ: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً، غُفر له ما تقدّم من ذنبه»[4].

---

(١) أي: لا يدفعه ولا يحرّكه.

(٢) أخرجه البخاري: ٢١١٩، ومسلم: ٦٤٩.

(٣) أخرجه مسلم: ٣٨٥.

(٤) أخرجه البخاري: ١٩٠١، ومسلم: ٧٦٠.

قال ﷺ: «من صام يوماً في سبيل الله بعّد الله وجهه عن النّار سبعين خريفاً»[(١)].

وقال ﷺ: «من صام يوماً في سبيل الله جعل الله بينه وبين النار خندقاً، كما بين السماء والأرض»[(٢)].

١٢ ـ الإخلاص في الزكاة:

عن طلحة بن عبيدالله ـ رضي الله عنه ـ قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس[(٣)] يُسمع دويُّ صوته ولا يُفقهُ ما يقول حتى دنا، فإذا هو يَسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: خمس صلوات في اليوم والليلة، فقال: هل عليّ غيرها؟ قال: لا إلا أن تطوع، فقال رسول الله ﷺ: وصيام رمضان قال: هل عليّ غيره؟ قال: لا إلا أن تطوع قال: وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة قال: هل عليّ غيره؟ قال: لا إلا أن تطوع فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، فقال رسول الله ﷺ: أفلح إن صدق»[(٤)].

١٣ ـ الإخلاص في الصدقة:

وذلك لما تقدّم في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه، وفيهم: «ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

وقال ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفىء غضب الرب، وصِلَة الرحم تزيد في العمر»[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري: ٢٨٤٠، ومسلم: ١١٥٣.

(٢) أخرجه الترمذي وغيره، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٩٩١): «حسن صحيح»، وانظر «الصحيحة» (٥٦٣).

(٣) أي: منتشر شعر الرأس.

(٤) أخرجه البخاري: ٤٦، ومسلم: ١١.

(٥) أخرجه الطبراني في «الكبير»، وحسنه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٨٨٩).

۞ ١٤ ـ الإخلاص في الحج:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ سئل أي العمل أفضل؟ فقال: «**إيمان بالله ورسوله**»، قيل: ثمّ ماذا؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»، قيل: ثمّ ماذا؟ قال: «**حجٌ مبرور**[١]»[٢].

قال ﷺ: «**من حج لله، فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أُمه**»[٣].

۞ ١٥ ـ الإخلاص في طلب الشهادة:

عن سهل بن حنيف ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سأل الله الشهادة بصدق، بلّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه**»[٤].

۞ ١٦ ـ الإخلاص في الرباط:

عن سلمان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأُجري عليه رزقه، وأمِن الفتّان**»[٥].

۞ ١٧ ـ الإخلاص في تجهيز الغزاة:

عن زيد بن خالد قال: قال ﷺ: «**من جهز غازياً في سبيل الله، فقد غزا، ومن خَلَف غازياً في سبيل الله في أهله بخير فقد غزا**»[٦].

---

(١) المبرور: هو الذي لا يرتكب صاحبه فيه معصية.
(٢) أخرجه البخاري: ٢٦، ومسلم: ٨٣.
(٣) أخرجه البخاري: ١٥٢١، ومسلم: ١٣٥٠.
(٤) أخرجه مسلم: ١٩٠٩.
(٥) أخرجه مسلم: ١٩١٣.
(٦) أخرجه البخاري: ٢٨٤٣، ومسلم: ١٨٩٥، وهذا لفظه.

١٨ ـ الإخلاص في الجهاد:

قال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله»[(١)].

وقال ﷺ: «ما من مكلوم يُكلم في سبيل الله، إلا جاء يوم القيامة وكلمه يُدمى، اللون لون دم[(٢)]، والريح ريح مِسك»[(٣)].

١٩ ـ الإخلاص في التوبة:

عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله يقبل توبة العبد ما لم يُغرغِر[(٤)]»[(٥)].

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أنّ نبي الله ﷺ قال: «**كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض؛ فدُلَّ على راهب.**

فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمّل به مائة، ثمّ سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟

انطلق إلى أرض كذا وكذا؛ فإن بها أُناساً يعبدون الله ـ تعالى ـ فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء.

---

(١) أخرجه البخاري: ٢٨١٠، ومسلم: ١٩٠٤.

(٢) قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ: «والحكمة في مجيئه يوم القيامة على هيئته؛ أن يكون معه شاهِدُ فضيلته وبذْله نفسه في طاعة الله ـ تعالى ـ».

(٣) أخرجه البخاري: ٥٥٣٣، ومسلم: ١٨٧٦.

(٤) أي ما لم تبلُغ روحُه حلقومه، فيكون بمنزلة الشيء الذي يتغرغر به المريض» «النهاية».

(٥) أخرجه ابن ماجه والترمذي وغيرهما، وحسنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٤٣).

فانطَلق حتى إذا نصَف الطريق[1] أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً إلى الله ـ تعالى ـ وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي؛ فجعلوه بينهم ـ أي حكَماً ـ فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة»[2].

٢٠ ـ الإخلاص في الاستغفار:

قال ﷺ: «سيد الاستغفار أن تقول: اللَّهم أنت ربي لا إلٰه إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرّ ما صنعت، أبوء[3] لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

قال: ومن قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة»[4].

٢١ ـ الإخلاص في البكاء:

وقد تقدّم الحديث: «سبعة يظلهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه» وفيه: «ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه».

٢٢ ـ الإخلاص في الذكر: للحديث السابق: «ورجل ذكَر الله خالياً...».

---

(١) أي: بلغ نصفها.

(٢) أخرجه البخاري: ٣٤٧٠، ومسلم: ٢٧٦٦ واللفظ له.

(٣) أي: أقرّ وأعترف.

(٤) أخرجه البخاري: ٦٣٠٦.

۩ ٢٣ ـ الإخلاص في الصدق:

قال ﷺ: «إنْ تصدق الله يصدقك»[(١)].

۩ ٢٤ ـ الإخلاص في الصبر:

قال ﷺ: «يقول الله ـ تعالى ـ: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء؛ إذا قبضْتُ صفيه من أهل الدنيا ثمّ احتسبه إلا الجنة»[(٢)].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «سألتُ رسول الله ﷺ عن الطاعون؛ فأخبَرني أنه: عذابٌ يبعثه الله ـ تعالى ـ على من يشاء، فجعله الله ـ تعالى ـ رحمة للمؤمنين، فليس من عبد يقع في الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان مثل أجر شهيد»[(٣)].

۩ ٢٥ ـ الإخلاص في التوكل:

عن رسول الله ﷺ: «أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بالشهداء أُشهدهم، فقال: كفى بالله شهيداً، قال: فأتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلاً، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته، ثمّ التمس مركباً يركبها يقدم عليه للأجل الذي أجّله، فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار، وصحيفة منه إلى صاحبه، ثمّ زجّجَ موضعها، ثمّ أتى بها إلى البحر، فقال: اللّهم إنك تعلّم أني كنت تسلفت فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلاً، فقلت: كفى بالله كفيلاً، فرضي بك، وسألني شهيداً، فقلت: كفى بالله شهيداً، فرضي بك، وإني جَهَدْتُ أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له فلم

---

(١) أخرجه النسائي والحاكم وغيرهما، وصحح إسناده شيخنا ـ رحمه الله ـ في «أحكام الجنائز» (ص٨١).

(٢) أخرجه البخاري: ٦٤٢٤.

(٣) أخرجه البخاري: ٣٤٧٤.

أقدر وإني أستودعكها، فرمى بها إلى البحر، حتى ولجت فيه، ثمّ انصرف، وهو في ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه، ينظر لعل مركباً قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما نشَرها وجد المال والصحيفة، ثمّ قدم الذي كان أسلفه، فأتى بالألف دينار، وقال: والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه، قال: هل كنت بعثت إلي بشيء؟ قال: أخبرك أني لم أجد مركباً قبل الذي جئت فيه، قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت في الخشبة، فانصرف بالألف دينار راشداً»[١].

٢٦ ـ الإخلاص في الحب:

قال ﷺ: «من سرّه أن يجد حلاوة الإيمان، فليحب المرء لا يحبه إلا لله ـ عزّ وجلّ ـ»[٢].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ قال: «إن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله له على مَدرَجته[٣] ملكاً، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أُريد أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تَرُبُّها[٤]؟ قال: لا؟ غير أني أحببته في الله ـ عزّ وجلّ ـ قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه»[٥].

٢٧ ـ الإخلاص في الزيارة في الله:

للحديث السابق.

(١) أخرجه البخاري: ٢٢٩١.

(٢) أخرجه أحمد والبزار وغيرهما، وانظر «الصحيحة» (٢٣٠٠).

(٣) هي الطريق، سُمّيت بذلك؛ لأنّ النّاس يدرجون عليها، أي: يمضون ويمشون «شرح النووي».

(٤) ترُبُّها: أي: تقوم بإصلاحها، وتنهض إليه بسبب ذلك» «شرح النووي».

(٥) أخرجه مسلم: ٢٥٦٧.

۞ ٢٨ ـ الإخلاص في طاعة الوالدين:

وذلك لما تقدّم في حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة وهم في الغار، فدعوا الله بصالح أعمالهم، وكان مما قاله أحدهم: **«اللَّهمّ كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق[1] قبلهما أهلاً ولا مالا، فلبثت ـ والقدح على يدي ـ أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، والصبية يتضاغَون عند قدمي، فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللَّهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك؛ ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة».**

۞ ٢٩ ـ الإخلاص في ترك المنكر لله:

وذلك للحديث السابق كذلك؛ وذلك عندما قعد أحدهم بين رجلي ابنة عمه فقالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فانصرف عنها وهي أحب الناس إليه وقال: **«اللَّهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه»**، فانفرج جزء من الصخرة.

۞ ٣٠ ـ الإخلاص في أداء الأجر:

للحديث السابق أيضاً وقول الثالث: **«اللَّهم استأجرت أُجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمّرت أجره حتى كثُرت منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أدّ إلي أجري فقلت: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق فقال: يا عبد الله لا تستهزىء بي. فقلت: لا أستهزيء بك، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً، اللَّهم إنْ كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون».**

---

(١) أي: ما كنتُ أُقدّم عليهما أحداً في شُرب نصيبهما من اللبن الذي يشربانه، والغَبوق: شُرب آخر النهار مقابل الصَّبوح» «النهاية».

۞ ٣١ ـ الإخلاص في النية ولو لم يعمل إذا لم يستطع ذلك:

عن سهل بن حنيف ـ رضي الله عنه ـ قال: قال ﷺ: **«من سأل الله الشهادة بصدق، بلّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه»**[١].

۞ ٣٢ ـ الإخلاص في الزهد:

عن معاذ بن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال ﷺ: **«من ترك اللباس تواضعاً لله وهو يقدر عليه؛ دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق، حتى يُخَيَّر من أي حلل الإيمان شاء يلبسها»**[٢].

۞ ٣٣ ـ الإخلاص في التواضع:

للحديث السابق وهو قوله ﷺ: **«من ترك اللباس تواضعاً لله»**.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: **«وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله»**[٣].

۞ ٣٤ ـ الإخلاص في بناء المساجد:

عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال ﷺ: **«من بنى لله مسجداً يذكر فيه، بنى الله له بيتاً في الجنة»**[٤].

وعن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال ﷺ: **«من بنى مسجداً، يبتغي به وجه الله، بنى الله له مثله في الجنة»**[٥].

---

(١) أخرجه مسلم: ١٩٠٩، وتقدّم.
(٢) أخرجه الترمذي والحاكم وغيرهما، وانظر «الصحيحة» (٧١٨).
(٣) أخرجه مسلم: ٢٥١٨.
(٤) أخرجه ابن ماجه وابن حبان في «صحيحه»، وصححه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٧٠).
(٥) أخرجه البخاري: ٤٥٠، ومسلم: ٥٣٣.

٣٥ ـ الإخلاص في زيارة مسجد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ للتعلم والتعليم:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال ﷺ: **«من جاء مسجدي هذا؛ لم يأته إلا لخير يتعلّمه أو يعلّمه؛ فهو بمنزلة المجاهدين في سبيل الله، ومن جاء لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره»**(١).

٣٦ ـ البذْل لله والمنْع لله ـ سبحانه ـ:

عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن أحبّ لله، وأبغضَ لله، وأعطى لله، ومنَع لله؛ فقد استكمل الإيمان»**(٢).

وبهذا ينقص من إيمان المرء المسلم بقدر ما ينقص من هذه الأمور؛ فلْيزن العبد ذلك كله بهذا الميزان، وليقوّم كل معوجٍّ فيه.

٣٧ ـ الإخلاص في اتباع جنازة المسلم:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: **«من اتبع جنازة مسلم إيماناً واحتساباً، وكان معه حتى يُصلّي عليها ويفرغ من دفنها، فإنه يرجع من الأجر بقيراطين كلُّ قيراط مثل أحد، ومن صلّى عليها ثمّ رجع قبل أن تُدفن فإنه يرجع بقيراط»**(٣).

---

(١) أخرجه ابن ماجه والحاكم وغيرهما، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٨٧).

(٢) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٣٩١٥) وغيره، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ بطُرُقِه في «الصحيحة» (٣٨٠).

وعند الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٤٦) عن معاذ الجُهني ـ رضي الله عنه ـ أنّ النّبيّ ﷺ قال: **«مَن أعطى لله، ومنَع لله، وأحبّ لله، وأبغض لله، وأنكَح لله، فقد استكمل إيمانه»**، وانظر المصدر السابق.

(٣) أخرجه البخاري: ٤٧، ومسلم: ٩٤٥.

۩ ٣٨ ـ الإخلاص في إطعام الطعام:

قال ـ تعالى ـ في حق الأبرار المخلصين: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾[1].

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «أهديت لرسول الله ﷺ شاة، قال: «**اقسميها**»، فكانت عائشة إذا رجعت الخادم تقول: ما قالوا؟ تقول الخادم: قالوا: بارك الله فيكم، فتقول عائشة: وفيهم بارك الله، نردّ عليهم مثل ما قالوا، ويبقى أجرنا لنا[2]».

فإن من تمام إخلاص عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها لم تكن تنتظر شيئاً حتى الدعاء.

۩ ٣٩ ـ الإخلاص في الدعاء:

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾[3].

قال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ في «تفسيره»: «قال ابن جرير: «(**تضرعاً**): تذللاً واستكانة لطاعته (وخُفية): يقول: بخشوع قلوبكم وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه لا جهارا ومراءاة».

وقال ﷺ: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافلٍ لاهٍ**»[4].

❋ ❋ ❋

---

(١) الإنسان: ٨ ـ ٩.
(٢) أخرجه النسائي وغيره، وانظر «الكلم الطيب» (٢٣٨) بتحقيق شيخنا ـ رحمه الله ـ.
(٣) الأعراف: ٥٥.
(٤) تقدّم تخريجه.

في علاج الرياء والاستبراء منه

١ ـ معرفة عظمة الله ـ تعالى ـ وأسمائه وصفاته والإلمام بالتوحيد ما استطعت إلى ذلك سبيلاً:

اعلم ـ أخي المسلم ـ أن من أسباب الرياء هو تعظيم الناس ونقصان تعظيم الله ـ تعالى ـ في النفس، فمن أحسن أنواع العلاج لهذا الداء القاتل هو معرفتك لأنواع التوحيد، وهذا بحثه واسع، نورد طرفاً يسيراً منه، ذكرى وعبرة:

أ ـ إن الله ـ تعالى ـ وحده هو الذي يكتُب النّفع والضّرَر متى شاء، فلتطرح من نفسك الاعتقاد الفاسد بأن الناس ينفعونك ويضرونك متى شاؤوا ومتى أرادوا، وإنما يدخل الشيطان عليك ليجعلك تُزيِّن العبادة أمام الناس لظنك قدرتهم على النفع والضرر، فانظر ماذا يقول رسول الله ﷺ وقد علَّم هذا الحديث لابن عباس غلاماً: «**يا غلام إنّي أُعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهك، إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله، واعلم أنّ الأمّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك بشيء إلا قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفّت الصحف**»[(١)].

ب ـ اعلم أن الله ـ تعالى ـ سميع بصير، يراك ويسمعك ويعلم ما تخفي وما تعلن، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[(٢)].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾[(٣)]. وقال ـ سبحانه ـ: ﴿أَلَا

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وغيرهما، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «تخريج كتاب السّنة» (٣١٦).

(٢) الشورى: ١١.

(٣) العلق: ١٤.

يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾[(١)]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿أَوَ لَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(٢)]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[(٣)].

فما لي أراك تراقب الناس ولا تراقب الله وهو ـ سبحانه ـ مطلع عليك! ألا يكفيك اطلاعه عليك ـ سبحانه ـ وهو يقول: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[(٤)].

ج ـ اعلم أنّ الله ـ سبحانه ـ عظيم، فليعظمه قلبك وفؤادك، ولتتأمل عظمته ـ سبحانه ـ في خلقه في طائفة من الأحاديث:

عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال ﷺ: **«إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطّت[(٥)] السماء، وحُقَّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع، إلا وملك واضع جبهته لله ـ تعالى ـ ساجداً، والله لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصُعُدات[(٦)] تجأرون[(٧)] إلى الله»**[(٨)].

وقال ﷺ: **«ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلْقةٍ ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة»**[(٩)].

وعن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ قال ﷺ: **«أُذن لي أن أحدث**

---

(١) تبارك: ١٤.
(٢) العنكبوت: ١٠.
(٣) يونس: ٦١.
(٤) الزمر: ٣٦.
(٥) الأطيط: صوت الرحل والقتب وشبههما، ومعناه أن كثرة من في السماء من الملائكة العابدين قد أثقلتها حتى أطت. قاله النووي ـ رحمه الله ـ في «رياض الصالحين».
(٦) أي: الطُّرُقات.
(٧) أي: تستغيثون.
(٨) أخرجه الترمذي وابن ماجه وغيرهما، وانظر «الصحيحة» (١٧٢٢).
(٩) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب «العرش» وابن حبان في «صحيحه» وغيرهما، وانظر «الصحيحة» (١٠٩).

عن ملك من ملائكة الله ـ تعالى ـ من حملة العرش إنّ ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام»[١].

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«البيت المعمور في السماء السابعة، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثمّ لا يعودون إليه حتى تقوم الساعة»**[٢].

وفي رواية ثابتة: **«حيال**[٣] **الكعبة»**[٤].

٢ ـ معرفة ما في القبر[٥] من عذاب ونعيم:

اعلم أن من أسباب الرياء والشرك؛ عدم اهتداء القلب للخشية من عذاب القبر والنار وأهوال ما بعد الموت، ولما كان مجال ذلك واسعاً رأيت ذكر القليل القليل من الكثير الكثير، سائلاً الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يكون فيما أذكره عظة وعبرة، وإنني لأستند بهذا الرأي لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[٦]، فقد قرن ـ سبحانه وتعالى ـ التوفيق في العمل الصالح برجاء لقاء الله، فلا بد من معرفة ما يترتب على لقاء الله ـ تعالى ـ من نعيم وعذاب، وسعادة وشقاء، فإلى طائفة من هذا، وبالله ـ تعالى التوفيق ـ.

عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: خرجنا مع النّبيّ ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر؛ ولمّا يُلحد[٧]، فجلس رسول الله ﷺ [مستقبل القبلة]، وجلسنا حوله، وكأنّ على رؤوسنا الطّير،

(١) أخرجه أبو داود والطبراني في «الأوسط»، وانظر «الصحيحة» (١٥١).
(٢) أخرجه أحمد والحاكم وغيرهما، وانظر «الصحيحة» (٤٧٧).
(٣) حياله: أي بإزائه» «اللسان».
(٤) «الصحيحة» (٤٧٧) أيضاً.
(٥) وتفصيل ذلك في كتابي «القبر عذابه ونعيمه».
(٦) الكهف: ١١٠.
(٧) أي: لم يوضَع في لحده بعْدُ.

وفي يده عودٌ ينكت(١) في الأرض، [فجعل ينظر إلى السماء، وينظر إلى الأرض، وجعل يرفع بصره ويخفضه، ثلاثاً]، فقال: **استعيذوا بالله من عذاب القبر** مرتين أو ثلاثاً، [ثمّ قال: **اللَّهم إنّي أعوذ بك من عذاب القبر**] [ثلاثاً]، ثمّ قال: **إنّ العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة؛ نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه، كأنّ وجوههم الشمس، معهم كفنٌ من أكفان الجنة، وحَنُوطٌ(٢) من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مَدَّ البصر، ثمّ يجيء ملك الموت ـ عليه السلام ـ حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيّتها النفس الطّيبة** (وفي رواية: **المطمئنة**)**! اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان.**

قال: **فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السِّقَاءِ، فيأخذها** (وفي رواية: **حتى إذا خرجت روحه؛ صلّى عليه كلُّ ملكٍ بين السماء والأرض، وكلّ ملك في السماء، وفتحت له أبواب السماء، ليس من أهلِ باب إلاّ وهم يدعون الله أن يعرج بروحه من قبلهم**)، **فإذا أخذها؛ لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، [فذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾**، ويخرج منها كأطيب نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدت على وجه الأرض.

قال: **فيصعدون بها؛ فلا يمرّون ـ يعني ـ بها على ملإ من الملائكة إلاّ قالوا: ما هذا الروح الطّيّب؟ !فيقولون: فلان ابن فلان ـ بأحسن أسمائه التي كانوا يُسمُّونه بها في الدنيا ـ حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح لهم، فيشيّعه من كلّ سماء مُقرّبوها إلى السماء التي تليها، حتى يَنتهيَ به إلى السماء السابعة، فيقول الله ـ عزّ وجلّ ـ: اكتبوا كتاب عبدي في علّيين، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾؛ فيكتب كتابه في عِلِّيين، ثمّ يقال]: أعيدوه إلى الأرض؛ فإنّي [وعدتهم أنّي] منها خلقتهم وفيها أُعيدهم ومنها أُخرجهم تارةً أخرى.**

---

(١) أي: يضرب بطرفه الأرض، وذلك فِعل المفكّر المهموم «عون» (١٣/٦٣).

(٢) بفتح المهملة: ما يُخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصّة «النهاية».

قال: فـ [يُردّ إلى الأرض، و] تُعاد روحه في جسده، [قال: فإنّه يسمع خفق نعال أصحابه إذا ولّوا عنه] [مدبرين].

فيأتيه ملكان [شديدا الانتهار]، فـ [ينتهرانه و] يُجلسانه، فيقولان له: من ربّك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ. فيقولان له: ما عَمَلُك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به وصدّقت، فينتهره فيقول: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيُّك؟ وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن.

فذلك حين يقول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيّ محمد ﷺ، فينادي منادٍ في السماء: أنْ صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبِسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنّة، قال: فيأتيه من رَوْحِها وطِيبها، ويفسح له في قبره مدّ بصره.

قال: ويأتيه [وفي رواية: يُمَثَّلُ له] رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيّب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسُرُّك، [أبشر برضوانٍ من الله، وجنّاتٍ فيها نعيم مقيم]، هذا يومك الذي كُنت تُوعد، فيقول له: [وأنت ـ فبشّرك الله بخير] ـ من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير! فيقول: أنا عملك الصالح؛ [فوالله ما عَلِمْتُك إلا كنت سريعاً في طاعة الله، بطيئاً في معصية الله، فجزاك الله خيراً].

ثمّ يُفتح له باب من الجنة، وباب من النار، فيقال: هذا منزلك لو عصيت الله، أبدلك الله به هذا، فإذا رأى ما في الجنة قال: ربِّ! عجّل قيام الساعة؛ كيما أرجع إلى أهلي ومالي! [فيقال له: اسكن].

قال: وإنّ العبد الكافر (وفي رواية: الفاجر) إذا كان في انقطاع مَن الدنيا، وإقبال من الآخرة؛ نزل إليه من السماء ملائكة [غلاظ شداد]، سُود

الوجوه، معهم المُسُوح(١) [من النار]، فيجلسون منه مدّ البصر(٢)، ثمّ يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة! أخرجي إلى سَخَطٍ من الله وغضب، قال: فتفرَّق في جسده، فينتزعها كما يُنتزع السَّفُّود(٣) [الكثير الشُّعب] من الصّوف المبلول، [فتَقطَّعُ معها العروق والعصب]، [فيلعنه كلُّ ملك بين السماء والأرض، وكلُّ ملك في السماء، وتغلَق أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله ألا تعرج روحه من قِبلهم]، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدَعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المُسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفةٍ وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرّون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟! فيقولون: فلان ابن فلان ـ بأقبح أسمائه التي كان يُسمّى بها في الدنيا، حتى يُنتَهى به إلى السماء الدنيا، فيُستفتح له، فلا يُفتح له، ثمّ قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ(٤)﴾(٥) فيقول الله ـ عزّ وجلّ ـ: اكتبوا كتابه في سِجين(٦)؛ في الأرض السُّفلى، [ثمّ يقال: أعيدوا عبدي إلى الأرض؛ فإنّي وعدتهم أنّي منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أُخرجهم تارةً أخرى]، فتُطرح روحه [من السماء] طرحاً [حتى تقع في جسده] ثمّ قرأ: ﴿وَمَن

---

(١) جمع مِسح: ثوب من الشعر غليظ.

(٢) أي: منتهى بصره.

(٣) السُّفود: هو عود من حديد يُنظَّم فيه اللحم ليُشوى «الوسيط».

(٤) قال الحسن البصري وغيره: «حتى يدخل البعير في خرق الإبرة» «وكذا روى علي ابن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس» وقال مجاهد وعكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «إنّه كان يقرأها ﴿يَلِجَ الجُمَّل فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ بضم الجيم وتشديد الميم ـ الجُمّل ـ يعني: الحبل الغليظ في خرق الإبرة..» عن «تفسير ابن كثير» بحذف.
وهذا تعليق بالمستحيل؛ أي: أنهم لا يدخلون الجنة أبداً، وانظر ـ إن شئت ـ ما قاله البغوي في «تفسيره».

(٥) الأعراف: ٤٠.

(٦) قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في «تفسيره»: «والصحيح أنّ سجّيناً مأخوذ من السِّجن، وهو الضيق»، وقال في موطن آخر: «وهو يجمع الضيق والسفول».

يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾، فتعاد روحه في جسده، [قال: فإنّه ليسمع خفق نعال أصحابه إذا ولّوا عنه].

ويأتيه ملكان [شديدا الانتهار، فينتهرانه و] يُجلسانه، فيقولان له: من ربُّك؟ [فيقول: هاهْ هاهْ[1]! لا أدري! فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاهْ هاهْ! لا أدري]! فيقولان: فما تقول في هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فلا يهتدي لاسمه، فيُقال: محمد! فيقول: هاه هاه! لا أدري! [سمعت الناس يقولون ذاك! قال: فيقال: لا دَرَيتَ]، [ولا تلوت]، فينادي مُنادٍ من السماء: أنْ كذب، فأفرشوا له من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرّها وسَمُومها[2]، ويُضيَّق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه (وفي رواية: ويُمثل له) رجلٌ قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومُك الذي كنت توعد، فيقول: [وأنت فبشّرك الله بالشرّ] من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشّر! فيقول: أنا عملك الخبيث؛ [فوالله ما علمت إلا كنت بطيئاً عن طاعة الله، سريعاً إلى معصية الله]، [فجزاك الله شرّاً! ثمّ يُقيّض له أعمى أصمُّ أبكم في يده مِرزَبَة[3] لو ضُرِبَ بها جبل كان تراباً، فيضربه ضربة حتى يصير بها تراباً، ثمّ يعيده الله كما كان، فيضربه ضربة أخرى، فيصيح صيحة يسمعه كلّ شيء إلا الثقلين، ثمّ يفتح له باب من النار، ويُمهّد من فُرُش النار]، فيقول: ربِّ! لا تُقم الساعة»[4].

---

(١) جاء في «عون المعبود» (٦٥/١٣): «هاهْ هاهْ ـ بسكون الهاء فيهما بعد الألف ـ: كلمة يقولها المتحيّر الذي لا يقدر ـ من حَيرته للخوف أو لعدم الفصاحة ـ أن يستعمل لسانه فيه».

(٢) الريح الحارّة.

(٣) المِرزَبة ـ بالتخفيف ـ: المطرقة الكبيرة التي تكون للحدّاد» «النهاية».

(٤) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٣٩٧٩)، والحاكم، والطيالسي، وأحمد وغيرهم، وانظر «أحكام الجنائز» (ص١٩٨).

۞ ٣ ـ معرفتك للأحاديث التي تبين عذاب النار:

اعلم أخي المسلم أن هذا الباب واسع، وكلما ازدادت معرفة المسلم فيه، ازداد خوفه من ربه وإخلاصه له ـ سبحانه ـ ولكنّي سأذكر الشيء اليسير منه سائلاً الله ـ تبارك وتعالى ـ أن ينفع به عباده:

قال ﷺ: **«ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع»**[(١)].

وقال ﷺ: **«ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أُحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث»**[(٢)].

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«يرسل البكاء على أهل النار، فيبكون حتى تنقطع الدموع، ثمّ يبكون الدم حتى يصير في وجوههم كهيئة الأخدود؛ لو أرسلت فيه السفن لجرت»**[(٣)].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة»**[(٤)].

وعن سمرة بن جندب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه إلى حجزته[(٥)] ومنهم من تأخذه إلى ترقوته[(٦)]»**[(٧)].

وقال ﷺ: **«يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب[(٨)] عرقهم في الأرض**

---

(١) أخرجه البخاري: ٦٥٥١، ومسلم: ٢٨٥٢.
(٢) أخرجه مسلم: ٢٨٥١.
(٣) أخرجه ابن ماجه وغيره، وانظر «الصحيحة» (١٦٧٩).
(٤) أخرجه البخاري: ٤٧٢٩، ومسلم: ٢٧٨٥.
(٥) الحجزة: معقد الإزار تحت السرة.
(٦) هي العظم الذي عند ثغرة النحر.
(٧) أخرجه مسلم: ٢٨٤٥.
(٨) أي: ينزل ويغوص في الأرض.

سبعين ذراعاً ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم»[١].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كنّا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة[٢] فقال النبيّ ﷺ: **«تدرون ما هذا؟»**.

قال: قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: **«هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفاً، فهو يهوي في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها فسمعتم وجبَتها»**[٣].

وعن عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ قال: قال ﷺ: **«ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان: فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة»**[٤].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبيّ ﷺ قال: **«لمّا خلق الله الجنّة والنار، أرسل جبريل إلى الجنّة، فقال: انظر إليها، وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها.**

قال: **فجاء فنظر إليها؛ وإلى ما أعدَّ الله لأهلها فيها، قال: فرجع إليه، قال: وعزَّتك! لا يسمع بها أحدٌ إلا دخلَها! فأمر بها فحُفَّت بالمكاره. فقال: ارجع إليها؛ فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها.**

قال: **فرجع إليها فإذا هي قد حُفَّت بالمكاره، فرجع إليه فقال: وعزَّتك لقد خفتُ أن لا يدخلها أحد! وقال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها.**

قال: **فنظر إليها، فإذا هي يركب بعضها بعضاً، فرجع إليه فقال:**

---

(١) أخرجه البخاري: ٦٥٣٢، ومسلم: ٢٨٦٣.
(٢) هي صوت السقطة.
(٣) أخرجه مسلم: ٢٨٤٤.
(٤) أخرجه البخاري: ٧٥١٢، ومسلم: ١٠١٦.

وعزَّتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فأمر بها فحُفَّت بالشهوات، فقال: ارجع إليها، فرجع إليها، فقال: وعزَّتك! لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها»[١].

٤ ـ معرفتك ـ ما استطعت ـ لما أعد الله ـ تعالى ـ للمتقين في الجنة:

إنّ من أسباب الرياء والشرك، الشعور باللذة والتنعم بإعجاب الناس ومدحهم وثنائهم، وتقديم ذلك على نعيم الجنة، نسأل الله العافية ـ وذلك تابع لعدم معرفة قيمة الجنة، ولذا رأيت من الضروري أن أذكر شيئاً من الأحاديث في نعيم الجنة وما أعد الله للمتقين فيها، عسى أن ينفع الله ـ تعالى ـ بها.

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة، كان حمْله ووضْعه وسنّه في ساعة واحدة، كما يشتهي»**[٢].

وقال ﷺ: **«يدخل الجنة من أُمتي زمرة، وهم سبعون ألفا، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر»**[٣].

وعن أنس عن النبيّ ﷺ قال: **«يُعطى المؤمن في الجنّة قُوّة كذا وكذا من الجماع، قيل: يا رسول الله! أوَ يُطيق ذلك؟ قال: يُعطى قوّة مائة»**[٤].

وقال ﷺ: **«الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة»**[٥].

---

(١) أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٦٦٩).

(٢) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٧٧)، وصحح إسناده شيخنا ـ رحمه الله ـ في «المشكاة» (٥٦٤٨).

(٣) أخرجه البخاري: ٦٥٤٢، ومسلم: ٢١٦.

(٤) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٥٩)، وصحح إسناده شيخنا ـ رحمه الله ـ في «المشكاة» (٥٦٣٦).

(٥) أخرجه أحمد والترمذي وغيرهما، وحسنه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٧١١).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنّ في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض**»(١).

وقال ﷺ: «**طوبى شجرة في الجنة، مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها**»(٢).

عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «**يأكل أهل الجنة فيها ويشربون، ولا يتغوّطون، ولا يمتخطون، ولا يبولون، لكن طعامهم ذاك جُشاء كرشح المسك يُلهمون التسبيح والحمد، كما يُلهمون النفَّس**»(٣).

وقال ﷺ: «**إن في الجنة لشجرة يسير الراكب الجواد(٤) أو المضمّر(٥) السريع مائة سنة وما يقطعها**»(٦).

وقال ﷺ: «**إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها، وآخر أهل الجنة دخولاً؛ رجل يخرج من النار حبواً، فيقول الله: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى فيقول: اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا، فيقول: تسخر منّي، أو تضحك مِنّي وأنت الملِك، فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه وكان يقال: ذلك أدنى أهل الجنة منزلة**»(٧).

وقال ﷺ: «**إنّ في الجنة لسوقاً(٨) يأتونها كل جمعة فتهب ريح**

---

(١) أخرجه البخاري: ٢٧٩٠.
(٢) أخرجه أحمد وابن حبان وغيرهما، وانظر «الصحيحة» (١٩٨٥).
(٣) أخرجه مسلم: ٢٨٣٥.
(٤) الجواد: الفرس، يقال: جاد الفرس إذا صار فائقاً» «فتح».
(٥) تضمير الخيل: هو أن يظاهر عليها بالعلف حتى تسمن؛ ثمّ لا تُعلف إلا قوتاً لتخفّ عند الغزو أو السباق» «النهاية» ملتقطاً.
(٦) أخرجه البخاري: ٦٥٥٣، ومسلم: ٢٨٢٧.
(٧) أخرجه البخاري: ٦٥٧١، ومسلم: ١٨٦.
(٨) أي: يجتمعون فيه كما يجتمع الناس في الدنيا في أسواقها.

الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسناً وجمالاً، فيرجعون إلى أهليهم، وقد ازدادوا حسناً وجمالاً فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً»[١].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ قال: «**من يدخل الجنة ينعَم ولا يبأس لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه**»[٢].

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ عن النّبيّ ﷺ قال: «**يُنادي مُنادٍ أنّ لكم أن تصحُّوا فلا تسقموا أبداً، وإنّ لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإنّ لكم أن تشبُّوا فلا تهرموا أبداً، وإنّ لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، فذلك قوله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾**»[٣].

٥ ـ تذكُّر الموت وقِصَر الأمل:

قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾[٤].

وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾[٥].

وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[٦].

---

(١) أخرجه مسلم: ٢٨٣٣.
(٢) أخرجه مسلم: ٢٨٣٦.
(٣) أخرجه مسلم: ٢٨٣٧.
(٤) آل عمران: ١٨٥.
(٥) لقمان: ٣٤.
(٦) المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠.

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «**كن في الدنيا غريب أو عابر سبيل**».

وكان ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[(١)].

٦ ـ معرفة قيمة الدنيا وعدم بقائها:

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾[(٢)].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾[(٣)].

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنّ النّبيّ ﷺ قال: «**اللّهم لا عيش إلا عيش الآخرة**»[(٤)].

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَتبعُ الميت ثلاثة؛ فيرجع اثنان ويبقى معه واحد، يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله**»[(٥)].

وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة ثمّ يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى**

(١) أخرجه البخاري: ٦٤١٦.
(٢) الكهف: ٤٥.
(٣) فاطر: ٥.
(٤) أخرجه البخاري: ٣٧٩٥، ومسلم: ١٨٠٥.
(٥) أخرجه البخاري: ٦٥١٤، ومسلم: ٢٩٦٠.

بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيُصبغ صبغة في الجنة فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك شدّة قط؟ فيقول: لا والله يا ربّ ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدّة قط»[١].

فلتعلم إذن أنّ صبغة واحدة في النار، تنسيك كل تلذذك بالرياء وحبك ثناء الناس عليك.

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ مرّ بالسوق داخلاً من بعض العالية والناس كَنَفَته[٢] فمر بجدي أَسَكَّ[٣] ميت فتناوله فأخذ بأذنه ثمّ قال: «**أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم؟**» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به؟ ثمّ قال: «**أتحبون أنه لكم؟**» قالوا: والله لو كان حياً كان عيباً أنه أسك فكيف وهو ميت؟ فقال: «**فو الله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم**»[٤].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**»[٥].

فإذا أردت أن تكون في سجن الدنيا وجنة الآخرة فاسجن نفسك عن الرياء وحب السمعة والشهرة.

عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شَربة ماء**»[٦].

۞ ٧ ـ الدعاء:

وهذا العلاج من أقوى الوسائل للقضاء على الرياء والشرك، فلا

---

(١) أخرجه مسلم: ٢٨٠٧.
(٢) أي: عن جانبه.
(٣) صغير الأذن.
(٤) أخرجه مسلم: ٢٩٥٧.
(٥) أخرجه مسلم: ٢٩٥٦.
(٦) أخرجه الترمذي وغيره، وانظر «الصحيحة» (٩٤٣).

تتوقف عن الدعاء ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وتحرّ ـ ما استطعت ـ الساعات المستجابة مع مراعاة آداب الدعاء.

وقد علَّمنا رسول الله ﷺ دعاء يذهب عنّا كبار الشرك وصغاره.

عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك؛ فإنه أخفى من دبيب النّمل، فقال له من شاء الله أن يقول: وكيف نتّقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله! قال: قولوا: اللَّهمّ إنّا نعوذُ بك من أنْ نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه»**[١].

۩ ٨ ـ خوفك أن تكون فترة الرياء خاتمة عملك:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّما يُبعث الناس على نياتهم»**[٢].

وعن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُبعث كل عبد على ما مات عليه»**[٣].

۩ ٩ ـ الإكثار من أعمال الخير غير المشاهدة وعدم الإخبار عنها لغير ضرورة[٤]:

مثل: قيام الليل، البكاء خالياً من خشية الله ـ تعالى ـ صوم النافلة،

---

(١) أخرجه أحمد والطبراني، وحسنه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه، وصححه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٣).

(٣) أخرجه مسلم: ٢٨٧٨.

(٤) ومن الأمثلة على ضرورة الإخبار، أنه من دعي لطعام وكان صائماً فإنه أُمِر أن يقول: إني صائم، يوضح ذلك ما أخرجه مسلم (١١٥٠) عن زهير بن حرب أنّ رسول الله ﷺ قال: **«إذا دعي أحدكم إلى طعام وهو صائم، فليقل: إني صائم»**.

صدقة السر، الدعاء للإخوة في الله بظهر الغيب، صلاتك لما سوى الفرائض في البيت.

۩ ١٠ ـ مصاحبة من ترى فيهم الإخلاص والصلاح والتقوى:

عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَثَل الجليس الصالح والجليس السوء، كمثَل صاحب المسك وكِيرِ[1] الحدّاد، لا يعدَمُك من صاحب المسك، إما أن تشتريه، أو تجدُ ريحه، وكير الحداد، يحرق بيتك أو ثوبك، أو تجد منه ريحاً خبيثة**»[2].

فالمخلص لا يعدمك من إخلاصه شيء، والمرائي والمشرك إما يحرقك في نار جهنّم يوم القيامة، أو تجد منه ريح الرياء النتنة التي تزيدك حباً وولعاً بالرياء والشرك أعاذنا الله منه.

۩ ١١ ـ الخوف من الرياء:

قال ـ تعالى ـ في حق طائفة من عباده الصالحين: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾[3] فالخوف من المعاصي هو الذي نفعهم بتوفيق الله ـ تعالى ـ والذي يخشى الشيء يظل حذراً منه فينجو، أما من يأمن ذلك؛ فإنه يقع فيه، لذلك كان نبينا محمد ﷺ ـ يخشى الشرك فقد كان أكثر دعائه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**».

فعن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «**كان أكثر دعائه ﷺ: «يا مقلب القلوب ثبّت قلبي على دينك**»[4].

---

(١) الكير بالكسر: هو المبنيُّ من الطين. وقيل: الزِّق الذي ينفخ به النار. «النهاية».
(٢) أخرجه البخاري: ٢١٠١، ومسلم: ٢٦٢٨.
(٣) الطور: ٢٥ ـ ٢٨.
(٤) أخرجه الترمذي وأحمد وغيرهما، وانظر «الصحيحة» (٢٠٩١).

١٢ ـ الفرار من ذم الله:

ومن أسرار الرياء الفرار من ألم ذم الخلق والعباد، فهل أنت صادق في الفرار من الذم؟ ففرّ إذن من ذم الله لك، فإنك إنْ أرضيت الناس بغضبه؛ كرهك وغضب عليك، آلناس تخشى غضبهم؟ فالله أحق أن تخشى غضبه، وأيهما تقدّم، خوفك ذمِ الناس؟ أم خوفك ذم الله؟ وانظر قول الله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾(١) ثمّ اختر ما تشاء وحسابك على الله ـ تعالى ـ.

١٣ ـ حبك أن يذكرك الله ـ تعالى ـ وتقديم ذلك على حب ذِكر الخلق لك:

قال ـ سبحانه ـ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾(٢).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله ـ تعالى ـ: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكَرني، فإنْ ذكَرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم وإن تقرّب إليّ شبراً، تقرّبت إليه ذراعاً، وإن تقرّب إليّ ذراعاً، تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**»(٣).

ألا يسرك أن يذكرك الله ـ تعالى ـ عند ملأ أفضل من الملأ الذين يحيون على الأرض؟ أم هل فضلت ذِكر الناس على ذِكر الله، وفضلت الناس على الملائكة؟

١٤ ـ معرفة ما ينفر منه الشيطان:

إن الشيطان منبع الرياء والشرك، والشر من نشاطه ـ نعوذ بالله منه ـ وقد تقدّم معنا حضوره في كل شيء من شأننا، وإرساله السرايا.

* * *

(١) النحل: ١٧.
(٢) البقرة: ١٥٢.
(٣) أخرجه البخاري: ٧٤٠٥، ومسلم: ٢٦٧٥.

فيما ينفر منه الشيطان

١ ـ عند قولك: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرّة:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلّ شيء قدير، في يوم مائة مرّة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومُحيَتْ عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك**»[(1)].

٢ ـ قراءة آية الكرسي عندما تأوي إلى الفراش:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان؛ فأتاني آتٍ فجعل يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ ـ فذكر الحديث فقال: ـ إذا أوَيت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربُك شيطان حتى تُصبح، فقال النّبيّ ﷺ: «**صدقك وهو كذوب، ذاك شيطان**»[(2)].

٣ ـ إذا رأى ما يكرهه ونفث عن يساره ثلاث مرات وتعوذ بالله من شر ما رأى:

عن أبي قتادة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت النّبيّ ﷺ يقول: «**الرُّؤيا من الله، والحلم من الشيطان، فإذا رأى أحدكم شيئاً يكرهه فلينفث حين يستيقظ ثلاث مرات، ويتعوّذ من شرّها، فإنها لا تضرُّه.**

وقال أبو سلمة: فإن كنت لأرى الرؤيا أثقل عليّ من الجبل، فما هو إلا أن سمعتُ هذا الحديث فما أبالها»[(3)].

---

(١) أخرجه البخاري: ٣٢٩٣، ومسلم: ٢٦٩١.
(٢) أخرجه البخاري: ٣٢٧٥.
(٣) أخرجه البخاري: ٥٧٤٧، ومسلم: ٢٢٦١.

وعنه ـ رضي الله عنه ـ أيضاً قال: لقد كنتُ أرى الرؤيا فتُمرضني حتى سمعت أبا قتادة يقول: وأنا كنتُ أرى الرؤيا تمرضني؛ حتى سمعت النّبيّ ﷺ يقول: **«الرؤيا الحسنة من الله، فإذا رأى أحدكم ما يحبُّ فلا يُحدّث به إلا من يحب، وإذا رأى ما يكره فليتعوّذ بالله من شرّها ومن شرّ الشيطان، وليتفل ثلاثاً ولا يُحدّث بها أحداً، فإنها لن تضرّه»**[(١)].

٤ ـ عند الخروج من البيت وقولك: **«بسم الله، توكّلت على الله، لا حول ولا قوّة إلا بالله»**.

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قال إذا خرج من بيته: بسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوّة إلا بالله ـ تعالى ـ يقال له: كفيت، ووقيت، وهديت وتنحّى عنه الشيطان، فيقول لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي»**[(٢)].

٥ ـ ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ عند دخولك المنزل وعند الطعام:

عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت النّبيّ ﷺ يقول: **«إذا دخل الرجل بيته، فذكر الله ـ تعالى ـ عند دخوله، وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله ـ تعالى ـ عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله ـ تعالى ـ عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء»**[(٣)].

٦ ـ عند دخولك المسجد وقولك: **«أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وبسلطانه القديم من الشيطان الرجيم»**.

عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النّبيّ ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد قال: **«أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وبسلطانه القديم**

---

(١) أخرجه البخاري: ٧٠٤٤، ومسلم: ٢٢٦١.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الكلم الطيب» (٥٨).

(٣) أخرجه مسلم: ٢٠١٨.

من الشيطان الرجيم، قال: فإذا قال ذلك، قال الشيطان: حُفظ مني سائر اليوم»[١].

٧ ـ عند النداء بالصلاة:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضُراط حتى لا يسمع، فإذا قضي الأذان أقبل، فإذا ثُوِّب**[٢] **بها أدبر، فإذا قُضي التثويب أقبل حتى يَخْطُرَ بين المرء ونفسه يقول: اذكر كذا وكذا ـ ما لم يكن يذكر ـ حتى يظلّ الرجل إن يدري كم صلّى، فإذا لم يدرِ أحدكم كم صلّى ـ ثلاثاً أو أربعاً ـ فليسجد سجدتين وهو جالس»**[٣].

٨ ـ عند الاستعاذة منه:

لقول الله ـ سبحانه ـ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٦﴾[٤].

٩ ـ عند قولك في الصلاة: «أعوذ بالله منك، ألعنك بلعنة الله ثلاثاً».

لما رواه أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قام رسول الله ﷺ فسمعناه يقول: «**أعوذ بالله منك**»، ثمّ قال: «**ألعنك بلعنة الله ثلاثاً وبسط يده كأنه يتناول شيئاً**»، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله قد: سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك، قال: «**إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار؛ ليجعله في وجهي فقلت: أعوذ بالله منك، ثلاث مرات، ثمّ قلت: ألعنك بلعنة الله التامّة فلم يستأخر ثلاث مرات، ثمّ أردت أخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً**

---

(١) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٤٨٥)، وصحح إسناده شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الكلم الطيب» (٦٥).

(٢) التثويب: إقامة الصلاة» «النهاية».

(٣) أخرجه البخاري: ١٢٣١، ومسلم: ٣٨٩.

(٤) فصلت: ٣٦.

يلعب به وِلدان أهل المدينة»[١].

وفي حديث آخر عن عثمان بن أبي العاص قلت: يا رسول الله، إن الشيطان حال بيني وبين صلاتي قراءتي يلْبِسها عليّ؟ فقال ﷺ: **«ذاك شيطان يقال له: خِنزَب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثاً، قال: ففعَلت ذلك فأذهبه الله عني»**[٢].

١٠ ـ إذا وجد العبد في نفسه شيئاً وقال: **«هو الأول والآخر، والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم»**.

عن أبي زميل قلت لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما شيء أجده في نفسي ـ يعني شيئاً من شك ـ فقال لي: **«إذا وجدت في نفسك شيئاً من ذلك فقل: (وذكره)»**[٣].

١١ ـ عند وقوع المصيبة بك وقولك: قدر الله وما شاء فعل، لما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَرُ اللهِ وما شاء الله فعل فإنّ (لو) تفتح عمل الشيطان»**[٤].

١٢ ـ قولك عند الجماع: «بسم الله اللّهم جنّبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا»:

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النّبيّ ﷺ قال: **«لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: بسم الله، اللّهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فقضي بينهما ولد لم يَضُرَّه»**[٥].

---

(١) أخرجه مسلم: ٥٤٢.
(٢) أخرجه مسلم: ٢٢٠٣.
(٣) أخرجه أبو داود، وحسن إسناده ـ شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الكلم الطيب» (١٣٥).
(٤) أخرجه مسلم: ٢٦٦٤.
(٥) أخرجه البخاري: ١٤١، ومسلم: ١٤٣٤.

١٣ ـ عند قولك في حالة الغضب: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»:

عن سليمان بن صُرَد قال: كنت جالساً مع النّبيّ ﷺ ورجلان يستبّان، فأحدهما قد احمرّ وجهه، وانتفخت أوداجه، فقال النّبيّ ﷺ: «**إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان، ذهب عنه ما يجد**»(١).

١٤ ـ عند قولك: بسم الله:

عن أبي المليح عن أبيه ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت رديف النّبيّ ﷺ فعثر بعيرنا، فقلت: تَعِس الشيطان، فقال لي النّبيّ ﷺ: «**لا تقل تَعِس الشيطان؛ فإنه يعظُم حتى يصير مثل البيت، ويقول: بقوتي، ولكن قُل: بسم الله؛ فإنه يصغر حتى يصير مثل الذُّباب**»(٢).

١٥ ـ عند دعائك بالبركة لما يعجبك:

لما ثبت عن النّبيّ ﷺ أنه قال: «**إذا رأى أحدكم ما يعجبه في نفسه أو ماله، فليبرّك عليه فإن العين حق**»(٣).

١٦ ـ عند قراءتك المعوذتين: فعن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان، وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان، فلما نزلت أخذ بهما وترك ما سواهما»(٤).

١٧ ـ عند سجود التلاوة:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قرأ**

---

(١) أخرجه البخاري: ٣٢٨٢، ومسلم: ٢٦١٠.

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي في «اليوم والليلة» والطبراني والحاكم، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٢٨).

(٣) أخرجه ابن السني وأحمد والحاكم مختصراً، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الكلم الطيب» (٢٤٣).

(٤) أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وصحح إسناده شيخنا ـ رحمه الله ـ في «المشكاة» (٤٥٦٣)، وانظر «الكلم الطيب» (٢٤٦).

ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي يقول: **يا ويله أُمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبَيْتُ فلي النار**»[١].

١٨ ـ عند قراءتك سورة البقرة:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة**»[٢].

١٩ ـ عند قراءة القرآن:

خرج رسول الله ﷺ ليلة فإذا هو بأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ يصلّي، يخفض من صوته، ومرّ بعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وهو يصلّي رافعاً صوته، فلما اجتمعا عند النّبيّ ﷺ قال: «يا أبا بكر مررت بك وأنت تصلّي تخفض من صوتك قال: قد أسمعتُ من ناجيت يا رسول الله، وقال لعمر: مررت بك وأنت تصلّي رافعاً صوتك؟ فقال: يا رسول الله، أوقظ الوسنان[٣] وأطرد الشيطان، فقال النّبيّ ﷺ: «**يا أبا بكر ارفع صوتك شيئاً**»، وقال لعمر: «**اخفض من صوتك شيئاً**»[٤].

٢٠ ـ عند تحريك السبابة في الصلاة: ـ فقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يحرك إصبعه يدعو بها[٥] ويقول: «**لهي أشد على الشيطان من الحديد** يعني السبابة»[٦]، وسئل الإمام أحمد هل يشير الرجل بإصبعه في الصلاة؟ قال: نعم، شديداً»[٧].

---

(١) أخرجه مسلم: ٨١.

(٢) أخرجه مسلم: ٧٨٠.

(٣) الوسنان: أي النائم الذي ليس بمستغرقٍ في نومه. والوسن: أول النوم. «النهاية».

(٤) أخرجه أبو داود والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، وانظر «صفة الصلاة» (ص١٠٨).

(٥) أخرجه أبو داود والنسائي وابن الجارود في «المنتقى» وغيرهم، وهو في «صفة الصلاة» (ص١٥٨).

(٦) أخرجه أحمد والبزار وغيرهما، وانظر «صفة الصلاة» (ص١٥٩).

(٧) ذكره ابن هانىء في «مسائله عن الإمام أحمد»، وهو في «صفة الصلاة» (ص١٥٩).

٢١ ـ **عند الساعات والأحوال والأوضاع المستجابة**، وتفصيل ذلك في كتابي الدعاء فليراجع ذلك من أراد التوسع.

***

من الثمرات الحاصلة من الإخلاص لله ـ تعالى ـ

١ ـ **نصر الأمّة**: لقوله ﷺ: «**إنما ينصر الله هذه الأمّة بضعيفها، بدعوتهم، وصلاتهم، وإخلاصهم**»[1].

٢ ـ **نجاتك من عذاب الآخرة ورفع المنزلة في الآخرة**، والنصوص في ذلك كثيرة منها:

قوله ـ تعالى ـ في حق طائفة من المخلصين: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾[2].

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثمّ الذين يلونهم على أشد كوكب درّيٍّ في السماء إضاءة: لا يبولون، ولا يتغوطون: ولا يتفلون، ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم[3] الألُوَّة ـ**

---

(١) أخرجه النسائي وغيره، وهو في «صحيح البخاري»: (٢٨٩٦) دون ذكر الإخلاص، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦).

(٢) الإنسان: ٨ ـ ١٩.

(٣) مجامرهم: جمع مِجْمَر ومُجمرَ، فالمجمر بكسر الميم: هو الذي يوضع فيه النار للبخور، والمجمر بالضم: هو الذي يُتبخّر به وأُعد له الجمر، وهو المراد في هذا الحديث: أي أن بخورهم بالألُوّة وهو العود» «النهاية».

الألَنجوج: عود الطيب ـ وأزواجهم الحور العين، على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعاً في السماء»(١).

٤ ـ الإنقاذ من الضلال في الدنيا، ومن الأمثلة على ذلك قصة يوسف ـ عليه السلام ـ المتقدّمة.

٥ ـ زيادة الهدى، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾(٢).

٦ ـ حب أهل السماء المخلص، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال ﷺ: **«إذا أحب الله ـ تعالى ـ عبداً نادى جبريل: إن الله ـ تعالى ـ يحب فلاناً فأحبَّه، فيحبّه جبريل فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء، ثمّ يوضع له القَبول في أهل الأرض»**(٣).

٧ ـ وضع القَبول للمخلص في الأرض، للحديث السابق.

٨ ـ الصيت الطيب عند الناس، للحديث السابق، ثمّ لقوله ﷺ: **«ما من عبد إلا وله صيت في السماء، إذا كان صيته في السماء حسناً وُضع في الأرض حسناً، وإذا كان صيته في السماء سيئاً وُضع في الأرض سيئاً»**(٤).

٩ ـ تفريج كروب الدنيا، ومن الأمثلة على ذلك قصة الثلاث الذين كانوا في الغار.

١٠ ـ طمأنينة القلب والشعور بالسعادة، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾(٥).

١١ ـ تزيين الإيمان في النفس، وكُره الفسوق والعصيان، قال الله ـ

---

(١) أخرجه البخاري: ٣٣٢٧، ومسلم: ٢٨٣٤.
(٢) الكهف: ١٣.
(٣) أخرجه البخاري: ٦٠٤٠، ومسلم: ٢٦٣٧.
(٤) أخرجه البزار وغيره، وانظر «الصحيحة» (٢٢٧٥).
(٥) الرعد: ٢٨.

تعالى ـ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧﴾[1]. وقد تقدّم معنا كيف كرّه الله ـ تعالى ـ ليوسف ـ عليه السلام ـ الزنا والفسوق والعصيان، وكيف حبّب إليه الإيمان فكان السجن أحبّ إليه من نيله وطره بالحرام.

١٢ ـ التوفيق لمصاحبة أهل الإخلاص، وصحبة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ رسول الله ﷺ، وبعضهم بعضاً، من أوضح الأدلة على ذلك.

١٣ ـ تحمل الصعاب في الدنيا مهما اشتدت، ومن ذلك ثباته ﷺ، وثبات الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ والسيرة مليئة بالأمثلة.

١٤ ـ حسن الخاتمة، ومن ذلك حديث الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً ثمّ أراد أن يتوب، فبسبب إخلاصه لله ـ تعالى ـ في التوبة، قبض وهو مقبل بقلبه إلى الله ـ تعالى ـ.

١٥ ـ استجابة الدعاء[2]، وقد تقدّم في قصة الغلام المؤمن استجابات كثيرة لأدعيته وكذلك الثلاثة الذين في الغار، وباب هذا واسع.

١٦ ـ التنعم في القبر والبُشرى بالسرور، وقد ذكرتُ في معالجة الرياء والاستبراء منه عن عذاب القبر ونعيمه من حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ وكيف يتمثل العمل الصالح في صورة رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، ويقول: أنا عملك الصالح وهو عندما يبشر يقول: أبشر بالذي يسرك[3].

* * *

(١) الحجرات: ٧.

(٢) راجع أدعية مستجابة في كتابي «الدعاء».

(٣) راجع كتابي «القبر عذابه ونعيمه».

من الويلات الناتجة من الرياء

١ ـ **هزيمة الأمة**: وقد ذكرت حديث رسول الله ﷺ: «**إنما ينصر الله هذه الأمّة بضعيفها؛ بدعوتهم وصلاتهم، وإخلاصهم**» فإن لم يكن الإخلاص فالهزيمة والدمار.

٢ ـ **عذاب الآخرة**: قال ـ تعالى ـ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾[١].

وقد تقدّم حديث أبي هريرة الطويل في الثلاثة المعذّبين: العالم والمنفق والذي استشهد، وأنّهم يُسحَبون في النار على وجوههم بسبب الرياء.

٣ ـ **زيادة الضلال في الدنيا**: عن جابر بن سمرة قال: «شكا أهل الكوفة سعداً إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ فعزله، واستعمل عليهم عمّاراً، فشكوا حتى ذكروا أنّه لا يُحسن يُصلّي، فأرسل إليه فقال: يا أبا إسحاق! إن هؤلاء يزعمون أنّك لا تُحسن تُصلّي.

قال أبو إسحاق: أمّا أنا والله فإني كنت أُصلّي بهم صلاة رسول الله ﷺ ما أخرِمُ[٢] عنها، أُصلّي صلاة العشاء فأركد[٣] في الأوليين وأُخِفُّ في الأُخريَين. قال: ذاك الظنُّ بك يا أبا إسحاق. فأرسل معه رجلاً ـ أو رجالاً ـ إلى الكوفة، فسأل عنه أهلِ الكوفة، ولم يدَعْ مسجداً إلا سأل عنه، ويُثنون معروفاً، حتى دخل مسجداً لبني عبسٍ، فقام رجلٌ منهم يُقال له أسامة بن قتادة يُكْنى أبا سعدة قال: أمّا إذ نشدتنا[٤] فإنّ سعداً كان لا يسير بالسريّة[٥]، ولا يقسم بالسويّة، ولا يعدل في القضية.

---

(١) الماعون: ٤ ـ ٧.

(٢) أي: لا أنقص منها.

(٣) أي: أطوّلهما وأُديمهما وأمدّهما. «شرح النووي».

(٤) طلبت منّا القول.

(٥) القطعة من الجيش.

قال سعد: أما والله لأدعون بثلاث: اللَّهم إنْ كان عبدك هذا كاذباً قام رياءً وسُمعة فأطِل عمره، وأطل فقره، وعرِّضه بالفتن.

وكان بعد إذا سُئل يقول: شيخ كبير مفتون، أصابتني دعوة سعد قال عبد الملك: فأنا رأيته بعد قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، وإنه ليتعرض للجواري في الطرق يغمزهن»[(١)].

٤ ـ **بغض أهل السماء للمرائي:** عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ـ تعالى ـ إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحبّ فلاناً فأحبّه، فيحبه جبريل، ثمّ ينادي في السماء فيقول: إنّ الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبّه أهل السماء.**

قال: **ثمّ يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل ثمّ ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه قال: فيبغضونه ثمّ توضع له البغضاء في الأرض**»[(٢)].

٥ ـ **بغض أهل الأرض له:** للحديث السابق.

٦ ـ **قلق القلب، والشعور بالشقاء، والعذاب في القبر:**

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾[(٣)].

وفي الحديث: «**. . . ثمّ يضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، فتلك المعيشة الضنكة التي قال الله: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾**»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري: ٧٥٥، ومسلم: ٤٥٣.

(٢) أخرجه البخاري: ٦٠٤٠، ومسلم: ٢٦٣٧ واللفظ له، وتقدّم بعضه غير بعيد.

(٣) طه: ١٢٤.

(٤) والحديث بتمامه أخرجه الطبراني في «الأوسط» وابن حبان في «صحيحه» واللفظ له، وحسّنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٥٦١).

٧ ـ **التهديد بسوء الخاتمة**، لقوله ـ سبحانه ـ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[(١)].

٨ ـ **فضيحة المرائي على رؤوس الخلائق**: عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «**ما من عبد يقوم في الدنيا مقام سمعة ورياء، إلا سمّع الله به على رؤوس الخلائق يوم القيامة**»[(٢)].

❋ ❋ ❋

ما يُتوهم أنه إخلاص وليس كذلك

١ ـ قد يمتزج بالإخلاص شيء من حظوظ النفس، كالذي يعلم ويشتغل بالتدريس ليفرح بلذة الكلام، أو يغزو ليمارس الحرب ويتعلم أسبابها، فهذا ليس من تمام الإخلاص لله ـ تعالى ـ[(٣)].

٢ ـ وربما كره العبد الرياء، ولكنه عندما يتذكر أعماله ويُثنى عليه، لا يقابل ذلك بالكراهة، بل يشعر بالسرور إن ذلك روح عنه شيئاً من عناء العبادة، فهذا نوع دقيق من أنواع الشرك الخفي.

٣ ـ وقد يقع المرء بالرياء لا بإظهاره بالنطق تعريضاً أو تصريحاً؛ ولكن بالشمائل، كإظهار النحول، والصفار وخفض الصوت، وآثار الدموع وغلبة النعاس الدالة على طول التهجد.

٤ ـ وقد يختفي المرء بحيث لا يريد الاطلاع عليه، ولكنه إذا رأى الناس أحب أن يبدؤوه بالسلام، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير، وينشطوا في قضاء حوائجه ويسامحوه في المعاملة، ويوسعوا له في المجلس، فإنْ قصَّر

---

(١) النور: ٦٣.

(٢) أخرجه الطبراني، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٨).

(٣) النقاط الخمس الأولى من كتاب «مختصر منهاج القاصدين» بحذف وتصرّف يسيرين.

في ذلك مقصِّر، ثقل ذلك على قلبه كأن نفسه تتقاضى الاحترام على الطاعة التي أخفاها.

٥ ـ قد يعتاد العبد التهجد كل ليلة ويثقل عليه، فإذا نزل عنده ضيف نشط له وسهل عليه[١].

٦ ـ إعجاب المرء بأعماله ورؤية الإخلاص الشديد فيها:

قال ﷺ: **«لو لم تكونوا تذنبون، خشيت عليكم ما هو أكثر من ذلك العجب»**[٢]، وسيمر معنا ذلك القول الجميل: (من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى الإخلاص).

٧ ـ ربما تحصل رغبة في استجابة دعوة الداعي إلى الطعام، لمعرفته أن الطعام كما هو متعارف عليه في هذه الدعوات ـ سيكون طيباً وأفضل من طعام بيته في ذلك الوقت، فيدفعه حب الطعام، ولا يستحضر طاعة الله ـ تعالى ـ في إجابة الداعي.

٨ ـ وربما تحصل رغبة في زيارة بعض إخوانه، ممن يحبهم حباً شديداً في الله ـ تعالى ـ ولكن في نفسه شهوة خفية من نية الزيارة؛ أن يستمتع على أصناف الشراب والطعام والحلوى التي تقدّم له.

* * *

أحاديث في الإخلاص والتحذير من الرياء من «صحيح الترغيب والترهيب»

١ ـ عن أبي سعيد الخدري عن النّبيّ ﷺ أنه قال في حَجَّة الوداع: **«نَضَّرَ[٣] الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها، فرُبّ حامل فقهٍ ليس بفقيه، ثلاث لا**

(١) هذا مع تذكيرنا أنّ هناك نوعاً من الخلق، إنما ينشطون لما جعل الله لجو الجماعة من تأثير إيماني، وطرد الكسل والعجز وهوى النفس.

(٢) أخرجه البزار وغيره، وانظر «الصحيحة» (٦٥٨).

(٣) جاء في «النهاية»: نضره وأنضره: أي نعمه ويروى بالتخفيف والتشديد من النضارة وهو في الأصل حُسن الوجه والبريق، وإنما أراد حسن خلقه وقدره.

يغلّ[١] **عليهن قلب امرىء مؤمن: إخلاص العمل لله، والمناصحة لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإنّ دعاءهم يحيط من ورائهم»**[٢].

٢ ـ عن مصعب بن سعد عن أبيه ـ رضي الله عنه ـ أنه ظن أن له فضلاً على من دونه[٣] من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال النّبيّ ﷺ: **«إنما ينصر الله هذه الأمّة بضعيفها، بدعوتهم، وصلاتهم وإخلاصهم»**[٤].

٣ ـ عن أبي الدرداء عن النّبيّ ﷺ قال: **«الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ما ابتغي به وجه الله»**[٥].

٤ ـ عن أبي بن كعب قال: قال ﷺ: **«بشّر هذه الأمّة بالسناء والدين والرفعة، والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة من نصيب»**[٦].

٥ ـ عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من سمّع الناس بعمله، سمّع الله به مسامع خلقه، وصغّره، وحقره»**[٧].

٦ ـ عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من عبدٍ يقوم في الدنيا مقام سمعة ورياء، إلا سمّع الله به على رؤوس الخلائق يوم القيامة»**[٨].

---

(١) هو من الإغلال: الخيانة في كل شيء، يروى يغل بفتح الياء من الغل وهو الحقد والشحناء، أي: لا يدخله حقد يزيله عن الحق.
(٢) أخرجه البزار، بإسناد حسن.
(٣) أي: في المغنم.
(٤) أخرجه النسائي وغيره، وهو في «صحيح البخاري» دون ذِكر الإخلاص، وتقدّم.
(٥) أخرجه الطبراني، بإسنادٍ لا بأس به.
(٦) أخرجه أحمد وابن حبان في «صحيحه» وغيرهما.
(٧) أخرجه أحمد والطبراني في «المعجم الكبير» بأسانيد أحدها صحيح.
(٨) أخرجه الطبراني بإسناد حسن.

٧ ـ عن ربيح بن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه عن جده، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتذاكر المسيح الدجال، فقال: **«ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟»** فقلنا: بلى يا رسول الله! فقال: **«الشرك الخفي، أن يقوم الرجل فيصلّي؟ فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل»**(١).

٨ ـ عن محمود بن لبيد قال: خرج رسول الله ﷺ فقال: **«يا أيها الناس! إياكم وشرك السرائر قالوا: يا رسول الله! وما شرك السرائر؟ قال: يقوم الرجل فيصلّي، فيُزيّن صلاته جاهداً لما يرى من نظر الناس إليه، فذلك شرك السرائر»**(٢).

٩ ـ وعن محمود بن لبيد أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: **«إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء، يقول الله ـ عزّ وجلّ ـ إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا؛ فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»**(٣).

١٠ ـ وقال ﷺ: «إذا جمَع الله الأوليين والآخرين ليوم القيامة، ليوم لا ريب فيه نادى مناد: من كان أشرك في عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عنده، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»(٤).

١١ ـ عن أبي علي ـ رجل من بني كاهل ـ قال: خطبنا أبو موسى الأشعري فقال: يا أيها الناس! اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل، فقام إليه عبدالله بن حزن وقيس ابن المضارب فقالا: والله لتخرجن مما قلت، أو لنأتين عمر مأذوناً لنا أو غير مأذون، فقال: بل أخرج مما

---

(١) أخرجه ابن ماجه والبيهقي.

(٢) أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه».

(٣) أخرجه أحمد بإسناد جيّد، وابن أبي الدنيا وغيرهما.

(٤) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٥٢١) وابن ماجه وابن حبان في «صحيحه» والبيهقي.

قلت، خطب رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «**يا أيها الناس! اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل**»، فقال له من شاء الله أن يقول: ـ وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله! قال: «**قولوا: اللَّهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه**»[١].

❋ ❋ ❋

أقوال طيبة في الإخلاص[٢]

١ ـ إني أحب أن يكون لي في كل شيء نية، حتى في أكلي وشربي ونومي.

٢ ـ المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته.

٣ ـ أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل.

٤ ـ تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال.

٥ ـ الإخلاص يميِّز العمل من العيوب؛ كتمييز اللبن من الفرث والدم.

٦ ـ مراد الله من عمل الخلائق الإخلاص.

٧ ـ من شاهد في إخلاصه الإخلاص. فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص.

❋ ❋ ❋

---

(١) أخرجه أحمد والطبراني.

(٢) عن «إحياء علوم الدين» للغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ، ولا بُدّ من التنبيه أنّ له مخالفاتٍ عديدة لمنهج السلف الصالح، فلا يُنصح بقراءة كتبه إلا من يميّز بين النافع وغير النافع، وهذا لا يكون إلا في العلماء وطلاب العلم المجدّين.

من الأقوال[1] التي رويت[2] عن السلف والصالحين في النية والإخلاص والتحذير من الرياء

١ ـ يروى عن الثوري أنه قال: كانوا يكرهون الشهرة من الثياب الجيدة والثياب الرديئة إذ الأبصار تمتد إليهما جميعاً.

٢ ـ روى ابن الجوزي عن الحسن أنه قال: كنت مع ابن المبارك فأتينا على سقاية والناس يشربون منها، فدنا منها ليشرب ولم يعرفه الناس، فزحموه ودفعوه، فلما خرج قال لي: ما العيش إلا هكذا، يعني حيث لم نعرف ولم نوقر.

٣ ـ روي عن نعيم بن حماد أنه قال: كان عبدالله بن المبارك يكثر الجلوس في بيته فقيل له ألا تستوحش؟ فقال: كيف استوحش وأنا مع النبيّ ﷺ.

٤ ـ روي عن عبدة بن سليمان أنه قال: كنّا في سرية مع عبدالله بن المبارك في بلاد الروم، فصادفنا العدو، فلما التقى الصفان خرج رجل من العدو فدعا البراز فخرج إليه رجل فطارده ساعة فطعنه فقتله، ثمّ آخر فقتله ثمّ آخر فقتله، ثمّ دعا إلى البراز فخرج إليه رجل فطارده ساعة فطعنه فقتله، فازدحم عليه الناس، وكنت فيمن ازدحم عليه، فإذا هو يلثم وجهه بكمه فأخذت بطرف كمه فمددته؛ فإذا هو عبدالله بن المبارك، فقال: وأنت يا أبا عمرو ممن يشنّع علينا؟

٥ ـ روي عن جعفر بن حيان يقول: ملاك هذه الأعمال النيات، فإن الرجل يبلغ بنيته ما لا يبلغ بعمله.

٦ ـ كان أحد الحكماء يقول: إذا كان المرء يحدث في المجلس

(١) من كتاب «الزهد» لابن المبارك.
(٢) صدرت بـ (رويت) لعدم علمي بصحتها وإنما يستطيع المسلم الأخذ بما يُروى عن السلف إن كان القول موافقاً للكتاب والسنة.

فأعجبه الحديث فليسكت، وإذا كان ساكتاً فأعجبه السكوت فليحدِّث.

٧ ـ روي عن مطرف بن عبدالله الشخير أنه قال: لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً؛ أحب إلي من أن أبيت قائماً فأصبح معجَباً.

٨ ـ روي عن النعمان بن قيس أنه قال: ما رأيت عبيدة ـ رحمه الله ـ متطوعاً في مسجد الحي.

٩ ـ وعن عبدالله بن المبارك قال: أخبرنا المبارك بن فضالة عن الحسن أنه قال: إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل ليصلّي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزوار. وما يشعرون به. ولقد أدركت أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر فيكون علانية أبداً. لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم. وذلك أن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

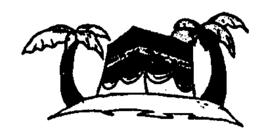
١٠ ـ روي عن جعفر بن حيان عن الحسن أنه قال: لا يزال العبد بخير إذا قال: قال لله، وإذا عمل، عمل لله.

١١ ـ روي عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: إن الله لا يقبل من مسمع ولا مراءٍ ولا لاعب، ولا داعٍ، إلا داعياً دعاءً ثبتاً من قلبه.

انتهيت من تصحيحه وإعادة النظر فيه لإعادة طبعه بفضل الله ـ سبحانه ـ في عمّان ـ ضحى يوم الثلاثاء ٢٤ صفر ١٤٢٣ هـ ـ.

وكتب:

حسين بن عودة العوايشة





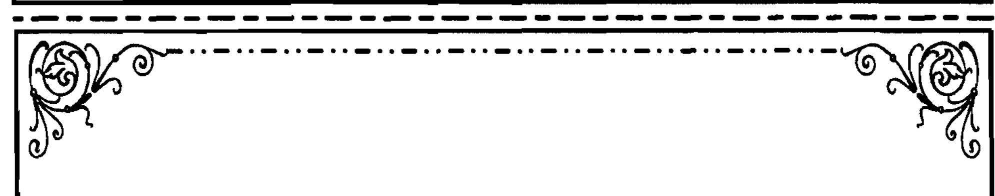
فقه الدعوة وتزكية النفس

(٢)

التحذير من الشيطان
وبيان مكايده والتحصُّن منه

بقلم
حسين بن عودة العوايشة





التحذير من الشيطان وبيان مكايده والتحصُّن منه

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ(١) مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ(٢) بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٣) ﴿٢٠٠﴾﴾(٤).

---

(١) أي: يصيبنّك ويعترينَّك، ويعَرض لك من الشيطان نزْغ نخسة، والنّزغ من الشيطان الوسوسة» وقال الزّجاج: النّزغ أدنى حركة تكون من الآدمي، ومن الشيطان أدنى وسوسة «تفسير البغوي».
وفي «زاد المسير»: قال السدي: النزغ: الوسوسة وحديث النفس.
وفي «تفسير ابن كثير» : «وإمّا يغضبنّك من الشيطان غضب، يصدّك عن الإعراض عن الجاهل ويحملك على مجازاته؛ فاستعِذْ بالله، يقول: فاستجر بالله من نزْغه».

(٢) أي: استجر بالله، وقال القرطبي: أي: اطلب النجاة من ذلك بالله، فأمر ـ تعالى ـ أن يدفع الوسوسة بالالتجاء إليه والاستعاذة به، ولله المثل الأعلى، فلا يُستعاذ من الكلاب إلا بربّ الكلاب.
وقد حُكي عن بعض السلف أنّه قال لتلميذه: ما تصنع بالشيطان إذا سوّل لك الخطايا؟ قال: أُجاهد قال: هذا يطول، أرأيت لو مررت بغنم فنَبَحَك كلبها ومنع من العبور؛ ما تصنع؟ قال: أكابده وأردّه جهدي. قال: هذا يطول عليك، ولكن استغِثْ بصاحب الغنم يكفّه عنك.
وقال أيضاً ـ رحمه الله ـ: وأصل النزغ الفساد؛ يُقال: نزغ بيننا؛ أي: أفسد، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ﴾؛ أي: أفسد.
وقيل: النزْغ: الإغواء والإغراء، والمعنى متقارب.

(٣) سميع لجهل الجاهل، والاستعاذة به من نزْغه، ولغير ذلك من كلام خلْقه، لا يخفى عليه منه شيء عليم بما يُذْهِبُ عنك نزغ الشيطان وغير ذلك من أمور خلْقه «تفسير ابن كثير».

(٤) الأعراف: ٢٠٠.

يبيّن الله ـ عزّ وجلّ ـ ما يجب على العبد من استعاذة واستجارة بالله؛ حين يعرض له من الشيطان نزْغ ووسوسة.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في «تفسيره»: «**قال الله ـ تعالى ـ**: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾[1].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾[2].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾[3].

فهذه ثلاث آيات ليس لهنّ رابعة في معناها؛ وهو أن الله ـ تعالى ـ يأمر بمصانعة العدّو الإنسي والإحسان إليه؛ ليردّه عنه طبعه الطيب الأصل إلى الموالاة والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة؛ إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً، ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم؛ لشدّة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾[4].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾[5].

وقال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[6].

---

(١) الأعراف: ١٩٩ ـ ٢٠٠.
(٢) المؤمنون: ٩٦ ـ ٩٨.
(٣) فُصّلت: ٣٤ ـ ٣٦.
(٤) الأعراف: ٢٧.
(٥) فاطر: ٦.
(٦) الكهف: ٥٠.

وقد أقسم للوالد آدم ـ عليه السلام ـ أنّه له لمن الناصحين وكذب؛ فكيف معاملته لنا وقد قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾[1].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[2].

***

صيغة الاستعاذة

كان رسول الله ﷺ يستعيذ بالله ـ تعالى ـ فيقول: «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من همزه[3] ونفخه[4] ونفثه[5]**»[6].

---

(١) ص: ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) النحل: ٩٨ ـ ١٠٠.

(٣) قال في «النهاية»: «أمّا همزُهُ فالمُوتَةُ» الهمز: النّخس والغمز، وكلّ شيء دفعته فقد همزته، والموتة: الجنون، والهمز أيضاً: الغِيبة والوقيعة في النّاس وذِكر عيوبهم».
قال في «اللسان»: «قال أبو عبيد: الموتة: الجنون». وفسّرها في «المحيط»: بالجنون، وقال: لأنّه يحصل من نخسه وغمْزه.
وفي «الوسيط»: «همز الشيطان للإنسان: همس في قلبه وسواساً، وضربه وصرعه» وفيه أيضاً: همز الشيطان: الجنون.

(٤) كِبره؛ لأنّ المتكبر يتعاظم ويجمع نفَسه؛ فيحتاج أن ينفُخ. «النهاية».

(٥) الشّعر لأنّه ينفث من الفم. «النهاية» ويُقصد به الشّعر المذموم؛ لأنّ الضمير المتصل في هذه الكلمة عائد إلى الشيطان الرجيم؛ إذ النّبيّ ﷺ قال: «**إنّ من الشّعر حكمة...**» أخرجه البخاري: ٦١٤٥، وغيره.
ويُقال: نفَث في أذنه: ناجاه، ويُقال: هذه نفثة مصدور، ما يخفّف به عن صدره، ويروّح به عن نفسه قلت: وممّا يروّح الشيطان به عن نفسه: أن يغوي المسلم في لفظه وقوله ونُطقه.

(٦) أخرجه أبو داود، وابن ماجه، والدارقطني، والحاكم ـ وصحّحه هو وابن حبان، والذهبي ـ كما في «صفة الصلاة» (٩٦)، وانظر «الإرواء» (٣٣٢).

وكان أحياناً يزيد فيه فيقول: «**أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه**»[١].

جاء في كتاب «مصائب الإنسان» (ص١٩): «والقول الثاني: أنّه يقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وهو منصوص الإمام أحمد في رواية عبدالله، وهو ما ذكره الشيخ مجد الدين في «المحرر»، وقاله أُوَيْس القرني، والحسن، وابن سيرين، وقتادة، وبعض الشافعيّة، وذكره المَهْدَوِيُّ عن كثير من القُرّاء، بخبر أبي سعيد أنّ النّبيّ ﷺ كان يقول: «**أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه**».

ومن الغريب ـ ولا غريب[٢] ـ أن يكون استعمال هذه الصيغة أقلّ من القليل مع وجودها في كثيرٍ من كتب التفسير والحديث.

معنى الاستعاذة:

«والاستعاذة: هي الالتجاء إلى الله ـ تعالى ـ من شرّ كلّ ذي شر، والعياذة تكون لدفع الشرّ، والعياذ يكون لطلب جلب الخير؛ كما قال المتنّبي:

يا مَنْ أَلُوذُ به فيما أُؤمِّلُهُ ... ومَنْ أعوذُ بِهِ مِمَّن أُحَاذِرُهُ
لا يَجْبُرُ الناسُ عظماً أنت كاسِرُهُ ... ولا يَهِيضُونَ عَظْماً أنتَ جابِرُهُ

والاستعاذة في كلام العرب: الاستجارة والتحيّز إلى الشيء؛ على معنى الامتناع به من المكروه»[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود، والترمذي بسند حسن «صحيح سنن الترمذي» (٢٠١)» وبه قال أحمد، كما في «مسائل ابن هاني» (١/٥٠)؛ كما في «الصفة» (٩٦).

(٢) لقوله ﷺ: «**ابدأ الإسلام غريباً، وسيعود كما بدأ غريباً فطُوبى للغرباء**». أخرجه مسلم: ١٤٥، وغيره.

(٣) ما بين نجمتين من كتاب «مصائب الإنسان» (ص٩)»

يُقال: عُذت بفلان واستعذْت به؛ أي: لجأت إليه، فالعوذ: الالتجاء إلى الغير والتعلّق به.

ومعنى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: «**أي: أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرّني في ديني أو دنياي، أو يصدّني عن فِعْل ما أُمِرْت به، أو يحثّني على فعل ما نُهيت عنه؛ فإنّ الشيطان لا يكفّه عن الإنسان إلا الله، ولهذا أمر الله - تعالى - بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه؛ ليردّه طبعه عمّا هو فيه من أذى، وأمر بالاستعاذة به في ثلاث آيات من القرآن، لا أعلم لهنّ رابعة...**»[١].

﴿بِٱللَّهِ﴾:

إنّه الْتجاء إلى الله - عزّ وجلّ -.

ولهذه الكلمة العظيمة الطيبة مدلول عظيم ينبغي أن نتعرّفه؛ لندرك بمن نستعيذ.

إنّ الآيات التي تتحدث عن هذا الأمر كثيرة، من ذلك قوله - تعالى -: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٤﴾[٢].

وأيضاً قوله سبحانه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤ لَهُۥ مُلْكُ

---

(١) عن «تفسير ابن كثير» بتصرف يسير، وانظر (ص٩٢).

(٢) الحشر: ٢٢ - ٢٤.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾(١).

وكذلك قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾(٢).

وأيضاً قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢﴾(٣).

وقد ختمت آيات كثيرة في الحديث عن الأسماء الحسنى والصفات العلى لله ـ سبحانه ـ كقوله ـ تعالى ـ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٤).

﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٥).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٦).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾(٧).

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾(٨).

فالمستعيذ بالله؛ مستعيذ بالخالق من المخلوق، وبالقدير من العاجز.

---

(١) الحديد: ١ ـ ٦.
(٢) البقرة: ٢٥٥.
(٣) الطلاق: ١٢.
(٤) آل عمران: ١٦٥. وغيرها.
(٥) الأنفال: ٦٣.
(٦) لقمان: ٣٤.
(٧) لقمان: ٢٨، وغيرها.
(٨) الأنفال: ٦١ وغيرها.

إنك تستعيذ بالعزيز الجبار العظيم البصير الخبير: من كيد الشيطان الرجيم.

لقد عُذت بعظيم... لقد عُذت بمعَاذٍ.

وكان ﷺ أحياناً يزيد فيقول: «**أعوذ بالله السميع العليم...**»(١).

إنّك تستعيذ بالسميع الذي يعلم ويسمع استعاذتك واستغاثتك واستجارتك.

إنّك تستعيذ بالعليم الذي يعلم ما توسوس به الشياطين وتُدبِّره.

إنّك تستعيذ بالعليم الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

إنّك تستعيذ بالعليم الذي يعلم ما أنت فيه من كَرْبٍ وبلاء.

قال العلماء: الشيطان: واحد الشياطين على التكثير، والنون أصليّة؛ لأنّه مشتقّ من شطن؛ إذا بعُد عن الخير، وشطنت داري؛ أي: بعُدت.

وجاء في «تفسير ابن كثير» ـ بحذف ـ: «الشيطان في لغة العرب مشتقّ من: شطن؛ إذا بعُد؛ فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقه عن كل خير وقيل: مشتقّ من شاط؛ لأنّه مخلوق من نار. . .

الرجيم: فعيل بمعنى مفعول؛ أي: أنّه مرجوم مطرود عن الخير كلّه.

وقيل: رجيم بمعنى راجم؛ لأنّه يرجم الناس بالوساوس.

والأوّل أشهر وأصحّ».

(من همزه): وهو الجنون بأصنافه وأشكاله.

وإذا استعاذ المرء من همز الشيطان؛ فقد استعاذ به من الوسوسة

---

(١) تقدّم.

والمُمارّة والمسّ والعتاهة والجنون[١].

و (نفْخه): وهو الكِبر عياذاً بالله.

وقد بيّنه الرسول ﷺ بأنّه بَطَرُ الحقّ[٢] وغمْط الناس[٣]؛ كما في حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبيّ ﷺ قال: «**لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال ذرّةٍ من كِبْرٍ**».

قال رجل: إنّ الرّجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنةً؟! قال: إنّ الله جميلٌ يحب الجمال، الكِبْرُ بطَر الحق وغمط الناس»[٤].

«والمتكبر يريد أن يعلو بنفسه على الله ـ تعالى ـ بردّ الشّرع والدّين وقول الحقّ من كتاب الله ـ سبحانه ـ وسُنّة رسوله ﷺ، أو يعلو على الناس فيسخر منهم ويحتقرهم ويزدريهم.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾[٥].

قال ابن كثير في «تفسيره»: قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾: أي: لا تستكبروا عن اتّباع آياته، والانقياد لحُججه، والإيمان ببراهينه؛ كقوله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ[٦]﴾[٧].

---

(١) قال الثعالبي في «فقه اللغة»: «إذا كان الرجل يعتريه أدنى جنون وأهونه فهو موسوس؛ فإذا زاد ما به قيل: به رئيّ من الجنّ؛ فإذا زاد ذلك فهو ممرور، فإذا به لمم ومسّ من الجنّ؛ فهو ملموم وممسوس، فإذا استمر ذلك به؛ فهو معتوه ومألوق ومألوس؛ فإذا تكامل ما به من ذلك؛ فهو مجنون».

(٢) أي: دفْعه وردّه.

(٣) أي: احتقارهم.

(٤) أخرجه مسلم: ٩١.

(٥) الدخان: ١٧ ـ ١٩.

(٦) انظر كتابي «التواضع ومنزلته من الدين» (١٦ ـ ١٧).

(٧) غافر: ٦٠.

وليس بخافٍ علينا أن كُفر إبليس نابع من الكِبر والإباء(١)؛ وذلك حين قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾(٢).

و (نفثه): قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ كما في «التفسير القيّم» (ص٥٦٣) في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾:

«وهذا الشر هو شرّ السّحر؛ فإنّ ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾: هنّ السواحر اللاتي يعقدن الخيوط، وينفثن على كل عقدة، حتى ينعقد ما يُردن من السّحر، والنفث: هو النفخ مع ريق، وهو دون التَّفل، وهو مرتبة بينهما.

والنفث: فِعل الساحر، فإذا تكيّفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور، ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة؛ نفخ في تلك العقد نفخاً معه ريق، فيخرج من نَفْسه الخبيثة نَفَس ممازج للشر والأذى، مقترن بالريق الممازج لذلك، وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور، فيقع فيه السِّحر بإذن الله الكوني القدري، لا الأمري الشرعي» انتهى كلامه ـ رحمه الله ـ تعالى ـ والنّفث: الشّعر المذموم، وترى منه الفصيح، وغير الفصيح، والشعبي، والموزون، وغير الموزون.

الاستعاذة من الهمز والنفخ والنفث؛ استعاذة من كل شرّ:

إذا تدبّرنا وتأمّلنا الأمر؛ وجدنا أنّ الهمز يمسّ العقل، والنّفخ يمسّ النّفس، والنّفث يمسّ اللسان» فماذا بقي! فهذا كقول الشاعر:

لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ   فلم يبقَ إلاّ صورةُ اللحم والدَّمِ

من مكايد الشيطان لبني آدم

بعْثُ إبليس سراياه ومتابعته لأعمالهم الخبيثة:

(١) انظر تقسيم ابن القيم ـ رحمه الله ـ للكفر في «مدارج السالكين» (١/٣٣٧).

(٢) الأعراف: ١٢.

يضع عرشه على الماء، ثمّ يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدُهم فيقول: فعلْتُ كذا وكذا، فيقول: ما صنَعْتَ شيئاً، قال: ثمّ يجيء أحدهم فيقول: ما تركتُه حتى فرّقتُ بينه وبين امرأته» قال: فيُدنيه منه ويقول: نِعْمَ أنت»[١].

سَعيُه الدائم في الإغواء والإضلال:

قال الله ـ سبحانه ـ في حق الشيطان الرجيم: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾[٢].

عن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: **«إنّ الشيطان قال: وعزّتك يا ربِّ! لا أبرح أغوي عبادك؛ ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الربّ ـ تبارك وتعالى ـ: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»**[٣].

لكل شخص قرينُه من الجنّ:

عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجنّ؛ قالوا: وإيّاك يا رسول الله؟! قال: وإيّاي؛ إلاّ أنّ الله أعانني عليه فأسلَمَ[٤] فلا يأمرني إلا بخير»**[٥].

---

(١) أخرجه مسلم: ٢٨١٣.

(٢) ص: ٨٢ ـ ٨٣.

(٣) أخرجه الحاكم وغيره، وانظر «الصحيحة» (١٠٤).

(٤) برفع الميم وفتحها، أما الرفع فمعناه: أسلَمُ أنا من شرّه وإغوائه وفتنته. وأما الفتح فمعناه: أنّ القرين أسلم وآمن فلا يأمرني إلا بخير... «النووي».

(٥) أخرجه مسلم: ٢٨١٤.

الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم:

لحديث صفيّة بنت حُيَيٍّ ـ رضي الله عنها ـ عن النّبيّ ﷺ قال: «**إنّ الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم**»[(١)].

قَذْفُهُ السوءَ أو الشيء في قلب الإنسان:

عن صفية بنتِ حييّ ـ رضي الله عنها ـ قالت: «كان رسول الله ﷺ معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً فحدّثته، ثمّ قمتُ فانقلبْت[(٢)]، فقام معي لِيَقْلِبَني[(٣)]، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمرّ رجلان من الأنصار، فلمّا رأيا النّبيّ ﷺ أسرَعا، فقال النّبيّ ﷺ: «**على رِسلكما[(٤)]؛ إنّها صفية بنت حيي**»، فقالا: سبحان الله يا رسول الله!

قال: «**إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدّم، وإنّي خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءاً ـ** أو قال: **شيئاً ـ**»[(٥)].

حضور الشيطان عند كل شيء من شان الإنسان:

عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت النّبيّ ﷺ يقول: «**إنّ الشيطان يحضر أحدكم عند كلّ شيء من شأنه؛ حتى يحضره عند طعامه، فإذا سقطَت من أحدكم اللقمة؛ فليُمِط ما كان بها من أذىً؛ ثمّ ليأكلها، ولا يدَعْها للشيطان**»[(٦)].

اجتهاده على المؤمن عند الموت:

ومن أدلّة ذلك: حديث أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إن الشيطان قال: وعزّتك يا رب لا أبرح أغوي**

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري ومسلم؛ وانظره في النقطة الآتية بتمامه.

(٢)(٣) أي: لأرجع إلى بيتي، فقام معي يصحبني «النهاية».

(٤) أي: اثبُتا ولا تعجلا، يُقال لمن يتأنّى ويعمل الشيء على هِينتِه «النهاية».

(٥) أخرجه البخاري: ٣٢٨١، ومسلم: ٢١٧٥.

(٦) أخرجه مسلم: ٢٠٣٣، وتقدّم مختصراً غير بعيد.

عبادك؛ ما دامت أرواحهم في أجسامهم...»[١].

طعْنه كلَّ مولود إلا مريم وابنها:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما من بني آدم مولود إلاّ يمسّه الشيطان حين يولد؛ فيستهل[٢] صارخاً من مسّ الشيطان؛ غير مريم وابنها»**، ثمّ يقول أبو هريرة: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[٣][٤].

انتشار الشياطين بعد الغروب:

عن جابر ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ قال: **«إذا استجنح الليل ـ أو كان جُنح الليل ـ[٥] فكُفّوا صبيانكم؛ فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلّوهم»**[٦].

مشاركته الإنسان في المبيت والطعام والشراب:

عن جابر بن عبدالله أنّه سمع النّبيّ ﷺ يقول: **«إذا دخل الرجل بيته، فذكر الله عند دخوله وعند طعامه؛ قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله؛ قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه؛ قال: أدركتم المبيت والعشاء»**[٧].

تشكيكه العباد بالله ـ عزّ وجلّ ـ وسائر أمور الاعتقاد:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«يأتي**

---

(١) تقدّم.
(٢) أي: يصيح.
(٣) آل عمران: ٣٦.
(٤) أخرجه البخاري: ٣٤٣١، ومسلم: ٢٣٦٦.
(٥) جُنح الليل: أوّله.
(٦) أخرجه البخاري: ٣٢٨٠، ومسلم: ٢٠١٢.
(٧) أخرجه مسلم: ٢٠١٨.

الشيطانُ أحدَكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربَّك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولْيَنْتَهِ»[١].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال الناس يتساءلون حتى يُقال: هذا، خلَق الله الخلْق، فمن خلَق الله؟ فمن وجدَ من ذلك شيئاً فليقُل: آمنت بالله»**[٢].

وعنه أيضاً قال: «**يوشك النّاس يتساءلون بينهم، حتى يقول قائلهم: هذا الله خلق الخلق؛ فمن خلق الله عزّ وجلّ؟ فإذا قالوا ذلك؛ فقولوا:** ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾، ثمّ ليتفِل أحدكم عن يساره ثلاثاً، وليستعذْ من الشيطان»[٣].

أمْرُهُ العَبْدَ بالكفر:

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ

---

(١) أخرجه البخاري: ٣٢٧٦، ومسلم: ١٣٤ وغيرهما.

(٢) أخرجه مسلم: ١٣٤.

(٣) أخرجه أبو داود وغيره، وانظره في «الصحيحة» (١١٨).

قال شيخنا ـ رحمه الله ـ في فقه الحديث ـ بعد إيراده أحاديث في هذا الأمر ـ: «دلّت هذه الأحاديث الصحيحة على أنّه يجب على من وسوس إليه الشيطان بقوله: من خلق الله؟ أن ينصرف عن مُجادلته إلى إجابته بما جاء في الأحاديث المذكورة، وخلاصتها أن يقول: آمنت بالله ورسُله، ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾» ثمّ يتفل عن يساره ثلاثاً، ويستعيذ بالله من الشيطان» ثمّ ينتهي عن الانسياق مع الوسوسة.

وأعتقد أن من فعل ذلك ـ طاعةً لله ورسله، مخلصاً في ذلك ـ أنّه لا بد أن تذهب الوسوسة عنه، ويندحر شيطانه؛ لقوله ﷺ: «**فإنّ ذلك يذهب عنه**».

وهذا التعليم النبوي الكريم أنفع وأقطع للوسوسة من المجادلة العقلية في هذه القضية؛ فإن المجادلة قلّما تنفع في مِثلها! ومن المؤسف أن أكثر الناس في غفلة عن هذا التعليم النبوي الكريم، فتنبهوا أيها المسلمون! وتعرفوا سنة نبيّكم، واعملوا بها؛ فإنّ فيها شفاءكم وعزّكم.

إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾[١].

التوسل بالقبور والصالحين والأولياء[٢]:

تلبيسه على النّاس بردّهم الكتاب والسّنة بزعم أن هذا علم الظاهر وأنهم يتبعون علم الباطن، وجرُّ هؤلاء إلى الشعوذات والشَّطَحات والخيالات وبناء الأحكام على المنامات.

وكذلك الوقوع بالبدع والضلالات ومخالفة هدْي النّبيّ ﷺ.

وقد لبّس الشيطان على إحدى النساء بأنّه النّبيّ ـ عياذاً بالله ـ ليفسد اعتقادها وخُلُقها، وذلك عن طريق المنام تمهيداً، ثمّ عن طريق اليقظة تنفيذاً وتحقيقاً، وكان يأمرها بالخيرات من قيام الليل والصدقات والصوم وغير ذلك، ثمّ أخبرها أنّ الله أمره بالزواج منها، ففعلت!!

وقد أُدمي قلبي وقلوب كثير من إخواننا؛ من انتكاس أحد الأشخاص؛ عرفْنا فيه التقوى والاستقامة والخير، لبّس عليه الشيطان؛ فادعى أنه نزل إلى سبع أرضين، ثمّ سما إلى السماوات السبع، ورأى الله ـ عزّ وجلّ ـ!!

الأخذ بالأحاديث غير الثابتة، وعدم الاهتمام بالتحقيق والتمحيص، أو الأخذ عن أهل الاختصاص في هذا الفنّ:

فسوّوا ـ بذلك ـ كلام البشر بكلام الرسول ﷺ، وبَنَوا على ذلك مسائل وأحكاماً ليست من الإسلام.

قعوده لابن آدم بطريق الإسلام والهجرة والجهاد:

عن سَبْرَةَ بن الفاكِهِ[٣] ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) الحشر: ١٦.

(٢) انظر كتاب «التوحيد» للشيخ محمد بن عبدالوهّاب، وكتاب «تحذير الساجد من اتخاذ قبور الأنبياء مساجد» لشيخنا الألباني ـ رحمهما الله تعالى ـ .

(٣) قال الحافظ في «الإصابة» (٢/١٤) برقم (٣٠٨٦): «سبرة بن الفاكه ـ ويُقال: ابن الفاكهة، ويقال: ابن أبي الفاكه ـ...».

يقول: «**إنّ الشيطان قعد لابن آدم بأَطْرُقِه، فقعد له بطريق الإسلام فقال: تُسلِم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك؟! فعصاه فأسلم.**

ثمّ قعد له بطريق الهجرة فقال: تهاجر وتدَع أرضك وسماءك؟! وإنّما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطِّوَل[١]**؛ فعصاه فهاجر.**

ثمّ قعد له بطريق الجهاد فقال: تجاهدُ ـ فهو جَهْدُ النّفس والمال ـ؛ فتقاتل؛ فتنكح المرأة ويُقسم المال؟! فعصاه فجاهد...»[٢].

غَرْسُه التحزّب والتعصّب المذهبي في النّاس:

وفيهما ما فيهما من أسباب فُرقة الأمّة ودمارها، وردّ الحق، وتقديم ما يقوله الحزب أو الشيخ أو المذهب على ما يقوله الله ـ عزّ وجل ـ ورسوله ـ عليه الصلاة السلام ـ.

وحال الأمّة الآن أكبر دليل على هذا.

استخدام الحِيَل لإسقاط الواجبات، وتحليل المحرّمات، وقَلب الحق باطلاً والباطل حقّاً[٣].

كُرْه النصيحة وعدم تقبُّلها[٤].

رضاه من المسلم بما يُحَقِّرُهُ:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ قال: «**إنّ الشيطان قد**

---

(١) قال في «النهاية»: الطِّوَل والطِّيَل ـ بالكسر ـ: «الحبل الطّويل يُشدّ أحد طرفيه في وتد أو غيره، والطرف الآخر في يد الفرس؛ ليدور فيه ويرعى ولا يذهب لوجهه».

(٢) أخرجه أحمد في «المسند»، والنسائي «صحيح سنن النسائي» (٢٩٣٧)، وصححه ابن حبان، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (١٢٩٩).

(٣) وقد توّسع ابن القيم في هذا في كتاب «إغاثة اللهفان» (٤٩٨/١) إلى آخر المجلد الأول وفي صفحات عدّة من المجلد الثاني أيضاً.

(٤) وقد أفردت لهذا رسالة خاصّة يسّر الله إخراجها.

أَيِسَ أن يُعبد بأرضكم هذه، ولكنّه قد رضي منكم بما تُحقِّرون»(١).

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنّ رسول الله ﷺ خطب الناس في حجّة الوداع فقال: **«إنّ الشيطان قد يَئِسَ أن يُعْبَدَ بأرضكم، ولكن رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك ممّا تَحَاقَرُونَ من أعمالكم، فاحذروا؛ إنّي قد تركْت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلّوا أبداً: كتاب الله وسنّة نبيّه»**(٢).

ويدخل في هذا تقسيم الدين إلى قشور ولُباب(٣)، ونحو ذلك من الأسماء!

التحريش بين المصلّين:

عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت النّبيّ ﷺ يقول: **«إنّ الشيطان قد أيس أن يعبده المصلّون في جزيرة العرب؛ ولكن في التحريش بينهم»**(٤).

تخويفه المسلم بالفقر إذا أراد الإنفاق في سبيل الله، وأمْره إيّاه بالفحشاء:

قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾(٥).

الاهتمام بجمع المال والتوسّع في المشاريع التجاريّة بزعم التقرّب إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ:

وهم يلاحظون التأثير السلبي على دينهم وعبادتهم، وتقصيرهم فيما

---

(١) أخرجه أحمد، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٤٧١).

(٢) أخرجه الحاكم، وقال: «صحيح الإسناد» وله أصل في «الصحيح»، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٦).

(٣) وبهذا التقسيم يحقر أعمالاً كثيرة بزعم أنها قشور، وواقعهم ترْك ما يرونه لُباباً وقشوراً!

(٤) أخرجه مسلم: ٢٨١٢.

(٥) البقرة: ٢٦٨.

أوجب الله ـ سبحانه ـ عليهم من حقوق[(١)].

والكيِّس العاقل من تفكَّر في أمر دنياه وآخرته؛ فعمل في دنياه بما يسدّ حاجته ومن يعول، ويكفّ يده عن السؤال، ونفسه عن الإشراف.

وفي حالة التوسُّع لا يلاحظ إلا التقرُّب من ربه ـ تبارك وتعالى ـ ويحرص على الابتعاد عن الكسب الحرام، ويجعل هذا المال أداة طيّعة للعمل الصالح ومساعدة المحتاجين وبذْل الخير.

مبيته على خَيشوم الإنسان:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ قال: **«إذا استيقظ أحدكم من منامه؛ فليستنثر ثلاث مرّات؛ فإنّ الشيطان يبيت على خياشيمه[(٢)]»**[(٣)].

عقْده ثلاثَ عُقَد على قافية[(٤)] رأس الإنسان إذا هو نام:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: **«يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم ـ إذا هو نام ـ ثلاث عُقَدٍ؛ يضرب بكلّ عُقدة مكانها: عليك ليلٌ طويلٌ فارقُدْ، فإن استيقظ فذكر الله؛ انحلّت عُقدة، فإن توضّأ انحلّت عقدة، فإن صلّى انحلّت عُقده كلها؛ فأصبح نشيطاً طيّب النفس؛ وإلاّ أصبح خبيث النفس كسلان»**[(٥)].

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ أنّ النّبيّ ﷺ قال: **«ما من مسلم ـ ذكر**

---

(١) انظر رسالتي «وشي الحُلل في مراتب العلِم والعمل» عند إزالة العوائق ونداء إلى التجّار.

(٢) الخيشوم؛ أي: أعلى الأنف، وقيل: هو الأنف كلّه، وقيل غير ذلك بما يقارب هذا المعنى.

(٣) أخرجه البخاري: ٣٢٩٥، ومسلم: ٢٣٨، وهذا لفظه.

(٤) مؤخرة.

(٥) أخرجه البخاري: ٣٢٦٩، ومسلم: ٧٧٦ وغيرهما.

ولا أنثى ـ ينام؛ إلاّ وعليه جرير[١] معقود، فإن هو توضأ وقام إلى الصلاة؛ أصبح نشيطاً قد أصاب خيراً، وقد انحلّت عُقَدُهُ كلّها، وإن استيقظ ولم يذكر الله؛ أصبح وعُقده عليه، وأصبح ثقيلاً كسلان، ولم يُصِب خيراً»[٢].

تلعُّبه بالإنسان في المنام وما ياتي من تهاويل:

عن أبي قتادة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبيّ ﷺ: **«الرؤيا الصالحة من الله، والحُلُم من الشيطان؛ فإذا حلَم أحدكم حُلُماً يخافه؛ فليبصُق عن يساره، وليتعوّذ بالله من شرّها؛ فإنّها لا تضرّه»**[٣].

قال أبو قتادة: «إنْ كنتُ لأرى الرؤيا أثقلَ عليّ من جبل، فما هو إلاّ أن سمعت بهذا الحديث فما أُباليها»[٤].

وعن أبي سلمة قال: إنْ كنتُ لأرى الرّؤيا تُمْرِضُني، قال: فلقيتُ أبا قتادة، فقال: وأنا كُنت لأرى الرؤيا فتُمْرِضني، قد سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«الرؤيا الصالحة من الله...»** وذكره[٥].

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ قال: **«الرّؤيا ثلاثة: فرُؤيا الصالحة بُشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا ممّا يحدّث المرء نفسه، فإن رأى أحدكم ما يكره، فَلْيَقُمْ فليصلّ ولا يُحدِّث بها الناس»**[٦].

عن جابر ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ: أنّه قال لأعرابي جاءه فقال: إنّي حلمْت أن رأسي قُطع، فأنا أتّبِعُه؟! فزجَره النّبيّ ﷺ وقال: **«لا تُخبِر بتلعّب الشيطان بك في المنام»**[٧].

---

(١) حبْل من أدَم نحو الزّمام. «النهاية».

(٢) أخرجه ابن خزيمة، وابن حبان في «صحيحيهما»، ـ واللفظ لابن حبّان ـ وهو في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٤٢).

(٣) أخرجه البخاري: ٣٢٩٢، ومسلم: ٢٢٦١.

(٤)(٥) أخرجه مسلم: ٢٢٦١.

(٦) جزء من حديث أخرجه مسلم: ٢٢٦٣.

(٧) أخرجه مسلم: ٢٢٦٨ وغيره.

تبوّله في الأذُن:

عن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ قال: ذُكر عند النّبيّ ﷺ رجل نام ليلة حتى أصبح[١]. قال: «**ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه ـ أو قال: في أذنه ـ**»[٢].

وفي بعض الرّوايات: «قال الحسن: إنّ بوله ـ والله ـ ثقيل!!»[٣].

حضوره بين الإنسان وقلبه في الصلاة للوسوسة:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النّبيّ ﷺ: «**إذا نُودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضُراط، فإذا قُضي أقبَل، فإذا ثُوّب بها أدبر، فإذا قُضي أقبل حتى يَخْطِرَ بين الإنسان وقلبه، فيقول: اذكُر كذا وكذا؛ حتى لا يدري أثلاثاً صلّى أم أربعاً...**»[٤].

وفي رواية: «**حتى يظلّ الرجل لا يدري كم صلّى؟!**»[٥].

اختلاسه من صلاة العبد:

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «سألت النّبيّ ﷺ عن التفات الرجل في الصلاة؟ فقال: «**هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة أحدكم**»[٦].

---

(١) قال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب»: «زاد البخاري في رواية: ما قام إلى الصلاة...» والظاهر أنها صلاة الصبح، وكأنّ البخاري ـ رحمه الله ـ أشار إلى ذلك بأن ساق قبل هذا قوله ﷺ في حديث الرؤيا المتقدّم رقم (٥٧٥): «**أما الذي يُثلغ رأسه بالحجر؛ فإنّه يأخذ القرآن فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة..**» وأيّده الحافظ في «الفتح» (٣/٢٢) برواية ابن حبان في «صحيحه» بلفظ: **نام عن الفريضة...**».

(٢) أخرجه البخاري: ٣٢٧٠، ومسلم: ٧٧٤ وغيرهما.

(٣) أخرجه أحمد في «المسند»، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» برقم (٦٣٩).

(٤) أخرجه البخاري: ٣٢٨٥، ومسلم: ٣٨٩.

(٥) أخرجه البخاري: ٦٠٨، ومسلم: ٣٨٩.

(٦) أخرجه البخاري: ٣٢٩١، وغيره.

مروره بين يَدَي المصلّي:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النّبيّ ﷺ: «**إذا مَرَّ بين يدي أحدكم شيء وهو يصلّي؛ فليمنعه، فإن أبى فليمنعه، فإنْ أبى فليُقاتله؛ فإنّما هو شيطان**»[1].

❋ ❋ ❋

الوسوسة في الطهارة والوضوء والصلاة ومخارج الحروف[2]

من الأمور التي تجلب الشيطان وإغواءه:

١ ـ هَجْرُ كتاب الله العظيم وذِكرِهِ سبحانه:

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَعْشُ[3] عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ[4] لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾[5]﴾[6].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾[7].

---

(١) أخرجه البخاري: ٣٢٧٤ وغيره ونحوه في «مسلم» (٥٠٥) من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر في ذلك «إغاثة اللهفان» لابن القيم، و«ذم الموسوسين» لابن قدامة، و«تلبيس إبليس» لابن الجوزي.

(٣) أي: يَتَعامَ ويعرض، والعشا في العين: ضعْف بصرها، والمراد ـ ها هنا ـ عشا البصيرة «تفسير ابن كثير».

(٤) أي: نُسبّبْ له شيطاناً؛ نضمه إليه ونسلّطه عليه. «تفسير البغوي».

(٥) لا يُفارقه؛ يُزيّن له العمى ويخيّل إليه أنّه على الهُدى. «تفسير البغوي».

(٦) الزخرف، : ٣٦.

(٧) الفرقان: ٣٠. وانظر أنواع الهجر للقرآن في كتاب «الفوائد» (ص٨٢) لابن القيم.

وتقدّم حديث جابر فيمن لم يذكر الله عند دخوله البيت أو الطعام، ومشاركة الشيطان له في ذلك.

٢ ـ التنكُب عن طريق السنّة واتباع البدعة:

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[١].

وقال ـ عليه الصلاة السلام ـ: «... **وإياكم ومُحْدَثاتِ الأمور؛ فإنّ كلّ بدعة ضلالة**»[٢].

وقال ـ عليه الصلاة السلام ـ: «**إنّ الله حجبَ التوبة عن كلّ صاحب بدعة؛ حتى يدَعَ بدعته**»[٣].

٣ ـ عدم الإخلاص لله ـ تعالى ـ[٤].

٤ ـ اتباع الهوى والشهوات:

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾[٥].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[٦].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾[٧].

---

(١) الأنعام: ١٥٣.
(٢) سيأتي (ص١١٠) إن شاء الله ـ تعالى ـ.
(٣) أخرجه الطبراني، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (١٦٢٠).
(٤) انظر رسالتي «الإخلاص».
(٥) ص: ٢٦.
(٦) القصص: ٥٠.
(٧) مريم: ٥٩.

٥ ـ حب العلوّ أو الفساد:

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾[١].

٦ ـ أَخذُ النصوص دون تثبّت وتمحيص، ممّا يتسبّب في انحراف العبادة والعقيدة والفهم والسلوك.

٧ ـ عدم الرّجوع إلى العلماء وطلاب العلم في فَهم الدّين، والابتعاد عن الجماعة التي تعتني بفهم الكتاب والسّنّة على منهج السلف الصالح؛ كما في الحديث: «.. **فإنّما يأكل الذئبُ من الغنمِ القاصيةَ**»[٢].

٨ ـ التعصُّب لحزب أو مذهب أو عِرق أو جنس؛ إذ فيه ما فيه من الصدّ عن ذكر الله ـ سبحانه ـ وعن الحقّ والصواب، وفيه فتنة تقديم أقوال الحزب أو المذهب على ما تنزّل به الوحي.

وكم تقطّعَ من الودّ والمحبة والعلاقة بين المسلمين بسبب هذا التعصب؛ فترى الإعراض، والهجر، والغيبة، والنميمة، والسخرية والاستهزاء، والبَخْس.

وكم هَدَم التعصب للعرق والجنس في أمّة الإسلام!

ومما يُؤسَفُ له أن نُلْبِسَ هذه الأمور لباسَ الشّرع، والشّرع منها بريء!!

٩ ـ التسويف في التوبة والإنابة إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ[٣].

---

(١) القصص: ٨٣» وانظر كلام شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ حول هذه الآية في «الفتاوى» (مجلد ١٨)؛ فإنّه مهم.

(٢) سيأتي تخريجه ـ إن شاء الله تعالى ـ.

(٣) انظر (منزلة التوبة) و (منزلة الإنابة) في كتاب «مدارج السالكين» لابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ.

١٠ ـ التهرّب من الزواج:

والكثير يفعله مخافة المسؤولية ـ زعموا ـ ونحو ذلك من الأعذار الواهية! وهذا التهرّب يُفضي إلى مفاسد كثيرة وأخطار عظيمة.

١١ ـ الإكثار من النّوم لغير حاجة، وما في ذلك من إضاعة للخير والبرّ والذّكر والعبادة، وما فيه كذلك من مجلبة الخمول والكسل والعجز.

١٢ ـ الإفراط في تناول الطّعام والشّراب:

عن المقدام بن معد يكرب الكِنْديِّ ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما ملأ ادميّ وعاءً شرّاً من بطن! بحسب ابن آدم أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صُلبَهُ، فإن كان لا محالةَ؛ فَثُلُث لطعامه، وثُلُث لشرابه، وثُلُث لنفَسه**»[(١)].

١٣ ـ الغضب:

وهو من أكبر مداخل الشيطان لإفساد العلاقة بين الإخوة والأقارب والأحباب.

١٤ ـ اقتناء الصُّوَر:

عن أبي طلحة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة**»[(٢)].

١٥ ـ استعمال المعازف وآلات الملاهي والطّرب:

لقوله ﷺ: «**ليكوننّ من أمّتي أقوام يستحلّون الحِرَ**[(٣)] **والحرير والخمر والمعازف**[(٤)] . . .»[(٥)].

---

(١) أخرجه الترمذي ـ وقال: حديث حسن، وفي بعض النسخ: «**حسن صحيح**» وابن حبان، والحاكم، وأحمد، وغيرهم وانظر «الصحيحة» (٢٢٦٥)، و «الإرواء» (١٩٨٣).

(٢) أخرجه البخاري: ٣٣٣٢.

(٣) أي: الفرج، والمُراد: الزِّنى.

(٤) آلات الملاهي، كما في «المحيط» و «الفتح».

(٥) رواه البخاري تعليقاً (٥٥٩٠)، ووصله ابن حبان وغيره، وانظر ما قاله الحافظ في «الفتح» (١٠/٥٢)، وشيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٩١).

قال شيخنا ـ رحمه الله ـ في فقه الحديث: «**يستفاد من الأحاديث المتقدّمة**[١] **فوائد هامة؛ نذكر بعضها**:

أولاً: تحريم الخمر.

ثانياً: تحريم آلات العزف والطّرب، ودلالة الحديث على ذلك من وجوه:

أ ـ قوله: «**يستحلّون**»؛ فإنّه صريح بأنّ المذكوراتِ ومنها المعازف ـ هي في الشرع محرّمة، فيستحلُّها أولئك القوم.

ب ـ قَرْنُ (المعازف) مع المقطوع حُرمته: الزنى والخمر، ولو لم تكن محرّمة ما قرنها معها....

وقد جاءت أحاديث كثيرة، بعضها صحيح في تحريم أنواع آلات العزف التي كانت معروفة يومئذ، كالطبل والقنين ـ وهو العود ـ وغيرها، ولم يأت ما يخالف ذلك أو يخصّه، اللَّهم إلا الدفّ في النكاح والعيد؛ فإنّه مباح على تفصيل مذكور في الفقه، وقد ذكرتهُ في «ردّي على ابن حزم»[٢].

ولذلك اتفقت المذاهب الأربعة على تحريم آلات الطرب كلها، واستثنى بعضهم ـ بالإضافة إلى ما ذكرنا ـ الطبل في الحرب، وألحق به بعض المعاصرين الموسيقى العسكرية، ولا وجه لذلك البتّة لأمور...».

من فوائد الاستعاذة قبل الشروع في قراءة القرآن:

وللحِكَم في التعوّذ قبل الشروع في قراءة القرآن وجوه:

الوجه الأول: أنّ القرآن شفاء لما في الصّدور، ومُذْهِبٌ لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة، فهو دواء لما أثره فيها الشيطان.

---

(١) أي: المتعلّقة بأمر الحرير والخمر والمعازف ونحو ذلك.

(٢) وقد طُبع بفَضل الله ـ تعالى ـ في حياة شيخنا ـ رحمه الله ـ

فأُمِرَ القارىء أن يطرد مادّة الداء، ويُخلِيَ منه القلب ليصادف الدواء محلاً خالياً فيؤثّر فيه، كما قيل:

أتاني هواها قَبْلَ أن أعرفَ الهوى   فصادف قلباً خالياً فتمكّنا

الوجه الثاني: أنّ القرآن مادّة الهدى والخير في القلب، كما أنّ الماء مادّة النبات، والشيطان نار يحرق النبات أوّلاً فأوّلاً، فكلّما أحس نبات الخير في القلب؛ سعى في إحراقه وإفساده، فَأُمِرَ أن يستعيذ بالله منه؛ لئلا يفسد عليه ما يحصله بالقرآن.

والفرق بين هذا الوجه والذي قبله: أنّ الاستعاذة في الوجه الأوّل؛ لأجل حصول فائدة القرآن، وفي الوجه الثاني؛ لأجل بقائها وحِفظها وثباتها.

الوجه الثالث: أن الملائكة تدنو للقراءة وتسمعها، كما في حديث أُسَيْدِ ابن حُضَيْرٍ لمّا كان يقرأ، ورأى مثل الظُلّة؛ فيها مِثل المصابيح، فقال النبيّ ﷺ: «**تلك الملائكة**»[١]. والشيطان ضد الملك وعدوُّه، فأُمر القارىء

---

(١) يشير بذلك إلى حديث البخاري: ٥٠١٨، ومسلم: ٧٩٦ عن أسيد بن حضير قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده؛ إذ جالت الفرس، فسكت فسكتت، فقرأ فجالت[أ] الفرس، فسكت وسكت الفرس، ثمّ قرأ فجالت الفرس؛ فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها، فأشفق أن تصيبه، فلما اجترّه[ب]؛ رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلمّا أصبح حدّث النّبيّ ﷺ؟ فقال له: «**اقرأ يا ابن حضير! اقرأ يا ابن حضير!**» قال: فأشفقت يا رسول الله! أن تطأ يحيى، وكان منها قريباً، فرفعت رأسي فانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا مِثل الظلّة[ج] فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال: «**وتدري ما ذاك؟**» قال: لا. قال: «**تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها، لا تتوارى منهم**».

(أ) أي: وثبت، وقال هنا: جالت، فأنّث الفرس، وفي الرواية السابقة: وعنده فرس مربوط فذكّره، وهما صحيحان، والفرس يقع على الذّكر والأنثى. «النووي».

(ب) أي: اجترّ ولَده من المكان الذي هو فيه؛ كيلا تطأه الفرس.

(ج) هي السحابة كما جزم ابن بطال، وانظر «الفتح» (٩/٦٣).

أن يطلب بُعد عدوّه عنه حتى تحضره الملائكة، فهذه وليمة لا تجتمع فيها الملائكة والشياطين.

الوجه الرابع: أن الشيطان يُجْلِبُ على القارىء بِخَيْلِهِ وَرِجِلِهِ[١] حتى يَشْغَلَهُ عن تدبُّر القرآن وفهمه؛ فلا يكمل انتفاع القارىء، فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله منه.

الوجه الخامس: أنّ القارىء مُناجٍ لِربّه بكلامه، وفي الحديث: «**ما أذن**[٢] **الله لشيء ما أذن للنبيّ يتغنّى بالقرآن**»[٣]؛ والشيطان إنّما قراءته الشعر والغناء؛ فأمر القارىء أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاته واستماع الربّ قراءته.

الوجه السادس: حضور الشيطان للتشويش على القارىء وتغليطه[٤].

الوجه السابع: أنّه أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهمّ بالخير ويدخل فيه، وفي الحديث: «**إنّ الشيطان عرض لي؛ فشدَّ عليّ يقطع الصّلاة عليّ، فأمكنني الله منه**»[٥].

---

(١) تقول العرب: أجلب فلان على فلان: إذا صاح عليه، ومنه اشتقاق الجَلَبَةِ، وهي ارتفاع الأصوات، والرّجل: جمع راجل.
وفي «تفسير ابن كثير»: «﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾: واحمل عليهم بجنودك: خيَّالتهم ورجلهم ومعناه: تسلّط عليهم بكلّ ما تقدر عليه» (بحذف يسير).
وقيل: كل راكب وماشٍ في معصية الله ـ عزّ وجلّ ـ.

(٢) أي: ما استمع. «النهاية».

(٣) أخرجه البخاري: ٥٠٢٤، ومسلم: ٧٩٢ وغيرهما.

(٤) ومن ذلك حديث عثمان بن أبي العاص ـ رضي الله عنه ـ قال: لمّا استعملني رسول الله ﷺ على الطّائف، جعل يعرض لي شيء في صلاتي؛ حتى ما أدري ما أُصلّي؛ فلمّا رأيت ذلك؛ رحلتُ إلى رسول الله ﷺ قال: «**ابن أبي العاص؟!**» قلت: نعم يا رسول الله! قال: «**ما جاء بك؟**» قلت: يا رسول الله! عرض لي شيء في صلواتي؛ حتى ما أدري ما أُصلّي؟! قال: «**ذاك الشيطان؛ ادْنُهْ**» فدنوت منه، فجلست على صدور قدميَّ، قال: فضرب صدري بيده، وتفل في فمي، وقال: «**اخرج عدوَّ الله!**» ففعل ذلك ثلاث مرات، ثمّ قال: «**الحَق بعملك**»: عن «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٨٥٨).

(٥) أخرجه البخاري: ٣٢٨٤.

وكلّما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله؛ كان اعتراض الشيطان له أكثر»(١).

في الاستعاذة تحصُّن من جميع المنهيّات والمحظورات، وفيها دفْع الشبهات والشهوات:

لا شكّ أنّ من استعاذ بالله من الشيطان الرجيم؛ فقد استجار بالله واعتصم به من كلّ المنهيات والمحظورات الظاهرة والباطنة.

إنّ المتعوّذ بالله يطلب من الله ـ عزّ وجلّ ـ التحصّن من الكفر، والشرك، والكِبر، والعُجب، والنفاق، والكذب، والرياء، وكلّ ما يُغضب الله ـ عزّ وجلّ ـ.

لكنّ الأمر يحتاج إلى إخلاص وصدق، وبقدْر الصدق والإخلاص؛ يوفَّق العبد إلى اجتناب هذه المحظورات والمنهيّات.

قال في «مصائب الإنسان»(٢) (ص١٦): «ولا شكّ أنّ المراد من الاستعاذة: التعوّذ من جميع المنهيّات والمحظورات، وهي: إمّا من باب الاعتقاد، أو من باب أعمال الجوارح، وأمّا الاعتقاد ففي الحديث: «**وتفترق أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة**»(٣). موصوفة بالعقائد الفاسدة والمذاهب الباطلة، ثمّ إنّ كل واحدة من أولئك الفرق غير مختصّ بمسألة، بل بمسائل متعلّقة بذات الله ـ تعالى ـ وبصفاته وأحكامه وبأفعاله وأسمائه، وبمسائل الجبر والقدر والتخويف والمعاد والوعد والوعيد والأسماء والأحكام والإمامة.

فإذا وزّعنا عدد هذه الفرق المذكورة في الحديث على هذه المسائل؛ بلغَ العدد الحاصل مبلغاً عظيماً.

---

(١) انظر «مصائب الإنسان» (ص١٥)، و «إغاثة اللهفان في مصائب الشيطان» لابن القيم (١/١٤٨) ـ بحذف وتصرّف ـ.

(٢) بحذف وتصرّف يسيرين.

(٣) أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان في «صحيحه»، وغيرهم، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٢٠٣).

وأيضاً؛ من الشهوات فرق الضلال من الخارجين عن هذه الأمّة كثيرة جدّاً، فإذا ضمَمْت أنواع ضلالاتهم إلى أنواع الضلالات الموجودات في فرق الأمّة في جميع المسائل العقلية المتعلقة بأحكام الذات والصفات ونحوها؛ بلغ الجميع مبلغاً عظيماً في العدد.

ولا شكّ أن قولنا: «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**» يتناول الاستعاذة من جميع تلك الأنواع، والاستعاذة من الشيء لا تمكن إلا بعد معرفة قُبحه، فظهر أنّ قولنا: أعوذ بالله مشتمل على ألوف من المسائل.

وأمّا الأعمال الباطلة: فهي عبارة عن كلّ ما ورد النّهي عنه في الكتاب والسنّة والإجماع والقياس، ولا شكّ أنّ تلك المنهيّات تزيد على ألوف.

فيثبت بهذا الطريق أنّ قولنا: أعوذ بالله مشتمل على عشرة آلاف أو أزيد أو أقلّ من المسائل المهمّة والله أعلم».

وجاء في «مدارج السالكين بين منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾» (١/٤٦٠): و«الاعتصام»: افتعال من العصمة؛ وهو التمسك بما يعصمك، ويمنعك من المحذور والخوف.

فالعصمة: الحِمْية. والاعتصام: الاحتماء. ومنه سُمِّيت القلاع: العواصم؛ لمنعها وحمايتها.

ومدار السعادة الدنيوية والأخروية: على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلا لمن تمسّك بهاتين العصمتين.

فأمّا الاعتصام بحبله: فإنّه يعصم من الضلالة، والاعتصام به: يعصم من الهلكة؛ فإنّ السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده؛ فهو محتاج إلى هداية الطريق، والسلامة فيها.

فلا يصل إلى مقاصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له.

فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة، وأن يهديه إلى الطريق والعُدَّةِ والقوة والسلاح؛ التي بها تحصل له السلامة من قُطّاع الطريق وآفاتها.

وجاء (ص٤٦٢) منه: وأمّا الاعتصام به: فهو التوكّل عليه، والامتناع به، والاحتماء به، وسؤاله أن يحمي العبد؛ والله يدافع عن الذين آمنوا؛ فيدفع عن عبده المؤمن ـ إذا اعتصم به ـ كل سبب يفضي به إلى العَطَبِ، ويحميه منه؛ فيدفع عنه الشبهات والشهوات، وكيد عدوّه الظاهر والباطن، وشرَّ نفسه؛ ويدفع عنه موجَب أسباب الشرّ بعد انعقادها؛ بحسب قوة الاعتصام به وتمكّنه؛ فَتُفْقَدُ في حقّه أسباب العطب، فيدفع عنه موجَبَاتها ومسبَّباته، ويدفع عنه قَدَره بقَدَرِه، وإرادته بإرادته، ويعيذه به منه.

فيما يُبْعِدُ الشيطان وينفِّره:

«لمّا كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه؛ استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان»[(١)].

ولما كان للشيطان ما تقدّم من أخطار ومصائب؛ فلا بُدّ للمسلم أن يتعرّف أسباب إبعادِه، ومن ذلك:

١ ـ تصحيح المنهج والاعتقاد والفهم؛ باتباع كتاب الله ـ عزّ وجلّ ـ والاقتداء بالنّبيّ ﷺ على منهج السلف الصالح.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[(٢)].

وعن جابر بن عبدالله قال: كُنّا جلوساً عند النّبيّ ﷺ، فخطّ خطّاً هكذا أمامه، فقال: «**هذا سبيل الله ـ عزّ وجلّ ـ**» وخطّ خطاً عن يمينه، وخط خطاً عن شماله، وقال: «**هذه سُبُل الشيطان، ثمّ وضع يده في الخطّ الأوسط، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾**»[(٣)].

---

(١) عن «تفسير ابن كثير» (تفسير الاستعاذة وأحكامها).

(٢) الأنعام: ١٥٣.

(٣) صحيح بالمتابعة، كما في «كتاب السّنّة» لابن أبي عاصم؛ برقم (١٦ ـ ١٧) بتحقيق شيخنا ـ رحمه الله ـ.

فاتباع السُّبل مَجْلَبَةٌ للشياطين والخسار في الدارين، واتباع السُّبُل تنكُّب عن سبيل المؤمنين الذين شهد الله لهم ـ تعالى ـ بالخيرية؛ قال الله ـ عزّ وجـل ـ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾[1].

واتباع الكتاب والسنّة على منهج سَلَفِ الأمّة يقودنا إلى:

٢ ـ اجتناب البدع:

والنصوص في النهي عن البدع كثيرة: منها حديث العرباض بن سارية ـ رضي الله عنه ـ وفيه: «... **وإياكم ومُحدثات الأمور؛ فإنّ كلّ بدعة ضلالة**»[2].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه؛ فهو رَدٌّ**»[3].

٣ ـ التزام الجماعة التي تعتني بتصحيح المنهج والاعتقاد والفهم والسلوك واجتناب البدع؛ لقوله ﷺ: «.. **فعليكم بالجماعة؛ فإنّما يأكل الذئبُ من الغنمِ القاصيةَ**»[4].

٤ ـ الإخلاص لله ـ تعالى ـ وحُسن التوكّل عليه:

قال الله ـ تعالى ـ في حق الشيطان الرجيم ـ نعوذ بالله منه ـ: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ

---

(١) النساء: ١١٥.

(٢) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٣٨٥١)، والترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢١٥٧)، وابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٤٠٠)، وغيرهم، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٤)، وكتاب «السنّة» (٥٤) لابن أبي عاصم ـ بتحقيق شيخنا ـ رحمه الله تعالى ـ.

(٣) أخرجه البخاري: ٢٦٩٧، ومسلم: ٧١٨، وغيرهما.

(٤) أخرجه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن خزيمة، وابن حبان في «صحيحيهما»، والحاكم، وهو في «صحيح الترغيب والترهيب» (٤٢٢).

ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾[١].

قال العلاّمة السعدي ـ رحمه الله ـ (١٠/٥٧٩): «أي: الذين أخلصْتهم واجتبيتهم؛ لإخلاصهم وإيمانهم وتوكّلهم».

وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[٢].

وبذلك نفى الله ـ تعالى ـ سلطانه على أهل التوحيد والإخلاص، وأثبت سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولاه[٣].

٥ ـ الإكثار من قراءة القرآن والأذكار[٤]؛ كقراءة سورة البقرة وخواتيمها وآية الكُرسي والمعوّذات وغير ذلك.

وأنصح اقتناء كتب الأذكار التي تتحرى الثابت من النصوص في هذا الأمر[٥].

وقد فصّلت هذا في كتابي «الإخلاص»، وبيّنت فيه ما يُنفِّر الشيطان؛ من نصوص وأذكار عند أحوال كثيرة؛ كالخروج من البيت ودخول المسجد وغير ذلك.

٦ ـ التفقّه في الدين[٦].

---

(١) الحجر: ٣٦ ـ ٤٠.
(٢) النحل: ٩٩ ـ ١٠٠.
(٣) انظر «مصائب الإنسان» (ص٥٧).
(٤) انظر الباب الآتي: (في التحصّن من الشيطان بذكر الله ـ تعالى ـ).
(٥) ومن ذلك كتاب «صحيح الكَلِم الطيب» لشيخنا الألباني وهو مستخلص من كتاب «الكَلِم الطيب» لشيخ الإسلام ـ رحمهما الله تعالى ـ.
(٦) سيأتي قريباً إن شاء الله (باب: في التفقّه في الدين حماية من الشيطان).

في التحصّن من الشيطان بذكر الله ـ تعالى ـ[١]:

قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾[٢].

وفي هذه الآية فوائد:

منها: أن أصل أمر المتَّقين: السلامةُ منه، وإن عَرَضَ طيفٌ بعضَ الأحيان.

ومنها: إذا مسّهم ـ والمسّ: ملامسة من غير تمكن ـ كالكفار؛ فإن الشيطان يتجرّأ عليهم، ويختلس من قلوب المتقين المؤمنين حين تنام العقول الحارسة للقلوب، فإذا استيقظوا؛ انبعث من قلوبهم جيوش الاستغفار والذِّلَّة إلى الله ـ تعالى ـ والافتقار، فاسترجعوا من الشيطان ما اختلسه، وأخذوا منه ما افترسه.

ومنها: أنه أشار بالطّيف إلى أنه لا يمكنه أن يأتي القلوب الدائمة التيقُّظ، إنما يأتي القلوب في حين منامها يرجو غفلتها.

ومنها: أن الطّيف لا ثبوت له؛ بخلاف الوارد، وذلك لا يضرّ؛ لأنّه شَبَهُ الطّيف الذي في منامك، فإذا استيقظت فلا وجود له.

ومنها: أنه قال: ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾ ولم يقل: (ذكَروا)؛ إشارة إلى أن الغفلة لا يطردها الذكر من غفلة القلب، إنما يطردها التذكر والاعتبار؛ لأن الذكر ميدانه اللسان، والتذكّر[٣] ميدانه القلب.

ومنها: أنه قال: ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾؛ فحذَف مُتَعَلَّقَهُ، ولم يقل تذكروا الجنة والنار والعقوبة؛ لأنّ التذكر الماحي لِطَيْفِ الهوى من قلوب المتقين على حسب مراتب المتقين، ومرتبة التقوى يدخل فيها الأنبياء والرسل والصديقون

---

(١) «مصائب الإنسان» (٦٣ ـ ٦٤).

(٢) الأعراف: ٢٠١.

(٣) انظر ـ إن شئت ـ منزلة التذكّر في «مدارج السالكين».

والأولياء والصالحون والمسلمون، فتقوى كلّ واحد على حسب مقامه، فلو ذكر قِسماً من أقسام التذكّر؛ لم يدخل فيه إلا أهل ذلك القسم.

ومنها: قوله سبحانه: ﴿**فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**﴾؛ كأنه لم يذكر أعلى من ذلك مَنًّا مِنْهُ ـ سبحانه ـ عليهم، كأنهم لما استيقظوا ذهبت سحابة الغفلة، فأشرقت شمس البصيرة.

ومنها: التوسيع على المتقين؛ لأنّه لو قال: «**إن الذين اتقوا لا يمسهم طيف من الشيطان**»؛ خرج كل أحد إلا أهل العصمة، فأراد ـ سبحانه ـ أن يوسع دوائر رحمته.

التفقه في الدين حماية من الشيطان:

عن معاوية ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يُرد الله به خيراً يفقّهه في الدين**»[١]. وحتى يُوفق العبد للخير؛ فإنّه يوفّقه لاجتناب سبل الضلال وطرق الشيطان، فيحفِّزه هذا إلى تدبر الاستعاذة والإكثار منها.

وعن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**فضل العِلم خيرٌ من فضل العبادة، وخير دينكم الورع**»[٢].

فبالعِلم الصحيح يعبد المرء ربّه، ويكون إماماً في الورع، وسيِّداً في التقوى، وقائداً في محاربة الشيطان.

«قال الشيخ عبدالقادر الجيلاني ـ رحمه الله ـ: اشتدّ عليَّ الحرّ في بعض الأسفار يوماً؛ حتى كِدْت أن أموت عطشاً، فظلّلتني سحابة سوداء، وهبَّ عليّ منها هواء، حتى دار ريقي في فمي، وإذا بصوت يناديني منها: يا عبدالقادر! أنا ربك! فقُلت له: أنت الله الذي لا إله إلا هو؟! فعدَل الشيخ عن الاسم المشترك ـ كما يقال: رب الدار، وربّ المال ـ إلى الاسم

---

(١) أخرجه البخاري: ٧١، ومسلم: ١٠٣٧.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط»، والبزار بإسناد حسن؛ وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٥).

المختص بالواحد الأحد سبحانه. قال: فناداني ثانياً، فقال: يا عبدالقادر! أنا ربك! وقد أحللت لك ما حرَّمتُ عليك! قال: فقلت له: كذبت؛ بل أنت الشيطان! قال: فتمزَّقت تلك السحابة، وسمعْت من ورائي قائلاً: يا عبدالقادر! نجوتَ مني بفقهك في دينك، لقد فتنتُ بهذه الحيلة قبلك سبعين رجلاً».

وقيل للشيخ عبدالقادر: كيف عرفت أنه الشيطان؟ قال: من حين قال: قد أحللت لك عرفته؛ لأن بعد رسول الله ﷺ لا تحليل ولا تحريم، فنفعه الله بالعلم النافع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: ما عظّمتُ عبد القادر إلا بكلامه في القدر، وحكايته مع الشيطان»[1].

من صور الاستعاذة:

١ ـ الاستعاذة برب الفلق:

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ[2] ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ[3] إِذَا وَقَبَ[4] ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ[5] ﴿٤﴾

---

(١) عن كتاب «مصائب الشيطان» (ص٨٧).

(٢) أراد بالفلق الصُّبح، وهو قول جابر بن عبدالله، والحسن، وسعيد بن جُبير، ومجاهد، وأكثر المفسرين، وهي رواية العوفي عن ابن عباس؛ بدليل قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾» وقيل غير ذلك، كما في «تفسير ابن كثير».

(٣) الغاسق: القمر إذا خسف واسودّ، والليل إذا أظلم.

(٤) الوقوب: دخول الليل بغروب الشمس، وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أن رسول الله ﷺ أخذ بيدها فأشار بها إلى القمر فقال: **«استعيذي بالله من هذا؛ فإنه الغاسق إذا وقب»**: أخرجه الترمذي، ـ وقال حديث حسن صحيح ـ والطحاوي في «المشكل»، وابن السني في «عمل اليوم والليلة»، وغيرهم، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٣٧٢).

(٥) يعني: السواحر اللاتي ينفثن في عقد الخيط حين يرقين عليها. واقرأ إن شئت كيف سُحر النبيّ ﷺ في «صحيح البخاري» (٥٧٦٣)، و«صحيح مسلم» وغيرهما من قِبَل لبيد بن الأعصم.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾[١].

وللمعوذتين فضل عظيم؛ وفي ذلك نصوص؛ منها:

١ ـ ما رواه عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألم تر آيات أُنزلت؛ لم يُرَ مِثلهنّ قطّ؟ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾»**[٢].

٢ ـ عن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ قال: **«كان رسول الله يتعوّذ من عين الإنس؛ فلما نزلت المعوّذتان؛ أخذ بهما وترك ما سوى ذلك»**[٣].

٣ ـ وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: **«أنّ رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى؛ يقرأ على نفسه بالمعوّذات وينفُث، فلمّا اشتدّ وجعه؛ كنتُ أقرأ عليه، وأمسح بيده رجاءَ بركتها»**[٤].

وكأنّ العبد يقول باستعاذته: اللّهمّ ربَّ الصُّبْح! أنت القدير الذي أذهبْتَ ظلمة الليل بانفلاق الصّبح وانبزاغ الفجر وسطوع النّور؛ أستعيذ بك من ظلمة الليل واسوداد القمر وانخسافه، ومن شرّ النفاثات في عقد الخيوط، ومن شرّ حاسد إذا حسد.

فهذه استعاذة من ظلمات شديدة، سواءً كانت ظلماتٍ ماديّةً أو معنوية أو نفسيّةً.

فماذا بعد الليل إلا الصبُّح؟ أليس الصبح بقريب؟!

---

(١) سورة الفلق.

(٢) أخرجه مسلم: ٨١٤.

(٣) أخرجه الترمذي، والنسائي «صحيح سنن النسائي» (٥٠٦٩) وابن ماجه وغيرهم.

(٤) أخرجه البخاري: ٥٠١٦، ومسلم: ٢١٩٢، وانظر كلام الحافظ ـ رحمه الله ـ عليه في «الفتح» (٩/٦٢) ـ إن شئت ـ.

والنفث: شبيه بالنّفخ، وهو أقل من التّفل؛ لأنّ التّفل لا يكون إلاّ ومعه شيء من الريق» «النهاية»، وتقدّم.

وما بعد هذه الظلمات إلا الفرج والرحمة؛ فإغاثة العبد من السحر والحسد أيسر ـ فيما يبدو للخلق ـ من انفلاق الصّبح بعد ظلمة الليل البهيم، والله ـ سبحانه ـ لا يُعجزه شيء: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[(1)].

٢ ـ الاستعاذة برب النّاس:

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾﴾[(2)].

٣ ـ الاستعاذة بعزّة الله وقدرته:

عن عثمان بن أبي العاص الثَّقَفِي: أنّه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم؟ فقال له رسول الله ﷺ:

«ضع يدك على الذي تَألَّمُ من جسدك» وقل: باسم الله ـ ثلاثاً ـ وقل ـ سبع مرات ـ: أعوذ بالله وقدرته من شرّ ما أجد وأحاذر»[(3)].

وفي رواية: «وقل: بسم الله؛ أعوذ بعزّة الله وقدرته... »[(4)]. الحديث.

٤ ـ الاستعاذة بكلمات الله التامّات:

عن خولة بنت حَكِيم السّلمية قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) يس: ٨٢.

(٢) سورة الناس.

(٣) أخرجه مسلم: ٢٢٠٢.

(٤) أخرجه مالك في «الموطأ»، وعنه أبو داود، والترمذي ـ وقال: «حديث حسن صحيح»، دون لفظة: «وأحاذر» ـ.
وأخرجه أحمد، والحاكم ـ وقال: «صحيح الإسناد» ـ وانظر تخريج «شرح العقيدة الطحاوية» (٧٠) و «الصحيحة» (١٤٠٥).

«من نزل منزلاً ثمّ قال: أعوذ بكلمات الله التامّات[١] من شرّ ما خلق؛ لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك»[٢].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال: جاء رجل إلى النّبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله! ما لقيت من عقربٍ لدغتني البارحة؟! قال: **«أما لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامّات من شرّ ما خلق؛ لم تضرّك»**[٣].

٥ ـ الاستعاذة برضا الله ـ عزّ وجلّ ـ ومعافاته:

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: فقدتُ رسول الله ﷺ ليلةً من الفراش، فالتمستُه، فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد؛ وهما منصوبتان؛ وهو يقول: **«اللّهم! أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك»**[٤].

٦ ـ الاستعاذة بعظمة الله ـ سبحانه ـ:

كما في الحديث: **«ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا»**[٥].

٧ ـ الاستعاذة بوجه الله الكريم وبسلطانه القديم:

عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن النّبيّ ﷺ: أنه كان إذا دخل المسجد قال:

---

(١) قال النووي في «شرح مسلم» (٣١/١٧): **«أعوذ بكلمات الله التامات»**: «قيل: معناه: الكاملات التي لا يدخل فيها نقص ولا عيب وقيل: النافعة الشافية وقيل: المراد بالكلمات هنا القرآن» والله أعلم».

(٢) أخرجه مسلم: ٢٧٠٨.

(٣) أخرجه مسلم: ٢٧٠٩.

(٤) أخرجه مسلم: ٤٨٦.

(٥) أخرجه أبو داود، وأحمد بسند صحيح، وانظر تخريجه في «الطحاوية» (٧٣)، وهو من أذكار الصباح والمساء.

«أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم»[١].

فليكن لنا في السلف قدوة في محاربة الشيطان:

تأمّل ـ يرحمك الله ـ الأجيال الفاضلة التي عاشت في القرون الخيريّة، وقد حقَّقت البطولات والانتصارات والفتوحات، وأخضعت حُكّام الدنيا تحت حُكم الإسلام، وبدّدت الظلمات، وسَعِدَتْ بالطمأنينة والأمن والاستقرار، ولم تكن فيهم الأمراض والأوجاع التي أصابتنا: النفسية منها والبدنية.

لقد قدّموا قوافل الشّهداء، ورغبوا في الآخرة رغبة شديدة.

لقد تركوا الدنيا وراءهم في سبيل الله ـ عزّ وجلّ ـ.

لقد ضحّوا بالمال وكلِّ نفيس.

لقد جعلوا الإيثار سبيلهم ودربهم.

كان ذلك بما حباهم الله ـ تعالى ـ من محاربة الشيطان الرجيم ومجاهدة الهوى، فظلّت قلوبهم معلّقة بحب الله ـ عزّ وجلّ ـ مُخلصة له، صادقة في توجّهها، مُعتصمة بمنهج النّبيّ ﷺ.

لقد اتخذوا الشيطان عدوّاً لهم في كل شيء، واتَّخذه الكثير من أمتنا ـ مع الأسف ـ خليلاً، فأخذوا منه أموراً كثيرة في العقيدة والفهم والسلوك، كل ذلك باسم الحضارة والتقدم والرُّقِيِّ.

ألا فليكن لنا في سلفنا أسوة وقدوة في الإخلاص.

---

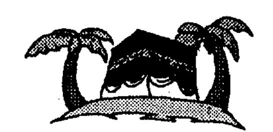
(١) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٤٤١)، وحسّنه النووي وابن حجر، كما ذكر شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الكلم الطيب» (٤٧).

ألا فليكن لنا فيهم أسوة وقدوة في التربية.

ألا فليكن لنا فيهم أسوة وقدوة في التعلّم.

ألا فليكن لنا فيهم أسوة في الجهاد في سبيل الله.

ألا فليكن لنا فيهم أسوة وقدوة في كل سلوك وعمل ونيّة.





فقه الدعوة وتزكية النفس

(٣)

أوّليات العلم والعمل والدعوة

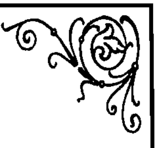
أو

وشْي الحلل في مراتب العلم والعمل

بقلم

حسين بن عودة العوايشة



آياتٌ في جزاء الأعمال

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾[(١)].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٢)].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾[(٣)].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾[(٤)].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾[(٥)].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٦)].

---

(١) الطور: ١٩.
(٢) الأعراف: ٤٣.
(٣) النحل: ٣١ ـ ٣٢.
(٤) التحريم: ٧.
(٥) النمل: ٩٠.
(٦) العنكبوت: ٥٥.

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٤﴾[١].

يُبيّن الله ـ تعالى ـ أنّ مصير الخلائق ـ على تفاوت درجاتهم ودركاتهم ـ لا يكون إلاّ بالأعمال، فبالعمل الصالح أو الطالح؛ يسعد الإنسان أو يشقى.

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربّه، حتى يُسأل عن خمس: عن عُمُره فيما أفناه؟ وعن شبابه فيما أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه؟ وماذا عمل فيما عَلِم؟**»[٢].

وعن أبي برزة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل: عن عُمُره فيما أفناه؟ وعن علمه فيما فعل؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه؟ وعن جسمه فيما أبلاه؟**»[٣].

فإنّ العبد لا مفرّ له من السؤال عن أمور:

عن عُمُره فيما أفناه؟ أفي البر والتقوى؟ أم في الإثم والعدوان؟

وعن شبابه فيما أبلاه؟ أفي الطاعات؟ أم المعاصي؟

وعن ماله من أين اكتسبه؟ أمن حلال؟ أم حرام؟

وهذه لا يُسأل عنها ولا يُقام لها وزن ـ مع الأسف ـ فالهمّ الأكبر أن تُجمّعَ الأموال، سواء كانت حراماً أو حلالاً أو مشبوهة، وما أنْ يسمع الباحث عن العمل عن شاغر في مصرف ربوي؛ إلا وسارع إليه، أو في مصنع دخان؛ إلا وسعى إليه، إنّه يجري بلا تردّد؛ لأي عمل يُثمر مالاً!

---

(١) يس: ٥٤.

(٢) أخرجه الترمذي وغيره، وانظر «الصحيحة» (٩٤٦).

(٣) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (١٩٧٠) وغيره، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٢٦).

وأما الفتاوى في إباحة ذلك، فحدّث ولا حرج!

وأودُّ بهذه المناسبة؛ أن أذكّر بهذا الحديث كل إنسان، قبض الأجر على عمله الذي عمله، ووظيفته التي كُلِّف القيام بها، وأنّه لا تزول قدماه يوم القيامة، حتى يُسأل عن ماله، وكيف اكتسبه؟

إنّك ترى العجب العُجاب؛ في دوائر ومؤسسات البلاد العربية والإسلامية. فلربما ترى الشاي والقهوة والصّحف هي العمل الرئيس، فيؤُخّر الموظف المراجعين دون مبالاة أو اهتمام، إنّه يكره رؤيتهم؛ لأنهم يُقلقون راحته ويكدّرون صفوه، يبحث عن أساليب التعقيد ووسائل التعطيل، فيقول للمراجع: «**المعاملة ينقصها كذا، فارجع غداً**».

يُعلنون قبل موعد انتهاء العمل بساعة أو أكثر، عن انتهاء استلام المعاملات.

ولربما استيقظ بعض المسؤولين من نومه بعد مضيّ ساعتين من الدوام أو أكثر، والناس قد عطّلوا من أشغالهم وأعمالهم لهذه المعاملة، فانتظروا وانتظروا ثمّ رجعوا بخُفّي حُنين.

ولعلّ بعض الناس يتعمّدون عدم إنجاز المعاملات، أو الإبطاء بها؛ إلا بأخذ الرّشوة.

فلنتّق الله بأعمالنا ووظائفنا، نبدأ دوامنا في وقته، ونغادر في الموعد المحدد، نُخلص في العمل، نعامل الناس بلُطف وحنان، نصبر على مشقّة العمل ابتغاء الأجر من الله ـ تعالى ـ.

ثم إنك مسؤول ـ يا عبد الله ـ عن وجه الإنفاق، أفي الطاعات أم المعاصي؟ وعن علمك ماذا عملت فيه[1]. فلا بُدَّ وهذه الحال، أن يتحوّل العلم إلى عمل وسلوك.

---

(١) وسيكون بحثي ـ إن شاء الله تعالى ـ في تفصيل هذه الجزئية، كما أشرت في المقدمة.

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال: أيكون عدم طلب العلم سبباً في النجاة، لطالما أنّ العلم القليل يتطلّب العمل القليل؟

فأقول:

١ ـ لقد فضّل الإسلام العلماء على غيرهم تفضيلاً، وبذلك كثُرت النصوص:

ومن ذلك قول الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

وقال ـ تعالى ـ: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾(٢).

وقول رسول الله ﷺ: «... **ومن سلك طريقاً يلتمس**(٣) **فيه علماً؛ سهّلَ الله له به طريقاً إلى الجنّة**»(٤).

٢ ـ إنَّ تقصُّد عدم التعلّم حرام، والكلّ مطالب بالعلم والتعلّم؛ حسب طاقته وقدرته.

٣ ـ هنالك من العلوم ما يكون تعلّمه أو تعليمه فرض عين، وبعضها فرض كفاية، وبعضها مندوباً فينبغي مراعاة هذا الأمر.

٤ ـ قد يقع الإنسان في مخالفة شرعية، لعدم معرفة الحُكم، خلال فترة طلب العلم، فيُرجى له المغفرة، أما أنْ يتقصدّ البقاء في الجهل؛ فهذا يخالف قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَسْئَلُوٓا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٥).

وعندما أفتى القوم ـ بلا علم ـ ذلك المصاب أن يغتسل، وأدّى إلى

---

(١) الزمر: ٩.
(٢) المجادلة: ١١.
(٣) أي: يطلب.
(٤) أخرجه مسلم: ٢٦٩٩.
(٥) النحل: ٤٣.

قتله؛ دعا رسول الله ﷺ عليهم، فقال: «**قتلوه، قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنّما شفاء العِيِّ السؤال؟ إنّما كان يكفيه أن يتيمّم...**»[١].

إزالة المعيقات عن العلم والعمل:

بيد أن المعيقات عن العلم والعمل؛ يجب أن تُدرس لتُدرس[٢]، وأوّل ما ينبغي النّظر فيه، شغلك وعملك ومهنتك، فمن خلال مزاولة ذلك؛ لا تنسَ غايتك في هذه الحياة الدنيا، وهي إفراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالعبادة والوحدانية، وتحقيق رضاه، فما خُلق الإنسان إلا لعبادة الله ـ تعالى ـ[٣].

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[٤].

فيجدر بالمسلم أن ينظر فيما يلزمه وأهله من المال، وعلى قدْر ذلك يعمل[٥]؛ لأنّ الإكثار من ساعات العمل، للحصول على المزيد من المال، لا يكون إلا على حساب العِلم والعمل والدعوة إلى الله ـ تعالى ـ.

فاعلم هذا الأمر ثمّ افعل ما شئت.

وإنّه لا يليق بالمسلم؛ أن يلهث وراء عمل إضافيّ، وهو يفتقر لمعرفة

---

(١) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٣٢٥)، وانظر «تمام المنة» (ص١٣١).

(٢) أي: لتمحى وتُزال.

(٣) والعبادة: اسم جامع لكل ما يحبّه الله ـ تعالى ـ ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فالأقوال: كقراءة القرآن والذّكر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح ذات البين... والأعمال الباطنة: كالرجاء والخوف والإنابة والحبّ والتوكّل، والأعمال الظاهرة: كالصلاة والزكاة والحجّ والصّدقة وصلة الأرحام والتزاور، وكلّ ذلك ينبغي أن يتوجه فيه العبد لله ـ تعالى ـ وحده.
وفي كتاب «العبودية» لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ تفصيلٌ طيّب، فارجع إليه ـ إن شئت ـ.

(٤) الذاريات: ٥٦.

(٥) أقول هذا ولا أنسى أنّ المسلم يُؤجَر على عمله وما يلاقيه من مشقّة وعناء ـ شريطة ألا يكون ذاته مشبوهاً أو حراماً ـ ولكنّه يظل وسيلةً لغاية ـ وهي عبادة الله ـ تعالى ـ.

كثير من أمور دينه؛ في العقيدة، في الفقه، في الجوانب الخُلُقية، في الأركان والواجبات.

ومنْ عجَب؛ أن يحتجّ اللاهثون وراء المال على منْ يُنكر عليهم؛ بالنصوص العامة التي تحثّ على العمل الصالح، ثمّ هم يقولون: **«الإسلام دين العمل»**، ولا أدري ما نتيجة هذا العمل؟ أيعود نفعه لتزكية نفسه وتطهيرها؟ أم لصالح الأمّة؟

وأقول جواباً على ذلك: إنّ جماع الزوجة بنيّة الإحصان والتعفّف عبادة، فهل يعني أن يظل الإنسان مقيماً على هذا الأمر يُعطِّل الجمعة والجماعة والواجبات؟

وكذلك أكل الطعام للتقوّي على الطاعات عبادة، فهل يعني هذا أن نتخذه دِيْدناً؟

وكذلك السّعي للعمل الحلال والكسْب الطيّب، وكفّ اليد عن السؤال من العبادة، فهل يعني هذا أن نكثر منه؛ حتى يُعطّلنا عن صلاة الجماعة وصلة الأرحام والتعلّم والدعوة إلى الله ـ سبحانه ـ؟

فانظر ـ يرحمك الله ـ في هذا الأمر، فإن كان العمل الواحد يكفيك؛ فلا موجب للثاني، وإن كانت الفترة الواحدة من الدوام تجزىء؛ فلا تذهب للأخرى، وإن استطعت الاختصار من عدد ساعات العمل[1]؛ فلا تتردّد، بل إن كنت ممن وسّع الله عليهم في الرزق والمال، فتفرّغ للعبادة والعلم والدعوة، وفرّغ من أبنائك وأهلك ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

واذكر معي قوله ﷺ: **«إنّ الله يقول: يا ابن آدم! تفرّغ لعبادتي؛ أملأ صدرك غنى، وأسدّ فقرك، وإن لا تفعل؛ ملأت يديك شُغلاً، ولم أسد فقرك»**[2].

(١) هذا لأصحاب الأعمال الحُرّة ونحوها، وليس المراد أن يتهرّب بعض العاملين من وظائفهم، فهذا لا يجوز في دين الله ـ تعالى ـ.

(٢) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان وغيرهم، وانظر «الصحيحة» (١٣٥٩).

وفي رواية: «ملأت صدرك شغلاً»[١].

جاء في «فيض القدير»: «تفرّغ عن مهمّاتك لطاعتي، ولا تشتغل باكتساب ما يزيد عن قوتك وقُوت مُموّنك...».

وهكذا ينبغي على الإنسان أن يشتغل بطاعة الله ـ تعالى ـ فإذا حصل على قوته، وقوت من يعولهم، وما لا بُدَّ منه؛ فلا يشغلنّ نفسه باكتساب المزيد؛ لأنّه بهذا يبني دنياه ويهدم آخرته.

والعجب العجب من أناس لديهم من الألوف المؤلّفة من الدنانير أو الدراهم، ولكنهم يجْرون جرْي الوحوش للدنيا، ويعانون من مشاكل ومتاعب لتوسّعهم في مشاريع كثيرة يمكن الاستغناء عنها.

والآن ما العمل؟

لعلّك ستحرص أن تستمع إلى المزيد من الأشرطة العلميّة النافعة، أو المحاضرات والمواعظ الطيّبة، أو أنْ تقرأ الكتب المفيدة.

تدبرّ حديث رسول الله ﷺ: «**وماذا عَمِل فيما عَلِم؟**»، واعلم أنّك مُحاسب أمام الله ـ تعالى ـ على كلّ عِلِم تعلمه.

راجع نفسك قبل أن تستزيد وتستكثر من القراءة والاستماع والمعرفة، واجعل ما لديك من العلم عملاً يدُبّ على الأرض.

بلغك من العلم ما يتعلّق بتحريم الرّبا، سلْ نفسك: «**هل حققْت العمل فيه؛ بترك التعامل به؟**»، إنّك الآن مُطالب للعمل على تركه، قبل كل شيء.

وقرأت من النّصوص الموجبة غضّ البصر، فهل أنت ممّن يغضّون من أبصارهم عمّا حرّم الله ـ سبحانه ـ؟ وإن كان الجواب لا؛ فلا داعي للتحرّي عن المحاضرات التي تبحث في أمور أخرى متحقّقة فيك، فإن أهم ما تفتقر

(١) أخرجه ابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣١٥).

إليه الآن؛ أن تغض بصرك؛ ومراجعة كل أمر يُسهم في تنفيذ هذا الأمر؛ قراءة واستماعاً وتعلّماً.

ادرس العوائق لتتخلّص منها، وابحث في الكتب أو الأشرطة المسجّلة، ما يُيسّر لك هذا المطلب، ويُسهّل لك هذا المقصد.

***

بعض ما ورد في إزالة العوائق

عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعريّ، قال: سمعت أبي وهو بحضرة العدوّ يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ أبواب الجنّة تحت ظلال السيوف**»، فقام رجلٌ رثّ الهيئة فقال: يا أبا موسى! آنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم؛ فرجع إلى أصحابه، فقال: اقرأ عليكم السلام، ثمّ كسر جَفْن[1] سيفه فألقاه، ثمّ مشى بسيفه إلى العدوّ، فضرب به حتى قُتل[2].

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: «قال رجل: أين أنا يا رسول الله إن قُتلْتُ؟ قال: «**في الجنّة**» فألقى تمرات كنّ في يده، ثمّ قاتل حتى قُتل»[3].

قام رجل رثّ الهيئة، فقال: «يا أبا موسى! آنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا؟».

فأول ما نبادر إليه ونسارع؛ إزالة ما لم يصحّ عن رسول الله ﷺ فلا نعمل إلا بعد التوثّق والتأكّد، أولسنا نحن أولى بالتمحيص منه، وقد كان يعيش مع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ؟

وبعد أن أزال هذا العائق العظيم، كسر جَفن سيفه، كيلا يُفكِّر في العودة.

---

(١) أي: غلاف سيفه.
(٢) أخرجه مسلم: ١٩٠٢.
(٣) أخرجه مسلم: ١٨٩٩.

ومِثله ذلك الصّحابي الجليل الذي سأل النّبيّ ﷺ عن مكانه إذا قُتل، فما أن سمع بالجنّة، حتى ألقى تمرات كُنّ في يده، ذلك لأنّه يرى أنّ هذه التمرات تؤخّره وتعيقه عن دخولها ـ وهي ممّا أحلَّ الله تعالى ـ فكيف بالمعيقات والمؤخّرات التي حرّمها الله ـ سبحانه ـ؟

وفي حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال عمير بن الحُمام ـ رضي الله عنه ـ: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه؛ إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثمّ قاتلهم حتى قُتل[1].

فسعياً أخي المسلم للأمام، فألقِ الهوى، وأَزِل حبّ المال الذي حرَمَك رضوان الله ـ تعالى ـ وذر المحرّمات والشهوات والشبهات، وحبّ الإمارة والرئاسة والظهور، واترك البغي والظلم بأصنافه وأشكاله.

ثمّ لا تنس ـ يرحمك الله ـ أن تعجّل بالعمل الطيب الصالح ـ ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ـ فلا تؤخّر ولا تؤجّل، وحذار حذار من «سوف»؛ فإنها من جُند إبليس.

سمع ذلك الرجل الفاضل رثّ الهيئة من أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قول رسول الله ﷺ: **«إنّ أبواب الجنّة تحت ظلال السيوف»**؛ فما أجّل أو أخّر القتال في سبيل الله ـ تعالى ـ ولم يقُلْ: سأقاتل بعد سنة أو سنتين، أو بعد أن أُنهي مشروعي التجاري، أو أفرُغ من شغلي.

وكذلك الحال مع ذلك الصحابي الجليل ـ رضي الله عنه ـ فما أن سمع بالجنّة ثواباً من عند الله ـ تعالى ـ لمن قُتل في سبيل الله شهيداً، حتى ألقى تمراته من يده، دون تأخر أو تردّد.

فالمسارعة المسارعة ـ أخي المسلم ـ لا التأجيل ولا التأخير.

ثمّ سلْ نفسك ـ يا عبد الله ـ لم اعتَرتْني رغبة التأجيل؟ أهذه الرغبة من الدين؟ وهل هي ممّا يرضي الله ـ تعالى ـ؟ أم أنها أسلوب شيطاني يمهّد

---

(١) أخرجه مسلم: ١٩٠١.

للتفلّت من الائتمار بأمر الله ـ سبحانه ـ والانتهاء عن نهيه؟

لا بُدّ لك أن تنتهز النّفحات الإيمانية في المسابقة للعمل النّافع، دون تأنّ أو تأجيل، هذا وأنت تضع في أعماقك قوله ﷺ: «**التؤُدة في كلّ شيء، إلا في عمل الآخرة**»[1].

فإذا سمعت بمن يدعو لعمل خير؛ مِن تبرّعٍ لبناء مسجد، أو صلة رحم، أو إصلاح بين متخاصمين، أو عيادة مريض؛ فلا تتردّد في الاستجابة ولا تتمهّل.

واعلم أنّ أنسب وقت للعمل هو اللحظة التي سمعْت فيها النّداء، وإلا فمن لك باللحظات التي بعدها، كما أنّ وسوسة الشيطان تظل تنمو مع التأجيل، فتفتر الهمّة ويضعُف العزم، وبذلك لا يُمكنك أن تخطو للإيمان خطوة واحدة، ولا مجال لتغيّر ما فيك من علّة أو ذنب أو عيب.

❋ ❋ ❋

الواجبات قبل السُّنن والمُستحبّات

عليك ـ يرحمك الله ـ بالواجبات، قبل السنن والمستحبّات، ولا تنس أنَّ الواجبات بينها درجات، فقدّم الأهم فالمهم، ثمّ انتقل إلى السنن والمستحبات، وقدّمها حسب الأهمية.

❋ ❋ ❋

بمن تبدأ؟

كل ما قُلْت مما يتعلّق بنفسك، قبل غيرك، فابدأ بنفسك إذن قبل أخيك وصاحبتك وبنيك وأمّك، وانظر ما الذي ينقصك لتشرع بالعلاج.

---

(١) أخرجه أبو داود وغيره، وانظر «الصحيحة» (١٧٩٤).

فإن كان هناك عيب مشترك فيك وبمن ذكرت، أو بمن تتصل بهم، فأشركهم معك، لأنّ رسول الله ﷺ يقول: «**من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[1].

وهكذا قبل أنْ تفكّر في صرف الأوقات بين الشباب عِلماً أو عملاً أو دعوة.

تأمّل وتفكّر:

كيف علاقتك بالله ـ تعالى ـ؟

كيف خشوعك في الصلاة؟

اقرأ فيما يصلحك ويصلح صلاتك، ويزيد خشوعك، ويرقّق قلبك.

ولِتكون ممّن تستجاب دعوتهم؛ عليك أن تنظر في صحة اعتقادك واستقامة منهجك، وقوة يقينك وتوكّلك على الله ـ تعالى ـ وارقب مطعمك ومشربك أهما من حلال أم من حرام؟ أم فيهما من الشبهات ما فيهما؟

وإن كان الموقف يدعو للأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر[2]، فماذا أنت فاعل؟

... كل ذلك لتعالج عدم استجابة الدعاء.

ربما يحتاج الأمر منك؛ إلى قراءة الأحاديث المتعلّقة بعذاب القبر ونعيمه، وأهوال القيامة، وعذاب النّار، وقد تستمر القراءة أياماً وأسابيع وشهوراً، يواكب ذلك العمل والمجاهدة.

---

(١) أخرجه مسلم: ٤٩.

(٢) إشارة لقوله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لتأمرُنّ بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، وليوشِكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه فتدعونه، فلا يستجيبُ لكم**». أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (١٧٦٢).

لا بُدّ من حساب النّفس وعلاج عيوبها، واعرض نفسك على الكتاب والسّنة لتعلم من أنت؟

وانظر ما لله عندك لتعلم مالَكَ عند الله ـ عزّ وجلّ ـ لقول رسول الله ﷺ: **«من أراد أن يعلم ما له عند الله، فلينظر ما لله عنده»**[١].

هل أنت مستعدٌّ للقاء الله ـ سبحانه ـ؟

هل أدّيت حقوق العباد؟ أم أنّك دائم التأجيل والتسويف؟

أدَخَلَت الإنابة والبكاء من خشية الله في حياتك؟

وهل حوّلْت ما قرأته عن المحبة في الله، إلى حبّ حقيقي للإخوة؟

هل تكثر من زياراتهم، وتتجاوز عن زلاتهم؟ وهل تعين المحتاج منهم؛ تفرح لفرحهم وتحزن لحزنهم؟

هل تشعر بحلاوة الإيمان ولذّته؟

وإن كان الجواب بالسلب والنفي؛ فارجع لحديث النّبيّ ﷺ: **«ثلاث من كُنّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يُحِبّ المرء لا يُحبُّه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكُفر، بعْد أنْ أنقذه الله منه، كما يكره أن يُقذف في النّار»**[٢].

هل الله ورسوله أحبّ إليك مما سواهما؟

هل تقدّم حبّ الله ـ تعالى ـ على المال والتجارة والشهوة والهوى؟

اختبر نفسك إذا سمعْت نداء المؤذّن، فإنْ لاحظت الرغبة في تأجيل إجابة النداء، لمتابعة قضاء المصالح التجارية، فاعلم أنّ الشيطان قد فاز في استدراجك، وأن حبّك لله ـ سبحانه ـ ناقص.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» وغيره، وانظر «الصحيحة» (٢٣١٠).

(٢) أخرجه البخاري: ١٦، ومسلم: ٤٣.

وهكذا عليك أن توطّد نفسك، على تقديم أوامر الله ـ تعالى ـ على أي أمرٍ من أمور الدنيا.

ثمّ تأمّل ـ يرحمك الله ـ الأمر الثاني: **«وأن يحبّ المرء لا يحبّه إلا لله»**.

انظر في حقيقة حبّك للناس: لماذا تحبّ؟ ولماذا تبغض وتكره؟ ولماذا تحبُّ شخصاً أكثر من غيره؟ ألأنّه من بني قومك؟ أم لماله ومنصبه؟ أم لمصلحة من مصالح الدنيا؟ أم لاستجابته لأوامر الله ـ تعالى ـ وقيامه بالأعمال الصالحة؟

لعلّك ما زلت تُعاني من فقدان حلاوة الإيمان، فأين العلّة؟ لعل الأمر الثالث لم يتحقق؟ وهو قوله ﷺ: **«وأنْ يكره أنْ يعود في الكفر، بعد أنْ أنقذه الله منه، كما يكره أن يُقذف في النار»**.

كيف كرهك للكُفر؟ أتكرهه كما تكره أن تُقذف في النّار؟

هل تعيش هذا الكُره، وتحيا هذا الخوف؟ينبغي أن تُنمّي هذا الإحساس لديك، فتنمّي الإخلاص لله ـ تعالى ـ وتسعى لتزكية نفسك.

تأمّل حديث أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان أكثر دعائه: **«يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك»**[(١)].

وكيف خشي إبراهيم ﷺ على نفسه من الشّرك، فكان يدعو: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[(٢)].

ولا تنس دعاء يوسف ـ عليه السلام ـ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[(٣)].

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٩٢) وغيرهما، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «تخريج الإيمان لابن أبي شيبة» برقم (٥٦).
(٢) إبراهيم: ٣٥.
(٣) يوسف: ١٠١.

ينبغي أن تُسعِد نفسك بالخوف، تعيش وأنت تخشى الخلود في النّار وعدم الخروج منها، تحذَر من الجوع الدائم والظمأ المستمر، تخاف من بكاء لا ينقطع، ودم لو أُجريت فيه السفن لجَرَت[١].

ولطالما اختلّت حلاوة الإيمان، أو ضعفت، فلا تقعدنّ ولا تجلسنّ، فكم من مسافرٍ لأجل مداواة الأجساد؟ وكم من مُنفِقٍ ماله ليعالج أمراض الجسوم؟ أوليست النفوس والقلوب أولى بالعلاج وأمرها خلود في خلود؟

استحضِر الحديث: «**يُبعث كلُّ عبدٍ على ما مات عليه**»[٢]، ثم توقّع الموت في كل لحظة، ولأنْ توافيك المنيّة وأنت في حال إصلاح نفسك، خيرٌ لك من أن تموت وأنت تسعى لإصلاح غيرك، وتحاسب على ترك واجبات وفرائض، كالسّراج يحرق نفسه ويضيء للآخرين، كما في الحديث: «**مثل العالم الذي يُعلّم الناس الخير، وينسى نفسه، كمثل السراج، يضيء للناس ويحرق نفسه**»[٣].

وهذا ما كان يخشاه أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ إذ يقول: «**إنّما أخشى من ربّي يوم القيامة، أن يدعوني على رؤوس الخلائق، فيقول لي: يا عُويمر! فأقول: لبيك ربي، فيقول: ما عَمِلْت فيما عَلِمت**»[٤].

* * *

(١) استقيته من حديث النّبيّ ﷺ: «**إنّ أهل النار ليبكون، حتى لو أُجريت السّفُن في دموعهم لجرت، وإنّهم ليبكون الدم ـ يعني ـ مكان الدمع**» أخرجه الحاكم وابن ماجه وغيرهما، وانظر «الصحيحة» (١٦٧٩).

(٢) أخرجه مسلم: ٢٨٧٨ من حديث جابر.

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» و «الضياء»، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في تخريج «اقتضاء العلم والعمل» برقم (٧٠).

(٤) أخرجه الدارمي وابن عبدالبر وغيرهما، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٤٩): «**صحيح لغيره موقوف**».

من أُقدّم في الدعوة؟

عليك بنفسك ـ كما سبق القول ـ قبل أخيك وأمّك وأبيك وزوجتك وأبنائك.

قال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾[١].

ثمّ عليك بزوجك، لتعينك في تربية الأبناء، قبل جارك وصديقك، وقبل أن تدعو أبناء العم، ادعُ أبناء أخيك، وادع أبناء العم، قبل أن تدعو الأصدقاء... وهكذا.

لماذا يُقال بتقديم أبنائك على أبناء أخيك مثلاً؟

إنّك إذا ما أصبحت تحت الثّرى، حزن عليك أبناؤك وأبناء أخيك وأحبابك، ولكن النسيان مع مرّ الأيام؛ مدركهم لا محالة، إلا ما كان من أبنائك، فهم يدعون الله ـ سبحانه ـ لك في كل يوم، وإن شئت قُل: في اليوم مرات، أو قل: في كثير من السجدات.

إنك مازلت تؤجر، وأنت في قبرك، كيف هذا؟

يُبيّنُ لنا هذا رسول الله ﷺ فيقول: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علمٍ يُنتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له**»[٢].

ويقول ﷺ: «**إنّ أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإنّ أولادكم من كسبكم**»[٣].

---

(١) التحريم: ٦.
(٢) أخرجه مسلم: ١٦٣١.
(٣) أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي والدارمي وابن ماجه وغيرهم، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الإرواء» (١٦٢٦).

ومن عجب أن ترى بعض الدعاة ـ بل الكثير منهم مع الأسف ـ ينشطون بقوة في دعوة الناس، لكن نساءهم وأبناءهم على حال لا يرضاها هو نفسه، فأي الناس أحق بالعناية والتربية والدعوة؟!

❋ ❋ ❋

من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه

ولا بُدّ أن نبني مراتب العلم والعمل على أساس متين راسخ، وهو قوله ﷺ: «**من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[(١)].

جاء في «فيض القدير»: «وفي إفهامه أنّ من قُبح إسلام المرء أخذه فيما لا يعنيه، والذي لا يعني هو الفضول كله على اختلاف أنواعه، والذي يعني المرء من الأمور؛ ما تعلّق بضرورة حياته في معاشه، ممّا يُشبعه ويرويه ويستر عورته ويُعفّ فرجه ونحوه ممّا يدفع الضرورة دون ما فيه تلذذ وتنعمّ، وسلامته في معاده، وهو الإسلام والإيمان والإحسان، وبذلك يسلم من سائر الآفات وجميع الشرور والمخاصمات، وذلك من حُسن إسلام ورسوخ حقيقة تقواه ومجانبته هواه، ومعاناة ما عداه، ضياع للوقت النفيس الذي لا يمكن أن يُعوَّض فائته، فيما لم يُخلق لأجله.

فمن عَبَدَ الله على استحضار قُربِه من ربّه أو قُرْب ربه منه؛ فقد حسُن إسلامه».

وجاء فيه أيضاً: «وممّا لا يعني العبد تعلمه؛ ما لا يهمّ من العلوم وتركه أهمّ منه، كمن ترك العلم الذي فيه صلاح نفسه، واشتغل بتعلّم ما يصلح به غيره، كعلم الجدل[(٢)]، ويقول في اعتذاره: نيّتي نفْع الناس، ولو

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» والترمذي «صحيح سنن الترمذي» (١٨٨٦) وابن ماجه وغيرهم.

(٢) قلت: وربما ضرَّ نفسه وغيره بهذا العلم.

كان صادقاً لبدأ باشتغاله بما يُصلح نفسه وقلبه، من إخراج الصفات المذمومة، من نحو حسد ورياء، وكبر وعجب، وتراوس على الأقران وتطاول عليهم، ونحوها من المهلكات، قالوا: وذا الحديث ربع الإسلام وقيل نصفه وقيل كله» انتهى.

قلتُ: والإسلام فِعْل وترك، فمن حُسن إسلام المرء أن يترك كل ما لا يعنيه، ويذر ما لا يهمه، ويدع ما لا يفيده، وهو لا يفعل هذا الترك، إلا من حافز قد بلغ الغاية في الأهمية، وهو «**من حسن إسلام المرء فعله ما يعنيه**» والذي يعنيه ويهمه على مراتب ودرجات؛ من اعتقادٍ وإيمانٍ بالغيبيات، ومسابقة إلى الخيرات المنصوص عليها في الكتاب والسّنة، وبذلك يكون قد سعى لفعل كل مأمور وترْك كلّ محظور، وهذا هو الإسلام، وعلى قدر إمضاء هذا تكون منزلة العبد عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ والله أعلم.

إذا فهمنا هاتين القاعدتين الجليلتين، استنبطنا منهما قواعد وقواعد، وعَلِمْنا أيضاً أنَّ ما يعنينا لا يمكن فهمه إلا بالعلم، وما لا يعنينا، كذلك لا ندركه إلا بالعلم، وهذا يستلزم منّا أن نتفقّه في قاعدة «الأهمّ فالمهمّ» ثمّ ننطلق إلى العمل كذلك على قاعدة: «**النظر في الأولى منه**» وبذلك تتمحص العلوم والأقوال والدراسات فيخرج منها الفضول والمحرّم والرّديء ويبقى النافع الطيب من ذِكْرِ لله وسُنّةٍ وفقه...

وبذلك أيضاً تتغربل الأفعال والأعمال والسلوكيات، فيخرج منها كل ما قبّحه الكتاب والسنة، ويبقى النافع المُجدي منه؛ من تلاوةٍ لكتاب الله ـ تعالى ـ وتدارسٍ لسنة النّبيّ ﷺ وأمرٍ بالمعروف ونهي عن المنكر...

وبهذا يرتّب المسلم أموره على هذا وينظّمها، ويجعلها في كلّ طيب نافع من نيّة أو قول أو فعل، ولا يرضى لنفسه السَّفْساف منها، كما في



الحديث: «**إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ كريمٌ، يحبُّ الكَرَم ومعالي الأخلاق، ويُبغض سَفسافها**»[١].

❋ ❋ ❋

ما هو أثر النصيحة والموعظة؟

عن حكيم بن حِزام ـ رضي الله عنه ـ قال: «سألتُ رسول الله ﷺ فأعطاني، ثمّ سألته فأعطاني، ثمّ سألته فأعطاني، ثمّ قال: «**يا حكيم! إن هذا المال خَضِرةٌ حُلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبارَك له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خيرٌ من اليد السفلى**» قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحقّ لا أرزأ[٢] أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا. فكان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يدعو حكيماً إلى العطاء فيأبى أن يقبله، ثمّ إن عمر ـ رضي الله عنه ـ دعاه ليعطيه، فأبى أن يقبل منه شيئاً، فقال عمر: إنّي أُشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم، أنّي أعرض عليه حقّه من هذا الفيء، فيأبى أن يأخذه، فلم

---

(١) أخرجه الحاكم وأبو نعيم في «الحلية» وغيرهما، وانظر «الصحيحة» برقم (١٣٧٨).
قال المناوي في «فيض القدير»: «... وهي الأخلاق الشرعية والخصال الدينية، لا الأمور الدنيوية، فإنّ العلوّ فيها نزول».

وقال أيضاً: (سفسافها) أي: «حقيرها ورديئها».

وفي «النهاية» (السَّفساف): «الأمر الحقير الرّديء من كل شيء، وهو ضدّ المعالي والمكارم» ومن المُضحك المُبكي أن تسمع بعض الناس يستدلّ بهذا الحديث في معرض الردّ على من يدعوهم لمندوب أو مستحب، فالسّفساف عندهم المندوب أو المستحب أو القشور ـ زعموا ـ ويردّ عليهم ما ذكرته آنفاً، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى: نطلب من هؤلاء أن يُفهمونا كيف يكون الشيء المستحب أو المسنون مكروهاً مبغوضاً عند الله ـ تعالى ـ في آن واحد؟! فإن لفظ الحديث «ويبغض سَفسافها» فهل هذا الذي عُدَّ من المستحبات يمكن أن يكون من المبغوضات؟!

(٢) أي: لا أنقص ماله بالطّلب منه.

يرزأ حكيم أحداً من الناس بعْد رسول الله ﷺ حتى توفّي»[1].

لقد سأل حكيم رسول الله ﷺ فأعطاه، وكان ذلك ثلاث مرات، ثمّ وجّهه النّبيّ ﷺ إلى عفّة النّفس وعزّتها وعدم السؤال، فماذا كان من أمر حكيم - رضي الله عنه -؟ لقد أقسم بالله - تعالى - أنّه لن يعود لمثل هذا، ولن يُنقص من أحدٍ شيئاً، حتى يفارق الدنيا.

لم يسمع - رضي الله عنه - الموعظة، ويهز رأسه متأثراً باكياً، ثمّ يعود في اليوم التالي إلى ما كان عليه، وكأنّ شيئاً لم يكن.

لقد بقي على العهد في حياة النّبيّ ﷺ وأبي بكر - رضي الله عنه - فقد كان يدعوه ليُعطيه العطاء فيأبى.

وهكذا استمرّ حتى خلافة عمر - رضي الله عنه - وقد كان يعرض عليه حقّه الذي قسم الله - تعالى - من فوق سبع سماوات؛ من الفيء، فيأبى ذلك تأثراً من موعظة رسول الله ﷺ، وظلّ على حاله هذه؛ حتى توفيّ - رضي الله عنه -.

بَقِي مفعول النصيحة إلى آخر لحظة من حياته - رضي الله عنه - وحتى واراه الثّرى.

هذا هو العمل وهكذا ينبغي أن نكون، نسمع ما نسمع، فنمضي ونُنفِّذ النصائح والمواعظ، لتتغيّر أحوالنا، وأحوال أمّتنا، ولكن واحزناه لحالنا، لقد أكثرْنا من الكتب والمحاضرات والخطب والمواعظ، وكأنها للثقافة والمعرفة، لا للعمل والتنفيذ، فإلى الله - تعالى - المشتكى.

ما أجمل المال وما أحلاه! لكنّ حبَّ الله - تعالى - ورسوله ﷺ أجمل منه، وأحلى وأغلى.

---

(١) أخرجه البخاري: ١٤٧٢، ومسلم: ١٠٣٥.

كم كلّف حكيماً ـ رضي الله عنه ـ هذا الحب؟ كلّفه الكثير الكثير.

لقد سطّر لأمتنا دروساً في الصّبر، ودوّن لنا كتباً في قوة الهّمة والعزم والعمل.

***

تدبُّر النُّصوص أوّلُ العمل

عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لي النّبيّ ﷺ: «**اقرأ عليّ**»، قلتُ: يا رسول الله! اقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال: «**نعم**»؛ فقرأتُ سورة النّساء، حتى أتيتُ على هذه الآية: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾**﴾[1]؛ قال: «**حسبك الآن**»، فالْتفتُ إليه، فإذا عيناه تذرفان[2].

لقد كان رسول الله ﷺ يسمع آيات الله تُتلى عليه، فما أنْ بلغته آية تصوّر مجيئه شهيداً على أمّة محمد ﷺ، حتى قال: «**حسبك الآن**»، وأخذ يبكي ﷺ وجلاً وخوفاً من الله ـ تبارك وتعالى ـ.

تدبُّرٌ وتأمُّلٌ فيما يسمع ويُتلى عليه ﷺ، ثمّ دموع وبُكاء.

إنّ هذا التدبّر والتأمل ليقود ـ بلا ريب ـ إلى الدّعاء والعمل، فليكن هذا شأننا مع آيات الله ـ تعالى ـ وأحاديث رسول الله ﷺ.

وعن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: «صلّيت مع النّبيّ ﷺ ذات ليلة، فافتتح «البقرة»، فقلت: يركع عند المائة، ثمّ مضى فقلت: يركع بها، ثمّ افتتح النّساء، فقرأها، ثمّ افتتح آل عمران، فقرأها، يقرأ مترسِّلاً، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوّذٍ تعوّذ، ثمّ ركع فجعل يقول: **سبحان ربّي العظيم**، فكان ركوعُه نحواً من قيامه، ثمّ قال: سمع الله

---

(١) النساء: ٤١.

(٢) أخرجه البخاري: ٥٠٥٠، ومسلم: ٨٠٠.

سمع الله لمن حمده، ثمّ قام طويلاً قريباً مما ركع، ثمّ سجد، فقال: «**سبحان ربّي الأعلى**»، فكان سجوده قريباً من قيامه»(١).

وقال عوف بن مالك: «قُمت مع رسول الله ﷺ ليلة، فقام، فقرأ سورة البقرة، لا يمرُّ بآية رحمة، إلا وقف وسأل، ولا يمرُّ بآية عذاب، إلا وقف وتعوّذ، قال: ثمّ ركع بقدْر قيامه، يقول في ركوعه: «**سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة**»، ثمّ قال في سجوده مثل ذلك»(٢).

لقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقرأ القرآن في صلاته، متدبراً آياته، فإذا مرَّ بآية رحمة، وقف وسأل الله ـ تعالى ـ وإذا مرَّ بآية عذاب، وقف وتعوّذ، وإذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح.

وهكذا أدّى التدبّر إلى أعمال القلوب، من خوف ورجاء، ثمّ إلى الدعاء ـ أكرم أنواع العبادة ـ وهذا كلّه بالتالي؛ لا بُدَّ أن يُؤثر في صلاح سلوك العبد، وخُلقه وتعامله مع الناس.



الدعاء ثمرة العمل

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾(٣).

وقال ﷺ: «**الدّعاء هو العبادة**»(٤).

وقال ﷺ: «**أفضل العبادة الدعاء**»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم: ٧٧٢.
(٢) أخرجه أبو داود والنسائي، وانظر «صحيح الكَلِم الطيب» (٧٣).
(٣) الفرقان: ٧٧.
(٤) أخرجه أبو داود والترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٥٩٠) وغيرهما، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٢٧).
(٥) أخرجه الحاكم من طريقين، وانظر «الصحيحة» (١٥٧٩).

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**ليس شيء أكرم على الله ـ تعالى ـ من الدعاء**»[١].

إنَّ منّ يتأمّل في هذه النصوص، يجد أنّ الدعاء سبب في نيل محبّة الله ـ تعالى ـ ورضوانه، ولولاه لما كان الله ـ سبحانه ـ يعبأ بنا.

وبيّن النّبيّ ﷺ أنّ الدعاء أكرم العبادات وأفضلها.

فلماذا حَظيَ الدعاء بهذه المنزلة العظيمة؟

إنّ الدعاء هو توجّه العبد بقلبه ولسانه إلى الله ـ سبحانه ـ للمعافاة في الدنيا والآخرة، لكسب مرضاة الله ـ تعالى ـ ودخول الجنّة، والزحزحة عن النّار.

وكم تُليت على المسامع من آيات الترغيب، وذكر الجنّات والنعيم المقيم! ولكن ما الذي جناه من ذلك أبو جهل؟ وتقرَعُ الأذانَ آياتُ العذاب والترهيب والوعيد، فما هو حظّ أبي لهب من النّجاة منها، وهو يُعرض عنها؟

وهكذا تبدو الثّمار جليّةً شهيّة واضحة، حين تُقرأ آيات النار فيتعوّذ منها العبد ويستجير، وتُتلى آيات الجنّة فيسأل الله أن يكون من أهلها، بل إنّ العبد لا يُوفَّق للدّعاء أو استجابته؛ إن لم يكن مخلصاً صادقاً، ذلك لأنّ رسول الله ﷺ قال: «... **واعلموا أنّ الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاهٍ**»[٢].

ولَمّا سألت عائشة ـ رضي الله عنها ـ رسول الله ﷺ عن ابن جُدعان فقالت: يا رسول الله! ابن جدعان كان في الجاهلية يصلُ الرّحم ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعُه؟ قال: «**لا ينفعه! إنّه لم يقل يوماً: ربّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين**»[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٨٤) وابن ماجه وغيرهما، وحسّنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٢٩).
(٢) أخرجه الترمذي والحاكم وغيرهما، وانظر «الصحيحة» (٥٩٤).
(٣) أخرجه مسلم: ٢١٤.

فإنّ عدم التوجّه بالدعاء لله ـ تعالى ـ قد خلّد ابن جدعان في النّار، إنّه لم يقل يوماً: ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين.

وهذا يجعلنا نفهم قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[1].

فلمّا كان الدّعاء هو العبادة، كان عدمه الكفر والاستكبار.

وأمّا شأن الأنبياء والمرسلين والمتقين بالدعاء فعظيم، فهم يسارعون ويسابقون له، ويحرصون عليه، فهو غذاؤهم ودواؤهم وحياتهم.

وبعد أن أقصَّ عليك بعض قَصص القرآن في هذا الأمر؛ أُريد أنْ أوجّه سؤالاً نختبر فيه أنفسنا، ونلتمس مواقعنا:

ها نحن تُتلى علينا آيات من سورة آل عمران، وهي قوله ـ سبحانه ـ: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًاۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾[2].

فماذا نحن فاعلون بعد استماعها؟

إنَّ رؤية زكريا ـ عليه السلام ـ للرّزق الذي يسَّرهُ الله ـ سبحانه ـ

---

(١) غافر: ٦٠.

(٢) آل عمران: ٣٥ ـ ٤٠.

لمريم، وقد انقطعت أسبابه المادية، حَفزه أن يدعو ربّه ـ سبحانه وتعالى ـ.

﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

وما أجمل أن نتأمّل كلمة «هنالك»! فهي اسم إشارة، يُشار به إلى المكان فيكون ظرفاً للمكان، ويُشار به إلى الزّمان، فيكون ظرفاً للزّمان، تدلّنا على الظّرف الذي اغتنمه للدّعاء، والزّمان الذي اهتبله للتضرّع لله ـ سبحانه وتعالى ـ.

إنّ الذي أعطى مريم الرزق، لقادر أن يهبه الذريَّة الطيبة، وكذلك كان.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

ما هو موقفك أيها المسلم، وأنت تتحسس قُدرة الله ـ تعالى ـ وتُبصرُ معجزاته؟ لا بُدّ لك أن تتوجّه إلى الله ـ تعالى ـ ربّ مريم الذي رزقها حيث لا رزق، وإلى ربّ زكريا الذي رزقه بالولد، حيث لا سبيل له ـ كما يقتضي النظر ـ فتدعوه ـ سبحانه ـ وتتضرّع إليه وتبتهل؛ أنْ يُفرّج كربك، ويكشف عنك الهم والغمّ، مهما عظم وتفاقم.

* * *

تعوّذ النّبيّ ﷺ من عِلْم لا ينفع

عن زيد بن أرقم ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ كان يقول: **«اللَّهمّ إنّي أعوذ بك من عِلْم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفسٍ لا تشبع، ومن دعوة لا يُستجاب لها»**[١].

---

(١) أخرجه مسلم: ٢٧٢٢.

إنَّ تعوذ رسول الله ﷺ من علم لا ينفع، قد شمل أشياء كثيرة وكثيرة:

فانظر مثلاً إلى كتب الفلسفة وأهل الكلام فقد عمّت وانتشرت، وقُرِّرت في المعاهد والجامعات، فإنّ الطالب يقتُل معظم أوقاته ليفهم مراد المؤلف أو الكاتب، فإذا فَهِم ذلك، شعر أنْ لا فائدة من ذلك لدينه ودنياه، ولا لمجتمعه وأمّته.

وإنّ الطالب ليقضي السنوات في حفظ أمور كثيرة، لا ترتبط بواقع الحياة، ولا تقرّب من الله ـ تعالى ـ زُلفى!

وكم من تراجم لأشخاص تافهين ساقطين، تُقدَّم فيهم الاختبارات وتُنال فيهم الشهادات، وترفع في دوائر أعمال دُول العالم لهم الدرجات؟ هذا ونحن نجهل سيرة أصحاب رسول الله ﷺ، نجهل تفسير أقصر سُور القرآن، نجهل أيسر المسائل الفقهيّة التي لا بُدّ من معرفتها، وقد يستعظم الناس إذا قلت: نجهل أصولاً وأصولاً في العقيدة!

❋ ❋ ❋

عذاب من لا يعمل بعلمه

عن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«يُجاء بالرجل يوم القيامة، فيُلقى في النار، فتندلق أقتابه**[1]**، فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: يا فلان! ما شأنك؟ ألست كنت تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؛ فيقول: كنتُ آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن الشر وآتيه»**[2].

وفي الحديث: **«رأيتُ ليلة أسري بي رجالاً تُقرض شفاههم بمقاريض**

(١) أي: تخرج أمعاؤه من جوفه. «النهاية».

(٢) أخرجه البخاري: ٣٢٦٧، ومسلم: ٢٩٨٩.

من نار، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: الخطباءمن أمّتك يأمرون الناس بالبرّ وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون»[١].

وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يظهر الإسلام حتى تختلف التُّجار في البحر، وحتى تخوض الخيلُ في سبيل الله، ثمّ يظهر قومٌ يقرؤون القرآن، يقولون: من أقرأ منّا؟ من أعلم منّا؟ من أفقه منّا؟ ثمّ قال لأصحابه: هل في أولئك من خير؟ قالوا: الله ورسوله أعلم**» قال: أولئك منكم، من هذه الأمّة، وأولئك هم وقود النّار»[٢].

وفي الحديث: «**والقرآن حجّة لك أو عليك**»[٣].

❋ ❋ ❋

تقع الفتن حين يُتعلّم العِلم لغير العمل

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «كيف بكم إذا لبستْكم الفتنة، يربو فيها الصغير، ويهرم فيها الكبير، وتُتَّخَذُ سنة فإن غُيّرت يوماً قيل: هذا منكر! قيل: ومتى ذلك؟ قال: إذا قلَّت أُمناؤكم، وكثرت أُمراؤكم، وقلّت فقهاؤكم، وكثرت قراؤكم، وتُفقِّه لغير الدين، والتُمست الدنيا بعمل الآخرة»[٤].

❋ ❋ ❋

(١) انظر «الصحيحة» (٢٩١).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» والبزار بإسناد لا بأس به، وحسّنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٣٥).

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم: ٢٢٣.

(٤) أخرجه الدارمي، والحاكم وغيرهما وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١١١): «صحيح لغيره موقوف».

أمارة العلم النافع

إن لكل شيء أمارات وعلامات ودلالات، وأمارات العلم النافع: أن يهدي إلى السلوك الحسن، والخلق الطيب، والخصال الحميدة.

وفي هذا قال أحدهم: «من أوتي من العلم ما لا يبكيه، لخليق ألا يكون أوتي علماً ينفع، لأنّ الله ـ تعالى ـ نعت العلماء، فقال: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾[1].

وهكذا كان العلم يُفضي بصاحبه إلى الخشوع والسجود والبكاء ومحاسبة النفس والصدق مع الله ـ تعالى ـ.

إنّ البكاء لأبرز علامة وخير دلالة على علم العالم وصِدق الصادق.

ليت شعري ما العلم الذي يتعلّمه المرء إنْ لم يُبلغه البكاء والخشوع والإنابة وحُسن التعامل مع الناس؟!

أوليس العالم أعرف الناس بربه ـ سبحانه وتعالى ـ؟

ألم يقرأ له من صفات العظمة والكمال والجلال ما يجعل قلبه يخشع وعينه تدمع؟!

ألم يقرأ في كتاب الله ـ تعالى ـ وحديث رسول الله ﷺ نصوصاً في النار وأهوال القيامة والقبر؛ ما تتصدع منه الجبال وتخشع من خشية الله ـ تعالى ـ[2]!.

---

(١) الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩.

(٢) ومن العجائب والغرائب أن يختار المدعوّ «علي الطهطاوي» في سرقته؛ كتابي «القبر عذابه ونعيمه» ويكتب عليه اسمه ـ كذباً وزوراً!

وما أدري إن كان قلب هذا اللص «كجلمود صخر»، لا تنفعه الموعظة ولا تفيده الذكرى!

ألم تزجُره النصوص المرهِّبة والمرعبة عن فعله الشنيع؟!

اللّهمَّ يا مقلِّب القلوب! ثبِّت قلوبنا على دينك.

فانظر مكانك من هذا ـ يرحمني الله وإياك ـ ولا تنس ذلك القول الطيب: «**من أوتي من العلم ما لا يبُكيه، لخليق ألا يكون أوتي علماً ينفع**».

* * *

نداء إلى العلماء وطُلاب العلم

أوصيكم ونفسي بتقوى الله ـ تعالى ـ فهيّا قبل المضيِّ في الأعمال، للإجابة على بعض الأسئلة النّافعة ـ إن شاء الله تعالى ـ:

هل أنت ممّن يشتغل بعلم الحديث ومصطلحه[1].

حذارِ أن تُشغل بالوسيلة عن الغاية؛ فتقضي عمرك بجمع الشّواهد والطّرق والرِّوايات، والأسانيد، ثمّ تنسى الذي من أجله تجمعه؟

وأُريدُ أن أسوق لك هذه القصة القصيرة الظريفة لعلّك تعتبر بها:

عن حمزة الكنانيِّ؛ قال: «خرَّجت حديثاً واحداً عن النّبيّ ﷺ من نحو مائتي طريق، فداخَلني لذلك من الفرح غير قليل، وأعجبتُ بذلك، فرأيت يحيى بن معين في المنام، فقلتُ: يا أبا زكريا! خرّجت حديثاً من مائتي طريق. فسكت عني ساعة، ثمّ قال: أخشى أن تدخل هذه تحت: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾»[2].

ولا تنسَ العمل بمقتضى هذه النّصوص، فإنّك ما خُلِقْت ليُقال جمعْت وحقَّقْت وفعلْت وصنَّفت.

لعلّك تشتغل بتخريج حديث ما، وتبحث في إسناده ومتنه، وتدرس أحوال رجاله، تنتقل من كتاب إلى آخر، لتصل إلى الحقّ والحقيقة فيه.

---

(١) مع التنبيه لفضل أهل الحديث وشرف منزلتهم، فالذي قدّمه أهل الحديث للأمّة؛ هو مادة الخير والصلاح والاستقامة وطريق النجاة والسّعادة بإذن الله ـ تعالى ـ.

(٢) «سِيرَ أعلام النبلاء» (١٦/١٠٨).

على رِسْلك ـ يرحمك الله تعالى ـ... ما الذي يُبلغُكه هذا الحديث لو ثبت؟ ما مفاده وتوجيهه؟ ألنافلة من النّوافل؛ قد ثبتت بنصوص أخرى كثيرة صحيحة ـ وأنت أيضاً مع من صحّحها ـ؟!

فامضِ قبل تخريجك هذا إلى أحاديث مخرّجة صحيحة ترشدك إلى واجبات لم تقم بها ولم تعمل بمقتضاها، ولتكن حريصاً أن تقضي وقتك في إمضاء ما أوجب الدين عليك قبل كل شيء.

سل نفسك قبل أن تحقّق وتخرّج كتاباً من الكتب: هل سبقني لهذا الفِعل من أحد؟ وهل هذا السابق مثلي أو خير منّي في هذا الأمر؟ فإن كان الجواب: نعم؛ فلا تُقْدِم على هذا الفعل، لأنّك مسؤول عن إضاعة الوقت، واتّباع الهوى.

أم أنّك ممّن يُعلِّم أحكام الترتيل:

فلا تقضينّ الوقت في تعليم الأحكام، وتنسى الذي من أجله تنزّل القرآن؟

وحذار ثمّ حذارِ أن تغفل عن العمل، بمقتضى الآيات التي تتلوها.

ها أنت تعلّم تلاميذك ترتيل سورة الفلق، فلا يكوننّ مبلغ همّك فقط؛ بيان حكم الإخفاء والإظهار والقلْقلة؛ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾، بل وتفكّر في مدلولها، وأنّ الحاسد من أصحاب الشر، الذين يُغضبون الله ـ تعالى ـ ويُرضون الشيطان، فتعوّذ بالله منه، ثمّ ابلِك على ما في قلبك من الحسد لإخوانك، واسْعَ بكل ما أوتيت من القوة لتنقية نفسك من هذا الداء.

ثمّ إنّه لمن العيب أن يكون العداء بينك وبين أقرانك ممن تخصّصوا بتعليم هذا العلم الطيّب.

أوليست الآيات التي تتلونها وتُدرِّسونها كافية للجمع بين أفاضل الناس ـ فضلاً عمّن سواهم ـ؟! فلماذا العداء؟ أم أنه التسابق إلى الالتفاف حول زيد وعمرو؟

لا يا أهل القرآن.. لا يا أفاضل النّاس، من يتآلف إذا لم تتآلفوا؟ ومن يُخلص لله إذا لم تُخلصوا؟ آلجهلة والعامّة؟ أم الفساق والعصاة؟

حَريٌّ أن تجمعوا القلوب ـ بإذن الله ـ لا أن تختلف قلوبكم أنتم، ففي القرآن ما يُؤلِّف بين القلوب، وينقّي النفوس، ويهدي لكل برّ.

وأخيراً أريد أن أذكركم بقوله ﷺ: **«خيركم من تعلّم القرآن وعلَّمه»**[١].

فكونوا من الخيار علماً وعملاً وسلوكاً، وفقني الله ـ تعالى ـ وإياكم إلى كل خير.

لا تُلهينّكم الشهادات[٢] ـ يا طلاب العلم ـ عن الدراسة الصحيحة والعلم النافع والعمل الطيب، ولا يكونن مبلغ همّكم تحصيل الدرجات عند مدرسيكم، واجتياز العام الدراسي بنجاح، ضعوا خشية الله في قلوبكم، ولا تنسوا دائماً مقصد المسلم الواعي، وهدف العبد المنيب، وغاية المؤمن الصادق.

* * *

نداء إلى الدعاة وأئمة المساجد

وأنتم أيُّها الدُّعاة إلى الله ـ تعالى ـ! احرصوا على العلم النافع والعمل

---

(١) أخرجه البخاري: ٥٠٢٧.

(٢) من المؤلم المبكي أن أسمع أحد الأفاضل ـ ممن يدرس في كلية الشريعة ـ يسأل عن «صحيح البخاري» وعنده «فتح الباري» مُعلِّلاً هذا الطلب بالخوف من القراءة في «فتح الباري» قائلاً: إنني أخشى أن تذهب عيناي نحو شروح الأحاديث، فتلتقط فائدة فقهية مثلاً، أو أخرى لغوية، فأنصرف عن المقرر المطلوب ويضيع الوقت!

فمتى كان شرح الحديث وفهمه وتيسير العمل به إضاعة وقت؟ أم أنّها الدراسة للشهادة لا للعلم؟ وهذا هو واقع أكثر طلابنا ـ مع الأسف ـ والله درّ القائل:

لقد هَزلت حتى بدا من هُزالها كُلاها وحتى سامها كلُّ مُفلِس

الصالح، ولا تنسوا أن تكونوا مثلاً طيباً في الخُلُق الحسن، فلسان الحال أبلغ من لسان المقال.

إنّ أولى الناس تأثّراً[١] بك والداك وأهل بيتك وأبناؤك، فهل هذا التأثير وارد عندك أم لا؟ فانظر إذن في سلوكك وخلُقك، وزِنْه بسلوك المربي العامل الصادق المخلص.

إلامَ ـ أخي يرحمك الله ـ تظل تدعو وتنشط بين الناس وتنسى أهلك وأبناءك؟

حتامَ تظل ـ سدّدك الله ـ تمضي في الدعوة هنا وهناك، ثمّ تأتي لبيتك في آخر الليل لتنام؟

مِثلك لا ينبغي أن ينسى قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾[٢].

لا تُقدموا على دروسكم ومحاضراتكم دون تحضير جيد وإعداد مُسبق، فمهمتكم عظيمة فلا تستهينوا بها.

أليس من المؤلم أن يذهب الداعي لدرسه ولا يعلم ماذا سيقول[٣].

لا تتسرّعوا بالفتاوى دون تثبّت، فإثم هذا كبير، وعقابه شديد.

لا ترْووا الأحاديث إلا وأنتم تعلمون أنّ أهل العلم المعتبرين قد حكموا عليها بالصحة أو الثبوت.

وأنتم أيها الأئمة! إن الأنظار تتجه لكم، فكونوا على قدر المسؤولية

---

(١) قد يكون عدم التأثر أو ضعفه لغلبة الهوى والغفلة، ومُرادي ألا يكون خُلق الداعي إلى الله ـ تعالى ـ سبباً في صد أحبابه وذويه ـ ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ـ.

(٢) التحريم: ٦.

(٣) وممّا يُدمي القلوب ويقطّعها، أن يفعل هذا من يأخذ راتباً على ذلك، فلا يحفزه هذا ليحاسب نفسه، فيخلص في التحضير والإعداد والعطاء والإفادة.

التي أُعطيتموها؛ بالعلم والعمل والدعوة والصبر على أذى الناس.

إنّه ممّا يبعث الحسرة في النفوس؛ أن يقرأ الإمام كتاب الله ـ تعالى ـ وهو لا يجيد أحكام الترتيل.

ذلك الإمام المتفرِّغ للإمامة، لا شغل له إلا هذا، ولكنّه لا يُحسن شغله مع الأسف!

ماذا تفعل في فراغك الذي سيسألك الله ـ تعالى ـ عنه؟

كيف ترضى لنفسك أن تصلّي[1] وأنت تهمل صفة صلاة رسول الله ﷺ؟

فأنت مثلاً تسجد وبين قدميك قرابة الشبرين!

ألا يحسن بك ـ يرحمك الله ـ أن تأخذ من عرض الساعات التي تلهو بها دقائق تتعلم فيها أن النّبيّ ﷺ كان «يرصُّ عقبيه»[2] في السجود؟

أليس من الواجب عليك أن تقضي جلّ الوقت في العلم لتجيب على أسئلة الناس؟

كفاك ـ هداني الله وإياك ـ إجابات بالنّصوص العامة؛ لتستر عدم معرفتك بالدليل، وفِقه معظم المسائل.

كُفَّ عن قولك: «**في المسألة خلاف**»، أو «**فيها قولان**»؛ تهرُّباً من معرفة الحقّ وتبليغه.

حسبك قولاً: «**الدين يُسر**»، وتحت هذا الشعار تُفتي بما لا يجوز الفتوى به.

* * *

---

(١) وبهذا لست أُغفل المخلصين من الأئمة الذين شروا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله ـ سبحانه ـ وتمثل هذا في بذل الوقت في العلم والعمل والدعوة إلى الله ـ تعالى ـ.

(٢) أخرجه الطحاوي وابن خزيمة والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، وانظر «صفة الصلاة» (ص١٢٤).

نداء إلى المؤلّفين والنّاشرين

وأنتم أيها المؤلّفون والكُتاب! لا يكوننّ همّكم أن تكتبوا وتؤلّفوا؛ كيلا تكون هذه حجّة عليكم أمام الله ـ تعالى ـ.

اكتبوا فيما ترونه يُصلح أنفسكم وإخوانكم وينفع أمّتكم، وحذار أن تجعلوا العلم تجارة تبتغون به عرض الحياة الدنيا.

لعلّك تكتب أو تشرح أو تحقّق نصوصاً تتعلّق بالحسد أو برّ الوالدين أو المحبّة في الله ـ تعالى ـ أو التقوى... إنّ مهمّتك لعظيمة، ولكنّك أوْلى من يجدُر به الانتفاع من هذه النّصوص، فسل نفسك: هل نقّيْتها من الحسد؟ ومن الذي تحسده؟ وفيم؟ ولا تُحسن الظنّ بنفسك الأمّارة بالسوء، اتّهِمْها لتنجو، وسارع في العلاج والاستطباب... بادر بالتوبة إلى الله ـ تعالى ـ قبل أن تستكمل تأليفك وكتابتك.

وليْكن هذا شأنك؛ مع كلِّ كتابة وشرح، وتعليق وتعقيب، وضبط وتخريج، وتمحيص وتحقيق.

أوليس من العيب أن يقضي المؤلّف شهوراً في كتاب، يعلم أنّ غيره قد كتب مثله أو قريباً منه أو أجود منه وأحسن؟

أين مراقبة الله ـ تعالى ـ في هذا الوقت؛ الذي سيسألك الله ـ تعالى ـ عنه يوم القيامة؟

هل تجد من المقبول ـ يرحمك الله ـ أن تقضي سنوات وأنت تقدّم رسالة جامعية في حرف من حروف اللغة العربية للحصول على شهادة كبيرة؟!

أم تراه من المستساغ أن تقتل بعض الأعوام في الكتابة عن شخصيّة من الشخصيات، لو لم يعرفها المسلم لما أثِم، وبدونها يستطيع ـ بإذن الله تعالى ـ أن يكون من السابقين عند الله ـ عزّ وجلّ ـ؟

كيف ترضى على نفسك أن تضيع بضع سنين في كتابة أمور لا يترتّب عليها فِعل عمل صالح ولا ترْك أمر طالحٍ؟!

كيف تقبل على نفسك ـ هداك الله ـ أن تنقل من غيرك؛ دون أن تعزو لمن نقلت عنه، أو تذكر الكتاب الذي عنه أخذت؟ أتشبّعاً بما لم تُعطَ؟ فكيف تغفل ـ وأنت ممن يتصدر تعليم الناس ـ عن قوله ﷺ: **«المتشبِّع بما لم يُعطَ كلابس ثوبيْ زُور»**[1].

أم حسداً من عند نفسك، تكتم ما لا ينبغي كتمانه؟ ألم تُبْلِغْك مؤلفاتك ودروسك ومواعظك إلى دحض الحسد وقتله، ورسول الله ﷺ يقول في هذا: **«لا يجتمعان في قلب عبد: الإيمان والحسد»**[2].

أم تراها حبّ الشهرة والسمعة والرياء؟!

أخَفِيَ عليك قولُ العلماء: **«بركةُ العلم عزوُه إلى قائله»؟ فمن أجل هذا زالت البركة، وحلَّ المحق.**

وأنتم معشر الناشرين! اتقوا الله ـ تعالى ـ ربكم، فمما لا ينبغي لأحدكم أن يطبع ويوزّع وينشر الكتب الكثيرة، وهو لا يعلم أنّها نافعة وقيّمة، إلا من أفواه الناس، وكثرة الإقبال عليها.

إنّ نفسك التي بين جنبيك ـ أخي الناشر ـ أولى بالانتفاع بهذا الخير، فأقبل على قراءة الكتاب النّافع، قراءة المتمحّص المتأمّل، وسارع إلى العمل، فهذا أحقّ أن تُشغل عنه بطبع الكتاب الثاني والثالث والتاسع... «فإنّ ما قلّ وكفى خير ممّا كثُر وألهى»[3].

---

(١) أخرجه البخاري: ٥٢١٩، ومسلم: ٢١٣٠.

(٢) أخرجه النسائي «صحيح سنن النسائي» (٢٩١٢) وغيره، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (١٢٧١).

(٣) جزء من حديث أخرجه أحمد وابن حبان وغيرهما، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٤٤٣).

واحذر أن يكون ممّا طبعته حجّةٌ عليك يوم القيامة، بما فيه من بيان أوامر لم تأتمر بها، ونواهٍ لم تنتهِ عنها.

وإياكم ونشر غير النافع، وحذار من نشْر الضلال، ثمّ حذارِ أن يتلعّب الشيطان بكم في فتاواه، فيحلّل لكم ما حرّم الله ـ تعالى ـ استكثاراً من المال وحباً له.

اجتنبوا السرقات من الكتب، من مؤلفيها، أو من دور النشر الأخرى، فالبركة منزوعة من هذا السبيل، والتعدّي على حقوق العباد وعِرَة مسالكه، خطِرة عواقبه.

انظروا في أنفسكم: هل تزدادون قربى من الله ـ تعالى ـ مع الاستمرار في الطباعة والنّشر، أم تشعرون بالانشغال عن الله ـ تعالى ـ؟

حاولوا أن تُوفّقوا ـ ما استطعتم ـ بين تزكية نفوسكم وكسب المزيد من نشر العلم.

ولكنّي قلت لكم وسأظل أقول: «**لا تنسوا أنفسكم قبل كل شيء**».

* * *

نداء إلى التّجار

وأنتم يا معشر التّجار! اتقوا الله ـ تعالى ـ في أنفسكم، لا تبيعوا آخرتكم بدنياكم، هل سدّدتم ما عليكم من دُيون يلحّ أصحابها عليكم بطلبها قبل الانتقال إلى تجارة أخرى؟ قبل التوسّع في المشاريع؟! وهل أديتم الحقوق المتعلّقة بما سبَقها؟

ألا تعلمون أنكم تجمعون الآثام إلى العرض الزائل؟ فما الذي تغنيه عنكم أموالكم ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[1].

والعجيب الغريب أن ترى من النّاس؛ من له من المال ما قد يكفيه وذريته وأبناءه السنوات الطويلة لو عاشوها، ولكنك تجده يقضي أوقاته،

---

(١) الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩.

وهو يلهث ويلهث وراء الحُطام الفاني، وهو بذلك يضيع جلّ الجماعات ويفوّت أكثر الواجبات.

اذكروا مع أعمالكم هذه قوله ﷺ: **«ما طلعت شمس قط إلا بُعثَ بجنبتيها ملكان يناديان، يُسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: يا أيها الناس هلمّوا إلى ربكم، فإنّ ما قلّ وكفى خير ممّا كثر وألهى، ولا آبت شمس قط، إلا بُعث بجنبتيها ملكان يناديان، يُسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: اللّهم أعطِ مُنفقاً خلفاً، وأعطِ ممسكاً مالاً تلفاً»**[١].

❋ ❋ ❋

أقوال طيبة من كتاب «اقتضاء العلم العمل»[٢] للخطيب البغدادي ـ رحمه الله تعالى ـ

۞ العلم والد، والعمل مولود، والعِلْم مع العمل، والرواية مع الدّراية[٣].

۞ لا تأنس بالعمل ما دمْت مستوحشاً من العلم، ولا تأنس بالعلم ما كنت مقصّراً في العمل، ولكن اجمع بينهما وإن قلّ نصيبك منهما، والقليل من هذا مع القليل من هذا، أنجى في العاقبة، إذا تفضّل الله بالرحمة وتمّم على عبده النعمة[٤].

۞ العلم يُراد للعمل، كما العمل يُراد للنجاة، فإذا كان العمل قاصراً عن العلم، كان العلم كَلاًّ على العالم[٥].

(١) أخرجه أحمد وابن حبان وغيرهما، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٤٤٣) وتقدّم بعضه غير بعيد.

(٢) حذفت الأسماء التي نسبت إليها الأقوال، مخافة ألا تصحّ النسبة إليها ـ إلا ما ثبت منها ـ مع حذف يسير لبعض العبارات.

(٣)(٤)(٥) من كلام الخطيب البغدادي ـ بحذف يسير ـ من مقدمة كتابه «اقتضاء العلم العمل».

۞ كما لا تنفع الأموال إلا بإنفاقها، كذلك لا تنفع العلوم إلا لمن عمل بها، وراعى واجباتها.

۞ العلم أحد لذّات الدنيا، فإذا عُمل به صار للآخرة.

۞ في الدنيا طغيانان؛ طغيان العلم، وطغيان المال، والذي يُنجيك من طغيان العلم العبادة، والذي ينجيك من طغيان المال الزهد فيه.

۞ متى أردت أن تشرف بالعلم، وتُنسب إليه، وتكون من أهله، قبل أن تعطي العلم ماله عليك؛ احتجب عنك نوره، وبقي عليك رسمه وظهوره، ذلك العلم عليك لا لك، وذلك أن العلم يشير إلى استعماله، فإذا لم تستعمل العلم في مراتبه رحلت بركاته.

۞ خير العلم ما نفع، وإنما ينفع الله بالعلم من عَلِمه ثمّ عمل به، ولا ينفع به من علمه ثمّ تركه.

۞ علم بلا عمل كشجرة بلا ثمرة.

۞ إنّك في دار تمهيد، وأمامك منزلان، لا بد من أن تسكن أحدهما، ولم يأتك أمان فتطمئن، ولا براءة فتقصّر.

۞ إذا كُنتُ أعلم عِلماً يقيناً ... بأنّ جَميع حياتي كساعة
فلِمْ لا أكون ضنيناً بها ... وأجعلُها في صلاحٍ وطاعة

۞ أنت في غفلة الأمل ... لستَ تدري متى الأجل
لا تغرَّنك صِحَّةٌ ... فهي من أوجَعِ العللِ
كلُّ نفسٍ ليومِها ... صبحةٌ تقطع الأمل
فاعمل الخير واجتهد ... قبل أن تُمْنعَ العَمل

۞ عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: **«تعلموا تعلّموا، فإذا علمتم فاعملوا»**(١).

(١) قال شيخنا ـ رحمه الله تعالى ـ: «إسناده موقوف حسن»، وانظر «اقتضاء العلم العمل» (١٠).

۞ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «**مثل علم لا يُعمل به؛ كمثل كنز لا يُنفق منه في سبيل الله ـ عزّ وجلّ ـ**»[١].

۞ وقال الزهري: «**لا يرضينّ الناس قول عالم لا يعمل، ولا عامل لا يعلم**»[٢].

۞ من خرج إلى العلم يريد العلم[٣] لم ينفعه العلم، ومن خرج إلى العلم يريد العمل بالعلم، نفعه قليل العلم.

۞ العلم موقوف على العمل، والعمل موقوف على الإخلاص، والإخلاص لله يورث الفهم عن الله ـ عزّ وجلّ ـ.

۞ من تعلّم العلم للعمل كسره[٤] علمه، ومن طلبه لغير العمل زاده فخراً.

۞ يوشك إنْ طال بكم العمر، أن يُتجمّل بالعلم كما يتجمّل الرجل بثوبه.

۞ العلم ما استعملك، واليقين ما حملك.

۞ إذا أحدث الله لك علماً، فأحدِث له عبادة، ولا يكن إنما همّك أن تحدّث به الناس.

۞ لا يزال العالم جاهلاً بما علم حتى يعمل به، فإذا عمل به كان عالماً.

۞ عِلْم المنافق في قوله، وعلِمْ المؤمن في عمله.

---

(١) قال شيخنا ـ رحمه الله ـ: «إسناده موقوف لا بأس به»، وانظر «اقتضاء العلم العمل» (١٢) وقد جاء مرفوعاً في كتاب «العلم» لأبي خيثمة برقم (١٢).

(٢) قال شيخنا ـ رحمه الله ـ: «إسناده حسن مقطوع على الزهري، وانظر «اقتضاء العلم العمل» (١٤).

(٣) أي: دون عمل.

(٤) جعله متواضعاً ذليلاً لله ـ تعالى ـ.

۞ اعمل بعلمك تغنمْ أيها الرجل ... لا ينفع العلم إنْ لم يُحسن العمل
والعلم زينٌ وتقوى الله زينته ... والمتّقون لهم في علمهم شُغُلُ
تعلّم العلم واعمل ما استطعت به ... لا يُلْهِينّك عنه اللّهو والجدل
وعلّم النّاس واقْصدْ نفعهم أبداً ... إيّاك إيّاك أنْ يعتادك الملل
۞ إذا العلْمُ لم تعمل به كان حُجّةً ... عليك ولمْ تُعْذَرْ بما أنت حامِلُ
فإنْ كنتَ قد أبصرت هذا فإنّما ... يُصدِّق قول المرء ما هو فاعلُ

۞ من قال حسناً، وعمل غير صالح، ردّه الله على قوله، ومن قال حسناً وعمل صالحاً، رفعه العمل، وذلك بأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾.

۞ العلم آلة العمل، فإذا أفنى عمره في جمعه، فمتى يعمل؟!

۞ مهما فاتك من العلم فلا يفوتنك العمل.

۞ من لم ينظر بالعلم فيما لله عليه، فالعلم حُجّة عليه ووبال.

۞ وقال أحدهم: ليتني أنجو من علمي كفافاً، لا عليّ ولا لي.

۞ العلم إن لم ينفعك ضرّك.

۞ لا خير لك أن تتعلم ما لم تعلم، ولم تعمل بما قد علمت، فإنّ مثل ذلك؛ مثل رجل احتطب حطباً، فحزم حزمة ذهب يحملها، فعجز عنها فضمّ إليها أخرى.

۞ كم إلى كمْ أغدوا إلى طلب العِلْـ ... ـمِ مُجِدّاً في جمعِ ذاك حفيّا[1]
طالباً منه كُلَّ نوْعٍ وفنٍّ ... وغريبٍ ولستُ أعْملُ شيّا
وإذا كان طالب العلم لاَ يعْمَـ ... ـلُ بالعلم كان عبداً شقيّا
إنّما تنفع العُلوم لمنْ كا ... نَ بها عاملاً وكان تقيّا

(١) هي المبالغة في العناية، والاستقصاء في طلب العلْم.

۞ إني لأحسب العبد ينسى العلم كان يعلمه، بالخطيئة يعملها.

۞ إنَّ العالم إذا لم يعمل، زلّت موعظته عن القلوب، كما يزلّ القطر عن الصَّفا.

۞ مثل العالم السوء؛ كمثل حجَر وقع في ساقيه، فلا هو يشرب من الماء، ولا هو يخلّي عن الماء، فيحيي به الشجر، ولو أنّ علماء السوء نصحوا لله في عباده، فقالوا: يا عباد الله! اسمعوا ما نخبركم به من نبيّكم وصالح سلفكم فاعملوا به، ولا تنظروا إلى أعمالنا هذه الفشلة، فإنّا قوم مفتونون، كانوا قد نصحوا لله في عباده، ولكنّهم يريدون أن يدعوا عباد الله إلى أعمالهم القبيحة فيدخلوا معهم فيها.

۞ لأنا للقارىء الفاجر؛ أخْوف مني من الفاجر المبرز بفجوره، إنّ هذا أبعدهما غوراً.

۞ وقال أحدهم: إنّما نزل القرآن ليُعمل به، فاتّخذ الناس قراءته عملاً[1]. قيل: كيف العمل به؟ قال: أي: ليحلّوا حلاله، ويحرّموا حرامه، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه، ويقفوا عند عجائبه.

۞ وقيل في قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾[2]: يتبعونه حق اتباعه، يعملون به.

۞ إذا أراد الله بعبدٍ خيراً؛ فتح له باب العمل، وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد شرّاً؛ فتح له باب الجدل، وأغلق عنه باب العمل.

---

(١) أي: للاكتساب به.

(٢) البقرة: ١٢١.

جاء في «تفسير ابن كثير»: «إذا مرّ بذكر الجنة، سأل الله ـ تعالى ـ الجنّة، وإذا مرّ بذكر النار تعوّذ بالله ـ تعالى ـ من النار».

وفيه أيضاً: «قال أبو العالية: قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ والذي نفسي بيده إنّ حقّ تلاوته أن يحلّ حلاله ويحرّم حرامه ويقرأه كما أنزله الله ولا يحرّف الكلم عن مواضعه، ولا يتأوّل منه شيئاً على غير تأويله».

۞ كنّا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به.

۞ تلقى الرجل وما يلحن حرفاً، وعمله لحن كلّه.

۞ أعربنا في الكلام فما نلحن، ولحنّا في الأعمال فما نعرب.

۞ لم نُؤتَ من جهلٍ ولكنَّنا ... نستُرُ وجْهَ العلمِ بالجهلِ
نكره أنْ نلْحَنَ في قولنا ... ولا نبالي اللّحْنَ في الفعلِ

۞ فما لك يوم الحشر سوى الّذي ... تزوّدتَهُ قبل الممات إلى الحشر
إذا أنت لمْ تزرع وأبصرت حاصداً ... ندمت على التّفْريط في زمن البذر

۞ وإذا افتقرت إلى الذّخائر لم تجد ... ذخراً يكون كصالح الأعمال

۞ ورأى أحدهم جيراناً له يجولون فقال: ما لكم؟ فقالوا: فرغْنا اليوم. فقال: وبهذا أُمِر الفارغ؟!

۞ أكثر الناس حساباً يوم القيامة: الصّحيح الفارغ.

۞ اغتنم في الفراغ فَضْلَ رُكوعٍ ... فعسى أنْ يكون موتك بغتةْ
كم صحيحٍ رأيتَ من غير سُقمٍ ... ذهبتْ نفسهُ الصحيحةُ فلْتَةْ!

۞ دعا قوم إلى طعام فقال: إنّي صائم، فقالوا: أفْطر اليوم وصُم غداً، قال: ومنْ لي بغد؟

۞ قيل لأحدهم: «أوصِ» قال: احذروا «سوف».

۞ إياك وتأمير التسويف على نفسك، وإمكانه من قلبك، فإنه محل الكلال، وموئل التلف، وبه تقطع الآمال، وفيه تنقطع الآجال.






الخـاتمة

هذا آخر ما وفّقني الله ـ تعالى ـ لكتبه.

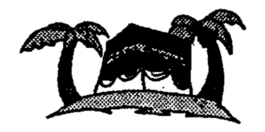
عسى أن يكون هادياً لكاتبه وقارئه، حافزاً لهم إلى العمل والإخلاص بالسنَّة النبويّة والعلم الصحيح» إنّه ـ سبحانه ـ سميع مجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

هذا وقد انتهيت ـ بفضل الله تعالى ـ من النظر فيه وتنقيحه لإعادة طبعه؛ يوم الأحد في عمّان في ٢٦ من ذي الحجة عام (١٤٢٣) هـ.

وكتب:

حسين بن عودة العوايشة




رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

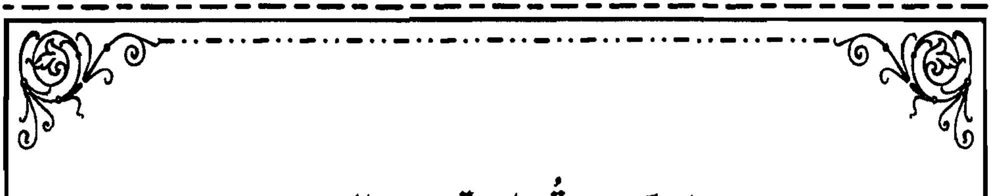
فقه الدعوة وتزكية النفس

(٤)

القبر
عذابه ونعيمه

بقلم
حسين بن عودة العوايشة





ما يكون قُبيل قبض الرّوح

۞ تَرَدُّد الله ـ سبحانه وتعالى ـ في قبض نفس المؤمن: عن أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله ـ تعالى ـ قال: من عادى لي ولياً فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرّبَ إليّ عبدي بشيءٍ أحبّ إليَّ مما افترضتُه عليه، وما يزال عبدي يتقرّبُ إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها، وإنْ سألني لأعطينّه، ولئن استعاذ بي لأُعيذنّه، وما ترددتُ[1] عن شيء أنا فاعله تردُّدي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته»**[2].

۞ حضور الشيطان عند الاحتضار:

يحرص الشيطان على الحضور عند الاحتضار؛ ليختم للمرء بالشر والفسوق والعصيان؛ كما هو شأنه الحرص على الحضور عند سائر الأعمال.

عن جابر ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: **«إنّ الشيطان**

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بعد ذكر الحديث: «... فبيّن ـ سبحانه ـ أنّه يتردد، لأن التردد تعارُض إرادتين، وهو سبحانه يحب ما يحب عبده، ويكره ما يكرهه، وهو يكره الموت فهو يكرهه، كما قال وأنا أكره مساءته؛ وهو ـ سبحانه ـ قد قضى بالموت، فهو يريد أن يموت، فسمى ذلك تردداً ثمّ بيَّن أنه لا بد من وقوع ذلك». «الفتاوى» (١٠/٥٨).

(٢) أخرجه البخاري: ٦٥٠٢.

يحضُر أحدَكم عند كلّ شيء من شأنه، حتى يحضره عند طعامه، فإذا سقطت من أحدكم اللّقمة، فليُمط ما كان بها من أذى، ثمّ ليأكُلْها ولا يدَعْها للشيطان، فإذا فَرَغ فليلعَقْ أَصابِعه، فإنه لا يدري في أي طعامه تكون البركة»[١].

❋ ❋ ❋

ما يكون عند مجيء الموت

طلب الكافر الرجوع إلى الدنيا إذا جاءه الموت:

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[٢].

۞ سكرات الموت:

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ «أنّ رسول الله ﷺ كان بين يديه ركوة[٣] ـ أو عُلبة فيها ماء، يشكّ عمر ـ فجعل يُدخِل يده في الماء فيمسح بها وجهه ويقول: «**لا إله إلا الله، إنّ للموت سكرات**»، ثمّ نصَب يده فجعل يقول: «**في الرفيق الأعلى**» حتى قُبض ومالت يده»[٤].

۞ عدم قبول إيمان الكافر عند الموت:

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما أغرق الله فرعون قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، قال جبريل: يا محمد: فلو رأيتني وأنا آخذ من حال**[٥] **البحر فأدسّه في فيه،**

---

(١) أخرجه مسلم: ٢٠٣٣.

(٢) المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠.

(٣) الرّكوة: إناء صغير من جلد يُشرب فيها الماء، والجمع ركاء. «النهاية».

(٤) أخرجه البخاري: ٦٥١٠.

(٥) الحال: الطين الأسود، كالحمأة. «النهاية».

مخافة أن تُدرِكَه الرّحمة»[١].

۞ مجيء ملك الموت قبيل موت العبد عند رأس الميت*[٢].

۞ تبشير ملك الموت للمؤمن بالمغفرة والرضوان، وللكافر بالسخط والغضب*.

***

ما يكون بعد قبض الرّوح

۞ سهولة خروج نفس العبد المؤمن، وعذاب الكافر بسبب صعوبة خروجها*.

۞ نفس المؤمن تخرج رشْحاً، ونفْس الكافر تخرج من شِدْقِه كما تخرج نفْس الحمار[٣].

۞ خروج نفس العبد المؤمن كأطيب نفحة مسك وجدت، وخروج نفس الكافر كأنتن ريح جيفة وُجِدت*.

۞ المؤمن تخرج نفسه وهو يحمد الله ـ تعالى ـ:

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: **«إن المؤمن بكلّ خير، على كلّ حال، إنّ نفسه تخرج من بين جنبيه، وهو يحمد الله ـ عزّ وجلّ ـ»**[٤].

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» والترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٨٣).

(٢) الوقائع التي تتلوها النجمة، كلها مشتركة بدليل واحد هو حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ الطويل، ولقد تداخَلت وقائع أخرى داخل هذا الحديث، حسب ما رأيته الأفضل في الترتيب.

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير»، وإسناده حسن، وانظر «الصحيحة» (٢١٥١).

(٤) أخرجه أحمد وغيره، وهو في «الصحيحة» (١٦٣٢).

۞ إذا قبض الروح تبعَه البصر:

لقوله ﷺ: «**إن الروح إذا قبض تَبِعَه البصر**»[١].

۞ استفتاح الملائكة للسماوات كلها، واحدة تلو الأخرى بروح المؤمن، وتفتح له جميعها*.

۞ لا تُفتح أبواب السماء للكفار*.

۞ يأمُر الله ـ تعالى ـ أن تعاد روح المؤمن إلى الأرض بعد أن يكتب كتابه في علّيّين[٢]*.

۞ تطرح روح الكافر من السماء طَرْحاً حتى تقع في جسده، بعد أن يُكتب كتابه في سِجّين[٣]*.

۞ استئناس الميت بجلوس الصالحين عند قبره حين الدفن ـ قدر ما تُنحر جزور ويقسم لحمها ـ لما ثبت عن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «**إذا دفنتموني فشنّوا التّراب[٤] شنّاً، ثمّ أقيموا حول قبري قدْر ما تُنحر جزور ويُقسَم لحمها، حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رُسُلَ ربّي**»[٥].

۞ ضغطة القبر، ولا نجاة لأحد منها، حتى الصبيان.

---

(١) أخرجه مسلم: ٩٢٠.

(٢) قيل: معناها الجنة، وقيل: أعمالهم في السماء عند الله، وقيل غير ذلك، وقال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ: «والظاهر أن علّيّين مأخوذ من العلوّ، وكلّما علا الشيء وارتفع عظُم واتسع».

(٣) جاء فيها أقوال: وقال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ: «والصحيح أن سجّيناً مأخوذ من السجن، فإنّ المخلوقات كلّ ما تسافَل منها ضاق، وكلّ ما تعالى منها اتسّع» وفي حديث البراء ـ رضي الله عنه ـ الآتي بعد صفحات ـ إن شاء الله تعالى ـ: «**اكتبوا كتابه في سجّين، في الأرض السُفلى**».

(٤) شنّ التراب: تفريقه.

(٥) أخرجه مسلم: ١٢١.

لقوله ﷺ: **«إنّ للقبر ضغطة، فلو نجا أو سَلِم أحد منها؛ لنجا سعد بن معاذ»**[(١)].

وعن أبي أيوب ـ رضي الله عنه ـ أنّ صبياً دُفن، فقال رسول الله ﷺ: **«لو أفلَت أحد من ضمّة القبر؛ لأفلت هذا الصّبيّ»**[(٢)].

۞ رد العقول على الموتى في القبر:

عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنّ رسول الله ﷺ ذكر فتّان القبر، فقال عمر: «أتُرَدُّ علينا عقولنا يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: **«نعم كهيئتك اليوم»**، فقال عمر: بفيهِ الحجر»[(٣)].

۞ سماع الميت قرع نعال أصحابه إذا انصرفوا عنه*.

۞ متى يسأل الميت؟

يبدأ سؤاله بعد الفراغ من الدفن، فقد كان النّبيّ ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: **«استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت، فإنّه الآن يُسأل»**[(٤)].

۞ مجيء الملكين للسؤال.

أسماء الملكين اللذين يأتيان الميت وصِفَتُهما:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا قُبرَ الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما المنكر والآخر النكير،**

---

(١) أخرجه الطحاوي في «مشكل الآثار» وأحمد في «مسنده» وغيرهما، وهو في «الصحيحة» (١٦٩٥).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير»، وإسناد رجاله كلّهم ثقات، وانظر تفصيله في «الصحيحة» (٢١٦٤).

(٣) أخرجه أحمد وابن حبان والطبراني، وحسنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٥٥٣).

(٤) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٢٧٥٨) والحاكم، وانظر «أحكام الجنائز» (١٥٦).

فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول هو: عبدالله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله، فيقولان: قد كُنّا نعلم أنك تقول هذا...»[١].

۞ تثبيت الله ـ تعالى ـ للمؤمنين في القبر:

عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ قال: «**إذا أُقعد المؤمن في قبره أُتي، ثمّ شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾**»[٢].

۞ إجابة المؤمن وارتباك الكافر.

۞ يجلس الرجل الصالح في قبره غير فزع قبل السؤال، أمّا الرجل السوء فإنه يجلس في قبره فَزِعاً مشعوفاً[٣].

۞ تفرج فُرجة للرجل السوء قِبَل الجنة؛ ليرى ما صَرَفَ الله عنه.

۞ رؤية النار التي وقى الله المؤمن منها.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «**جاءت يهودية استطعمت على بابي فقالت: أطعموني أعاذكم الله من فتنة الدجال ومن فتنة عذاب القبر.**

قالت: فلم أزل أحبسها حتى جاء رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله! ما تقول هذه اليهودية؟ قال: وما تقول؟ قلت: تقول: أعاذكم الله من فتنة الدجال ومن فتنة عذاب القبر.

قالت عائشة: فقام رسول الله ﷺ ورفع يديه مدّاً يستعيذ بالله من فتنة الدجال ومن فتنة عذاب القبر، ثمّ قال: «**أما فتنة الدجال فإنه لم يكن نبي إلا [قد] حذر أمته، وسأحدثكم بحديث لم يحذره نبي أمته:**

---

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي وابن أبي عاصم في «السّنة»، وانظر «الصحيحة» (١٣٩١).

(٢) أخرجه البخاري: ١٣٦٩، ومسلم: ٢٨٧١.

(٣) الشعف: الفزع حتى يذهب بالقلب.

إنه أعور، وإن الله ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن، فأمّا فتنة القبر؛ فبي تُفتنون وعني تُسألون، فإذا كان الرجل الصالح، أُجلس في قبره غير فزع ولا مشعوف، ثمّ يقال له: فيما كنت؟ فيقول: في الإسلام. فيقال: ما هذا الرجل الذي كان فيكم؟ فيقول: محمد رسول الله جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه.

فيفرج له فرجة قِبَل النار، فينظر إليها يحطم بعضها بعضاً، فيقال له: انظر إلى ما وقاك الله، ثمّ يفرج له فرجة إلى الجنة، فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال له: هذا مقعدك منها، ويقال: على اليقين كنت، وعليه مت، وعليه تبعث إن شاء الله.

وإذا كان الرجل السوء، أُجلس في قبره فزعاً مشعوفاً، فيقال له: فيما كنت؟ فيقول: سمعت الناس يقولون قولاً فقلت كما قالوا.

فيفرج له فرجة إلى الجنة، فينظر إلى زهرتها وما فيها فيقال له: انظر إلى ما صرف الله عنك، ثمّ يفرج له فرجة قبل النار، فينظر إليها يحطم بعضها بعضاً، ويقال [له]: هذا مقعدك منها، على الشك كنت وعليه مت، وعليه تبعث إن شاء الله ثمّ يعذب»[١].

۞ يُفتح للمؤمن باب إلى الجنّة من قبره*.

۞ يفتح للكافر باب إلى النار من قبره*.

۞ رؤية العبد المؤمن مقعده من الجنة، ورؤية الكافر مقعده من النار*.

۞ يُفسَح للمؤمن في قبره مدّ بصره، ويضيق قبر الكافر*.

۞ يتمثّل العمل الصالح بشكل رجل، حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، مبشراً بما يسرّه، وأما العمل الخبيث فإنه يأتي بشكل رجل قبيح الثياب، منتن الريح، مبشراً بما يسوؤه*.

---

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح، وهو مخرج في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٥٥٧)، وأصله في الصحيحين وانظر «صحيح البخاري» (١٣٧٢)، و«صحيح مسلم» (٥٨٦).

۞ ضرْب الكافر بِمرزَبَة حتى يصير بها تراباً*.

ودليل ذلك حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: «خرجنا مع النّبيّ ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر؛ ولمّا يُلحد[1]، فجلس رسول الله ﷺ [مستقبل القبلة]، وجلسنا حوله، وكأنّ على رؤوسنا الطّير، وفي يده عودٌ ينكت[2] في الأرض، [فجعل ينظر إلى السماء، وينظر إلى الأرض، وجعل يرفع بصره ويخفضه، ثلاثاً]، فقال: **استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثاً**، [ثمّ قال: **اللّهم إنّي أعوذ بك من عذاب القبر**] [ثلاثاً]، ثمّ قال: «**إنّ العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة؛ نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه، كأنّ وجوههم الشمس، معهم كفنٌ من أكفان الجنة، وحَنُوطٌ[3] من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مَدَّ البصر، ثمّ يجيء ملك الموت ـ عليه السلام ـ حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيّتها النفس الطّيبة (وفي رواية: المطمئنة)! أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان.**

قال: **فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السِّقَاءِ، فيأخذها (وفي رواية: حتى إذا خرجت روحه؛ صلّى عليه كلُّ ملكٍ بين السماء والأرض، وكلّ ملك في السماء، وفتحت له أبواب السماء، ليس من أهلِ باب إلاّ وهم يدعون الله أن يعرج بروحه من قبلهم)، فإذا أخذها؛ لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، [فذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾، ويخرج منها كأطيب نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدت على وجه الأرض.**

قال: **فيصعدون بها؛ فلا يمرّون ـ يعني ـ بها على ملإ من الملائكة إلاّ قالوا: ما هذا الروح الطّيّب؟ !فيقولون: فلان ابن فلان ـ بأحسن أسمائه التي كانوا يُسمُّونه بها في الدنيا ـ حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا،**

---

(١) أي: لم يوضع في لحده بعْدُ.

(٢) أي: يضرب بطرفه الأرض، وذلك فِعل المفكّر المهموم «عون» (١٣/٦٣).

(٣) بفتح المهملة: ما يُخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصّة «النهاية».

فيستفتحون له، فيفتح لهم، فيشيّعه من كلّ سماء مُقرّبوها إلى السماء التي تليها، حتى يَنتهيَ به إلى السماء السابعة، فيقول الله ـ عزّ وجلّ ـ: اكتبوا كتاب عبدي في علّيين، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المطففين: ١٩ ـ ٢١]؛ فيكتب كتابه في عِلِّيين، ثمّ يقال]: أعيدوه إلى الأرض؛ فإنّي [وعدتهم أنّي] منها خلقتهم وفيها أُعيدهم ومنها أُخرجهم تارةً أخرى.

قال: فـ [يُردّ إلى الأرض، و] تُعاد روحه في جسده، [قال: فإنّه يسمع خفق نعال أصحابه إذا ولّوا عنه] [مدبرين].

فيأتيه ملكان [شديدا الانتهار]، فـ [ينتهرانه و] يُجلسانه، فيقولان له: من ربّك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ. فيقولان له: ما عَمَلُك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به وصدّقت، فينتهره فيقول: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيُّك؟ وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن.

فذلك حين يقول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيّ محمد ﷺ، فينادي منادٍ في السماء: أنْ صدق عبدي، فأفرِشوه من الجنة، وألبِسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنّة، قال: فيأتيه من رَوْحِها وطِيبها، ويفسح له في قبره مدّ بصره.

قال: ويأتيه [وفي رواية: يُمَثَّلُ له] رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيّب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسُرُّك، [أبشر برضوانٍ من الله، وجنّاتٍ فيها نعيم مقيم]، هذا يومك الذي كُنت تُوعد، فيقول له: [وأنت ـ فبشّرك الله بخير] ـ من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير! فيقول: أنا عملك الصالح؛ [فوالله ما عَلِمْتُك إلا كنت سريعاً في طاعة الله، بطيئاً في معصية الله، فجزاك الله خيراً].

ثمّ يُفتح له باب من الجنة، وباب من النار، فيقال: هذا منزلك لو عصيت الله، أبدلك الله به هذا، فإذا رأى ما في الجنة قال: ربِّ! عجّل قيام الساعة؛ كيما أرجع إلى أهلي ومالي! [فيقال له: اسكن].

قال: وإنّ العبد الكافر (وفي رواية: الفاجر) إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة؛ نزل إليه من السماء ملائكة [غلاظ شداد]، سُود الوجوه، معهم المُسُوح[1] [من النار]، فيجلسون منه مدّ البصر[2]، ثمّ يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة! أخرجي إلى سَخَطٍ من الله وغضب، قال: فتفرّق في جسده، فينتزعها كما يُنتزع السُّفُود[3] [الكثير الشُّعب] من الصّوف المبلول، [فتَقطَّعُ معها العروق والعصب]، [فيلعنه كلُّ ملك بين السماء والأرض، وكلُّ ملك في السماء، وتغلَق أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله ألا تعرج روحه من قِبلهم]، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدَعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المُسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفةٍ وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرّون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟! فيقولون: فلان ابن فلان ـ بأقبح أسمائه التي كان يُسمّى بها في الدنيا، حتى يُنتَهى به إلى السماء الدنيا، فيُستفتح له، فلا يُفتح له، ثمّ قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ[4]﴾[5] فيقول الله ـ عزّ وجلّ ـ: اكتبوا كتابه

---

(١) جمع مِسح: ثوب من الشعر غليظ.

(٢) أي: منتهى بصره.

(٣) السُّفود: هو عود من حديد يُنظّم فيه اللحم ليُشوى» «الوسيط».

(٤) قال الحسن البصري وغيره: «حتى يدخل البعير في خرق الإبرة» وكذا روى علي ابن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس» وقال مجاهد وعكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «إنّه كان يقرأها ﴿يَلِجَ الجُمّل فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ بضم الجيم وتشديد الميم ـ الجُمّل ـ يعني: الحبل الغليظ في خرق الإبرة»» عن «تفسير ابن كثير» بحذف.
وهذا تعليق بالمستحيل؛ أي: أنهم لا يدخلون الجنة أبداً، وانظر ـ إن شئت ـ ما قاله البغوي في «تفسيره».

(٥) الأعراف: ٤٠.

في سِجين[١]؛ في الأرض السُّفلى، [ثمّ يقال: أعيدوا عبدي إلى الأرض؛ فإنّي وعدتهم أنّي منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أُخرجهم تارةً أخرى]، فتُطرح روحه [من السماء] طرحاً [حتى تقع في جسده] ثمّ قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾، فتعاد روحه في جسده، [قال: فإنّه ليسمع خفق نعال أصحابه إذا ولّوا عنه].

ويأتيه ملكان [شديدا الانتهار، فينتهرانه و] يُجلسانه، فيقولان له: من ربُّك؟ [فيقول: هاهْ هاهْ[٢]! لا أدري! فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاهْ هاهْ! لا أدري]! فيقولان: فما تقول في هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فلا يهتدي لاسمه، فيُقال: محمد! فيقول: هاه هاه! لا أدري! [سمعت الناس يقولون ذاك! قال: فيقال: لا دَرَيتَ]، [ولا تلوت]، فينادي مُنادٍ من السماء: أنْ كذب، فأفرشوا له من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرّها وسَمُومها[٣]، ويُضيَّق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه (وفي رواية: ويُمثل له) رجلٌ قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومُك الذي كنت توعد، فيقول: [وأنت فبشّرك الله بالشرّ] من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشّر! فيقول: أنا عملك الخبيث؛ [فوالله ما علمت إلا كنت بطيئاً عن طاعة الله، سريعاً إلى معصية الله]، [فجزاك الله شرّاً! ثمّ يُقيّض له أعمى أصمُّ أبكم في يده مِرزبَة[٤] لو ضُرِبَ بها جبل كان تراباً، فيضربه ضربة حتى يصير بها تراباً، ثمّ يعيده الله كما كان، فيضربه ضربة أخرى، فيصيح صيحة يسمعه كلّ شيء إلا الثقلين، ثمّ

---

(١) قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في «تفسيره»: «والصحيح أنّ سجّيناً مأخوذ من السِّجن، وهو الضيق»، وقال في موطن آخر: «وهو يجمع الضيق والسفول».

(٢) جاء في «عون المعبود» (١٣/٦٥): «هاهْ هاهْ ـ بسكون الهاء فيهما بعد الألف ـ: كلمة يقولها المتحيّر الذي لا يقدر ـ من حَيرته للخوف أو لعدم الفصاحة ـ أن يستعمل لسانه في فيه».

(٣) الريح الحارّة.

(٤) المِرزَبة ـ بالتخفيف ـ: المطرقة الكبيرة التي تكون للحدّاد. «النهاية».

يفتح له باب من النار، ويُمهَّد من فُرُش النار]، فيقول: ربِّ! لا تُقم الساعة»[١].

۞ شمّ الملائكة روح المؤمن.

۞ فرح المؤمنين باستقبال روح المؤمن الجديدة، أشد من أهل الغائب بغائبهم.

۞ عند أرواح المؤمنين تستريح الروح من غمّ الدنيا:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبيّ ﷺ قال: **«إن المؤمن إذا قُبض أتته ملائكة الرحمة بحريرةٍ بيضاء، فيقولون: أخرجي إلى روح الله، فتخرج كأطيب ريح المسك، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً، فيشمّونه حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون: ما هذه الريح الطيبة التي جاءت من الأرض، ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين، فإنهم أشد فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم، فيقولون: ما فعَل فلان؟ فيقولون: دعوه حتى يستريح فإنه كان في غمّ الدنيا، فيقول: قد مات، أما أتاكم؟ فيقولون: ذهب به إلى أمّه الهاوية.**

وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بِمسح فيقولون: أخرجي إلى غضب الله، فتخرج كأنتن ريح جيفة، فيذهب به إلى باب الأرض»[٢].

۞ استمرارية عرض مقعد المرء من الجنّة أو النّار في القبر:

قال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾[٣].

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ

---

(١) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٣٩٧٩)، والحاكم، والطيالسي، وأحمد وغيرهم، وانظر «أحكام الجنائز» (ص١٩٨).

(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» وهو عند ابن ماجه بنحوه بسند صحيح، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٥٥٩).

(٣) غافر: ٤٦.

أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إنْ كان من أهل الجنة فمن أهل الجنّة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار» يُقال: هذا مقعدك حتى يبعثكَ الله إليه يوم القيامة»[١].

۞ سماع البهائم لأصوات من يُعذّبون في قبورهم:

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنّ النّبيّ ﷺ قال: «**إنّ الموتى ليُعذّبون في قبورهم، حتى إنّ البهائم لتسمع أصواتهم**»[٢].

۞ القبر أول منزل من منازل الآخرة:

عن هانىء مولى عثمان بن عفان قال: كان عثمان ـ رضي الله عنه ـ إذا وقف على قبر بكى حتى يبلّ لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتذكر القبر فتبكي.

فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينجُ منه فما بعده أشد**».

قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما رأيت منظراً قط، إلا القبرُ أفظع منه**»[٣].

۞ امتلاء قبور من وقعوا بالمعاصي بالظلمة:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال ﷺ: «**إنّ هذه القبور مملوءة ظلمةً على أهلها، وإن الله ـ عزّ وجلّ ـ يُنوّرها لهم بصلاتي عليهم**»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري: ١٣٧٩، ٣٢٤٠، ٦٥١٥، ومسلم: ٢٨٦٦.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير»، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٥٤٨)، وانظر «الصحيحة» (١٣٧٧).

(٣) أخرجه الترمذي وابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٤٢)، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٥٥٠).

(٤) أخرجه مسلم: ٩٥٦.

۞ عذاب القبر لا يطيق سماعه الأحياء:

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنّ النّبيّ ﷺ قال: **«لولا أن لا تدافَنُوا، لدعوت الله أن يُسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه»**[١].

۞ الأكل من شجر الجنة قبل يوم القيامة:

عن كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال ﷺ: **«إنّ أرواح الشهداء في أجوافِ طيرٍ خُضر تعلقُ**[٢] **من ثمر الجنّة أو شجر الجنّة»**[٣].

۞ نفس المؤمن معلّقة بدَيْنِهِ:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال ﷺ: **«نفس المؤمن معلقة بدينِهِ حتى يُقضَى عنه»**[٤].

۞ دعاء أهل السماء للعبد المؤمن:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال ﷺ: **«إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يُصعدانها ـ فَذكر من طيب ريحها وذكر المسكُ ـ ويقول أهل السماء: روح طيبة، جاءت من قِبَل الأرض، صلى الله عليكِ، وعلى جسد كنتِ تعمُرينَه.**

فينطلق به إلى ربّه ـ عزّ وجلّ ـ ثمّ يقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل.

وإنّ الكافر إذا خرجت روحه ـ فذكر من نتْنِها وذكَر لعْناً ـ ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قِبَل الأرض، فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل»[٥].

---

(١) أخرجه مسلم: ٢٨٦٧.

(٢) أي: تأكل.

(٣) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٣٦٨)، وانظر «الصحيحة» (٩٩٥).

(٤) أخرجه أحمد والترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٨٦٠، ٨٦١) وابن ماجه وغيرهم، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «المشكاة» (٢٤١٥): إسناده صحيح.

(٥) أخرجه مسلم: ٢٨٧٢.

۞ التنوير للمؤمن في القبر.

۞ نوم المؤمن في قبره.

۞ شوق الميّت لتبشير أهله:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قُبر الميت ـ أو قال: أحدكم ـ: أتاه ملكان أسودان أزرقان، يُقال لأحدهما المُنكر والآخر النكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: ما كان يقول هو: عبدالله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا.**

ثمّ يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين، ثمّ يُنوّر له فيه، ثمّ يقال: نم فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقولان: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك.

وإن كان منافقاً قال: سمِعْت الناس يقولون قولاً، فقلت مثله، لا أدري، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك. فيُقال للأرض: التئمي عليه، فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذباً، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»[1].

۞ قول الميت في القبر: دعوني أصلّي:

عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: إذا دخلَ الميّت القبر؛ مُثّلت الشّمسُ عند غروبها، فيجلس يمسح عينيه ويقول: دعوني أصلّي[2].

۞ جواب المؤمن في القبر هداية من الله ـ تعالى ـ!

۞ لا يُسأل العبد عن غير العبادة والدّين في القبر:

---

(١) أخرجه الترمذي وابن أبي عاصم في «السّنّة»، وهو في «الصحيحة» برقم (١٣٩١)، وتقدّم بعضه.

(٢) أخرجه ابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٤٧)، وانظر تخريج كتاب «السّنّة» برقم (٨٦٧).

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن المؤمن إذا وُضع في قبره أتاه ملك فيقول له: ما كنت تعبد؟ فإنِ الله هداه قال: كنت أعبد الله، فيُقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: هو عبد الله ورسوله، فما يسأل عن شيء غيرها.**

فينطلق به إلى بيت كان له في النار، فيقال له: هذا بيتك كان لك في النار، ولكن الله عصمك ورحمك، فأبدلك به بيتاً في الجنة، فيقول: دعوني حتى أذهب فأبشر أهلي، فيقال له: اسكن.

وإنّ الكافر إذا وُضِع في قبره، أتاه ملك فينتهره، فيقول له: ما كنت تعبد؟ فيقول: لا أدري، فيقال له: لا دَرَيت ولا تليت، فيقال له: فما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: كنت أقول ما تقول الناس، فيضربه بمطراق من حديد بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها الخلق غير الثقلين»[١].

۞ عدم سماع الموتى لما يجري على الأرض: قال ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾﴾[٢].

۞ سماع أهل القليب كلام النّبيّ ﷺ، وعدم قدرتهم على الجواب[٣]: عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: اطّلع النّبيّ ﷺ على أهل القَليب فقال: «**وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟**» فقيل له: تدعو أمواتاً، فقال: «**ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيبون**»[٤]!

۞ شوق الصّحابة في البرزخ ـ ممن استشهدوا في سبيل الله ـ تعالى ـ لإخبار من لم يمت من إخوانهم بالكرامة المعدّة للشهداء:

---

(١) أخرجه أحمد عن جابر، وأبو داود عن أنس «صحيح سنن أبي داود» (٣٩٧٧)، وأصله في «الصحيحين»، وانظر «الصحيحة» (١٣٤٤).

(٢) الروم: ٥٢.

(٣) هذا خاص بأهل القليب، أمّا الإطلاق في هذا الأمر فلا، فإنّ الموتى لا يسمعون كما سلف، وراجع كتاب «الآيات البينات في عدم سماع الأموات» للألوسي، تحقيق شيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ.

(٤) أخرجه البخاري: ١٣٧٠، ومسلم: ٢٨٧٤.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال ﷺ: **«لمّا أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في جوف طير خُضر، ترد أنهار الجنّة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب، معلقة في ظل العرش.**

فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم؛ قالوا: من يبلغ إخواننا عنّا أنّا أحياء في الجنة نرزق، لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكُلوا عند الحرب؟ فقال الله ـ تعالى ـ: **«أنا أبلغهم عنكم»**[1].

***

العذاب الجسمي للعصاة في القبر

عن سمُرة بن جندب ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ ممّا يُكثِر أن يقول لأصحابه: **«هل رأى أحد منكم من رؤيا؟**

فيقصّ عليه ما شاء الله أن يقصّ، وإنّه قال لنا ذات غداة: **إنّه أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني، وإنّهما قالا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه، فيثلغ[2] رأسه، فيتدهده[3] الحجر ها هنا، فيتبع الحجر فيأخذه، فلا يرجع إليه حتى يصحّ رأسه كما كان، ثمّ يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل المرة الأولى.**

قال: **قلت لهما: سبحان الله! ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق. فانطلقنا، فأتينا على رجل مستلق لقفاه، وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد، وإذا هو يأتي أحد شِقّي وجهه فيشرشر[4] شدقه إلى قفاه، ومنخره**

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» وأبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٢١٩٩)، وتقدّم بعضه من حديث كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.
(٢) أي: يشدخه ويشقّه.
(٣) أي: يتدحرج.
(٤) أي: يقطع.

إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، قال: وربما قال أبو رجاء[١] فيشُقُّ، ثمّ يتحوّل إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصحّ ذلك الجانب كما كان، ثمّ يعود عليه، فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى.

قال: قلت: سبحان الله! ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق. فانطلقنا فأتينا على مثل التنّور، وأحسِب أنّه كان يقول: فإذا فيه لغَط وأصوات، فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفلَ منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضَوْضَوا[٢] قلت: ما هؤلاء؟ قالا لي: انطلق انطلق. فانطلقنا فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثمّ يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة، فيفغر[٣] له فاه فيلقمه حجراً، فينطلق يسبح، ثمّ يرجع إليه، كلّما رجع إليه فغر له فاه فألقمه حجراً. قلت لهما: ما هذان؟ قالا لي: انطلق انطلق.

فانطلقنا فأتينا على رجل كريه المرآة[٤]، كأكره ما أنت راء رجلاً مرآة، وإذا هو عنده نار يحشّها[٥] ويسعى حولها. قلت لهما: ما هذا؟ قالا لي: انطلق انطلق.

فانطلقنا فأتينا على روضة معتمّة[٦] فيها من كل لون الربيع، وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل، لا أكاد أرى رأسه طولاً في السماء، وإذا حول الرجل من أكثر وِلدان رأيتهم قطّ، قلت: ما هذا؟ ما هؤلاء؟ قال لي: انطلق انطلق.

---

(١) هو الراوي عن سمرة بن جندب ـ رضي الله عنه ـ.
(٢) أي: صاحوا.
(٣) أي: يفتح.
(٤) أي: المنظر
(٥) يوقدها.
(٦) أي: وافية النبات طويلته غطاها الخصب.

فانطلقنا، فانتهينا إلى روضة عظيمة[1] لم أر روضة قطّ أعظم منها ولا أحسن. قالا لي: ارْقَ فارتقيتُ فيها.

قال: فارتقينا فيها، فانتهينا إلى مدينة مبنيّة بلَبِن[2] ذهب ولبن فضة، فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا فدخلناها، فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطر منهم كأقبح ما أنت راء.

قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النّهر، وإذا هو نهر معترض يجري كأنّ ماءه المحض[3] من البياض. فذهبوا فوقعوا فيه: ثمّ رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة.

قال: قالا لي: هذه جنّة عدن، وهذاك منزلك، فسما بصري[4] صُعُداً، فإذا قصر مثل الربابة[5] البيضاء. قالا لي: هذاك منزلك، قلت لهما: بارك الله فيكما، ذراني فأدخله. قالا: أما الآن فلا وأنت داخله.

قلت لهما: فإني رأيت منذ الليلة عجباً؟ فما هذا الذي رأيت؟ قالا لي: أما إنّا سنخبرك:

أمّا الرجل الأوّل الذي أتيتَ عليه يثلغ رأسه بالحجر، فإنه الرجل يأخذ بالقرآن فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة.

وأمّا الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شِدقه إلى قفاه، ومنِخَره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق[6]، وأمّا الرجال والنّساء العراة الذين في مثل بناء التنّور، فهم الزّناة والزّواني.

---

(١) الشجرة الكبيرة.
(٢) اللّبِن: المضروب من الطين، يُبنى به دون أن يُطبخ. «الوسيط».
(٣) أي: اللبن الخالص من الماء حلواً كان أو حامضاً. «الفتح».
(٤) أي: ارتفع.
(٥) أي: السحابة.
(٦) جمع أفق: وهو الناحية.

وأمّا الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجارة فإنه آكل الربا.

وأما الرجل الكريه المرآة الذي عند النّار يحشها ويسعى حولها، فإنه مالك خازن جهنّم.

وأمّا الرجل الطويل الذي في الروضة فإنّه إبراهيم ﷺ.

وأمّا الوِلدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة، فقال بعض المسلمين: يا رسول الله! وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: وأولاد المشركين.

وأمّا القوم الذين كانوا شطر منهم حسناً وشطر منهم قبيحاً، فإنّهم قوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم»[1].

وفي رواية له: «رأيت الليلة رجلين أتياني فأخذا بيدي فأخرجَاني إلى الأرض المقدّسة، ثمّ ذكره وقال: فانطلقنا إلى ثَقْبٍ مِثل التنور، أعلاه ضيق وأسفله واسع، يتوقد تحته ناراً، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كاد أن يخرجوا، فإذا خمَدت رجعوا فيها، وفيها رجال ونساء عراة... وفيها «حتى أتينا على نهر من دَمٍ فيه رجل قائم على وَسَط النّهر رجل بين يديه حجارة، فأقبَل الرّجل الذي في النّهر، فإذا أراد أن يخرج رَمى الرّجل بحجر في فيه، فرده حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج رمي في فيه بحجر، فيرجع كما كان... وفيها: فصعِدا بي في الشجرة وأدخلاني داراً لم أر قطُّ أحسن منها، فيها رجال شيوخ وشباب ونساء وصبيان.

وفيها:... الذي رأيته يشق شدقه فكذاب يحدث بالكذبة، فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيصنع به إلى يوم القيامة.

وفيها:... الذي رأيته يُشدخ رأسه فرجل علّمه الله القرآن، فنام عنه بالليل، ولم يعمل فيه بالنهار، يُفعل به إلى يوم القيامة»[2].

***

(١) أخرجه البخاري: ٧٠٤٧.

(٢) أخرجه البخاري: ١٣٨٦.

من الذنوب التي يعذب عليها العصاة في القبر

١ ـ عذاب الذي يأخذ القرآن ويرفضه، والنائم عن الصلاة المكتوبة.

قد تقدّم معنا حديث سمرة بن جندب ـ رضي الله عنه ـ بطوله، وفيه: «**... وأنا أتينا على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه، فيثلغ رأسه، فيتدهده الحجر ها هنا، فيتبع الحجر، فيأخذه فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثمّ يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل المرة الأولى**».

ثمّ جاء البيان في آخر الحديث بقول الملكين لرسول الله ﷺ: «**أمّا الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر، فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة**»، وفي رواية: «**فيفعل به إلى يوم القيامة**».

٢ ـ عذاب الكذب:

وفي حديث سمرة بن جندب ـ رضي الله عنه المتقدّم كذلك ـ: «**فانطلقنا، فأتينا على رجل مستلقٍ لقفاه، وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد، وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه فيشرشر شِدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، ثمّ يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان، ثمّ يعود عليه فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى**».

وفي آخر الحديث: «**وأمّا الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق**».

وفي رواية: «**فيفعل به إلى يوم القيامة**».

٣ ـ عذاب الزناة والزواني:

وفي الحديث السابق كذلك: «**فانطلقنا فأتينا على مثل التنور، وأحسب**

أنه كان يقول: فإذا فيه لغَط وأصوات، فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة وإذا هم يأتيهم لهب من أسفلَ منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضَوضَوا».

وفي بيان هؤلاء، جاء في الحديث: «وأمّا الرجال والنساء العراة الذين في مثل بناء التنور فهم الزناة والزواني».

٤ ـ عذاب آكل الرّبا:

وبيانه في الحديث السابق أيضاً، وفيه: «فانطلقنا فأتينا على نهر؛ حسبت أنه كان يقول أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شطّ النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثمّ يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة، فيفغر له فاه فليقمه حجراً، فينطلق يسبح، ثمّ يرجع إليه، كلما رجع إليه فغرَ له فاه فألقمه حجراً».

وفي آخر الحديث: «وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويُلقَم الحجارة، فإنه آكل الربا».

٥ ـ عذاب الميت بما نيح عليه:

قال ﷺ: «الميت يعذب في قبره بما نيح عليه»[(١)].

٦ ـ عذاب الميت ببعض أقوال أهله فيه:

قال ﷺ: «ما من ميت يموت، فيقوم باكيهم فيقول واجبلاه، واسيّداه، أو نحو ذلك، إلا وُكِّلَ به ملكان يلهزانه[(٢)]: أهكذا أنت»[(٣)].

٧ ـ عذاب من كان يمشي بالنميمة:

---

(١) أخرجه البخاري: ١٢٩٢، ومسلم: ٢٩٢٧. أمّا إذا أوصى في حياته بعدم النوح فلا يعذب بذلك، والله أعلم. انظر «أحكام الجنائز» (ص٤١).

(٢) يلهزانه: أي: يدفعانه ويضربانه، واللهز: الضرب بجُمْع الكفّ في الصدر. «النهاية».

(٣) أخرجه الترمذي وابن ماجه، وحسنه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٥٢٢).

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «مرَّ النّبيّ ﷺ بحائط من حيطان المدينة ـ أو مكة ـ فسمِعَ صوت إنسانين يُعذبان في قبورهما، فقال النّبيّ ﷺ: «**يعذبان، وما يعذبان في كبير**» ثمّ قال: «**بلى، كان أحدهما لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة**»[1].

٧ ـ وفي رواية: «**وكان الآخر لا يستنزه**[2] **عن البول**»[3].

٨ ـ عذاب من لا يستنزه أو يستتر من بوله: للحديث السابق.

❋ ❋ ❋

الأنبياء والبرزخ

١ ـ توكيل الله ـ تعالى ـ ملكاً عند قبر النّبيّ ﷺ لإخباره بمن يصلي عليه؛ بتسمية الشخص الذي صلّى على رسول الله ﷺ باسمه.

عن عمّار بن ياسر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الله وكّل بقبري ملكاً؛ أعطاه الله أسماء الخلائق، فلا يُصلّي عليّ أحدٌ إلى يوم القيامة؛ إلا أبلغني باسمه واسم أبيه: هذا فلان ابن فلان قد صلّى عليك**»[4].

٢ ـ الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء:

قال ﷺ: «**إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه قُبض، وفيه النفخة، وفيه الصّعقة، فأكثِروا عليّ من الصلاة فيه، فإنّ صلاتكم معروضة عليّ، قالوا: وكيف تُعرض صلاتنا عليك وقد أرَمْت أي**

---

(١) أخرجه البخاري: ٢١٦، ومسلم: ٢٩٢.

(٢) لا يستنزه: أي لا يستبرئ ولا يتطهّر ولا يستبعد منه. «النهاية».

(٣) أخرجه مسلم: ٢٩٢.

(٤) أخرجه البزار وغيره، وحسنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٦٧)، وانظر «الصحيحة» (١٣٥٠).

بليت؟ فقال: إنّ الله ـ جلّ وعلا ـ حرّم على الأرض أن تأكل أجسامنا»(١).

٣ ـ الأنبياء في القبور أحياء.

٤ ـ صلاتهم ـ عليهم السلام ـ في قبورهم:

قال ﷺ: «الأنبياء ـ صلواتُ الله عليهم ـ أحياءٌ في قبورهم يُصلّون»(٢).

وقال ﷺ: «مررت ليلة أسري بي على موسى قائماً يُصلّي في قبره»(٣).

٥ ـ التقاء الرسول ﷺ بآدم، ويحيى وعيسى ويوسف وإدريس وهارون وموسى وإبراهيم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

٦ ـ بكاء موسى ـ عليه السلام ـ في حسد غبطة.

٧ ـ نصيحة موسى ـ عليه السلام ـ لرسولنا ﷺ، أن يسأل الله ـ تعالى ـ التخفيف فيما فرضه على عباده من الصلاة.

عن مالك بن صعصعة ـ رضي الله عنه ـ «أنّ نبيّ الله ﷺ حدّثه عن ليلة أسري به قال: بينما أنا في الحطيم ـ وربما قال في الحجر ـ مضطجعاً، إذ أتاني آت فقدَّ ـ قال وسمعته يقول: فشقَّ ـ ما بين هذه إلى هذه. فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثُغرة نحره إلى شِعرَته ـ وسمعته يقول: من قصّه إلى شِعرته ـ فاستخرج قلبي، ثمّ أُتيت بطَست من ذهبٍ مملوءةٍ إيماناً، فغُسِلَ قلبي، ثمّ حُشي، ثمّ أُعيد، ثمّ أُتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض. ـ فقال له الجارود: هو البُراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم ـ يضع خطوهُ عند أقصى طرفه، فحُملتُ عليه.

---

(١) أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان في «صحيحه» واللفظ له، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٩٦).

(٢) أخرجه البزار في «مسنده» وغيره، وله شواهد تقوّيه ذَكرها شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٦٢١).

(٣) أخرجه مسلم: ٢٣٧٥.

فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدُّنيا فاستفتَح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسِلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء. ففتح، فلما خَلَصت فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم، فسلمْ عليه، فسلمت عليه فردّ السلام ثمّ قال: مرحباً بالابن الصالح والنّبيّ الصالح.

ثمّ صَعِد بي حتى أتى السماء الثانية فاستفتح. قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسِلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء. ففتح، فلما خَلَصْت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة.

قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما فسلّمتُ، فردا، ثمّ قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنّبيّ الصالح.

ثمّ صعِد بي حتى أتى السماء الثالثة فاستفتح. قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسِلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء. ففتح، فلما خَلَصْت إذا يوسف، قال: هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه، فردّ ثمّ قال: مرحباً بالأخ الصالح والنّبيّ الصالح.

ثمّ صعِد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح. قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أوقد أرسِلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء. ففتح، فلما خَلَصْت فإذا إدريس قال هذا إدريس فسلم عليه، فسلمت عليه، فردَّ ثمّ قال: مرحباً بالأخ الصالح والنّبيّ الصالح.

ثمّ صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح. قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ. قيل: وقد أرسِلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء. فلما خلصَت فإذا هارون. قال: هذا هارون فسلم عليه، فسلمت عليه، فردّ ثمّ قال: مرحباً بالأخ الصالح والنّبيّ الصالح.

ثمّ صعِد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح. قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسِلَ إليه؟ قال: نعم. قال: مرحباً به، فنعم المجيء جاء. فلما خَلَصْت فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلم عليه، فسلمت عليه، فردّ ثمّ قال: مرحباً بالأخ الصالح والنّبيّ الصالح. فلما تجاوزت بكى. قيل له: ما يُبكيك؟ قال: أبكي لأن غُلاماً بُعث بعدي يدخل الجنّة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمّتي.

ثمّ صعِد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. قال: مرحباً به، ونعم المجيء جاء. فلما خَلَصت فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك فسلم عليه. فسلمتُ عليه، قال: فرد السلام ثمّ قال: مرحبا بالابن الصالح والنّبيّ الصالح.

ثمّ رُفعت لي سِدرة المنتهى، فإذا نبقُها مثل قلال هَجَر[1]، وإذا ورقها مِثلُ آذان الفِيَلة. قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران.

فقلت: ما هذان يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفُرات، ثمّ رُفع لي البيت المعمور، ثمّ أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل، فأخذت اللبن، فقال: هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك.

ثمّ فُرضت عليّ الصلاة خمسين صلاة كل يوم، فرجعت فمررتُ على موسى، فقال: بما أمِرت؟ قال: أمرت بخمسين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربّك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت، فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله. فرجعت

---

(١) هجر: قرية قريبة من المدينة، وليست هجر البحرين. وكانت تعمل بها القلال، تأخذ الواحدة منها مزادة من الماء، سميت قلة لأنها تقل: أي ترفع وتحمل. والنبق: هو ثمر السدر. «النهاية».

فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله. فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله. فرجعت فأُمِرتُ بعشر صلوات كل يوم، فرجعت فقال مثله.

فرجعت فأُمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بما أمِرت؟ قلت: أمِرت بخمس صلوات كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة. فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمّتك.

قال: **سألت ربي حتى استحييتُ، ولكن أرضى وأسلم. قال: فلما جاوزتُ نادى مُنادٍ: أمضيت فريضتي، وخَفّفتُ عن عبادي**»[1].

❋ ❋ ❋

ما ينتفِع به الميّت بعد موته

١ ـ الصّلاة عليه:

قال ﷺ: «**ما من ميت صلى عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة، كلهم يشفعون له، إلا شُفِّعوا فيه**»[2].

عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من رجُل مسلم؛ يموت فيقوم على جنازته أربعون رجُلاً لا يشركون بالله شيئاً؛ إلا شفّعهم الله فيه**»[3].

٢ ـ استئناس الميت بإخوانه في الله بعد الدفن، قدر ما تنحر جزور، ويقسم لحمها:

وقد تقدّم معنا قول عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ «**فإذا دفنتموني**

(١) أخرجه البخاري: ٣٨٨٧، ومسلم: ١٦٣.
(٢) أخرجه مسلم: ٩٤٧.
(٣) أخرجه مسلم: ٩٤٨.

فشنوا التراب شناً ثمّ أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها، حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي»[١].

٣ ـ الدعاء له بعد دفنه مباشرة بالتثبيت والاستغفار:

عن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ قال: كان النّبيّ ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: **«استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت، فإنه الآن يُسأل»**[٢].

٤ ـ الصدقة الجارية التي عملها في حياته، وعلم نافع وولد صالح يدعو له:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال ﷺ: **«إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»**[٣].

٥ ـ الصدقة من قِبَل ابنه:

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنّ رجلاً قال للنّبيّ ﷺ: إنّ أمّي افتُلتت نفسها[٤] وأُراها لو تكلمت تصدقت، أفأتصدّق عنها؟ قال: **«نعم»** تصدّق عنها»[٥].

٦ ـ الدعاء والاستغفار من المسلمين والمؤمنين.

لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾[٦].

---

(١) أخرجه مسلم: ١٢١.
(٢) أخرجه أبو داود وغيره، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «أحكام الجنائز» (ص١٩٨).
(٣) أخرجه مسلم: ١٦٣١.
(٤) أي: ماتت
(٥) أخرجه البخاري: ٢٧٦٠، ومسلم: ١٠٠٤.
(٦) الحشر: ١٠.

وقال ﷺ: «من استغفر للمؤمنين وللمؤمنات، كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة»[١].

٧ ـ رباطه في سبيل الله ـ تعالى ـ في الدنيا:

قال ﷺ: «كل ميّت يُختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله، فإنه يُنمَى له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتنة القبر»[٢].

* * *

ما يُنجي من عذاب القبر أو فتنته

١ ـ الاستشهاد في ساحة القتال:

عن المقداد بن معديكرب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال ﷺ: «للشهيد عند الله ست خصال: يُغفرَ له في أول دُفعة من دمه، ويرى مقعدَه من الجنة، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن الفزع الأكبر، ويحلى حلية الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه»[٣].

وعن رجل من أصحاب النبيّ ﷺ: أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال: «كفى ببارقةِ[٤] السيوف على رأسه فتنة»[٥].

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير»، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/٢١٠) وإسناده جيد، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ والعُهدة عليه، وانظر «صحيح الجامع» (٥٩٠٢).

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وغيرهما، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٢١٨).

(٣) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (١٣٥٨) وابن ماجه وأحمد، وانظر «أحكام الجنائز» (ص٥٠).

(٤) أي: لمعان.

(٥) أخرجه النسائي «صحيح سنن النسائي» (١٩٤٠) وغيره، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «أحكام الجنائز» (ص٥٠).

٢ ـ الرباط في سبيل الله ـ تعالى ـ:

عن سلمان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال ﷺ: **«رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل وأُجري عليه رزقُه، وأمِن الفتّان[١]»**[٢].

قال ﷺ: **«كل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله، فإنه يُنمَى له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن فتنة القبر»**[٣].

٣ ـ الموت بداء البطن:

عن عبدالله بن يسار قال: كنت جالساً وسليمان بن صُرَد وخالد بن عُرفطة، فذكروا أن رجلاً توفي، مات ببطنه، فإذا هما يشتهيان أن يكونا شهداء جنازته، فقال أحدهما للآخر: ألم يقل رسول الله ﷺ: **«من يقتله بطنه فلن يعذَّب في قبره. فقال الآخر: بلى، وفي رواية: صدقْت»**[٤].

٤ ـ قراءة سورة تبارك:

عن عبدالله بن مسعود قال: قال ﷺ: **«سورة تبارك هي المانعة من عذاب القبر»**[٥].

٥ ـ الموت يوم الجمعة أو ليلتها:

قال ﷺ: **«ما من مسلم يموت يوم الجمعة، أو ليلة الجمعة، إلا وقاه الله ـ تعالى ـ فتنة القبر»**[٦].

---

(١) أي: فتّان القبر نسأل الله ـ تعالى ـ العافية.

(٢) أخرجه مسلم: ١٩١٣.

(٣) تقدّم تخريجه غير بعيد.

(٤) أخرجه النسائي «صحيح سنن النسائي» (١٩٣٩) والترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٨٤٩) وغيرهما، وانظر «أحكام الجنائز» (ص٥٣).

(٥) أخرجه أبو الشيخ في «طبقات الأصبهانيين»، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ بالشواهد في «الصحيحة» (١١٤٠).

(٦) أخرجه أحمد والترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٨٥٨) وغيرهما، وانظر «أحكام الجنائز» (ص٥٠).



فقه الدعوة وتزكية النفس

(٥)

الصلاة
وأثرها في زيادة الإيمان وتهذيب النفس

بقلم
حسين بن عودة العوايشة






ما يجب على المسلم في صلاته

إنّ من أشد الأمور التي تزيد إيمان المسلم: الصلاة قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾[١]. يعني: «صلاتكم عند البيت»[٢].

وفي الحديث: **«آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع: آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تؤدوا خُمس ما غنمتم، وأنهاكم عن الدُّبَّاء[٣]، والنقير[٤] والحَنْتَم[٥]، والمُزَفَّت[٦]، احفظوهنّ وأخبروا بهنّ من ورائكم»**[٧].

ولا بُدَّ للمسلم أن يعتني بصلاته، وذلك بأمور:

أولاً: أن تكون موافقةً صلاة النبيّ ﷺ قدر الإمكان وذلك بمراجعة

---

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) انظر «البخاري» (كتاب الإيمان، باب: ٣٠) «الصلاة من الإيمان».

(٣) وعاء يُتخذ من القرع اليابس.

(٤) جذع يُنقر وسطه.

(٥) جرارٌ مدهونة خُضر، كانت تُحمل الخمر فيها إلى المدينة «النهاية».

(٦) الإناء الذي طُلي بالزّفت، وهو نوع من القار «النهاية».

(٧) أخرجه البخاري: ٤٣٦٨، ومسلم: ١٧.

باب الصلاة في كُتب الأحاديث والفقه[١]. إذ إنّ العبد المسلم وهو يصلّي، ويؤدي الهيئات والأركان والواجبات؛ يشعر بأنّه يسير على هدي النّبيّ ﷺ، فيلتزم ما التزمه النّبيّ ﷺ، ويترك ما تركه، ويفعل ـ أحياناً ـ ما ثبت عن النّبيّ ﷺ أنه فعله أحياناً. ثمّ تراه يُنوِّع بعض الأذكار، لورود ذلك عنه ﷺ ويفرِّج بين أصابعه حيث فرّج ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويضمّ حيث ضمّ.

وهكذا يشعر الإنسان بأنّه يتّبع خطوات النّبيّ ﷺ، فيشعر بحلاوة الاتباع. وأيّ حب أعظم من اتباع النّبيّ ﷺ؟ فإنّه لا طريق غيره، ولا سبيل سواه إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

عن أبي أيوب ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من توضأ كما أُمِر، وصلّى كما أمر، غُفر له ما قدَّم من عمل**»[٢].

وفي حديث مالك بن الحوريث ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «**صلّوا كما رأيتموني أصلّي**»[٣].

وعن عمّار بن ياسر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل لينصرف، وما كُتب له إلا عشرُ صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها**»[٤].

۩ ثانياً: أن يُراعي الخشوع فيها.

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾[٥].

---

(١) من أحسن ما عرفت من الكتب التي طرقت هذا الموضوع: كتاب «صفة صلاة النّبيّ ﷺ من التكبير إلى التسليم كأنك تراها» لشيخنا العلامة محمد ناصر الدين الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ وقد استخرج مادّته العلمية من ثلاثة وستين ومائة مصدر ومرجع بين مخطوط ومطبوع.

(٢) أخرجه النسائي والدارمي وأحمد وابن ماجه وغيرهم، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٩٦): «حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري: ٦٣١.

(٤) أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان في «صحيحه» بنحوه وحسنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٣٧).

(٥) المؤمنون: ١ ـ ٢.

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾[(١)].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «صلّى رسول الله ﷺ يوماً، ثمّ انصرف فقال: **«يا فلان! ألا تُحسن صلاتك؟ ألا ينظر المصلي إذا صلّى كيف يصلّي؟ فإنما يصلّي لنفسه»**[(٢)].

ويتمّ هذا بأمور، بعضها داخل الصلاة نفسها، وبعضها خارجها، فمن ذلك:

١ ـ ذكر الموت: عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«اذكر الموت في صلاتك، فإنّ الرجل إذا ذَكَر الموت في صلاته، لحَريٌّ أن يُحسن صلاته، وصلِّ صلاة رجل لا يظنّ أنه يصلّي صلاةً غيرها، وإيّاك وكلَّ أمر يُعتذر منه»**[(٣)].

لقد أمر رسول الله ﷺ المسلم أن يذكر الموت في صلاته؛ ذلك لأنّه سبب في تحسين الصلاة، فإنّ للموت رهبة في النفوس، وبه خواتيم الأعمال، وما بعده أشدّ رهبة وأكثر تخويفاً، فأين المفرّ من ضغطة القبر؟ وماذا سيكون جوابنا حين نُسأل في القبر؟ ثمّ إنّنا لا نعرف أين مصيرنا، أإلى جنّةٍ عرضها السماوات والأرض؟ أم إلى نارٍ وقودها الناس والحجارة؟ وهكذا يستعرض الإنسان صوراً وصوراً من الموت وما بعده، فيصلّي صلاة رجل لا يظن أنه يصلّي صلاةً غيرها، فيُحسن الصلاة، ويَصدق التوبة، ويعدُّ

---

(١) البقرة: ٢٣٨.
قال ابن كثير في «تفسيره»: «أي خاشعين ذليلين»، وفي «صحيح مسلم» (٥٣٩): عن زيد بن أرقم ـ رضي الله عنه ـ قال: كنّا نتكلّم في الصلاة، يكلّم الرجل صاحبه إلى جنبه في الصلاة، حتى نزلت: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت، ونُهينا عن الكلام.

(٢) أخرجه مسلم: ٤٢٣.

(٣) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس»، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الجامع»: «... وحسّنه الحافظ ابن حجر وهو نادر في مفاريد «مسند الفردوس»، وحسّنه في «الصحيحة» (١٤٢١).

نفسه بين الأموات، يُجهّز الكفن، ويكتب الوصية، ويُعيد الحقوق لأصحابها، فإذا أصبح لم ينتظر المساء، وإذا أمسى لم ينتظر الصّباح.

وهكذا يأتي ليؤدي الصلاة خاشعاً باكياً، بين خوفٍ ورجاء يستقبل الآخرة، ويودّع الدنيا، إنّها صلاة الوداع، ووداع الصلاة، وهو بذلك يُودِّع الأهل والوالدين والإخوة والأحباب والأقارب، بل الدنيا كلها.

وها هو يقول: «**الله أكبر**» إنه أكبر من كل شيء. إنه يستصغر هذه الحياة الدنيا، ثمّ ها هو يدعو بدعاء من أدعية الاستفتاح، فإذا قال: «**اللّهم باعد بيني وبين خطاياي، كما باعدت بين المشرق والمغرب**»، استحضر بُعد المشرق من المغرب، واستحضر ما استطاع من خطاياه وذنوبه ما أنقض ظهره، ويخشى أن يلقى الله ـ سبحانه ـ على ذلك، وأن توافيه المنيّة بغير توبة، فيدعو بهذا الدعاء، موقناً بالإجابة وهكذا يتدبر المعاني في كل شيء من صلاته، يستحضر عظمة الله ـ تعالى ـ في فؤاده، يجود بالدّموع والبكاء؛ لأن الجنّة والنار قد بدت له أقرب من شراك نعله إنّه يتمثّل قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**صلِّ صلاة مُودع كأنّك تراه، فإن كنت لا تراه فإنّه يراك**»[١].

لا بُدَّ من مراقبة الله ـ تعالى ـ ليستقيم أمر الصلاة، لا بُدَّ أن نضع الدنيا وراء ظهورنا، وماذا لو علم الشخص أن كلماته مسموعة، وأنها بالغة السلطان لا محالة، ماذا سيقول؟ وكيف يتكلّم؟ ألا تجده يَزِنُ الحروف والكلمات؟ فكيف بمن سيمْثُلُ أمام السميع البصير العليم، الذي لا تخفى عليه خافية؟

لقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يصلّي، ولجوفه أزيز[٢] كأزيز المرجل[٣] إجلالاً لله وتعظيماً له ـ سبحانه ـ.

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» والبيهقي وغيرهما، وقواه شيخنا ـ رحمه الله ـ بشواهده في «الصحيحة» (١٩١٤).

(٢) هو صوت البكاء.

(٣) هو القدر إذا غلت.

عن عبدالله بن الشِّخِّير ـ رضي الله عنه ـ قال: «**رأيتُ رسول الله ﷺ يصلّي بنا، وفي صدره أزيزٌ كأزيز المرجل من البكاء**»[(١)].

ولقد كان بكاء عمر ـ رضي الله عنه ـ يُسمع من آخر الصفوف كما في «صحيح البخاري» وذلك لما رواه عبدالله بن شدّاد قال: «**سمعت نشيج**[(٢)] **عمر وأنا في آخر الصفوف يقرأ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾**[(٣)]»[(٤)].

وأما أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فإنّه ما كان يَسمع الناس قراءته في الصلاة من البكاء، كما أخبرت بذلك عائشة ـ رضي الله عنها ـ حيث تقول: إنّ رسول الله ﷺ قال في مرضه: «**مروا أبا بكر يصلّي بالناس**» قالت عائشة: قلت: إنّ أبا بكر إذا قام في مقامك لم يُسمع الناس من البكاء، فمُر عمر فليصلِّ. فقال: «**مروا أبا بكر فليصلِّ للنّاس**» قالت عائشة لحفصة: قولي له: إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يُسمِع الناس من البكاء فمُرْ عمر فليصلِّ للنّاس فَفَعلت حفصة، فقال رسول الله ﷺ: «**مه**[(٥)] **إنكن لأنتنّ صواحب يوسف**[(٦)]. **مروا أبا بكر فليصلّ للناس**»، قالت حفصة لعائشة: ما

---

(١) أخرجه أبو داود والنسائي وغيرهما، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «مختصر الشمائل المحمدية» برقم (٢٧٦).

(٢) قال الحافظ في «الفتح»: قال ابن فارس: «نشج الباكي، ينشج نشيجاً، إذا غصّ بالبكاء في حلقه من غير انتحاب.
وقال الهروي: النشيج: صوت معه ترجيع؛ كما يردّد بكاءه في صدره، وفي المحكم: هو أشدّ البكاء».

(٣) يوسف: ٨٦.

(٤) أخرجه البخاري معلّقاً ووصله سعيد بن منصور بسند صحيح عنه وزاد: «في صلاة الصبح» وأخرجه ابن المنذر من طريق أُخرى عن عمر نحوه وانظر «مختصر البخاري» (١٨٢/١).

(٥) أي: اكفُفي.

(٦) قال الحافظ في «الفتح»: «ووجه المشابهة بينهما في ذلك: أن زليخا استدعت النّسوة، وأظهرت لهنّ الإكرام بالضيافة، وأن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أظهرت أنّ سبب إرادتها صرف الإمامة عن أبيها، كونه لا يُسمع المأمومين القراءة لبكائه، ومُرادها زيادة على=

كنتُ لأصيب منك خيراً»[١].

وفي رواية أُخرى: «**إن أبا بكر رجل أَسيف[٢] إذا قام في مقامك، لم يستطع أن يصلّي بالناس**»[٣].

٢ ـ تدبُّر معاني الكلمات التي تتعلق بالصلاة.

فحين يكبّر، يستحضر معنى هذه الكلمات، وما تشمله من تعظيم الله ـ تعالى ـ وعندما يستعيذ، يتفكر في مدلول الاستعاذة، وأنها الالتجاء والاعتصام بالله السميع؛ الذي يسمع العبد، العليم؛ الذي يعلم ما توسوس به الشياطين، ويستحضر بأنّه بهذا يستفتح كل خير، ويغلق باب كل شر... وهكذا يتأمّل في معاني البسملة والتسبيح والصلاة على النبيّ ﷺ.

ولا بُدَّ وهذه الحال، من الإقبال على كتب التفسير وأقوال العلماء في هذا المجال، حتى يعقل الإنسان ما يقوله، ويقول ما يعقله، وذلك في صلاته كُلّها، قدر وُسعه وطاقته، مجاهداً نفسه.

٣ ـ ترك الذنوب والمعاصي والآثام:

لقوله ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٤].

= ذلك، وهو أن لا يتشاءم الناس به» ولقد أورد الحافظ ابن حجر في «الفتح» في كتاب المغازي عنها أنها قالت: «**لقد راجعت رسول الله ﷺ في ذلك، وما حملني على كثرة مراجعته، إلا أنه لم يقع في قلبي أن يُحبَّ الناس بعده رجلاً قام مقامه أبداً، ولا كُنت أرى أنه لن يقوم أحد مقامه، إلا تشاءم الناس به، فأردت أن يعدل ذلك رسول الله ﷺ عن أبي بكر**».

(١) أخرجه البخاري: ٧١٦، ومسلم: ٤١٨.

(٢) الأسيف: على وزن فعيل، وهو بمعنى فاعل، من الأسف: وهو شدّة الحُزن، والمراد أنه رقيق القلب. «فتح».

(٣) أخرجه البخاري: ٦٦٤، ومسلم: ٤١٨.

(٤) الرعد: ١١.

والمعاصي سدٌّ منيع يقف أمام الخشوع في الصلاة منها: مَنْ كانت تحته امرأة سيئة الخلق فلم يُطلّقها، أو آتى سفيهاً ماله، أو أعطى ديناً ولم يُشهد عليه، وذلك لما ثبت عن النّبيّ ﷺ أنه قال: «**ثلاثة يدعون فلا يُستجابُ لهم: رجل كانت تحته امرأة سيئة الخلق فلم يُطلّقها، ورجل كان له على رجل مال، فلم يُشهد عليه، ورجل آتى سفيهاً ماله، وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ﴾**[١]»[٢].

وكذلك معصية الزوجة زوجها، وإباق[٣] العبد من مولاه، كما في الحديث: «**اثنان لا تجاوز صلاتُهما رؤوسَهما: عبدٌ أبَق من مواليه حتى يرجع إليهم، وامرأة عصت زوجها حتى ترجع**»[٤].

كما أنَّ الإكثار من الطّاعات يزيد الصلاة حُسناً وخشوعاً من ذلك: رحمة اليتيم، ومسح رأسه، وإطعامه الطّعام، وفي ذلك قال ﷺ: «**إن أردتَ تليين قلبك فأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم**»[٥].

٤ ـ تجنّب كثرة الضّحك، فإنها مميتة للقلب وخشوعه.

كما في حديث: «**... لا تُكثر الضّحك، فإنّ كثرة الضحك تميت القلب**»[٦].

---

(١) النساء: ٥.

(٢) أخرجه الحاكم عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (١٨٠٥).

(٣) وهو هَرب العبيد وذَهابهم من غير خوف، ولا كدٍّ عمل «لسان العرب».

(٤) أخرجه الطبراني في «الصغير» و «الأوسط»، وحسّنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٢٨٨).

(٥) أخرجه أحمد وغيره، وانظر «الصحيحة» (٨٥٤).

(٦) أخرجه أحمد والترمذي وغيرهما، وحسّنه شيخنا ـ رحمه الله ـ بطرقه في «الصحيحة» (٩٣٠).

٥ ـ اختيار العمل المناسب:

وذلك من وجوه:

أ ـ من حيث أنه حلال، لأنّ الله ـ تعالى ـ لا يقبل إلا طيباً، وآكل المال الحرام مردود الدعوة، ومحروم الخشوع.

ب ـ ألا يكون هذا العمل متعارضاً مع مواقيت الصلاة، لأنّه إن كان كذلك، أخذ المرءُ يُفتي لنفسه بجواز تأخير الصّلوات أو قضائها إن فاتت، ولو عن تقصير، أو يبحث عمّن يفتي له بذلك.

ج ـ أن يبحث ـ قدر الاستطاعة ـ عن عمل غير مُجهد، حتى إذا دخل إلى صلاته، أقبل على ربّه بقلب خاشع منيب[1]، إذ إن المجهَد المتعب، حُكم عليه أن يشرد ذهنه، وهذا على حساب خشوع الصلاة، ولقد أمرنا النّبيّ ﷺ إذا ما وُضع العَشاء وقد أقيمت الصلاة، أن نبدأ بالعَشاء، حتى نفرغ منه؛ وذلك لِما في القلب من الشّغل بالزاد عن الصلاة. لما رواه ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النّبيّ ﷺ أنه قال: «**إذا وُضع عَشاء أحدكم وأُقيمت الصلاة، فابدؤوا بالعَشاء، ولا يعجل حتى يفرغ منه**»[2].

٦ ـ عدم الانشغال الزّائد بالدُّنيا:

لأنّه سيكون بالتأكيد على حساب الآخرة، ولتأخذ من الدنيا القدْر الذي يسترك وأهلك وأبناءك، فإن كان عملك الصّباحي يكفيك، فلا موجب للعمل المسائي. وإن كُنت مُوفقاً في تجارة محدودة، تُدِرُّ عليك الأرباح؛ فلا داعي للتّورط في تجارات كثيرة، تُشَتِّت عليك ذهنك، وتُنسيك حقوق ربك ـ عزّ وجلّ ـ وتضيّع عليك حقوق نفسك وأهلك وعيالك.

---

(١) انظر «أنزل الله ـ تعالى ـ المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة» من هذا الكتاب.

(٢) أخرجه البخاري: ٦٧٣، ومسلم: ٥٥٩.

۩ ٧ ـ الإكثار من قراءة القرآن الكريم وما ثبت من الأذكار والأدعية، والمرقّقات:

لأنها تُليِّن القلب، وتُبعد الشيطان.

۩ ٨ ـ أن يأتي الصلاة مبكراً:

لئلا يدفعه الحرص على إدراك الصلاة إلى السّعي، فيدخلها مُشوَّشاً.

عن أبي قتادة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أتيتم الصلاة فعليكم بالسكينة، ولا تأتوها وأنتم تسعون، فما أدركتم فصلّوا، وما فاتكم فأتموا**»[١].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا ثُوِّبَ للصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلّوا، وما فاتكم فأتموا، فإنّ أحدكم إذا كان يعمدُ إلى الصلاة، فهو في صلاة**»[٢].

۩ ٩ ـ رصّ الصّفوف وتسويتها[٣]:

عن أبي مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول: «**استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم**»[٤].

وكان يقول أيضاً: «**لتسوُّن صفوفكم، أو ليخالفنّ الله بين وجوهكم**»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري: ٩٠٨، ومسلم: ٦٠٣.
(٢) أخرجه مسلم: ٦٠٢.
(٣) انظر رسالتي: «تسوية الصفوف وأثرها في حياة الأمّة».
(٤) أخرجه مسلم: ٤٣٢.
(٥) أخرجه البخاري: ٧١٧، ومسلم: ٤٣٦.

ففي عدم تسوية الصفوف مخالفة بين الوجوه والقلوب، وانتقاصٌ من الإيمان وقتل للخشوع.

كما أنّ تسوية الصف وإقامته، من تمام الصلاة وحسنها، وذلك لقوله ﷺ: «... **فإن تسوية الصفّ من تمام الصلاة**»(١)، وقوله: «... **فإن إقامة الصفّ من حُسْن الصلاة**»(٢).

ثالثاً: أن يحافظ على مواقيتها، ويحذر من تأخيرها وتضييع وقتها:

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾(٣)، قال البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ: «**موقّتاً، وقّته عليهم**».

وعن أبي عمرو الشيباني قال: «حدّثنا صاحب هذه الدار ـ وأشار إلى دار عبدالله ـ قال: سألتُ النبيّ ﷺ: أي العمل أحبّ إلى الله؟ قال: «**الصلاة على وقتها**» قال: ثمّ أي؟ قال: «**ثمّ برّ الوالدين**» قال: ثمّ أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**» قال: حدَّثني بهنّ، ولو استزدتهُ لزادني»(٤).

لقد بيّن رسول الله ﷺ أن الصلاة على وقتها من أحب الأعمال، وقدّم النبيّ ﷺ ذلك على برّ الوالدين، والجهاد في سبيل الله ـ سبحانه ـ والدّليل على ذلك كلمة «ثمّ»، فإن ممّا تفيده الترتيب، كما هو معروف في لغة العرب.

وقال الحافظ في «الفتح»: «قال ابن بزيزة: الذي يقتضيه النّظر تقديم الجهاد على جميع أعمال البدن، لأنّ فيه بذْل النّفس إلا أنّ الصّبر على المحافظة على الصلوات، وأدائها في أوقاتها، والمحافظة على بر الوالدين، أمر لازم متكرر دائم، لا يصبر على مراقبة الله فيه إلا الصديقون والله أعلم».

---

(١) أخرجه مسلم: ٤٣٣.
(٢) أخرجه البخاري: ٧٢٢، ومسلم: ٤٣٥.
(٣) النساء: ١٠٣.
(٤) أخرجه البخاري: ٥٢٧، ومسلم: ٨٥.

قلت: وأضرب لهذا مثالاً يُوضّح المراد: هناك رجل غارق في تجارته، وما يتبعها من انشغالات وارتباطات، كثيراً ما لبَّس عليه الشيطان، لتفويت تكبيرة الإحرام، أو شيءٍ من الصلاة، جئته بنصوص عن الجهاد في سبيل الله ـ تعالى ـ ومواقف بطولية عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ رغّبته في الجنة، وزهدته في الدنيا، نظر إلى الدنيا، بعد موعظتك، فرآها تتصاغر أمام ناظِرِيْه، وتأمّل في الآخرة فرآها تتعاظم في نفسه التي بين جنبيه، فسابق إلى جنة عرضها السماوات والأرض، وسارع فكتب الوصيّة، وأنهى حقوق العباد، وودّع الأهل والأحباب، ومضى إلى ساحة القتال، فقُتل شهيداً في سبيل الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

هَبْ أنّك لم تدْعُ هذا الرجل للجهاد في سبيل الله ـ تعالى ـ ولكنّك دعوته للمحافظة على أوقات الصلاة، وذكرت له من النصوص والمرغّبات والمرهبات والمواقف المؤثرة، فماذا ترى منه؟

لعلّه يستجيب ويبكي على ما بدر منه، فيعقد العزم على المحافظة على أوقات الصلاة، وربّما يفعل ذلك أياماً، ولكنَّ الشيطان قد يوسوس له، والأشغال قد تكثر، والمواعيد والأعباء قد تتفاقم، فينال منه الشيطان، ويُضيّع عليه المحافظة على بعض الأوقات ثمّ يعود يجاهد نفسه، فينتصر على شيطانه، ثمّ تفوته تارة أخرى، وهكذا يظل في صِراع مع الشيطان، في خمسة الأوقات من يومه وليلته، والعمر أيام وليالٍ.

فهذه مجاهدة نفس، والأُولى مجاهدة نفس، ولكن أين الأولى من الثانية؟ فهذه مجاهدة عُمر، وتلك مجاهدة ساعة أو أيام أو شهور أو سنين. وعلى أي حالٍ أقول: «**وفي كلٍّ خير**».

وأنا أسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعلني من المحافظين على أوقات الصلاة وخشوعها، وعلى سائر أوامره ـ سبحانه ـ وأن يكتبني من الشهداء، إنّه على كل شيء قدير.

وعن مصعب بن سعد قال: قلت لأبي: يا أبتاه! أرأيت قوله: «﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾» أيّنا لا يسهو؟ أيّنا لا يحدّث نفسه؟ قال: ليس

ذلك، إنّما هو إضاعة الوقت، يلهو حتى يضيع الوقت[١].

وعن موسى بن إسماعيل قال: حدّثنا مهدي عن غيلان عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: ما أعرف شيئاً مما كان على عهد النبيّ ﷺ. قيل: الصلاة. قال: أليس صنعتم ما صنعتم فيها؟ يريد تأخيرها عن وقتها[٢].

وعن عثمان بن أبي روّاد أخي عبدالعزيز قال: سمعت الزُّهريَّ يقول: «**دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي، فقلت: ما يُبكيك؟ فقال: لا أعرف شيئاً مما أدركت إلا هذه الصّلاة، وهذه الصلاة قد ضُيّعت**»[٣].

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» «قال المهلّب: والمرادُ بتضييعها: تأخيرها عن وقتها المستحب، لا أنّهم أخرجوها عن الوقت».

وخالف ذلك ابن حجر على تفصيل ذكَره في كتابه، ورأى أنّ المراد هو إخراج الصلاة عن وقتها.

قلت: يصدق هنا قول الشاعر:

فقلت هما مُرّان أحلاهما مُرُّ.

لقد بكى أنس ـ رضي الله عنه ـ فماذا نحن فاعلون؟ وما الذي ينبغي أن نفعله؟ أليس من الجدير أن نُنبتُ الزرع بدموعنا، على تفريطنا وتضييعنا للصلاة، وأوامر الله ـ تعالى ـ؟!

وعن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: أشهد أنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خمس صلوات افترضهنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ من أحسن وضوءهن، وصلاهنّ لوقتهنّ، وأتمّ ركوعهنّ وسجودهنّ وخشوعهنّ،**

---

(١) أخرجه أبو يعلى بإسناد حسن، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٧٦): «حسن موقوف».

(٢) أخرجه البخاري: ٥٢٩.

(٣) أخرجه البخاري: ٥٣٠.

كان له على الله عهدٌ أن يغفر له، ومن لم يفعل، فليس له على الله عهدٌ، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه»[١].

وعن كعب بن عجرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن سبعة نفر، أربعةٌ من موالينا[٢]، وثلاثة من عربنا[٣] مُسندي ظهورنا إلى مسجده، فقال: ما أجسلكم؟ قلنا: جلَسنا ننتظر الصلاة، قال: فأرمّ[٤] قليلاً، ثمّ أقبل علينا فقال: هل تدرون ما يقول ربّكم؟ فقلنا: لا قال: فإنَّ ربّكم يقول: من صلّى الصلاة لوقتها، وحافظ عليها، ولم يضيّعها استخفافاً بحقّها، فله عليَّ عهدٌ أن أُدخله الجنّة ومن لم يُصلّها لوقتها، ولم يحافظ عليها وضيّعها استخفافاً بحقّها، فلا عهد له عليّ، إن شئت عذّبته، وإن شئت غفرت له»[٥].

رابعاً: أن يحافظ على صلاة الجماعة فيها:

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾[٦].

قال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ في «تفسيره»: «أمَرهم أن يركعوا مع الرّاكعين من أمّة محمد ﷺ يقول: كونوا معهم ومنهم، وقال استدلَّ كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة».

وعن أبي الدّرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من ثلاثة في قرية، ولا بدو، لا تقام فيهم الصلاة، إلا قد استحوذ[٧] عليهم**

---

(١) أخرجه مالك وأبو داود والنسائي وابن حبان في «صحيحه»، وصححه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٧٠).
(٢) أي: من المُعتقين.
(٣) من لم يجرِ عليهم الرقّ.
(٤) أي: سكت.
(٥) أخرجه الطبراني في «الكبير» و «الأوسط» وأحمد بنحوه، وحسّنه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٤٠١).
(٦) البقرة: ٤٣.
(٧) أي: استولى عليهم، وحواهم إليه «النهاية».

الشيطان، فعليك بالجماعة، فإنما يأكل الذّئب القاصية[١]»[٢].

وفي الحديث: «**والذي نفسي بيده، لقد هَمَمْت أن آمر بحطب فيُحطب، ثمّ آمر بالصلاة فيؤذّن لها، ثمّ آمر رجلاً فيؤم الناس، ثمّ أخالف إلى رجال، فأحرّق عليهم بيوتهم. والذي نفسي بيده، لو يعلم أحدهم أنه يجد عرْقاً[٣] سميناً أو مرماتين[٤] حسنتين، لشهد العشاء**»[٥].

وعن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**صلاة الجماعة تفضُل صلاة الفذّ بسبع وعشرين درجة**»[٦].

وقال الأعمش: «سمعت سالماً يقول: سمعت أم الدرداء تقول: دخل عليّ أبو الدرداء وهو مُغضب، فقلت: ما أغضبك؟ فقال: والله ما أعرف من أمّة محمد ﷺ شيئاً، إلا أنهم يُصلّون جميعاً»[٧].

---

(١) وهي التي تبعد وتشرد عن مجموعة الدّواب.

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٥١١) وغيرهما، وحسّنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «المشكاة» (١٠٦٧).

(٣) في «الفتح»: «عَرْقاً»: ـ بفتح العين المهملة، وسكون الرّاء، بعدها قاف ـ قال الخليل: العراق العظم بلا لحم، وإن كان عليه لحم فهو عرق.
وفي «المحكم» عن الأصمعي: العرق ـ بسكون الراء ـ قطعة لحم.
وقال الأزهري: العرق واحد العراق، وهي العظام التي يؤخذ منها هبر اللحم، ويبقى عليها لحم رقيق، فيُكسر ويُطبخ ويُؤكل ما على العظام من لحم دقيق، ويتشمس العظام، يُقال: عرقت اللحم واعترقته وتعرقته، إذا أخذت اللحم منه نهشاً، وفي «المحكم»: جمع العرق عُراق ـ بالضم ـ عزيز، وقول الأصمعي هو اللائق هنا..
ومما قاله ابن الأثير في «النهاية»: «العَرْق: العظم الذي أُخذ عنه معظم اللحم».

(٤) مثنى مرماة. قال الحافظ في «الفتح»: «قال الخليل: هي ما بين ظلفي الشاة، وقال الأخفش: المرماة: لعبة كانوا يلعبونها بنصال محدودة يرمونها في كوم التراب، فأيّهم أثبتها في الكوم غلب وحكى الحربي عن الأصمعي أن المرماة سهم الهدف».
وفي «النهاية»: «المرماة: ظلف الشاة، وقيل: ما بين ظلفيها».

(٥) أخرجه البخاري: ٦٤٤.

(٦) أخرجه البخاري: ٦٤٥، ومسلم: ٦٥٠.

(٧) أخرجه البخاري: ٦٥٠.

قال الحافظ في «الفتح»: «ومُرادُ أبي الدرداء أنّ أعمال المذكورين، حصل في جميعها النقص والتغيير، إلا التجميع في الصلاة، وهو أمرٌ نسبيٌّ، لأنّ حال الناس في زمن النبوَّة، كان أتمَّ ممّا صار إليه بعدها، ثمّ كان في زمن الشيخين أتمّ مما صار إليه بعدها، وكان ذلك صدَرَ من أبي الدرداء في أواخر عمره، وكان ذلك في أواخر خلافة عثمان، فيا ليت شعري إذا كان ذلك العصر الفاضل بالصّفة المذكورة عند أبي الدّرداء، فكيف بمن جاء بعدهم من الطبقات إلى هذا الزمان؟!».

أقول: فيا حسرةً علينا، إذا كان الحافظ ابن حجر يقول هذا عن عصره، فماذا نقول ونحن في زمن الغُربة ـ وقد فرّط النّاس في الجمعة والجماعة والصلوات؟!

فلتحرص ـ أخي المسلم ـ كل الحرص على صلاة الجماعة، ولا تنس قوله ﷺ: «**فإنما يأكل الذئب القاصية**» فإن الشيطان يترقب ابتعادك عن الجماعة لتشقى بتركها، بل لتترك الصلاة والإسلام.

والمسجد هو السبيل إلى تعارف الإخوة والأحبة في الله على بعضهم، وتوثيق أواصر المحبّة بينهم، والتي لا يتيسّر الإيمان إلا بها، فإنّه لا سبيل للإيمان ولا إلى الجنّة إلا بالمحبة في الله ـ تعالى ـ واسمع ـ إن شئت ـ قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنّة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أوَلا أدلّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**»[1].

❋ ❋ ❋

فضل الصلاة وتكفيرها للخطايا والسيئات

١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم: ٥٤ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

يقول: «**أرأيتم لو أنّ نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كلَّ يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه**[١] **شيءٌ**» قالوا: لا يبقى من درنه شيء» قال: **فكذلك**[٢] **مثَل الصلوات الخمس، يمحو الله بهنّ الخطايا**»[٣].

٢ ـ وعن أبي هريرة أيضاً ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، كفارة لما بينهنّ، ما لم تُغْش**[٤] **الكبائر**»[٥].

٣ ـ وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع النّبيّ ﷺ يقول: «**الصلوات الخمس كفّارة لما بينها**» ثمّ قال رسول الله ﷺ: «**أرأيت لو أن رجلاً كان يَعْتَمِلُ، وكان بين منزله وبين مُعتَمَلِهِ**[٦] **خمسة أنهار، فإذا أتى مُعتمله عمل فيه ما شاء الله، فأصابه الوسخ أو العرق، فكلّما مرَّ بنهر اغتسل، ما كان ذلك يُبقي من درنه؟ فكذلك الصلاة، كلما عمل خطيئة فدعا واستغفر، غُفر له ما كان قبلها**»[٧].

٤ ـ وعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تحترقون تحترقون**[٨]**، فإذا صلّيتم الصبح غسلتها، ثمّ تحترقون تحترقون، فإذا صلّيتم الظهر غسلتها، ثمّ تحترقون تحترقون، فإذا صلّيتم العصر غسلتها، ثمّ تحترقون تحترقون فإذا صلّيتم المغرب غسلتها، ثمّ تحترقون تحترقون، فإذا صلّيتم العشاء غسلتها، ثمّ تنامون، فلا يُكتب عليكم**

---

(١) أي: وسخه.
(٢) قال شيخنا ـ رحمه الله ـ: كذا وجد بإقحام الكاف، وصوابه: «**فذلك**» وهو لفظ الحديث، وفي القرآن: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.
(٣) أخرجه البخاري: ٥٢٨، ومسلم: ٦٦٧.
(٤) أي: ما لم تُؤتَ.
(٥) أخرجه مسلم: ٢٣٣.
(٦) أي: مكان عمله.
(٧) أخرجه البزار والطبراني في «الأوسط» و«الكبير»، وصححه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٥٥).
(٨) المراد بالاحتراق هنا: اقتراف الآثام واجتراح الخطايا المفضي إلى الهلاك.

حتى تستيقظوا»[١].

٥ ـ وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّ لله ملَكاً ينادي عند كل صلاة: يا بني آدم! قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتموها فأطفؤوها»**[٢].

٦ ـ وعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُبعث منادٍ عند حضرة كل صلاة، فيقول: يا بني آدم، قوموا فأطفئوا عنكم ما أوقدتم على أنفسكم. فيقومون، فتسقط خطاياهم من أعينهم، ويصلون، فيُغفر لهم ما بينهما، ثمّ توقدون فيما بين ذلك، فإذا كان عند الصلاة الأولى نادى: يا بني آدم! قوموا فأطفئوا ما أوقدتم على أنفسكم، فيقومون فيتطهّرون، ويُصلون الظهر، فيغفر لهم ما بينهما، فإذا حضرت العصر، فمثلُ ذلك، فإذا حضرت المغرب، فمثل ذلك، فإذا حضرت العتمة فمثل ذلك، فينامون وقد غُفِر لهم، فَمُدْلِجٌ في خير ومدلج في شر»**[٣].

٧ ـ وعن طارق بن شهاب: أنه بات عند سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ لينظر ما اجتهادُه؟ قال: فقام يُصلّي من آخر الليل، فكأنه لم يرَ الذي كان يظنُّ، فذكر ذلك له، فقال سلمان: «حافظوا على هذه الصلوات الخمس، فإنّهن كفّارات لهذه الجراحات ما لم تُصِبِ المقتلة[٤]»[٥].

٨ ـ وعن عمرو بن مرة الجهني ـ رضي الله عنه ـ قال: «جاء رجل

---

(١) أخرجه الطبراني في «الصغير» وغيره، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٥٧): «حسن صحيح».

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» و«الصغير»، وحسنه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٥٨).

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير»، وحسنه شيخنا ـ رحمه الله ـ: في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٥٩).

(٤) مقاتل الإنسان: المواضع التي إذا أصيب منه قتلته. «اللسان».

(٥) أخرجه الطبراني في «الكبير» موقوفاً بإسناد لا بأس به، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٦٠): «صحيح لغيره موقوف».

إلى النّبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله! أرأيت إن شهدتُ أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وصلّيت الصلوات الخمس، وأديت الزكاة، وصمتُ رمضان، وقمته، فممّن أنا؟ قال: «**من الصدّيقين والشهداء**»[1].

٩ ـ وعن أبي عثمان قال: «**كنت مع سلمان ـ رضي الله عنه ـ تحت شجرة، فأخذ غصناً منها يابساً فهزّه، حتى تحاتَّ ورقُه، ثمّ قال: يا أبا عثمان! ألا تسألني لِمَ أفعل هذا؟ قلت: ولم تفعله؟ قال: هكذا فعل بي رسول الله ﷺ، وأنا معه تحت الشجرة، فأخذ منها غصناً يابساً فهزه، حتى تحاتَّ ورقُه فقال: يا سلمان! ألا تسألني لِمَ أفعل هذا؟ قلت: ولِمَ تفعله؟ قال: إن المسلم إذا توضأ فأحسن، ثمّ صلّى الصلوات الخمس، تحاتَّت خطاياه كما تحاتَّ هذا الورق، وقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا**[2] **مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝١١٤﴾**[3]»[4].

١٠ ـ وعن عثمان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من امرىء مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها، إلا كانت كفارةً لِمَا قبلها من الذنوب، ما لم تُؤتَ كبيرةٌ وذلك الدّهرَ كلّه**»[5].

---

(١) أخرجه البزار وابن خزيمة وابن حبان في «صحيحيهما» واللفظ لابن حبان، وصحّحه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٦١).

(٢) هي ساعاته، وقيل: هي الطائفة من الليل، قليلة كانت أو كثيرة «النهاية».

(٣) هود: ١١٤.

(٤) أخرجه أحمد والنسائي والطبراني، وحسنه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٦٣).

وسبب نزول هذه الآية: كما في حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ «أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة، فأتى رسول الله ﷺ، فذكر ذلك له، فأنزلت عليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝١١٤﴾ قال الرجل: ألي هذه؟ قال: «**لمن عمل بها من أمّتي**» أخرجه البخاري: ٥٢٦، ومسلم: ٢٧٦٣.

(٥) أخرجه مسلم: ٢٢٨.

١١ ـ وعن أبي أيوب ـ رضي الله عنه ـ أنّ النّبيّ ﷺ كان يقول: «**إنّ كل صلاة تحطُّ ما بين يديها من خطيئة**»(١).

١٢ ـ وعن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان رجلان أخوان، فهلك أحدهما قبل صاحبه بأربعين ليلة، فذكرتُ فضيلة الأول منهما عند رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**ألم يكن الآخر مسلماً؟**» قالوا: بلى، وكان لا بأس به، فقال رسول الله ﷺ: «**وما يُدريكم ما بلغت به صلاته؟ إنما مثل الصلاة كمثل نهر عذب غَمرٍ**(٢)**، بباب أحدكم، يقتحم فيه كلَّ يوم خمس مرات، فما ترون في ذلك يُبقي من درنه؟ فإنّكم لا تدرون ما بلغت به صلاته**»(٣).

١٣ ـ وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان رجلان من (بَلِيّ) [حيّ] من قضاعة (أسلما) مع رسول الله ﷺ «فاستشهد أحدهما، وأُخّر الآخر سنة، فقال طلحة بن عُبيدالله: فرأيت المؤخَّر منهما أُدخل الجنّة قبل الشهيد، فتعجَّبت لذلك، فأصبحت، فذكرت ذلك للنّبيّ ﷺ أو ذُكِر لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**أليس قد صام بعده رمضان، وصلّى ستة آلاف ركعة، وكذا وكذا ركعة صلاة سنة؟**»(٤). وفي زيادة صحيحة لابن حبان: «**بينهما أبعدُ ممّا بين السماوات والأرض**»(٥).

١٤ ـ وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ العبد إذا قام إلى الصلاة أُتي بذنوبه كلِّها، فوضعت على عاتقيه، فكلّما ركع أو سجد، تساقطت عنه**»(٦).

---

(١) أخرجه أحمد بإسناد حسن، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٦٥): «حسن صحيح».

(٢) الغمر: الكثيرة، أي: يغمر من دخَله ويغطّيه «النهاية».

(٣) أخرجه مالك واللفظ له، وأحمد بإسناد حسن والنسائي، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٧١).

(٤) أخرجه أحمد بإسناد حسن، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٧٢): «حسن صحيح».

(٥) وصححه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٧٣).

(٦) أخرجه الطبراني والبيهقي وأبو نعيم في «الحلية»، وانظر «الصحيحة» (١٣٩٨).

١٥ ـ وعن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«استقيموا ولن تُحصوا، واعلموا أنّ خير أعمالكم الصلاة، ولن يُحافِظ على الوضوء إلا مؤمن»**[١].

١٦ ـ وعن أبي مالك الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«الطّهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن (أو تملأ) ما بين السماء والأرض، والصلاة نورٌ، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حُجّة لك أو عليك»**[٢].

١٧ ـ وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ أنّ النّبيّ ﷺ خرج في الشتاء والوَرَقُ يتهافَتُ، فأخذ بغصنٍ من شجرةٍ. قال: فجعل ذلك الورق يتهافت، فقال: يا أبا ذر، قلت: لبيك يا رسول الله! قال: إن العبد المسلم ليصلّي الصلاة، يريد بها وجه الله، فتهافت عنه ذنوبه، كما يتهافت هذا الورق عن هذه الشجرة»[٣].

١٨ ـ وعن ربيعة بن كعب قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ، فأتيته بوَضوئه وحاجته، فقال لي: سلني. فقلت: أسألك مرافقتك في الجنّة. قال: أوْ غير[٤] ذلك؟ قلت: هو ذاك. قال: فأعنِّي على نفسك بكثرة السجود»[٥].

١٩ ـ وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«الصلاة خير موضوع، فمن استطاع أن يستكثر فليستكثر»**[٦].

---

(١) أخرجه ابن ماجه والحاكم وابن حبان في «صحيحه»، وصححه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٩٧).

(٢) أخرجه مسلم: ٢٢٣.

(٣) أخرجه أحمد بإسناد حسن، وحسنه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٨٤).

(٤) قال شيخنا ـ رحمه الله تعالى ـ: «بإسكان الواو ونصب «غير» أي سل غير ذلك، يعني: غير مرافقته في الجنة».

(٥) أخرجه مسلم: ٤٨٩.

(٦) أخرجه الطبراني في «الأوسط» وغيره، وحسنه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٩٠).

٢٠ ـ وعن أبي هريرة أيضاً ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ مرّ بقبرٍ، فقال: «**من صاحب هذا القبر؟ فقالوا: فلان. فقال: ركعتان أحبُّ إلى هذا من بقية دنياكم**»[1].

مما يستفاد من هذه الأحاديث:

١ ـ أنّ الله ـ تعالى ـ يمحو الخطايا بالصّلوات الخمس.

٢ ـ أنّها كفارة لما بينهنّ، إذا اجتنبت الكبائر.

٣ ـ أنَّ الذنوب تحرق المرء وتهلكه، ولا بُدّ من إطفاء ذلك بالصلوات.

٤ ـ أنّ المسلم قد يبلغ بالصلاة والزكاة والصيام مقام الصِّدّيقين والشهداء.

٥ ـ تفضيل الصلاة[2] على غيرها من الأعمال.

٦ ـ أن الله ـ تعالى ـ مَنَّ على ذلك الصحابي بدخول الجنّة قبل أخيه الشهيد، لأنّه صلّى أكثر منه.

٧ ـ أنّ الصلاة نور، تُنير للعبد سبيله في الدنيا والآخرة.

٨ ـ أنّ كثرة السجود والصلاة سبيل مرافقة النّبيّ ﷺ في الجنّة.

٩ ـ أنّ صلاة ركعتين أحبّ إلى الميت من الدنيا وما فيها.

١٠ ـ أن تفريغ القلب لله في الصلاة يجعل المسلم كهيئته يوم ولدته أمُّه.

* * *

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» بإسناد حسن، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٩١): «**حسن صحيح**».

(٢) شريطة أن يكون اعتقاد المصلّي صحيحاً سليماً.

الصلاة وأثرها في ترك الذنوب وتربية النّفس

قال الله ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[1].

يُبيّن الله ـ تعالى ـ في هذه الآية، أنّ الصلاة الخاشعة الصحيحة؛ لا بُدّ أن تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر، وتقوده إلى الخير والمعروف، لذلك ترى أهل المساجد هُم أفاضل الناس وأحاسنهم ـ على عُجَرِهِمْ وبُجَرِهِمْ ـ وما كان بهم من عُيوب أو ذنوب؛ فعند سواهم أضعاف مضاعفة منها.

وإن لم تكن الصلاة تنهانا عن الفحشاء والمنكر؛ فلا بُدَّ من الإمعان في العلّة وإصلاحها. لا بُدّ من إصلاح الصلاة، ولا مفرّ من الخشوع فيها، فلننظر في الأسباب، ولنُجِدَّ في العلاج، وكما أننا نعالج الأبدان من أمراضها، فعلاج النفوس أحرى وأولى وهذا مما يعيننا في فهم قول النّبيّ ﷺ: «**أوّل ما يُحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، فإنْ صلحت، صلح له سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله**»[2]. ففي صلاح الصلاة، صلاح سائر الأعمال، فهي بمنزلة الرأس في الجسد، ولأنّ العبد أقربُ ما يكون من ربه في صلاته، يدعو ربه ويستغفره، وينيب إليه، ويبكي له ـ سبحانه ـ.

فإنّ الصلاة لا تصلح إلا بصحّة العقيدة، وما فيها من مراقبة الله ـ تعالى ـ وخوفٍ منه، ومن الوقوف بين يديه للحساب، والوجل من ناره ـ سبحانه ـ فإذا خرج من الصلاة وعرضت له الفتن؛ وجد في قلبه قوّة على درئها ودفعها، لأنّه لا ينظر إلى اللّذة العاجلة الفانية، بل إلى النّعيم الذي لا ينفد، والسعادة التي لا تنقطع، فهو يقدّم الخير الباقي على الزائل الفاني.

---

(١) العنكبوت: ٤٥.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» وغيره، وصححه بمجموع طرقه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (١٣٥٨).

وإنما تفسُد صلاة المرء لقلة مراقبة الله ـ تعالى ـ وضعف التقوى، فلا يؤتى من الخشية ما يحول بينه وبين معاصيه.

وفي الحديث: «... **ألا وإنّ في الجسد مُضغة، إذا صلحت، صلح الجسدُ كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب**»[1].

ففي صلاح القلب صلاح سائر الجسد، وفي فساد القلب فساد سائر الجسد، فإن صلح القلب، صلحت اليد، فلا تسرق ولا تبطش، ولا تزني باللمس، وصلحت الرّجل، فلا تمشي إلى محرّم، واستقامت الأذن فلا تسمع المعازف والنّميمة والغيبة، وحَسُن حال اللسان، فلا ينطق إلا خيراً وإن فسد القلب، فسد سائر الجسد، فلا تمضي الجوارح والأعضاء إلا إلى الفساد.

وإنما يصلح أمر القلب أو يفسُد بالصلاة، فإن حسُنت الصلاة، دلّ ذلك على انتفاع القلب وصلاحه، وإلا دلّ على قلة انتفاعه وفساده، فتبدو المنكرات، وتعمّ الجوارح والأركان.

واعلم أنّ كل صلاة خاشعة تُنشِّط القلب للأعمال الصالحة، وتوفِّقه لأعمال الخير، كما أنّ كل عمل طيب خارج الصلاة يزيد من الخشوع فيها. وفي الحديث: «**عليكم بقيام الليل، فإنّه دأبُ الصالحين قبلكم، وقربةٌ إلى ربكم ومنهاة عن الإثم ومَكْفَرةٌ للسيئات**»[2].

وهكذا وضّح النّبيّ ﷺ أنّ قيام الليل منهاة عن الإثم، إذ إنّه ينهى صاحبه عن الإثم والمنكر، ويأمره بالمعروف والخير، فلا بُدَّ لنا من الصلاة والمزيد فيها، ولا بُدَّ لنا من قيام الليل، نقف خاشعين متذلّلين لله ـ سبحانه ـ تبكي قلوبنا على ما قصَّرنا وفرّطنا منه، ونرجو رحمة ربّنا ـ تعالى ـ نتوسّل إليه أن يثبِّتنا، وأن ينفعنا بصلاتنا وقيامنا.

---

(١) أخرجه البخاري: ٥٢، ومسلم: ١٥٩٩، عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) أخرجه الترمذي في «كتاب الدعاء» من جامعه، وابن خزيمة في «صحيحه» وغيرهما، وحسنه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٢٤).

وقيل للنبيّ ﷺ: **«إنّ فلاناً يصلّي الليل كلّه، فإذا أصبح سرق! فقال: سينهاه ما تقول، أو قال: ستمنعه صلاته»**[١].

فإذا بلغت صلاة العبد مبلغَها في النّهي. كان لصاحبها كتابٌ في علّيّين كما في الحديث: **«صلاة في إثر صلاة، لا لغوَ بينهما، كتابٌ في عِليّين»**[٢].

ولا يفوتنّك أن الصلاة تمنعك مدخل السّوء ومخرجه، وذلك لما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: **«إذا خرجت من منزلك، فصلِّ ركعتين يمنعانك من مخرج السُّوء. وإذا دخلت إلى منزلك، فصلِّ ركعتين يمنعانك من مدخل السُّوء»**[٣].

❋ ❋ ❋

ما جاء في الخشوع وحسن الصلاة وثواب ذلك

١ ـ عن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من أحدٍ يتوضأ، فيُحسن الوضوء، ويُصلّي ركعتين، يُقبلُ بقلبه ووجهه عليهما، إلا وجبت له الجنّة»**[٤].

٢ ـ وعن زيد بن خالد الجُهني ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«من توضأ فأحسن الوضوء، ثمّ صلّى ركعتين، لا يسهو فيهما؛ غُفر له ما تقدّم من ذنبه»**[٥].

---

(١) أخرجه أحمد والبزار وغيرهما، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الضعيفة» (٥٨/١) تعليقاً على الحديث الباطل: **«من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم يزدد من الله إلا بعداً»**.

(٢) أخرجه أبو داود وغيره، وحسنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٤٤٦).

(٣) أخرجه البزار والبيهقي في «شعب الإيمان»، وانظر «الصحيحة» (١٣٢٣).

(٤) أخرجه مسلم: ٢٣٤.

(٥) أخرجه أبو داود والحاكم وغيرهما، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٢٨): «حسن صحيح».

٣ ـ وعن حُمران مولى عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ أنّه رأى عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ دعا بوَضوء، فأفرغ على يديه من إنائه، فغسلهما ثلاث مراتٍ، ثمّ أدخل يمينه في الوَضوء، ثمّ تمضمض واستنشق واستنثر، ثمّ غسل وجهه ثلاثاً، ويديه إلى المرفقين ثلاثاً، ثمّ مسح رأسه، ثمّ غسل رجليه ثلاثاً، ثمّ قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ نحو وُضوئي هذا، ثمّ قال: **«من توضأ نحو وضوئي هذا، ثمّ صلّى ركعتين، لا يُحدِّث فيهما نفسه، غُفر له ما تقدّم من ذنبه»**[١].

٤ ـ وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من توضأ فأحسن الوضوء، ثمّ قام فصلّى ركعتين، أو أربعاً ـ يشكّ سهلٌ ـ يُحسن فيهنّ الذِّكر والخشوع، ثمّ استغفر الله، غُفِر له»**[٢].

٥ ـ وفي آخر حديث عمرو بن عَبَسَة ـ رضي الله عنه ـ: **«... فإنْ هو قام فصلّى، فحمد الله، وأثنى عليه، ومجّده بالذي هو له أهلٌ، وفرّغ قلبه لله ـ تعالى ـ إلا انصرف من خطيئته كهيئة يوم ولدته أمّه»**[٣].

٦ ـ وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: سألت النّبيّ ﷺ عن مسح الحصى في الصلاة، فقال: واحدة، ولأن تُمْسِك عنها، خيرٌ لك من مائة ناقة، كُلّها سودُ الحدَق[٤]»[٥].

* * *

(١) أخرجه البخاري: ١٦٤، ومسلم: ٢٢٦.
(٢) أخرجه أحمد بإسناد حسن، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٣٠).
(٣) أخرجه مسلم: ٨٣٢.
(٤) أي: الأعيُن.
(٥) أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه»، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٥٧).

فضل قيام الليل وأثره في زيادة الإيمان

لو تدبرّ المسلم سورة المزمل، لوجد فيها فوائد وعبراً كثيرة، فإنّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمَر رسول الله ﷺ بقيام الليل، وهو في حالة عَصيبةٍ، حيث كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ أشدّ ما يحتاج إلى النُّصْرة والمعونة، فجاءت في قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾[1]، تربيةً لنفسه، وربطاً على قلبه ﷺ، وتثبيتاً لفؤاده.

ولقد كان قيام الليل فرضاً على النّبيّ ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ.

كما في حديث زُرارة ـ رضي الله عنه ـ وفيه: «... **فقالت**[2]: **ألست تقرأ**[3]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾؟ قلت: بلى. قالت: فإن الله ـ عزّ وجلّ ـ افترض قيام الليل في أوّل هذه السورة، فقام النّبيّ ﷺ وأصحابه حولاً، وأمسك الله خاتمتها[4] اثني عشر شهراً في السماء، حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة»[5].

لا بُدّ إذن أن يكون لقيام الليل أسرار، إنّه إعدادٌ للرجال... إنّه يثبّت القلوب على الحقّ ويزيدها قوةً إلى قوتها، إنّه سرُّ النّجاح، يُبعِد عن الخطايا والذّنوب، ويزيد الإيمان، يُلحِق العبدَ بالصالحين، ويُبلّغه مرتبة المحسنين. يعبد الله كأنّه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله ـ تعالى ـ يراه.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**يعقِدُ**

---

(١) المزمّل: ١، ٢.

(٢) أي: عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٣) الخطاب لسعد بن هشام.

(٤) وهي قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾.

(٥) أخرجه مسلم: ٧٤٦.

الشيطان على قافية رأس[١] أحدكم إذا هو نام ثلاث عُقدٍ[٢]، يضرب على كلِّ عقدة: عليك ليلٌ طويل فارقُد، فإن استيقظ، فذكر الله ـ تعالى ـ انحلّت عُقدة، فإن توضأ، انحلت عُقدة، فإنْ صلّى انحلت عُقده كلُّها، فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»[٣].

وفي رواية: «**فيصبح نشيطاً طيّب النّفس قد أصاب خيراً، وإن لم يفعل، أصبح كَسلان، خبيث النفس، لم يُصِبْ خيراً**»[٤].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل الصيّام بعد رمضان شهرُ الله المحرَّم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل**»[٥].

وعن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ عن النّبيّ ﷺ قال: «**في الجنّة غرفة يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنُها من ظاهرها**».

فقال أبو مالك الأشعري: لمن هي يا رسول الله؟

قال: «**لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وبات قائماً والناس نيام**»[٦].

---

(١) أي: مُؤخرة.

(٢) قال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٩٥/١): «**قلت: في تفسير «العُقد»** أقوال، والأقرب أنّه على حقيقته، بمعنى السِّحر للإنسان، ومنعه من القيام، كما يعقد الساحر من سحره، كما أخبر بذلك المولى ـ تعالى ذكره ـ في كتابه: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾ فالذي خُذل يعمل فيه، والذي وفّق يُصرف عنه، ومما يدلّ على أنّه على الحقيقة: ما رواه ابن ماجه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «**على قافية رأس أحدكم حبل فيه ثلاث عقد...**» الحديث، وما رواه ابن خزيمة، وذكره المصنّف في هذا الباب عن جابر ـ رضي الله عنه ـ: «**على رأسه جرير معقود**» وفسَّر الجرير بالحبل» اهـ.

(٣) أخرجه البخاري: ١١٤٢، ومسلم: ٧٧٦.

(٤) أخرجه ابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (١٠٩٤).

(٥) أخرجه مسلم: ١١٦٣.

(٦) أخرجه الطبراني في «الكبير» بإسناد حسن، والحاكم، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦١٧): «حسن صحيح».

وعن المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ قال: «قام النبيّ ﷺ حتى تورّمت قدماه، فقيل له: قد غَفَر اللهُ لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر، فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً»[١].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «أحبُّ الصلاة إلى الله صلاةُ داود، وأحبُّ الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثُلُثه، وينام سُدُسه، ويصوم يوماً، ويفطر يوماً»[٢].

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن في الليل لساعةً، لا يوافقها رجلٌ مسلمٌ يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة، إلا أعطاه إيّاه، وذلك كلَّ ليلة»[٣].

وعن أبي أمامة الباهلي ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بقيام الليل، فإنه دَأْبُ الصالحين قبلكم، وقُربةٌ إلى ربّكم، ومكْفَرةٌ للسيئات، ومنهاةٌ عن الإثم»[٤].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلاً قام من الليل، فصلّى وأيقظ امرأته، فإن أبت، نَضَح[٥] في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلّت وأيقظت زوجها، فإن أبى نضَحت في وجهه الماء»[٦].

وعن أبي هريرة وأبي سعيد ـ رضي الله عنهما ـ قالا: قال رسول الله ﷺ: «إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصلّيا، أو صلّى ركعتين

---

(١) أخرجه البخاري: ١١٣٠، ومسلم: ٢٨١٩.
(٢) أخرجه البخاري: ١١٣١، ومسلم: ١١٥٩.
(٣) أخرجه مسلم: ٧٥٧.
(٤) تقدّم تخريجه.
(٥) نضح: رشّ.
(٦) أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة في «صحيحه» وغيرهم، وحسّنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٢٥).

جميعاً، كُتبا في الذاكرين والذاكرات»[١].

وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ قال: «ثلاثة يُحبّهم الله، ويضحك[٢] إليهم، ويستبشر بهم: الذي إذا انكشفت فئة، قاتل وراءها بنفسه لله ـ عزّ وجلّ ـ فإمّا أن يُقتل، وإمّا أن ينصره الله ويكفيه، فيقول: انظروا إلى عبدي هذا، كيف صبر لي بنفسه؟ والذي له امرأة حسنة، وفراش ليّن حسن، فيقوم من الليل، فيقول: يَذَر شهوته ويذكرني، ولو شاء رقد. والذي إذا كان في سفر، وكان معه ركبٌ، فسهروا، ثمّ هجعوا، فقام من السَّحر في ضرّاء وسرّاء»[٣].

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ قال: «عَجِب ربّنا من رجلين: رجل ثار[٤] عن وطائه ولحافه من بين أهله وحبّه إلى صلاته، فيقول الله ـ جلّ وعلا ـ: أيا ملائكتي، انظروا إلى عبدي، ثار عن فراشه ووطائه من بين حبّه إلى صلاته، رغبةً فيما عندي، وشفقةً ممّا عندي، ورجل غزا في سبيل الله، وانهزم أصحابه، وعلم ما عليه في الانهزام، وما له في الرُّجوع، فرجع حتى يُهريق دَمَه، فيقول الله لملائكته: انظروا إلى عبدي، رجع رجاءً فيما عندي، وشفقة ممّا عندي، حتى يهريق دمَه»[٥].

وعن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرّجل من أمّتي يقوم من الليل يعالج نفسه إلى الطّهور، وعليه عُقَدٌ، فإذا وضّأ يديه، انحلّت عقدةٌ، وإذا وضّأ وجهه، انحلّت عقدةٌ، وإذا مسح رأسه انحلّت عقدة، وإذا وضّأ رجليه انحلّت عقدة. فيقول الله ـ عزّ

---

(١) أخرجه النسائي وابن ماجه وغيرهما، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٢٦).

(٢) ضحكاً يليق بجلاله ـ سبحانه ـ من غير تكييفٍ ولا تمثيل، ويُقال هذا نفسه في قوله ﷺ: «عجب ربُّنا» كما سيأتي ـ إن شاء الله ـ.

(٣) أخرجه الحاكم والطبراني في «الكبير» بإسناد حسن، وحسّنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٢٩).

(٤) نهضَ ووَثَب.

(٥) أخرجه أحمد وأبو يعلى وغيرهما، وحسّنه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٣٠).

وجلّ ـ للذين وراء الحجاب: انظروا إلى عبدي هذا يعالج نفسه ويسألني، ما سألني عبدي هذا فهو له»[١].

وعن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا حسد**[٢] **إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النّهار، ورجل آتاه الله مالاً، فهو يُنفقه آناء الليل وآناء النهار»**[٣].

وعن فضالة بن عُبيد وتميم الداري ـ رضي الله عنهما ـ عن النبيّ ﷺ قال: **«من قرأ عشر آيات في ليلة، كُتب له قنطارٌ من الأجر ـ والقنطار خيرٌ من الدنيا وما فيها ـ فإذا كان يوم القيامة، يقول ربّك ـ عزّ وجلّ ـ: اقرأ وارق؟ بكلِّ آيةٍ درجةً، حتى ينتهي إلى آخر آية معه، يقول الله ـ عزّ وجلّ ـ للعبد: اقبِض. فيقول العبد بيده: يا ربِّ! أنت أعلم. يقول: بهذه الخُلْد، وبهذه النّعيم»**[٤].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قام بعشر آيات، لم يُكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية، كُتب من القانتين، ومن قام بألف آية، كُتب من المُقَنطَرين**[٥]**»**[٦].

مما يستفاد من هذه الأحاديث:

١ ـ أنّ الصلاة تُسهم في حلّ العُقد التي يضربُها الشيطان على قافية الرأس.

---

(١) أخرجه أحمد وابن حبان في «صحيحه» واللفظ له، وحسّنه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٣١).

(٢) يُراد به الغِبطة، لا تمني زوال النعمة عن المحسود.

(٣) أخرجه البخاري: ٧٥٢٩، ومسلم: ٨١٥.

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط»: بإسناد حسن، وحسّنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٣٨).

(٥) أي: ممن كُتِبَ له قنطار من الأجر.

(٦) أخرجه أبو داود وابن خزيمة في «صحيحه»، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٣٩).

٢ ـ أن صلاة الليل أفضل الصلاة بعد الفريضة.

٣ ـ يدْرك قائمُ الليل من الأجر ما لا يدركه الكثير من الناس.

٤ ـ شُكر الله ـ تعالى ـ بالصلاة والقيام.

٥ ـ أنَّ أحبَّ الصلاة إلى الله ـ تعالى ـ صلاة داود، قيام ثلثه، ونوم ثلثيه[(١)].

٦ ـ أن الله ـ تعالى ـ مَنَّ على عباده بساعة استجابة في الليل، فحريّ بالمسلم أن يتحرَّاها، ويجتهد عليها، لعله يُعطى من خير الدنيا والآخرة.

٧ ـ أنّ قيام الليل دليلٌ على الصلاح والتقوى، يكفِّر السيئات، وينهى عن الإثم.

٨ ـ أن الله ـ تعالى ـ يتغمَّد برحمته الزوجين اللذين يتعاهدان بعضهما في قيام الليل، فإن أبى أحدهما نضح الآخر الماء في وجهه.

٩ ـ أنَّ قيام ركعتين من الليل، يجعل الإنسان من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات.

١٠ ـ أن الله ـ تعالى ـ يَعجب من رجل، ثار عن وطائه ولحافه من بين أهله وحبّه إلى الصلاة، ويضحك إليه، ويباهي ـ سبحانه ـ الملائكة به.

١١ ـ أنّه لا حسد ولا تنافُس إلا في اثنتين: إحداهما قيام الليل بكتاب الله ـ تعالى ـ.

١٢ ـ أنّ من قرأ عشر آيات في ليلة، لم يُكتب من الغافلين، وكُتب له قنطارٌ من الأجر، ويقول الله ـ تعالى ـ له يوم القيامة: اقرأ وارقَ بكل آية درجة، حتى ينتهي إلى آخر آية معه، ويمنُّ الله ـ تعالى ـ عليه بالخُلد.

١٣ ـ أنّ من قام بمائة آية، كُتب من القانتين، ومن قام بألف آية، كُتب من المقنطرين.

* * *

---

(١) لقوله ﷺ في الحديث المتقدّم: «... **كان ينام نصف الليل، ويقوم ثُلثه، وينام سدسه**» والنّصف إذا أُضيف إليه السدس، فمجموعهما ثلثان.

تواصي الزوجين بقيام الليل

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلاً قام من الليل، فصلّى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضَحَ في وجهها الماء، ورحم الله امرأةً قامت من الليل، فصلّت وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت[١] في وجهه الماء»[٢].

* * *

أحبُّ الصلاة إلى الله

عن ابن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الصّيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يوماً، ويُفطر يوماً، وأحبّ الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه»[٣].

* * *

إقبال الله ـ تعالى ـ بوجهه على عبده في الصلاة

عن الحارث بن الحارث الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات... فقال يحيى: إن الله أَمَرني بخمس كلمات أن أعمل بهنّ وآمركم أن تعملوا بهنّ... وإنّ الله أمركم بالصلاة؛ فإذا صليتم فلا تلتفتوا، فإن الله ينصِب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت»[٤].

---

(١) أي: رشّت.

(٢) تقدّم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري: ١١٣١، ومسلم: ١١٥٩، وتقدّم.

(٤) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وغيره، وصحّحه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٥٢).

الاستعانة بالصلاة

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾[١].

قال ابن كثير في «تفسيره»: «**استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة**»، وقال أيضاً: «... **إن الصلاة من أكبر العون على الثّبات في الأمر**».

وعن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان إذا حزبه أمر صلّى»[٢].

هذه هي الصلاة الحقيقية التي يلجأ ويأوي بها العبد إلى الله ـ تعالى ـ من الكُرُبات والأحزان والغُموم والهموم، فيشعر بالمواساة، ويحس بأنّه مؤيّد من الله ـ تعالى ـ من رب السماوات والأرض، فيتخطى دنياه بالنّجاة، ويحظى برضوان الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويفوز بجنّة عرضها السماوات والأرض.

أولم يقُل النّبيّ ﷺ: «**أقرب ما يكون العبدُ من ربّه وهو ساجدٌ، فأكثروا الدعاء**»[٣]. فلنستعن بالدعاء في السجود، ولنَبتهل إلى الله ـ تعالى ـ ولنتضرَّع أن يُفرِّج الكُرُبات، وأن يؤتينا من خير الدنيا والآخرة.

وما قصة ذلك الصحابي عنّا ببعيدة، ذلك الذي سأل النّبيّ ﷺ مرافقته في الجنّة، فبمَ أوصاه؟ وعلام أرشده؟ وماذا قال له؟ «**فأعني على نفسك بكثرة السجود**»[٤].

إنّه يدله على الإكثار من السجود، ليحقّق مأربه العظيم وغايته السامية.

* * *

(١) البقرة: ٤٥ ـ ٤٦.
(٢) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (١١٧١).
(٣) أخرجه مسلم: ٤٨٢.
(٤) أخرجه مسلم: ٤٨٩، وتقدّم.

ارتباط الصلاة بشؤون الحياة

ليست الصلاة مجرد عبادة يُرادُ بها الآخرة فحسب، بل إنّها تتّصل بحياة المسلم اتصالاً وثيقاً فهي: تنهاه عن الفحشاء والمنكر ـ كما سبق بيانه ـ وتؤثّر في سلوكه، وهي مرآة عمله إن كان صالحاً أو فاسداً، وهذا له أثر كبير في الصدق في المعاملة، وأداء الأمانة، وحُسن الجوار، والخُلق، والإيثار، وكف الأذى، فتكون السعادة والوئام والألفة في البيت والأسرة، والشارع والمجتمع، بل في الأمة كلّها.

والمسلم إذا همّ بالأمر ذي الشأن، لجأ إلى صلاة الاستخارة، فيصلّي ركعتين، ثمّ يدعو ربه أن يُلهمه الصواب، وييسر له الخير في دينه ومعاشه وعاقبة أمره، ويصرف عنه الشرّ في دينه ودنياه، وذلك لما ثبت عن جابر ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا هم أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثمّ ليقل: اللّهم إنّي أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنّك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللّهم إن كنت تعلم أنّ هذا الأمر ـ وتسمّيه باسمه ـ خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، وعاجله وآجله، فاقدره لي ويسّره لي، ثمّ بارك لي فيه،وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، وعاجله وآجله، فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثمّ رضّني به»**[1].

وإذا ما وقع كسوفٌ بالشمس أو القمر، فزع المسلم إلى ربّه، يصلّي ويدعو، حتى ينكشف ما به، فإنّ الله ـ تعالى ـ يُخوّف عباده، وذلك لقوله ﷺ: **«إنّ الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحدٍ ولا لحياته، ولكنهما آيات من آيات الله، يُخوّف الله بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك، فصلّوا وادعوا حتى ينكشف ما بكم»**[2].

---

(١) أخرجه البخاري: ١١٦٢.

(٢) أخرجه البخاري: ١٠٤٨ عن أبي بكرة.

وفي رواية: «**فادعوا الله وكبروا وصلّوا وتصدقوا**»[١].

وكذلك إذا توفي المسلم، سارع الإخوة والأحباب، ومن يبحث عن الثّواب، فيما يلزم أخاهم، ومن ذلك صلاة الجنازة.

والعبد في هذا الحال، أشدّ ما يكون محتاجاً لرحمة ربه، فإذا ما صلّى عليه أربعون رجلاً، لا يُشركون بالله شيئاً شفّعهم الله ـ تعالى ـ فيه، وذلك فيما رواه ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النّبيّ ﷺ أنه قال: «**ما مِنْ مسلم يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلاً، لا يُشركون بالله شيئاً، إلا شُفِّعوا فيه**»[٢].

وفي رواية: «**ما مِنْ ميت يصلّي عليه أمة من المسلمين، يبلغون أن يكونوا مائة، فيشفعون له، إلا شُفِّعوا فيه**»[٣].

وفي صلاة العيدين يجتمع أهل البلد، ويؤدُّون الصلاة، ويكون في ذلك فرصة للّقاء للتعارف، وزيادة الألفة والمحبة، حتى إن النّبيّ ﷺ كان يقتطع المجاهدين من المصلى. وذلك لما رواه أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان رسول الله ﷺ يخرج يوم الفطر والأضحى إلى المُصلّى، فأول شيء يبدأ به الصلاة، ثمّ ينصرف فيقومُ مقابل الناس، والناسُ جلوس على صفوفهم، فيَعِظُهم ويُوصيهم ويأمرهم، فإنْ كان يريد أن يقطع بَعثاً قَطَعَه[٤]، أو يأمر بشيء أمر به، ثمّ ينصرفُ» قال أبو سعيد: «فلم يزل الناس على ذلك...»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري: ١٠٤٤، ومسلم: ٩٠١.

(٢) أخرجه مسلم: ٩٤٨.

(٣) أخرجه مسلم: ٩٤٧.

(٤) أي: يخرج طائفة من الجيش إلى جهة من الجهات كما في «الفتح».

(٥) أخرجه البخاري: ٩٥٦، ومسلم: ٨٨٩، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «كتاب صلاة العيدين في المصلى خارج البلد هي السنة»: «وفيه إشارة قوية إلى أن خطبة العيد ليست محصورة في الوعظ والإرشاد فقط، بل إنها تشمل التذكير والتوجيه إلى كل ما فيه تحقيق مصالح الأمّة».

ولكنّنا ـ وللأسف ـ ما ازدَدْنا في العيد إلا لهواً إلى لهونا، وغفلةً إلى غفلتنا.

وإذا ما انقطع المطر، وهلكت البهائم، وانقطعت السُبل، فإن المسلم يلجأ إلى ربه بالصلاة والدعاء، فتنزل الرحمة ويُسقى الناس.

عن عباد بن تميم عن عمه ـ رضي الله عنه ـ أنّ النّبيّ ﷺ: **«استسقى فصلّى ركعتين، وقلب رداءه»**[1].

وأمّا صلاة الضحى، ففيها ما فيها من زيادة الإيمان، وعِظَم الأجر عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ من ذلك:

١ ـ ما ثبت عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: بعثَ رسول الله ﷺ بعثاً، فأعظموا الغنيمة، وأسرعوا الكرَّة، فقال رجل: يا رسول الله! ما رأينا بعثاً قطُّ أسرع كرَّةً، ولا أعظم غنيمةً من هذا البعث، فقال: **«ألا أخبركم بأسرع كرّة منهم، وأعظم غنيمةً؟ رجلٌ توضأ فأحسن الوضوء، ثمّ عمد إلى المسجد، فصلّى فيه الغداة، ثمّ عقب بصلاة الضَّحوة، فقد أسرع الكرة، وأعظم الغنيمة»**[2].

٢ ـ وكذلك ما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنّه قال: **«لا يحافظ على صلاة الضحى إلا أوّاب»**[3]. قال: **«وهي صلاة الأوّابين»**[4].

وإذا ما أذنب العبد، فقام وتطهّر، وصلّى، ثمّ استغفر الله غفر الله ـ تعالى ـ له، وذلك لما رواه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت

---

(١) أخرجه البخاري: ١٠٢٦، ومسلم: ٨٩٤.

(٢) أخرجه أبو يعلى والبزار وابن حبان في «صحيحه»، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٦٩): **«حسن صحيح»**.

(٣) أوّاب: من صِيَغ المبالغة، وهو كثير الرجوع إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالتوبة.

(٤) أخرجه الطبراني وابن خزيمة في «صحيحه»، وحسنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٧٦).

رسول الله ﷺ يقول: «**ما من رجل يُذنب ذنباً، ثمّ يقوم فيتطهّر، ثمّ يُصلّي، ثمّ يستغفر الله، إلا غَفَر الله له، ثمّ قرأ هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ إلى آخر الآية**»(١).

وأما عن صلاة التسابيح؛ فلا تسأل عما فيها من مثوبة ومغفرة، وزيادة إيمان، فإنّ الله ـ تعالى ـ يغفر لك بها ذنبك، أوّله وآخره، قديمه وحديثه، خطأه وعمده، صغيره وكبيره، سرّه وعلانيته، وذلك لما ثبت عن ابن عبّاس - رضي الله عنهما - أنّ النّبيّ ﷺ قال: «**يا عبّاس يا عمّاه! ألا أعطيك ألا أمنحك ألا أحبوك ألا أفعل لك عشرَ خصال ؛ إذا أنتَ فعلتَ ذلك غفَر الله ذَنبك أوّله وآخره، وقديمه وحديثه، وخطأه وعمده، وصغيره وكبيره، وسرَّه وعلانيته، عشرَ خصال؟ أن تصلّي أربع ركعاتٍ، تقرأ في كلّ ركعةٍ (فاتحة الكتاب) وسورةً، فإذا فرغتَ من القراءة في أوّل ركعة فقُل وأنت قائم: «سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلاَّ الله، والله أكبر. خمس عشرة مرة، ثمَّ تركعُ فتقولها وأنت راكع عشراً، ثمَّ ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشراً، ثمَّ تهوي ساجداً فتقول وأنت ساجد عشراً، ثمَّ ترفع رأسك من السجود فتقولها عشراً، ثمَّ تسجد فتقول عشراً، ثمَّ ترفع رأسك من السجود فتقولها عشراً، فذلك خمسٌ وسبعون في كلّ ركعةٍ، تفعل ذلك في أربع ركعاتٍ [فلو كانت ذنوبك مثل زبد البحر أو رمل عالج غفرها الله لك]، إن استطعت أن تُصلّيها في كل يوم مرّة فافعل، فإن لم تستطع، ففي كل جمعةٍ مرّةً، فإنْ لم تفعل، ففي كل شهر مرّةً، فإنْ لم تفعل ففي كل سنة مرّة، فإنْ لم تفعل ففي عُمُرك مرةً**»(٢).

***

(١) أخرجه الترمذي وحسنه، وأبو داود والنسائي وابن ماجه وغيرهم، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٨٠).

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه وغيرهما والزيادة للطبراني، وصححه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٧٧).

صلاة الضعفاء وارتباطها بنصر الأمّة

عن سعد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّما ينصر الله هذه الأمّة بضعيفها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم**»(١).

وبهذا تنقلب الأفكار خاسئة، تلك التي تقول: اعتنوا بالأغنياء والأقوياء وذوي المناصب، ودعوا الفقراء.

وها نحن الآن، قد تركنا الضعفاء والمساكين والفقراء والأتقياء، وذقنا مرارة الهزيمة والذلّة والضياع كيف لا؟ وقد ارتبط نصر الأمّة بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم.

فلنحرص على صحبة الضعفاء والأتقياء، نلتمسُ نصر الله ـ سبحانه وتعالى ـ نطلبُ منهم الدُّعاء، لتفريج كرباتنا وكربات أمّة محمد ﷺ.

***

في الصلاة راحة وطمأنينة

في الصلاة راحة وطمأنينة وسعادة، فإنّ الإنسان يشعر بالقرب من الله ـ تعالى ـ يقول ـ سبحانه ـ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾(٢).

والصلاة كلّها ذكر ودعاء.

عن سالم بن أبي الجَعْد قال: قال رجل من خزاعة: ليتني صلّيت فاسترحْت، فكأنهم عابوا ذلك عليه، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) أخرجه النسائي وغيره، وهو في البخاري: ٢٨٩٦، دون ذكر الإخلاص، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥).

(٢) الرعد: ٢٧ ـ ٢٨.

«أقم الصلاة يا بلال، أرِحنا بها»[١]، ويقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **«جعلت قُرّة عيني في الصلاة»**[٢].

فهيا يا باحثاً عن السعادة وراحة النفس وقرّة العين، أقبل إلى الصلاة، بخشوع وتذلّل لله ـ تعالى ـ كما صلاها رسول الله ﷺ من قبلنا تنل مرادك، وإلا تفعل، فلا تلومنّ إلا نفسك.

* * *

ماذا في مرض موت النّبيّ ﷺ؟

عن عُبيدالله بن عبدالله قال: دخَلْت على عائشة، فقلت لها: ألا تحدثيني عن مرض رسول الله ﷺ؟ قالت: بلى. ثَقُل النّبيّ ﷺ فقال: **«أصلّى الناس؟»** قلنا: لا وهم ينتظرونك يا رسول الله! قال: **«ضعوا لي ماءً في المِخْضَب»**[٣]، ففعلنا، فاغتسل، ثمّ ذهب لينوء[٤] فأغمي عليه. ثمّ أفاق، فقال: **«أصلّى الناس؟»** قلنا: لا. وهم ينتظرونك يا رسول الله! فقال: **«ضعوا لي ماءً في المخضَب»**. ففعلنا، فاغتسل. ثمّ ذهب لينوء، فأغمي عليه. ثمّ أفاق. فقال: **«أصلّى الناس؟»** قلنا: لا، وهم ينتظرونك يا رسول الله! فقال: **«ضعوا لي ماءً في المخضب»**، ففعلنا، فاغتسل ثمّ ذهب لينوء، فأغمي عليه، ثمّ أفاق، فقال: **«أصلّى الناس؟»** فقلنا: لا، وهم ينتظرونك يا رسول الله! قالت: والناس عكوف[٥] في المسجد ينتظرون رسول الله ﷺ لصلاة العشاء الآخرة، قالت: فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبي

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٤١٧١)، وصحح شيخنا ـ رحمه الله ـ إسناده في «المشكاة» (٢٥٣).

(٢) أخرجه أحمد والنسائي وغيرهما، وحسّن شيخنا ـ رحمه الله ـ إسناده في «المشكاة» (٥٢٦١)، وانظر «الصحيحة» (١١٠٧، ١٨٠٩).

(٣) المخضب: شِبه المركن، وهي: إناء تغسل فيه الثياب.

(٤) أي: يقوم وينهض.

(٥) جمع عاكف، أي: مجتمعون منتظرون، وأصل الاعتكاف ـ لغة ـ اللزوم والحبس.

بكر، أن يُصلّي بالنّاس، فأتاه الرسول، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلّي بالناس، فقال أبو بكر ـ وكان رجلاً رقيقاً ـ: يا عمر، صلِّ بالناس. قال: فقال عمر: أنت أحقُّ بذلك. قالت: فصلّى بهم أبو بكر تلك الأيام.

ثمّ إنّ رسول الله ﷺ وجد من نفسه خِفّةً، فخرج بين رجلين أحدهما العبّاس، لصلاة الظهر، وأبو بكر يصلّي بالناس. فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخّر، فأومأ إليه النّبيّ ﷺ أن لا يتأخّر. وقال لهما: «**أجلساني إلى جنبه**»، فأجلساه إلى جنب أبي بكر، وكان أبو بكر يُصلّي وهو قائم بصلاة النّبيّ ﷺ، والناس يُصلون بصلاة أبي بكر، والنّبيّ ﷺ قاعد»[1].

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: كان آخر كلام النّبيّ ﷺ: «**الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم**»[2].

* * *

دروس وعِبَر

انظر كيف كانت متابعة النّبيّ ﷺ لصلاة المسلمين في مرض موته فكلّما أفاق من إغمائه سأل: أصلّى الناس؟ وكان هذا في أربع مرات، ولما أنْ وجد في نفسه خِفَّة، حرص على صلاة الجماعة، واللقاء بأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ فخرج بين رجلين من أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ.

وما كان من النّبيّ ﷺ في مرض موته، يدل على عِظم الصلاة، وأهمية الجماعة، ومكانة المسجد في الإسلام.

... إنه في مرض الموت يُتابع أمر الصلاة! فماذا أيها الأصحّاء المعافون؟ ماذا أيها الشباب؟ ماذا يا من تنعمون بالقوّة والنّشاط؟ كيف

---

(١) أخرجه البخاري: ٦٨٧، ومسلم: ٤١٨.

(٢) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٤٢٩٥) وابن ماجه وغيرهما، وانظر «الإرواء» (٢١٧٨).

ترضون لأنفسكم التخلّف عن المسجد والجماعة؟ وما الذي ستفعلونه بالصلاة إذا مرضتم؟

أيها المسلمون: «**الصلاة الصلاة**» آخر ما قاله النّبيّ ﷺ، وأوّل ما يُحاسب به العبد يوم القيامة، فاتقوا الله في أنفسكم، وحاسبوها قبل أن تُحاسبوا.

***

أنزل الله ـ تعالى ـ المال لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة

قد يبدو هذا العنوان غريباً، ولعلّ هذه الغرابة تزول عندما نعلم أنه اختير من قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ قال: إنّا أنزلنا المال لإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ولو كان لابن آدم وادٍ، لأحبَّ أن يكون إليه ثانٍ، ولو كان له واديان، لأحبّ أن يكون إليهما ثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا الترابُ، ثمّ يتوب الله على من تاب**»[١].

وممّا يُيسّر فهمنا للحديث الشريف: أن نعلم أن المقصود من خلق الجنّ والإنس، هو عبادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا شيء غيره، حيث يقول ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[٢].

وإنما كانت بقية الأشياء وسيلةً، يستخدمها الجن والإنس للطاعة؛ كالطعام والشراب والدابة، والزواج، والمال، فإنّ المال لم ينزل إلا لتحقيق عبادة الله: فيقوي العبد بدنه وجسمه بالطعام والشراب، وهذا من شأنه أن يُمكّنه من إقامة الصلاة، وربما استخدمه في الزواج، والزواج نصف الدين[٣].

---

(١) أخرجه أحمد والطبراني في «الكبير»، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (١٦٣٩).

(٢) الذاريات: ٥٦.

(٣) وذلك لقوله ﷺ: «**إذا تزوج العبد، فقد استكمل نصف الدين، فليتق الله فيما بقي**» أخرجه البيهقي، وحسنه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٩١٦)، وانظر «الصحيحة» (٦٢٥).

والزواج أغض للبصر، وأحفظ للفرج، فإذا قام العبد المتزوِّج يصلّي لله ـ تعالى ـ اشتد خشوعه، وأقبل بقلبه على الله ـ تعالى ـ إذ إنّ عدم غض البصر، وعدم حفظ الفرج، مقتلة للخشوع أيّ مقتلة، وربما استخدم المسلم هذا المال في التداوي، فيقوي بدنه، ويكون أداؤه للصلاة خيراً من أداء المريض لها.

فإنزال المال إما أن يكون لإقامة الصلاة، أو لإيتاء الزكاة والتفريج عن المكروبين والملهوفين.

ولكن جهل ابن آدم هذا الأمر أو تجاهله، حتى إنّه لو كان له وادٍ من المال، لأحبّ أن يكون له ثان، فإذا نال أمنيته وتحقّق مراده، وتحصَّل على الثاني، أحبَّ أن يكون له ثالث.

نسي ابن آدم أنّ المراد من إنزال المال، هو إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فتوسّع في المشاريع التجارية، وبالغ وغاص في بحار المادّيّة، كلُّ ذلك لأجل الوادي الأول، فأنّى له الواديان والثلاثة؟

كم يفوت من الخشوع في الصلاة، بسبب هذا السعي الزائد، لأجل التنفّل في الدنيا، وإضاعة الخير العظيم.

ولم يقف الأمر عند إضاعة الخشوع فحسب؛ بل تجاوزه إلى إضاعة الصلوات، فأنت ترى من تفوته الصلوات لانشغاله بجمع المال، ناسياً أنّ المال لم يكن إلا للصلاة والزكاة، ورسول الله ﷺ يقول: «**لو كان لي مثل أحد ذهباً؛ لسرّني أن لا يمرّ عليّ ثلاث وعندي منه شيء، إلا شيء أرصُده لدين**»[1].

ومن البلاء المستطير أن تسمع فتاوى سُرَّ بها بعض المشتغلين بالمال، أنّ المرء يحلّ له جمع الصلوات الخمس معاً، فيؤخرون الصلوات ويصلُّونها بعد العشاء، ويعطّلون بذلك المواقيت والفرائض، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

(١) أخرجه البخاري: ٢٣٨٩، ومسلم: ٩٩١.

ما جاء فيمن ترك الصلاة

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّ بين الرجل وبين الشرك والكفر تركَ الصلاة»**(١).

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ «أنّ النّبيّ ﷺ كان إذا غزا بنا قوماً، لم يكن يغزو بنا حتى يُصبح وينظر، فإن سمع أذاناً كفَّ عنهم، وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم»(٢).

***

من فاتته صلاة، فكأنّما وُتِر أهله وماله

عن نوفل بن معاوية ـ رضي الله عنه ـ أنّ النّبيّ ﷺ قال: **«من فاتته صلاة، فكأنما وُتِر(٣) أهله وماله»**(٤).

كيف شعورك ـ أخي المسلم ـ عندما تفقد ابنك العزيز الغالي؟ كيف أحساسُك عندما تفقد زوجك، كيف ألمك عندما تفقد أهلك؟ كيف حزنك عندما تفقد أهلك ومالك معاً؟

إنّه ألم مفجعٌ، وحزن مُدْم؛ أن يفقد المرء أهله وماله. يفقد الأهل الذين عاش معهم وسَعِد بهم، إنَّ الأرض لتضيق بما رحبت بمن فَقَد أهله، إنّه ليُعاين الكروب والهموم والأحزان، فكيف بمن يفقد مع ذلك ماله كلّه؟ المال الخضر الحلو، الذي جعله الله لنا قياماً، كيف يكون الأمر والحال إذا استطعت أن تستشعر هذا؟ فاعلم أنّ من فاتته صلاةٌ قد خسر الكثير الكثير.

---

(١) أخرجه مسلم: ٨٢.

(٢) أخرجه البخاري: ٦١٠، ومسلم: ٣٨٢.

(٣) وُتِر: نُقِص. «النهاية».

(٤) أخرجه ابن حبان في «صحيحه»، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٧٧).

التدريب على الخشوع في الصلاة

قد تصلّي خلف إمام يأتي بالأدنى من خشوع الأركان، فكيف السبيل إلى تحقيق المزيد من الخشوع؟

لا بُدّ من اغتنام أوقات وصلوات أخرى غير المكتوبة، فعليك بالسنن والنوافل، فإنّها فُرَصٌ عظيمة للتدرّب على الخشوع، فتمرّن فيها على إطالة القراءة[١]، وطول القنوت، وقد قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**أفضل الصلاة طول القنوت**[٢]»[٣].

واحرص ـ أيضاً ـ على طول الركوع والسجود، وأكثر من الدعاء في السجود.

ولقد تعوّذ رسول الله ﷺ من عدم الخشوع، فقال: «**اللّهم إنّي أعوذ بك من قلب لا يخشع**»[٤].

* * *

عوائق الخشوع[٥]

١ ـ ضعف الإيمان بلقاء الله ـ تعالى ـ والرجوع إليه.

---

(١) إلا ما ورد فيه عدم الإطالة، كالقراءة في سنة الفجر، وراجع كتاب «صفة صلاة النبيّ ﷺ» لشيخنا ـ رحمه الله ـ تحت عنوان: «**القراءة في سنة الفجر**».
(٢) طول القنوت: أي: طول القيام. «فيض القدير».
(٣) أخرجه مسلم: ٧٥٦.
(٤) أخرجه مسلم: ٢٧٢٢.
(٥) ذكرت بعض الأمور في هذا الباب، دون تفصيل أو استدلال، لتقدّم ذلك في الصفحات السابقة.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ[(١)] وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ[(٢)] أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾[(٣)]. فقد بيّن الله ـ تعالى ـ صفات الخاشعين، وهم الذين يوقنون بأنّهم مُلاقُو ربهم ـ سبحانه ـ وأنّهم إليه راجعون.

إنّه العلم بلقاء الله والرجوع إليه ـ سبحانه ـ فالنّقص في هذا؛ نقصٌ في الخشوع، وهذا الاعتقاد يجعلك تحسب الحساب اللازم، فتحسُنُ الصلاة ويستقيم السلوك.

٢ ـ وسوسة الشيطان.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا نودي بالصلاة، أدبر الشيطان وله ضُراط؛ حتى لا يسمع التأذين، فإذا قُضي النّداء أقبل، حتى إذا ثُوّب[(٤)] بالصلاة أدبر، حتى إذا قضي التثويب أقبل؛ حتى يخطر بين المرء ونفسه ويقول: اذكر كذا، واذكر كذا، لما لم يكن يذكر، حتى يظلّ الرجل لا يدري كم صلّى**»[(٥)]، وفي رواية عند مسلم: «**حتى يظلّ الرجل إن يدري[(٦)] كيف صلّى**».

٣ ـ الغفلة والهوى.

٤ ـ الاهتمام الزائد بالدُّنيا.

---

(١) «كان إذا حزَبه أمر صلّى» أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (١١٧١)، وانظر «المشكاة» (١٣٢٥) وتقدّم.

(٢) أي يعلمون. قال ابن كثير في «تفسيره»: «قال ابن جرير ـ رحمه الله تعالى ـ: العرب قد تُسمي اليقين ظناً، والشك ظناً، وقال أيضاً: والشواهد من أشعار العرب وكلامهما على أن الظنَّ في معنى اليقين، أكثر من أن تُحصر» ثمّ نقل قول مجاهد: كل ظنّ في القرآن فهو علم، وقال: وهذا سند صحيح».

(٣) البقرة: ٤٥ ـ ٤٦.

(٤) التثويب ها هنا: إقامة الصلاة.

(٥) أخرجه البخاري: ٦٠٨، ومسلم: ٣٨٩.

(٦) أي: ما يدري.

٥ ـ ترك المسجد والجماعة، وذلك لقوله ﷺ: **«فإنّما يأكل الذئب القاصية»**[(١)].

٦ ـ ضعف محبة الإخوة في الله ـ تعالى ـ لقوله ﷺ: **«والذي نفسي بيده، لا تدخلون الجنّة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا، أولا أدلّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»**[(٢)].

فدخول الجنّة مرتبط بالمحبّة في الله ـ تعالى ـ والخشوع طريق الجنّة، ولن يتيسّر الخشوع ولا الجنّة، إلا بتقوية أواصر المحبة في الله ـ تعالى ـ.

٧ ـ عدم رصّ الصفوف وتسويتها.

٨ ـ ظلم العباد وعدم إعطائهم حقوقهم.

٩ ـ الالتفات، ورفع البصر إلى السماء.

عن قتادة أن أنس بن مالك حدّثهم، قال: قال النّبيّ ﷺ: **«ما بالُ أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم؟»** فاشتدَّ قوله في ذلك، حتى قال: **«لينتهُنّ عن ذلك أو لتخطفنّ أبصارهم»**[(٣)].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لينتهينّ أقوامٌ عن رفعهم أبصارهم عند الدعاء في الصلاة إلى السماء، أو لتُخطفنّ أبصارهم»**[(٤)].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا ترفعوا أبصاركم إلى السماء فتلتمع[(٥)]»**[(٦)] يعني في الصلاة.

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٥١١)، وحسّن شيخنا ـ رحمه الله ـ إسناده في «المشكاة» (١٠٦٧) وتقدّم.

(٢) أخرجه مسلم: ٥٤، وتقدّم.

(٣) أخرجه البخاري: ٧٥٠.

(٤) أخرجه مسلم: ٤٢٩.

(٥) تلتمع: أي تختلس، يُقال: ألمعت بالشيء إذا اختلسته واختطفته بسرعة «اللسان».

(٦) أخرجه ابن ماجه والطبراني في «الكبير» وغيرهما، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٤٨).

وفي الحديث: «... **وإنّ الله أمركم بالصلاة، فإذا صلّيتم، فلا تلتفتوا، فإنّ الله ينصِب وجهه لوجه عبده في صلاته، ما لم يلتفت**»[١].

١٠ ـ الصلاة على شيء مزيّن، أو مزخرف أو فيه تصاوير.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنّ النّبيّ ﷺ صلّى في خميصة[٢] لها أعلامٌ، فنظر إلى أعلامها نظرةً، فلمّا انصرف، قال: اذهبوا بخميصتي هذه إلى أبي جهم، وائتوني بأنبجانيّة[٣] أبي جهم، فإنّها ألهتني آنفاً عن صلاتي»[٤].

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان قِرام[٥] لعائشة سترت جانب بيتها، فقال النّبيّ ﷺ: «**أميطي**[٦] **عنّا قرامك هذا، فإنّه لا تزال تصاويره تَعرِض في صلاتي**»[٧].

❊ ❊ ❊

فوائد جديرة بالاهتمام

١ ـ احرص ـ رعاك الله تعالى ـ على صلاة النوافل والسنن القبلية والبعدية، لأنها تجبر النقص في الفرائض، لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**إنّ أولَ ما يُحاسب به العبد يوم القيامة من عملِه صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضةٍ شيئاً،**

---

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي وقال: «حديث حسن صحيح» وغيره، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٥٢)، وتقدّم.

(٢) كساء مربع له علمان «فتح».

(٣) كساء يُتخذ من الصوف، وله خمْل، ولا عَلَم له «النهاية».

(٤) أخرجه البخاري: ٣٧٣، ومسلم: ٥٥٦.

(٥) ستر رقيق من صوف، ذو ألوان «النهاية».

(٦) أي: أزيلي.

(٧) أخرجه البخاري: ٣٧٤.

قال الربُ ـ تبارك وتعالى ـ: انظروا هل لعبدي من تطوع فيُكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثمّ يكون سائر عمله على ذلك»[١].

وعن عائذ بن قرط ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من صلّى صلاةً لم يتمها؛ زيد عليها من سُبحاته حتى تتم»**[٢].

٢ ـ الحرص على إدراك تكبيرة الإحرام، لا سيّما في أربعين يوماً متّصلة، لأن هذا يُبرىء العبد من النّفاق والنّار ـ إن شاء الله ـ وذلك لما رواه أنس ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«من صلّى لله أربعين يوماً في جماعة، يُدرك التكبيرة الأولى؛ كتب له براءتان: براءةٌ من النار، وبراءة من النّفاق»**[٣].

٣ ـ اجعل لبيتك نصيباً من صلاتك، فإنّ لك بذلك خيراً كثيراً، وذلك لما ثبت عن جابر ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا قضى أحدكم الصلاة في مسجده، فليجعل لبيته نصيباً من صلاته، فإنّ الله جاعلٌ في بيته من صلاته خيراً»**[٤].

وفي الحديث: **«صلوا أيّها الناس في بيوتكم، فإن أفضل الصلاة صلاةُ المرء في بيته إلا المكتوبة»**[٥].

وفي الحديث أيضاً: **«صلاة المرء في بيته، أفضل من صلاته في مسجدي هذا إلا المكتوبة»**[٦].

---

(١) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٣٣٧)، وصححه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٤٠).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» والضياء في «المختارة» وغيرهما، وانظر «الصحيحة» (٢٣٥٠).

(٣) أخرجه الترمذي وغيره، وحسنه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٤٠٩)، وانظر «الصحيحة» (١٩٧٩).

(٤) أخرجه مسلم: ٧٧٨.

(٥) أخرجه البخاري: ٧٣١، ومسلم: ٧٨١.

(٦) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٩٢٢) وغيره.

كما أنّ فضل النّافلة في البيت كفضل الفريضة على التطوّع؛ فعن رجل من أصحاب النّبيّ ﷺ قال: «**فضل صلاة الرجل في بيته على صلاته ـ حيث يراه الناس ـ كفضل الفريضة على التطوّع**»[(١)].

٤ ـ لا تغفل عن إتمام ركوعك وسجودك، كيلا تكون أسرق الناس كما في قوله ﷺ: «**أسرقُ الناس الذي يسرق صلاته، لا يتمُّ ركوعها ولا سجودها، وأبخل النّاس من بخل بالسلام**»[(٢)].

ولا أجد أبلغ من كلمة «أسرق» في الدلالة على قُبح من لا يتمّ الركوع والسجود، حيث إن السّرقة مذمومةٌ شرعاً وفطرة واتفاقاً، والسارق حين يرتكب ذنبه، فإنّه يأخذ من غيره، وقد يُنقص الإنسان من الركوع أو السجود، فيكون قد سلبَ ما ليس له، وليس له ذلك؛ لأن الصلاة لله ـ تعالى ـ لا للإنسان، ولمّا كان هذا الشيء بين يدي صاحبه، سهل عليه الأخذ منه كيفما يحلو له، دون خوف أو وجل من النّاس واطّلاعهم، فحُقَّ له أن يُسمَّى أسرق الناس.

ولا تنسينَ أن من لم يتمّ ركوعه وسجوده، مُهدّدٌ أن يموت على غير الملّة ـ عياذاً بالله تعالى ـ وذلك لما رواه واصلٌ عن أبي وائل عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ أنّه رأى رجلاً لا يتمّ ركوعه ولا سجوده، فلما قضى صلاته، قال له حذيفة: ما صلّيت. قال: وأحسبه قال: لو مِت مِت على غير سنّة محمد ﷺ[(٣)(٤)].

---

(١) أخرجه البيهقي، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٤٤١): «صحيح موقوف».

(٢) أخرجه الطبراني في معاجمه الثلاثة، وصححه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٢٥).

(٣) ثمّ ذكّرني أحد الإخوة الأفاضل بحديث مرفوع في هذا، فرجعت إليه وفيه: «أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً لا يتم ركوعه، وينقر في سجوده وهو يصلّي، فقال: **لو مات هذا على حاله هذه، مات على غير ملّة محمد**» أخرجه أبو يعلى في «مسنده» وابن عساكر بسند حسن، وصححه ابن خزيمة وغيره، وانظر «صفة صلاة النّبيّ ﷺ» لشيخنا ـ رحمه الله ـ.

(٤) أخرجه البخاري: ٣٨٩.

٥ ـ احرص على الصّف الأوّل في المسجد، فهو خيرُ الصفوف، كما في الحديث: «**خير الصفوف الرّجال أوّلها، وشرّها آخرها، وخير صفوف النّساء آخرها وشرّها أولها**»[١].

ولا يزال المرء يتأخر عن الصف الأول، حتى يُؤخّره الله ـ تعالى ـ في النّار، وإن كان من أهل الجنّة، كما في قوله ـ عليه السلام ـ: «**لا يزال قوم يتأخرون عن الصفّ الأول، حتى يؤخرهم الله**»[٢].

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ رأى في أصحابه تأخُّراً، فقال لهم: «**تقدّموا فأتمُّوا بي، وليأتمَّ بكم من بعدكم، لا يزال قوم يتأخرون، حتى يؤخرهم الله**»[٣].

وفي الحديث: «**احضروا الجمعة، وادنوا من الإمام، فإنّ الرجل لا يزال يتباعد حتى يُؤخَّرَ في الجنة وإن دخلها**»[٤].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لو يعلم النّاس ما في النداء والصف الأوّل، ثمّ لم يجدوا إلا أن يستهموا**[٥] **عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما في التهجير**[٦]**، لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العتمة**[٧] **والصُّبح لأتوهما ولو حبواً**»[٨].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه مسلم: ٤٤٠.
(٢) أخرجه أبو داود، وصححه ابن خزيمة وابن حبان، وصححه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥١٠).
(٣) أخرجه مسلم: ٤٣٨.
(٤) أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما، وحسّنه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٧١٣).
(٥) يقترعوا.
(٦) التبكير إلى الصلاة.
(٧) العشاء.
(٨) أخرجه البخاري: ٦١٥، ومسلم: ٤٣٧.

«لو تعلمون (أو يعلمون) ما في الصف المقدَّم، ما كانت إلا قرعة»[١].

٦ ـ احرص على الصلاة خلف الإمام الذي يُعطي القراءة حقّها، كماً وكيفاً يجيد أحكام الترتيل، ذي صوتٍ حسن مؤثِّر، فإن لم يكن هذا في المسجد القريب منك، فلتبحث عنه في مسجد آخر، ولو في بعض الصلوات؛ لأنّ الصوت الحسن يزيد القرآن حُسناً كما في الحديث الذي يرويه البراء ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: **«زينوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حُسناً»**[٢].

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّ من أحسن الناس صوتاً بالقرآن، الذي إذا سمعته يقرأ حسبتموه يخشى الله»**[٣].

* * *

فضل الصلاة في مساجد مخصوصة

١ ـ فضل الصلاة في المسجد الحرام والمسجد النبوي: عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النّبيّ ﷺ قال: **«صلاةٌ في مسجدي هذا؛ أفضل من ألف صلاةٍ فيما سواه، إلا المسجد الحرام»**[٤].

وعن ابن الزبير ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«صلاة في مسجدي هذا، أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد، إلا المسجدَ الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة في هذا»**[٥].

---

(١) أخرجه مسلم: ٤٣٩.

(٢) أخرجه الدارمي والحاكم وغيرهما، وانظر «الصحيحة» (٧٧١).

(٣) أخرجه ابن ماجه، وصححه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٤٥٠).

(٤) أخرجه مسلم: ١٣٩٥.

(٥) أخرجه أحمد وابن خزيمة وابن حبان وغيرهم، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١١٧٢).

٢ ـ فضل الصلاة في المسجد الأقصى:

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**لا تُشدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**»[١].

وعن عبدالله بن عمرو عن النّبيّ ﷺ قال: لمّا فرغ سليمان بن داود من بناء بيت المقدس، سأل الله ثلاثاً: حُكماً يصادف حكمه، ومُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، وألا يأتي هذا المسجد أحدٌ، لا يريد إلا الصلاة فيه، إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. قال النّبيّ ﷺ: «**أما اثنتان فقد أعطِيهما، وأرجو أن يكون قد أُعطي الثالثة**»[٢].

٣ ـ فضل الصلاة في مسجد قباء: عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تطهّر في بيته، ثمّ أتى مسجد قُباء، فصلّى فيه، كان له كأجر عمرة**»[٣].

❋ ❋ ❋

فضل المشي إلى المساجد

١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**صلاة الرجل في الجماعة، تُضعّف**[٤] **على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين درجة، وذلك أنّه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثمّ خرج إلى المسجد لا يُخرجه إلا الصلاة، لم يخطُ خُطوة إلا رفعت له بها درجة، وحُط عنه بها خطيئة، فإذا صلّى، لم تزل الملائكة تصلّي عليه ما دام في مُصلاه: اللّهم**

---

(١) أخرجه البخاري: ١١٨٩، ومسلم: ١٣٩٧.

(٢) أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (١١٥٦) وغيرهم، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١١٧٨).

(٣) أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجه وغيرهم، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١١٨١).

(٤) أي: تزاد.

صلِّ عليه، اللَّهم ارحمه، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة».

وفي رواية: «**اللَّهم اغفر له، اللَّهم تب عليه، ما لم يؤذ فيه، ما لم يُحْدِث فيه**»(١).

٢ ـ وعن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النّبيّ ﷺ: «**إذا تطهّر الرجل، ثمّ أتى المسجد يرعى الصلاة، كتب له كاتباه أو كاتبه بكل خُطوة يخطوها إلى المسجد عشر حسنات، والقاعد يرعى الصلاة كالقانت**(٢)**، ويكتب من المصلين، من حين يخرج من بيته حتى يرجع إليه**»(٣).

٣ ـ وعن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من راح إلى مسجد الجماعة، فخطوةٌ تمحو سيئةً، وخطوة تكتب له حسنة، ذاهباً وراجعاً**»(٤).

٤ ـ وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: خلتِ البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك النّبيّ ﷺ، فقال لهم: «**بلغني أنّكم تريدون أن تنتقلوا قُرب المسجد**» فقالوا: نعم يا رسول الله! قد أردنا ذلك، فقال: «**يا بني سلمة! دياركم تُكْتَب آثاركم، دياركم تُكتبْ آثاركم**» فقالوا: ما يسرّنا أنا كُنّا قد تحوّلنا(٥).

وفي رواية: «**إنّ لكم بكل خطوة درجةً**»(٦).

٥ ـ وعن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري: ٤٧٧، ومسلم: ٦٤٩.
(٢) القنوت: هو القيام في الصلاة.
(٣) أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبراني في «الكبير» و«الأوسط» وغيرهم، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٩٨).
(٤) أخرجه أحمد بإسناد حسن والطبراني وابن حبان في «صحيحه»، وحسنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٩٩).
(٥) أخرجه مسلم: ٦٦٥.
(٦) أخرجه مسلم: ٦٦٤.

«إنّ أعظم الناس أجراً في الصلاة، أبعدهم إليها ممشى فأبعدهم، والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام، أعظمُ أجراً من الذي يصلّيها ثمّ ينام»[١].

٦ ـ وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «كل سُلامى[٢] من النّاس عليه صدقة، كلَّ يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين[٣] صدقة، وتعين الرجل في دابته، فتحملُه عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقةً، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطّريق صدقة»[٤].

٧ ـ وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلُّكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: إسباغُ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط»[٥].

٨ ـ وعنه أيضاً ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من غدا إلى المسجد أو راح، أعدّ الله له في الجنة نُزُلاً[٦]، كلّما غدا أو راح»[٧].

٩ ـ وعن بريدة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «بشّر المشائين في الظُلم إلى المساجد، بالنور التامّ يوم القيامة»[٨].

---

(١) أخرجه البخاري: ٦٥١، ومسلم: ٦٦٢.
(٢) السُّلامَى: جمع سُلامِيّة، وهي الأنْمُلَة من أنامل الأصابع، ويجمع على سُلامَيات، وهي التي بين كل مَفصِلين من أصابع الإنسان. «النهاية».
(٣) هو الإصلاح بين المتخاصمين بالعدل.
(٤) أخرجه البخاري: ٢٩٨٩، ومسلم: ١٠٠٩.
(٥) أخرجه مسلم: ٢٥١.
(٦) النُّزُل: ما يُهَيَّأُ للضيف إكراماً له.
(٧) أخرجه البخاري: ٦٦٢، ومسلم: ٦٦٩.
(٨) أخرجه أبو داود والترمذي، وصححه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٥).

١٠ ـ وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله ليضيءُ للذين يتخلَّلون إلى المساجد في الظُّلم بنور ساطع يوم القيامة»**(١).

١١ ـ وعن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من خرج من بيته متطهراً إلى صلاة مكتوبة، فأجره كأجر الحاجّ المُحرم، ومن خرج إلى تسبيح الضحى(٢) لا يُنصبه إلا إياه، فأجره كأجر المُعتمر، وصلاة على أثر صلاة لا لغو(٣) بينهما كتاب في عليّين»**(٤).

١٢ ـ وعنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ثلاثة كلُّهم ضامن على الله: إنْ عاش رزُق وكُفي، وإن مات، أدخله الله الجنّة: من دخل بيته فسلّم، فهو ضامنٌ على الله، ومن خرج إلى المسجد، فهو ضامنٌ على الله، ومن خرج في سبيل لله، فهو ضامنٌ على الله»**(٥).

١٣ ـ وعن سلمان ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«من توضأ في بيته، فأحسن الوضوء، ثمّ أتى المسجد، فهو زائرُ الله، وحقٌّ على المزور أن يُكرم الزائر»**(٦).

مِمّا يُستفاد من هذه الأحاديث:

١ ـ أنّ المشي إلى الصلاة يرفع الدرجات، ويحطُّ الخطايا، في الذهاب والرجوع.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» بإسناد حسن، وصححه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٧).

(٢) أي: صلاة الضحى.

(٣) اللغو: يُقال: لغا الإنسان يلغو... إذا تكلّم بالمُطَّرَح من القول وما لا ينبغي. «النهاية».

(٤) أخرجه أبو داود، وحسّنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٢٠).

(٥) أخرجه أبو داود وابن حبان في «صحيحه»، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٢١).

(٦) أخرجه الطبراني في «الكبير» بإسنادين أحدهما جيد، وحسنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٢٢).

٢ ـ أنّ له بالخطوة عشرَ حسناتٍ.

٣ ـ أنّ المسلم يُكتب من المصلّين من حين خروجه من البيت حتى يرجع إليه.

٤ ـ أنّ أعظم الناس أجراً في الصلاة، أبعدهم إليها ممشى فأبعدهم.

٥ ـ أنّ الخطوة يمشيها العبدُ إلى الصلاة تُحسب له صدقة.

٦ ـ أنَّ كثرة الخطا إلى المساجد من الرِّباط.

٧ ـ أنّ الله ـ تعالى ـ أعدّ في الجنّة نُزلاً للعبد، كلّما غدا أو راح إلى المسجد.

٨ ـ أنّ الله ـ تعالى ـ يتمّ النور يوم القيامة للمشائين في الظلمات إلى المساجد.

٩ ـ أنّ أجر الذي يخرج من بيته متطهراً إلى صلاة مكتوبة، كأجر الحاجّ المُحرم.

١٠ ـ أنَّ من خرج إلى المسجد، فهو ضامنٌ على الله ـ تعالى ـ يرزقه الله ـ سبحانه ـ ويكفيه.

١١ ـ أنَّ الماشي للصلاة ـ وقد أحسن الوضوء ـ يسير في زيارة الله ـ تعالى ـ وقد مَنَّ الله ـ سبحانه ـ على عباده بإكرام من زاره، وإكرامه ـ عزّ وجلّ ـ زيادةُ الإيمان والإحسان والثواب، ورفع الدرجات، وتفريج الكروب، وإسعاد القلوب.

فضيلة لزوم المساجد والجلوس فيها:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«سبعة يظلّهم الله في ظلّه، يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه[1]، الإمام العادل، وشابٌ نشأ**

(١) أي: في ظل عرشه كما في الحديث: **«من أنظر معسراً أو وضع له، أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه، يوم لا ظلّ إلا ظله»** أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٨٨٧).

في الله، اجتمعا على ذلك، وتفرّقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إنّي أخاف الله، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شِماله ما تنفق يمينه، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»(١).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ قال: **«ما توطّن رجلٌ المساجد للصلاة والذّكر، إلا تبشبش**(٢) **الله ـ تعالى ـ إليه، كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم»**(٣).

وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«المسجد بيتُ كلِّ تقيٍّ»**(٤).

وعن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ﷺ قال: **«ستُّ مجالس، المؤمن ضامن على الله ـ تعالى ـ ما كان في شيء منها: في مسجد جماعة، وعند مريض، أو في جنازة، أو في بيته، أو عند إمام مقسط يعزِّرُهُ ويوقِّرُهُ، أو في مشهد جهادٍ»**(٥).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ قال: **«إنّ للمساجد أوتاداً؛ الملائكة جلساؤهم، إن غابوا يفتقدونهم، وإن مَرضوا عادوهم، وإن كانوا في حاجةٍ أعانوهم»**(٦).

---

(١) أخرجه البخاري: ١٤٢٢، ومسلم: ١٠٣١.

(٢) قال في «النهاية»: «البشُّ: فرح الصديق بالصّديق، واللطف في المسألة، والإقبال عليه، وقد بشَشتُ به أبَشّ، وهذا مثلٌ ضربه لتلقيه إيّاه ببرّه وتقريبه وإكرامه». قلت: «وينبغي حمْل هذه الصفة على الحقيقة؛ بما يليق بجلاله ـ سبحانه ـ».

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة وابن ماجه وابن خزيمة في «صحيحه» وغيرهم، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٢٧).

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» والبزار، وحسنه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٣٠).

(٥) أخرجه الطبراني في «الكبير» وغيره، وحسنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٢٨).

(٦) أخرجه أحمد وغيره، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٢٩): «حسن صحيح».

التغليظ في التخلّف عن الجماعة، وأثرها في إنقاص الإيمان

١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لقد هممت أن آمرَ بالصلاة، فتقام، ثمّ آمر رجلاً فيصلّي بالنّاس، ثمّ أنطلق برجالٍ معهم حُزمٌ من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة، فأحرّق عليهم بيوتهم بالنّار»**[١].

٢ ـ عن أبي هريرة قال: أتى النّبيّ ﷺ رجلٌ أعمى فقال: يا رسول الله! إنّه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله ﷺ أنْ يُرخِّص له فيُصلّي في بيته فرخَّصَ له، فلمّا ولّى دعاه فقال: **«هل تسمع النّداء بالصلاة؟»** فقال: نعم، قال: **«فأجب»**[٢].

٣ ـ وفي الحديث: **«لينتهينّ أقوامٌ عن ودْعهم الجُمُعات أو ليختِمَنَّ الله على قلوبهم، ثمّ ليكونُنَّ من الغافلين»**[٣].

ممّا يستفادُ من هذه النّصوص:

١ ـ وجوب صلاة الجماعة.

٢ ـ لم يرخّص النّبيّ ﷺ للضرير بترك الجماعة، فكيف يُرخّص ذلك لأهل العافية؟

٣ ـ أنّ من ترك صلاة الجماعة، مُهدَّد بالغفلة والختم على قلبه.

٤ ـ أنّ التخلُّف عن صلاة الجماعة بلا عذر، من آيات النّفاق.

٥ ـ شدَّة مجاهدة الصحابة لحضور الجماعة، مع صعوبة الأحوال.

---

(١) أخرجه البخاري: ٦٤٤، ومسلم: ٦٥٥.
(٢) أخرجه مسلم: ٦٥٣.
(٣) أخرجه مسلم: ٨٦٥.

ماذا نفعل لكي نبكِّر بالصلاة؟

١ ـ نتفقَّه في النصوص المتعلّقة بفضيلة التَّبكير بالصلاة.

٢ ـ النوم المبكر، وعدم السهر؛ فإن من الناس من يسهر فيُفوِّت الفجر، وربما جاء من عمله بعد الظّهر، فيتناول طعام الغداء، ثمّ ينام مُتعباً، فلا يقوم لصلاة العصر، ويمتدّ به النوم حتى قُبيل المغرب، فينقرها أربعاً، مخافة أن تغرُب عليه الشمس، فإذا جاء الليل، لم يستطع النوم مبكراً، لِما نامه من نهاره، فيسهر حتى يغلبه النوم، فتفوته صلاة الفجر؛ جماعتها أو التبكير إليها مرّة أُخرى... وهكذا يقضي حياته على هذا الحال.

٣ ـ التّواصي بالتبكير، لا سيّما في الفجر، وذلك عن طريق الاتصالات الهاتفية ونحوها.

٤ ـ استعمال الساعة المنبّهة، وهناك بعض الدّقات المتكرّرة الموقوتة، تأتي على فترات متقاربة، ولتحرِص على أن تضعها بعيدة بعض الشيء، كيلا تُغلقها على غير وعي.

٥ ـ قراءة أذكار النوم، وهذا له أثره الطيب في القيام للفجر.

٦ ـ إذا دخل وقتُ الصلاة، أو أوشك على ذلك، وكنت متلبّساً في عمل دنيوي، فتذكر أن الآخرة أولى، وإن كان من أعمال الآخرة، فتذكَّر أن أفضل الخيرات أن تصلّي الصلاة لوقتها، وحذار من شيطان ينصب لك شراك الأمل، يقول: وراءك وقت طويل فأتمم شغلك.

٧ ـ تعرّف على مواقيت الصلاة، ومواعيد إقامتها.

٨ ـ الاهتمام بإجابة نداء المؤذن، وتلبية قوله: **«حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح»**.

فضل انتظار الصلاة بعد الصلاة:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: **«لا يزال**

أحدكم في صلاة، ما دامت الصلاة تحبسه، لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة»[(١)].

وفي رواية: **«إنّ أحدكم في صلاة ما دامت الصلاة تحبسه، والملائكة تقول: اللّهم اغفر له، اللّهم ارحمه، ما لم يقم من مصلاه، أو يُحدِث»**[(٢)].

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ: أنّ رسول الله ﷺ أخّر ليلةً صلاة العشاء إلى شطر الليل، ثمّ أقبل بوجهه بعدما صلّى فقال: **«صلّى الناس ورقدوا، ولم تزالوا في صلاة منذ انتظرتُموها»**[(٣)].

وعن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: صلّينا مع رسول الله ﷺ المغرب، فرجع من رجع وعقب من عقّب[(٤)]، فجاء رسول الله ﷺ مُسرعاً قد حَفَزَه النّفس[(٥)]، قد حَسَر[(٦)] عن رُكبتيه، قال: **«أبشروا، هذا ربّكم قد فتح باباً من أبواب السماء، يُباهي بكمُ الملائكة، يقول: انظروا إلى عبادي، قد قضَوا فريضةً، وهم ينتظرون أخرى»**[(٧)].

وعن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا أدلُكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويُكفِّر به الذّنوب؟»** قالوا: بلى يا رسول الله. قال: **«إسباغ الوضوء على المكروهات، وكثرة الخُطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرِّباط»**[(٨)].

---

(١) أخرجه البخاري: ٦٥٩، ومسلم: ٦٤٩.
(٢) أخرجه البخاري: ٣٢٢٩.
(٣) أخرجه البخاري: ٦٦١.
(٤) عقب من عقّب: تأخّر من تأخر.
(٥) ما يجده المرء من المشقّة والتّعب من شدّة السّعي.
(٦) كشَف.
(٧) أخرجه ابن ماجه، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٤٤٥).
(٨) أخرجه ابن حبان في «صحيحه»، وصححه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٤٤٧).

وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إسباغ الوضوء في المكاره، وإعمال الأقدام إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، يغسل الخطايا غسلاً**»[١].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**مُنتظرُ الصلاة بعد الصلاة**» كفارس اشتدّ به فرسُه في سبيل الله على كَشْحِه[٢]. وهو في الرباط الأكبر»[٣].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال رسول الله ﷺ: «**رأيت ربّي[٤] في أحسن صورةٍ، فقال لي: يا محمد! قلت: لبيك ربِّ وسعديك. قال: هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أعلم. فوضع يده بين كتفيَّ حتى وجدت بردها بين ثدييَّ، أو قال: في نحري، فعلمتُ ما في السماوات وما في الأرض[٥]، أو قال: ما بين المشرق والمغرب، قال: يا محمد! أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: نعم؛ في الدرجات، والكفّارات، ونقلِ الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء في السَّبرات[٦] وانتظار الصلاة بعد الصلاة، ومن حافظ عليهنّ عاش بخيرٍ، ومات بخيرٍ، وكان من ذنوبه كيومَ ولدتهُ أمه. قال: يا محمد. قلت: لَبيك وسعديك. فقال: إذا صلّيت، قل: اللّهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحبَّ المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنةً، فاقبضني إليك غير مفتون. قال**

---

(١) أخرجه أبو يعلى والبزار بإسناد صحيح، والحاكم، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٤٤٩).

(٢) الكشْحُ: هو الباطن، والمراد: العدوّ الذي يضمر عداوته.

(٣) أخرجه أحمد والطبراني في «الأوسط»، وحسّنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٤٥٠).

(٤) أي: في المنام. كما قال شيخنا ـ رحمه الله ـ.

(٥) قال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب»: «يعني ما أعلمه الله ـ تعالى ـ ممّا فيها من الملائكة والأشجار وغيرهما، وهو عبارة عن سعة علمه الذي فتح الله به عليه كذا في «المرقاة» (١/٤٦٣).

(٦) شدة البرد.

والدرجات: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام»[١].

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ قال: **«ثلاث كفّارت، وثلاثٌ درجات، وثلاثٌ منجيات، وثلاث مهلكات، فأمّا الكفّارات: فإسباغ الوضوء في السَّبرات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، ونقل الأقدام إلى الجماعات. وأما الدرجات: فإطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام. وأما المُنجيات: فالعدل في الغضب والرّضا، والقصد في الفقر والغنى، وخشية الله في السِّرِّ والعلانية. وأمّا المهلكات: فشحٌّ مُطاع، وهوىً مُتَّبع، وإعجاب المرء بنفسه»**[٢].

وعن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«القاعد على الصلاة كالقانت، ويُكتب من المصلّين، من حين يخرجُ من بيته حتى يرجع إليه»**[٣].

۩ ممّا يستفاد من هذه الأحاديث:

١ ـ أنّ العبد يظلُّ في صلاة، ما دامت الصلاة تحبِسه، وهو كالقانت، يُكتب من المصلين، من حين يخرج من بيته، حتى يرجع إليه.

٢ ـ أنّ الملائكة تدعو له بالمغفرة والرّحمة، ما دام في مُصلاه، ما لم يُحدِث.

٣ ـ أنّ الله ـ تعالى ـ يفتح باباً من أبواب السماء، يباهي الملائكة بمن صلّى المغرب وانتظر العشاء.

---

(١) أخرجه الترمذي، وصححه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٤٠٨).

(٢) أخرجه البزار والبيهقي وغيرهما، وحسّنه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٤٥٣).

(٣) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» وأحمد وغيره بأطول مما هنا، إلا أنّه قال: «القاعد يرعى الصلاة كالقانت»، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٤٥٤)» وقال المنذري ـ رحمه الله ـ: «القاعد على الصلاة كالقانت»: أي أجره كأجر المصلّي قائماً، ما دام قاعداً ينتظر الصلاة؛ لأن المراد بالقنوت هنا: القيام بالصلاة».

٤ ـ أن انتظار الصلاة بعد الصلاة ممّا يغسل الخطايا غسلاً.

٥ ـ وأنَّ منزلته كمنزلة الفارس الذي اشتدَّ به فرسه في سبيل الله ـ تعالى ـ على عدوّه، وهو في الرِّباط الأكبر.

٦ ـ أنّ انتظار الصلاة بعد الصلاة، مما يختصم فيه الملأ الأعلى، ممّا يدلّ على عظمتها.

٧ ـ أنّ انتظار الصلاة بعد الصلاة من الكفّارات.

من فوائد الخشوع[1]:

١ ـ الرزق الطيب الحلال: قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[2].

٢ ـ يجعلُ صاحبه أقرب ما يكون من ربه ـ سبحانه وتعالى ـ.

٣ ـ تكفيرُ الذنوب والمغفرة له.

٤ ـ الفوزُ والفلاح، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾[3].

٥ ـ ينهى عن الفحشاء والمنكر.

٦ ـ زيادة الهدى قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[4].

٧ ـ دخول الجنة، كما في الحديث المتقدّم: «... **فله عليَ عهد أن أدخله الجنة**».

---

(١) تلخيصاً من الأدلة التي وردت في البحث، وتقدّم تخريجها.

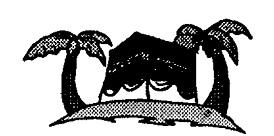
(٢) الطلاق: ٢، ٣.

(٣) المؤمنون: ١ ـ ٢.

(٤) العنكبوت: ٦٩.

٨ ـ راحة النفس وقرار العين، لقوله ﷺ: «... **أقم الصلاة، أرحنا بها**». ولقوله أيضاً: «**جُعلت قرة عيني في الصلاة**».

٩ ـ يبلُغ العبدُ درجة المحسنين، لقوله ﷺ: «**صلِّ صلاة مُودّع كأنّك تراه**».






الخاتمة

هذا ـ أخي المسلم ـ أثر الصلاة، وهذه فوائدها، فاحرص أن تكون صلاتُك ذاتَ خشوعٍ وخضوعٍ وحضورٍ؛ حتّى يتقبّلها الله ـ سبحانه ـ منك، وحتى تؤتَيك ثمرتها لتنعكس على المجتمع الذي أنت فيه واقعاً حياتياً؛ يكون الإيمان فيه هو الأساس، والالتزام بأحكام الإسلام هو الرّباط الوثيق.

وصلّى الله على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

انتهيت من تدقيقه وتصحيحه والنظر فيه لإعادة طبعه في عمّان ضحى يوم السبت في السابع من صفر ١٤٢٣ هـ.

وكتب:

حسين بن عودة العوايشة



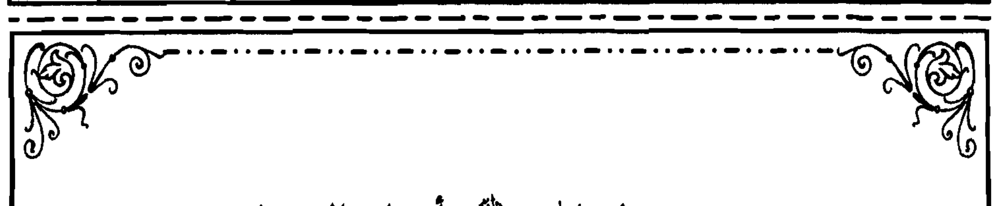
فقه الدعوة وتزكية النفس

(٦)

مصيبة موت النّبيّ - ﷺ -
وأثرها في حياة الأمّة

بقلم
حسين بن عودة العوايشة





موت رسول الله ﷺ أعظم المصائب

عن ابن عباس وسابط الجُمَحي - رضي الله عنهم - قالا: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أُصيب أحدكم بمُصيبةٍ؛ فليذكر مُصيبته بي؛ فإنها أعظم المصائب»**(١).

يتبيّن لنا من هذا الحديث: أنّ موت النّبيّ ﷺ أعظم المصائب التي حلّت وستحلُّ بأُمّة الإسلام، ويطلُب رسول الله ﷺ منّا أن نذكر بمصائبنا موته وفراقه، وبذلك تهون المصائب والخطوب.

وما من عزيز، أو حبيب، أو قريب، أو صديق فقَدْناه؛ إلا وذاق القلب من لوعة فراقه وحُرقة وداعه، فهل شَعَرنا بشيء من هذا ونحن نستشعر فراق وموت النّبيّ ﷺ؟

ماذا لو فقد الرجل أُسرته كلّها، وقد احترق قلبه، وأُدمِي فؤاده، وأنبتت دموعه الأسى، ثمّ تزوّج بعد فترة، وعقب سنوات مات أحد أبنائه، كيف يكون حزنه وألمه إذا قورن بالمصاب الأوّل؟ أليس الخطب أهونَ والمصيبة أقلَّ؟

وهكذا ينبغي أن نعزّيَ أنفسنا كلما أصابتنا المصائب؛ بذِكْر موت النّبيّ ﷺ.

---

(١) أخرجه ابن سعد، والدارمي، وغيرهما، وهو صحيح بشواهده؛ كما في «الصحيحة» (١١٠٦).

إنّ رسول الله ﷺ يخاطبنا فيقول: «**يا أيّها الناس! أيمّا أحدٍ من الناس ـ أو من المؤمنين ـ أُصيب بمصيبةٍ؛ فليتعزَّ بمصيبته بي عن المصيبة التي تُصيبه بغيري؛ فإنّ أحداً من أُمّتي لن يُصاب بُمصيبةٍ بعدي أشدَّ عليه من مصيبتي**»[١].

ولو تأمّلنا كلمة (فلْيَتَعَزَّ)؛ لوجدنا فيها الدّواء والعلاج؛ إنّها حروف يَستطِبُّ بها الفؤاد.

ماذا لو فقد الإنسان أبويه الحبيبين في حادث سيارة مثلاً؟ ألا يظلُّ أثر المصيبة في قلبه مدى الدهر؟

ماذا لو فقد أمّه أو زوجته أو ابنه؟

كيف بنا نُصاب بفقد النّبيّ ﷺ ولا نحسُّ؟

إنّ المُصيبة ينبغي أن تعظُم إذا سمعنا قوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من ولدِه ووالده والناس أجمعين**»[٢].

وكأنّ المعنى بعد هذا النصّ سيكون: لا يؤمن أحدكم حتى يكون موتي أعظَمَ مصيبةً من فقده ولدَه، ووالدَه، والناسَ أجمعين.

فأين هذا الإحساس؟ وأين ـ بربّكم ـ هذا الشعور؟

هذا هو إحساس المؤمن الصادق.

إنّني أرى أن فَقْد النّبيّ ﷺ من مصائب الدِّين، وإنّ أي إنسانٍ فقدته ليهونُ أمام فقدان النّبيّ ﷺ.

اصبرْ لكلِّ مُصيبةٍ وتجلّد ... واعلم بأنّ المرءَ غير مُخلَّدِ
فإذا ذكرت مُصيبةً تسْلو بها ... فاذكر مُصابك بالنّبيّ محمّدِ

هل فقدت أُمّك؟ وهل تذكّرت عند موتها ـ وأنت تنتحبُ ـ أنها

(١) أخرجه ابن ماجه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ «صحيح سنن ابن ماجه» (١٣٠٠).
(٢) أخرجه البخاري: ١٥، ومسلم: ٤٤.

أَخرجتك من ظلمات البطن إلى نور الدُّنيا، ورعتك، وربّتك؟

لقد أَخرجك اللهُ بدعوة رسول الله ﷺ من ظلمات الضلالة إلى نور الهدى والتوحيد، وهذا ـ بإذن الله تعالى ـ إنقاذ لك من الخلود في النار، فهل بلبن أُمّك وحنانها وعطفها تُنقَذُ من الخلود في النار؟

فوالله؛ لو كان لي ألف أمٍّ بحنان أمي وعطفها، ومُتْنَ في يوم واحد، لما كان لي أن أحزن عليهنّ أكثر من الحزن على موت رسول الله ﷺ!

هل فقدْت ابنك؟

أم زاد من بكائك تذكّرُك عوْنَه ومساعدَتَه وعطْفَه وَبِرَّه؟ ومهما بلَغَتْ هذه الأمور؛ فإنها لن تبلغ ما قدّمه لنا ﷺ من أمور؛ تُدْخلُنا ـ بعون الله تعالى ـ جنّةً عرضها السّماوات والأرض، ونخلد فيها وننعم.

نُمتَّع بعون الأبناء وعطفهم سنوات تمضي؛ لكن التمتُّع في الجنّة لا نهاية له ولا آخر.

أفلا يستحقُّ رسول الله ﷺ منا أن نحزن على موته أكثر من سواه، ونذكره أشدَّ مما نذكر من فقدناه؛ من الأبناء، والأولاد، والأحباب؟!

* * *

ما قدّمه ﷺ من خير أكثر ممّا قدّمه أيُّ قريب أو حبيب

وبهذا؛ فإنّ أي حبيب، أو عزيز، أو قريب، مهما لمسنا منه ودّاً، وعطفاً، ورعاية، وعنايةً؛ فلن يبلغ شيئاً يُذكر، أمام وُدٍّ، وعطف، ورعاية، وعناية النّبيّ ﷺ؛ فقد دلّنا ﷺ على أسباب كلّ خيرٍ وسعادةٍ، وحذّرنا من كل سبُل الشّرِّ والخُسران في الدّارين؛ فَمَن من أحبابنا وأقاربنا وأصحابنا قدّم لنا هذا؟

تذكّرْ هذا؛ لتُحسَّ بمصيبة فقْده ﷺ.

ماذا لولا ما حبانا الله ـ تعالى ـ من هديه وسُنّته ﷺ؟

ماذا لو دخلتَ النار؟

ماذا لو حُرِمْتَ من الجنّة؟

ماذا لو عُذِّبْت في القبر؟

من الذي ينفعك؟ وما الذي يُنقذُك من ذلك كلّه؟

* * *

شعورُ الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ عند موت النّبيّ ﷺ

وأمّا شعور الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بفقد النّبيّ ﷺ؛ فقد كان أمراً آخر:

فعن سالم بن عُبيد ـ رضي الله عنه ـ، قال: أغمي على رسول الله ﷺ في مرضه، فأفاق، فقال: حضرت الصلاة؟ فقالوا: نعم، فقال: «**مرُوا بلالاً فليؤذّن، ومرُوا أبا بكر أن يصلّي للنّاس ـ أو قال: بالنّاس ـ**».

قال: ثم أُغمي عليه، فأفاق، فقال: حضرت الصلاة؟ فقالوا: نعم، فقال: مُرُوا بلالاً فليؤذّن، ومرُوا أبا بكر فليصلِّ بالنّاس، فقالت عائشة: إن أبي رجل أَسِيف[1]؛ إذا قام ذلك المقام؛ بكى، فلا يستطيع، فلو أمرْتَ غيره.

قال: ثمّ أُغمي عليه فأفاق، فقال: «**مُروا بلالاً فليؤذّن، ومروا أبا بكر فليصلِّ بالنّاس؛ فإنّكنّ صواحبُ ـ أو: صواحبات ـ يوسُفَ**»[2].

---

(١) أي: سريع البكاء والحُزن، وقيل: هو الرقيق.

(٢) المراد أنهنّ مثل صواحب يوسف في إظهار خلاف ما في الباطن. «الفتح».
وقالت عائشة مقولتها؛ كيلا يتشاءم الناس من أبيها ـ رضي الله عنهما ـ ومعنى هذا ورد في صحيحي البخاري ومسلم.

قال: فأُمر بلالٌ فأذّن، وأمر أبو بكر فصلّى بالنّاس.

ثمّ إن رسول الله ﷺ وجد خفَّةً، فقال: انظروا لي من أتّكىء عليه، فجاءت بريرةَ ورجلٌ آخر[1]، فاتّكأ عليهما، فلمّا رآه أبو بكر؛ ذهب لِيَنْكُصَ[2]، فأومأ إليه أن يثبت مكانه، حتى قضى أبو بكر صلاته.

ثمّ إنّ رسول الله ﷺ قُبض، فقال عمر: والله لا أسمع أحداً يذكر أنّ رسول الله ﷺ قُبض؛ إلا ضربتُه بسيفي هذا.

قال: وكان الناس أُمِّيّين، لم يكن فيهم نبيٌّ قبله، فأمسك الناس، فقالوا: يا سالمُ! انطلق إلى صاحبِ رسول الله ﷺ، فادْعهُ، فأتيتُ أبا بكر وهو في المسجد، فأتيته أبكي دهشاً، فلمّا رآني؛ قال لي: أقُبِض رسول الله ﷺ؟ قلتُ: إن عمر يقول: لا أسمعُ أحداً يذكرُ أن رسول الله ﷺ قُبض؛ إلا ضربتُه بسيفي هذا! فقال لي: انطلق.

فانطلقتُ معه، فجاء والناس قد دخلوا على رسول الله ﷺ، فقال: «**يا أيها الناس! أفرجوا لي**»، فأفرجوا له، فجاء حتى أكبَّ عليه ومسَّه، فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾[3].

ثمَّ قالوا: يا صاحب رسول الله ﷺ! أقُبضَ رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، فعَلِموا أن قد صدق.

قالوا: يا صاحب رسول الله! أيُصلّى على رسول الله؟ قال: نعم، قالوا: وكيف؟ قال: يدخُلُ قومٌ، فيكبِّرون ويصلُّون ويدعون، ثمّ يخرجون، ثمّ يدخل قومٌ، فيكبِّرون ويصلّون ويدعون، ثمّ يخرجون...

حتى يدخل الناس.

---

(١) قال شيخنا ـ رحمه الله ـ: «في رواية «الصحيحين»: «خرج بين العباس ورجل آخر ـ وهو علي بن أبي طالب ـ وقيل: العباس وولده الفضل، ويُجمع بين الروايات بتعدُّد خروجه ﷺ».

(٢) يرجع حتى يقف رسول الله ﷺ مكانه.

(٣) الزمر: ٣٠.

قالوا: يا صاحب رسول الله! أيُدْفَنُ رسول الله ﷺ؟

قال: نعم، قالوا: أين؟ قال: في المكان الذي قَبَض الله فيه روحه؛ فإنَّ الله لم يقبضْ روحه إلا في مكان طيّب» فعلِموا أنْ قد صدَق.

ثمّ أمرهُم أن يغسِّلَه بنو أبيه[١]...»[٢].

فقال عمر: **«والله لا أسمع أحداً يذكر أنّ رسول الله ﷺ قُبض؛ إلا ضربته بسيفي هذا»**!!

ما بالُ عمر ـ رضي الله عنه ـ يهدّد بسيفه!

إنّ شأن الرسول ﷺ عظيم في نفسه.

إنّ منزلته ﷺ رفيعةٌ في فؤاده.

لقد أحبَّه أكثَرَ من حبه نفْسَه وولَدَه، وزَوْجَه، وماله، والنّاسَ أَجمعينَ.

فكيف بمن يقول: مات رسول الله ﷺ؟!

أمّا سائر الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ: فإنه لم يكن فيهم نبيٌّ قبل رسول الله ﷺ لِيَعْلَموا كيف يتصرَّفون؛ فأمسكوا عن القول.

أمّا أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: فقد أكبَّ على رسول الله ﷺ، ومسَّه، وقرأ قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

وهذا فقه أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ للقرآن العظيم؛ فقد فقه من هذه الآية أن الموت واقع ـ لا محالة ـ بالنّبيّ ﷺ.

بيْد أنّ هول الموقف وشدَّةَ حبّ الصحابة للنّبيّ ﷺ؛ جعلَتْهم بمنأى

---

(١) قال شيخنا ـ رحمه الله تعالى ـ في «الشمائل»: «أي: عُصْبَتُه، فغسله سيدنا علي ـ رضي الله عنه ـ فكان الفضل بن عباس وأسامة وشقران ـ مولى رسول الله ﷺ ـ يناولون علياً الماء».

(٢) أخرجه الترمذي في «الشمائل»، وابن ماجه في «الصلاة» (باب صلاة رسول الله ﷺ في مرضه)، والطبراني في «الكبير»، وبعضه في «صحيح البخاري» (٦٦٤)، وروى بعضَه أيضاً النسائي، وهو في «مختصر الشمائل» (٣٣٣).

عن هذا، ولا عجب؛ فإنّ الفقيد هو رسولُ الله ﷺ.

كم مِنَ الناس مات لهم أبناء؛ فأغشي عليهم، ومنهم من ثنّى الموت به؛ فلحِق ابنه، ومنهم من فقد عقله، ومنهم من أُصيب بالأمراض الخطيرة...

«ثمَّ قالوا: يا صاحب رسول الله ﷺ! أَقُبِضَ رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، فعَلِموا أنْ قد صدق».

هنالك سكن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، وعلموا أنّ رسول الله ﷺ قد قُبض.

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: لـمّا كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة؛ أضاء منها كلُّ شيء، فلمّا كان اليوم الذي مات فيه؛ أظلم منها كل شيءٍ، وما نفَضْنا عن النّبيّ ﷺ الأيدي حتى أنكرْنا قلوبنا»[(١)].

«لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة؛ أضاء منها كلُّ شيء».

أضاء من المدينة كلُّ شيء.

أشرقت وأنارت الأشياء كلُّها بمقدَم رسول الله ﷺ، وملأت الفرحة قلوب الصغار والكبار، والذكور والإناث.

فلما كان اليوم الذي مات فيه...

لمّا كان اليوم الذي فقدوا فيه رسول الله ﷺ؛ أظلمَ منها كلُّ شيء.

تبدَّلت عليهم الأرض، فما هي الأرض التي يعرفون.

أظلمَ من المدينة كلُّ شيء.

ما كان في يومهم للّذيذ من لذَّةٍ، ولا للجميل من جمالٍ.

---

(١) أخرجه ابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (١٣٢٢).

ضاقت عليهم نفوسهم.

«وما نفضْنا عن النّبيّ ﷺ الأيدي، حتى أنكرنا قلوبنا».

ما نفضوا الأيدي عن النّبيّ ﷺ، وانتهوا من دفنه، حتى أنكروا قلوبهم، فما هي القلوب التي يعرفون؟

أنكروا قلوبهم ـ رضي الله تعالى عنهم ـ، وذلك لرقّة إحساسهم ومشاعرهم.

ولكن؛ ماذا نعملُ بقلوبنا التي لم تُنكِر والعيون التي لم ترَ شيئاً؟

من يهُنْ يَسْهُلِ الهوانُ عليه ... ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ

***

بكاء أمّ أيمن لموته ﷺ وتهييجُها أبا بكر وعمر ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ على البكاء

عن أنس قال: «**قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ بعد وفاة رسول الله ﷺ ـ لعمر: انطلقْ بنا إلى أمّ أيمن[1] نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما انتهينا إليها بكتْ، فقالا لها: ما يبكيكِ؟ ما عند الله خيرٌ لرسول الله ﷺ؟ فقالت: ما أبكي أن لا أكون أَعْلَمَ أنّ ما عند الله خيرٌ لرسول الله ﷺ؛ ولكن أبكي أنّ الوحي قد انقطع من السماء، فهيّجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها**»[2].

وبهذه المناسبة أقول:

يا أُمَّ أيمن قد بكيت وإننا ... نلهو ونمْجُنُ دون معرفة الأدب

لن تُبصري وضْعَ الحديث ... لم تُبصري بعض المعازف والطرب

---

(١) وقد كانت ـ رضي الله عنها ـ حاضنةَ رسولِ الله ﷺ وخادمَتَه في طفولته.

(٢) أخرجه مسلم: ٢٤٥٤.

لم تشهدي شُرب الخُمور أو الزنا ... لم تلحظي ما قد أتانا من عَطب
لم تلحظي بدع الضّلالة والهوى ... لولا مماتُكِ قد رأيت بنا العجب
لم تعلمي فعل العدوِّ وصحبهم ... ها نحن نجثو لليهود على الرُّكب
واحَرَّ قلبي من تمَزُّق جمْعنا ... أضْحتْ أمورُكِ أُمّتي مِثْلَ اللُّعَب
تالله ما عَرَف البُكاءُ صِراطنا ... ومع التّباكي لا وشائج أو نسب

***

الرسول ﷺ أمنة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ

وا ألماه لفَقد رسول الله ﷺ أمنة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ.

عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ؛ قال: «**النُّجومُ أَمَنةٌ للسماء، فإذا ذهبتِ النجومُ؛ أتى السماء ما توعدُ، وأنا أَمنةٌ لأصحابي، فإذا ذهبْتُ؛ أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنةٌ لأمّتي، فإذا ذهب أصحابي؛ أتى أمّتي ما يوعدون**»[1].

ماذا إذا ذهبتِ النجوم؟!

تختلف معالم الحياة، تقع تغيُّراتٌ مُفْزِعة، مرعبة، مُخيفة، وكذا بِذَهاب النّبيّ ﷺ عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فإنّ حياتهم تختلف، وأمورهم تتغيَّر، ويقع بينهم الاشتجار والنزاع.

---

(١) (النجوم): أي: الكواكب.
(أمَنة)؛ بمعنى: الأمن؛ يعني: أنها سبب أمن السماء، فما دامت النجوم باقيةً؛ لا تنفطر ولا تتشقّق، ولا يموت أهلها.
(فإذا ذهبت النجوم)؛ أي: تناثرت.
(أتى السماء ما توعد)؛ أي: من الانفطار، والطيّ كالسجل.
(فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون): من الفتن والحروب واختلاف القلوب.
(فإذا ذهب أصحابي أتى أُمّتي ما يوعدون): من ظهور البدع، وغلبة الأهواء، واختلاف العقائد، وظهور الروم، وانتهاك الحرمين، وقَلّت الأنوار، وقويت الظلمات» «فيض القدير» ـ بحذف وتصرّف ـ والحديث أخرجه مسلم: ٢٥٣١.

وأيضاً؛ بِذَهاب الصحابة - رضي الله عنهم - تحصل اختلافات كثيرة في الأُمّة، وتقع تغيُّرات عجيبة، وتعظُم الفتن والمصائب؛ فها هي البدع قد أصبحت سُنناً، والسُّنن بدعاً، والمعروف مُنكراً، والمنكر معروفاً، عمّ الجهل، واندثر العلم؛ إلا عند قليل من عباد الله، اختصَّهم برحمته.

عُطِّلَ الحكم بما أنزل الله - تعالى - وسُخِّرَتِ الفتاوى لنصرة الهوى والرغبات والشهوات، وانقسم المسلمون على أنفسهم، وتفرّقوا شِيَعاً وأحزاباً.

وهذا يذكِّرنا بما صحَّ عن ابن مسعود - رضي الله عنه - موقوفاً؛ وهو مرفوعٌ إلى النّبيّ ﷺ حُكماً[١]؛ أنه قال: «**كيف أنتم إذا لَبِستكُم فتنةٌ؛ يَهْرَم فيها الكبير، ويربو فيها الصغير، ويتّخذُها الناس سُنّةً، إذا تُرِك منها شيءٌ؛ قيل: تُركت السُّنّة؟ قالوا: ومتى ذاك؟ قال: إذا ذهبت عُلماؤكم، وكثُرت قُراؤكم، وقَلَّت فقهاؤُكم، وكثرت أُمراؤكم، وقلّت أُمناؤكم، والتُمِستِ الدُّنيا بعمل الآخرة، وتُفُقِّه لغير الدين**»[٢].

فإذا كان بِذَهاب الصّحابة - رضي الله عنهم - يأتي أُمَّتَنا ما توعده؛ فما الذي توعده من ذَهَاب النّبيّ ﷺ؟

* * *

الردّ على من يقول: «موته ﷺ ليس بمصيبةٍ، والكتاب والسنة بين أيدينا!».

قالوا: هذا كتابُ الله - تعالى - العظيمُ، وهذه سُنّة رسول الله ﷺ المطهَّرةُ، فما الذي نخشاه من موت رسول الله ﷺ؟

(١) كذا قال شيخنا - رحمه الله تعالى-.

(٢) أخرجه الدارمي (٦٤/١) - بإسنادين: أحدُهما صحيح، والآخر حسن - والحاكم (٥١٤/٤)، وغيرهما؛ كما في «قيام رمضان» لشيخنا الألباني - رحمه الله تعالى -.

على مِثل هذا أجاب رسول الله ﷺ؛ فلنسمع لإجابته: عن زياد بن لبيدٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: ذكر النّبيّ ﷺ شيئاً، فقال: «**ذاك عند أوان ذهاب العلم**».

قلت: يا رسول الله! وكيف يذهب العلم ونحنُ نقرأُ القرآن، ونُقْرِئُه أبناءنا، ويُقرئُهُ أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟!

قال: «**ثكلتك أُمُّك زيادُ! إنْ كُنتُ لأراك من أفقه رجلٍ بالمدينة، أَوَليس هذه اليهود والنّصارى يقرؤون التوراة والإنجيل؟ لا يعملون بشيءٍ مما فيهما!**»[1].

هذا كتاب الله ـ تعالى ـ وهذه سنة رسول الله ﷺ، ولكن... أين العمل؟ أين الدّعوة؟

بل أين العلم الصَّحيح قبل العمل والدّعوة؟

إذنْ؛ لا مكان لمثل هذه الكلمات، ولا صحَّة لمثل هذه الأقوال!

لقَدِ ارتضَتِ الأُمّة محمّداً ﷺ رسولاً نبيّاً، وأميراً، وقائداً، وحاكماً، ومربّياً، فمن الذي تجتمعُ عليه الأُمّة الآن؟

ليتنا نَعْلَمُ كيف كانت الدُّنيا في حياته وعهده ﷺ وكيف أصبحَتِ الآن؟

كان العزُّ، والمجد، والرِّفعة، وها نحن نتخبّط في دياجير الظُّلُمات.

إنّنا نرجو رحمة الأُمم العظمى؛ نخشى قهرها وتدميرها لنا.

الأخبار في الصُّحُف تتحدّث عما يَمَسُّنا؛ من قتلٍ، واحتلالٍ، وغزوٍ، واستعبادٍ، ومؤامرات، وخُطط تُحاك لأُمّتنا.

الحزبيّة البغيضة تَنْهَشُ الأُمّة؛ كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون.

باسم الإسلام؛ يُهاجَمُ الإسلامُ، والعلماءُ، والدُّعاةُ.

---

(١) أخرجه الترمذي، وأحمد، وابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٧٢)، وغيرهم.

باسم أهل البيت يُسبُّ أهلُ البيت.

تعدّدتِ القَنَاعات، وتضاربت، وتناقضت، وتناطحت.

قلّ طُلاّب الجنّة وكثُر طُلاّب النّار.

كُذِب على رسول الله ﷺ، وأصبح من العسير تمييزُ الصحيح من الضعيف على الناس.

أصبح اختلاق الأحاديث ميسوراً لكل صاحب هوى.

البدع تُقدَّس كأنّها أصلُ الدين وركنٌ من أركانه!

صاحب السنة مبتدع، والمبتدع هو صاحب السنة!

كثُرت الرؤوس المدبرةُ والمُخطِّطة.

امتطى الإسلام ذوو الأهواء والشُّبهات.

أصبح الحليم في حَيْرةٍ وقلقٍ.

بيننا وبين الفهم الصحيح مفاوِزُ؛ تنقطع فيها أعناقُ المطيِّ.

ولو قال لنا الخطيب أو الواعظ: قال رسول الله ﷺ؛ لِلَزِمنا أن نبحث ونبحث عن صحة الحديث، ولا ندري: أنلقَى مَنْ مَنَّ الله عليه بالموازين الصحيحة الدقيقة في هذا الفنِّ أم لا؟

فإذا صحّ الحديث ـ وقلَّما يصحُّ مع الأَسف ـ لزِمَنا أن نتعرَّف فِقْهَه وما يُرشد إليه، وعلينا أن نغوص ببحور أصول الفقه؛ لعلَّنا نخرج على شواطئه بنتيجة، مع غوصٍ آخر لا بدَّ في عالم اللغة وما فيها من أوجه وآراء . . .

فإذا انتهينا من هنا وهناك بأمان؛ نسينا العمل بما علِمنا، وقعدْنا عن الدَّعوة بما ينبغي أن نعمل[1].

(١) إلاَّ من رحمَ الله، وقليل ما هم.

أليست هذه المصائب والمتاعب من نَتَاج موت النّبيّ ﷺ؟

أليست هذه من نَتَاج موت أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ؟

أليست هذه من نَتَاج عدم العمل بكتاب الله ـ تعالى ـ وسنّة رسوله ﷺ؟

* * *

ماذا بعد موت النّبيّ ﷺ؟

ذرفت العيون، وَوَجِلَتِ القلوب؛ ولكن؛ ما العمل؟

العمل العمل بكتاب الله ـ تعالى ـ.

العمل العمل بسُنّة رسول الله ﷺ.

لقد بيّن رسول الله ﷺ أنّ سبب ضلال اليهود والنصارى هو عدم العمل بالتّوراة والإنجيل، فعلينا بالعمل والمسارعة فيه.

وعلينا بمبدأ التمحيص وعدم تلقّي غير الثابت من الأحاديث؛ لأن هذا الأمر دين، وهذا القولَ شرع؛ فلننظر عمّن نأخذ ديننا[١].

وعلينا بالعلم ومجالسة العلماء.

ولنتدبر وصيّةَ عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله تعالى ـ وهو يكتبها إلى أبي بكر بن حزم: «انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه؛ وإنّي خِفْتُ دروس[٢] العلم، وَذَهَاب العلماء؛ ولا تقبل إلا حديث النّبيّ ﷺ.

---

(١) هذا مقتبس من قول محمّد بن سيرين ـ رحمه الله تعالى ـ: **«إن هذا العلم دين، فانظروا عمّن تأخذون دينكم»**. عن مقدّمة «صحيح مسلم».

(٢) أي: زوال.

ولْتُفشوا العلم، ولْتَجْلِسوا حتى يُعلَّم من لا يعْلَم؛ فإنّ العلم لا يهلِكُ حتى يكون سِرّاً»[١].

فمجالس العلم تجعلنا نصحب النّبيّ ﷺ كما قال الشاعر:

أهل الحديث هم أهل الرّسول وإنْ لم يصحبوا نفسه أنفاسَهُ صحبوا

فلنصحب رسول الله ﷺ في صلاته.

ولنصحب رسول الله ﷺ في صيامه.

ولنصحب رسول الله ﷺ في زكاته.

ولْنَصْحَبه ـ عليه السلام ـ في حَجِّه.

ولْنَصْحَبه ـ عليه السلام ـ في سلوكه.

ولْنَصْحَبه ـ عليه السلام ـ في جهاده.

ولا تَقْبَلْ إلا حديث النّبيّ[٢] ﷺ.

فحديثه الشفاء والنور؛ وفيه النجاة، والفوز، والسعادة.

***

---

(١) عن «صحيح البخاري» ـ (كتاب العلم، باب: كيف يقبض العلم) ـ مُعلّقاً بصيغة الجزم، وذكر الحافظ وصْل أبي نُعَيْم له في «أخبار أصبهان» بنحوه. وهذا ما نراه رأي العين ونلمسه لمس اليد؛ من خلال التحزُّبات والجَلَسات السريّة، وإلى الله ـ تعالى ـ المشتكى.

(٢) لا يعني هذا عدَمَ الاستفادة من أقوال العلماء، وتفسيراتهم، وترجيحاتهم؛ بل الضلال في ترك كتبهم وفقههم، كما أن الضلال ـ أيضاً ـ بالتعصُّب لأقوالهم، أو تقديمها على حديث النّبيّ ﷺ.

تدبُّر الوصية

إنَّ شأن كُلِّ مُفارق مودِّع أنْ يكتب الوصيَّة، فهل ترك رسول الله ﷺ لنا وصيّة يوصينا بها؟

نعم؛ لقد ترك جامعةَ الوصايا وأمَّ المواعظ.

عن عبدالرحمن بن عمرو السلمي، عن العرباض بن سارية - رضي الله عنه - وكان من البكّائين -، قال: **«صلّى رسول الله ﷺ الغداة، ثمّ أقبل علينا بوجهه، فوعظَنا موعظةً بليغةً، ذرفت منها الأعين، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: يا رسول الله! كأنَّ هذه موعظةُ مودِّع؟! فقال: اتقوا الله، وعليكم بالسمع والطاعة، وإنْ عبداً حبشياً، وإنّه من يعِش منكم بعدي؛ فسيرى اختلافاً كثيراً؛ فعليكم بسنتي وسنّة الخلفاء من بعدي الراشدين المهديين، عضُّوا عليها بالنّواجذ وإيّاكم ومحدثات الأُمور؛ فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالة»**[1].

لا بُدَّ من تدبُّر الوصيّة.

لا بُدَّ من أن نعيش مع الوصيّة وتعيش معنا.

لا بُدّ أن نتذكّرها في كل شأنٍ من حياتنا.

... في الملذّات والمسرَّات، وفي الآلام والأحزان... في الأمن والفتن، في الائتلاف والاختلاف؛ لأنَّ فيها أسباب السعادة وأسرار النّجاة.

***

(١) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٣٨٥١)، والترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢١٥٧)، وابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٤٠).



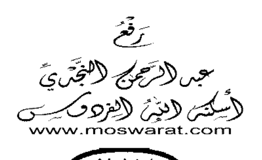
فقه الدعوة وتزكية النفس

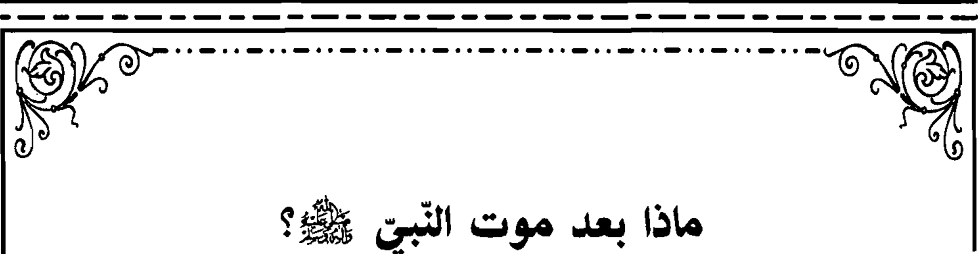
(٧)

وصيّة مودع

بقلم

حسين بن عودة العوايشة





ماذا بعد موت النّبيّ ﷺ؟

مات الرسول ﷺ فدمعَت الأعين، وحزنت القلوب، وتلوّعت الأفئدة، وأظلمت الدنيا، وأنكر المؤمنون أنفسهم.

مات الحبيب الغالي العزيز المربّي المعلّم الرؤوف الرحيم بالمؤمنين.

شأنُ من يفقد العزيز الغالي؛ أن يُروِّيَ الفؤاد بالذكريات.

هناك كان يجلس.

وهناك كان يقف.

وكان يقول كذا وكذا.

وكان يفعل كذا وكذا.

شأن من يفقد الحبيب أن يتأمّل كلماتٍ قالها، وعبارات نطق بها.

شأنه أن يتدبّر الوصيّة ويُقبلَ عليها بكلّيته يُمضي ما طلب الفقيد بإخلاص وصدق.

يتأمّل الكلمات ويجعل حروفها عملاً.

فيا من جُرحت قلوبكم بموت نبيكم ﷺ سارعوا إلى وصيّته.

أَقبِلوا عليها بقلوب مُنكِسرة وأفئدة خاشعة ذليلة.

اقرؤوا عن العرباض بن سارية ـ رضي الله عنه ـ قوله: «وعظَنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجِلت منها القلوب، وذرفَت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله! كأنّها موعظةُ مودع فأوصِنا قال:

«أوصيكم بتقوى الله، والسّمع والطاعة، وإنْ تأمّر عليكم عبد [حبشيّ] وإنّه من يَعِشْ منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنّتي وسُنّة الخلفاء الراشدين المهديّين، عَضُّوا عليها بالنواجذ[1] وإيّاكم ومُحدثات الأمور، فإنّ كُلّ بدعة ضلالة»[2].

وفي رواية: «فقُلنا يا رسول الله! إنّ هذه لموعظة مودِّع، فماذا تعهد إلينا؟ قال[3]: **«قد تركتكم على البيضاء، ليلُها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، من يَعِشْ منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتُم من سُنّتي وسُنّة الخلفاء الراشدين المهديّين، عَضّوا عليها بالنواجذ، وعليكم بالطاعة، وإنْ عبداً حبشياً، فإنما المؤمن كالجمل الأنِف[4]، حيثما قيد انقاد»**.

❋ ❋ ❋

---

(١) أي: الزموا السنّة واحرصوا عليها؛ كما يلزم العاضّ على الشيء بنواجذه؛ مخافة ذَهابه وتفلّته، والنواجذ: الأنياب، وقيل: الأضراس.

(٢) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٣٨٥١)، والترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢١٥٧)، وابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٤٠) وغيرهم. وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٤) و«كتاب السنّة» (٥٤) لابن أبي عاصم بتحقيق شيخنا ـ رحمه الله ـ. وفي رواية للنسائي والبيهقي في «الأسماء والصفات»: «**وكلّ ضلالة في النّار**»، بإسناد صحيح، كما في «الأجوبة النافعة» (ص٥٤٥) و «إصلاح المساجد» (ص١١).

(٣) «صحيح سنن ابن ماجه» (٤١).

(٤) الأنِف: قال في «النهاية»: «أي: المأنوف، وهو الذي عقر الخشاش أنفه، فهو لا يمتنع على قائده للوجع الذي به، وقيل: الأنف الذّلول».
والخِشاش: ما يُدخل في عظم أنف البعير من خشب. «المحيط».

قيمة الوصيّة

إنّها وصيّة مودّع حبيبٍ.

كيف يكون شعور الأمّ الرؤوم وهي تودّع ابنها الغالي؟

وكيف يكون إحساس الأب الحاني وهو يودّع فلذة كبِده؟

إنّ الموقف لأعظم، والأمر لأشدّ.

إنّ رسول الله ﷺ يُودّع أصحابه وأمّته، فماذا سيقول لهم؟

أَيُبيِّن لهم أحكاماً فقهية؟

أم يوضّح لهم أمراً من أمور العقيدة لم يبيّنه من قبل، أو قضيةً خُلُقيةً لم يكن قد تحدَّث بها؟

الأمر أشدُّ من ذلك!

لقد كَمَل الدين، وتمّت النعمة، فلا بُدَّ أن تكون هذه الوصيةُ جامعةَ الوصايا، وقُلْ إنْ شئت: أمّ الوصايا.

إنّها تجمع كل خير وتشمل كلّ طيب.

إنّها تُحذّر من كلّ شرّ وسوء.

إنّها تُعطيك الإسلام والإيمان والإحسان في عباراتها الوجيزة.

إنّها تُخرجك من الحيرة والقلق، وتدلّك على سبيل الرّشاد.

ولا عجب؛ فقد أوتي ﷺ جوامع الكَلِم.

فهيا يا ساعياً للخير أقْبِل على هذا المورد العذب، لترتشف من المعين الصافي والنبع الرقراق:

«وعظَنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة».

إنّها استجابة لأمر الله، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ

﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾(١)، وفي قوله سبحانه أيضاً: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾(٢).

قال في «جامع العلوم والحكم»(٣): **«والبلاغة في الموعظة مستحسنة؛ لأنها أقرب إلى قَبول القلوب واستجلابها، والبلاغة: هي التوصّل إلى إفهام المعاني المقصودة، وإيصالها إلى قلوب السامعين بأحسن صورة من الألفاظ الدالّة عليها، وأفصحها وأحلاها للأسماع، وأوقعها في القلوب، وكان ﷺ يقصر خطبته ولا يُطيلها؛ بل كان يُبلغ ويوجز»**.

وفي «صحيح مسلم»(٤) عن جابر بن سمرة ـ رضي الله عنه ـ قال: **«كنتُ أصلّي مع رسول الله ﷺ فكانت صلاته قصداً(٥)، وخطبته قصداً»**.

وخرَّج مسلم(٦) من حديث أبي وائل قال: «خطبَنا عمّار، فأوجز وأبلَغ، فلمّا نزل قُلنا: يا أبا اليقظان! لقد أبلغتَ وأوجزتَ، فلو كنت تنفسْتَ!(٧) فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنّ طول صلاة الرجل وقِصَر خطبته مِئنّة(٨) من فقهه، فأطيلوا الصلاة واقصُروا الخطبة، وإنّ من البيان سحراً»**.

وعن أبي ظبية أنّ عمرو بن العاص قال يوماً ـ وقام رجل فأكثَر القول ـ فقال عمرو: لو قصد في قوله لكان خيراً له؛ سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) النساء: ٦٣.
(٢) النحل: ١٢٥.
(٣) تحت الحديث الثامن والعشرين.
(٤) برقم: (٨٦٦).
(٥) القصد من الأمور: الوسط بين الطرفين، والاعتدال فيه، وفي «فيض القدير»: قصْد كل شيء تحسينه.
(٦) برقم: (٨٦٩).
(٧) أي: أطلْت، وأصله أنّ المتكلم إذا تنفَّس استأنف القول وسهلت عليه الإطالة. «النهاية».
(٨) أي: علامة يُتحقّق من فقهه، وحقيقتها مكانٌ لقولِ القائل: إنّه فقيه. «فيض القدير».

يقول: «لقد رأيت ـ أو أُمِرت ـ أن أتجوّز في القول، فإنّ الجواز هو خير»[(١)].

ها نحن قد شَبِعْنا الكلام المعسّل والخُطب الرنّانة، ولكن أين نحن الآن؟ وما موقعنا من الأمم؟

إنّنا في زمن كثُرت خطباؤه وقلّت فقهاؤه؛ فواحزناه.

إنّنا في زمن كثُر فيه القول، وقلّ الفِعل، فواحسرتاه!

«وجِلت منها القلوب، وذرفت منها العيون».

قلوب وجِلة خاشعة، وعيون باكية دامعة.

إنّ هذا الوجل ليدلّ على الإيمان؛ كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[(٢)].

هذه الأعين التي في مِثلها قال سبحانه و ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[(٣)].

وهذا هو شأن المؤمنين الصادقين الخاشعين: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾[(٤)].

قلوب تنتفع بالمواعظ والرقائق، ولا يخرُّون عليها صُمّاً وعمياناً.

ذلك لأنّهم قوم عالمون عاملون مؤمنون صادقون قانتون مُستغفرون، أفئدتهم مِثل أفئدة الطير.

---

(١) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٤١٨٧).
(٢) الأنفال: ٢.
(٣) المائدة: ٨٣.
(٤) الإسراء: ١٠٩.

وكان من ثمرة هذه الشفافية والرّقة والوجل والدموع؛ أن طلبوا الوصية فقالوا: «**كأنها موعظة مُودّع فأوصِنا**»(١).

لعلّهم اشتمُّوا أنّ أحبَّ الناس إليهم سيودّعهم!

ولا غرابة في ذلك فهم سادة الفقهاء، وقادة العلماء.

لم يكتفوا بما تقدّم من مواعظ ورقائق وفوائد وأحكام وخطب؛ ولكنهم أرادوا المزيد.

إنّهم طلاب علمٍ لا يشبعون.

إنّهم طلاب خيرٍ منهومون.

إنّهم يريدون وصيّة جامعة بعد كلّ خيرٍ سمعوه من رسول الله ﷺ، ليُحسنوا العمل بعدَه على منهجه وطريقه.

* * *

أوصيكم بتقوى الله

اتبعوا أوامر الله ـ تعالى ـ واجتنبوا نواهيه.

راقبوه بالسرّ والعلن.

اجتنبوا الهوى سبب الشرور والنّار.

زكّوا أنفسكم.

اتّقوا النّار بالأعمال الصالحة النافعة.

---

(١) قال في «جامع العلوم والحكم»: «وقولهم: يا رسول الله، كأنّها موعظة مودّع فأوصنا يدلُّ على أنّه كان ﷺ قد أبلغ في تلك الموعظة ما لم يُبلغ في غيرها، فلذلك فهِمُوا أنّها موعظة مودّع، فإنّ المودّع يستقصي ما لا يستقصي غيره في القول والفعل، ولذلك أمر النّبيّ ﷺ أن يُصلي صلاة مودّع، لأنّه من استشعر أنّه مودّع بصلاته أتقنها على أكمل وجوهها».

إنْ تكالبت عليكم الدنيا بجمالها وسِحْرها، والحرام بفتنته، والذهبُ ببريقه، والأشغال بمغرياتها، فتذكّروا قوله ﷺ: «**أوصيكم بتقوى الله**».

إن أردتم الخلاص من الضيق والكرب والبلاء، وأن تُرزقوا الرزق الحلال، ويبسط لكم فيه فاتَّقوا الله، ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[1].

إن أردتم أن يجعل لكم من أمركم يُسراً وتخلصوا من العُسر، فاتَّقوا الله.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[2].

إن أردتم أن تتعلّموا سبيل النجاة والفوز والتقوى، فاتَّقوا الله.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[3].

إن أردتم ـ أيها المسلمون ـ أن تكونوا السّادة والقادة وتكون لكم الرّيادة في كلّ العلوم والمجالات: «**فاتقوا الله**».

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ۝﴾[4].

إذا أردتم أن تكونوا أكرم الناس فاتَّقوا الله.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾[5].

إذا أردتم العيش الآمن والحياة الهنيئة فعليكم بتقوى الله.

---

(١) الطلاق: ٢ ـ ٣.
(٢) الطلاق: ٤.
(٣) البقرة: ٢٨٢.
(٤) النور: ٥٥.
(٥) الحجرات: ١٣.

أليس الملل وضنك العيش من قلة التقوى؟

أليست الجرائم التي تملأ المجتمع وتهدّد الأمن والطمأنينة بسبب قلّة التقوى؟

تقوى الله توجب عليك قبول الحق؛ ولو جاءك ممن هو دونك في الجنس أو العِرق أو المال أو المنصب أو الجاه أو السنّ.

«أوصيكم بتقوى الله».

كلمة جامعة؛ تصلح لكلّ زمان ومكان.

كلمةٌ تصلُح للذكر والأنثى، والغني الفقير، والأبيض والأسود.

كلمة تُصلِح الراعي والرعيّة.

كلمة تُسعد الفرد والمجتمع والأمة في الدّارَيْن إذا عملوا بمقتضاها.

... والسمع والطاعة وإن تأمَّر عليكم عبدٌ حبشي.

وهذا كقوله ﷺ: **«اسمعوا وأطيعوا وإن استُعمِل عليكم عبدٌ حبشيّ كأنّ رأسه زبيبة»**[1].

وفي الحديث: **«من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنّه ليس أحد يُفارق الجماعة شبراً فيموت، إلاّ مات ميتة جاهلية»**[2].

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **«السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبّ وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أُمِر بمعصية؛ فلا سمع ولا طاعة»**[3].

وإن تأمّر عليكم عبدٌ حبشي.

---

(١) أخرجه البخاري: ٧١٤٢.

(٢) أخرجه البخاري: ٧١٤٣.

(٣) أخرجه البخاري: ٧١٤٤، وقد يستدلُّ مستدلٌّ بهذه النصوص؛ لتحزّب ما، أو تكتّل مُعيّن، ولا وجه له فإن في هذا زيادة في الفُرقة والشتات بين المسلمين، فنسأل الله ـ تعالى ـ الهداية.

فلا ينبغي أن يكون العِرق مانعاً لك عن السمع وقبول الحقّ.

ولا يجوز أن يكون اللون عائقاً لك عن الطاعة وأخذ الصواب.

لا يحولَنّ بينك وبين الحقّ مظهريّة جوفاء ولا شكليّة خاوية.

ولنحذر من مخالفة هذا؛ لأن من ورائه فتناً شديدة ومصائب عظيمة.

وإنّه من يعش منكم فيسرى اختلافاً كثيراً.

وها نحن نعيش في الاختلاف الكثير.

اختلاف في العقيدة والفقه والسياسة والإمارة، بل وفي القلوب.

لقد كانت جماعةً واحدةً فأصبحت جماعات، وكانت دعوةً فأضحت دعوات.

ما أكثر الكتب واختلافها!

إن المسلم لا يدري ماذا يأخذ وماذا يدَع! ومِن أين يبدأ وكيف ينتهي!

إنّ الاختلاف يؤدّي إلى هلاك الأمّة، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ[1]﴾[2].

وقال ﷺ: **«لا تختلفوا فإنّ من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»**[3].

ها هي الأمم قد تداعت علينا كما تداعى الأكلة على قصعتها وآنيتها، وليس هذا مِن قلّة عدد، ولكنّه الوهن.

وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: **«يوشك الأمم أن تداعى عليكم، كما تداعى الأَكَلة إلى قصعتها»**، فقال قائل: ومن قلّةٍ نحن يومئذ؟ قال: **«بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنّكم غثاء كغثاء السيل.**

---

(١) قوّتكم وحدّتكم وما كنتم فيه من الإقبال. «تفسير ابن كثير».

(٢) الأنفال: ٤٦.

(٣) أخرجه البخاري: ٢٤١٠.

وليَنزعنّ الله من صدور عدّوكم المهابة منكم، وليقذفنّ الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حبّ الدنيا وكراهية الموت»(١).

... فسيرى اختلافاً كثيراً.

لماذا الاختلاف الكثير؟

لأنّهم اعتمدوا قوانين البشر ونُظمهم، وتركوا ما أُنزِل إليهم من ربهم ـ سبحانه ـ.

لأنّهم قدَّموا كلام زيد وعمرو على كلام الله ـ تعالى ـ وكلام رسوله ﷺ.

إنّ سبب الاختلاف الكثير هو التلقّي من غير الله ـ سبحانه ـ.

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾(٢).

فسبب الاختلاف؛ هو التنكُّب عن كتاب الله ـ تعالى ـ وسّنة رسوله ﷺ، فما كان من عند الله ـ سبحانه ـ فلا اختلاف فيه، وما كان من عند غير الله ففيه الاختلاف.

* * *

فما العلاج؟

«فعليكم بسنّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديّين، عَضُّوا عليها بالنواجذ».

«عليكم بسنّتي»: الزموا منهجي وسبيلي، لأنها النّور والشفاء والرحمة، فسَّرَت القرآن العظيم، واسْتقت من يَنبوعه، وأنّى لمن تلقّى من الكتاب

(١) أخرجه أبو داود وغيره، وانظر «الصحيحة» (٩٥٨).

(٢) النساء: ٨٢.

والسّنة أن يضلّ أو يشقى؛ ورسول الله ﷺ يقول: **«تركتُ فيكم أمرين، لن تضلّوا ما تمسكْتُم بهما: كتاب الله وسنّة رسوله»**[١].

ويُروى عن أبي العالية أنّه قال: **«عليكم بالأمر الأوّل الذي كانوا عليه قبل أن يفترقوا»**.

«فعليكم بسّنتي»: ولكن كيف نعرِف سُنّته ﷺ؟

لا بُدّ من منهاج التحقيق والتمحيص والسَّير وراء أهل الحديث، وإلا أُدخلت سُنن البشر في سُنَّته ﷺ، فأضحى الدين أهواءً، والأهواء ديناً، وحُكِّم العقل القاصر، وعطّلت شريعة الله ـ تعالى ـ.

وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: **«لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحقّ، لا يضرُّهم من خَذَلهم، حتى يأتي أمرُ الله وهم كذلك»**[٢].

وقد بيّن جمْع من العلماء أنّ هذه الطائفة هم أصحاب الحديث. وقد ذكَر شيخنا الألباني ـ رحمه الله ـ مَن ذكَر ذلك في «السلسلة الصحيحة» (٥٤١/١)، وهم:

١ ـ عبدالله بن المبارك... فقد قال في الحديث السابق: هم عندي أصحاب الحديث.

٢ ـ علي بن المديني، وروى الخطيب أيضاً من طريق الترمذي وهذا في سننه (٣٠/٢) وقد ساق الحديث من رواية المزني المتقدمّة[٣] (رقم٥)، ثم قال: «قال محمّد بن إسماعيل (هو البخاري) قال علي بن المديني: هم أصحاب الحديث».

٣ ـ أحمد بن حنبل، وقد سُئل عن معنى هذا الحديث فقال: **«إنْ لم**

---

(١) رواه مالك مُرسلاً، والحاكم من حديث ابن عباس، وإسناده حسن؛ كما قال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «التوسل أنواعه وأحكامه» (ص١٣).

(٢) أخرجه مسلم: ١٩٢٠، وغيره.

(٣) أوردها شيخنا ـ رحمه الله ـ (ص٥٣٩)، وقال: «... في «المسند» (٤٣٦/٣ و ٣٤/٥) بسند صحيح وصحّحه الترمذي».

تكن هذه الطائفة المنصورة أصحاب الحديث، **فلا أدري من هم**».

٤ ـ أحمد بن سنان الثقة الحافظ، قال: «**هم أهل العلم وأصحاب الآثار**».

٥ ـ البخاري، محمد بن إسماعيل، روى الخطيب عن إسحاق بن أحمد قال: ثنا محمّد بن إسماعيل البخاري ـ وذكر حديث موسى بن عقبة عن أبي الزبير عن جابر عن النّبيّ ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمّتي**» فقال البخاري: يعني أصحاب الحديث» وقال في «صحيحه» وقد علّق الحديث وجعله باباً: «**وهم أهل العلم**» ولا منافاة بينه وبين ما قبله كما هو ظاهر، لأنّ أهل العلم هم أهل الحديث، وكلّما كان المرء أعلم بالحديث؛ كان أعلم في العلم ممن هو دونه في الحديث كما لا يخفى. وقال في كتابه «خلق أفعال العباد» (ص٧٧ ـ طبع الهند) ـ وقد ذكر بسنده حديث أبي سعيد الخدري في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ـ قال البخاري: «**هم الطائفة التي قال النّبيّ ﷺ**:...» فذكر الحديث[١].

لقد ترك رسول الله ﷺ أمّته على النّور والهُدى، تركها على مِثل البيضاء؛ ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلاّ هالك، لا عذر له ولا حُجّة، كما في قوله ﷺ: «**إني قد تركْتكم على مِثل البيضاء**[٢]**: ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك**»[٣].

---

(١) ثم ذكر شيخنا ـ رحمه الله تعالى ـ ما تيسَّر من فضائل أهل الحديث، وذكر أيضاً قول الخطيب البغدادي ـ رحمه الله تعالى ـ في مقدّمة كتاب «شرف أصحاب الحديث» انتصاراً لهم وردّاً على من خالفهم، ثمّ ذكَر ـ رحمه الله ـ بعض الأبواب مقتصراً على أهمّها وأمسّها بالموضوع وتتميماً للفائدة، ثمّ ختَم شيخنا كلمته بذكر شهادة عظيمة لأهل الحديث من عالم من كبار علماء الحنفية، وهو أبو الحسنات اللكنوي ـ رحمه الله ـ فأفاد بذلك وأجاد.

وإن شئت تفصيلاً فانظر: «**الصحيحة**» في التعليق على الحديث المشار إليه برقم (٢٧٠).

(٢) أي: على حجّة واضحة ظاهرة قويّة ساطعة بيّنة. والليلة البيضاء: هي التي يطلع فيها القمر من أوّلها إلى آخرها.

(٣) صحيح بطرقه وشواهده، كما في «كتاب السّنة» لابن أبي عاصم (٤٧، ٤٨، ٤٩).

وكأنّ في هذا بياناً لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[1].

عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ قال: **«كنّا جلوساً عند النّبيّ ﷺ فخطّ خطّاً هكذا أمامه فقال: هذا سبيل الله ـ عزّ وجلّ ـ وخطّ خطّاً عن يمينه، وخطّ خطّاً عن شماله، وقال: هذه سُبُل الشيطان، ثمّ وضع يده في الخطّ الأوسط ثمّ تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[2]»**[3].

«عليكم بسنّتي»:

ولم يقُل عليكم بالشيخ الفلاني والمربّي الفلاني والعالم الفلاني، فحذار من التعصّب لأيٍّ من هؤلاء، ولنأخذ منهم ما يُبلغنا السّنة والحقّ والصواب.

«وسنّة الخلفاء الراشدين المهديّين»:

لا بُدّ إذن أن نفهم السنّة النبويّة كما فهِمَها الخلفاء الراشدون؛ أقرب الناس من النّبيّ ﷺ وأطهرهم جناناً، وأصدقهم إيماناً، وأكثرهم إحساناً، وأشدّهم ملازمة للنّبيّ ﷺ، إنهم يعاينون الأمور ونحن نسمعها أخباراً «وليس الخبر كالمعاينة»[4].

لقد وصفَهم رسول الله ﷺ بالراشدين المهديّين، فهل من أحد بعد أصحاب النّبيّ ﷺ وُصف بهذا الوصف فنتّبعه؟!

* * *

---

(١)(٢) الأنعام: ١٥٣.

(٣) صحيح بالمتابعة، وانظر «كتاب السّنة» لابن أبي عاصم، برقم (١٦، ١٧).

(٤) أخرجه أحمد والطبراني والخطيب وغيرهم بسند صحيح، كما في «تخريج العقيدة الطحاوية» (٤٠١).

لا يجوز الاعتماد على القرآن استقلالاً

إنّ الاعتماد على القرآن وحده دون السّنة النّبوية ضلال كبير، ونحن نرى أنّ أكثر الفِرق الضالّة تدّعي التمسُّك بكتاب الله ـ تعالى ـ معتمدة التأويل والتحريف كيفما جمحت بها الأهواء.

فهل في كتاب الله تفصيلٌ للصلاة أو الزكاة أو الحج أو الأذكار؟ فلا بدّ من فهْم كتاب الله ـ تعالى ـ على ضوء السنّة النبوية[١].

وليعلم المسلم أنّ ما أحلّ رسول الله ﷺ كما أحلّ الله ـ تعالى ـ وما حرّم رسول الله ﷺ كما حرّم الله ـ عزّ وجلّ ـ.

عن المقدام بن معد يكرب قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا هل عسى رجلٌ يبلغه الحديث عنّي؛ وهو متّكيء على أريكته، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدْنا فيه حراماً حرّمناه وإنّ ما حرّم رسول الله ﷺ كما حرّم الله**»[٢].

وهذا يذكّرنا بالحوار الذي دار بين عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وأمّ يعقوب، كما ورد في حديث علقمة قال: «**لَعَن عبدالله الواشمات[٣] والمتنمّصات[٤] والمتفلّجات[٥] للحُسن المغيّرات خلْقَ الله**».

فقالت أمّ يعقوب: ما هذا؟

---

(١) لشيخنا الألباني ـ رحمه الله ـ رسالة نافعة طيبة هامّة بعنوان «منزلة السنة في الإسلام وبيان أنه لا يُستغنى عنها بالقرآن».

(٢) أخرجه الترمذي واللفظ له «صحيح سنن الترمذي» (٢١٤٦)، وابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (١٢) والدارمي وغيرهم.

(٣) الوشم: أن يُغرز الجلد بإبرة، ثمّ يُحشى بكُحل أو نيل، فيزرقّ أثرُه أو يخضر. «النهاية».

(٤) النّماص: إزالة شعر الوجه ونتفه، والمتنمّصة: التي تأمر من يفعل بها ذلك.

(٥) جمع متفلّجة: وهي التي تطلب الفلج أو تصنعه، والفلج انفراج ما بين الثنيّتين، والتفلّج: أن يفرج بين المتلاصقين بالمبرد ونحوه، وهو مختصّ عادة بالثنايا والرباعيّات... «الفتح».

قال عبدالله: وما لي لا ألعن من لعَن رسولُ الله ﷺ وفي كتاب الله!

قالت: والله لقد قرأتُ ما بين اللوحين فما وجدته» فقال: والله لئن قرأتيه لقد وجدتيه ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾[1]»[2].

فإنّ ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ لعَن الواشمات والمتنمّصات والمتفلّجات للحُسن.

ولكنّ أم يعقوب لم تُقرّه على هذا اللعن، فكان جوابه ـ رضي الله عنه ـ أنّه لعَن من لعَنه رسول الله ﷺ، وقد أَخذ هذا اللّعن من كتاب الله العظيم.

بيْد أنها أبدت اعتراضاً شديداً على قوله؛ لأنها لم تقرأه في كتاب الله ـ تعالى ـ فكان جوابه ـ رضي الله عنه ـ: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه أما قرأت: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾؟!

فإنّ رسول الله ﷺ قد لعن هذه الأصناف، وربّنا ـ سبحانه ـ يأمر باتباع النّبيّ ﷺ فما آتانا أخذْنا، وما نهانا عنه انتهينا عنه، ومن لعَنه لعَناه، وبذلك فإنّ لعْن هذه الأصناف نابعٌ من كتاب الله ـ تعالى ـ أصلاً.

وبهذا نعلم أنّ اتّباع أوامر الرّسول ﷺ اتباعٌ لأوامر القرآن العظيم، واجتناب نواهي الرسول ﷺ أيضاً اجتناب لنواهي القرآن الكريم. وما أحلّ رسول الله ﷺ كما أحلّ الله ـ سبحانه ـ وما حرّم رسول الله كما حرّم ـ عزّ وجلّ ـ.

وبهذا ينبغي أن لا نفرّق بين كتاب الله ـ عزّ وجلّ ـ وسنّة رسوله ﷺ.

❋ ❋ ❋

---

(١) الحشر: ٧.

(٢) أخرجه البخاري: ٥٩٣٩، ومسلم: ٢١٢٥.

من أخَذَ عن الصحابة فقد أخَذَ عن القرآن الكريم

لقد أخَذ الصحابة عن الخلفاء الأربعة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ وكانوا أحرص الناس على الخير، فقد شهد الله ـ تعالى ـ لهم بالإيمان، وحذّر من اتّباع غير سبيلهم.

قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾[١].

وفي الحديث: «**ألا إنّ من قبلكم من أهل الكتاب؛ افترقوا على ثنتين وسبعين ملّة، وإنّ هذه الملّة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النّار، وواحدة في الجنّة، وهي الجماعة**»[٢].

وفي رواية: «**ما أنا عليه وأصحابي**»[٣].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «لا تسبّوا أصحاب محمّد؛ فلمقام أحدهم ساعة؛ خير من عمل أحدكم عُمُره»[٤].

بعد أن فهِمْنا أنّ الصحابة ـ أخذوا من الخلفاء الراشدين ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ نعلم أنّ اتباع منهاج الصحابة اتباعٌ لمنهاج الخلفاء، واتّباعٌ للسّنة كذلك، واتّباع السّنة اتّباعٌ للقرآن العظيم.

إذا عرفْنا هذا التدرّج والتسلسل؛ علمْنا إذن أنّ من أخَذَ عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فقد أخَذ عن الله ـ سبحانه ـ ومن رفض منهاج الصحابة فقد رفَضَ كتاب الله ـ عزّ وجلّ ـ.

---

(١) النساء: ١١٥.

(٢) أخرجه أبو داود والدارمي وأحمد وغيرهم، وانظر «الصحيحة» (٢٠٤).

(٣) حسن بطرقه وشواهده، وتفصيله في «الصحيحة» (٢٠٣، ٢٠٤) (التحقيق الثاني).

(٤) أخرجه ابن أبي عاصم في «كتاب السّنة»، ورجال إسناده ثقات رجال الشيخين غير نسير بن ذعلوق، وقد وثّقه جمْع من الأئمة، وروى عنه جمع من الثقات، كما ذكَر ذلك شيخنا ـ رحمه الله ـ في الكتاب الآنف الذكر، برقم (١٠٠٦) (التحقيق الثاني)، وفي كتابه «تيسير انتفاع الخلّان بكتاب ثقات ابن حبّان».

ومن هنا نفهم سرّ ضلال وزيغ من كفَّر الصحابة ـ عياذاً بالله ـ إلا ثلاثة منهم.

فإنّك ترى الذين كفّروا الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ هم أنفسهم الذين لم يؤمنوا بالقرآن ولا السّنّة، فلم تعدْ لديهم ضوابط صحيحة تحكمهم.

وما ضلّ الضّالون وانحرف المنُحرفون، إلا لأنهم لم يتقيّدوا بمنهاج السلف الصالح، ذلك لأنهم أطلقوا لعقولهم العنان في فهم الكتاب والسّنّة، وبذلك تعدّدت المناهج والأفكار والدعوات والأحزاب، والكلّ يقول: نحن على الكتاب والسّنّة، وما هم بصادقين ـ مع الأسف ـ.

وكلٌّ يدّعي وصْلاً بليلى ... وليلى لا تُقرُّ لهم بذاك

أهي سنَّة واحدة أم سُنّتان

إنها سنّة واحدة، بدليل قوله ﷺ: **«عَضّوا عليها بالنّواجذ»**.

لقد قال عليه الصلاة والسلام: **«عضّوا عليها»**: فالضمير: **«ها»** يدلّ على المفرد ـ ولم يقُلْ ـ عليه والصلاة السلام ـ: **«عضّوا عليهما»** أي: على سنّتين، بل قال: **«عضوا عليها»**، **فهي** سنّة واحدة، إذ العمل بسنّة الخلفاء الراشدين عملٌ بسنّة النّبيّ ﷺ، فليس للخلفاء الراشدين ـ رضي الله عنهم ـ سنّةٌ غير سنّة النّبيّ ﷺ.

قال الشيخ القاري ـ رحمه الله ـ في «المرقاة» (١/١٩٩) في قوله ﷺ: **«فعليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين»**: «فإنهم لم يعملوا إلا بسنّتي، فالإضافة إليهم: إمّا لعملهم بها، أو لاستنباطهم واختيارهم إيّاها»[1].

«عضّوا عليها بالنواجذ»: كناية عن شدّة التمسّك بها.

إنّه أمرٌ لحريٌّ بالتمسّك؛ لتحقيق الهدى واجتناب الهوى والضلال؛ فليس هناك من سبيلٍ إلاّ الالتزام بسنّة النّبيّ ﷺ، وسنّة الخلفاء الراشدين

---

(١) ذكرها عنه شيخنا الألباني ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٤/٣٦١) برقم (١٧٦١).

المهديين، لا سيما وقد كثرت سُنن غير سنن النّبيّ ﷺ وتخبَّط الناس في الأهواء والشهوات.

لا بُدّ من بذْل الجهد في التمسّك بالسّنة، مخافة الضياع والضلال؛ أشدّ مما يحافظ الرجال في الصحارى والمفازات على شرابهم وطعامهم، لأنّ في الشراب والطعام حياة الأبدان، وفي السّنة حياة الجَنان.

«وإيّاكم ومحدثات الأمور».

لم يكْتفِ النّبيّ ﷺ بالأمر باتّباع سنته ﷺ وسنّة الخلفاء الراشدين ـ رضي الله عنهم ـ بل نهى عن مُحدثات الأمور، لأنّ في إحياء المُحدثات والبدع إماتة للسنة. فما من بدعة تُحدَث؛ إلا وتميت سنّة ـ عياذاً بالله تعالى ـ.

ولعلّ كلمة «محدثات» تُشعر بالشيء الحديث الجديد، ولقد زُيّن للنفوس كلّ جديد.

أما اللذّة في الدين؛ ففي التمسك بالأمر العتيق؛ كما قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: **«اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتم، عليكم بالأمر العتيق»**.

وصحّ عنه ـ رضي الله عنه ـ موقوفاً؛ وهو مرفوع إلى النّبيّ ﷺ حُكماً[1]، أنه قال: **«كيف أنتم إذا لبسَتْكُم فتنة يهرم فيها الكبير، ويربو فيها الصغير، ويتّخذها الناس سنّة، إذا تُرك منها شيء قيل: تُركت السّنّة؟ قالوا: ومتى ذاك؟ قال: إذا ذهبت علماؤكم، وكثُرت قرّاؤكم، وقلّت فقهاؤكم، وكثُرت أمراؤكم، وقلّت أمناؤكم، والتُمست الدنيا بعمل الآخرة، وتُفُقّه لغير الدين»**[2].

ورضي الله عن حذيفة صاحب سرّ رسول الله ﷺ إذ قال: **«كلّ عبادة لم يتعبّدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبّدوها»**.

---

(١) قاله شيخنا ـ رحمه الله كما سيأتي إن شاء الله تعالى ـ.

(٢) أخرجه الدارمي (١/٦٤) بإسنادين، أحدهما صحيح والآخر حسن، والحاكم (٤/٥١٤) وغيرهما، وانظر «قيام رمضان» لشيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ.

ورحم الله التابعي الجليل حسان بن عطية المحاربي إذ قال: **«ما ابتدع قوم بدعة في دينهم؛ إلا نزع الله من سنتهم مِثلها، ثمّ لا يعيدها إليهم إلى يوم القيامة»**(١).

❋ ❋ ❋

ما هو موقفنا من البدع إذا كثُر الاختلاف وعَظُم؟

يجيب على هذا كثير من الدعاة فيقولون: دعْك من ذلك فليس هذا أوانه، بل إنّهم يقولون: الحديث عن البدع يفرّق المسلمين ويشتّتهم.

وأمّا رسول الله ﷺ فقد أوصانا حين نُبتلى بالاختلاف الكثير أن نتجنب البدع بقوله: «**إنّه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً...**» إلى أن قال: «**وإيّاكم ومُحدثات الأمور**».

فهل يسوغ الاجتهاد في موارد النصوص ـ وهم ينهون عنه وينأوْن ـ بادعائهم أنّ الحديث عن البدع يفرّق ويُشتّت المسلمين؟

فلا تنس إذاً ـ يرحمك الله ـ أنّ النبيّ ﷺ جعل اجتناب البدع من أهم الأمور في جامعة الوصايا التي أفاد بها أمّته؛ وحرص على مصلحتهم فيها أشدّ الحرص.

ثم إنّ البدع أشكال وألوان، فهناك بدع في العقيدة والتوحيد والعبادة والسلوك، فعن أيِّ البدعِ نغض الطرف ونُغمض القلوب؟ عن بدع العقيدة؟؟ فصفاء العقيدة لا شكّ أنّه مُقدّم على كلّ أمر، لأننا ما قاتلْنا الكفرة والملاحدة إلاّ لخراب عقيدتهم وخوائها، أم عن بدع العبادات ورسول الله ﷺ يقول: «**وكلّ بدعة ضلالة**»!

أفنجمع الأمّة على الضلالة وقد قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الله قد**

---

(١) أخرجه الدارمي وإسناده صحيح كما قال شيخنا ـ رحمه الله تعالى ـ في «المشكاة» (١٨٨)، وقال: وقد رُوي من قول أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أخرجه أبو العباس الأصمّ في «حديثه».

أجار أمّتي من أن تجتمع على ضلالة»[١].

إنّ عدم امتثال الناس لأوامر الله ـ تعالى ـ يجلب غضبه ـ سبحانه ـ ولو أنّ الجندي عصى قائده قويّ البأس، لفعَل هذا القائد الأفاعيل به، فكيف بنا نعصي الله ـ تعالى ـ ونطلب منه رضاه ورحمته ونصْره!

كيف نقيم على البدع والضلال ونرقب تآلف المسلمين وقوة شوكتهم وربّنا ـ تعالى ـ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٢]؟!.

إنَّ وجود البدع يُذهب السنن النبوية كما تقدّم، فهل بوجود البدع والضلال وغياب السنن النبوية يتفق الناس ؟! إنّ هذا لشيء عُجاب!

❃ ❃ ❃

فإن كُلّ بدعة ضلالة

يبيّن رسول الله ﷺ أنّ المحدثات والبدع طريق الضلال، وهي من ويلات ترْك السنّة التي وصّى بها ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما هو شأن بني إسرائيل حين هلكوا فقد أخلدوا إلى القصص، وتركوا العمل بدينهم، كما في الحديث: «**إنّ بني إسرائيل لما هَلكوا قصُّوا**[٣]»[٤].

---

(١) حسن بمجموع طُرقه، أخرجه ابن أبي عاصم في «السّنة» من طُرق (٨٢، ٨٣، ٨٤) بتحقيق شيخنا ـ رحمه الله ـ والترمذي وغيرهما، وانظر «الصحيحة» (١٣٣١)، و«الضعيفة» في التعليق على حديث (١٥١٠).

(٢) الرعد: ١١.

(٣) جاء في «النهاية»: «أي: اتّكلوا على القول وتركوا العمل فكان ذلك سبب هلاكهم، أو بالعكس، لما هلكوا بترك العمل؛ أخلدوا إلى القصص».
وقال شيخنا ـ رحمه الله تعالى ـ: «وأقول: ومن الممكن أن يُقال: إنّ سبب هلاكهم، اهتمام وُعّاظهم بالقصص والحكايات دون الفقه والعلم النافع الذي يُعرِّف الناس بدينهم؛ فيحملهم ذلك على العمل الصالح، لما فعلوا ذلك هلكوا، وهذا هو شأن كثير من قصّاص زماننا؛ الذين جلّ كلامهم في وعْظهم حول الإسرائيليات والرقائق والصّوفيات ـ نسأل الله العافية ـ».

(٤) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» وأبو نعيم في «الحلية» وغيرهما، وهو في «الصحيحة» (١٦٨١).

الردّ على من يُقسّم البدعة إلى حسنة وسيئة

قالوا: هناك بدعة حسنة وبدعة سيئة(١).

---

(١) قد يقول قائل: لقد قال عمر ـ رضي الله عنه ـ من قبل: «نعمت البدعة هذه».
كما في حديث عبدالرحمن بن عبدٍ القاريٌ قال: «خرجتُ مع عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ليلةً في رمضان إلى المسجد، فإذا الناس أوزاع [أي: متفرٌقون»] متفرٌقون يصلّي الرجل لنفسه، ويصلّي الرجل فيصلّي بصلاته الرَّهط [الرهط: ما دون العشرة من الرّجال؛ لا يكون فيهم امرأة» «مختار الصحاح] فقال عمر: إنّي أرى لو جمعْتُ هؤلاء على قارىءٍ واحد لكان أمثل، ثمّ عزم فجمَعَهم على أُبيٍّ بن كعب، ثمّ خرجتُ معه ليلة أخرى والناس يُصلّون بصلاة قارئهم، قال عمر: نعْمَ البدعةُ هذه، والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون ـ يريد آخر الليل ـ وكان الناس يقومون أوّله أخرجه البخاري: ٢٠١٠.
فأقول: إنّما قصَد عمر ـ رضي الله عنه ـ بالبدعة المعنى اللغويّ منها، وهو الأمر الحديث الجديد، الذي لم يكن على هذا الوجه قبل هذا الوقت معروفاً.
قال في «جامع العلوم والحكم» ـ بشيء من الحذف ـ: «وأمّا ما وقَع في كلام السّلف من استحسان بعض البدع؛ فإنّما ذلك في البدع اللّغويّة، لا الشرعية، فمن ذلك قول عمر ـ رضي الله عنه ـ لـمّا جمَع الناس في قيام رمضان على إمامٍ واحد في المسجد، وخرج ورآهم يُصلّون كذلك فقال: نعمت البدعة هذه.
ومراده أنّ هذا الفعل لم يكن على هذا الوجه قبل هذا الوقت، ولكن له أصولٌ من الشريعة يُرجع إليها، فمنها أنّ النبيّ ﷺ كان يحثُّ على قيام رمضان ويُرغّب فيه، وكان الناس في زمنه يقومون في المسجد جماعات متفرّقة ووحداناً، وهو ﷺ صلّى بأصحابه في رمضان غير ليلة، ثمّ امتنع من ذلك، مُعلّلاً بأنه خشي أن يُكتب عليهم فيعجزوا عن القيام به، وهذا قد أُمن بعده ﷺ.
ومنها أنه ﷺ أمر باتباع سنّة خلفائه الراشدين، وهذا قد صار من سنّة خلفائه الراشدين، فإنّ الناس اجتمعوا عليه في زمن عمر وعثمان وعليّ».
وقال شيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ في «صلاة التراويح» (ص٤٣): «وقول عمر: «نعمت البدعة هذه» لم يقصد به البدعة بمعناها الشرعي الذي هو إحداث شيء في الدين على غير مثال سابق، لما علمت أنّه ـ رضي الله عنه ـ لم يُحدِث شيئاً، بل أحيا أكثر من سُنّة نبوية كريمة، وإنما قصد البدعة بمعنى من معانيها اللغوية؛ وهو الأمر الحديث الجديد الذي لم يكن معروفاً قبيل إيجاده، ومما لا شكّ فيه أنّ صلاة التراويح جماعة وراء إمام واحد؛ لم يكن معهوداً ولا معمولاً زمن خلافة أبي بكر وشطراً من خلافة عمر، فهي بهذا الاعتبار حادثة، ولكن بالنظر إلى أنها موافقة لما=

فأقول: قولوا ـ إن شئتم ـ بدعة حسنة وبدعة قبيحة، ولكن لا تنسوا أنّ الرسول ﷺ قال: «**فإنّ كل بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النّار**».

لأنّ كلّ الأسماء التي سمّيتموها تدخل في كلمة «كلّ» التي ذكَرها رسول الله ﷺ.

= فعله ﷺ، فهي سُنّة وليست بدعة، وما وصفَها بالحُسن إلا لذلك، وعلى هذا المعنى جرى العلماء المحقّقون في تفسير قول عمر هذا، فقال السبكي ـ عبد الوهّاب ـ في «إشراق المصابيح وفي صلاة التروايح» (١٦٨/١) من «الفتاوى»: «قال ابن عبد البر: لم يسنّ عمر من ذلك إلا ما سنّه رسول الله ﷺ ويحبّه ويرضاه، ولم يمنع من المواظبة إلا خشية أن تفرض على أمّته، وكان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً ﷺ، فلمّا علم عمر ذلك من رسول الله ﷺ وعلم أنّ الفرائض لا يُزاد فيها ولا يُنقص منها بعد موته ﷺ؛ أقامها للناس وأحياها وأمَر بها وذلك سَنَةَ أربع عشرة من الهجرة، وذلك شيء ذخَره الله له وفضّله به، ولم يُلهمه أبا بكر، وإن كان أفضل وأشدّ سبقاً إلى كل خير بالجملة، ولكل واحد منهما فضائل بها ليست لصاحبه»، قال السبكي: «ولو لم تكن مطلوبة لكانت بدعة مذمومة كما في «الرغائب» ليلة نصف شعبان، وأوّل جمعة من رجب، فكان يجب إنكارها، وبطلانه (يعني بطلان إنكار جماعة التراويح) معلوم من الدين بالضرورة».

وقال العلامة ابن حجر الهيتمي في فتواه ما نصه: «إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب، وقتال الترك لما كان مفعولاً بأمره ﷺ لم يكن بدعة، وإن لم يُفعل في عهده، وقول عمر ـ رضي الله عنه ـ في صلاة التراويح: «نعمت البدعة هي» أراد البدعة اللغوية، وهو ما فُعِل على غير مثال، كما قال تعالى: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، وليست بدعة شرعية، فإنّ البدعة الشرعيّة ضلالة كما قال ﷺ، ومن قسّمَها من العلماء إلى حَسَن وغير حسَن، فإنما قسّم البدعة اللّغويّة، ومن قال كلّ بدعة ضلالة فمعناه البدعة الشرعيّة، ألا ترى أنّ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ والتابعين لهم بإحسان؛ أنكروا الأذان لغير الصلوات الخمس كالعيدين، وإن لم يكن فيه نهي؟! وكرهوا استلام الركنين الشاميّين والصلاة عقب السعي بين الصفا والمروة قياساً على الطواف؟! وكذا ما تركه ﷺ مع قيام المقتضي فيكون تركه سنّة، وفعِله بدعة مذمومة، وخرج بقولنا مع قيام المقتضي في حياته إخراج اليهود وجمْع المصحف، وما تركه لوجود المانع كالاجتماع للتراويح، فإن المقتضي التام يدخل فيه عدم المانع».

قال شيخنا ـ رحمه الله تعالى ـ في شرح العبارة الأخيرة: «يعني أنّ مفهوم «المقتضي التامّ» يتضمّن عدم وجود المانع، مثاله صلاة التراويح جماعة، فإنّ المقتضي لها كان قائماً، ولكنّ المانع كان موجوداً، وهو خشية الافتراض، فلم يكن المقتضي تامّاً».

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: كلّ بدعة ضلالة وإن رآها النّاس حسنة[١].

أمّا من يقول: ليس هذا أوان النهي عن البدع، والأولى محاربة المذاهب الفكرية المنحرفة عن الدين! فإنه على غير الصواب لعدة أمور:

١ ـ إنّ عدم اجتناب الناس البدع يؤدي إلى تضخم البدع وكثرتها وتفاقمها، ونزْع السنن وغيابها.

وهذا يؤدّي إلى انتشار الضلال انتشاراً خطيراً لأنّ كلّ بدعة ضلالة.

٢ ـ إنّ تغيير المنكر يجب على المسلم حسب الاستطاعة وعلى مراتب متفاوتة، فمن رأى البدعة ماثلة بين عينيه، وجب عليه أن ينهى عنها، ولا يعفيه من ذلك وجود الإلحاد والشيوعية والماسونيّة وسائر العقائد المنحرفة. وكذلك وجود المذاهب الفاسدة لا يعفي أهل العلم وطلّابه والدّعاة إلى الله، من أن يُذكّروا الناس بتحريم عقوق الوالدين والكذب والربا، وسائر المحرّمات.

٣ ـ إنّ عدم التفقّه بالدين وما دخل عليه من بدع؛ سبب لجلب المذاهب الهدّامة، فمجتمع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أبعد الناس عن البدع وأنقى المجتمعات وأنظفها من هذه المستنقعات الآسنة، ولم يكونوا يومئذٍ مبتلين بهذه الآفات[٢].

٤ ـ ثمّ هَبْ أننا عرفنا مداخل ومخارج المذاهب الزائفة والفِرق الضالّة، فما المطلوب منا؟

أليس بيان ضلالهم يحتاج إلى علم وفِقه وهدى؟

أوليس ينبغي أيضاً أن يكون هذا العلم صحيحاً مُصفّى ممحّصاً؟ ألا

---

(١) صحيح الإسناد كما في «إصلاح المساجد» (ص١٣) لشيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ.

(٢) ولكن كان في عصرهم ـ كما هو في كل عصر ـ الإلحاد والشرك والكفر والفسوق والعصيان، وأيّدهم الله بنصر من عنده، بالسيف والسّنان والحجّة والبرهان.

نخشى أن يَرُدّ عليهم رادّ بغير عِلم فيضِلّ ويُضلّ؟!

وهل تُجزىء العواطف ويكفي الحماس للردّ على هؤلاء الضالّين؟!

فالمتفقّه في الدين، أقوى الناس على بيان زيف الفِرق الضالة وانحرافاتهم، وجمْع المسلمين على ما صحّ من عقيدة وفقه وسلوك.

***

خطَر البدعة

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قال ﷺ: «**من أحدَث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ**»(١).

وفي رواية لمسلم(٢): «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ**».

فإرادة التقرّب إلى الله ـ تعالى ـ بغير الكتاب والسّنّة ونهْج السّلَف الصالح خطر عظيم.

وهو أيضاً تجرُّؤ وتعدٍّ لحدود الله ـ تعالى ـ.

إنّه لمن السهل على من يختلس درهماً أن يسرق الآف آلاف الدراهم، فإنّ في السرقة تعدّياً لحدود الله، وكذلك شأن المبتدع تهون عليه كبار البدع ـ وربما الشرك بالله ـ إذ مبدأ التنكّب عن السّنّة الصحيحة والرّضا بالبدعة؛ سبيل إلى قَبول كل ضلال وزيغ. كما وقع الشرك في قوم نوح، من اتخاذ أصنام لبعض الرجال الصالحين بعد موتهم، وزيّن لهم الشيطان ذلك ليذكُروهم ويقتدوا بأعمالهم الطيبة، ثمّ أوحى لمن بعدهم أن يعبدوهم من دون الله ـ سبحانه ـ موهماً إياهم أن آباءهم كانوا يفعلون ذلك من قبل.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «**صارت الأوثان التي كانت**

---

(١) أخرجه البخاري: ٢٦٩٧، ومسلم: ١٧١٨.

(٢) برقم: ١٧١٨.

في قوم نوح في العرب بعد: أمّا ودٌّ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأمّا سواع فكانت لهذيل، وأمّا يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأمّا يعوق فكانت لهمدان» وأمّا نسرٌ فكانت لحمير، لآل ذي الكلاع؛ أسماء رجال صالحين من قوم نوح. فلمّا هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصِبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسمّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسّخ العلم عُبِدت»[(١)].

وهكذا استدرج الشيطان هؤلاء من باب البدعة، مُلهباً فيهم حماس العبادة والإخلاص للأولياء والصالحين، حتى أنزلهم منازل الشرك والكفران.

ولكنّ القوم لو تدبّروا أمرهم، ومنعوا أنفسهم من اقتراف أمرٍ سوّلته له نفوسهم ـ دون أثارة من علم أو أمارة من هدى ـ لما أرْدَوْا أنفسهم مواطن الكُفران وأحلّوها أماكن الخُسران.

ومِثل هذا ما وقع لأولئك القوم الذين جلسوا في المسجد حلقاً ينتظرون الصلاة، في كل حلْقة رجل، وفي أيديهم حصى فيقول: كبِّروا مائة، فيكبّرون مائة، وهكذا يفعلون تهليلاً وتسبيحاً، فأنكرَ عليهم عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ إنكاراً شديداً.

وهذا ما ثبت عن الحكم بن المبارك عن عمر بن يحيى قال: سمعت أبي يحدِّث عن أبيه قال: كنّا نجلس على باب عبدالله بن مسعود قبل صلاة الغداة، فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد.

فجاءنا أبو موسى الأشعري فقال: أخرَج إليكم أبو عبدالرحمن بعد؟ قلنا: لا» فجلس معنا حتى خرج.

فلمّا خرج قمنا إليه جميعاً، فقال له أبو موسى: يا أبا عبدالرحمن!

---

(١) أخرجه البخاري: ٤٩٢٠، وذكر الحافظ ـ رحمه الله ـ انقطاعه بيْد أنّ الحديث صحيح لغيره؛ لأنّ له طريقاً أُخرى عن ابن عباس وشاهداً عن تلميذه عكرمة في «تفسير الطبري» أخبرني بذلك شيخنا ـ رحمه الله ـ وأودع هذه الفائدة في التحقيق الثاني من كتاب «تحذير الساجد في اتخاذ القبور مساجد».

إني رأيت في المسجد آنفاً أمراً أنكرتُه، ولم أرَ والحمد لله إلا خيراً.

قال: فما هو؟ فقال: إن عشتَ فستراه. قال: رأيت في المسجد قوماً حلقاً جلوساً ينتظرون الصلاة، في كلّ حلقة رجل، وفي أيديهم حصى، فيقول: كبّروا مائة، فيكبّرون مائة، فيقول: هلّلوا مائة، فيهلّلون مائة، ويقول: سبّحوا مائة، فيسبّحون مائة.

قال: فماذا قلت لهم؟

قال: ما قلتُ لهم شيئاً انتظار رأيك، أو انتظار أمرك.

قال: أفلا أمرتهم أن يعدّوا سيئاتهم، وضمِنْت لهم أن لا يضيع من حسناتهم؟!

ثم مضى ومضينا معه، حتى أتى حلقة من تلك الحلق، فوقف عليهم، فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟

قالوا: يا أبا عبدالرحمن حصى نعدّ به التكبير والتهليل والتسبيح.

قال: فعدّوا سيئاتكم، فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء. ويْحَكم يا أمة محمّد ما أسرع هلكتكم! هؤلاء صحابة نبيّكم ﷺ متوافرون، وهذه ثيابه لم تَبْلَ، وآنيته لم تُكسر؛ والذي نفسي بيده؛ إنكم لعلى ملّة هي أهدى من ملّة محمّد، أو مفتتحو باب ضلالة.

قالوا: والله يا أبا عبدالرحمن ما أردْنا إلا الخير!

قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه! إنّ رسول الله ﷺ حدّثنا أنّ قوماً يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيَهم. وايم الله ما أدري لعلّ أكثرهم منكم! ثمّ تولّى عنهم.

فقال عمرو بن سلمة: رأينا عامّة أولئك الحلق يطاعنونا يوم النهروان مع الخوارج[١].

---

(١) أخرجه الدارمي (٦٨/١)، وإسناده صحيح، رجاله كلّهم ثقات، وانظر: «الردّ على التعقّب الحثيث» (ص٤٧) لشيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ.

وهكذا لمّا ذكَر القوم ربّهم بغير هُدى أو نور من الكتاب أو السّنة؛ كانت عاقبة أمرهم أن يطاعنوا المسلمين ويقاتلوهم يوم النّهروان مع الخوارج.

وهكذا خرج أولئك عن سبيل المؤمنين، ابتداءً من التسبيح والتهليل والتكبير وهم لا يريدون إلا الخير ـ بزعمهم ـ وكذلك ما أرادوا إلا الخير في قتال المسلمين يوم النهروان!

فأيّ خير هذا الذي أبلغهم أن يطاعنوا المسلمين ويسفكوا دماءهم؟!

* * *

اقتصار النّبيّ ﷺ في وصيته في المناهي على اجتناب البدعة فقط

لو تأمّلت النصّ ـ يرحمك الله ـ لوجدت أنّ الأوامر أكثر من النواهي، لأنّ من اعتصم بالسّنّة استغنى عن تفصيلات الضلال.

أمّا الأوامر فهي:

١ ـ تقوى الله.

٢ ـ السمع والطاعة.

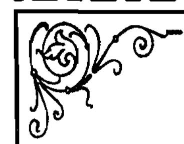
٣ ـ التمسك بسنّة النّبيّ ﷺ وسنّة الخلفاء الراشدين.

وأمّا ما يتعلق بالنهي؛ فأمر واحد وهو: «**إيّاكم ومحدثات الأمور**».

وكأنّ المعنى: اجتنب البدعة والمحدثة؛ تنْجُ وتفُزْ، فالبدعة هي سرّ الضلال والزيغ والخُسران» ومجلبةٌ للشرك والكُفران، فمن أغلق بابها فقد اهتدى بإذن الله، ومن فتَح بابها، فقد فَتَح عليه أبواب الضلال، وحُرِم التوبة، كما في الحديث: «**إنّ الله احتجزَ التوبة عن صاحب كلّ بدعة**»[1].

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في «تاريخ أصبهان»، والطبراني في «الأوسط» وغيرهما، وانظر «الصحيحة» (١٦٢٠).




الخاتمة

وأخيراً أقول:

... حقاً إنّ وصيته ﷺ كموعظته؛ وَجِلت منها القلوب وذرفت منها العيون،... وجِلت منها القلوب الحيّة، وذَرفت منها العيون المخلصة.

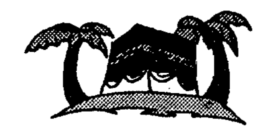
وجِلت القلوب لهوانٍ نحياه بعد عزٍّ سمعنا به.

ذرفت العيون للضياع والشتات والتفرّق والاختلاف بعد أن كان السؤدد والمجد والنصر.

جاءت وصيّة المودّع ﷺ تُنِقذنا مما نحن فيه من بلاء وكرب وضياع وتفرّق.

وتضمّنت الوصية الأمر بتقوى الله ـ عزّ وجلّ ـ والإخلاص له ـ سبحانه ـ ومحاربة الهوى، والتمّسك بسنّة النّبيّ ﷺ والخلفاء الراشدين ـ رضي الله عنهم ـ وفهم الكتاب والسنّة على نهج الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ واجتناب المحدثات والبدع.

فاستمسك بهذا وعضّ عليه بالنواجذ ـ يرحمك الله ـ ـ تكن من الناجين الفائزين بإذن الله ـ تعالى ـ.



فقه الدعوة وتزكية النفس

(٨)

الدعاء

بقلم
حسين بن عودة العوايشة






فضل الدّعاء

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(١).

وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(٢).

وقال ﷺ: «الدعاء هو العبادة»(٣).

وقال ﷺ: «إنّ الله حييّ كريم، يستحيي إذا رفع الرجل إليه يديه؛ أن يردّهما صفراً(٤) خائبتين»(٥).

***

آداب الدعاء

١ ـ الجزم فيه واليقين على الله بالإجابة:

لقوله ﷺ: «لا يَقُلْ أحدكم: اللّهم اغفر لي إنْ شئت، ارحمني إن

---

(١) غافر: ٦٠.

(٢) البقرة: ١٨٦.

(٣) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» وأبو داود والترمذي وغيرهم، وانظر «أحكام الجنائز» (ص١٩٤).

(٤) الصفر: الفارغ.

(٥) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٨١٩).

شئت، ارزقني إن شئت، وليغزِم مسألته ـ إنّه يفعل ما يشاء، لا مُكْرِه له»[(١)].

وقال ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أنّ الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاهٍ»[(٢)].

٢ ـ الإلحاح فيه:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ قال: «لا يزال يُستجاب للعبد ما لم يدْعُ بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجّل»، قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟

قال: «يقول: قد دعوت وقد دعوتُ، فلم أر يستجيب لي، فيستحسر عند ذلك ويدَع الدعاء»[(٣)].

٣ ـ الدعاء في كل الأحوال:

لقول رسول الله ﷺ: «من سرّه أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب، فليكْثر الدّعاء في الرّخاء»[(٤)].

٤ ـ عدم الدعاء على الأهل والمال:

عن جابر مرفوعاً: «لا تدْعوا على أنفسكم، ولا تدْعوا على أولادكم، ولا تدْعوا على أموالكم لا توافقوا من الله ساعة يُسأل فيها عطاء فيستجيب لكم»[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري: ٧٤٧٧.
(٢) أخرجه الترمذي والحاكم وغيرهما، وهو حسن بشواهده، وانظر «الصحيحة» (٥٩٤).
(٣) أخرجه مسلم: ٢٧٣٥.
(٤) أخرجه الترمذي والحاكم وصححه، وانظر تفصيله في «الصحيحة» (٥٩٣).
(٥) أخرجه مسلم: ٣٠٠٩.

٥ ـ أن لا يسأل غير الله:

فقد قال ﷺ لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «**يا غلام: إنّي أعلّمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنْت فاستعن بالله، واعلم أنّ الأمّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء؛ لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفّت الصُّحف**»(١).

٦ ـ أن يجعل الداعي صوته بين المخافتة والجهر:

قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾(٢).

عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم**»(٣).

٧ ـ أن يسأل الله ـ تعالى ـ بأسمائه الحسنى:

قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾(٤).

وقد صحّ عن النّبيّ ﷺ أنه سمِع رجلاً يقول في تشهده: «**اللّهمّ إنّي أسألك يا الله (وفي رواية: بالله) [الواحد] الأحد الصمد الذي لم يلِد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد؛ أن تغفر لي ذنوبي إنك أنت الغفور الرحيم**» فقال ﷺ: «**قد غُفر له، قد غُفر له**»(٥).

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: «حسن صحيح، وهو صحيح لغيره»، وانظر كتاب «السّنّة» لابن أبي عاصم (٣١٦ ـ ٣١٨).

(٢) الأعراف: ٥٥.

(٣) أخرجه البخاري: ٤٢٠٥، ومسلم: ٢٧٠٤.

(٤) الأعراف: ١٨٠.

(٥) أخرجه أبو داود والنسائي وأحمد وابن خزيمة وصحّحه الحاكم ووافقه الذهبي، وخرّجه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صفة صلاة النّبيّ ﷺ» (ص١٨٦).

وسمِع ﷺ آخر يقول في تشهده: **اللَّهم إني أسألك بأنّ لك الحمد، لا إله إلا أنت [وحدك لا شريك لك] [المنان]، [يا] بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيّ يا قيّوم [إني أسألك] [الجنة وأعوذ بك من النار]**، [فقال النّبيّ ﷺ لأصحابه: **«تدرون بما دعا؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: **«والذي نفسي بيده] لقد دعا الله باسمه العظيم** (وفي رواية: **الأعظم) الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئل به أعطى»**[(١)].

وقال ﷺ: **«دعوة ذي النّون إذ دعا بها وهو في بطن الحوت، (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)، لم يدْعُ بها رجل مسلم في شيء قطّ إلا استجاب الله له»**[(٢)].

٨ ـ الاعتراف بالذنب:

عن شدّاد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ قال: **«سيّد الاستغفار أن تقول: اللّهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرّ ما صنعت، أبوء[(٣)] لك بنعمتك عليّ، وأبوء لك بذنبي، اغفر لي فإنّه لا يغفر الذّنوب إلا أنت.**

من قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي؛ فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح؛ فهو من أهل الجنّة»[(٤)].

٩ ـ عدم تكلّف السّجع في الدّعاء:

عن عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: **«حدّث النّاس كلّ**

---

(١) أخرجه أبو داود والنسائي وأحمد والبخاري في «الأدب المفرد» وغيرهم، وانظر «صفة صلاة النبيّ ﷺ» (ص١٨٦).

(٢) أخرجه أحمد والترمذي وغيرهما، وانظر «الكَلِم الطيب» (١٢٢).

(٣) أبوء: اعترف.

(٤) أخرجه البخاري: ٦٣٠٦.

جُمُعة مرّة، فإنْ أبيتَ فمرّتين، فإن أكثرت فثلاث مرّات، ولا تُمِلَّ الناس هذا القرآن، ولا أُلفينَّك[١] تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم، فتقصُّ عليهم فتقطعُ عليهم حديثهم فتملُّهم، ولكن أنصت، فإذا أمَروك فحدِّثهم وهم يشتهونه، فانظر السجع من الدعاء فاجتنِبْه، فإني عَهِدْت رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون إلا ذلك؛ يعني لا يفعلون إلا ذلك الاجتناب»[٢].

١٠ ـ التضرّع والخشوع والرّغبة والرّهبة:

لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾[٣]. وقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[٤].

١١ ـ التّوبة ورد المظالم:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنّ رسول الله ﷺ قال في الرجل يمدّ يديه إلى السماء يقول: «**يا ربّ يا ربّ ومطعمه حرام وملبسه حرام ومشربه حرام وغُذِي بالحرام، فأنّى يُستجاب لذلك**»[٥].

١٢ ـ الدعاء بصالح الأعمال:

وقد ورد هذا في حديث الثلاثة الذين دخلوا الغار، فانطبقت عليهم الصخرة، فتوسّلوا إلى الله بأخلص أعمالهم، فاستجاب الله دعاءهم[٦].

١٣ ـ الدعاء ثلاثاً لثبوته عن النّبيّ ﷺ:

عن عبدالله بن مسعود قال: «بينما رسول الله ﷺ قائم يُصلّي عند

---

(١) أي: أجِدُك.
(٢) أخرجه البخاري: ٦٣٣٧.
(٣) الأعراف: ٢٠٥.
(٤) الأنبياء: ٩٠.
(٥) أخرجه مسلم: ١٠١٥.
(٦) انظر القصة بتمامها ـ إن شئت ـ في «صحيح البخاري»: ٢٢١٥، و«صحيح مسلم»: ٢٧٤٣.

الكعبة وجمْع قريش في مجالسهم، إذ قال قائل منهم ألا تنظرون إلى هذا المرائي أيكم يقوم إلى جزور[١] آل فلان فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها[٢] فيجيء به، ثمّ يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه؛ فانبعث أشقاهم، فلما سجد رسول الله ﷺ وضَعَه بين كتِفَيه وثبت النّبيّ ﷺ ساجداً، فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك، فانطلق مُنطلقٌ إلى فاطمة ـ وهي جُويرية ـ فأقبلت تسعى، وثبت النّبيّ ﷺ ساجداً حتى ألقَتْه عنه، وأقبلت عليهم تسبّهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال: «**اللّهم عليك بقريش، اللّهم عليك بقريش، اللّهم عليك بقريش..**» [وفي رواية: «**وكان إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذا سأل سأل ثلاثاً**] **اللّهم عليك بعمرو بن هشام وعُتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عُتبة وأميّة بن خلف وعقبة بن أبي معيط وعمارة بن الوليد**».

قال عبدالله: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر ثمّ سُحِبوا إلى القَلِيب ـ قليب بدر، ثمّ قال رسول الله ﷺ: «**وأُتبع أصحاب القَلِيب لعنة**»[٣].

١٤ ـ الصلاة على النّبيّ ﷺ:

قال ﷺ: «**كلّ دعاء محجوب حتى يُصلّى على النّبيّ ﷺ**»[٤].

١٥ ـ استقبال القبلة:

عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «**استقبل النّبيّ ﷺ الكعبة، فدعا على نفر من قريش...**»[٥].

---

(١) الجزور من الإبل: ما يُجزر، أي: يقطع.

(٢) السّلي: هي الجلدة التي يكون فيها الولد، يقال لها: ذلك من البهائم، وأما من الآدميات فالمشيمة.

(٣) أخرجه البخاري: ٥٢٠، ومسلم: ١٧٩٤، وما بين معقوفين من إفراد مسلم.

(٤) حسن لطرقه وشواهده، وانظر «الصحيحة» (٢٠٣٥).

(٥) أخرجه البخاري: ٣٩٦٠، ومسلم: ١٧٩٤.

وقد ذهب هذا المذهب الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ وغيره، ووافقه ابن تيمية في كتاب «الاقتضاء» (ص١٧٥ ـ ١٨١) ـ في معرض إنكاره على كثير من البدع المنكرة التي تُرتكب عند قبر النبيّ ﷺ ـ فقال: (وقد ذَكَرْنا عن أحمد وغيره أنه أمرَ من سلّم على النبيّ ﷺ وصاحبيه، ثمّ أراد أن يدعو أن ينصرف فيستقبل القِبلة).

ووافقه شيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه «أحكام الجنائز» (ص٢٢١ ـ ٢٢٢).

وقال البخاري في «صحيحه»: «**باب الدعاء مستقبل القبلة**» وأورد حديث عبدالله بن زيد في الاستسقاء.

١٦ ـ رفْع اليدين:

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: رفعَ النّبيّ ﷺ يديه فقال: «**اللّهم إنّي أبرأ إليك مما صنَعَ خالد**»[1] مرتين.

وعن أبي موسى: «**ثمّ رفعَ يديه فقال: اللّهم اغفِر لعُبيد أبي عامر، ورأيتُ بياض إبطيه**»[2].

قال الحافظ في «الفتح» (١١/١٤٢): «**... فإنّ فيه أحاديث كثيرة أفردها المنذريّ في جزء، سرَد منها النّووي في (الأذكار) وفي شرح «المهذّب»** جُمْلة، وعَقَد لها البخاري أيضاً في «الأدب المفرد» باباً».

١٧ ـ الوضوء قبله[3]:

عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: «**لما فَرَغَ النّبيّ ﷺ من حُنين**

---

(١) أخرجه البخاري: ٤٣٣٩.

(٢) أخرجه البخاري: ٤٣٢٣.

(٣) استحباباً لا وجوباً. ففي «صحيح مسلم» (٣٧٣) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «كان النّبيّ ﷺ يذكر الله على كلّ أحيانه» وعلقه البخاري في كتاب «الحيض» (باب ـ ٧) و«الأذان» (باب ـ ١٩)، فالدعاء ـ وهذه الحال ـ جائز للجنب، فضلاً عمن لم يكن متوضّئاً.

بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس، فلقي دُريد بن الصِّمّة، فقُتل دُريد، وهزم الله أصحابه، قال أبو موسى: وبعثني مع أبي عامر، فرُمي أبو عامر في ركبته، رَماه جُشَمِيٌّ بسهم فأثبته في رُكبته، فانتهيت إليه، فقُلت: يا عمّ من رماكَ؟ فأشار إلى أبي موسى فقال: ذاك قاتلي الذي رماني، فقصدت له، فلحقتُه، فلما رآني ولّى، فاتّبعته وجعَلْتُ أقول له: ألا تستحي؟ ألا تثبت؟ فكفّ، فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته، ثمّ قلت لأبي عامر: قَتَلَ الله صاحبك. قال: فانزع هذا السّهم، فنزعته فنزا منه الماء.

قال: يا ابن أخي أقْرِىء النّبيّ ﷺ السّلام، وقل له: استغفر لي، واستخلَفني أبو عامر على الناس، فمكث يسيراً ثمّ مات، فرجعت، فدخلت على النّبيّ ﷺ في بيته على سرير مُرمَل[1]، وعليه فراش قد أثّر رمال السرير بظهره وجَنبيه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر، وقال: قُلْ له: استغفر لي، فدعا بماء، فتوضأ ثمّ رفع يديه وقال: **«اللّهم اغفر لعُبيد أبي عامر، ورأيت بياض إبطيه، ثمّ قال: اللّهم اجعَلْه يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس، فقلت: ولي فاستغفر، فقال: اللّهم اغفر لعبدالله بن قيس ذنبه وأدخِله يوم القيامة مُدخلاً كريماً»**[2].

قال الحافظ في «الفتح» (٨/٤٣): **«يستفاد منه استحباب التّطهير لإرادة الدّعاء».**

١٨ ـ البكاء فيه:

عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ أن النّبيّ ﷺ تلا قول الله ـ عزّ وجلّ ـ في إبراهيم ﷺ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ﴾[3]، وقال عيسى ﷺ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١١٨﴾[4]، فرفع يديه وقال: **«اللّهمّ أمّتي أمّتي»** وبكى

---

(١) أي: معمول بالرّمال، وهي حبال الحصر التي تُضفر بها الأسرة. «فتح».

(٢) أخرجه البخاري: ٤٣٢٣، وهذا لفظه، ومسلم: ٢٤٩٨.

(٣) إبراهيم: ٣٦.

(٤) المائدة: ١١٨.

فقال الله ـ عزّ وجلّ ـ: «يا جبريل اذهب إلى محمّد، وربك أعلم فسَلْه ما يُبكيه؟».

فأتاه جبريل فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم، فقال الله ـ تعالى ـ: «يا جبريل اذهب إلى محمّد فقُل: إنا سنرضيك في أُمتك ولا نسوؤك»[1].

١٩ ـ إظهار الافتقار إلى الله ـ تعالى ـ والشكوى إليه من الضّعف والضيق والبلاء:

قال الله ـ تعالى ـ في حق أيوب ـ عليه السلام ـ: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾[2].

وأمّا دعاء زكريا ﷺ فقد وضّحه لنا القرآن الكريم في سورة الأنبياء، قال ـ سبحانه ـ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[3].

ودعا إبراهيم ﷺ ربه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[4].

٢٠ ـ اغتنام الأوقات ومختلف الأحوال والأوضاع التي يستجاب فيها للدّاعي.

* * *

(١) أخرجه مسلم: ٢٠٢.
(٢) الأنبياء: ٨٣.
(٣) الأنبياء: ٨٩.
(٤) إبراهيم: ٣٧.

ساعات وأحوال وأوضاع يستجاب فيها للعبد

١ ـ ليلة القدر: قال ـ سبحانه ـ في شأنها: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾[١].

وقد قال النبيّ ﷺ لعائشة ـ رضي الله عنها ـ لما سألته ماذا تقول إذا علِمَت أيّ ليلة ليلة القدر؟ قولي: «**اللّهم إنك عفوٌ تُحبُ العفو، فاعفُ عنّي**»[٢].

٢ ـ في جوف الليل ودبر الصلوات المكتوبة: عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قيل يا رسول الله ﷺ: أي الدعاء أسمع؟ قال: «**جوف الليل الآخر ودبر الصلوات المكتوبات**»[٣].

وقال ﷺ: «**ينزل الله ـ تعالى ـ إلى السّماء الدّنيا كلّ ليلة حين يمضي ثُلُث الليل الأوّل، فيقول: أنا الملِك، أنا المَلِك، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيَه؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفرَ له؟ فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر**»[٤].

وفي رواية: «**ينزل ربنا كلّ ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثُلُث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ ومن يسألني فأعطيه؟ ومن يستغفرني فأغفر له؟**»[٥].

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**تُفتح أبواب السماء نصف الليل،**

---

(١) سورة القَدْر.

(٢) أخرجه أحمد وابن ماجه والترمذي، وصحّحه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «المشكاة» (٢٠٩١).

(٣) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٨٢)، وصححه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٤٨).

(٤) أخرجه مسلم: ٧٥٨.

(٥) أخرجه البخاري: ٦٣٢١، ومسلم: ٧٥٨.

فينادي منادٍ: هل من داعٍ فيُستجاب له؟ هل من سائل فيُعطى؟ هل من مكروب فيُفرج عنه؟ فلا يبقى مسلم يدعو بدعوة إلا استجاب الله ـ عزّ وجلّ ـ له، إلا زانيةً تسعى بفرجها، أو عشّاراً[1]»[2].

٣ ـ بين الأذان والإقامة: لقوله ﷺ: «**الدّعاء لا يُردّ بين الأذان والإقامة فادعوا**»[3].

٤ ـ عند النداء للصلوات المكتوبة بقوله ﷺ: «**ثنتان لا تُردّان ـ أو قلّما تُردّان ـ الدعاء عند النداء، وعند البأس حين يُلحِم[4] بعضهم بعضاً**»[5].

٥ ـ عند زحف الصفوف في سبيل الله: للحديث السابق.

٦ ـ آخر ساعة من ساعات العصر يوم الجمعة: لقوله ﷺ: «**يوم الجمعة اثنتا عشرة ساعة، منها ساعة لا يوجد عبد مسلم يسأل الله فيها شيئاً إلا آتاه الله إياه، فالتمسوها آخر ساعة بعد العصر**»[6].

٧ ـ ساعة في الليل: لقوله ﷺ: «**إنّ في الليل لساعة، لا يوافقها رجل مسلم، يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة، إلا أعطاه إيّاه، وذلك كلَّ ليلة**»[7].

٨ ـ عند شرب ماء زمزم: لقوله ﷺ: «**ماء زمزم لما شُرب له**»[8].

---

(١) العشّار: هو الذي يأخذ على السّلع مكساً.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط»، وانظر «الصحيحة» (١٠٧٣).

(٣) أخرجه أحمد والترمذي وغيرهما، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الإرواء» (٢٤٤).

(٤) أي: يشتبك الحرب بينهم.

(٥) أخرجه أبو داود، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ: وهو حديث حسن صحيح، وانظر «الكلم الطيب» (٧٥).

(٦) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٩٢٦) والنسائي «صحيح سنن النسائي» (١٣١٦) وغيرهما.

(٧) أخرجه مسلم: ٧٥٧.

(٨) أخرجه أحمد وابن ماجه، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الإرواء» (١١٢٣).

٩ ـ عند قولك في دعاء الاستفتاح: «**الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بُكرة وأصيلاً**».

استفتح به رجل من الصحابة فقال ﷺ: «**عَجِبت لها فُتِحت لها أبواب السماء**»[١].

١٠ ـ وكذلك عند قولك في دعاء الاستفتاح: «**الحمد لله حمداً كثيراً طيّباً مُباركاً فيه**».

استفتح به رجل آخر، فقال ﷺ: «**لقد رأيت اثني عشَر ملَكاً يبتدرونها أيّهم يرفعها**»[٢].

١١ ـ عند قراءة الفاتحة في الصلاة واستحضار ما يقال فيها: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله ـ تعالى ـ: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ قال الله ـ تعالى ـ: حمدني عبدي، وإذا قال ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله ـ تعالى ـ: أثنى عليّ عبدي. وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ قال: مجّدني عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل**»[٣].

١٢ ـ عند التأمين في الصلاة: عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ قال: «**إذا قال الإمام: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾**» فقولوا: (آمين) فإنّه من وافق قوله قول الملائكة، غُفر له ما تقدّم من ذنبه»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم: ٦٠١.
(٢) أخرجه مسلم: ٦٠٠.
(٣) أخرجه مسلم: ٣٩٥.
(٤) أخرجه البخاري: ٧٨٢، ومسلم: ٤١٠.

١٣ ـ عند رفع الرأس من الركوع وقولك: «**ربّنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيّباً مُباركاً فيه**»، لما وَرَدَ عن رفاعة بن رافع قال: «**كنّا يوماً نصلّي وراء النّبيّ ﷺ، فلمّا رفع رأسه من الركعة قال: (سمع الله لمن حمده) قال رجل وراءه: ربّنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيّباً مُباركاً فيه، فلما انصرف قال: «من المتكلّم»؟ قال: أنا، قال: «رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها، أيهم يكتبها أوّل»**»[1].

١٤ ـ في السجود: لقوله ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**»[2].

١٥ ـ بعد الصلاة على النّبيّ ﷺ في التشهد الأخير: فقد سمع رسول الله ﷺ رجلاً يُصلّي فمجَّد الله وحمده، وصلّى على النّبيّ ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «**ادْعُ تُجَبْ، وسَلْ تُعْطَ**»[3].

١٦ ـ عند قولك قبل السلام في الصلاة: «**اللّهم إني أسألك يا الله (وفي رواية: بالله) [الواحد] الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد أن تغفر لي ذنوبي، إنّك أنت الغفور الرحيم**» فقال رسول الله ﷺ عندما سمع ذلك: «**قد غفر له، قد غفر له**»[4].

١٧ ـ وكذلك عند قولك قبل السلام في الصلاة: «**اللّهم إنّي أسألك بأنّ لك الحمد، لا إله إلا أنت [وحدك لا شريك لك]، [المنان]، [يا] بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم [إنّي أسألك] [الجنّة وأعوذ بك من النار]**» [فقال النّبيّ ﷺ[5] لأصحابه: «**تدرون بما دعا؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**والذي نفسي بيده] لقد دعا الله باسمه**

---

(١) أخرجه البخاري: ٧٩٩.

(٢) أخرجه مسلم: ٤٨٢.

(٣) أخرجه النسائي بسند صحيح، وانظر «صفة الصلاة» (ص١٨٢).

(٤) تقدّم تخريجه.

(٥) بعد أن سمع أحدهم يقول هذا.

العظيم (وفي رواية: **الأعظم) الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى»**[١].

١٨ ـ قول العبد عقب الوضوء: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله» قال رسول الله ﷺ: **«ما منكم من أحد يتوضأ، فيُسبغ الوضوء، ثمّ يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله، إلا فُتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيّها شاء»**[٢].

١٩ ـ دعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب: عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ كان يقول: **«دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك مُوكَّل كلّما دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكل به: آمين ولك بمِثل»**[٣].

٢٠ ـ عند استيقاظك من النوم ثمّ قولك: **«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلّ شيء قدير، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم»**، ثمّ قولك: اللّهم اغفر لي، أو تدعو استُجيب لك، فإن توضّأت وصليت قُبلت صلاتك[٤].

٢١ ـ عند دعائك لا إله إلا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين: لقوله ﷺ: **«دعوة ذي النون إذا دعا بها وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين لم يدْع بها رجل مسلم في شيء قط،**

---

(١) تقدّم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم: ٢٣٤.

(٣) أخرجه مسلم: ٢٧٣٣.

(٤) ونصّ الحديث في «صحيح البخاري»: **«من تعار من الليل» فقال: (وذكره) ثمّ قال: «اللّهم اغفر لي أو دعا استجيب له، فإن توضأ وصلّى قُبلت صلاته»**، وليس في «صحيح البخاري» العليّ العظيم، وهي عند ابن ماجه وابن السني بسند صحيح، وانظر: «الكلم الطيب» (٤١) لشيخنا ـ رحمه الله ـ.

إلا استجاب الله له»[١].

٢٢ ـ عند دعائك في المصيبة: (إنّا لله وإنا إليه راجعون، اللّهمّ أجُرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها) قال ﷺ: «**ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: (وذكره)... إلا أجره الله في مصيبته وأخلَف له خيراً منها**»» قالت أم سلمة: فلما تُوفّي أبو سلمة: قلت كما أمرني ﷺ: فأخلف الله لي خيراً منه رسول الله ﷺ»[٢].

٢٣ ـ عند نزول الغيث: لقوله ﷺ: «**اطلبوا إجابة الدُّعاء عند التقاء الجيوش، وإقامة الصلاة، ونزول المطر**»[٣].

٢٤ ـ دعاء الناس بعد وفاة الميت: قالت أمّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ: دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شقّ بصره، فأغمضه، ثمّ قال: «**إنّ الروح إذا قُبض تبعه البصر**».

فضجّ ناس من أهله فقال: «**لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير، فإنّ الملائكة يؤمّنون على ما تقولون**» ثمّ قال: «**اللّهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديّين، واخلُفه في عقِبِه في الغابرين، واغفر لنا وله يا ربّ العالمين، وافسح له في قبره ونوّر له فيه**»[٤].

٢٥ ـ دعوة المظلوم: عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً، فإنه ليس دونها حجاب**»[٥].

٢٦ ـ في حالة إقبال القلب على الله ـ تعالى ـ واشتداد الإخلاص له ـ سبحانه ـ.

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي والحاكم، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الكلم الطيب» (١٢٢) وتقدّم.
(٢) أخرجه مسلم: ٩١٨.
(٣) أخرجه الشافعي في «الأم»، وحسنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (١٤٦٩).
(٤) أخرجه مسلم: ٩٢٠.
(٥) أخرجه أحمد وغيره، وانظر «الصحيحة» (٧٦٧).

ومن الأدلّة على ذلك قصّة الثلاثة الذين كانوا في الغار، فانطبقت عليهم الصخرة، فتوسّلوا إلى الله بأخلص أعمالهم، فاستجاب الله دعاءهم.

٢٧ ـ (دعوة الوالد على ولده، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم): لقوله ﷺ: **«ثلاث دعوات مستجابات، لا شكّ فيهنّ: دعوة الوالد على ولده، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم»**[١].

٢٨ ـ دعوة الوالد لولده: قال ﷺ: **«ثلاث دعوات لا تُردّ: دعوة الوالد لولده، ودعوة الصائم، ودعوة المسافر»**[٢].

٢٩ ـ بعد زوال الشمس قبل الظهر: عن عبدالله بن السائب ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ يصلّي أربعاً بعد أن تزول الشمس قبل الظهر، وقال: **«إنها ساعة تُفتح فيها أبواب السماء، فأحبُّ أن يصعد لي فيها عمل صالح»**[٣].

وقال ﷺ: **«إنّ أبواب السماء تُفتح عند زوال الشمس، فلا تُرتج**[٤] **حتى يُصلّى الظهر، فأحبّ أن يصعد لي في تلك الساعة خير»**[٥].

٣٠ ـ يوم عرفة: قال ﷺ: **«خير الدعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»**[٦].

* * *

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد»، وأبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم، وهو في «الصحيحة» (٥٩٦).

(٢) أخرجه البيهقي والضياء في «المختارة»، وهو في «الصحيحة» (١٧٩٧).

(٣) أخرجه أحمد والترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٣٩٦) وغيرهما، وانظر «المشكاة» (١١٩٦)، و«صحيح الترغيب والترهيب» (٥٨٧).

(٤) أي: لا تغلق.

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» والترمذي وغيرهما، وهو في «مختصر الشمائل» (٢٤٩)»

(٦) أخرجه الترمذي وغيره وهو حسن لغيره، كما في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٥٣٦)، و«الصحيحة» (١٥٠٣).

لماذا لا يُستجاب الدعاء؟

١ ـ **الاستعجال في الدعاء:** عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**يُستجاب لأحدكم ما لم يَعْجَل: يقول: قد دعوتُ فلم يُستجَب لي**»[١].

وفي رواية قيل: «**يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال: يقول: قد دعوت، وقد دعوت فلم أر يستجيب لي، فيستحسر[٢] عند ذلك ويدَع الدعاء**»[٣].

٢ ـ **حكمة ربّانية:** بأن يصرف الله ـ تعالى ـ عن الداعي من السوء مثل دعوته، أو أن يدّخرها له في الآخرة؛ مع عدم حصول استجابة الدعاء.

عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما على الأرض مسلم يدعو الله ـ تعالى ـ بدعوة، إلا آتاه الله إيّاها أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدْعُ بإثم، أو قطيعة رحم، فقال رجل من القوم: إذاً نُكثِر؟ قال: الله أكثر[٤]**»[٥].

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أنّ النّبيّ ﷺ قال: «**ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم، ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إمّا أن يُعجّل له دعوته، وإمّا أن يدّخرها له في الآخرة، وإمّا أن**

---

(١) أخرجه البخاري: ٦٣٤٠، ومسلم: ٢٧٣٥.

(٢) أي: يملّ.

(٣) أخرجه مسلم: ٢٧٣٥.

(٤) أي: أكثر إحساناً مما تسألون وأكثر إنعاماً مما تطلبون.

(٥) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٨٢٧) والحاكم، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٣١): «حسن صحيح».

يصرف عنه من السوء مثلها...»[(١)].

٣ ـ الدعاء بإثم أو قطيعة: للحديث السابق[(٢)].

٤ ـ أكْل الداعي من مأكل حرام، وشربه من مشرب حرام، ولبْسه من لباس حرام.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ قال في الرجل يمدّ يديه إلى السماء يقول: **«يا ربّ يا ربّ، ومطعمه حرام، وملبسه حرام، وغُذِي بالحرام، فأنّى يستجاب لذلك»**[(٣)].

٥ ـ عدم الجزم في الدعاء:

لقوله ﷺ: لا يقل أحدكم: **«اللّهم اغفر لي إن شئت، ارحمني إن شئت، ارزقني إن شئت، وليعزم مسألته، إنّه يفعل ما يشاء، لا مُكرِه له»**[(٤)].

٦ ـ ترك الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر:

عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ قال: **«والذي نفسي بيده لتأمُرُنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر، ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، فتدعونه فلا يستجيب لكم»**[(٥)].

---

(١) أخرجه أحمد والبزار وأبو يعلى والحاكم، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٣٣): «حسن صحيح».

(٢) هذا لا يناقض حديث مسلم: **«لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم ولا تدعوا على أموالكم لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم»** والجمع بينهما ـ والله أعلم ـ أنّ الأول لا يستجاب فيه الدعاء إن لم يوافقه ساعة استجابة، فإنْ وافقه فربّما تحصُل الاستجابة.

(٣) أخرجه مسلم: ١٠١٥.

(٤) أخرجه البخاري: ٧٤٧٧، وتقدّم.

(٥) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (١٧٦٢).

٧ ـ استيلاء الغفلة والشهوة وهوى النفس:

قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[١].

٨ ـ عدم الخشوع في الصلاة:

وقد تقدّم معنا قوله ﷺ: «**واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاهٍ**» والذي لا يخشع في الصلاة قلبهُ غافل لاهٍ، والصلاة الصحيحة؛ تنهى عن الفحشاء والمنكر، وعدم الخشوع في الصلاة هو سبب زيادة الفحشاء والمنكر ومرض النفس؛ الذي يحول دون استجابة الدعاء[٢].

وإذا كان الذي لا ينهى عن المنكر لا يُستجاب منه الدعاء؛ فكيف بمن هو غارق فيه؟

٩ ـ ارتكاب بعض الذنوب المخصوصة:

وبيانها في قوله ـ عليه الصلاة والسلام: «**ثلاثة يدعون فلا يُستجاب لهم: رجل كانت تحته امرأة سيئة الخُلُق فلم يطلّقها، ورجل كان له على رجلٍ مالٌ فلم يُشهد عليه، ورجل آتى سفيهاً ماله، وقد قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾**»[٣].

* * *

أدعية قرآنية

۞ ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٤].

---

(١) الرعد: ١١.

(٢) هذا مع استثناء حالات معيّنة من هذا الباب، منها مثلاً دعوة المظلوم، فهي مستجابة ولو كانت من فاجر؛ كما ذكر ذلك رسول الله ﷺ.

(٣) أخرجه الحاكم والطحاوي في «مشكل الآثار» وغيرهما، وهو في «الصحيحة» (١٨٠٥).

(٤) البقرة: ١٢٧.

۞ ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[١].

۞ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾[٢].

۞ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾[٣].

۞ ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[٤].

۞ ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾[٥].

۞ ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[٦].

۞ ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾[٧].

۞ ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾[٨].

۞ ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٩].

---

(١) البقرة: ٢٠١.
(٢) البقرة: ٢٨٦.
(٣) آل عمران: ٨.
(٤) الأعراف: ١٢٦.
(٥) طه: ٢٥ ـ ٢٨.
(٦) طه: ١١٤.
(٧) الفرقان: ٦٥.
(٨) القصص: ١٦.
(٩) الحشر: ١٠.

۞ ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[(١)].

۞ ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾[(٢)].

۞ ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[(٣)].

۞ ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾[(٤)].

۞ ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾[(٥)].

۞ ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[(٦)].

۞ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[(٧)].

***

أدعية مختارة يُمكن الدّعاء بها في الحجّ والعُمرة والاعتكاف والسّاعات المستجابة... ونحو ذلك

اعلم أخي المسلم أنّي لا ألزمك الدعاء بهذه الأدعية وبهذا الترتيب، فهذا الترتيب لم يثبُت عن الرسول ﷺ، وإنّما مرادي هو التسهيل عليك

---

(١) الكهف: ١٠.
(٢) آل عمران: ٥٣.
(٣) آل عمران: ١٩١.
(٤) يونس: ٨٥ ـ ٨٦.
(٥) إبراهيم: ٤٠ ـ ٤١.
(٦) النمل: ١٩.
(٧) الأنبياء: ٨٧.

بسدّ احتياجك ـ ما استطعت ـ مما تحتاجه من الأدعية، فقد يحتار البعض بماذا يدعو، ولا سيّما في وقت يشرح الله صدره للدعاء.

وقد يلجأ البعض إلى الاعتداء بدعائه من حيث لا يعلم باستخدام عبارات غير مشروعة.

ثمّ إنّني لم أتعمّد الإطالة حتى لا يتطرّق الملل إلى النفس، فتحرّيت الاختصار قدْر الإمكان.

۞ رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الغفور(١).

۞ اللَّهم أني أسألك يا الله، الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، أن تغفر لي ذنوبي، إنك أنت الغفور الرحيم(٢).

۞ اللَّهم أني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، المنّان، يا بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، يا حيُّ يا قيوم، إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار(٣).

۞ اللَّهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت(٤).

۞ اللَّهم اغفر لي ذنبي كلّه دِقّهُ وجِلّه، وأوله وآخره، وعلانيته وسرّه(٥).

---

(١) عن ابن عمر قال: إنْ كنّا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس يقول: «**ربّ اغفر لي، وتُبْ عليّ، إنّك أنت التواب الغفور**» مائة مرة.
أخرجه أحمد وغيره، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، بيْد أنّ الرواة اختلفوا على كلمة «الغفور» وتردّدوا بينها وبين «الرحيم»، وذكر شيخنا ـ رحمه الله ـ شاهداً لا بأس به مرجّحاً لرواية «الغفور»، وانظر «الصحيحة» (٥٥٦).

(٢)(٣)(٤) تقدّم تخريجها.

(٥) أخرجه مسلم: ٤٨٣.

۞ اللَّهم إني ظلمتُ نفسي ظُلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم[١].

۞ اللَّهمّ اغفر لي ما قدّمت وما أخّرت وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر لا إله إلا أنت[٢].

۞ اللَّهمّ باعِد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللَّهم نقِّني من خطاياي كما يُنقّى الثوب الأبيض من الدنس، اللَّهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبرد[٣].

۞ «اللَّهمّ إني أعوذ برضاك من سَخَطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أُحصي ثناءً عليك[٤]، أنت كما أثنيتَ على نفسك[٥]»[٦].

۞ يا مقلّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك[٧].

۞ اللَّهمّ إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه[٨].

---

(١) أخرجه البخاري: ٨٣٤، ومسلم: ٢٧٠٥.
(٢) أخرجه مسلم: ٧٧١.
(٣) أخرجه البخاري: ٧٤٤، ومسلم: ٥٩٨.
(٤) أي: لا أحصي نعمك والثناء بها عليك، ولا أبلغ الواجب فيه. «النهاية».
(٥) اعتراف بالعجز عن تفصيل الثناء، وأنّه لا يقدر على بلوغ حقيقته، وردٌّ للثناء إلى الجملة دون التفصيل والإحصار والتعيين... فقدر الله أعظم من كل ثناء مهما كثر وطال. وانظر «شرح النووي».
(٦) أخرجه مسلم: ٤٨٦.
(٧) أخرجه ابن أبي شيبة من حديث أنس بإسناد صحيح على شرط مسلم، وأخرجه أحمد والترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٩٢) من طرق أخرى، وانظر «تخريج السّنّة» لابن أبي عاصم (٢٢٥، ٢٣٢).
(٨) أخرجه أحمد والطبراني وحسّنه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٦).

۞ اللَّهمّ مصرّف القلوب صرّف قلوبنا على طاعتك[١].

۞ اللَّهم حاسبني حساباً يسيراً[٢].

۞ اللَّهمّ إني أسألك المعافاة في الدنيا والآخرة[٣].

۞ اللَّهمّ إني أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، اللَّهمّ إني أعوذ بك من المأثم والمغرم[٤].

۞ اللَّهم قني عذابك يوم تبعث عبادك[٥].

۞ اللَّهم أجرني من النّار[٦].

۞ اللَّهم إني أسألك الجنة.

۞ اللَّهم إني أسألك الشهادة[٧].

۞ اللَّهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل[٨].

---

(١) أخرجه مسلم: ٢٦٥٤.
(٢) أخرجه أحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وانظر «صفة الصلاة» (ص١٨٤)، وهو من الأذكار التي كان يقولها ﷺ قبل السلام.
(٣) أخرجه ابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٣١٠٦) وغيره، وانظر «الصحيحة» (١١٣٨).
(٤) أخرجه البخاري: ٨٣٢، ومسلم: ٥٨٩.
(٥) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٠٥) وغيره، وانظر «الصحيحة» (٢٧٥٤).
(٦) قال ﷺ: **«من سأل الله الجنة ثلاث مرات قالت الجنّة: اللَّهم أدخله الجنة، ومن استجار من النار ثلاث مرّات، قالت النار: اللَّهمّ أجره من النار»** أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٧٩)، والنسائي «صحيح سنن النسائي» (٥٠٩٤).
(٧) قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **«من سأل الله الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه»**. أخرجه مسلم: ١٩٠٩.
(٨) جزء من حديث أخرجه مسلم: ٢٧٠٦.

۞ اللَّهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت(١).

۞ يا حي يا قيّوم برحمتك أستغيث(٢).

۞ اللَّهمّ اجعل لي في قلبي نوراً، وفي لساني نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، ومن فوقي نوراً، ومن تحتي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن شمالي نوراً، ومن بين يديَّ نوراً، ومن خلفي نوراً، واجعل في نفسي نوراً، وأعظِم لي نوراً(٣).

۞ اللَّهمّ أحيني مسكيناً(٤)، وأمِتْني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين(٥).

۞ اللَّهمّ أصلِح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلِح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلِح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادةً لي في كل خير، واجعل الموت راحةً لي من كل شرّ(٦).

۞ اللَّهمّ اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللَّهمّ اغفر لي جدّي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللَّهم اغفر لي ما قدّمتُ وما أخّرتُ، وما أسررت وما أعلنتُ، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدِّم وأنت المؤخّر، وأنت على كل شيء قدير(٧).

---

(١) أخرجه أحمد والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٠١) وأبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٤٢٤٦) وغيرهم.

(٢) عن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ أنه كان إذا حزبه أمر قال: (وذكره)، وهو حسن لغيره، وانظر «الكلم الطيب» (١١٨).

(٣) أخرجه البخاري: ٦٣١٦، ومسلم: ٧٦٣ واللفظ له.

(٤) أي: متواضعاً مُخبتاً غير جبّار ولا متكبّر.

(٥) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (١٩١٧) وابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٢٨)، وغيرهما، وانظر «الإرواء» (٨٦١).

(٦) أخرجه مسلم: ٢٧٢٠.

(٧) أخرجه مسلم: ٢٧١٩، ونحوه عند البخاري: ٦٣٩٨.

۞ اللَّهمّ اقسم لنا من خشيتك ما يحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلّغنا به جنّتك، ومن اليقين ما يُهوّن علينا مصائب الدنيا، ومتّعنا بأسماعنا وأبصارنا، وقوّتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلَمنا وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا، ولا مبلغ عِلمنا، ولا تسلّط علينا من لا يرحمنا(١).

۞ اللَّهمّ إني أسألك من الخير كلّه عاجله وآجله ما علمتُ منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشرّ كلّه عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم، اللَّهم إني أسألك من خير ما سألك به عبدك ونبيّك، وأعوذ بك من شر ما عاذ به عبدك ونبيّك، اللَّهم إني أسألك الجنة وما قرّب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول أو عمل، وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيته لي خيراً(٢).

۞ اللَّهمّ إني أسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى(٣).

۞ اللَّهم إنّي أعوذ بك من التردي والهدم والغرق والحرق، وأعوذ بك أن يتخبّطني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مُدبراً، وأعوذ بك أن أموت لديغاً(٤).

۞ اللَّهمّ إني أعوذ بك من الفقر والقلّة والذلة، وأعوذ بك من أن أظلم أو أُظلم(٥).

۞ اللَّهمّ إني أعوذ بك من الكسل والهرم والمغرم والمأثم، اللَّهمّ إنّي أعوذ بك من عذاب النار، وفتنة النّار، وفتنة القبر، وعذاب القبر، وشرِّ

---

(١) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٨٣) وأخرجه ابن السني والحاكم وغيرهم، وهو في «الكلم الطيب» (١٦٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه وابن حبان وأحمد وغيرهم، وانظر «الصحيحة» (١٥٤٢).

(٣) أخرجه مسلم: ٢٧٢١.

(٤) أخرجه النسائي «صحيح سنن النسائي» (٥١٠٤) وأبو داود «صحيح سنن أبي داود» (١٣٧٣) وغيرهما.

(٥) أخرجه النسائي «صحيح سنن النسائي» (٥٠٤٦) وابن حبان بإسناد صحيح وغيرهما.

فتنة الغنى، وشرِّ فتنة الفقر، ومن شرِّ فتنة المسيح الدجال[١].

۞ اللَّهمّ إني أعوذ بك من شرّ سمعي، ومن شر بصري، ومن شر لساني، ومن شر قلبي ومن شر منيّي[٢].

۞ اللَّهمّ اغفر لي، وارحمني، وعافني، وارزقني[٣].

۞ اللَّهمّ إني أعوذ بك من شرِّ ما عمِلْتُ، ومن شرّ ما لم أعمل[٤].

۞ اللَّهم أني أعوذ بك من علْم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يُستجاب لها[٥].

۞ اللَّهمّ إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء[٦].

۞ اللَّهمّ أني أعوذ بك من يوم السوء ومن ليلة السوء، ومن ساعة السوء ومن صاحب السوء، ومن جار السوء في دار المقامة[٧].

❊ ❊ ❊

أدعية مُستجابة

۞ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت أدعو أمّي إلى الإسلام وهي مُشركة، فدعوتها يوماً، فأسمعَتني في رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي، قُلت: يا رسول الله، إنّي كنْتُ أدعو أُمّي إلى الإسلام، فتأبى عليّ فدعوتها اليوم، فأسمعتني فيك ما أكره، فادعُ الله

(١) أخرجه البخاري: ٦٣٧٥، ومسلم: ٥٨٩.
(٢) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (١٣٧٢)، والنسائي «صحيح سنن النسائي» (٥٠٦٠)، والترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٧٥).
(٣) فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك كما في الحديث الذي أخرجه مسلم: ٢٦٩٧.
(٤) أخرجه مسلم: ٢٧١٦.
(٥) أخرجه مسلم: ٢٧٢٢.
(٦) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٨٤٠)، وغيره.
(٧) أخرجه الطبراني وإسناده صحيح، وانظر «الصحيحة» تحت رقم (١٤٣٣).

أن يهديَ أُمَّ أبي هريرة، فقال رسول الله ﷺ: **«اللّهمّ أهْدِ أُمّ أبي هريرة»**.

فخرجت مستبشراً بدعوة نبيِّ الله ﷺ، فلما جئت فصِرْت إلى الباب، فإذا هو مُجافٌ[١]. فسمعَت أُمّي خَشْف[٢] قدمي فقالت: مكانك يا أبا هريرة، وسمعت خضخضة[٣] الماء، قال: فاغتسلت ولبست درعها وعَجِلت عن خمارها، ففتحت الباب ثمّ قالت: يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، قال: فرجعْتُ إلى رسول الله ﷺ فأتيته وأنا أبكي من الفرح، قال: قلت: يا رسول الله! أبشِرْ، قد استجاب الله دعوتك، وهدى أمّ أبي هريرة» فحمِد الله وأثنى عليه وقال خيراً[٤].

عن جرير بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا تُريحني من ذي الخَلَصة؟»**[٥] فقلت: بلى، فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أحمس - وكانوا أصحاب خيل، وكنت لا أثبتُ على الخيل - فذكرت ذلك للنّبيّ ﷺ فضرب يده على صدري، حتى رأيت أثر يده في صدري، وقال: **«اللّهم ثبّته واجعله هادياً مهدياً»**.

قال: فما وقعت عن فرس بعْد...[٦].

عن جابر قال: «غزوت مع رسول الله ﷺ، فتلاحق بي وتحتي ناضح[٧] لي قد أعيا ولا يكاد يسير، فقال لي: ما لبعيرك؟ قال: قلت: عليل، قال: فتخلّف رسول الله ﷺ فزجره ودعا له، فما زال بين يدي الإبل قُدّامها يسير»[٨].

---

(١) أي: مردود.
(٢) صوت وحركة.
(٣) تحريك.
(٤) أخرجه مسلم: ٢٤٩١.
(٥) وفي رواية للبخاري: ٣٨٢٣، ومسلم: ٢٤٧٦: وكان يُقال له: «الكعبة اليمانية أو الكعبة الشاميّة».
(٦) أخرجه البخاري: ٤٣٥٧، ومسلم: ٢٤٧٥ نحوه.
(٧) بعير يُستقى عليه.
(٨) أخرجه البخاري: ٢٩٦٧، ومسلم: ٧١٥.

عن عبدالله بن عمرو أنّ النّبيّ ﷺ خرج يوم بدْر في ثلاثمائة وخمسة عشر قال: «**اللَّهم إنّهم حفاة فاحمِلْهم، اللَّهم إنّهم عُراة فاكسُهم، اللَّهمّ إنّهم جياع فأشبِعهم**».

ففتح الله له فانقلبوا وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين، واكتسبوا وشبِعوا[(١)].

عن أمّ سُليم أنّها قالت: يا رسول الله! أنس خادمك، ادْعُ الله له. قال: «**اللَّهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيما أعطيته**».

قال أنس: فوالله إنّ مالي لكثير، وإنّ ولدي وولد ولدي ليتعادّون على نحو المائة اليوم»[(٢)].

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ: أنّ رجلاً دخل المسجد يوم جُمُعة من بابٍ كان نحو دار القضاء، ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبل رسول الله ﷺ قائماً ثمّ قال: يا رسول الله! هلكت الأموال وانقطعت السُّبل، فادع الله يُغِثْنا، فرفع رسول الله ﷺ يديه، ثمّ قال: «**اللَّهم أغثنا، اللَّهم أغثنا، اللَّهم أغثنا**».

قال أنس ولا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قزَعة[(٣)]، وما بيننا وبين سَلْع[(٤)] من بيت ولا دار، فطلعت من ورائه سحابة مِثْل التُّرس، فلما توسّطت السماء انتشرت، ثمّ أمطرت، فلا والله ما رأينا الشمس سبتاً[(٥)]. ثمّ دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة، ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبله قائماً، فقال: يا رسول الله هلكت الأموال، وانقطعت

---

(١) أخرجه أبو داود وإسناده حسن، وانظر «الصحيحة» (١٠٠٣).
(٢) أخرجه البخاري: ٦٣٤٤، دون قول أنس: «**فوالله إن مالي...**»، ومسلم: ٢٤٨٠.
(٣) قطعة من الغيم.
(٤) جبل بقرب المدينة.
(٥) قيل: أراد أسبوعاً؛ من السبت إلى السبت، فأُطلق عليه اسم اليوم. «النهاية».

السُّبل، فادْع الله يمسِكُها عنّا، فرفع رسول الله ﷺ يديه، ثمّ قال: «**اللَّهمّ حَوْلَنا**[١] **ولا علينا، اللَّهمّ على الآكام**[٢]**، والظّراب**[٣]**، وبطون الأودية، ومنابت الشجر**» فانقلعت، وخرجنا نمشي في الشمس»[٤].

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: خرجت يوم الخندق أقفو[٥] آثار الناس، قالت: فسمعت وئيد الأرض ورائي (يعني: حسّ الأرض) قالت: فالتفت، فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجنّة[٦]، قالت: فجلستُ إلى الأرض، فمرّ سعد وعليه درع من حديد قد خرجت منها أطرافه، فأنا أتخوف على أطراف سعد، قالت: فمرّ وهو يرتجز ويقول:

لَبِّث قليلاً يدرك الهيجا حَمل ما أحسن الموت إذا حان الأجل

قالت: فقُمت فاقتحمت حديقة، فإذا فيها نفر من المسلمين، وإذا فيهم عمر بن الخطاب وفيهم رجل عليه سبغة له، يعني: مغفراً[٧]، فقال عمر: ما جاء بك؟ لعمري والله إنك لجريئة» وما يؤمنك أن يكون بلاء أو يكون تحوّز[٨]. قالت: فما زال يلومني حتى تمنّيت أن الأرض انشقت لي ساعتئذ فدخلتُ فيها، قالت: فرفع الرجل السّبغة عن وجهه، فإذا طلحة بن عبيدالله، فقال: يا عمر! إنّك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التحوّز أو الفرار إلا إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ؟

قالت: ويرمي سعداً رجل من المشركين من قريش ـ يقال له: ابن

---

(١) وفي بعض الروايات الثابتة: «حوالينا».
(٢) ما ارتفع من الأرض.
(٣) الجبال الصّغار، كما في «النهاية».
(٤) أخرجه البخاري: ١٠٣٣، ومسلم: ٨٩٧ وهذا لفظه.
(٥) أي: أتبع.
(٦) أي: تُرساً.
(٧) زرد ينسج على قدر الرأس، يلبس تحت القلنسوة.
(٨) الانضمام إلى الشيء.

العرقة ـ بسهم له، فقال له: خُذها وأنا ابن العرقة، فأصاب أكحَلَه[١]، فقطعه، فدعا الله ـ عزّ وجلّ ـ سعد فقال: اللّهمّ لا تُمتني حتى تُقِرّ عيني من قريظة، قالت: وكانوا حلفاء مواليه في الجاهلية، قالت: فرقى كلمه (أي: جُرْحه) وبَعث الله ـ عزّ وجلّ ـ الريح على المشركين، فكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً، فلحِق أبو سفيان ومن معه بتهامة، ولحق عيينة بن بدر ومن معه بنجد، ورجعت بنو قريظة فتحصنّوا في صياصيهم[٢]، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، فوضع السلاح وأمر بقبّة من أدم[٣] فضُربت على سعد في المسجد.

قالت: فجاء جبريل ـ عليه السلام ـ وإنّ على ثناياه لنقع الغبار فقال: أوَقَد وضَعْتَ السلاح؟ والله ما وضعت الملائكة بعْد السّلاح، اخرُجْ إلى بني قريظة فقاتلهم، قالت: فلبِس رسول الله ﷺ لأمته[٤] وأذّن في الناس بالرّحيل أن يخرجوا. فخرج رسول الله ﷺ فمر على بني غنم ـ وهم جيران المسجد حوله ـ فقال: من مرّ بكم؟ قالوا: مر بنا دِحية الكلبيّ ـ وكان دِحية الكلبيُّ تشبه لحيته وسنه ووجهه جبريل ـ عليه السلام ـ.

فقالت: فأتاهم رسول الله ﷺ فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، فلما اشتدّ حصرهم، واشتدّ البلاء، قيل لهم: انزلوا على حُكم رسول الله ﷺ، فاستشاروا أبا لبابة بن عبدالمنذر فأشار إليهم أنّه الذّبح، قالوا: ننزل على حُكم سعد بن معاذ، فقال رسول الله ﷺ: انزلوا على حُكم سعد بن معاذ، فنزلوا، وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ، فأُتي به على حمار عليه

---

(١) في «لسان العرب»: «... عِرْق في اليد يُفصَد، وقيل: الأكحل: عِرْق الحياة، يُدعى نهر البدن، وفي كل عضو منه شعبة، له اسم على حدة، فإذا قُطع في اليد، لم يرقأ الدم، وفي الحديث: أن سعداً رُمي في أكحله من الأكحل، عِرق في وسط الذراع فصدهُ والفصد: هو القَطع.

(٢) حصونهم.

(٣) أي: خيمة صغيرة من الجلد.

(٤) أداة الحرب كلها، من: رمح، وبيضة ومغفر وسيف ودرع. «الوسيط».

أكاف[١] من ليف، وقد حُمل عليه، وحفّ به قومه فقالوا: يا أبا عمرو! حلفاؤك ومواليك وأهل النّكاية ومن قد عَلِمْت، فلم يرجع إليهم شيئاً، ولا يَلتفت إليهم، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال: قد أنى[٢] لي أن لا أبالي في الله لومة لائم.

قال: قال أبو سعيد: فلما طَلَع على رسول الله ﷺ قال: **«قوموا إلى سيّدكم فأنزلوه»**، فقال عمر: سيّدنا الله - عزّ وجلّ - قال: أنزلوه، فأنزَلوه، قال رسول الله ﷺ: **«احكُم فيهم»**، قال سعد: فإني أحكم أن تُقتل مقاتِلتهم وتُسبى ذراريهم، وتُقسم أموالهم. فقال رسول الله ﷺ: **«لقد حكمْتَ بُحكم الله - عزّ وجلّ - وحُكم رسوله»**.

قالت: ثمّ دعا سعد، قال: اللَّهمّ إنْ كنتَ أبقيت على نبيّك ﷺ من حرب قريش شيئاً فأبْقِني لها، وإن كنت قطعتَ الحرب بينه وبينهم فاقبِضني إليك.

قالت: فانفجر كلمُه، وكان قد برىء حتى ما يُرى منه إلا مثل الخُرْص[٣] ورجع إلى قُبّته التي ضَرَب عليه رسول الله ﷺ.

قالت عائشة: فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر.

قالت: فوالذي نفس محمّد بيده، إنّي لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر وأنا في حجرتي، وكانوا كما قال الله - عزّ وجلّ -: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾» قال علقمة قُلت: أي أمّه! فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع؟

قالت: **«كانت عينه لا تدمع على أحد، ولكن كان إذا وجد فإنّما هو آخذ بِلحيته»**[٤].

***

---

(١) هو البرذعة التي توضع على ظهر الحمار، أو البغل ليُركب عليها، كالسّرج للفرس.
(٢) كذا الأصل، وفي «المجمع»: أتى لي، ولعلّه: «آن لي» وانظر «الصحيحة» (٦٧). ويقال: أنى يأنى، بمعنى: دنا وقرب.
(٣) الحلقة من الذهب والفضة.
(٤) أخرجه أحمد وغيره، وانظر «الصحيحة» (٦٧).

من الأحاديث الضّعيفة والموضوعة في الدّعاء

١ ـ حسبي من سؤالي عِلْمه بحالي» لا أصل له.

رُوي عن كعب الأحبار: أنّ إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما رمَوا به في المنجنيق إلى النّار، استقبله جبريل ـ عليه السلام ـ فقال: يا إبراهيم! ألك حاجة؟ قال: أمّا إليك فلا؟ قال جبريل: فسَلْ ربّك، فقال إبراهيم: حسبي من سؤالي عِلْمه بحالي.

علماء تكلّموا في هذا الحديث:

أ ـ البغوي في تفسير سورة الأنبياء وأشار لضعفه.

ب ـ ابن عراق في «تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة» (١/٢٥٠) وقال: قال ابن تيمية: موضوع.

ج ـ ابن تيمية وقال عنه: موضوع كما تقدّم.

د ـ شيخنا الألباني ـ رحمه الله ـ في «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة» برقم (٢١).

٢ ـ توسّلوا بجاهي فإنّ جاهي عند الله عظيم» لا أصل له.

علماء تكلموا في هذا الحديث:

أ ـ ابن تيمية: وقد نصّ على عدم ثبوته في (قاعدة جليلة في التوسّل والوسيلة) وكان ممّا قاله: «... **ومما لا شكّ فيه أنّ جاهه ﷺ ومقامه عند الله عظيم، فقد وصَفَ الله ـ تعالى ـ موسى بقوله: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾**[1]، ومن المعلوم أنّ نبينا محمداً ﷺ أفضل من موسى، فهو بلا شك أوجه منه عند ربه ـ سبحانه ـ ولكن هذا شيء والتوسّل بجاهه ﷺ شيء آخر.

---

(١) الأحزاب: ٦٩.

وقال أيضاً في (القاعدة الجليلة) (ص١٣٢ ـ ١٥٠): «**مع أنّ جاهه ﷺ عند الله أعظم من جاه جميع الأنبياء والمرسلين، ولكن جاه المخلوق عند الخالق ليس كجاه المخلوق عند المخلوق، فإنّه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، والمخلوق يشفع عند المخلوق بغير إذنه، فهو شريك له كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾**[1].

ب ـ شيخنا الألباني ـ رحمه الله ـ في «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة» برقم (٢٢)، وقال: لا أصل له.

٣ ـ الدعاء «سلاح المؤمن، وعماد الدين ونور السماوات والأرض» موضوع.

علماء تكلّموا في هذا الحديث:

١ ـ الهيثمي في «المجمع» (١٠/١٤٧) وقال: «**رواه أبو يعلى وفيه محمد ابن الحسن بن أبي يزيد وهو متروك**».

٢ ـ شيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ في «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة» برقم (١٧٩) وكان مما قاله:

أ ـ إنّ في الحديث انقطاعاً؛ كما ذكره الذهبي في «الميزان» بين علي بن الحسين وجدّه عليّ بن أبي طالب.

ب ـ إنّ محمد بن الحسن الهمداني ليس هو التلّ الصّدوق؛ كما قال الحاكم، وإنما هو محمّد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني الكذّاب.

ج ـ ذكر قول الهيثمي السابق الذكر في «المجمع» (١٠/١٤٧).

---

(١) سبأ: ٢٢ ـ ٢٣.

٤ ـ كان رسول الله ﷺ إذا رفع يديه في الدعاء لم يحطّهما حتى يمسح بهما وجهه» ضعيف.

علماء تكلّموا في هذا الحديث:

١ ـ النّووي وقال: في إسناده ضعف راجع كتاب «الأذكار» (ص٣٥٥).

٢ ـ شيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ في «المشكاة» (٢/ ٦٩٦) وقال: [ولا يصحّ حديث في مسح الوجه باليدين بعد الدعاء؛ كما حقّقته في «إرواء الغليل» (٤٢٦ ـ ٤٢٧).

٥ ـ الدعاء مخّ العبادة» ضعيف.

قال شيخنا ـ رحمه الله تعالى ـ في «المشكاة»: **«إسناده ضعيف، فيه ابن لهيعة، وهو سيىء الحفظ»**.

فائدة: احذر من رواية ما لم يثبت عن رسول الله ﷺ دائماً، وبغضّ النّظر عن المعاني الجميلة التي تحتويها بعض الأحاديث غير الثابتة، فالمعاني الجميلة شيء، وإسناده إلى الرسول ﷺ والكذب عليه شيء آخر، فإن كنت تؤجر على المعاني الجميلة، وتقبل أن تتبوأ مقعدك من النّار كذلك بالكذب عليه، فافعل ما شئت!!

❋ ❋ ❋

من الدعوات المنهيّ عنها

١ ـ الدّعاء بتعجيل العقوبة في الدّنيا:

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ «أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد خَفَتَ[1] فصار مثل الفرْخ فقال له رسول الله ﷺ: **«هل**

(١) أي: ضعف.

كنت تدعو بشيء أو تسأله إيّاه؟» قال: نعم. كنت أقول: اللّهمّ ما كنت معاقبي به في الآخرة، فعجِّله لي في الدنيا. فقال رسول الله ﷺ: **«سبحان الله! لا تطيقه - أو لا تستطيعه - أفلا قُلت: اللّهمّ آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقِنا عذاب النار»** قال: فدعا الله له، فشفاه[١].

٢ - الدّعاء بتعجيل الموت:

عن قيس بن أبي حازم، قال: دخَلْنا على خباب وقد اكتوى سبع كيّات في بطنه، فقال: لوما أنَّ رسول الله ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوْتُ به[٢].

وعن أنس - رضي الله عنه - قال: قال ﷺ: **«لا يتمنّينّ أحدُكم الموت من ضُرٍّ أصابه؛ فإنْ كان لا بُدّ فاعلاً فليقُل: اللّهمّ أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفّني إذا كانت الوفاةُ خيراً لي»**[٣].

وفي الحديث: **«... ولا يتمنّينّ أحدُكم الموت، إمّا محسناً فلعله أن يزداد خيراً، وإمّا مسيئاً فلعلّه أن يَستَعْتِب[٤]»**[٥].

٣ - لعْن إنسان بعينه[٦] أو دابّة:

عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه مسلم: ٢٦٨٨.

(٢) أخرجه البخاري: ٧٢٣٤، ومسلم: ٢٦٨١.

(٣) أخرجه البخاري: ٥٦٧١، ومسلم: ٢٦٨٠.

(٤) أي: يرجع عن موجب العتب عليه.

(٥) أخرجه البخاري: ٥٦٧٣.

(٦) إذا لم يكن أهلاً لذلك، وربما يكون اللعن واجباً في أحوال، من ذلك قوله ﷺ: **«من آذى المسلمين في طُرقهم، وجبت عليه لعنتهم»** أخرجه الطبراني في «الكبير» بإسناد حسن وغيره، وهو في «الصحيحة» (٢٢٩٤).

«**ليس المؤمن بالطعّان ولا باللّعان ولا بالفاحش، ولا بالبذيء**»(١).

وعن عمران بن الحصين ـ رضي الله عنهما ـ قال: «بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وامرأة من الأنصار على ناقة فضجرت فلعنَتْها، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**خذوا ما عليها ودعوها فإنّها ملعونة**».

قال عمران: فكأني أراها الآن تمشي في النّاس ما يعرِض لها أحد(٢).

٤ ـ سبّ المسلم بغير حق:

قال ﷺ: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كُفر**»(٣).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: أُتي النّبيّ ﷺ برجل قد شرب(٤)، قال: «**اضربوه**» قال أبو هريرة: فمنا الضّارب بيده، والضّارب بنعله، والضّارب بثوبه، فلما انصرف قال بعض القوم: أخزاك الله، قال: «**لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان**»(٥).

٥ ـ سبّ الأموات:

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال النّبيّ ﷺ: «**لا تسبّوا الأموات، فإنّهم قد أفضوا إلى ما قدّموا**»(٦).

٦ ـ سبّ الحمى:

عن جابر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ دَخَل على أم السّائب

---

(١) أخرجه أحمد والبخاري في «الأدب المفرد» والترمذي وغيرهم، وهو في «الصحيحة» (٣٢٠).
(٢) أخرجه مسلم: ٢٥٩٥.
(٣) أخرجه البخاري: ٧٠٧٦، ومسلم: ٦٤.
(٤) أي: الخمر.
(٥) أخرجه البخاري: ٦٧٧٧.
(٦) أخرجه البخاري: ٦٥١٦.

أو أم المسيَّب فقال: «مالك يا أم السّائب ـ أو أم المسيَّب ـ تُزفزفين[١]» قالت: الحمى لا بارك الله فيها. فقال: «لا تَسُبِّي الحمّى فإنها تُذهب خطايا بني آدم كما يُذهب الكير خبَث الحديد»[٢].

٧ ـ سبّ الريح:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الريح من رَوْح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبّوها، وسلُوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرّها»[٣].

٨ ـ سبّ الديك:

قال ﷺ: «لا تسبّوا الديك فإنّه يوقظ للصّلاة»[٤].

٩ ـ الدعاء بـ(مطرنا بنَوء [٥] كذا وكذا):

عن زيد بن خالد ـ رضي الله عنه ـ قال: «صلّى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربّكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم» قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته؛ فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب، وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا؛ فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»[٦].

---

(١) أي: ترتعدين.
(٢) أخرجه مسلم: ٢٥٧٥.
(٣) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٤٢٥٠)، وابن ماجه وغيرهما، وحسّنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الكلم الطيب» (١٥٣).
(٤) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٢٤٥٤)، وانظر «المشكاة» (٤١٣٦).
(٥) ناء النجم: سقط وغاب، وقيل: أي: نهض وطلع... وانظر «شرح النووي» للمزيد من التفصيل.
(٦) أخرجه البخاري: ٨٤٦، ومسلم: ٧١.

١٠ ـ الدعاء بـ(ما شاء الله وشاء فلان):

عن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ قال: **«لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا ما شاء الله ثمّ شاء فلان»**(١).

١١ ـ الدعاء على الأهل والمال:

قال ﷺ: **«لا تذعوا على أنفسكم، ولا تذعوا على أولادكم ولا تذعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها عطاء فيستجيب لكم»**(٢).

١٢ ـ الدعاء بإثم أو قطيعة رحم:

قال ﷺ: **«يُستجاب للعبد ما لم يدْع بإثم أو قطيعة رحم»**(٣).

* * *

أحاديث ومسائل متفرقة في الدعاء

١ ـ قال ﷺ: **«إنّه من لم يسأل الله ـ تعالى ـ يغضب عليه»**(٤).

فسواءٌ استُجيب الدّعاء أم لم يُستجب، فإننا ندعو خشية غضب الله ـ تعالى ـ ولأنّ في الدّعاء ذاته مرضاة لله ـ سبحانه ـ وهذا الفهم يجعلنا نُلحّ في الدّعاء ولا نستحسر عنه.

٢ ـ قال ﷺ: **«أفضل العبادة الدّعاء»**(٥).

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والبيهقي وغيرهم، وانظر «الصحيحة» (١٣٧).

(٢)(٣) تقدّم تخريجه.

(٤) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٨٦)، وابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٠٨٥)، وانظر «الصحيحة» (٢٦٥٤).

(٥) أخرجه الحاكم في «المستدرك» من طريقين، هو بهما حسن، وانظر «الصحيحة» (١٥٧٩).

٣ ـ قال ﷺ: **«أعجز الناس من عجز عن الدعاء، وأبخل الناس من بخل بالسلام»**[١].

٤ ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: **«سلُوا الله كل شيء حتى الشّسع**[٢]**، فإنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ إن لم ييسّره لم يتيسّر»**[٣].

٥ ـ قال ﷺ: **«ليس شيء أكرم على الله ـ تعالى ـ من الدّعاء»**[٤].

٦ ـ إذا كنتَ حريصاً أن تكون دعوتك مستجابة، فحافظ على الفرائض، وأكثر من النوافل، فقد قال: رسول الله ﷺ: **«إنّ الله ـ تعالى ـ قال: من عادى لي ولياً فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضته عليه، وما زال عبدي يتقرّب إلي بالنّوافل حتى أحبه، فإذا أحببتُه، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصره به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنّه»**[٥].

٧ ـ الأصل في استجابة الدعاء دلالتها على صلاح المرء، ولكنها قد لا تدلّ أحياناً على هذا، فقد تكون استدراجاً له، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾[٦].

ومن قبلُ حقّق الله طلب الشيطان، فقد قال الله ـ تعالى ـ في حقه:

---

(١) أخرجه الطبراني وابن حبان وغيرهما، وانظر «الصحيحة» (٦٠١).

(٢) الشسع: هو سير النّعل الذي يُربط به.

(٣) أخرجه ابن السني بسند حسن وغيره، وانظر «السلسلة الضعيفة» (١٣٦٣) و الكلام على حديث (٢١) منها.

(٤) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٨٤)، وابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٠٨٧).

(٥) أخرجه البخاري: ٦٥٠٢.

(٦) مريم: ٧٧ ـ ٨٠.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾[(١)].

٨ ـ وعدم استجابة الدعاء لا تدلّ على فساد المرء في كلّ الأحوال، فهناك سؤال منعه الله ـ تعالى ـ رسول الله ﷺ، كما في الحديث: «**سألت ربّي ثلاثاً، فأعطاني ثنتين، ومنعني واحدة، سألتُ ربي أن لا يُهلك أمّتي بالسَّنَة**[(٢)] **فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمّتي بالغرق، فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسَهم بينهم، فمنعنيها**»[(٣)].

هذا إذا لم يكن مضمون الدعاء طلب الثبات والمغفرة وزيادة الهدى وستر العورات. فعندما قالت المرأة السوداء للرسول ﷺ: إني أُصرَع وإني أَتَكَشَّف فادْع الله لي؛ قال ﷺ: «**إن شئت صبرتِ ولك الجنّة، وإن شئت دعوت الله ـ عزّ وجلّ ـ أن يعافيك**».

قالت: أصبر، قالت: فإني أَتَكَشّف فادْع الله أن لا أتكشّف، فدعا لها[(٤)].

فقد صبرت المرأة على عدم تعجيل الشفاء من الصّرع، وأما في الخلاص من التكشّف لما فيه تحقيق ستر العورات ـ وهو من الدين ـ فقد كان يهمّها استعجاله.

وكان من دعاء إبراهيم ﷺ: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾[(٥)].

ودعا نوح ـ عليه السلام ـ ربه: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[(٦)].

---

(١) الحجر: ٣٦ ـ ٣٨.
(٢) السَّنَة: الجَدْب.
(٣) أخرجه مسلم: ٢٨٩٠.
(٤) أخرجه البخاري: ٥٦٥٢، ومسلم: ٢٥٧٦.
(٥) الأنعام: ٧٧.
(٦) هود: ٤٧.

٩ ـ تعوّذ رسول الله ﷺ من دعوة لا يُستجاب لها فقال: **«اللَّهمّ إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب القبر ، اللَّهمّ آتِ نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللَّهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»**(١).

١٠ ـ طلب الدعاء ممن تتوسّم فيه الصلاح والتّقى من أنواع التوسّل المشروع، ومن الأدلة على ذلك حديث المرأة السوداء الذي مرّ آنفاً.

١١ ـ قال ﷺ: **«لكلّ نبيّ دعوة تُستجاب له، فأريد إن شاء الله أن أختبىءَ دعوتي شفاعة لأمّتي يوم القيامة»**(٢).

قلت: استجابة الدعاء نعمة عظيمة من الله ـ تعالى ـ ولكنها قد لا تتحقق أحياناً ويكون الخير بعدم تحقيقها ـ إن كان لا يترتّب على ذلك عدم ثبات أوخسارة في الدين كما بيّنْتُ ـ وقد يظن الإنسان أن الخير في زواجه من فتاة معيّنة، فيدعو الله ـ تعالى ـ أن ييسّر زواجه منها ويراعي آداب الدعاء، ويتحرّى الساعات المستجابة، فلا يُستجاب له، ولربما كان زواجهما شراً في علم الله ـ تعالى ـ فعدم استجابة الدعاء فيما يتعلّق بأمور الدنيا قد تكون خيراً أحياناً، أضف إلى هذا أنّ الله ـ تعالى ـ يصرف من السوء مثل دعوة من يدعو أو يدّخرها له في الآخرة.

ويلحظ المتأمّل من الحديث السابق، أنّ رسول الله ﷺ فضّل تأجيل الاستجابة على تعجيلها، لما رآه أرضى لله ـ تعالى ـ وأنفع لأمّته، والله أعلم.

١٢ ـ إذا أردت أن تُدرك حاجتك ويُستجاب دعاؤك فارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعِمه من طعامك.

عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: **«أتى النّبيّ ﷺ رجلٌ يشكو**

---

(١) أخرجه مسلم: ٢٧٢٢.

(٢) أخرجه البخاري: ٧٤٧٤، ومسلم: ١٩٨.

قسوة قلبه قال: **«أتُحبّ أن يلين قلبك، وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك، يَلِن قلبك، وتدرك حاجتك»**[(١)].

١٣ ـ من الأمور الجميلة أن تتوسّل إلى الله فيما إذا أجاب دعوتك أنّك ستسخّر ذلك في طاعة الله، فقد كان من دعاء موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[(٢)].

وقوله ﷺ: **«إذا جاء الرجل يعود مريضاً فليقل: اللّهمّ اشفِ عبدك فلاناً، ينكأ لك عدواً، أو يمشي لك إلى الصلاة»**[(٣)].

١٤ ـ يحسُنُ بالإنسان قبل شروعه في الدعاء أن يتعلم ويتفقّه آدابه ومسائله، فقد يترتّب على دعوته التي يدعو بها ما تكون عاقبته أليمة، وتأمّلْ معي ـ يرحمك الله ـ حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ «أنّ رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد خَفَت[(٤)] فصار مثل الفَرْخ، فقال له رسول الله ﷺ: **«هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إياه؟»** قال: نعم، كنت أقول: اللّهم ما كنت معاقبي به في الآخرة، فعجّله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: **«سبحان الله لا تطيقه ـ أو: لا تستطيعه ـ أفلا قلت: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار؟»** قال: فدعا الله له فشفاه»[(٥)].

فعدم علم هذا الصحابي بأدب من آداب الدعاء أرْداه في ضرر دنيوي، ونحن نخشى وقوع ما هو أدهى من هذا وأمرّ في زماننا الحاضر إن لم نتفقه ونتعلّم ما ينبغي تعلّمه من آداب الدعاء.

١٥ ـ والأسلم للإنسان أن يتّبع المأثور في الكتاب والسنّة من الدعاء، مع جواز الدّعاء بغير هذا؛ بالشروط التي حدّدها الشرع.

---

(١) أخرجه الطبراني، وحسّنه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٥٤٤)، وانظر «الصحيحة» (٨٥٤).
(٢) طه: ٢٩ ـ ٣٤.
(٣) أخرجه أبو داود وابن السني والحاكم وأحمد، وانظر «الصحيحة» (١٣٠٤).
(٤) أي: ضعف.
(٥) تقدّم تخريجه.

١٦ ـ في الدعاء العام يكون رفع اليدين، أمّا في غيره فلا، كدعاء الخروج من البيت، وعند دخول الخلاء والخروج منه... إلخ.

١٧ ـ يحسن بالمرء بعد استجابة دعائه أن يحمد الله ـ تعالى ـ وقد أوردتُ في «أدعية مستجابة» حديث إسلام أمّ أبي هريرة، وفي آخره «فحمد الله وأثنى عليه وقال خيراً».

١٨ ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: **«كان رسول الله ﷺ يستحبّ الجوامع من الدعاء، ويدَعُ ما سوى ذلك»**[(١)].

١٩ ـ قال ﷺ: **«المسألة أن ترفع يديك حذو منكبيك، والاستغفار أن تشير بأصبع واحدة، والابتهال أن تمدّ يديك جميعاً»**[(٢)].

٢٠ ـ قال ﷺ: **«لا يردُّ القضاءَ إلا الدعاءُ، ولا يزيدُ في العمر إلا البرّ»**[(٣)].

***

الدعاء ثمرة العمل[(٤)]

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾[(٥)].

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود «صحيح سنن أبي داود» (١٣١٥) وغيرهما.

(٢) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (١٣٢٣).
وقال القاري في «مرقاة المصابيح» (٢/٦٤٤): «قال الطيبي: أدب الاستغفار الإشارة بالسبابة سبّاً للنفس الأمّارة والشيطان والتعوذ منهما، والابتهال ـ أي التضرع والمبالغة في الدعاء في دفع المكروه عن النفس ـ أدبه أن تمدّ يديك جميعاً، أي: حتى يُرى بياض إبطيك».

(٣) أخرجه الترمذي وغيره، عن سلمان ـ رضي الله عنه ـ وانظر «الصحيحة» (١٥٤) وأراد بالقضاء هنا، الأمر المقدّر لولا دعاؤه، وقوله: ولا يزيد في العمر إلا: (البر): يعني: العمر الذي كان يقصر لولا برّه، عن «فيض القدير» وذكر تفاسير أخرى.

(٤) عن كتابي «وشي الحلل في مراتب العلم والعمل».

(٥) الفرقان: ٧٧.

وقال ﷺ: «**الدّعاء هو العبادة**»[١].

وقال ﷺ: «**أفضل العبادة الدعاء**»[٢].

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**ليس شيء أكرم على الله ـ تعالى ـ من الدعاء**»[٣].

إنَّ منّ يتأمّل هذه النصوص، يجد أنّ الدعاء سبب في نيل محبّة الله ـ تعالى ـ ورضوانه، ولولاه لما كان الله ـ سبحانه ـ يعبأ بنا.

وبيّن النّبيّ ﷺ أنّ الدعاء أكرم العبادات وأفضلها.

فلماذا حَظيَ الدعاء بهذه المنزلة العظيمة؟ إنّ الدعاء هو توجّه العبد بقلبه ولسانه إلى الله ـ سبحانه ـ؛ للمعافاة في الدنيا والآخرة، ولكسب مرضاة الله ـ تعالى ـ ودخول الجنّة، والزحزحة عن النّار.

وكم تُليت على المسامع من آيات الترغيب، وذِكر الجنّات والنعيم المقيم! ولكن ما الذي جناه أبو جهل؟ وأيضاً تقرَعُ الأذانَ آياتُ العذاب والترهيب والوعيد، فما هو حظّ أبي لهب من النّجاة منها؛ وهو يُعرض عنها؟

وهكذا تبدو الثّمار جليّةً شهيّة واضحة، حين تُقرأ آيات النار، فيتعوّذ منها العبد ويستجير، وتُتلى آيات الجنّة فيسأل الله ـ تعالى ـ أن يكون من أهلها، بل إنّ العبد لا يُوفَّق للدّعاء أو استجابته؛ إن لم يكن مخلصاً صادقاً، ذلك لأنّ رسول الله ﷺ قال: «... **واعلموا أنّ الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاه**»[٤].

ولَمّا سألت عائشة ـ رضي الله عنها ـ رسول الله ﷺ عن ابن جُدعان فقالت: يا رسول الله! ابن جدعان كان في الجاهلية يصلُ الرّحم ويُطعم المسكين، فهل ذاك نافعُه؟ فقال: لا ينفعه إنّه لم يقل يوماً: ربّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين»[٥].

---

(١)(٢)(٣)(٤) تقدّم تخريجها.

(٥) أخرجه مسلم: ٢١٤.

فإنّ عدم التوجّه بالدعاء لله ـ تعالى ـ قد خلّد ابن جدعان في النّار، لأنّه لم يقل يوماً: ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين.

وهذا يجعلنا نفهم قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾(١).

فلمّا كان الدّعاء هو العبادة، كان عدمه الكفر والاستكبار.

وأمّا شأن الأنبياء والمرسلين والمتقين في الدعاء فعظيم، فهم يسارعون ويسابقون له، ويحرصون عليه، فهو غذاؤهم ودواؤهم وحياتهم.

وبعد أن أقصَّ بعض قَصص القرآن في هذا الأمر؛ أُريد أنْ أوجّه سؤالاً نختبر فيه أنفسنا، ونلتمس مواقعنا من الإيمان:

ها نحن تُتلى علينا آيات من سورة آل عمران، وهي قوله ـ سبحانه ـ: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾(٢).

فماذا نحن فاعلون بعد استماعها؟

إنَّ رؤية زكريا ـ عليه السلام ـ للرّزق الذي يسّرهُ الله ـ سبحانه ـ

(١) غافر: ٦٠.
(٢) آل عمران: ٣٥ ـ ٤٠.

لمريم، وقد انقطعت أسبابه المادية، حَفزه أن يدعو ربّه ـ سبحانه وتعالى ـ.

﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

وما أجمل أن نتأمّل كلمة «هنالك»! فهي اسم إشارة، يُشار به إلى المكان فيكون ظرفاً للمكان، ويُشار به إلى الزّمان، فيكون ظرفاً للزّمان، تدلّنا على الظّرف الذي اغتنمه للدّعاء، والزّمان الذي اهتبله للتضرّع إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

إنّ الذي أعطى مريم الرزق، لقادر أن يهبه الذريَّة الطيبة، وكذلك كان.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩)﴾.

ما هو موقفك أيها المسلم، وأنت تعاين قُدرة الله ـ تعالى ـ وتُبصرُ معجزاته؟ لا بُدّ لك أن تتوجّه إلى الله ـ تعالى ـ ربّ مريم الذي رزقها حيث لا رزق، وإلى ربّ زكريا الذي رزقه بالولد، حيث لا سبيل له ـ كما يقتضي النظر ـ فتدعوه ـ سبحانه ـ وتتضرّع إليه وتبتهل؛ أنْ يُفرّج كربك، ويكشف عنك الهم والغمّ، مهما عظم وتفاقم.

* * *

من أقوال السلف في الدعاء

١ ـ روي عن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال: إني لا أحمل همّ الإجابة ولكن همّ الدعاء» فإذا أُلهمتُ الدعاء، فإنّ الإجابة معه.

٢ ـ رُوي عن أبي ذرّ ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: يكفي من الدّعاء البرء ما يكفي الطعام من الملح.

٣ ـ رُوي عن مُورِّقٍ أنه قال: ما وجدت للمؤمن مثلاً إلا رجل في البحر على خشبة فهو يدعو: يا ربّ يا ربّ لعلّ الله ـ عزّ وجلّ ـ أن ينجيَه.

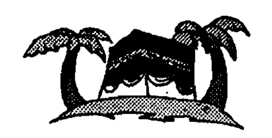
٤ ـ رُوي عن القاسم بن عبد أنه قال: قلت لأنس بن مالك: يا أبا حمزة ادْع الله لنا» قال: الدّعاء يرفعه العمل الصّالح.

٥ ـ رُوي عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال: إنّ الله لا يقبل من مسمع ولا مُراءٍ ولا لاعب، ولا داع، إلا داعياً؛ دعاء ثبتاً من قلبه.

٦ ـ رُوي عن عبدالله بن المبارك أنّه رأى رجلاً يسأل الله وفي يده حصى، فقال: إذا سألت ربّك خيراً، فلا تسأله وفي يدك الحجر.

٧ ـ روي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: ما من عبد مؤمن يدعو الله بدعوة فتذهب؛ حتى تعجل له في الدنيا، أو تؤخّر له في الآخرة، إذا لم يعجل أو يقنط.

٨ ـ روي عن عبدالله بن أبي صالح أنه قال: دخل عليّ طاوس يعودني فقلت له: ادْع الله لي يا أبا عبدالرحمن» فقال: ادْع لنفسك فإنّه يجيب المضطرّ إذا دعاه.

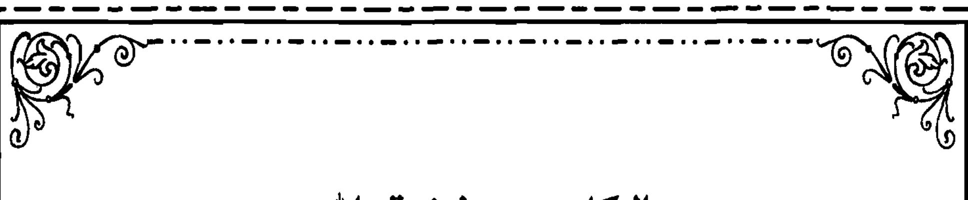


فقه الدعوة وتزكية النفس
(٩)

البكاء من خشية الله

بقلم
حسين بن عودة العوايشة





البكاء من خشية الله

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾(١).

وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا ﴿١٠٩﴾﴾(٢).

وقال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ ﴿٥٨﴾﴾(٣).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«سبعة يظلّهم الله في ظلّه، يوم لا ظلَّ إلا ظلّه، الإمام العادل، وشابٌّ نشأ في عبادة الله ـ عزّ وجلّ ـ ورجلٌ قلبه مُعلّق بالمساجد، ورجلان تحابّا في الله، اجتمعا على ذلك، وتفرّقا عليه، ورجلٌ دعَتْه امرأة ذات منصبٍ وجمال، فقال: إنّي أخاف الله، ورجل تصدّق بصدقةٍ فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تُنفق يمينه، ورجلٌ ذكَر الله خالياً ففاضت عيناه»**(٤).

---

(١) الزمر: ٢٣.

(٢) الإسراء: ١٠٧ـ ١٠٩.

(٣) مريم: ٥٨.

(٤) أخرجه البخاري: ٦٦٠، ومسلم: ١٠٣١، وغيرهما، وانظر للمزيد من الفوائد الحديثية «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٠١/١).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يَلِج النّار رجلٌ بكى من خشية الله، حتى يعود اللبن في الضّرْع، ولا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنّم»**[(١)].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعْت رسول الله ﷺ يقول: **«عينان لا تمسُّهما النّار: عين بكَت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»**[(٢)].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: **«حُرّم على عينين أن تنالهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس الإسلام وأهله من الكُفر»**[(٣)].

وعن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ قال: **«ليس شيءٌ أحبّ إلى الله ـ تعالى ـ من قطرتين وأثرين: قطرة دموع من خشية الله ـ تعالى ـ وقطرة دم تُهراقُ في سبيل الله، وأمّا الأثران: فأثرٌ في سبيل الله ـ تعالى ـ، وأثرٌ في فريضة من فرائض الله ـ تعالى ـ»**[(٤)].

---

(١) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (١٣٣٣)، وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي «صحيح سنن النسائي» (٢٩١١) والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وغيرهم، وصحّحه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «المشكاة» (٣٨٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (١٣٣٨)، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «المشكاة» (٣٨٢٩).

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» وغيره، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (الترغيب في البكاء من خشية الله).

(٤) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (١٣٦٣) وقال: حديث حسن، وحسّن شيخنا ـ رحمه الله ـ إسناده في «المشكاة» (٣٨٣٧).

وقال المُناوي في «فيض القدير» (٥/٣٦٥): «(ليس شيء أحبّ إلى الله ـ تعالى ـ من قطرتين وأثرين: قطرة دموع) أي: قطراتها، فلمّا أضيفت إلى الجمع أُفردت ثقة بذهن السامع؛ نحو كلوا في بطنكم، (من خشية الله) أي: من شدة خوف عقابه أو عتابه (وقطرة دم تُهراق في سبيل الله) أفرد الدم وجمع الدمع؛ تنبيهاً على تفضيل إهراق الدم في سبيل الله على تقاطر الدموع (وأمّا الأثران: فأثرٌ في سبيل الله، وأثرٌ في فريضة من فرائض الله) قال ابن الأعرابي: الأثر: ما يبقى بعده من عمل يجري عليه أجره من بعده، ومنه قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾. =

وعن عثمان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**طوبى**[١] **لمن ملَك لسانه، ووسعه بيته، وبكى على خطيئته**»[٢].

وعن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله! ما النّجاة؟ قال: «**أملِك عليك لسانك؛، وليسعْك بيتك، وابكِ على خطيئتك**»[٣].

* * *

التحذير من قسوة القلب

حذارِ من قسوة القلب حذارِ؛ فإنها تُفضي بك إلى النار؛ فاجتنب قسوة القلب وأسبابها، وإياك أن تُعرض عن مواعظ الله ـ سبحانه ـ.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ[٤] لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ[٥]

= وقال غيره: الأثر: ما يبقى من رسول الشيء وحقيقته ما يدلّ على وجود الشيء، والمراد: خطوة الماشي وخطوة الساعي في فريضة من فرائض الله، أو ما بقي على المجاهد من أثر الجراحات، وعلى الساعي المتعب نفسه في أداء الفرائض والقيام بها والكدّ فيها كاحتراق الجبهة من حرّ الرمضاء التي يسجد عليها، وانفطار الأقدام من برد ماء الوضوء ونحو ذلك».

(١) هي شجرة في الجنة، مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنّة تخرج من أكمامها، لقوله ﷺ: «**طوبى شجرة في الجنة، مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها**». أخرجه أحمد وغيره، وهو حديث حسن لغيره، خرّجه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة»(١٩٨٥).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» و«الصغير» وحسّن إسناده كذا قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢٣٣/٤) وحسنه شيخنا ـ رحمه الله ـ لغيره في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٣٣٢).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» وعنه أحمد والترمذي وغيرهم، وهو حديث صحيح خرّجه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٥٨١/٢ ـ ٥٨٤).

(٤) أي: ألم يَحِن.

(٥) أي: طال الزمان بينهم وبين أنبيائهم. «تفسير البغوي».

﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾[(١)].

وجاء في تفسير هذه الآية ما رواه أبو حازم؛ أنّ عامر بن عبدالله بن الزبير أخبره، أنّ أباه أخبره، أنّه لم يكن بين إسلامهم وبين أنْ نزلت هذه الآية؛ يُعاتبهم الله بها إلا أربع سنين ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[(٢)].

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في تفسير هذه الآية: «**مالوا إلى الدنيا وأعرضوا عن مواعظ الله**»[(٣)].

* * *

البكاء[(٤)] رحمةٌ جعلها الله في قلوب العباد

عن أسامة بن زيد قال: كنّا عند النّبيّ ﷺ فأرسلت إليه إحدى بناته

---

(١) الحديد: ١٦.

(٢) أخرجه ابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٨٠).

(٣) ذكره البغوي في «تفسيره».

(٤) قال ابن القيّم ـ رحمه الله ـ: «البكاء أنواع:

أحدهما: بكاء الرحمة والرأفة.

والثاني: بكاء الخوف والخشية.

والثالث: بكاء المحبّة والشوق.

والرابع: بكاء الفرح والسرور.

والخامس: بكاء الجزع من ورود المؤلم وعدم احتماله.

والسادس: بكاء الحزن.

والسابع: بكاء الخور والضعف.

والثامن: بكاء النفاق، وهو أن تدمع العين والقلب قاس.

والتاسع: البكاء المستعار والمستأجر عليه؛ كبكاء النائحة بالأجرة.

والعاشر: بكاء الموافقة، وهو أن يرى الرجلُ الناس يبكون لأمرٍ ورد عليهم؛ فيبكي معهم، ولا يدري لأي شيء يبكون، فيبكي». «زاد المعاد» (١/١٨٥ - ١٨٦) ـ بحذف يسير ـ.

تدعوه، وتخبره أنّ صبياً لها، أو ابناً لها في الموت، فقال للرسول: «**ارجع إليها، فأخبِرها أنّ لله ما أخذ وله ما أعطى، وكلّ شيءٍ عنده بأجل مسمّى، فمُرها فلتصبر ولتحتسب**»، فعاد الرسول فقال: «**إنها قد أقسمت لتأتينها**».

قال: فقام النّبيّ ﷺ وقام معه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل، وانطلقت معهم، فرفع إليه الصبيّ، ونفسه تقعقع[١] كأنها في شنّة[٢]، ففاضت عيناه، فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله! قال: «**هذه رحمةٌ؛ جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحمُ الله من عباده الرحماء**»[٣].

❋ ❋ ❋

بكاء النّبي ﷺ[٤]

عن عبدالله قال: قال لي النّبيّ ﷺ: «**اقرأ عليّ**» فقرأتُ عليه بسورة النساء، حتى إذا بلغتُ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾[٥]. فنظرتُ إليه، فإذا عيناه تدمعان[٦].

وقد جاء تفسير هذه الآية الكريمة في حديث أبي سعيد ـ رضي الله

---

(١) القعقعة: حكاية حركة الشيء يُسمع له صوت، والمعنى هنا: تضطرب وتتحرّك، أراد: كلّما صار إلى حالٍ؛ لم يلبث أن ينتقل إلى أخرى تقربه من الموت. وانظر «النهاية».

(٢) هي القربة الخَلِقة البالية.

(٣) أخرجه البخاري: ٥٦٥٥، ومسلم: ٩٢٣.

(٤) قال ابن القيّم ـ رحمه الله ـ في «زاد المعاد» (١/١٨٣): «وأمّا بكاؤه ﷺ فكان من جنس ضحكه، لم يكن بشهيق ورفع صوت؛ كما لم يكن ضحكه بقهقهة، ولكن كانت تدمع عيناه حتى تهمُلا (أي: حتى تفيضا وتسيلا) ويُسمع لصدره أزيز، وكان بكاؤه تارةً رحمةً للميت، وتارة خوفاً على أمته وشفقةً عليها، وتارة من خشية الله، وتارة عند سماع القرآن، وهو بكاء اشتياق ومحبةٍ وإجلال مُصاحب للخوف والخشية...».

(٥) النساء: ٤١.

(٦) أخرجه البخاري: ٥٠٥٠، ومسلم: ٨٠٠.

عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«يجيء النّبيّ ومعه الرّجلان، ويجيء النّبيّ ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك وأقلّ، فيقال له: هل بلّغتَ قومك؟ فيقول: نعم. فَيُدعى قومه، فيقال: هل بلّغكم هذا؟ فيقولون: لا. فيقال: من شهد لك؟ فيقولون: محمّد وأمته.**

فتُدعى أمّة محمّد فيقال: هل بلّغ هذا؟ فيقولون: نعم. فيقول: وما عِلْمكُمْ بذلك؟ فيقولون: أخبرنا نبيّنا بذلك أنّ الرُسُل قد بلّغوا، فصدّقناه.

قال: فذلكم قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا[1]﴾[2].

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: **«ما كان فينا فارسٌ يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائمٌ، إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يُصلّي ويبكي حتى أصبح»**[3].

وعن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: انكسفت الشمس يوماً على عهد رسول الله ﷺ، فقام رسول الله ﷺ يُصلّي حتى لم يكد يركع، ثم ركع، فلم يكد يرفع رأسه، ثم رفع رأسه، فلم يكد أن يسجد، ثم سجد، فلم يكد أن يرفع رأسه، ثم رفع رأسه، فلم يكد أن يسجد، ثم سجد، فلم يكد يرفع رأسه، فجعل ينفخ ويبكي ويقول: **«ربِّ ألم تعدني أن لا تُعذّبهم وأنا فيهم؟ ربِّ ألم تَعِدني أن لا تعذبهم وهم يستغفرون ونحن نستغفرك!»** فلما صلّى ركعتين انجلت الشمس، فقام فحمد الله ـ تعالى ـ وأثنى عليه ثم قال:

«إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله؛ لا ينكسفان لموت أحدٍ ولا

---

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) أخرجه ابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٥٧)، وأحمد، والبخاري نحوه برقم (٧٣٤٩)، وهو في «الصحيحة» (٢٤٤٨).

(٣) أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» (٨٩٩)، وصحّحه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٣٣٠).

لحياته، فإذا انكسفا فافزعوا إلى ذِكْر الله»[١].

عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: «بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ بصُر بجماعة فقال: **«علامَ اجتمعَ عليه هؤلاء؟»** قيل: على قبرٍ يحفرونه.

قال: ففزع رسول الله ﷺ، فبدر بين يدي أصحابه مسرعاً؛ حتى انتهى إلى القبر، فجثا عليه، قال: فاستقبلتُه من بين يديه لأنظر ما يصنع، فبكى حتى بلَّ الثَّرى من دموعه، ثم أقبل علينا، قال: **«أي إخواني! لِمثل اليوم فأعدوا»**[٢].

عن عبدالله بن الشِّخِّير ـ رضي الله عنه ـ قال: **«رأيت رسول الله ﷺ يصلّي بنا، وفي صدره أزيز**[٣] **كأزيز المرجل**[٤] **من البكاء»**[٥].

❋ ❋ ❋

(١) أخرجه النسائي في «صلاة الكسوف» كما في «مختصر الشمائل» رقم (٢٧٨)، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ : «**قلت: وكذا أبو داود (١١٩٤)، وهو مخرج في «صحيح سنن أبي داود»** (١٠٧٩)، و«الإرواء» (٢٦٢)، وسنده صحيح عند بعضهم، وفيه ركوعان في كلّ ركعة، وهو المحفوظ في أحاديث الكسوف في «الصحيحين» وغيرهما عن ابن عمرو وغيره؛ كما هو مبين في المصدرين المذكورين، وفصّلته تفصيلاً في جزء لي في «صفة صلاة الكسوف»، فما في رواية الكتاب من ذكر الركوع مرّةً شاذ لا يصح...».

(٢) أخرجه البخاري في «التاريخ»، وأحمد، وابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٨٣)، وغيرهم، وهو حديث حسن خرّجه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (١٧٥١)».

(٣) هو صوت البكاء.

(٤) هو القدر إذا غلت.

(٥) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٧٩٩)، والنسائي «صحيح سنن النسائي» (١١٥٦)، والترمذي في «الشمائل» وقال الحافظ في «الفتح»: «إسناده قوي»، وصحّحه ابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم، وصحّحه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٣٢٩).

بكاء الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ

عن العرباض بن سارية ـ رضي الله عنه ـ قال: وعَظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة؛ وجلَت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله! كأنها موعظة مودِّع فأوصنا» قال: «**أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإنْ تأمّر عليكم عبد حبشي وإنّه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنّة الخفاء الراشدين المهديّين، عضُّوا عليها بالنواجذ**[١] **وإيّاكم ومُحدثات الأمور، فإن كلّ بدعة ضلالة**»[٢].

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: «خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعْتُ مثلها قطّ، قال: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**»، قال: فغطّى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم خنين[٣]»[٤].

* * *

بكاء أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ

كان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ لا يُسمع الناس قراءته في الصلاة من

---

(١) أي: اجتهدوا على السُّنّة والزموها، واحرصوا عليها؛ كما يلزم العاضّ على الشيء بنواجذه؛ مخافة ذهابه وتفلّته، والنواجذ: الأنياب، وقيل: الأضراس» قاله المنذري في «الترغيب والترهيب».

(٢) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٣٨٥١)، والترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢١٥٧)، وابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٤٠) وغيرهم، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٤).

(٣) هو ضرب من البكاء دون الانتحاب، وأصل الخنين: خروج الصوت من الأنف، كالخنين من الفم. «النهاية».
وقال الحافظ في «الفتح»: «لهم حنين ـ بالحاء المهملة للأكثر ـ وللكشميهني بالخاء المعجمة، والأول: الصوت الذي يرتفع بالبكاء من الصدر، والثاني: من الأنف».

(٤) أخرجه البخاري: ٤٦٢١، ومسلم: ٢٣٥٩.

البكاء؛ كما أخبرت بذلك عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «**إنّ رسول الله ﷺ قال في مرضه: مروا أبا بكر يصلّي بالنّاس.**

قالت عائشة: قلت: إنّ أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمُر عمر فليصلِّ.

فقال: «**مروا أبا بكر فليصلّ بالناس**»، قالت عائشة لحفصة: قولي له إنّ أبا بكر إذا قام في مقامك لم يُسمع الناس من البكاء؛ فمر عمر فليصلِّ للناس، ففعلت حفصة.

فقال رسول الله ﷺ: «**مه[1] إنكن لأنتنّ صواحب يوسف[2]. مروا أبا بكر فليصلّ للناس**»، قالت حفصة لعائشة: ما كنت لأصيب منك خيراً»[3].

وفي رواية أُخرى: «إنّ أبا بكر رجل أسِيف إذا قام في مقامك، لم يستطع أن يصلّي بالنّاس»[4].

❋ ❋ ❋

بكاء عمر ـ رضي الله عنه ـ

وكان بكاء عمر ـ رضي الله عنه ـ يُسمَع من آخر الصفوف؛ كما روى

---

(١) أي: اكفُفي.

(٢) قال الحافظ في «الفتح»: «ووجه المشابهة بينهما في ذلك: أن زليخا استدعت النّسوة؛ وأظهرت لهنّ الإكرام بالضيافة، وأن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أظهرت أنّ سبب إرادتها صرْف الإمامة عن أبيها، كونه لا يُسمع المأمومين القراءة لبكائه، ومُرادها زيادة على ذلك، وهو أن لا يتشاءم الناس به، وفي «صحيح البخاري» (٤٤٤٥) و«صحيح مسلم» (٤١٨)، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «لقد راجعت رسول الله ﷺ في ذلك، وما حملني على كثرة مراجعته؛ إلا أنه لم يقع في قلبي أن يُحبّ الناس بعده رجلاً قام مقامه أبداً، ولا كُنت أرى أنه لن يقوم أحد مقامه، إلاّ تشاءم الناس به، فأردت أن يعدل ذلك رسول الله ﷺ عن أبي بكر»».

(٣) أخرجه البخاري: ٧١٦، ومسلم: ٤١٨.

(٤) أخرجه البخاري: ٦٦٤، ومسلم: ٤١٨.

ذلك عبدالله بن شدّاد قال: «سمعت نشيج[١] عمر وأنا في آخر الصفوف يقرأ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٢][٣].

* * *

بكاء عثمان بن عفّان ـ رضي الله عنه ـ

عن هانيء مولى عثمان قال: كان عثمان بن عفّان إذا وقف على قبر، يبكي حتى يبلَّ لحيته، فقيل له: تذكُرُ الجنة والنار، ولا تبكي، وتبكي من هذا؟ قال: إنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ القبر أوّل منازل الآخرة، فإن نجا منه، فما بعده أيسر منه» وإن لم ينج منه فما بعده أشدّ منه».

قال: وقال رسول الله ﷺ: «ما رأيتُ منظراً قطُّ إلاّ والقبرُ أفظع منه»[٤].

* * *

بكاء عائشة ـ رضي الله عنها ـ

عن ابن الحارث ابن أخي عائشة ـ زوج النبيّ ﷺ لأمّها ـ أنّ عائشة

---

(١) النشيج: صوت معه توجّع وبكاء. «النهاية».

(٢) يوسف: ٨٦.

(٣) أخرجه البخاري معلّقاً بصيغة الجزم (كتاب الأذان) «باب إذا بكى الإمام في الصلاة»، وقال شيخنا - رحمه الله - في «المختصر» (١٨٢/١): «وصله سعيد بن منصور بسند صحيح عنه، وزاد في «صلاة الصبح»، وأخرجه ابن المنذر من طريق أُخرى عن عمر نحوه، وأخرجه البيهقي أيضاً (٢٥١/٢) عنه وسنده صحيح، وفيه أنّ القراءة كانت في «العتمة» - يعني العشاء - فلعلّهما حادثتان».

(٤) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (١٨٧٨)، وابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٤٢)، وقال الترمذي: هذا حديث غريب، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «المشكاة» (١٣٢): إسناده حسن.

حُدِّثت أنّ عبدالله بن الزبير قال في بيعٍ أو عطاء أعطته عائشة: والله لتنتهين عائشة أو لأحجرنَّ عليها! فقالت: أهوَ قال هذا؟ قالوا: نعم» قالت: هو لله عليّ نذر أن لا أُكلّمَ ابن الزبير أبداً.

فاستشفع ابن الزبير إليها حين طالت الهجرة، فقالت: لا والله لا أُشفِّع فيه أبداً، ولا أتحنَّث[1] إلى نذري.

فلمّا طال ذلك على ابن الزبير؛ كلَّمَ المسور بن مخرمة وعبدالرحمن بن الأسود بن عبد يغوث ـ وهما من بني زُهرةَ ـ وقال لهما: أنشدُكما بالله لما أدخلتماني على عائشة فإنها لا يحلُّ لها أن تنذر قطيعتي[2]، فأقبلَ به المِسور وعبدالرحمن مُشتملَين بأرديتهما حتى استأذنا على عائشة فقالا: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، أندخل؟ قالت عائشة: ادخلوا» قالوا: كلنا؟ قالت: نعم ادخلوا كلّكم ـ ولا تعلمُ أنّ معهما ابن الزبير ـ.

فلمّا دخلوا دخل ابن الزبير الحجاب؛ فاعتنق عائشة وطفِقَ يناشدها ويبكي، وطفق المسور وعبدالرحمن يُناشدانها إلا ما كلّمته وقبلت منه، ويقولان إنّ النّبيّ ﷺ نهى ما قد عَلِمت من الهجرة، فإنه لا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال.

فلمّا أكثروا على عائشة من التذكرة والتحريج[3] طفقت تُذكِّرهما وتبكي وتقول: إنّي نذرت، والنّذر شديد، فلم يزالا بها حتى كلّمت ابن الزبير، وأعتقت في نذرها ذلك أربعين رقبة، وكانت تذكُرُ نذرها بعد ذلك؛ فتبكي حتى تبلَّ دموعها خمارها»[4].

***

(١) أي: لا أكتسب الحنث، وهو الذنب. «النهاية».
(٢) قال الحافظ: «لأنه ابن أُختها، وهي التي كانت تتولى تربيته غالباً».
(٣) أي: الوقوع في الحرج، وهو الضيق، لما ورد في القطيعة من النهي. «الفتح».
(٤) أخرجه البخاري: ٦٠٧٣، ٦٠٧٤، ٦٠٧٥.

بكاء أمّ أيمن وتهييجها أبا بكر وعمر ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ على البكاء

عن أنس قال: قال أبو بكر ـ رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر ـ: انطلق بنا إلى أمّ أيمن[1] نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلمّا انتهينا إليها بكت، فقالا لها: ما يُبكيك؟ ما عند الله خيرٌ لرسول الله ﷺ؟ فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أنّ ما عند الله خيرٌ لرسول الله ﷺ، ولكن أبكي أنّ الوحي قد انقطع من السماء، فهَيَّجَتْهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها»[2].

❋ ❋ ❋

بكاء عبدالرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ

عن سعد بن إبراهيم عن أبيه إبراهيم «أنّ عبدالرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ أُتِيَ بطعام ـ وكان صائماً ـ فقال: قُتل مُصعب بن عمير ـ وهو خيرٌ منّي ـ كُفِّن في بردة إن غُطِّيَ رأسه بدت رجلاه، وإن غُطِّي رجلاه بدا رأسه. وأراه قال: وقُتل حمزة ـ وهو خير منّي ـ ثمّ بسط لنا من الدنيا ما بُسط ـ أو قال: أُعطينا من الدنيا ما أعطينا ـ وقد خشينا أن تكون حسناتُنا عُجلَت لنا، ثمّ جعل يبكي حتى ترك الطعام»[3].

❋ ❋ ❋

بكاء سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ

عن أنس قال: «اشتكى سلمان، فعاده سعد، فرآه يبكي، فقال له

---

(١) وقد كانت ـ رضي الله عنها ـ حاضنة رسول الله ﷺ وخادمته في طفولته.
(٢) أخرجه مسلم: ٢٤٥٤.
(٣) أخرجه البخاري: ١٢٧٥.

سعد: ما يبكيك يا أخي؟ أليس قد صحبتَ رسول الله ﷺ؟ أليس، أليس؟

قال سلمان: ما أبكي واحدة من اثنتين؛ ما أبكي ضِنّاً للدنيا ولا كراهيةً للآخرة. ولكنّ رسول الله ﷺ عهد إليَّ عهداً؛ فما أُراني إلا قد تعدَّيْت.

قال: وما عَهِد إليك؟

قال: عَهِد إليّ أنّه يكفي أحدكم مِثل زاد الراكب، ولا أُراني إلا وقد تعدَّيت، وأما أنت يا سعد! فاتق الله عند حكمك إذا حكمت، وعند قسمك إذا قسمت، وعند همّك إذا هَمَمْتَ»[1].

قال ثابت: «**فبلغني أنه ما ترك إلا بضعة وعشرين درهماً من نفقة كانت عنده**»[2].

* * *

بكاء أبي هاشم بن عُتبة[3] ـ رضي الله عنه ـ

عن سَمُرَة بن سهم قال: «نَزلْتُ على أبي هاشم بن عتبة وهو طعين، فأتاه معاوية يعوده فبكى أبو هاشم، فقال معاوية: ما يبكيك؟ أي خال! أوجعٌ يُشئزك[4]، أم على الدنيا، فقد ذهب صفْوُها؟

قال: كلاّ؛ ولكنّ رسول الله ﷺ عهد إليَّ عهداً، وددتُ أني كنتُ تبعته. قال: «**إنك لعلّك تدرك أموالاً تُقسم بين أقوام. وإنما يكفيك من ذلك: خادم، ومَرْكَبٌ في سبيل الله**».

(١) أخرجه ابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣١٢)، وغيره، وهو صحيح، وانظر «الصحيحة» تحت رقم (١٧١٦).
(٢) أخرجه ابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣١٢).
(٣) انظر ـ إن شئت ـ ترجمته في «الإصابة» (١١٨٠).
(٤) أي: يُقلقك، يقال: شئز فهو مشئوز. وأشأزه غيره، وأصلُه الشأز، وهو الموضع الغليظ الكثير الحجارة. «النهاية».

فأدركت، فجمعت»[١].

* * *

السبيل إلى البكاء من خشية الله ـ تعالى ـ

أولاً: تقوى الله ـ سبحانه ـ والمجاهدة فيه والإخلاص[٢] له:

قال الله سبحانه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾[٣].

جاء في «روح المعاني» (٦١/٢): «﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ أحكامه المتضمّنة لمصالحكم».

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٤].

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن النبيّ ﷺ قال: **«ثلاثٌ من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممّا سواهما، وأن يحبّ المرء لا يحبه إلاّ لله، وأن يكره أن يعود في الكُفر بعد أن أنقذه الله منه؛ كما يكره أن يُقذف في النّار»**[٥].

وحلاوة الإيمان تتضمن البكاء.

ثانياً: العلم:

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[٦].

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي «صحيح سنن الترمذي» (١٨٩٦)، والنسائي «صحيح سنن النسائي» (٤٩٦٥)، وابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣١١)، وحسنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «التعليق الرغيب» (١٢٣/٤).

(٢) انظر كتابي «الإخلاص».

(٣) البقرة: ٢٨٢.

(٤) العنكبوت: ٦٩.

(٥) أخرجه البخاري: ١٦، ومسلم: ٤٣.

(٦) فاطر: ٢٨.

وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ۩ (٥٨) ۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا (٦٠)﴾[1].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗاۤ (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا ۩ (١٠٩)﴾[2].

وجاء عن عبدالأعلى التيمي في هذه الآية الكريمة: «**من أُوتي من العِلم ما لا يبكيه؛ لخليق ألا يكون أوتي علماً ينفع، لأن الله ـ تعالى ـ نعت العلماء، فقال:** ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ﴾ [الإسراء: ١٠٧] **الآية**».

وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ[3] لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٥٤)﴾[4].

وعن أبي ذرّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، إنّ السماء أطّت[5] وحقّ لها أن تئطّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلاّ وملكٌ واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذّذتم بالنّساء على**

---

(١) مريم: ٥٨ ـ ٦٠.
(٢) الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩.
(٣) أي: فتسكن وتخضع، وتذلّ له قلوبهم.
(٤) الحج: ٥٤.
(٥) قال في «النهاية»: «الأطيط: صوت الأقتاب، وأطيط الإبل: أصواتها وحنينها، أي: أنّ كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلتها حتى أطّت» والقَتَب: الرحل الصغير وهو ما يوضع على ظهر البعير للركوب.

الفُرُشات، ولخرجتم إلى الصُّعُدات تجأرون إلى الله»[١].

ثالثاً: ذكر الموت:

لا شكّ أنّ الموت يهدم اللذات ويقطعها؛ كما في قول رسول الله ﷺ: «**أكثروا ذكر هاذِم**[٢] **اللّذات: الموت؛ فإنّه لم يذكُره أحدٌ في ضيق من العيش إلاّ وسَّعه عليه، ولا ذَكره في سعةٍ إلاّ ضيَّقها عليه**»[٣].

واللّذات هي التي تحول دون دمْع العين وحزن القلب، فأكثر من ذِكْر الموت؛ مستشعراً ما بعده من أهوال، متخوفاً سوء المصير؛ لتحظى بالبكاء من خشية الله، وإنّه ليسير على من يسره الله عليه.

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنّه قال: كنت مع رسول الله ﷺ فجاءه رجل من الأنصار، فسلّم على النبيّ ﷺ، ثمّ قال: يا رسول الله! أي المؤمنين أفضل؟ قال: «**أحسنهم خُلقاً**» قال: فأي المؤمنين أكيس[٤]؟ قال: «**أكثرهم للموت ذكراً، وأحسنهم لما بعده استعداداً، أولئك الأكياس**»[٥].

---

(١) أخرجه أحمد، والترمذي «صحيح سنن الترمذي» (١٨٨٢)، وابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٧٨) وغيرهم، وهو حديث حسن خرّجه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (١٧٢٢)، وأخرجه البخاري مختصراً جدّاً بلفظ: «**لو تعلمون ما أعلم؛ لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**» كما أشار شيخنا ـ رحمه الله ـ في المصدر المذكور.
وقد تقدّم ذلك في حديث أنس من كتابنا هذا (باب بكاء الصحابة) من حديث البخاري: ٤٦٢١، ومسلم: ٢٣٥٩.

(٢) هاذم: بذال معجمة: قاطع، وبمهملة: مزيل...، وانظر «فيض القدير».

(٣) أخرج الشّطر الأوّل منه النسائي «صحيح سنن النسائي» (١٧٢٠)، والترمذي «صحيح سنن الترمذي» (١٨٧٧)، وابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٣٤) وغيرهم، وقال الترمذي: حديث حسن غريب، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ : بل هو حديث صحيح فإنّ له شواهد كثيرة... وأخرجه ابن حبان والحاكم وغيرهم، والشطر الآخر: «**فإنه لم يذكره...**» حسن كما في «الإرواء» تحت الحديث (٦٨٢).

(٤) أي: أعقل.

(٥) أخرجه ابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٣٥)، وحسّنه شيخنا ـ رحمه الله ـ بمجموع طرقه في «الصحيحة» (١٣٨٤).

رابعاً: التفكّر بأهوال ما بعد الموت:

وهكذا قادنا التفكّر بالموت إلى التخوّف ممّا يعقبه من أهوال ومخاوف، ويبدأ ذلك بأهوال القبور والبرزخ[١]، ولا تظنّن أنّ الأمر عنك بعيد، فرسول الله ﷺ يحذّرنا من هذا فيقول: «**الجنّة أقرب إلى أحدكم من شراك[٢] نعله، والنّار مِثل ذلك**»[٣].

والنصوص في هذا المجال كثيرة جدّاً، سأذكر القليل عظةً وذكرى:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كنّا مع رسول الله ﷺ إذ سَمِعَ وجبة[٤] فقال النّبيّ ﷺ: «**تدرون ما هذا؟**».

قال: قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: «**هذا حَجرٌ رُمي به في النّار منذُ سبعين خريفاً؛ فهو يهوي في النّار الآن، حتى انتهى إلى قعرها**»[٥].

وقال رسول الله ﷺ: «**إنّ طرْفَ صاحب الصُّور[٦] منذُ وُكِّل به مُستعدٌ ينظُر نحو العرش؛ مخافة أن يُؤمَر قبل أن يرتدّ إليه طَرْفه، كأنّ عينيه كوكبان دُرّيان**»[٧].

---

(١) انظر كتابي «القبر عذابه ونعيمه».
(٢) الشراك: أحد سيور النعل التي تكون على وجهها، وانظر «النهاية»، و «فيض القدير» والسَّير: الذي يعدُّ من الجلد. «المحيط».
(٣) أخرجه البخاري: ٦٤٨٨.
(٤) الوجبة: السقطة مع الهدّة. «النهاية».
(٥) أخرجه مسلم: ٢٨٤٤.
(٦) الصور: قرْن يُنفخ فيه، هكذا في الحديث الذي أخرجه ابن المبارك في «الزُهد»، وعنه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٥٨٦)، وأبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٣٩٦٨) وغيرهم، وهو حديث صحيح خرَّجه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (١٠٨٠).
(٧) أخرجه الحاكم وغيره، وهو حديث صحيح خرّجه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (١٠٧٨).

وفي رواية: «**كيف أنعمُ وقد التقمَ صاحب القرنِ القرنَ، وحنَّى جبهته، وأصغى سمْعه، ينتظر إن يؤمر أن يُنفخ، فينفخ.**

قال المسلمون: فكيف نقول يا رسول الله؟

قال: **قولوا:** حسبنا الله ونعم الوكيل، **توكَّلنا على الله ربّنا** ـ وربما قال سفيان: **على الله توكلنا** ـ»[١].

كيف أنعَم بالاً في المباحات، وفيما أحلّ الله ـ عزّ وجلّ!.

فكيف بمن يقترف الخطايا والآثام؛ وصاحب القرن قد التقم القرن وأصغى السَّمْع، متى يُؤمر بالنفخ فينفُخ.

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُرسل البُكاء على أهل النّار فيبكون حتى تنقطع الدُّموع، ثم يبكون الدّم حتى يصير في وجوههم كهيئة الأخدود**[٢]**، لو أُرسلت فيها السُّفُنُ لجرت**»[٣].

وفي رواية: «**يا أيها النّاس، ابكوا فإنْ لم تبكوا فتباكوا، فإنّ أهل النار يبكون في النّار حتى تسيل دموعهم في خدودهم، كأنها جداولُ حتّى تنقطع الدُّموع، فيسيل** ـ يعني الدم ـ **فيُقْرِحُ العيون**»[٤].

وعن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: «**إنّ أهل النار يدعون مالكاً، فلا يجيبهم أربعين عاماً، ثمّ يقول: إنّكم ماكثون، ثمّ يدعون ربهم فيقولون: ربّنا أخرجنا منها فإنْ عُدنا فإنّا ظالمون، فلا يُجيبهم مثلَ الدُّنيا،**

---

(١) أخرجه أحمد، وابن المبارك في «الزهد»، والترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٥٨٥) وغيرهم، وخرّجه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (١٠٧٩).

(٢) الأخدود: الشقُّ في الأرض وجمعه الأخاديد.

(٣) أخرجه ابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٩١) وأبو يعلى، وحسّنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (١٦٧٩).

(٤) حسّنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب»، وذكرته في (باب التباكي).

ثمّ يقول: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، ثمّ ييأس القوم، فما هو إلاّ الزفير والشهيق، تُشبه أصواتهم أصوات الحمير أوّلها شهيقٌ وآخرها زفير»[١].

وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ أمامكم عقبة كؤوداً لا يجوزُها المُثقِلون**»[٢].

وفي لفظ: عن أُمّ الدّرداء عن أبي الدّرداء ـ رضي الله عنهما ـ قالت: قلت له: ما لك لا تطلب ما يطلب فُلانٌ وفلان؟ قال: إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنّ وراءكم عقبة كؤوداً لا يجُوزُها المُثقلون فأنا أُحِبُّ أن أتخفّف لِتلك العقبة**»[٣].

ولتحقيق ذكر الموت والتفكُّر فيما بعده من أهوال؛ لا بدَّ من:

خامساً: زيارة القبور:

لقوله ﷺ: «**نهيتُكم عن زيارة القبور، فزوروها**»[٤].

وفي رواية: «**فزوروا القبور؛ فإنها تذكّر الموت**»[٥].

وفي رواية: «**ولتزِدكم زيارتها خيراً**»[٦].

---

(١) قال المنذري في«الترغيب والترهيب» (٤/٤٩٢): «أخرجه الطبراني موقوفاً، ورواته محتجّ بهم في «الصحيح» والحاكم...»، وصحّحه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٦٩١).

(٢) قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/١٣١): «أخرجه البزار بإسناد حسن، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/٢٦٣): أخرجه البزار ورجاله رجال الصحيح، غير أسد ابن موسى بن مسلم الصغير وهما ثقتان، وصحّحه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٧٦).

(٣) أخرجه الطبراني بإسناد صحيح، كما قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/١٣١)، وصحّحه شيخنا ـ رحمه الله تعالى ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٧٧).

(٤) أخرجه مسلم: ٩٧٧.

(٥) أخرجه مسلم: ٩٧١.

(٦) أخرجه أحمد، وهو حديث صحيح خرّجه شيخنا ـ رحمه الله تعالى ـ في «أحكام الجنائز» (ص١٧٨).

وفي رواية أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّي نَهيتُكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنّ فيها عبرة»**[١].

وفي رواية أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«كنتُ نهيتُكم عن زيارة القبور ألا فزوروها، فإنّها تُرقّ القلب، وتُدمع العين، وتذكّر الآخرة»**[٢].

سادساً: اجعل الآخرة همّك:

عن عبدالرحمن بن عثمان بن عفان عن أبيه؛ قال: خرج زيد بن ثابت من عند مروان، بنصف النهار قلت: ما بعثَ إليه هذه الساعة، إلا لشيءٍ سأل عنه، فسألتُه، فقال: سألنا عن أشياء سمعناها من رسول الله ﷺ سمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: **«من كانت الدُّنيا همّه، فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له. ومن كانت الآخرة نيَّته، جمع الله له أمره، وجعل غناهُ في قلبه، وأتته الدُّنيا وهي راغمة»**[٣].

وعن عبدالله: سمعْت نبيّكم ﷺ يقول: **«من جعل الهموم همّاً واحداً، همَّ المَعَادِ، كفاهُ الله همَّ دُنياه، ومن تشعَّبَتْ به الهموم في أحوال الدُّنيا، لم يبال الله في أيّ أوديته هلك»**[٤].

وعن أبي هريرة؛ عن النبيّ ﷺ قال: **«يقول الله ـ سبحانه ـ: يا ابن آدم! تفرّغ لعبادتي، أملأ صدرك غنى، وأسُدَّ فقرك، وإنْ لم تفعلْ، ملأتُ**

---

(١) أخرجه أحمد والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي وشيخنا في «أحكام الجنائز» (ص١٧٩).

(٢) أخرجه الحاكم وغيره، وهو حديث صحيح خرّجه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «أحكام الجنائز» (ص١٨٠).

(٣) أخرجه ابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣١٣)، وابن حبان، وهو حديث صحيح خرّجه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٩٥٠).

(٤) أخرجه ابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٠٧) وغيره، وهو حديث حسن خرّجه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «المشكاة» (٢٦٣).

صدرك شُغلاً، ولم أسُدَّ فقرك»[١].

سابعاً: تدبُّر القرآن العظيم:

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[٢].

وتدبُّر كتاب الله من أقوى سُبُل استجلاب البكاء، ولا بدّ لك من الاهتمام بتفسيره مستعيناً بالعلماء وأهل التفسير قدْر المستطاع، واقرأه وكأنه عليك أُنزل، كما قال بعضهم.

ومن مثل هذا ما ثبت عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنّ رجلاً قعد بين يدي رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنّ لي مملوكين؛ يكذبونني، ويخونونني، ويعصونني، وأشتمهم، وأضربهم، فكيف أنا منهم؟

قال: **«يُحسب ما خانوك وعصوك وكذّبوك، وعقابك إياهم؛ فإنْ كان عقابك إيّاهم بقدر ذنوبهم، كان كفافاً لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم، كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم، اقتصّ لهم منك الفضل.**

قال: فتنحّى الرّجل فجعل يبكي ويهتف[٣]، فقال رسول الله ﷺ: **«أما تقرأ كتاب الله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾»**[٤]. الآية.

فقال الرجل: والله يا رسول الله ما أجدُ لي ولهم شيئاً خيراً من مُفارقتهم، أُشهِدك أنّهم أحرارٌ كلّهم[٥].

---

(١) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٠٦)، وابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣١٥)، وابن حبان وغيرهم، وهو حديث صحيح مُخرَّج في «الصحيحة» (١٣٥٩).

(٢) محمّد: ٢٤.

(٣) أي: يصيح.

(٤) الأنبياء: ٤٧.

(٥) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٥٣١)، وصحّحه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٦٠٦).

وقال ابن عُيينة: لما حضرت محمّد بن المُنكدر الوفاة جزع، فدعوا له أبا حازم فجاء، فقال له ابن المُنكدر: إن الله يقول: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ فأخاف أن يبدوَ لي ما لم أكن أحتسب، فجعلا يبكيان جميعاً[١].

ثامناً: الاهتمام باستماع قراءة القرآن الكريم الخاشعة المؤثّرة، والاستكثار من قراءة كتب الرقائق[٢]:

تاسعاً: الإكثار من الأذكار وقراءة القرآن العظيم:

فإنّ لهذا أثراً كبيراً في طرْد الشيطان ورقّة القلب وبكاء العين.

ويحكى أنّ رجلاً شكا إلى الحسن قساوة قلبه، فقال: ادنه من الذّكر، وقال: مجالس الذّكر محياة العِلم وتُحدِث في القلب الخشوع.

القلوب الميّتة تحيا بالذّكر؛ كما تحيا الأرض الميتة بالقطر[٣].

عاشراً: الاستغفار ومحاسبة النَّفس:

لا شكّ أن للاستغفار أثراً كبيراً في جلاء القلوب وصقلها، كما أنّه يُمدّ النفوس بالقُوّة والثبات.

وكلّما صدق الإنسان في استغفاره ازداد شعوره بالخشوع ورِقّة القلب.

وللإكثار من الاستغفار ـ كما هو شأن النّبيّ ﷺ ـ فلا بُدّ من محاسبة

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، وزاد ابن أبي الدنيا: «فقال له أهله: دعوناك لتخفّف عليه فزدته فأخبرهم بما قال»، وانظر «المحجّة في سير الدُّلجة» لابن رجب (ص٩١).

(٢) ومن ذلك: «الزهد» لابن المبارك و«الزهد» للإمام أحمد و«التحفة العراقية في الأعمال القلبية» لشيخ الإسلام ابن تيمية، ومؤلفات ابن قيم الجوزية في ذلك، و«تهذيب موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» للقاسمي، وكتب الشيخ عبدالعزيز السلمان.

(٣) انظر - إن شئت - «لطائف المعارف» (مجلس في فضل التذكير بالله تعالى ومجالس الوعظ) ففيه كلام طيب.

النّفس وتذكُّر الذنوب كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾[١].

فقد أمَر الله ـ عزّ وجلّ ـ بمحاسبة النفس والعمل الصالح والإعداد ليوم المعاد.

وقال الله سبحانه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾[٢].

«قال عكرمة في تفسير الآية الآخيرة: يلوم على الخير والشر؛ لو فعلت كذا وكذا.

وعن سعيد بن جبير قال: تلوم على الخير والشر.

وعن مجاهد: تندم على ما فات وتلوم عليه.

وقيل غير ذلك»[٣].

وعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «**إنّ المؤمن يرى ذنوبه كأنّه قاعد تحت جبل؛ يخاف أن يقع عليه، وإنّ الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه، فقال به هكذا ـ قال أبو شهاب**[٤] **بيده فوق أنفه ـ**»[٥].

ويروى عن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا**»[٦].

ويروى عن ميمون بن مهران أنه قال: «**لا يكون العبد من المتقين؛**

---

(١) الحشر: ١٨.
(٢) القيامة: ١ - ٢.
(٣) انظر «تفسير ابن كثير» إتماماً للفائدة.
(٤) وهو أحد الرواة.
(٥) أخرجه البخاري: ٦٣٠٨.
(٦) ذكره الترمذي معلّقاً من غير جزم، وانظر «الترمذي مع تحفة الأحوذي» تحت الحديث (٢٥٧٧).

حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه، والشريكان يتحاسبان بعد العمل»[١].

و «المؤمن قوّام على نفسه يحاسبها لله، وإنما خفّ الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شقَّ الحساب يوم القيامة؛ على قومٍ أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة»[٢].

وحذار من محقّرات الذنوب، فرسول الله ﷺ يقول: «**إياكم ومحقّرات الذنوب؛ فإنما مثل محقّرات الذّنوب؛ كمثل قوم نزلوا بطن وادٍ، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى حملوا ما أنضجوا به خبزهم، وإنّ محقّرات الذنوب؛ متى يؤخَذ بها صاحبها تُهلكه**»[٣].

حادي عشر: إحسان الصلاة[٤]:

عن أبي أيوب قال: جاء رجل إلى النّبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله! علّمني وأوجز. قال: «**إذا قُمتَ في صلاتك، فصلِّ صلاة مُودِّع، ولا تكلّم بكلام تعتذر منه، وأجمع اليأس عمّا في أيدي الناس**»[٥].

فأحسِنْ بها من صلاة؛ صلاة مودّع للدنيا وزينتها وزخرفها، يذكر الإنسان فيها الموت، وما فيه من مرققاتٍ للقلب ومُبكياتٍ للعين!

---

(١) ذكره الترمذي أيضاً معلّقاً من غير جزم، وانظر «الترمذي مع تحفة الأحوذي» تحت الحديث (٢٥٧٧).

(٢) يروى عن الحسن ـ رحمه الله ـ ومعناه صحيح.

(٣) أخرجه أحمد وغيره، وهو حديث صحيح خرّجه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٣٨٩).

(٤) انظر كتابي «الصلاة وأثرها في زيادة الإيمان وتهذيب النفس».

(٥) أخرجه البخاري في «التاريخ»، وابن ماجه، وأحمد، وغيرهم، وانظر «الصحيحة» (٤٠١) (٢٨٣٩).

ثاني عشر: التباكي[١]:

واعلم ـ يرحمك الله ـ أنّ التباكي دون البكاء في المنزلة والمرتبة، ولكنّه سبيل البكاء، وذلك لأنّ المتباكي ممّن يجاهد نفسه ويُحاسبها، وممّن يسعون لتحقيق مرضاة الله ـ عزّ وجلّ ـ والله سبحانه يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾[٢].

فمن جاهد نفسه في التباكي؛ فقد هداه الله ـ عزّ وجلّ ـ إلى البكاء ووَفّقه إليه.

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يا أيها الناس! ابكوا فإن لم تبكوا فتباكُوا؛ فإنَّ أهل النار يبكون في النّار حتى تسيل دموعهم في خدودهم؛ كأنها جداول حتى تنقطع الدموع؛ فيسيل ـ يعني الدم ـ فيُقرح العيون**»[٣].

فتأمّل كيف كان رسول الله ﷺ يأمر بالبكاء أو التباكي، وهو يُبيّن بكاء أهل النّار، الدموع في الخدود والوجوه؛ كأنها جداول، حتى تنقطع الدموع فيسيل الدّم فيُقرح العيون.

فماذا تريد بعد هذا يا عبد الله حتى تبكي!

فوالله إنها لموعظة بليغة؛ تكفيك للتوبة والإنابة والبكاء، فهل أمِنْتَ هذا المشهد؟

وهل ضمنْتَ النجاة والجنّة، فابْك الدموع الآن؛ بكاءً تُؤجر عليه في

---

(١) قال ابن القيّم في «زاد المعاد» (١/١٨٥): بعد أن تكلّم في أنواع البكاء: وما كان مُستدعى متكلّفاً، فهو التباكي، وهو نوعان: محمود ومذموم، فالمحمود: أن يُستجلب لرقة القلب، ولخشية الله، لا للرياء والسمعة.
والمذموم: أن يُجتلب لأجل الخلق... وذكر قول عمر ـ رضي الله عنه ـ في شأن أسارى بدر:... وإنْ لم أجد تباكيت لبكائكما. ولم ينكر عليه ﷺ. وقد قال بعض السلف: «ابكوا من خشية الله، فإن لم تبكوا فتباكوا».

(٢) العنكبوت: ٦٩.

(٣) حسّنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب»، وتقدّم.

دنياك؛ قبل أن تبكي الدم الذي لا أجر لك فيه ولا ثواب في أُخراك.

فإن لم تبْك أو تتباكَ؛ فإيمانك ضعيف، والدنيا قد أخذت مأخذها منك، وأنت على خطر عظيم، ففرَّ إلى الله، واغتنم الحياة قبل الممات، وسارع إلى التوبة النصوح، والإنابة الصادقة، والأعمال الصالحة.

عن ابن أبي مُليكة قال: جلَسْنا إلى عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ في الحجر فقال: ابْكُوا، فإن لم تجدوا بُكاء فتباكوا، لو تعلموا العِلْمَ لصلّى أحدُكم حتّى ينكسر ظهره، ولبكى حتّى ينقطع صوته[١].

وفي قصة أُسارى بدر قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: فلمّا أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «**ما ترون في هؤلاء الأُسارى؟ فقال أبو بكر: يا نبي الله! هم بنو العمّ والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فديةً، فتكون لنا قوةً على الكُفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام.**

فقال رسول الله ﷺ: «**ما ترى يا ابن الخطاب!**» قلت: لا والله يا رسول الله» ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكنّي أرى أن تمكِّنا فنضرب أعناقهم، فتُمكِّن عليّاً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكّنّي من فلان (نسيباً لعمر) فأضرب عنقه، فإنّ هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها[٢].

فهَوِي[٣] رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر» ولم يهو ما قلت.

فلمّا كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدَين يبكيان.

قلت: يا رسول الله! أخبرني من أيّ شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن

(١) قال في «الترغيب والترهيب» (٤/٤٣٠): «رواه الحاكم مرفوعاً، وقال: صحيح على شرطهما». قال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «التعليق الرغيب»: كذا والظاهر أنّه خطأ مطبعيّ؛ كما يدلّ عليه السياق، وهو كذلك في «المستدرك» (٤/٥٧٨ ـ ٥٧٩)، ووافقه الذهبي على تصحيحه، وهو كما قال، وكذا أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٠٠٧) موقوفاً.

(٢) قال في «النهاية»: «فيه ذِكْر «صناديد قُريش» من غير موضع، وهم أشرافهم، وعُظماؤهم ورؤساؤهم، الواحد صنديد، وكل عظيم غالب صنديد».

(٣) فهَوِي: أي: أحبَّ ذلك واستحسنه.

وجدْت بُكاءً بكيت، وإن لم أجد بُكاءً تباكيتُ لبُكائكما.

فقال رسول الله ﷺ: «**أبكي للّذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عُرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة**» (شجرة قريبة من نبيّ الله ﷺ) **وأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ**: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[١] إلى قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾[٢]، فأحلَّ الله الغنيمة لهم»[٣].

❁ ثالث عشر: الاستماع إلى المواعظ:

وفي ذلك نصوص كثيرة؛ منها حديث العرباض بن سارية ـ رضي الله عنه ـ المتقدّم: «**وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة؛ وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون...**».

وتقدّم قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[٤]، تقدّم أنّهم ممّن مالوا إلى الدنيا، وأعرضوا عن مواعظ الله.

جاء في «لطائف المعارف» (ص٥١ ـ ٥٢): «**المواعظ: سياطٌ تُضرب بها القلوب، فتؤثّر في القلوب، كتأثير السياط في البدن، والضّرب لا يؤثر بعد انقضائه؛ كتأثيره في حال وجوده، لكن يبقى أثر التألّم بحسب قوّته وضعفه، فكلّما قوي الضرب؛ كانت مدّة بقاء الألم أكثر.**

كان كثير من السلف إذا خرجوا من مجلس سماع الذّكر؛ خرجوا

---

(١) ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي: يكثر القتل والقهر في العدوّ. قال في «النهاية»: «الإثخان في الشيء: المبالغة فيه والإكثار منه. يقال: أثخنه المرض إذا أثقله ووهنه، والمراد به ها هنا المبالغة في قتل الكفار».

(٢) الأنفال: ٦٧ ـ ٦٩.

(٣) أخرجه مسلم: ١٧٦٣.

(٤) الحديد: ١٦.

وعليهم السكينة والوقار؛ فمنهم من كان لا يستطيع أن يأكل طعاماً عقيب ذلك، ومنهم من كان يعمل بمقتضى ما سِمعه مدّة.

كان الحسن إذا خرج إلى الناس، فكأنّه رجل عاين الآخرة؛ ثمّ جاء يُخبر عنها، وكانوا إذا خرجوا مِن عنده، خرجوا وهم لا يعدّون الدنيا شيئاً.

وكان سفيان الثوري يتعزّى بمجالسه عن الدنيا.

وكان أحمد لا تُذكر الدنيا في مجالسه ولا تُذكَر عنده.

قال بعضهم: لا تنفع الموعظة إلاّ إذا خرجت من القلب، فإنها تصل إلى القلب، فأمّا إذا خرجت من اللسان؛ فإنها تدخل من الأذن، ثم تخرج من الأخرى».

رابع عشر: تطهير القلب من أدران الغل وأوحال الحسد وأوساخ الغش:

وهذا الأمر له أثره الكبير في استجلاب البكاء وعدمه يُعيق ذلك ويمنعه.

خامس عشر: الإكثار من النوافل:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّ الله ـ تعالى ـ قال: من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضته عليه، وما زال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته؛ كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه، وما تردّدْتُ عن شيء أنا فاعله؛ تردُّدي عن قبض نفس المؤمن؛ يكره الموت وأنا أكره مساءته»**[1].

---

(١) أخرجه البخاري: ٦٥٠٢ وغيره، وانظره وتخريجه وما فيه من فوائد في «الصحيحة» (١٦٤٠).

فأكثر من النوافل ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

أكثر من نوافل الصلاة والصيام والزكاة والحجّ وكل برٍّ وخير تقدر عليه؛ حتّى يحبّك الله ـ تعالى ـ ويعطيك ما تسأله، وليكن من أوّليات ذلك؛ أن يرزقك البكاء من خشيته.

سادس عشر: التقلّل من الدنيا والزّهد فيها:

فإنَّ حبّ الدنيا سبب في قسوة القلوب والصدّ عن سبيل الله، والزهد فيها سبب في لين القلوب وخشوعها وبكاء العيون ودموعها.

فحذار من التنعم والاستكثار منه، وعليك بالزهد في الدنيا والتقلّل منها ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وأكثر من الكتب التي تحثّ على ذلك[١].

وتأمّل هدي النّبيّ ﷺ في الزهد، وتدبّر منهجه في خشونة العيش؛ في الطعام والشراب واللباس والأثاث... من ذلك:

ما روته عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «ما شبع آل محمّد منذ قَدِم المدينة من طعام بُرٍّ؛ ثلاث ليالٍ تباعاً حتى قُبض»[٢].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «خرج رسول الله ﷺ من الدنيا؛ ولم يشبع من خبز الشعير»[٣].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «ما شبع آل محمّد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين؛ حتى قُبض رسول الله ﷺ»[٤].

وعن عروة عن عائشة أنها قالت لعروة: «ابن أختي! إن كنّا لننظر إلى

---

(١) انظر في هذا الموضوع كتاب «رياض الصالحين» (باب فضل الزهد في الدنيا والحث على التقلل منها وفضل الفقر) و (باب فضل الجوع وخشونة العيش..).

(٢) أخرجه البخاري: ٦٤٥٤، ومسلم: ٢٩٧٠.

(٣) أخرجه البخاري: ٥٤١٤.

(٤) انظر مسلم تحت الحديث: ٢٩٧٠.

الهلال ثلاثة أهلةٍ في شهرين، وما أوقِدت في أبيات رسول الله نار.

فقُلت: ما كان يُعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كان لهم منائح[١]، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من أبياتهم فيسقيناه»[٢].

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: **«ما أعلم النّبيّ ﷺ رأى رغيفاً مرقّقاً[٣] حتى لَحِق بالله»**[٤].

وعن سماك قال: سمعت النعمان بن بشير يقول: **«ألستم في طعامٍ وشراب ما شئتم؟ لقد رأيت نبيكم ﷺ وما يجد من الدَّقل[٥] ما يملأ بهَ بطنه»**[٦].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان فراش رسول الله ﷺ من أُدم[٧]، حشوه ليف»[٨].

وعن أبي بُردة قال: **«أخرجت إلينا عائشة كساءً وإزاراً غليظاً فقالت: قُبض روح النّبيّ ﷺ في هذين»**[٩].

والأحاديث في ذلك كثيرة[١٠].

---

(١) قال في «النهاية»: منيحة اللبن: أن يُعطيه ناقة أو شاة؛ ينتفع بلبنها ويُعيدها، وكذلك إذا أعطاه لينتفع بوبرها وصوفها زماناً ثمّ يردّها.

(٢) أخرجه البخاري: ٦٤٥٩، ومسلم: ٢٩٧٢.

(٣) هي الأرغفة الواسعة الرقيقة. «النهاية».

(٤) أخرجه البخاري: ٥٣٨٥ و ٦٤٥٧، ومواطن أُخرى.

(٥) وهو التمر الرّديء.

(٦) أخرجه مسلم: ٢٩٧٧.

(٧) أي: من جلد.

(٨) أخرجه البخاري: ٦٤٥٦، ومسلم: ٢٠٨٢.

(٩) أخرجه البخاري: ٥٨١٨، ومسلم: ٢٠٨٠.

(١٠) وانظر للمزيد في ذلك «صحيح البخاري» (كتاب الأطعمة) «باب ما كان النّبيّ ﷺ وأصحابه يأكلون» و(كتاب الرقاق) «باب كيف كان يعيش النّبيّ ﷺ وأصحابه» و«صحيح مسلم» (كتاب الزهد والرقائق) و«رياض الصالحين» (باب فضل الجوع وخشونة العيش...).

عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «**كُنْ في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**».

وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيتَ فلا تنتظر الصّباح، وإذا أصبحْت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحّتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[١].

فهلمّ بنا يا أخي إلى حياةٍ كحياة الغرباء أو عابري السبيل... في السلوك والتخلّق، والمطعم والمشرب والمسكن وكلّ ما نستطيع، نرقب الوصول إلى المقرّ الأصيل... وبهذا لا ننتظر الصباح إذا أمسينا، ولا ننتظر المساء إذا أصبحنا، لا نُسوِّف في توبة أو إنابة أو أداء حقٍ من الحقوق، أو عمل خيرٍ من الخيرات.

نعمل وكأننا نرى القيامة رأي عين، نأخذ من صحتنا لمرضنا، ونوظّف الصحّة في الطاعات، ونستغلّ الحياة للنجاة من أهوال ما بعد الممات.

وهل يسعى الغريب عن موطنه وأهله وأبنائه وعشيرته وأقربائه إلى بناء قصرٍ في بلاد الغُربة!

أم يسكن عابر السبيل في الطريق المنقطع الأجدب!

فأنتَ ـ يرحمك الله ـ غَريب، غريب في هذه الدنيا، بعيد عن مسكن الجنّة وعن زوجك وأبنائك هناك، هذا إذا كنت من أهلها، فكيف إذا كنت ممن يعملون أعمال أهل النّار، لا سكن لك في جنّةٍ، ولا أهل لك فيها ولا ولد، والعذاب شرٌّ غائب ينتظرك.

فحذار حذار من التنعّم، فرسول الله ﷺ يقول: «**إياك والتنعّم، فإنّ عباد الله ليسوا بالمتنعّمين**»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري: ٦٤١٦.

(٢) أخرجه أحمد وأبو نعيم في «الحلية»، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «المشكاة» (٥٦٦٢): إسناده جيّد، وانظر تفصيله في «الصحيحة» (٣٥٣).

وعليك بالبذاذة فرسول الله ﷺ يقول: «**البذاذة من الإيمان**»[١] قال: البذاذة القشافة» يعني التقشّف.

سابع عشر: رحمة اليتيم وإعانته ومسح رأسه وإطعامه:

عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: أتى النّبيّ ﷺ رجل يشكو قسوة قلبه، قال: «**أتحب أن يلين قلبك؟ وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك، يلين قلبك، وتدرك حاجتك**»[٢].

ثامن عشر: الإقلال من الضّحك:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تُكثروا الضحك، فإنّ كثرة الضحك تُميت القلب**»[٣].

تاسع عشر: الخوف من عدم قَبول الأعمال:

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «قلت: يا رسول الله! ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾[٤]. أهو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ قال: **لا، يا بنت أبي بكر**» (أو: **يا بنت الصّدّيق**») **ولكنّه الرّجل يصوم ويتصدّق ويُصلّي، وهو يخاف أنْ لا يُتقبّل منه**»[٥].

* * *

(١) أخرجه ابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٢٤)، وهو حديث صحيح مخرّج في «الصحيحة» (٣٤١).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» وصحّحه شيخنا ـ رحمه الله ـ بطرقه وشواهده في «الصحيحة» تحت الحديث (٨٥٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٨١) وغيره، وهو حديث صحيح خرّجه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٥٠٦).

(٤) المؤمنون: ٦٠.

(٥) أخرجه الترمذي وابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٨٤) وغيرهما، وهو حديث حسن خرّجه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (١٦٢).

مواقف وأقوالٌ مأثورة في البكاء من خشية الله ـ تعالى ـ والحزن والتذكير بالآخرة[1]

عن جعفر بن برقان قال: بلغنا أن سلمان الفارسي ـ رضي الله تعالى عنه ـ كان يقول: «**أضحكني ثلاث وأبكاني ثلاث، ضحكت من مؤمّل الدنيا والموت يطلبه، وغافل لا يُغفَل عنه، وضاحك ملء فيه؛ لا يدري أمسخِطٌ ربَّه أو مُرضيَه**.

وأبكاني ثلاث: فراق الأحبة محمّد وحزبه، وهول المطلع عند غمرات الموت، والوقوف بين يدي رب العالمين؛ حين لا أدري إلى النّار انصرافي أم إلى الجنّة».

وعن سفيان الثوري قال: قام أبو ذرّ الغفاري عند الكعبة فقال: يا أيها الناس! أنا جندب الغفاري، هلمّوا إلى الأخ الناصح الشفيق، فاكتنفه الناس فقال: «**أرأيتم لو أنّ أحدكم أراد سفراً؛ أليس يتخذ من الزاد ما يُصلحه ويُبلغه؟**» قالوا: بلى.

قال: «**فسفر يوم القيامة أبعد ما تريدون، فخذوا منه ما يصلحكم**»، قالوا: وما يُصلحنا؟

قال: «**حجّوا حجّةً لعظام الأمور، صوموا يوماً شديداً حره لطول النشور**.

صلّوا ركعتين في سواد الليل لوحشة القبور، كلمة خير تقولها أو كلمة سوء تسكت عنها لوقوف يوم عظيم، تصدَّق بمالك لعلك تنجو من غيرها.

اجعل الدنيا مجلسين: مجلساً في طلب الآخرة، ومجلساً في طلب الحلال، والثالث يضرك ولا ينفعك لا تريده.

---

(١) جميع هذه الأقوال من كتاب «حلية الأولياء» واستفدتها من كتاب «روض الزاهدين»، وهو اختصار له.

اجعل المال درهمين: درهماً تنفقه على عيالك من حله، ودرهماً تقدّمه لآخرتك، والثالث يضرك ولا ينفعك لا تريده».

وعن سلام بن أبي مطيع قال: «أُتِيَ الحسن بكوز من ماء؛ ليفطر عليه، فلمّا أدناه إلى فيه بكى وقال: ذكرت أُمنية أهل النّار قولهم: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾، وذكرت ما أُجيبوا ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[1].

وعن الحسن قال: إنكم أصبحتم في أجل منقوص، وعمل محفوظ، والموت في رقابكم، والنّار بين أيديكم، فتوقعوا قضاء الله في كلّ يوم وليلة، ولينظر امرؤ ما قدَّم لنفسه».

وعنه قال: «ابن آدم! إنما أنت أيّام، كلمّا ذهب يومٌ ذهب بعضك».

وعنه أيضاً قال: «يحقّ لمن يعلم أنّ الموت مورده، وأنّ الساعة موعده، وأنّ القيام بين يدي الله ـ تعالى ـ مشهده؛ أن يطول حُزنه».

عن ثابت البناني قال: «كنّا نتبع الجنازة؛ فما نرى إلاّ متقنّعاً متفكراً».

عن الأعمش قال: «إن كنّا لنشهد الجنازة؛ فلا ندري من نعزِّي من حزن القوم».

وعن سفيان بن عيينة قال: قال إبراهيم التيمي: «مَثَّلْتُ نفسي في النّار؛ أُعالج أغلالها وسعيرها، وآكل من زقومها، وأشرب من زمهريرها، فقلت: يا نفسي أي شيء تشتهين؟

قالت: أرجع إلى الدنيا أعمل عملاً أنجو به من هذا العذاب، ومثَّلْت نفسي في الجنّة مع حورها، وألبس من سندسها وإستبرقها وحريرها، فقلت: يا نفسي أي شيء تشتهين؟

قالت: أرجع إلى الدنيا، فأعمل عملاً أزداد من هذا الثواب، فقلت: أنت في الدنيا وفي الأمنية».

---

(١) الأعراف: ٥٠.

وعن بكير - أو أبي بكير - عن إبراهيم التيمي قال: «ينبغي لمن لم يحزن أن يخاف أن يكون من أهل النار، لأنّ أهل الجنّة قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾[1]، وينبغي لمن لم يُشفق؛ أن يخاف أن لا يكون من أهل الجنّة لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾[2].

وعن زكريا العبدي عن إبراهيم النخعي: «أنه بكى في مرضه، فقالوا له: يا أبا عمران! ما يبكيك؟ قال: وكيف لا أبكي، وأنا أنتظر رسولاً من ربي؛ يبشّرني إمّا بهذه وإمّا بهذه؟!».

عن هشام بن حسان قال: «كان محمّد بن واسع إذا قيل له كيف أصبحت يا أبا عبدالله؟ قال: ما ظنّك برجل يرحل كلّ يوم إلى الآخرة مرحلة».

❋ ❋ ❋

من ثمرات البكاء من خشية الله - تعالى -

هناك ثمرات عديدة كثيرة؛ يجنيها الباكون من خشية الله - تعالى - المخلِصون في ذلك منها:

١ - يُظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه.

٢ - لا يَلجون النّار ولا تمسُّهم.

٣ - الفوز بحب الله - تعالى - لقوله ﷺ: «**ليس شيءٌ أحبّ إلى الله - تعالى - من قطرتين وأثرين: قطرة دموع من خشية الله...**»[3].

٤ - البشرى بطوبى والفوز بالجنّة وما فيها من نعيم وسرور في

---

(١) فاطر: ٣٤.

(٢) الطور: ٢٦.

(٣) تقدّم.

الآخـرة ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾[(١)].

٥ ـ الاستقامة في الدنيا والتلذّذ بحلاوة الإيمان.

٦ ـ زيادة الإيمان والهدى.

٧ ـ الطمأنينة والراحة النفسية.

٨ ـ يجعل الله ـ سبحانه ـ لهم المخرج، ويرزقهم الرزق الحسن من حيث لا يحتسبون الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[(٢)].

٩ ـ يجعل الله ـ سبحانه ـ لهم من أمرهم يُسراً ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[(٣)].

١٠ ـ يحظون بالتأسّي بالنّبيّ ﷺ؛ لأن البكاء من خشية الله ـ تعالى ـ من هديه.

١١ ـ يحظون بالاقتداء بالصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ لأن البكاء من خشية الله ـ تعالى ـ من هديهم.

١٢ ـ يتلذّذون في الجنّة بذكر الخوف والبكاء في الدنيا كما في قوله ـ تـعـالـى ـ: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾[(٤)].



(١) الإنسان: ١١ ـ ١٢.
(٢) الطلاق: ٢ ـ ٣.
(٣) الطلاق: ٤.
(٤) الطور: ٢٦ ـ ٢٨.



فقه الدعوة وتزكية النفس

(١٠)

سورة المطفّفين وأثرها في السلوك وتزكية النفس

بقلم
حسين بن عودة العوايشة






ويلٌ[(١)] للمطفّفين[(٢)]

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، قال: «لمّا قدم النّبيّ ﷺ المدينة؛ كانوا من أخبث النّاس كيلاً؛ فأنزل الله ـ سبحانه ـ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾، فأحسَنوا الكيل بعد ذلك»[(٣)].

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾:

خسار وهلاك وحُزن لمن يبخس في الميزان ولا يؤدي الحقّ اللازم فيه.

---

(١) الويل: الحُزن، والهلاك، والمشقّة من العذاب، وكلّ من وقع في هلكة دعا بالويل. «النهاية».

«ويقال: أصْله: وَيْ لفلان: أي: حُزنٌ لفلان؛ فكثر الاستعمال للحرفين، فوصلت اللام بـ «وَيْ» وجُعلت حرفاً واحداً...» «زاد المسير» (١٠٦/١).

وفي الحديث: «ويل للذي يحدّث بالحديث؛ ليُضحِك به القوم فيكذب، ويلٌ له ويلٌ له».

أخرجه الترمذي ـ وقال: حديث حسن ـ «صحيح سنن الترمذي» (١٨٨٥)، وأبو داود، وأحمد، وانظر «غاية المرام» (٣٧٦).

(٢) المراد بالتطفيف ـ ها هنا ـ: البَخْس في المكيال والميزان، إمّا بالازدياد إن اقتضى من النّاس، وإمّا بالنُّقصان إنْ قضاهم...» «تفسير ابن كثير».

قال ابن قتيبة: المطفّف الذي لا يُوفي الكيل، يُقال: إناء طَفَّان: إذا لم يكن مملوءاً، وقال الزجّاج: «إنّما قيل: مُطفّف؛ لأنّه لا يكاد يسرق في الميزان والمكيال إلاّ الشيء الطفيف، وإنما أُخِذ مِنْ طفّ الشيء، وهو جانبه» «زاد المسير» (٥٢/٩).

(٣) أخرجه النسائي، وابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (١٨٠٨).

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣﴾:

إنّهم يتّبعون الهوى في معاملاتهم، فإذا كان الكيل لهم استَوْفَوْا حقّهم؛ فكان وافياً زائداً، وإذا كان لغيرهم أنقصوه.

لقد ظنّ هؤلاء أنّهم رابحون سعداء، وأنّ المال يجلب لهم القوّة والمتعة؛ ولكنّ الله ـ تعالى ـ بشّرهم بالويل، والخُسران، والهلاك.

جاء في «أضواء البيان»[1]: «والتقديم في افتتاحيّة هذه السورة بالويل للمطفّفين يُشعر بشدّة خطر هذا العمل، وهو فِعل خطير؛ لأنه مقياس اقتصاد العالَم وميزانُ التّعامل، فإذا اختلَّ أحدث خَلَلاً في اقتصاده، وبالتّالي اختلالاً في التعامل، وهو فساد كبير.

... ولذا فقد ورد ذكر الكيل والوزن، والحثُّ على العناية بهما في عدّة مواطِنَ، بعدَّة أساليب؛ منها الخاصّ، ومنها العامّ.

فقد ورد في الأنعام، والأعراف، وهود، وبني إسرائيل، والرحمن، والحديد، أي: في ستٍّ سور من القرآن الكريم...».

﴿أَلَا يَظُنُّ[2] أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾:

إنّ العبد يذكر البعث ليوم عظيم حين يبيع ويشتري.

إنّه يذكر البعث حين يكيل ويزن.

إنّه يذكر النّشور حين يتلفّظ بالكلمة.

---

(١) انظر (٩١ ـ ٩٢) ـ بحذف يسير ـ.

(٢) الظنّ: تأتي بمعان: الشكّ، والعلم، واليقين، والأُولى غير مرادة هنا، وفي «تفسير ابن كثير»: «﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: أما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر...»؟!
وفي «زاد المسير»: «قال المفسّرون: «والظنّ ها هنا بمعنى العِلم واليقين». وفيه أيضاً: قال الزّجاج: «**المعنى: لو ظنّوا أنّهم يُبعثون؛ ما نقصوا في الكيل والوزن**».

إنّه يذكُر قيام النّاس لربّ العالمين؛ حين يتعامل بالدّرهم والدينار.

إنّه ارتباط لا انفصام له بين السّلوك والآخرة.

إنّه النُّور الذي يُستضاء به، والهدى الذي يُستهدى به.

إنّ الأمّة التي تَدِين بهذا الدين لن تُغلب.

إنّ الأمّة التي تعيش هذا الاعتقاد لن تُقهر.

إنّ الأمّة التي تحيا هذا السلوك لن تَشْقى.

إنّها مراقَبَة الله ـ تعالى ـ في السرِّ والعلن.

من هنا؛ رأيت الجيل السابق سابقاً، سامقاً، عزيزاً، ورأيتنا نعاني من الكروب، والأحزان، والبلاء، والآفات، والمصائب؛ لأننا أَبعدنا من حياتنا البعث واليوم الآخر.

ما الذي يردع التاجرَ عن الغِشّ سوى خشيةِ الله ـ تعالى ـ؟!

ما الذي يَزجُر المرْءَ أن يَكْذِب ويغتاب إلا مخافة الله ـ تعالى ـ؟!

ما الذي يمنعُ الآثامَ والمعاصي غيْر الخوفِ من حساب الله وعذابه؟!

ما الذي يُصلح الراعي والرعيّة إلا خوفُهم من البعث وما يعقبه؟!

... إلا خوفُهم من قيامهم ليوم عظيم؛ يغيب أحدهم في عَرَقِه إلى أنصاف أُذنيه.

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النّبيّ ﷺ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ قال: «**يقوم أحدهم في رشحِه**[1] **إلى أنصاف أذنيه**»[2].

(١) أي: عَرَقه.

(٢) أخرجه البخاري: ٦٥٣١، ومسلم: ٢٨٦٢.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم»[١].

وفي رواية: «إنّ العرقَ يوم القيامة ليذهب في الأرض سبعين باعاً[٢]، وإنّه ليبلغُ إلى أفواه النّاس ـ أو إلى آذانهم ـ يشك ثورٌ أيهما قال»[٣].

وعن المقداد بن الأسود، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُدنى الشمسُ يومَ القيامة من الخلق؛ حتى تكون منهم كمقدار ميل»[٤].

قال سُليم بن عامر: «فوالله! ما أدري ما يعني بالميل: أمسافة الأرض، أم الميل الذي تُكتحل به العين»؟!

قال: «فيكون النّاس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حَقْوَيه[٥]، ومنهم من يُلْجِمُه العرق إلجاماً، قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه»[٦].

إنّ هذا يُعيننا على إدراك مِثل قوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليقل خيراً أو ليصمُت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فلا يؤذِ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليُكرِم ضيفه»[٧].

وأيضاً قوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فلا يخلونّ بامرأة

---

(١) أخرجه البخاري: ٦٥٣٢.
(٢) الباع: قَدر مدِّ اليدين. «المحيط».
(٣) «صحيح مسلم»: ٢٨٦٣.
(٤) أخرجه مسلم: ٢٨٦٤.
(٥) الأصل في الحقو: مَعْقِدُ الإزار، وهو هنا ـ كما يبدو من السياق ـ ما يحاذي هذا الموضع من الجنبين.
(٦) أخرجه مسلم: ٢٨٦٤.
(٧) أخرجه البخاري: ٦٤٧٥، ومسلم: ٤٧.

ليس معها ذو محرم منها؛ فإنّ ثالثهما الشيطان»[١].

ومِثل هذا كثير في الحديث الشريف؛ في الحضّ على الخوف من الله ـ تعالى ـ وتذكُّر اليوم الآخر؛ في التعامُل، والتجارة، وعدم الجلوس على مائدةٍ يُدار عليها الخمْرُ، واجتناب بعض اللّباس والتحلل من المظالم...

قال في «أضواء البيان»[٢] في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝﴾ تقريع وتوبيخ لهؤلاء النّاس، وفيه مسألتان:

الأُولى: أنّ الباعث على هذا العمل هو عدم اليقين بالبعث، أو اليقين موجود؛ لكنّهم يعملون على غير الموقنين، أي: غير مُبالين؛ كما قال الشاعر في مثل ذلك ـ وهو ما يُسمّى في البلاغة بلازم الفائدة ـ:

جاء شقيق عارضاً رمحه إن بني عمّك فيهم رماح

فالمتكلّم يعلم أنّ شقيقاً عالم بوجود الرّماح في بني عمّه، وأنهم مستعدون للحرب معه؛ ولكنّه رأى منه عدم المبالاة وعدم الاستعداد؛ بأن وضَع رمحه أمامه معترضاً، فهو بمنزلة من لا يؤمن بوجود الرّماح في بني عمّه، وهو لم يُرِدْ بكلامه معه أن يُخبره بأمر يجهله، ولكنّه أراد أن ينبّهه لما يجب عليه فِعله من التّأهُّب والاستعداد، وهكذا هنا، وهذا عام في مُسوِّف ومتساهل، كما جاء: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»[٣].

وأورد القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٩/٢٥٥) عند هذه الآية: أنّ أعرابيّاً قال لعبدالملك بن مروان: قد سمعت ما قال الله في المطفّفين، فما ظنّك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن؟!» اهـ.

---

(١) أخرجه أحمد من حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ وغيره، وصحّحه الحاكم، ووافقه الذهبي وشيخنا الألباني ـ رحمه الله ـ كما في «غاية المرام» (ص١٨٠).

(٢) (٩/٩٧ ـ ٩٨).

(٣) أخرجه البخاري: ٢٤٧٥، ومسلم: ٥٧.

فيا ليت حكّامَ المسلمين وولاةَ الأمور يُدركون هذه المعانيَ!

ليتهم يذكُرون حساب الله وعذابَه.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾[1].

هناك؛ بلا قصور، أو جند، أو خدم، أو حشم، أو سلطان، أو جاه!

إنّ مسؤوليّة الأفراد عظيمة، فكيف بمن يحمل مسؤوليّة الأُمّة؟!

﴿كَلَّا[2] إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ[3] ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ

---

(١) الحاقّة: ١٨.

(٢) كلَّا: ردْع وزجْر، أي: ليس لأمر على ما هم عليه فليرتدعوا، وها هنا تمّ الكلام عند كثير من العلماء، وكان أبو حاتم يقول: «كلّا» ابتداء يتّصل بما بعده على معنى «حقّاً» «زاد المسير».
وجاء في «المنهاج» ـ لمحمد الأنطاكي ـ: كلّا: «حرف جواب لا يُستعمل إلاّ في معرض الردع والزّجر».

(٣) قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ بشيء من الحذف: «... أي: أنّ مصيرهم ومأواهم لفي سجّين فِعّيل من السّجن، وهو الضيق... ولهذا عظُم أمره؛ فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾﴾ أي: هو أمر عظيم، وسجْن مقيم وعذاب أليم».
ثمّ ذكر ـ رحمه الله ـ أقوالاً متفرّقة في ذلك، ثمّ قال: «والصحيح أنّ سجِّيناً مأخوذٌ من السِّجن، وهو الضيق؛ فإنّ المخلوقاتِ: كلّ ما تسافل منها وضاق، وكلّ ما تعالى منها اتّسع»».
ولـمَّا كان مصير الفجّار إلى جهنّم ـ وهي أسفل السّافلين ـ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾؛ قال ها هنا: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾﴾ وهو يجمع الضيق والسفول، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان: ١٣] انتهى.
وفي الحديث: «**اكتبوا كتابه في سجّين، في الأرض السُّفلى**» ـ وسيأتي تخريجه إن شاء الله ـ.
وقال الزجاج في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾﴾: «أي: ليس ذلك عمّا كنت تعلمه أنت، ولا قومك» «تفسير البغوي».

مَّرْقُومٌ ۝٩﴾[(١)].

﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾:

تُرى ما الذي كان يفعله الفاجر في دنياه:

... الكفر، والفسوق، والعصيان.

... الاستمتاع بكلّ محرّم.

... التلذُّذ بما يحلو له.

وما الذي ينتظر الفاجرَ أوّلَ انقطاعه من الدنيا وإقباله من الآخرة؛ وقبل أن يقول الله ـ عزّ وجلّ ـ: **«اكتبوا كتابه في سجّين؛ في الأرض السفلى»؟!**

تنزل إليه من السماء ملائكة، غلاظ، شداد، سود الوجوه.

يُقال له: أيّتها النّفس الخبيثة اخرُجي إلى سخط من الله وغضب؛ فتفرّق في جسده، حتى إنّ عروقه وعصبه لتقطّع عند الانتزاع.

يلعنه كل ملك بين السماء والأرض.

تُغلق أبواب السماء ولا تُفتّح له.

تخرُجُ منه كأنتن ريح جيفة وُجدت على وجه الأرض لا تُفتح له أبواب السماء.

---

(١) «ليس تفسيراً لقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨﴾؛ وإنما هو تفسير لما كُتب لهم من المصير إلى سجّين؛ أي: مرقوم، مكتوب، مفروغ منه، لا يُزاد فيه أحد، ولا ينقص منه أحد، قاله محمد بن كعب القرظي». «تفسير ابن كثير».
وفي «روح المعاني» ـ بشيء من الحذف ـ: «و﴿مَّرْقُومٌ﴾ من رَقَمَ الكتاب إذا أعجمه وبيّنه؛ أي: كتاب بيِّن الكتابة، أو من رَقَمَ الكتاب: إذا جعل له رقْماً، أي: علامة.
وقال ابن عباس والضّحاك: مرقوم: مختوم بلغة حِمْير، وذكر بعضهم أنّه يُقال: رقَّم الكتاب بمعنى ختمه، ولم يخصَّه بلغة دون لغة، وفي البحر: ﴿مَّرْقُومٌ﴾ أي: مُثبت كالرّقْم لا يبلى ولا يمحى..».

يقول الله ـ عزّ وجلّ ـ في حقّه: «**اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى**» وماذا بعد هذا القول؟

يُقال: أعيدوا عبدي إلى الأرض؛ فإني وعدتهم: أني منها خلقتهم، وفيها أُعيدهم، ومنها أُخرجهم تارَة أُخرى.

وتُطرح روحه من السماء طرحاً حتى تقع في جسده فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان شديدا الانتهار، فينتهرانه ويُجلسانه، فيقولان له: من ربُّك؟ ما دينك؟ ما تقول في هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟

وفي كلِّ ذلك يقول: هاه هاه لا أدري! فينادي مناد من السماء: أن كذب فافرشوا له من النّار، وافتحوا له باباً إلى النّار، فيأتيه من حرّها وسَمومها[١].

يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه.

يُضرب بمرزبة[٢] ضربة حتى يصير بها تراباً، ثمّ يُعيده الله كما كان، فيضربه ضربة أُخرى، فيصيح صيحة يسمعه كل شيء إلاّ الإنس والجن، ثمَّ يُفتح له باب من النّار، فيقول: ربِّ! لا تُقِم السّاعة.

وذلك لحديث البراء بن عازب الطويل عن النّبي ﷺ: «**... وإنّ العبد الكافر** (وفي رواية: **الفاجر**) **إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة؛ نزل إليه من السماء ملائكة؛ غلاظ، شداد، سود الوجوه، معهم المُسوح**[٣] **من النّار، فيجلسون منه مدَّ البصر، ثمّ يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيَّتها النّفس الخبيثة! اخرجي إلى سخط من الله وغضب** ـ قال ـ: **فتفرَّق في جسده؛ فينتزعها كما يُنتزع السُّفود الكثير الشعب من الصوف المبلول، فتُقطّع معها العروق والعصب؛ فيلعنه كلُّ ملك بين السماء**

---

(١) السّموم: الريح الحارّة.

(٢) المِرزَبة: ـ بالتخفيف ـ: المطرقة الكبيرة التي تكون للحداد. «النهاية».

(٣) جمع المسح، وهو ثوب من الشعر الغليظ، والكساء من الشَّعَر، والجمع القليل أمساح، والكثير: مُسوح. ملتقطاً من «لسان العرب» و «تاج العروس».

والأرض وكل ملك في السماء، وتُغلق أبواب السماء؛ ليس من أهل باب إلاّ وهم يدعون الله ألاّ تَعرُجَ روحُه من قِبلهم فيأخذها، فإذا أخذها، لم يدَعوها في يده طرفة عين؛ حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويُخرَج منها كأنتن ريح جيفة وُجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلاّ قالوا: ما هذا الرُّوح الخبيث؟ فيقولون: فلان ابن فلان ـ بأقبح أسمائه التي كان يسمَّى بها في الدنيا ـ حتى يُنتهى به إلى السماء الدنيا، فيُستفتح له؛ فلا يفتح له ـ ثمَّ قرأ رسول الله ﷺ ـ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾[1]، فيقول الله ـ عزّ وجلّ ـ: اكتبوا كتابه في سجّين، في الأرض السفلى، ثمّ يُقال: أعيدوا عبدي إلى الأرض؛ فإني وعدتُهم أني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أُخرجهم تارةً أخرى، فتُطرح روحُه من السماء طرحاً حتى تقع في جسده ـ ثمّ قرأ ـ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[2] فتعاد روحه في جسده، قال: فإنّه لَيَسمع خفق نعال أصحابه إذا ولّوا عنه.

ويأتيه ملكان شديدا الانتهار، فينتهرانه، ويُجلسانه فيقولان له: من ربّك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان: فما تقول في هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فلا يهتدي لاسمه؛ فيُقال: محمّد؟! فيقول: هاه هاه لا أدري؛ سمعتُ النّاس يقولون ذلك! قال: فيُقال: لا دريتَ ولا تلوت، فينادي منادٍ من السماء: أن كذب، فافرِشوا له من النّار، وافتحوا له باباً إلى النّار، فيأتيه من حرّها وَسَمُومها، وَيَضِيقُ عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه (وفي رواية: ويُمثل له) رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، مُنتِن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت تُوعد، فيقول: وأنت؛ فبشّرك الله بالشر؛ من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر! فيقول: أنا عملك الخبيث، فوالله! ما عِلمْتُ

(١) الأعراف: ٤٠، وسمّ الخياط: ثقب الإبرة، انظر «الوسيط».
(٢) الحج: ٣١.

إلاّ كنت بطيئاً عن طاعة الله، سريعاً إلى معصية الله، فجزاك الله شرّاً، ثمّ يُقيَّضُ له أعمى أصمّ أبكم؛ في يده مِرزَبَة ـ لو ضرب بها جبل كان تراباً ـ! فيضربه ضربة حتى يصير بها تراباً، ثمّ يعيده الله كما كان، فيضربه ضربة أخرى، فيصيح صيحةً يسمعه كلّ شيء إلا الثقلين، ثمّ يُفتح له باب من النّار، ويمهد من فرش النّار، فيقول: ربِّ لا تُقم الساعة»[1].

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ۝٨﴾

إنّ كلمة ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ تدلُّ على أهمية الأمر وخطورته.

لقد تكرّر هذا الأسلوب القرآني البديع في عدّة مواضِعَ كقوله ـ تعالى ـ:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧﴾[2].

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢﴾[3].

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢﴾[4].

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢﴾[5].

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٣﴾[6].

---

(١) أخرجه أبو داود، والحاكم، والطيالسي، وأحمد ـ والسياق له ـ والآجري في «الشريعة»، وروى بعضه جمع من الأئمة، وقال الحاكم: «**صحيح على شرط الشيخين**» وأقرّه الذهبي، وشيخنا في «أحكام الجنائز» وصحّحه ابن القيّم ـ رحم الله الجميع ـ في «أعلام الموقعين»، و«تهذيب السنن»، ونقل فيه تصحيحه عن أبي نُعَيْم وغيره، كما في «أحكام الجنائز» (ص٢٠٢) طبعة دار المعارف، وقد أورده شيخنا ـ رحمه الله ـ بزياداته ورواياته المفيدة النافعة.

(٢) الانفطار: ١٧.

(٣) الطارق: ٢.

(٤) البلد: ١٢.

(٥) القدر: ٢.

(٦) القارعة: ٣.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ١٠﴾[١].

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ٥﴾[٢].

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ[٣] ١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ١١﴾.

متى هذا الويل، والحزن، والهلاك، والعذاب؟

﴿يَوۡمَئِذٖ﴾.

ففي يومهم هذا يحيون تمتّعاً ونعيماً، ويومئذ يتلظّوْن عذاباً وجحيماً.

وفي يومهم هذا يضحكون، ويومئذ يبكون ويتحسّرون.

وفي يومهم هذا يُكذّبون، ويومئذ لهم الويل والهلاك والخسار.

ومن هم المكذّبون؟

﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ١١﴾.

ومن الذي يكذّب بيوم الدين؟

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢﴾.

فالتكذيب بيوم الدين اعتداء.

والتكذيب بيوم الدين إثم.

عجباً لمن ينكر عُدوان سارق الدراهم، ولا يُنكر عُدوان المكذّب بيوم الدين!

إنّهم يتفنّون في اعتدائهم وإثمهم وقولهِمُ الكفْرَ.

إنهم حين تُتلى عليهِمُ الآياتُ يقولون: **«هذه أساطير الأوّلين»**.

---

(١) القارعة: ١٠.

(٢) الهُمزة: ٥.

(٣) في «تفسير ابن كثير»: «إذا صاروا يوم القيامة إلى ما أوعدهم الله من السِّجن والعذاب المهين».

ثمّ يأتيهمُ الرّدع والزّجر من الله ـ تعالى ـ بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

فثمرة استهتارهم في الاعتقاد؛ إنما هو الكسب الآثم الدائم الذي كسبوه واقترفوه.

... إنَّه الران الذي غلَّف قلوبهم.

فلنحْذَرْ من الآثام والمعاصي.

ولنكثر من التّوبة والاستغفار كيلا يصيبنا ما أصابهم.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «**إنّ العبد إذا أخطأ خطيئة نُكتت في قلبه نكتةٌ سوداء، فإذا نزع واستغفر وتاب سُقل قلبه، وإن عاد زيدَ فيها حتى تعلُوَ قلبه، وهو الرّان الذي ذكر الله** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾»[(١)].

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

لقد ران على قلوبهم فما آمنوا.

لقد ران على قلوبهم فما أدركوا.

لقد ران على أبصارهم فما رَأَوْا.

لقد ران على أسماعهم فما سمعوا.

لقد حجبهم عن الفهم والعلم والإدراك والسَّمع.

لقد حجبهم عن كلّ خير وبركة.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده»، والترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٤٥) والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم من طريقين وقد قال في أحدهما: صحيح على شرط مسلم وغيرهم» وانظر «الترغيب والترهيب» ـ للمنذري ـ (الترغيب في الاستغفار)» وسقل: جُلي ونظُف وطهُر.

وفي بعض الروايات: «صقُل» وفي «القاموس المحيط»: «السقل: الصقل».

لقد حجبهم عن كلّ سعادة ووئام.

لقد حجبهم عن ربّهم ـ سبحانه ـ.

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ[١] ﴿١٥﴾﴾.

إنهم يُحجَبون عن ربّهم ـ عزّ وجلّ ـ، ولكنَّ المؤمنين يستمتعون بالنظر إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ كما في قوله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣].

وعن صهيب ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنّة الجنّة، يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: تريدون شيئاً أزيدُكم؟ فيقولون: ألم تبيّض وجوهنا؟ ألم تُدخِلنا الجنّة وتنجّنا من النّار؟!**

قال: فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النّظر إلى ربهم ـ عزّ وجلّ ـ»[٢].

إنّها لعقوبة عظيمة حلَّت بهم، وهي حجْبهم عن ربّهم ـ سبحانه ـ بسبب الرّان الذي اختاروه، وسلكوا سبيله.

---

(١) جاء في «تفسير ابن كثير»: «قال الإمام أبو عبدالله الشافعيُّ: «وفي هذه الآية دليل على أنّ المؤمنين يرَونه ـ عزّ وجلّ ـ يومئذ»، وهذا الذي قاله الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ في غاية الحسن.

وهو استدلال بمفهوم هذه الآية؛ كما دلّ عليه منطوق قوله ـ تعالى ـ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ وكما دلّت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة؛ في رؤية المؤمنين ربَّهم ـ عزّ وجلّ ـ في الدار الآخرة رؤيةً بالأبصار؛ في عرصات القيامة وفي روضات الجنان الفاخرة».

وعن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ، قال: كنّا عند النّبيّ ﷺ فنظر إلى القمر ليلةً ـ يعني: البدر ـ فقال: «**إنكم ستَرَوْن ربكم كما ترون هذا القمر لا تُضامُون**» [قيل: يجوز ضمُّ التاء وفتحها، وقيل: بتخفيف الميم من الضّيم وهو الظلم] **في رؤيته**» أخرجه البخاري (٥٥٤) ومسلم (٦٣٣).

(٢) أخرجه مسلم: ١٨١ وغيره.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾.

«لقد حُرِموا من أعظم عطاء يحبه المرء؛ وهو النّظر إلى الله ـ تعالى ـ ثمّ هم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن من أهل النيران»(١).

فكيف يكون حالهم ـ لا أرانا الله مقامهم، ولا أحلّنا مكانهم ـ.

ثمّ يُقال: ﴿هَذَا الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

«ويقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ، والتصغير والتحقير»(٢).

«هذا»: اسم إشارة للقريب.

لقد قرُب بعد أن كان بعيداً في نظرهم.

بل إنهم عاينوه وذاقوه ووقعوا فيه.

بل إنّهم فيه خالدون...

عذاب أليم لمن فسَد تصوُّره في الاعتقاد.

فهل صحّحنا أمر عقيدتنا؟

وهل أحسنّا فهمها على الوجه الصحيح، لننجو من ضَنَك الدارين وعذابهما؟

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَٰبَ الْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾﴾.

ماذا يفعل الأبرار في دنياهم؟

وماذا يكون من شأنهم في البرزخ؟

وكيف يكون حالهم يوم القيامة؟

أمّا في الدنيا:

(١)(٢) عن «تفسير ابن كثير».

فجهاد ومجاهدة، وصبْر ومصابرة، ورباط ومرابطة.

تضحية وإيثار وبذْل وعطاء.

أداءٌ للطاعات والعبادات، ومسابقة للخيرات وإكثار من الاستغفار والتّوبة والإنابة.

شأنهم كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝﴾[1].

أمّا شأنهم في البرزخ؛ فهناك حبور وسرور وتباشير.

«فإنّ المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة؛ تنزل إليه ملائكة من السماء؛ بيض الوجوه؛ كأنَّ وجوهَهُمُ الشمس، معهم كفن من أكفان الجنّة وحنوط[2] من حَنوطها.

يقول له ملك الموت ـ وقد جلسَ عند رأسه ـ: أيّتها النّفس الطيّبة! اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، فتخرج بيُسر وسهولة».

تفتح له أبواب السماء، وتخرج منها؛ كأطيب نفحة مِسْك وُجدت على وجه الأرض.

تستفتح له السماوات؛ حتى ينتهي به إلى السماء السابعة؛ فيقول الله ـ عزّ وجلّ ـ: اكتبوا كتاب عبدي في علّيّين، ثم يُقال: أعيدوه إلى الأرض.

يُنادي منادٍ من السماء: أن صَدَق عبدي؛ فافرِشوه من الجنّة وألبسوه من الجنّة.

---

(١) الإنسان: ٧ ـ ٩.

(٢) قال في «النهاية»: «الحنوط والحِناط واحد وهو: ما يُخلط من الطّيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصّة».

يُفتح له باب إلى الجنّة، ويأتيه من روحها وطيبها، ويُفسح له في قبره مدَّ بصره.

يقول إذا رأى ما في الجنّة: ربِّ! عجِّل قيام الساعة؛ كيما أرجع إلى أهلي ومالي.

وذلك لما رواه البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ قال: «**إنّ العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة؛ نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه، كأنّ وجوههم الشمس، معهم كفنٌ من أكفان الجنّة، وحنوط من حنوط الجنّة، حتى يجلسوا منه مدّ البصر، ثمّ يجيء ملك الموت ـ عليه السلام ـ حتى يجلس عند رأسه؛ فيقول: أيّتها النّفس الطيّبة** (وفي رواية: **المطمئنة**)! **اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان** ـ قال ـ: **فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فِي السقاء، فيأخذها** (وفي رواية: **حتى إذا خرجت روحه صلّى عليه كلّ ملك بين السماء والأرض، وكلُّ ملك في السماء، وفُتحت له أبواب السماء؛ ليس من أهل باب إلاّ وهم يدعون الله أن يعرج بروحه من قبَلِهم**)، **فإذا أخذها لم يدَعها في يده طرفة عين؛ حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، فذلك قوله ـ تعالى ـ:** ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾، ويخرج منها؛ كأطيب نفحة مِسك وجدت على وجه الأرض ـ قال ـ: **فيصعدون بها فلا يمرُّون** ـ يعني: بها ـ **على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان ابن فلان ـ بأحسن أسمائه التي كانوا يسمّونه بها في الدنيا ـ حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له، فيُفتح لهم، فيشيّعه من كلّ سماء مقرَّبوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة، فيقول الله ـ عزّ وجلّ ـ: اكتبوا كتاب عبدي في علّيّين** ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾؛ فيكتب كتابه في علّيّين، ثمّ يقال: أعيدوه إلى الأرض؛ فإني وعدْتهم: أني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أُخرجهم تارة أُخرى، قال: فيردُّ إلى الأرض، وتعاد روحه في جسده. قال: فإنه يسمع خفق نعال أصحابه

إذا ولَّوْا عنه مُدبرين، فيأتيه ملكان شديدا الانتهار؛ فينتهرانه ويُجلسانه، فيقولان له: من ربّك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكُم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ فيقولان له: وما عَمَلُك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به، وصدّقت، فينتهره؛ فيقول: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيّك ـ وهي آخر فتنة تُعرض على المؤمن، فذلك حين يقول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ـ.

فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيّي محمّد ﷺ، فينادي منادٍ في السماء: أن صدق عبدي؛ فافرِشوه من الجنّة وألبسوه من الجنّة، وافتحوا له باباً إلى الجنّة ـ قال ـ: فيأتيه من رُوحها وطيبها ويفسح له في قبره مدّ بصره، قال: ويأتيه (وفي رواية: يُمثَّل له) **رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيّب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرّك أبشر برضوان من الله، وجنّات فيها نعيم مقيم، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: وأنت ـ فبشرك الله بخير ـ من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فوالله ما عِلمتك إلا كنتَ سريعاً في طاعة الله، بطيئاً في معصية الله، فجزاك الله خيراً، ثمّ يُفتح له باب من الجنّة وباب من النّار، فيُقال: هذا منزلك لو عصيت الله؛ أبدلك الله به هذا، فإذا رأى ما في الجنّة قال: ربِّ! عجّل قيام السّاعة كيما أرجعُ إلى أهلي ومالي، فيقال له: اسكن»**[1].

وأمّا حالهم في الآخرة؛ ففي قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ[2] يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ

---

(١) تقدّم تخريجه.

(٢) هي السُّرر تحت الحجال. «تفسير ابن كثير» و «الجامع لأحكام القرآن».

والحجال: ساتر كالقبّة يُزين بالثياب والأسرّة والسّتور للعروس.

وفي «مختار الصحاح»: الأريكة: سرير مُنجّد مُزيّن في قبة أو بيت، فإذا لم يكن فيه سرير؛ فهو حجلة.

مَّخْتُومٍ(١) ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ(٢) وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ(٣) ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

وهكذا فهُم في نعيم وسعادة وهناء، يتنعّمون في طعامهم وشرابهم وجلوسهم.

حسبك أنّك تعرف في وجوههم نضرة النّعيم ورونقه.

---

(١) ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾﴾: أي: يُسقون من خمر الجنّة، والرحيق من أسماء الخمر: قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وابن زيد. «تفسير ابن كثير».

وفي «الجامع لأحكام القرآن» ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾: أي: من شراب لا غِشَّ فيه: قاله الأخفش والزجّاج.

وقيل: الرحيق الخمر الصافية.

وفي «الصّحاح»: «الرحيق صفوة الخمر...».

(٢) قال ابن كثير: «قال ابن مسعود في قوله: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ أي: خلطة مِسك، وقال العوفي ـ عن ابن عباس ـ: طيّب الله لهم الخمر، فكان آخر شيء جعل فيه مِسك خُتم بمسك، وكذا قال قتادة والضحاك.

وقال إبراهيم والحسن: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ أي: عاقبته مسك...» وأورد ـ رحمه الله تعالى ـ أقوالاً أخرى.

وفي «الجامع لأحكام القرآن»: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ قال مجاهد: «ختم به آخر جرعة، وكان ابن مسعود يقول: يجدون عاقبتها طعْم المسك، ونحوُه عن سعيد بن جبير وإبراهيم النَّخْعي قالا: ختامه آخر طعْمه، وهو حسن؛ لأن سبيل الأشربة أن يكون الكدر في آخرها، فوصف شراب أهل الجنّة بأنّ رائحة آخره رائحة المسك، وعن مسروق، عن عبدالله، قال: المختوم: الممزوج.

ثمّ ذكر ـ رحمه الله ـ أنّ أصل كلمة الختام: الطين الذي يُختم به كما في «الصحاح»، وهنا خُتم إناؤه بالمسك بدلاً من الطين؛ كما قال مجاهد، وقيل: خلطة من الطيب.

(٣) قال ابن كثير: «ومزاج هذا الرحيق الموصوف من تسنيم؛ أي: من شراب يُقال له: تسنيم، وهو أشرف شراب أهل الجنّة وأعلاه: قاله أبو صالح والضحاك».

وقال البغوي ـ رحمه الله ـ في «تفسيره»: «... وأصل كلمة السّنام من العلُو، يُقال للشيء المرتفع: سنام، ومنه سنام البعير، قال ابن مسعود وابن عباس: هو خاص للمقرّبين يشربونها صرفاً، ويمزج لسائر أهل الجنّة، وهو قوله: ومزاجه من تسنيم».

وقيل غير ذلك.

لِمثْلِ هذا ـ عباد الله ـ فاعملوا، وفي ذلك تنافسوا:

فأين العاملون؟

أين المتنافسون؟

أين المتسابقون؟

كم تسابق النّاس للقصور؟!

كم سارعوا للأموال والتجارة؟!

كم نافسوا في الشُّهرة والجاه؟!

كم عملوا للدنيا الفانية الزائلة؟!

كم تنازع من حُسبوا على أهل الدين، من أجل عرْض زائل ومتاع فانٍ؟!

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: **«ما رأيت مِثل النّار؛ نام هاربها، ولا مِثل الجنّة؛ نام طالبها»**[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ[2] ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

هذا حال المجرمين في الحياة الدنيا.

هذا شأن الفاسقين في الحياة العاجلة:

سخرية من أهل المساجد.

سخرية من مظهر اللّحية والثوب.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد»، والترمذي، وأبو نُعَيْم في «الحلية»، وغيرهم، وهو حسن لغيره؛ كما في «الصحيحة» (٩٥٣).

(٢) الغمز: الإشارة بالجفن والحاجب؛ أي: يُشيرون إليهم بالأعين استهزاءً. «البغوي».

إنّهم - في نظر المجرمين - رجعيّون.

إنّهم - في ميزان الضُّلّال - متخلّفون.

إنّهم يتغامزون فيما بينهم سخرية واستهزاء من المؤمنين.

وماذا إذا رجع هؤلاء إلى منازلهم؟

انقلبوا فكهين؛ مهما طلبوا وجَدوا.

لقد أذهبوا طيّباتِهِمْ في الحياة الدنيا.

وإذا رأوُا المؤمنين قالوا: إنّ هؤلاء لضالُّون.

ولكن: عمّ ضلَّ المؤمنون!

لقد ضلّوا عن الضلال والغيّ والعمى.

سبحان الله! كيف تُقْلَب الموازين وتُبدّل؟!

﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَـٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

«وما بُعث هؤلاء المجرمون حافظين على هؤلاء المؤمنين ما يصدر منهم من أعمالهم وأقوالهم وكُلّفوا بهم، فلِمَ اشتغلوا بهم وجعلوهم نُصْبَ أعينهم»[1]؟!!

وفي مِثل ذلك قال - تعالى -: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾[2].

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

---

(١) من «تفسير ابن كثير».

(٢) المؤمنون: ١٠٨ ـ ١١١.

بالأمس كان الكفّار يضحكون من المؤمنين.

واليوم يضحك المؤمنون من الكفار.

اليوم يبكي الفُجّار الدّمع والدّم.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾[1].

إنّهم لم يعملوا ليومٍ يفرُّ المرءُ فيه من أخيه.

ولا ليوم لا تملك ـ فيه ـ نفس لنفس شيئاً.

ولا ليوم يكون النّاس فيه كالفراش المبثوث.

ولا ليوم لا تجزي نفس عن نفس شيئاً.

ولا ليوم تتقلّب فيه القلوب والأبصار.

ولا ليوم يُجْعل الولدان فيه شيباً.

ولا ليوم كان شرّه مستطيراً.

ولا ليوم ـ فيه ـ لا ينطقون، ولا يُؤذن لهم فيعتذرون.

ولا ليوم ينظر المرء ما قدّمت يداه ويقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً.

ولا ليوم يتذكّر الإنسان ـ فيه ـ ما سعى.

ولا ليوم يُدَعُّونَ فيه إلى نار جهنّم دعّاً.

ولا ليوم يُسحبون فيه إلى النّار على وجوههم.

ولا ليوم يُردُّون فيه إلى أشد العذاب.

ولا ليوم تجدُ كل نفس ما عملت من خير مُحضراً.

ولا ليوم تبيضُّ فيه وجوه وتسودُّ فيه وجوه.

ولا ليوم مجموعٌ له النّاس.

---

(١) المعارج: ٤٤.

ولا ليوم تأتي كلُّ نفس تجادل عن نفسها.

ولكنّهم عملوا؛ ليأكلوا ويشربوا، ويتمتّعوا كما تتمتّع الأنعام.

ها هُمُ المؤمنون يضحكون من الكفار الآن.

لقد صبروا وثبتوا وتحمّلوا الكثير الكثير، فمنّ الله ـ تعالى ـ عليهم بهذه المِنّة العظيمة.

كم يَغِيظُ الكفّارَ الموقِفُ؟!

كم يبعث الحسرة في قلوبهم ونفوسهم؟!

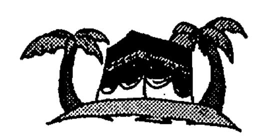
لقد ضحك الكفّار بالأمس بالباطل، فليبكوا اليوم بالحقّ!

﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

«هل جوزي الكفّار على ما كانوا يُقابِلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقُّص أم لا»[١].

أجل؛ لقد جُوزوا أوفَرَ الجزاء وأتمَّه وأكمله»[٢].

فاعتبروا يا أولي الألباب!



(١) عن «تفسير ابن كثير».

(٢) «تفسير ابن كثير» مع وضع (أجل ولام التوكيد) بدل كلمة (يعني).



فقه الدعوة وتزكية النفس

(١١)

الغيبة
وأثرها السيئ في المجتمع

بقلم
حسين بن عودة العوايشة






من النُّصوص الدَّالة على تحريم الغيبة

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «وقد ورد فيها (يعني: الغيبة) الزجر الأكيد، ولهذا شبَّهها ـ تبارك وتعالى ـ بأكل اللحم من الإنسان الميت، كما قال ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾؛ أي: كما تكرهون هذا طبعاً فاكرهوا ذاك شرعاً؛ فإن عقوبته أشدُّ من هذا».

وعن المطلب بن عبدالله؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«الغيبةُ: أن يذكر الرّجل بما فيه من خلفه»**[٢].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنّ رسول الله ﷺ قال: **«أتدرون ما الغيبة؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم» قال: **«ذِكْرُكَ أخاك بما يكره»**[٣].

وعن أبي برزة الأسلمي والبراء بن عازب قالا: قال رسول الله ﷺ: **«يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه! لا تغتابوا المسلمين، ولا**

---

(١) الحجرات: ١٢.

(٢) أورده السيوطي في «زوائد الجامع» من رواية الخرائطي في «مساوىء الأخلاق»، ورواه مالك بمعناه مرسلاً؛ وانظر «الصحيحة» (١٩٩٢).

(٣) أخرجه مسلم: ٢٥٨٩.

تتّبعوا عوراتهم؛ فإنه من اتّبع عوراتهم؛ تتبّع الله عورته، ومن تتبّع الله عورته؛ يفضحه ولو في جوف بيته»[(١)].

ما هي الغيبة؟

يتّضح لنا مما تقدّم أنَّ الغيبة هي ذِكْرُكَ الرجل بما فيه بما يكره؛ من خلفه.

* * *

الإجماع على تحريم الغيبة وأنّها من الكبائر

قال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسير سورة الحجرات: «**والغيبة محرّمة بالإجماع، ولا يُستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته؛ كما في الجرح والتعديل والنّصيحة**».

ويقول القرطبي: «**والإجماع على أنها من الكبائر، وأنّه يجب التوبةُ منها إلى الله ـ تعالى ـ**»[(٢)].

قلت: وهذا بَيِّنٌ واضح من خلال قوله ـ سبحانه ـ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[(٣)].

ومن الأدلّة على ذلك في السّنّة قوله ﷺ: «**... وإنّ أربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه**»[(٤)].

وقوله ﷺ لعائشة: «**لقد قُلتِ كلمةً لو مُزجت بماء البحر لمزَجته**»[(٥)].

---

(١) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٤٠٨٣) وابن حبان وغيرهما، وحسّنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «غاية المرام» (٤٢٠) وقال في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٣٤٠): «حسن صحيح».

(٢) راجع ـ إن شئت ـ «تفسير القرطبي» سورة الحجرات.

(٣) الحجرات: ١٢.

(٤)(٥) سيأتي تخريجهما ـ إن شاء الله ـ.

كيف لُبّس على الناس في الغيبة؟

إنَّ الشيطان قد يأتي الناس من طرق كثيرة؛ ليوقعهم في الغيبة:

۞ فيقول لبعضهم: إنّ الذي تذكرونه من الصفات موجود بمن تذكرونهم من خلفهم؛ فهذا لا شيء فيه.

ويرَدُّ على ذلك أحاديث منها:

١ ـ الحديثان المذكوران آنفاً:

الأول: «**الغيبة: أن تذكر الرجل بما فيه من خلفه**».

والثاني: حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنّ رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون ما الغيبة؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**ذِكرُكَ أخاك بما يكره**» قيل: أرأيت إنْ كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول؛ فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهتَّهُ**».

٢ ـ ما جاء في حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كانت العرب يخدم بعضها بعضاً في الأسفار، وكان مع أبي بكر وعمر رجل يخدمهما، فاستيقظا ولم يهيىء لهما طعاماً، فقال أحدهما لصاحبه: إنّ هذا ليوائم[1] نوم بيتكم» فأيقظاه، فقالا: إيت رسول الله ﷺ، فقل له: إنّ أبا بكر وعمر يقرئانك السلام وهما يستأدمانك» فقال: «**قد ائتدما**» ففزعا.

فجاءا إلى النّبيّ ﷺ، فقالا: يا رسول الله! بعثنا إليك نستأدمك، فقلت: «**قد ائتدما**»؛ فبأيّ شيء ائتدمْنا. قال: «**بلحم أخيكما، والذي نفسي بيده؛ إنّي لأرى لحمه من أنيابكما**» (وفي رواية: «**ثناياكما**») قالا: فاستغفر لنا. قال: «**هو فليستغفر لكما**»[2].

---

(١) قيل: «المرايمة: الموافقة، ومعناه: إنّ هذا النوم يُشبه البيتَ، لا نوم السفر؛ عابوه بكثرة النوم» اهـ.
«إنّ هذا ليوائم نوم بيتكم»: متحقّق بمن قيل فيه، ومع ذلك أخبرهُما ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنّهما قد ائتدما من لحمه.

(٢) أخرجه الضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» بتحقيق شيخنا ـ رحمه الله ـ.

فليحذر كثير من الناس ممن يأتدمون ولا يبالون.

يقول أحدهم: ما أكثر ما يغتسلُ فلان! ما أكثر ما يأكلُ!...

۞ وطائفة تقول: نحن نذكر ما فيه من خلفه المصلحة ولمنفعته التي يجهلها، وربما قال بعضهم: نفعل ذلك حرصاً على المصلحة العامّة.

والردّ على هؤلاء من وجوه منها:

١ ـ إنّ العمل الذي يُعمل ينبغي أن يكون مشروعاً، ولا يكفي للنّجاة من عذاب الله ـ تعالى ـ أن يحسن المرء نيّته وحدها ويتْرك ما سوى ذلك؛ فالمشركون ـ كما يزعمون ـ كانت نواياهم طيبة، وجاء بيان هذا في القرآن العظيم؛ فقد قال الله ـ تعالى ـ في حقّ المشركين: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[1].

بيْد أنّ تلك النيّة الطّيبة النّبيلة ـ وهي التقرُّب إلى الله زلفى ـ لم تكن لتمنع رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام ـ رضي الله عنهم ـ من قتالهم.

وتحقيق مصلحة الفرد والجماعة لا تكون بغيبتهم ونشر أسرارهم.

٢ ـ لو كانت النيّة صادقة حقّاً؛ لصَدق العمل والأسلوب.

ويتمُّ ذلك بالتحدّث أمام الشخص بالحكمة والموعظة الحسنة، وأمْرِه بالحسنى أن يستجيب لتعاليم الإسلام واجتناب الهوى، وربَّما تكررت النّصيحة والموعظة، فإنْ لم ترَ نفعاً من هذا؛ فابحث عن ناصح آخر، فلعلك لم تُوفَّق في الأسلوب والطريقة، وليتخيّر من الأساليب النافعة الطيبة ما يلائم الحاجة ويراعي الحال؛ فقد يكون التوجيه بأسلوب مباشر أو غير مباشر، فإن لمسْتَ أنّ صاحب العيب لم يترك عيبه وذنبه، فما عليك إلا أن تترك هذا الرجل الذي أسرَّ ذنبه، ولا تفضح أمره، وإلا تفعل؛ حققت كثيراً من الفتن في المجتمع الإسلامي؛ منها:

أ ـ مخالفة النُّصوص الآمرة بالستر.

---

(١) الزمر: ٣.

ب ـ التسبب في تعميم الشك، وتعميقه في خُلق المسلمين، وعدم الثّقة بخيارهم.

ج ـ اشتغال المسلمين بغيبة بعضهم بعضاً، وانتشار الأحقاد بينهم، وانشغالهم عن العمل بالأولويّات التي تفرِّج كروبهم وكروب الأمة.

د ـ تشجيع صاحب العيب والذنب المُسِرِّ بذنبه على المجاهرة.

٣ ـ إنّ كل ذي لبٍّ يُقِرُّ أنّه لا يمكن أن تنتفع جماعة المسلمين من غيبة شخص يستخفي بعيبه.

وأيّ فائدة تتحقق للجماعة من التكلُّم على إنسان يُسِرُّ بذنبه ويستخفي بعيبه؟!

أيُّ جدوى تأتي لأمة الإسلام؟! فتح القدس؟! أم تحطيم الشرك والمشركين؟!

٤ ـ بالإضافة إلى فشل تحقيق الأهداف النّبيلة والمقاصد السامية المزعومة ـ شخصيةً كانت أو عامّة ـ! فإنّ هذا الشخص ربما أضحى يبغض هؤلاء الذين نالوا منه في غيبته، فأصبحت الحالةُ كما قال الشاعر:

لا نسبَ اليوم ولا خُلّة ... اتَّسعَ الخرقُ على الراقع

* * *

من الأسباب الباعثة على الغيبة[1] وعلاجها

١ ـ تشفّي الغيظ؛ بأن يجري من إنسان في حقّ آخر سبب يهيج غيظه، فكلّما هاج غضبه؛ تشفّى بغيبة صاحبه.

---

(١) عنوان (من الأسباب الباعثة على الغيبة)، والنقاط المتضمّنة له من (١ ـ ٧) من كتاب «إحياء علوم الدين» بحذف وتصرّف يسيرين، وانظر «تهذيب موعظة المؤمنين مِن إحياء علوم الدين» للعلامة القاسمي ـ رحمه الله ـ (٣٤/٢)» أما علاجها؛ فلم تخلُ استفادتنا من كتابه، ولكن رأيت إضافة بعض النّقاط والنّصوص والشّروح التي لم يكن ذَكَرها.

وعلاجه أن يتذكّر الإنسان قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾[١].

عن معاذ بن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**من كَظم غيظاً، وهو قادر على أن يُنفِذَهُ؛ دعاه الله ـ سبحانه ـ على رؤوس الخلائق يوم القيامة، حتى يُخيره من الحور العين ما شاء**»[٢].

ومن اغتاب تشفّياً؛ فإنّه لم يكتم ولم يكظم غيظه.

٢ ـ موافقة الأقران ومجاملة الرّفقاء ومساعدتهم؛ فإنّهم إذا كانوا يتفكّهون في الأعراض؛ رأى أنّه إذا أنكر عليهم أو قَطَع كلامهم؛ استثقلوه، ونَفروا عنه، فيساعدهم ويرى ذلك من حُسْنِ المعاشرة.

وعلاجه أن تتذكّر قول رسول الله ﷺ: «**من التمس رضى الناس بسخط الله؛ وكَلَهُ الله إلى الناس**»[٣].

٣ ـ إرادة رفع نفسه بتنقيص غيره، فيقول: فلان جاهل، وفهمه ركيك... ونحو ذلك، وغرضه أن يثبت من ذلك فضْلَ نفسه، ويريهم أنه أعلم منه.

وعلاج ذلك أن تعتقد أن ما عند الله ـ سبحانه ـ خير وأبقى، وأنَّ هذه الدنيا لا تعدِلُ عند الله جناح بعوضة، وأنّ هذا العبد ربّما كان عند الله أفضل منك؛ كما في حديث: أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنّ

---

(١) آل عمران: ١٣٤.

(٢) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٣٩٩٧) والترمذي وابن ماجه، وحسّنه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٧٥٣).

(٣) جزء من حديث أخرجه الترمذي وغيره، وصححه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٢٥٠)، وانظر تخريج «الطحاوية» (٢٧٨).

رسول الله ﷺ قال: «**ربَّ أشعث مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبَرَّهُ**»[(١)].

٤ ـ اللعب والهزل: فيذكر غيره بما يُضحكُ الناس به على سبيل المحاكاة، حتى إنّ بعض النّاس يكون كَسْبُهُ من هذا[(٢)].

وعلاج هذا أن يتذكَّر المرء حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ويلٌ للذي يحدِّث بالحديث ليُضحِكَ به القوم فيكذِب، ويلٌ له، ويلٌ له**»[(٣)].

٥ ـ الحسد: ولربما أُثني على شخص في مجلس، وهذا الشخص محبوب عند الناس، فسمع حاسدٌ بذلك؛ فلا يجد سبيلاً إليه إلا أنْ يقدح فيه، حتى يفقد ذاك الشخص تلك المنزلة التي كان يحظى بها.

وقد تكلمتُ عن العلاج في باب كتابي «حصائد الألسن» باب «أمراض يعاني منها الحاصدون بألسنتهم».

وليتذكّر الحاسد أنّه بحسده وطعْنه المحسود؛ جعل هذا المحسود فوقه يوم القيامة، لا في الدنيا فحسب.

٦ ـ أن يُنْسبَ إلى رجل شيء ما، فيريد أن يتبرّأ منه، فيذكر الذي فعل هذا الفعْل، لينجو من هذه التُّهمة؛ ظنّاً منه أنّ هذا هو السبيل الأمثل، أو يذكر غيره بأنّه كان مشاركاً له في الفعل؛ ليمهِّد بذلك عُذْر نفسه في فعله، فيقول: فلان أيضاً فعل كذا وكذا، وفلان أيضاً...

وكان من حق هذا الشخص أن يُبرِّىء نفسه، ولكن ليس من حقه أن

---

(١) أخرجه مسلم: ٢٦٢٢.

(٢) وأعنف من هذا وأشدّ ما في عصرنا الحاضر؛ من المسرحيَّات، والتمثيليّات التي تُعرض في كثيرٍ من الأجهزة، والتي عمّت وطمَّت، وهي حياة الناس التي لا غنى لهم عنها ـ كما يزعمون ـ فإلى الله ـ تعالى ـ المشتكى.

(٣) أخرجه الترمذي وأبو داود وغيرهما، وحسنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٩٤٤)، وانظر «غاية المرام» (٣٧٦).

يذكر الذي فعله، أو يذكر من شارك بالفعل.

٧ ـ ومثله الغضب لله ـ تعالى ـ فإنّه قد يغضب شخص على منكر قارفه إنسان، فيحدِّث[١] بذلك؛ مُظهراً غضبه، ذاكراً اسمه، وكان عليه أن يُخفي اسم الشخص، ويستره، ولا يذكره بالقبيح.

٨ ـ أن يغتمَّ شخص لابتلاء أخيه، فيفعل المغتمُّ ما ذكرته في الحالتين السابقتين؛ مِن ذكر اسمه قائلاً: مسكين فلان، قد غَمَّني أمره وما ابْتُلِيَ به!

وقد يكون صادقاً في دعواه تلك، لكنّه يُعاب على ذكر اسم ذلك الرجل المقصود.

وعلاج ذلك أن تتذكّر قول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝﴾[٢].

فكم من ذرَّات الشر تتجمَّع فيمن يغتاب المسلمين، والنّيّة الحسنة لا تُسوِّغ العمل السيىء كما سبق بيانه.

٩ ـ كثرةُ الفراغ، والشعور بالملل والسأم، فلا يجد ما يشغل به نفسه سوى اشتغاله بالناس وعيوبهم وذِكْر ما يكرهون.

وعلاجه أن يقضي المرء أوقاته في الطاعات والعبادات، والعلم والتعلم، وليتذكّر قول رسول الله ﷺ: **«لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربّه حتى يُسأل عن خمس: عن عمره؛ فيما أفناه؟ وعن شبابه فيما أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه؟ وماذا عمل فيما عَلِم؟»**[٣].

١٠ ـ التقرّب لدى أصحاب الأعمال والمسؤولين عن طريق ذمّ العاملين معه، وذلك ليرتقي إلى منصب أفضل، أو درجة أرفع، أو ليُذكر بخير.

---

(١) لا ينبغي أن يذكر اسمه إلا إذا كان هناك ما يستدعي ذلك، انظر (ما يباح من الغيبة).

(٢) الزلزلة: ٧ ـ ٨.

(٣) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (١٩٦٩) وغيره، وانظر «الصحيحة» (٩٤٦).

وعلاجه أن يتذكر المسلم آيات وأحاديث الرزق، وأنه لن يناله ضرر أو نفع إلا بإذن الله ـ سبحانه ـ والإيمان بالقدر أساس في علاج هذا الدّاء.

ثمَّ إنّني أُذكّر هؤلاء بحديث رسول الله ﷺ: «**ومن الْتَمَسَ رضى الناس بسخط الله؛ وكَلَه الله إلى الناس**»(١).

١١ ـ العُجْبُ، وعدم التفكُّر في عيوب النفس.

وعلاجه ضدّه، وهو التفكُّر في عيوب النّفس، واشتغاله بإصلاحها، واستحياؤه من أن يعيب أحداً وهو نفسه معيب.

وقد ذمّ رسول الله ﷺ العجب، فقال: «**لو لم تكونوا تذنبون، خشيت عليكم أكثر من ذلك: العُجب**»(٢).

***

تأمّلات في أحاديث ترهّب من الغيبة

۞ عن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال في خطبته في حَجَّة الوداع: «**إنّ دماءَكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام عليكم؛ كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ليبلّغ الشاهد الغائب**»(٣).

فلننظر بتدبر وتمحص، ولننظر بعين الرهبة والتعظيم لأوامر الله ـ سبحانه ـ وأوامر رسول الله ﷺ.

إنّ حرمة الغيبة عند الله ـ تعالى ـ كحرمة يوم النّحر، في شهر ذي الحجة، في منى.

---

(١) أخرجه الترمذي وغيره، وصححه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٢٥٠)، وتقدّم.

(٢) أخرجه البزّار بإسناد جيّد وغيره، وحسنه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٩٢١)، وانظر «الصحيحة» (٦٥٨).

(٣) أخرجه البخاري: ٦٧، ومسلم: ١٦٧٩.

فهل علِمْتُم مدى حرمة عرض المسلم يا أصحاب الغيبة؟! هل علمتم هذا يا آكلي لحوم المسلمين؟!

۞ عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«الربا اثنان وسبعون باباً: أدناها مثل إتيان الرجل أمّه، وإن أربى الربا استطالة الرجل في عِرض[1] أخيه»**[2].

الله أكبر! أين العقول؟!

الله أكبر أين الإيمان الذي يعمُرُ النّفوس؟!

أين الإيمان الذي يمنع حظوظ النفس وشهواتها؟!

أين الإيمان الذي يمنع الاستطالة في أعراض المسلمين؟!

ما أعظم حرمة الربا! وما أشدَّها!

لقد بلَغ من عظيم أمره أن جعل الله ـ تعالى ـ الإيذان بالحرب على منْ يتعامل به.

إن أدنى الربا مثل إتيان الرجل أمّه، ولكنَّ أربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه؟! أفلا تعقلون؟!

فاستطيلوا في أعراض إخوانكم بعد هذا كيفما تشاؤون.

استطيلوا في أعراضهم كما يحلو لكم.

استطيلوا في الأعراض؛ غيبةً ونميمةً، قدحاً وانتقاصاً، وانتهاكاً.

ولكن... أين المفرّ؟!

۞ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قلت للنّبيّ ﷺ: حسبك[3]

---

(١) العرض: موضع المدح والذم من الإنسان. «النهاية».

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط»، وصححه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٨٥٧)، وانظر «الصحيحة» (١٨٧١).

(٣) أي: كافيك.

من صفيّة كذا وكذا. (قال بعض الرواة: تعني أنها قصيرة)» فقال: **«لقد قُلتِ كلمةً لو مزجت بماء البحر لمزجته[١]»**[٢].

«كلمة: لو مُزجت بماء البحر لمزجته»!!

كلمة واحدة تفعل هذا الفعل وتؤثّر هذا التأثير!!

فما أدراك بما يفعله المغتابون اليوم وألسنتهم لا تكلّ ولا تملّ مما يفعلون؟!

أيّ بحارٍ تمزج كلماتُهم لو مُزجت بها؟! وأي مياه تُنتِن؟! وأيّ طيب عيشٍ يُفسِدون؟!

۞ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه: أنّهم ذَكروا عند رسول الله ﷺ رجلاً، فقالوا: لا يأكل حتى يُطْعَم، ولا يَرحل حتى يُرحلَ له. فقال النبيّ ﷺ: **«اغتبتموه»** فقالوا: يا رسول الله! إنّما حدّثنا بما فيه. قال: **«حسبك إذا ذكرت أخاك بما فيه»**[٣].

ليتفكّرْ كُلٌّ مِنّا في نفسه: من منّا أوتي العصمة؟! من منّا أسلم قرينه؟! من منّا قد حُمي من الخطأ والزّلل والذنب والعيب؟! من منّا يرضى أن يذكر بما فيه؛ على عُجَره وبجره، خيره وشرّه؟!

يقيمُ الإنسان منّا الشرور لو سمع إنساناً لَمَّحَ ولم يصرّح بصفة هي فيه؛ فكيف لو صرّح ووضح؟! وكيف لو ذكر كُلَّ ما فيه من خلفه؟!

۞ عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لمّا عُرج بي؛ مررتُ بقوم لهم أظفار من نحاس؛ يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلتُ: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس،**

---

(١) أي: لَخَلَطته.

(٢) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٤٠٨٠) والبيهقي، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «غاية المرام» (٤٢٧).

(٣) أخرجه الأصبهاني، وحسنه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب».

ويَقعون في أعراضهم»(١).

أين ذهبت عقول هؤلاء المغتابين؟! كيف بهم ينهشون أعراض المسلمين ويأكلون لحومهم وهم يسمعون هذا الحديث؟!

فليبشروا بأظفار من نحاسٍ يخمشون بها وجوههم وصدورهم.

إنّها أظفارٌ فاقت أظفار الوحوش الضّارية؛ ليزدادوا عذاباً؛ جزاءً وفاقاً على أفعالهم القبيحة وأعمالهم السيئة.

فأقِلّوا أو استكثروا أيّها المغتابون بعد هذا من غيبتكم.

۞ عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: كُنّا عند النّبيّ ﷺ، فقام رجل، فوقع فيه رجلٌ من بعده، فقال النّبيّ ﷺ: «تخلّل»(٢). فقال: وممَّ أتخلل؟! وما أكلتُ لحماً! قال: «**إنّك أكلت لحم أخيك**»(٣).

هذا شأن مجتمعنا اليوم يقع أحدُنا في الغيبة، ويقول بعدها: لم أغتب، لم آكل لحماً، لم أفعل شيئاً.

لماذا؟!

لأنّنا ذلّلنا ألسنتنا على كلّ هذا دون أن نعرف ما هي الغيبة!

فلنتفقّه في أمور ديننا.

فلنتفقه في الحرام والحلال ـ ما استطعنا ـ ولنميِّزْ ما يحلُّ من الكلام ممّا يحرُمُ منه(٤).

---

(١) أخرجه أحمد، وأبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٤٠٨٢) وغيرهما، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٨٣٩)، وانظر «الصحيحة» (٥٣٣).

(٢) التخلُّل: هو استعمال الخلال لإخراج ما بين الأسنان. «النهاية».

(٣) أخرجه الطبراني، وصححه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٨٣٧)، وانظر «غاية المرام» (٤٢٨).

(٤) تسهيلاً لهذا المطلب الشرعي وفّقني الله ـ سبحانه وتعالى ـ لكتابة «حصائد الألسن» فالحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات.

تحريم استماع الغيبة

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾(١).

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢).

وقال ـ سبحانه ـ في حقّ عباده المؤمنين: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾(٣).

وعن كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ في الحديث الطويل في قصة توبته؛ قال: قال النّبيّ ﷺ وهو جالسٌ في القوم بتبوك: «**ما فعلَ كعبُ بن مالك؟**» فقال رجلٌ من بني سَلِمة: يا رسول الله! حبسه بُرْداه ونظره في عِطفيه(٤). فقال معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما عَلِمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول الله ﷺ»(٥).

فوائد من هذه النصوص:

١ ـ إنّ الْتفات الفؤاد والسَّمع للغيبة مسؤولية يُحاسب عليها المرء أمام الله ـ تعالى ـ.

٢ ـ تحريم القعود مع المغتابين.

٣ ـ إنّ الإعراض عن استماع الغيبة والقول القبيح من صفات المؤمنين.

---

(١) الإسراء: ٣٦.
(٢) الأنعام: ٦٨.
(٣) القصص: ٥٥.
(٤) أي: جانبيه، وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه ولباسه» قاله الكرماني.
(٥) جزء من حديث أخرجه البخاري: ٤٤١٨، ومسلم: ٢٧٦٩.

وفي الحديث الذي يروي قصّة كعب ـ رضي الله عنه ـ يزيد على الإعراض عن الغيبة، بالردِّ عن عرض المسلم بذم كلام المغتاب، والقْدحِ في قوله، وذكر الرجل بما فيه من الخير؛ فإنّ معاذاً ـ رضي الله عنه ـ قال للمغتاب: **«بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً»**.

وفي الحديث: **«من نصر أخاه بظهر الغيب؛ نصره الله في الدنيا والآخرة»**[١].

هذه الأمور إذا فهمت، ووعاها القلب، لا يبقى بعدها مجال لِلَغْو لاغٍ، ولا لغيبة مغتابٍ.

ومَن نظَر لأكثر الناس اليوم؛ رآهم ضادُّوا هذه الأمور؛ فأنت ترى فيهم:

١ ـ حسن الإصغاء للمغتاب القادح في الشخص المسلم.

٢ ـ تلقّي الغيبة بالآذان، والاستمتاع القلبي[٢] بذلك، متمنّين المزيد من سماع الأخبار السيّئة عن ذلك الشخص.

٣ ـ الزيادة على الإصغاء بذكر أخبار وصفات أخرى عن أخيهم يكرهها.

٤ ـ موافقة المغتاب على قوله، والثناء على كلامه، والقدْح في المسلم الغائب.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾[٣].

وصدق فيهم قول الشاعر:

---

(١) أخرجه الضياء في «المختارة» وغيره، وانظر «الصحيحة» (١٢١٧).

(٢) يكشف عن هذا المكنون كثير من القرائن الملموسة؛ منها: عدم ظهور الندم والتوبة، والاستمرار في هذه المعصية، وملاحظة السرور عند ذكر المغتاب.

(٣) المطففين: ٤ ـ ٦.

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حيّاً ولكن لا حياة لمنْ تنادي
ولو ناراً نفخت بها أضاءت ولكنْ أنتَ تنفخُ في رمادِ

وأحسن منه قوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾[١].

وممّا أنشدوه في تحريم سماع الغيبة:

وسمعَكَ صُنْ عنْ سماعِ القَبيحِ كصَوْنِ اللسان عن النُّطقِ به
فإنّك عند سماع القَبيحِ شريكٌ لقائِلِه فانْتَبِهْ

* * *

المستمع للغيبة والمغتاب سواء

تأمّل حديث أنس الذي ذكرته سابقاً[٢]، وفيه: «فقال أحدهما لصاحبه: إن هذا ليوائم نوم بيتكم»؛ فقد كان القائلُ واحداً، أمّا الآخر؛ فقد كان سامعاً مُقرّاً، ومع ذلك؛ فقد قال النّبيّ ﷺ للسامع والقائل: **«قد ائتدما»**، وقال: **«والذي نفسي بيده إني لأرى لحمهُ من أنيابكما»**.

* * *

ما جاء في ردّ الغيبة ودفعها ونصر المسلم بالغيب

اعلم أخي المسلم ـ يرحمك الله ـ أنّه يتعيّن على مَنْ سَمِع غيبة أخيه أن يردَّها وينهى قائلها؛ واضعاً نُصْبَ عينيه الحكمة والموعظة الحسنة؛

---

(١) يس: ١٠.

(٢) تقدّم تخريجه في باب «كيف لُبِّس على الناس في الغيبة؟».

سالكاً في تغيير المنكر المراتبَ التي حدَّدها رسول الله ﷺ[(١)] قدر الاستطاعة، وأدناها تغيير المنكر بالقلب، ومن لوازمه وآثاره مفارقة المجلس.

ولنتدبَّرْ قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾[(٢)].

فليحذر المتفكِّهون، وليحذر المستمتعون بالمعاصي، وليتقِ الله المتلذذون بالآثام؛ يأمرهم رسول الله ﷺ إذا سمعوا الغيبة أن يردّوها، وهم يأبون ذلك!

ويْحكم! ألا تفكِّرون في مصيركم؟! ألا تفكِّرون في نهايتكم؟! كأنّكم ما خُلِقْتُمْ إلا للخوض واللعب والمعاصي! أنبئوني بربكم هل أنتم مسلمون؟!

*عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: **«من ردَّ عن عِرض أخيه؛ ردّ الله عن وجهه النّار يوم القيامة»**[(٣)].

وعن أسماء بنت يزيد ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **«من ذبّ عن عِرض أخيه بالغيبة؛ كان حقّاً على الله أن يُعتقَه من النار»**[(٤)].

* * *

(١) كما في الحديث: **«من رأى منكم منكراً؛ فليغيره بيده، فإنْ لم يستطع؛ فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»**. أخرجه مسلم: ٤٩.

(٢) الأنعام: ٦٨.

(٣) أخرجه الترمذي وقال: «حديث حسن»، وصححه لغيره شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٨٤٨).

(٤) أخرجه أحمد وغيره، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «غاية المرام» (٤٣١).

ريح الذين يغتابون المؤمنين

عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: كنّا عند النّبيّ ﷺ، فهبَّتْ ريحٌ مُنْتِنة، فقال الرسول ﷺ: **«أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريحُ الذين يغتابون المؤمنين»**[١].

***

عذاب المغتاب في القبر

عن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ قال: بينما النّبيّ ﷺ يمشي بيني وبين رجل آخر؛ إذ أتى على قبرين، فقال: **«إنّ صاحِبي هذين القبرين يُعذَّبان، فأتياني بجريدة»**.

قال أبو بكرة: فاستَبقْت أنا وصاحبي، فأتيتهُ بجريدة، فشقّها نصفين، فوضع في هذا القبر واحدة، وفي ذا القبر واحدة.

قال: **«لعله يخفّف عنهما ما دامتا رطبتين، إنّهما يعذّبان بغير كبير: الغيبة، والبول»**[٢].

***

المغتاب جبان ضعيف الشخصية

صاحب الغيبة جبان ضعيف الشخصية؛ لأنّه لا يستطيع المواجهة، ولا يقوى على المصارحة، ولو كان شجاعاً؛ لذكر المرء بما فيه أمامه، وبيّن له

---

(١) أخرجه أحمد، والبخاري في «الأدب المفرد»، وغيرهما، وحسنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٨٤٠)» وانظر «غاية المرام» (٤٢٩).

(٢) أخرجه أحمد، والطبراني في «الأوسط» وغيرهما، وحسنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٠).

بالحسنى صفاته وأفعاله؛ كإخلاف الوعد، أوالتقصير في إكرام الضيف، أو طاعته زوجته فيما يُغْضِبُ الله ـ تعالى ـ.

لماذا لا يكون الواحد منّا شجاعاً يواجه صاحب العيب بعيبه، فيكون مأجوراً مشكوراً، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، محقّقاً في نفسه قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[(١)].

وأيضاً؛ يحسُّ المذنب بذنبه وتقصيره، ولكنّك إنْ قلت هذه الكلمات نفسها من خلفه؛ كنت مذموماً عند الله ـ تعالى ـ آكلاً لحم أخيك، وإنْ نُقِلَ الكلام لصاحبه؛ فما أضعف موقفك! ما أشدَّ حرجك!و ربّما تكذب وتقول: أنا لم أقلْ هذا.

فلتتخيّرْ بعد هذا أحبَّ الطريقين إليك، وكلٌّ مُيسَّرٌ لما خُلق له.

* * *

المغتاب ناقص الإيمان

أيّها المغتابُ! رويدك.

أما علمْت أنّك ناقص الإيمان؟!

أما سمعتَ قول رسول الله ﷺ: **«لا يؤمنُ أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه»**[(٢)]؟!

أأحببت لأخيك ما أحببتَ لنفسك من الخير عندما اغتبته؟!

أتحبُّ أن يذكرك أحدٌ من خلفك بما تكره؟!

فكيف تفعلُ ما تكره أن يُفعل بك؟!

---

(١) فصلت: ٣٣.

(٢) أخرجه البخاري: ١٣، ومسلم: ٤٥.

أما علمت أن هناك ارتباطاً بين الإيمان وترْك الغيبة؟!

تأمّل قوله ـ عليه السلام ـ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبّ لنفسه**»؛ فمن أحبَّ لأخيه ما أحبَّ لنفسه؛ فقد هُدي قلبه، ويُسِّرت له سبيل الإيمان، ومن لم يفعل ذلك، فلينظرْ في قوله ﷺ: «**لا يؤمن**».

لينظر، وليتدَّبر، وليتفكّر: أيَّ ثمن يدفع مقابل متعة الغيبة؟!

إنّه الإيمان... الإيمان أغلى ما يملكه الإنسان.

❋ ❋ ❋

الغيبة تُعطّل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لو كنّا صادقين في إسلامنا، مخلصين في أفعالنا؛ لرُحْنا نواجه من رأينا فيه عيباً، أو بدا لنا منه ذنبٌ أو قصور... نذكِّره ونأمره بالمعروف وننهاه عن المنكر.

وكلّما بدت منه مواقف غير صحيحة، أو جاء الشيطان يزّين لنا الغيبة ويحبِّبها إلى نفوسنا؛ كلّما تذكّرنا أنّ هذا الزين شَيْن، وأنَّ هذا المحبَّب عند نفس الأمّارة بالسوء بغيضٌ عند الله ـ تعالى ـ.

ولكن؛ قد يقول قائل: وأين المفرُّ من هذا القلب الذي يغلي قهراً من العوج والذنوب والعيوب؟! فلا بُدّ من الغيبة!

فلنعلم أنّ دين الله ـ تعالى ـ يُسْرٌ ورحمة؛ فإن هذا الغضب يمكن تصريفه لطاعةٍ وخلُق طيب.

فلتذهب أخي المسلم إلى هذا المذنب المقصّر، ولتُفرِّغ ما في صدرك عنده، على أن يكون ذلك ابتغاء وجه الله ـ تعالى ـ بالحكمة والموعظة الحسنة؛ مُبيِّناً له أنّك إنّما تفعل هذا لأنّك تحبُّ له ما تحبّ لنفسك، ولا تكتُمه النُّصح.

وعُدْ إليه في كلّ مرة يتكرّر منه العيب أو القصور، عُدْ إلى الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، وستكون بذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ من خير أمّةٍ أُخرجت للناس.

أما قرأتَ أخي قوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[١].

ولكنّك ترى معي ـ وللأسف ـ أنَّ الناس اليوم استبدلوا المعصية بالطّاعة، فراحوا ينفّسون عن أنفسم، ويشفون ما في أفئدتهم من غيظٍ على إخوانهم؛ فلا يجدون إلا الغيبة ملجأ يلجؤون إليه، ولبئس ما كانوا يفعلون.

❋ ❋ ❋

ما يُباح من الغيبة

بعد أن تكلّمت في الغيبة ما شاء الله ـ تعالى ـ لي أن أتكلّم، أردتُ أن أُبيِّن ما يباح منها، وذلك من خلال الأدلّة الشرعية.

ولكنْ؛ ليحذَر الإنسان من خلال المباحات أن يُلبِّسَ عليه الشيطانُ، فيفتح عليه باب المحرّمات، فلا يزال لسانه رطباً بالغيبة؛ فالمباح بقدر وحدود، ولا بدَّ أن يقترنَ كلُّ ذلك بنيَّة صحيحة، ليس فيها تشفٌّ لغيْظٍ، ولا رغبة بتشهير، وربُّنا ـ سبحانه ـ يعلمُ خائنة الأعين، وما تخفي الصدور.

وإليك الآن الأمور التي تُباح فيها الغيبة[٢]:

١ ـ التظلُّم: كالتظلُّم للسلطان والقاضي.

ودليله: ما روته عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: إنّ هنداً بنت عتبة قالت: يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل شحيح[٣]، وليس يعطيني ما يكفيني

---

(١) آل عمران: ١١٠.

(٢) النقاط من (١ ـ ٧)، استفدتها من «رياض الصالحين» للنووي، ثمّ شرحتُ ما رأيته لازماً وقرنتُ معه الأدلّة.

(٣) أي: بخيل حريص.

وولدي؛ إلا ما أخذتُ منه وهو لا يعلم؟ قال: «**خذي ما يكفيكِ وولدك بالمعروف**»[١].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «**قال رجل: يا رسول الله! إنَّ لي جاراً يؤذيني**» فقال: «**انطلق فأخرج متاعك إلى الطريق**». فانطلقَ، فأخرج متاعه، فاجتمعَ النّاس عليه، فقالوا: ما شأنُك؟ قال: لي جار يؤذيني، فذكرتُ للنّبيّ ﷺ، فقال: «**انطلق فأخرج متاعك إلى الطريق**» فجعلوا يقولون: اللّهمّ العنْهُ، اللّهمَّ أخزه، فبلغه، فأتاه، فقال: ارجِعْ إلى منزلك؛ فوالله لا أوذيك»[٢].

٢ ـ الاستفتاء: كأنْ يقول للمفتي: ظلمني أخي، أو فلان؛ فما طريقي إلى الخلاص؛ كما في الحديث السابق.

٣ ـ الاستعانةُ على تغيير منكر أو رفْع بلاءٍ عن مسلم.

لحديث هند السابق.

٤ ـ تحذير المسلمين ونُصْحهم من أصحاب الشر وممّن يضرّ بالمسلمين.

ومنها جرح المجروحين من الرُّواة والشُّهود، وذلك للذبّ عن حديث رسول الله ﷺ.

عن زيد بن أرقم ـ رضي الله عنه ـ قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر أصاب الناس فيه شدّة، فقال عبدالله بن أُبيّ لأصحابه: لا تُنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضُّوا[٣] من حوله. وقال: لئِنْ رجعْنا إلى المدينة؛ ليُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلّ.

فأتيتُ النّبيّ ﷺ، فأخبرته بذلك، فأرسَلَ إلى عبدالله بن أُبيّ فسأله،

---

(١) أخرجه البخاري: ٥٣٦٤، ومسلم: ١٧١٤.

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد»، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الأدب المفرد» (٩٢): «حسن صحيح»، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٥٥٩).

(٣) أي: يتفرّقوا.

فاجتهد يمينَه ما فعل، قالوا: كذب زيدٌ رسول الله ﷺ.

قال: فوقع في نفسي مما قالوا شِدّة، حتى أنزل الله تصديقي في: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾» قال: فدعاهم النّبيّ ﷺ ليستغفر لهم فلَوَّوا رؤوسهم[1]»[2].

قال الإمام الشوكاني - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة [3]: «ومما يدّل على ذلك دلالةً بيّنة ما ورد في النّصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمّة المسلمين وعامّتهم وخاصّتهم؛ فإنّ بيان كذب الكذابين من أعظم النصيحة الواجبة لله ولرسوله ولجميع المسلمين».

وممّا قاله أيضاً: «**وكذلك جرْحُ من شهدَ في مالٍ أو دمٍ أو عرض بشهادة زورٍ، فإنها من النصيحة التي أوجبها الله على عباده، وأخذهم بتأديتها، وأوجب عليهم القيام بها**».

وعن الشّريد - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَيّ الواجِدِ يحلُّ عرضه وعقوبته**»[4].

قال ابن المبارك: «**يحلُّ عرضه: يغلَّظ له. وعقوبته: يُحبس له**».

قال المُناوي - رحمه الله تعالى - في «فيضِ القدير» في شرح هذا الحديث: «(ليّ الواجد)؛ أي: مَطْل الغني، و(اللَّيُّ)؛ بالفتح: المطْلُ. و(الواجد): الغنيُّ؛ من الوُجد - بالضم - بمعنى السّعة والقدرة، ويُقال: وجد في المال وجداً؛ أي: استغنى. (يُحِلّ): من الإحلال. (عرضه): بأن يقول له المدين أنت ظالم، أنت مُماطل، ونحوه مما ليس بقذفٍ ولا فُحْش. و(عقوبته): بأن يُعَزِّره القاضي على الأداء، بنحو ضربٍ أو حبسٍ حتى يؤدّي».

(١) «لووا رؤوسهم»؛ أي: أمالوها إعراضاً ورغبة عن الاستغفار.

(٢) أخرجه البخاري: ٤٩٠٣، ومسلم: ٢٧٧٢.

(٣) كتاب «رفع الريبة» (ص٢٧) بتحقيق الأخ: محمد إبراهيم الشيباني - جزاه الله خيراً -.

(٤) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٣٠٨٦) والنسائي وابن ماجه وغيرهم، وحسنه شيخنا - رحمه الله - في «الإرواء» (١٤٣٤).

٥ ـ المشاورة في أمور الزواج أو المشاركة أو المجاورة، ونحو ذلك.

لقول النّبيّ ﷺ لفاطمة بنت قيس ـ في استشارتها من خِطبة معاوية وأبي الجهم حين خطباها ـ: «**أمّا أبو جَهم؛ فلا يضَع عصاه عن عاتقه**[١]، **وأمّا معاوية؛ فصعلوك**[٢] **لا مال له**»[٣].

وفي الحديث عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «**حقّ المسلم على المسلم ست**» قيل: ما هُنّ يا رسول الله؟ قال: «**إذا لَقيته فسلّم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له...**»[٤].

٦ ـ ذِكر المجاهر بالذنب بما فيه، أو صاحب البدعة ببدعته.

ولا يذكره بغيره من العيوب إلا لحالٍ مما سبق ذِكره.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أنّ رجلاً استأذن على النّبيّ ﷺ، فقال: «**ائذنوا له؛ بئس أخو العشيرة**»[٥].

احتجّ به البخاري في جواز غيبة أهل الفساد وأهل الريب[٦].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أيضاً قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ما أظنّ فلاناً وفلاناً يعرفان من ديننا شيئاً**»[٧].

قال الليث: كانا رجلين من المنافقين.

٧ ـ التعريف إن كان الإنسان معروفاً بلقب معين؛ كالأعرج، والأصمّ، والأعمى، ونحو ذلك.

---

(١) فيه تأويلان مشهوران: أحدهما: أنه كثير الأسفار. والثاني: أنه كثير الضرب للنساء. والعاتق: هو ما بين العنق إلى المنكب.
(٢) الصُّعلوك: فقير.
(٣) أخرجه مسلم: ١٤٨٠.
(٤) أخرجه مسلم: ٢١٦٢.
(٥) أخرجه البخاري: ٦٠٥٤، ومسلم: ٢٥٩١.
(٦) بقوله: «باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والرّيب».
(٧) أخرجه البخاري: ٦٠٦٧.

ولا يحلُّ إطلاقه على وجه التحقير والتنقيص، وإن أمكن تعريفه بغير ذلك؛ فهو أفضل وأولى.

عن أُسيْر بن جابر أنّ أهل الكوفة وفَدوا إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ وفيهم رجل ممّن كان يسخر بأويس، فقال عمر: هل ها هنا أحد من القَرَنِيِّين[١].

فجاء ذلك الرجل، فقال عمر: إنّ رسول الله ﷺ قد قال: **«إنّ رجلاً يأتيكم من اليمن، يقال له: أُويس، لا يَدَع باليمن غير أمٍّ له، قد كان به بياض[٢]، فدعا الله فأذهبه عنه؛ إلا موضع الدّينار أو الدّرهم، فمن لقيه منكم؛ فليستغفر لكم»**[٣].

قال الإمام الشوكاني[٤] ـ رحمه الله تعالى ـ: «فإن قلت: فإن كان صاحب اللقب لا يُعرفُ إلا به، ولا يعرف بغيره أصلاً؟ قلت: إذا بلغ الأمر إلى هذه النّهاية، ووصل البحث إلى هذه الغاية؛ لم يكن ذلك اللقب لقباً، بل هو الاسم الذي يُعرف به صاحبه؛ إذ لا يُعرف باسم سواه قطّ».

وجاءت هذه الأغراض الشرعية منظومة شعراً في بيتين:

لقدحُ ليس بغيبةٍ في ستةٍ ... متظلّمٍ ومعرِّفٍ ومحذِّرِ
ومجاهرٍ فسقاً ومستفتٍ ومنْ ... طلبَ الإعانة في إزالة مُنكرِ

* * *

الأمور التي ينبغي مراعتها عند الغيبة المباحة

١ ـ الإخلاص لله في النّية:

---

(١) نسبة إلى قبيلة قرن.
(٢) أي: برص.
(٣) أخرجه مسلم: ٢٥٤٢.
(٤) «رفع الريبة» (ص٣٣).

فَمن ذكر شخصاً بشيء فيه، ولم يذكره إزالةً لمنكر، وإنّما للنيل منه، أو التنقيص؛ فهو آثم؛ كرجلٍ كان يستشير آخر في أمر زواج، فقال ما فيه، لا لإظهار الحقّ، وإنما حسداً من عند نفسه؛ كيلا يُوفَّق في الزواج من تلك الفتاة؛ فهذا حرام، وأمثال هذه الصُّور كثيرة.

٢ ـ أن تذكر أخاك بما فيه، إن كان في ذلك تحقيق مصلحة من المصالح المتقدّمة، ولا تفتح لنفسك الباب لتذكر كلّ العيوب الأخرى.

٣ ـ التأكّد أنّ من وراء هذه الغيبة لا تتحقّقُ مفسدة أكثر من الفائدة، ولا تقع فتنة تضرُّ بالمسلمين.

***

التوبةُ من الغيبة

اعلم أخي المسلم أنَّ التوبة من الغيبة واجبةٌ، فسارع بالإنابة لله ـ تعالى ـ والتوبة له، فإنّه لا يغفر الذنوب إلا هو ـ سبحانه ـ.

واعلم أنّ شروط التوبة(١) من الغيبة أربعة:

الأول: أن يقلع المغتابُ عن غيبته.

الثاني: أن يندم على فِعْلها.

الثالث: أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً.

الرابع: أن يستحلَّ أخاه من الغيبة ويطلب منه الاستغفار.

فإنْ خشي حصول مفسدة من هذا؛ فإنّه يتجنّبه، ويكتفي بالدُّعاء له.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير سورة الحجرات: «... وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلّله؛ فإنّه إذا أعلمه بذلك، ربما تأذّى أشدَّ ممّا إذا لم يعلم بما كان فيه».

---

(١) الشروط الثلاثة عامّة للتوبة من أي ذنب يتعلّق بحقّ الله ـ سبحانه ـ، وانظر: «رياض الصالحين» (باب التوبة).

وتعليقاً على كلام النووي ـ رحمه الله تعالى ـ «قال العلماء... وإن كان غيبةً استحلّه منها» ـ قال شيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ[١]:

«هذا إذا لم يترتّب على الاستحلال نفسه مفسدة أخرى، وإلا فالواجب حينئذ الاكتفاء بالدعاء له».

❋ ❋ ❋

أمور لا تُظنُّ أنّها غيبة وهي غيبة

١ ـ قد يذكر المرء أخاه بما يكره، وإذا نهيتهُ عن ذلك؛ قال: «**أنا على استعداد للقول أمامه**».

ويردُّ على هذا من وجوه:

الأول: أنّك ذكرته من خلفه بما يكره بما فيه، وهذه هي الغيبة.

الثاني: استعدادك للحديث أمامه أمر آخر مستقلّ، لم يرِدْ دليل فيه على أنه يُسوّغ لك أن تذكر أخاك من خلفه بما يكره.

الثالث: ليس هناك ما يدعو لذْكره من خلفه، طالما التكلّم أمامه ممكن، ولا يكون دافع هذا إلا الهوى.

الرابع: ليس بيدك ضمان عفوِه عمّا ذكرته من خلفه.

الخامس: من خلال الواقع الذي نعيشه يُلمس أنّ الاستعداد للقول أمام الشخص بما فيه ممّا يكره؛ ادعاءٌ ليس صحيحاً، بل هو من تلبيس الشيطان لتسويغ الغيبة التي وقعت.

٢ ـ قول القائل في جماعة من الناس عند ذكر شخص ما: «**الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان**»، أو «نعوذ بالله من قلّة الحياء»، أو نحو هذا؛ فإنّه يجمع بين ذمّ المذكور، ومدْح النفس[٢].

(١) في «رياض الصالحين» (باب التوبة).

(٢) من «مختصر منهاج القاصدين» مع بعض الحذف.

٣ ـ قول القائل: فعَل كذا بعض الناس، أو بعض الفقهاء، أو بعض من رأيناه، أو نحو ذلك، وإذا كان المخاطب يفهمه بعينه؛ لحصول التفهيم[١].

٤ ـ وربما سُئل شخص عن حال أخيه؟ فيقول من سُئل: الله يصلحنا، الله يغفر لنا، الله يصلحه، نسأل الله العافية، نعوذ بالله من الشر، وما أشبه ذلك مما يُفهم منه تنقّصه.

٥ ـ وكذلك إذا قال المرء: فلان ابتُلي بما ابتلينا به كلّنا، أو ما له حيلةٌ في هذا. كلّنا نفعله.

٦ ـ قول الشخص: حضرة الأفندي! جناب السيد! ونحو ذلك إن كان يقصد التنقّص منه.

٧ ـ قول المرء: هذا صغير تجوز غيبته.

وهذا كلام غريبٌ عجيب، نطلبُ الدليل على جوازه؛ فإنّ الأدلّة في تحريم الغيبة جاءت مطلقة، فتظلُّ على إطلاقها، فتشمل: الكبير والصغير، والذَّكر والأنثى، والغني والفقير.

ولم لا يقولون: «**إنّ الصغير إذا اغتاب الكبير لا يؤثم**»[٢].

لِمَ لا يتذكّرون قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**رُفع القلم عن ثلاثة: عن النّائم حتى يستيقظ، وعن المبتلى حتى يبرأ، وعن الصّبيّ حتى يكبر**»[٣].

وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**رُفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون**

---

(١) النقاط من (٣ ـ ٥) من كتاب «الأذكار» للنووي ـ رحمه الله تعالى ـ (باب بيان مهمات تتعلّق بحد الغيبة).

(٢) لا يعني هذا تشجيع الصغير على الغيبة، بل علينا أنْ نعلّمه ونُربيّه على ترك المحرّمات.

(٣) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٣٦٩٨)، وابن ماجه وغيرهما، وهو في «الإرواء» (٢٩٧).

المغلوب على عقله حتى يفيق، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبيّ حتى يحتلم»[١]؟.

٨ ـ وربّما فتح الله ـ تعالى ـ على أحدهم في أمرٍ بالمعروف أو نهي عن منكر في موقف صعب لا يستطيعه أي شخص، واستجاب ذلك الشخص للأمر أو النّهي استجابةً يبدو فيها الصدق والإخلاص، ويظهر من صاحبها العزم الشديد على التوبة، ولكنَّ ذلك الناصح ربّما ضعُف أمام الشيطان، فراح يحكي قصّته أمام الناس: فلان فعَل كذا وكذا، فلان صنع كذا وكذا، ونصَحْته بكذا.

أيُّ دافعٍ غير الهوى وحُبّ الغيبة دفع هذا الشخص لنقل هذا أمام الناس؟!

أو ليس هدَف الآمر بالمعروف والنّاهي عن المنكر أن ينشر المعروف بين الناس، وأن يقضي على المنكر؟!

فلِمَ إذن الكلام والتعليق بعد أن تحقق الهدف؟!

أم انقلب الآمر مأموراً للشيطان، والنّاهي واقعاً في المناهي؟

٩ ـ التّساهل في غيبة العاصي.

وهذا فيه كلام؛ فإنّه لا يصحّ على إطلاقه؛ فليس كل من يقع في المعصية تجوز غيبته، وإلا جازت غيبةُ كل المسلمين، فما من مؤمن إلا وله ذنب، وحديث الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يؤكّد هذا.

يقول ﷺ: **«ما مِنْ عبدٍ مؤمن؛ إلا وله ذنبٌ يَعْتاده الفينَة بعد الفينة، أو ذنب هو مقيم عليه لا يفارقه حتى يفارق الدنيا؛ إنّ المؤمن خُلق مُفْتناً**[٢]**، توّاباً، نسَّاءً، إذا ذُكّر ذكَر»**[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٣٧٠١) وغيره، وهو في «الإرواء» تحت رقم (٢٩٧).

(٢) أي: مُمتحَناً؛ يمتحنه الله بالذنب ثمّ يتوب، ثمّ يعود، ثمّ يتوب. «النهاية».

(٣) أخرجه الطبراني، وانظر «الصحيحة» (٢٢٧٦).

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«كلّ ابن آدم خطّاء، وخيرُ الخطّائين التوّابون»**[(١)].

وكيف اطمأنّ هؤلاء لغيبة العاصي مطلقاً؟!

وما هو تفسيرهم كلمة (أخاك) في قوله ﷺ: **«الغيبة ذِكْرُك أخاك بما يكره»**[(٢)].

ألا يدخل ضمن (أخاك) المطيع والعاصي؟!

كيف لا ورسول الله ﷺ يقول: **«المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه، ولا يخذُلُه، ولا يحقره. التقوى ها هنا ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ بحَسْب امرِىء من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم، كلّ المسلم على المسُلم حرام؛ دمه، وماله، وعِرضه»**[(٣)].

ونسأل هؤلاء المتساهلين: أدم المسلم العاصي حلال؟ أم ماله؟ فلماذا لا يكون عِرضه كذلك حراماً وقد جاء العِرض معطوفاً على المال والدّم؟!

١٠ ـ قول القائل: هذا هندي، أو مصري، أو فلسطيني، أو عجمي، أو عربي، أو بدوي، أو قروي، أو إسكاف، أو نجار، أو حداد[(٤)]؛ إنْ قاله لحظّ من حظوظ النّفس، وهو نفسه يكره أن يُقال عنه ذلك.

وضابط هذا كلّه: **«ذكرك أخاك بما يكره»**.

❋ ❋ ❋

---

(١) أخرجه الترمذي، وابن ماجه وغيرهما، وحسنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٣٩).

(٢) تقدّم.

(٣) أخرجه مسلم: ٢٥٦٤.

(٤) عن كتاب «الأذكار» للنووي ـ رحمه الله ـ (باب تحريم الغيبة والنميمة) بتصرف وحذف.

من مساوىء التّساهل في غيبة العاصي

١ ـ الصدُّ عن الهدى، وعدم قبول النّصيحة، وكُره الدّعاة إلى الله ـ تعالى ـ.

وهذه الغيبة غالباً ما تكون من قِبلِ أهل المساجد، والدّعاة إلى الله ـ تعالى ـ للأسف؛ فإنهم حين يرون عاصياً من العصاة وقعوا فيه، وإنّ هؤلاء العصاة بعد أن سمعوا غيبتهم قد أعلنوا الكراهية والبغض لمن اغتابهم، وصرّحوا بفقدهم الثقة بهم.

إنّه لِمن الجدير بالدّعاةِ إلى الله ـ تعالى ـ وأهل المساجد وروّاده، أن ينظروا لهؤلاء العصاة نظرة إشفاقٍ وعطف، وأن ينشطوا في دعوتهم؛ آخذين بيدهم؛ بالحكمة والموعظة الحسنة، لعلّهم يهتدون؛ فكم من المشركين والملحدين والعصاة كانوا يعيشون في الأرض فساداً، فهداهم الله ـ تعالى ـ وأصبحوا من خيار الناس وأحاسنهم أخلاقاً، والتّاريخ على مرّ أيّامه يشهد على ذلك.

٢ ـ تعذُّر الإصلاح بين المتخاصمين.

لعلّ أحدهم وقع في غيبة أخيه، فسمع الآخر ذلك، فراح يغتابه انتقاماً، فيسمع الأولُ غيبته في أمرٍ آخر، فيكيد له كيداً، ولا يذر شيئاً فيه ممّا يكرهه؛ إلا وسعى في نشره، وكذا يفعل الثاني، فتسوءُ العلاقة بينهما، ويتقدّم المصلحون للإصلاح بينهما، فما تكون حجّةُ أيٍّ منهما إلا أن يقول: لقد قال عنّي كذا وكذا، لا يمكن أن نلتقي أبداً.

إنّها طعنات في القلوب أفسدت المحبَّة بينهما؛ كان سببها الهوى.

وكم تتكرّر هذه المصائب والمآسي في أمّتنا!

كم من العلاقات الطّيبة لمثل هذا قد فَسَدَت!

وكم من القلوب المتآلفة بعد هذه الضلالة قد اختلفت!

أما آن لهذه القلوب أن تخشع، ولهذه العيون أن تدمع، ولهذه الغيبة أن تُقطع؟!

احذر غيبة الأخرق[1]

عجيب وعجيب جدّاً أن نترك إعانة الأخرق، وأعجب من هذا أن نؤذيه بالغيبة.

عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله! أي الأعمال أفضل؟ قال: «**الإيمان بالله والجهاد في سبيله**»، قال: قلت: أيُّ الرقاب أفضل؟ قال: «**أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمناً**» قلت: فإن لم أفعل؟ قال: «**تُعينُ صانعاً، أو تصنعُ لأخرق**» قال: قلت: يا رسول الله! أرأيت إنْ ضعُفْتُ عن بعض العمل؟ قال: «**تكفُّ شرّك عن الناس؛ فإنها صدقة منك على نفسك**»[2].

لقد بيّن رسول الله ﷺ أفضل الرّقاب، وبيّن ـ عليه الصّلاة والسلام ـ سبيل الخير لمن لم يُعتِقْ، وهو إعانة الأخرق.

ولكنّنا ـ مع الأسف ـ لا نترك الأخرق يَسْلَمُ من شرور ألسنتنا، نعيبُه، ونغتابه، ونتّخذ أفعاله هزواً.

* * *

أشدّ من الغيبة

ومن المصائب التي ابتُليت بها أُمتنا: أنّك ترى الإنسان يغتاب أخاه؛ لا لذنب أو لعيب، وإنما هو تحريم وتحليل بعض العادات والتقاليد.

ومن الأمثلة على ذلك أنّ إنساناً قد يدعو أخاه إلى طعام، وقد يدعو اثنين أو ثلاثة، فيعتب أحد إخوته عليه، ويَجِدُ عليه، ويأخذه بلسانه؛ واقعاً فيه؛ لأنّه لم يدْعُه.

---

(١) الأخرق: هو الذي لا يُتقن ما يحاول فِعْله وصُنعه.

(٢) أخرجه البخاري: ٢٥١٨، ومسلم: ٨٤، واللفظ له.

وكلُّ ذلك من الجهل وعدم التفقّه في الدّين؛ فأين الأدلّة التي توجب عليه دعوة هذا كلما فكّر في دعوة طعام؟!

وإنْ شئت أدلّةً على تحريم هذا العمل؛ فهي كثيرة، ولكنْ ليس معه من شيء إلا الهوى.

بل إنّ المرء ربّما فعل ما هو جيد محبَّب في الشرع، وتتناوله ألسنة كثيرٍ من المغتابين.

فمثلاً؛ قد يتواضع شخصٌ في لباسه، ويزهد فيه، مع قدرته عليه، وكلّما رآه جاهل؛ قال: انظروا إلى هذا البخيل! انظروا إلى هذا الذي يحْرِم نفسه زينة الحياة الدنيا! انظروا إلى هذا الذي أمات علينا ديننا!

أين هؤلاء من قوله ﷺ: **«من ترك اللباس تواضعاً لله وهو يقدر عليه؛ دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق، حتى يُخيِّرَ من أي حُلَلِ الإيمان[1] شاء يلبسها»**[2].

حقيقٌ بنا أن نُحبَّ هذا الشخص في الله ـ تعالى ـ طالما رأينا تواضعه الدائم وحسن خلقه.

ولنعلمْ أولاً لماذا فعل هذا، ثمّ نفكّر ونتدبّر: أيحلُّ لنا أم يحرم أن نُغلظ فيه القول، وأن نقول عنه: أماتَ علينا ديننا؟!

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يدعوه يوم القيامة، على رؤوس الخلائق، حتى يُخيره من أيّ حُلَل الإيمان شاء يلبسها.

وكيف يكون حالك أنت يوم القيامة؟! إنّك آكلٌ لحماً، مغتاب لمؤمن، نادم، خائفٌ، مدين.

***

(١) حُلل الإيمان: أي: ما يعطى أهل الإيمان من حُلل الجنَّة، والله أعلم.

(٢) أخرجه الترمذي والحاكم وأحمد وغيرهم، وانظر «الصحيحة» (٧١٨).

غِيبةٌ بغير اللّسان

عَهِدْنا بالغيبة أن تقع من اللسان، ولكنّها قد تقع بغيره: قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾[(١)].

وعن عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ قالت: «قُلت للنّبيّ ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا ـ تعني قصيرة ـ فقال: «**لقد قلتِ كلمة؛ لو مُزِجَت بماء البحر؛ لمزجته**»!

قالت: وحكيتُ له إنساناً[(٢)]، فقال: «**ما أُحِبُّ أنّي حكيت إنساناً وأنّ لي كذا وكذا**»[(٣)]. قال النووي: «... وكذا سائر ما يُتوصّلُ به إلى فهْم المقصود، كأن يمشي مشيته؛ فهو غيبة، بل هو أعظم من الغيبة... لأنّه أبلغ في التصوير والتفهيم وأنكرُ للقلب»[(٤)].

فليتّقِ الله ـ تعالى ـ أقوام يفعلون هذا، يُقلّدون المشي والأكل وأسلوب التكلّم؛ تفكُّهاً وسخرية واستهزاءً.

وأدهى من ذلك وأمَرّ؛ ما هو شائع هذه الأيام ممّا يُسمّى بـ(الأفلام الكوميدية)؛ فإنّ الرجل فيها يوظِّف حركاته في تقليد شخص ما، كي يُدْخِلُ السرور في نفوس الناس؛ غير مبالين بالعاقبة الوخيمة التي تجرُّها هذه المعاصي، ومنها: تربية الأبناء تربية غير لائقة، وتخريج الأجيال المستهترة المستهزئة التي لا تحمل هموم الأمّة ولا تسأل عن شؤونها.

---

(١) الهمزة: ١.
وجاء في «تفسير ابن كثير»: «الهمّاز بالقول: واللماز بالفعل، وقال ابن عباس: همزة ولمزة: طعان مِعياب. وقال الربيع بن أنس: الهمزة: يهمزه في وجهه، واللمزة: من خلفه، وقال مجاهد: الهمزة باليدين والعين، واللمزة باللسان».

(٢) أي: فعَلْت مِثل فعله، وأكثر ما يستعمل في القبيح: المحاكاة. «النهاية».

(٣) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٤٠٨٠) وغيره، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «غاية المرام» (٤٢٧)، وتقدّم بعضه.

(٤) «الزواجر» لابن حجر الهيتمي (١٧/٢).

وهذه (الأفلام) ـ وللأسف ـ منتشرة انتشاراً واسعاً سواء كان ممّا يسمّى (دور السينما) أو (التلفزيون) أو (الفيديو)، أو (أجهزة الكمبيوتر) هدانا الله ـ تعالى ـ سواء السبيل.

* * *

مجاهدةُ الغيبة مِن أفضل الجهاد

يستغرب كثيرٌ من الناس، عندما يسمعون أنّ مجاهدة الغيبة من أفضل أنواع الجهاد، ويزول هذا العجب عندما يسمعون كلام رسول الله ﷺ إذْ يقول: «**المجاهدُ منْ جاهد نفسه في طاعة الله**»[1].

وقوله ﷺ: «**أفضل الجهاد: أن تجاهد نفسك وهواك في ذات الله ـ عزّ وجلّ ـ**»[2].

فالاشتغال بمنع الغيبة جهاد، بل من أفضل أنواع الجهاد.

إنّ جهاد أعداء الله ـ تعالى ـ قد يكون في فترة محدودة من عمر الإنسان، وأمّا جهاد النفس؛ فلا ينتهي إلا بانتهاء الأجل؛ كما أنّ جهاد الأعداء لا يُقبل من المسلم؛ إلا بمجاهدته الرياء والحميّة وحظوظ النّفس.

إنّه من المتعيِّن على كلّ مسلم أن يجاهد نفسه، ويمنعها عن الغيبة، وأن يقيم دولة الإسلام في قلبه، حتّى تقوم على الأرض. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾[3].

* * *

---

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد، وانظر «الصحيحة» (٥٤٩).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية»، والديلمي، وغيرهما، وانظر «الصحيحة» (١٤٩٦).

(٣) الروم: ٤ ـ ٥.

أقوال طيبة في ذمّ الغيبة

١ ـ يُروى عن الحسن البصريّ ـ رحمه الله ـ: أنّ رجلاً قال له: إنّك تغتابني» فقال: «ما بلغ قدْرُكَ عندي أن أُحكِّمكَ في حسناتي».

٢ ـ وقيل لأحدهم: إنّ فلاناً قد اغتابك. فبعث إليه طبقاً من الرُّطَب، وقال: «بلغني أنّك أهديت إليّ حسناتك، وأردتُ أن أكافئك بها، فاعذرني، فإنّي لا أقدر أن أكافئك بها على التّمام».

٣ ـ وروي عن ابن المبارك ـ رحمه الله ـ: أنّه قال: «لو كنتُ مغتاباً أحداً، لاغتبتُ والديَّ؛ لأنهما أحقُّ بحسناتي».

٤ ـ «الغيبة ضيافةُ الفُساق».

٥ ـ عن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ: أنّه مرَّ على بغل ميت، فقال لبعض أصحابه: «لأن يأكل الرجلُ من هذا حتّى يملأ بطنه؛ خيرٌ له من أن يأكل لحم رجل مسلم»[١].

٦ ـ وذَكَر رجلٌ آخر بسوءٍ أمام صاحبه، فقال له: «هل غزوتَ الرُّوم؟» قال: لا. قال: «هل غزوت التّرك؟» قال: لا. قال: «سلِمَ منك الرّومُ، وسلِمَ منك التركُ، ولم يسلَمْ منك أخوك المسلم!».

٧ ـ إنْ ضعفتَ عن ثلاثٍ؛ فعليك بثلاث: إنْ ضعفتَ عن الخير؛ فأمسكْ عن الشرِّ، وإن كنت لا تستطيع أن تنفع الناس؛ فأمسك عنهم ضُرّكَ، وإنْ كنتَ لا تستطيع أنْ تصوم؛ فلا تأكل لحوم الناس».

٨ ـ قال الشاعر:

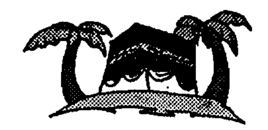
المرءُ إنْ كان عاقلاً ورعاً ... أشغلَهُ عن عُيوب غيره ورَعُه
كما العليلُ السَّقيمُ أشغَلَهُ ... عن وجع النّاس كُلهم وجعُه

---

(١) هذا القول ثابت عن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ وقد صححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٨٣٨).

فرغت من إعادة النظر فيه وتصحيحه في عمّان ضحى يوم ١٣ محرم ١٤٢٣ هـ.

وكتب:
حسين بن عودة العوايشة





فقه الدعوة وتزكية النفس

(١٢)

تسوية الصفوف وأثرها في حياة الأُمّة

بقلم

حسين بن عودة العوايشة






الأمرُ بإحسان تسوية الصفوف

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أحْسنوا إقامةَ الصفوف في الصلاة»**[١].

وكيف يكون إحسان إقامة الصفوف؟

يوضّحه حديث جابر بن سَمُرة ـ رضي الله عنه ـ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: **«ما لي أراكم رافعي أيديكم، كأنها أذناب خيل شُمُسٍ**[٢]**، اسكنُوا في الصلاة»**، قال: ثمّ خرج علينا، فرآنا حِلَقاً، فقال: **«ما لِي أراكم عِزينَ**[٣]**؟!»** قال: ثمّ خرج علينا فقال: **«ألا تَصُفُّون كما تَصُفُّ الملائكة عند ربها؟»** فقلنا: يا رسول الله، وكيف تَصُفُّ الملائكة عند ربها؟ قال: **«يُتمّون الصفوف الأُول، ويتراصّون**[٤] **في الصف»**[٥].

فإحسان الصفوف لا يكون ـ إذن ـ إلا بإتمامها وتراصِّها.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده»، وصحّحه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٤٩٩).

(٢) [شُمُس بضمّ الميم وسكونها]: جمع شَموس؛ وهو النَّفور من الدّوابّ؛ الذي لا يستقر لشَغَبه وحدَّته. «النهاية».

(٣) جمع عِزَة؛ وهي الحلْقة المجتمعة من الناس. «النهاية».

(٤) يتراصّون: يَلْزَقُ بعضهم ببعض ويتضامّون؛ حتى لا يبقى بينهم فُرَج. «بذل المجهود» (٣٢٨/٤).

(٥) أخرجه مسلم: ٤٣٠.

ولننظر إلى واقع نعيشه، وهو افتخار جيوش الأرض بجُندها وقوتهم في عروضهم العسكرية؛ من خلال حُسْن الاصطفاف والترتيب، فلا ترى عِوَجاً ولا خَللاً، والمسافات منتظمة مُنسّقة، والمناظر باهرة، وترى الناظرين؛ وقد أُخِذَت ألبابهم، وأخذتهم الدهشة وأذهلتهم.

وأمّا المدارس؛ فلا تسأل عن الاهتمام البالغ في تسوية الصفوف فيها، وإقامتها وتنظيمها.

أليس أصحاب المساجد أولى الناس؛ أن يهتمّوا بإقامة الصفوف، وجَوْدة تراصّها؛ كما تصف الملائكة عند ربها ـ سبحانه وتعالى ـ؟!

***

لن ندخل الجنة حتى نسوّيَ الصفوف

لقد أقسم رسول الله ﷺ أنّنا لن نؤمن، ولن ندخل الجنة حتى نتحابَّ في الله تعالى، وذلك لِما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده؛ لا تدخلوا[1] الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا، أولا أدلّكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم؟! أفشوا السلام بينكم»**[2].

وهذه المحبة لن تُيَسَّرَ بغير التراص وتسوية الصفوف؛ لأنّ النّبيّ ﷺ بيّن أنّ عدم إقامة الصفوف تؤدي إلى اختلاف القلوب.

والنتيجة الحتمية: أنّ الإيمان والجنة والمحبّة والألفة؛ كلُّ أولئك لن يتيسّر إلا بتسوية الصفوف وتراصِّها.

***

(١) وردت «لا تدخلوا» في بعض الروايات؛ كما في «صحيح مسلم»، ووردت بثبوت النون: «لا تدخلون» في غيره؛ مثل «سنن ابن ماجه»، وحذف النون في حالة الرفع لغة معروفة من لغات العرب.

(٢) أخرجه مسلم: ٥٤.

اهتمامنا بالمظاهر في كل شيء إلا الطاعات، لا سيما مظهر تسوية الصفوف

عجباً لنا كيف نهتمُّ بالمظاهر في كل شيء من دنيانا، ولا نهتمُّ بالمظاهر التي يأمرنا بها ديننا؟! وما أراه إلاّ من الشيطان.

ولا أدري ما هم فاعلوه؛ لو جاءت نصوصٌ تحرّم رصَّ الصفوف وتسويتها؟! فلعلَّ شياطين الجنِّ والإنس تأتي لرصّها، رصّاً وتسوية لا ترى مثلها قط! هكذا ـ والله أعلم ـ وإلا فأين أشياء حرّمها الله تعالى في الكتاب أو السنة؛ لا تجدها شائعة محبوبة بين الناس؟!

انظر إلينا كيف نحبُّ المظاهر الدنيوية!

إنّنا نحبّ الغنيّ ولو كان جاهلاً، ونقدّم حبّه على الفقير ولو كان عالماً!

نصادق القوي، ونترك الضعيف!

قد يُنفق الإنسان الأموال الطائلة على أشياء تافهة؛ حتى يقال: فلان فعَل كذا وكذا!

قد يضحك علينا الجاهل بلباس حسن، ويخدعنا اللصُّ بكلام معسول، ويسحرنا المنافق ببيانه ولسانه!

هناك مظاهر للضيوف والزوّار لا نتخلّى عنها، والعاقّ الشاذّ مَنْ خالفَها!

فإذا كان القوم في مجلس ولم يقم لهم الرجل؛ أقاموا وأقعدوا المصائب؛ لأنّه لا يجلّهم ولا يقدّرهم، ولا يعرف الآداب الاجتماعيّة ـ زعموا ـ.

إذا قيل لهم: المصافحة من الأجنبية وممن يحلّ لهم زواجها حرام، قالوا: القلوب عفيفة ونقيّة وطاهرة، وليست العبرة بالمظاهر! وإذا جاء الفقير الذي يُرضى عن دينه وخلقه للزواج من ابنتهم؛ صارت العبرة بالظاهر،

واستغنوا عن باطنه ونقائه وعفّته، والمهم أن يكون ذا مالٍ أو منصبٍ أو جاه.

وإذا طُلب منهم رصّ الصفوف وتسويتها؛ قالوا: العبرة بالباطن لا بالشكليّات! ولكنّ إيمانهم بالشكليّات يأتي حين يُتقدّم للزواج من بناتهم، فإنهم يُعقّدون الأمور، ويُغلّون المهور، ويجتهدون في الشروط، فاللباس مواصفاته كذا وكذا، وأمّا الأثاث فينبغي أن تكون أسعاره لها أجنحةٌ تطير، ولا بد من حفلة تسحر الألباب، لا بُدّ من أمورٍ نسبقُ بها الناس ولا نُسبَق!

فأين ـ بربكم ـ صلاح الباطن الذي آمنوا به حين حُدِّثوا برصّ الصفوف؟! وأين كفرهم بشكليّات تسويتها وإقامتها؟! أم أنه الهوى؟! فقاتَل الله الهوى.

سبحان ربك كيف يغلبك الهوى   سبحانه إنّ الهوى لَغَلوبُ

أهكذا الشأن معكم يا قوم! المظهر الذي يريده الله ويحبّه ويأمر به، ويتوعّد من يتركه بالويلات والمصائب؛ تتخذونه هزواً ولعباً؟!

والمظاهر التي لم يأذن بها الله ـ سبحانه ـ تتخذونها شريعة وديناً؟

أيَّ جريمةٍ اقترفتم؟ وأيَّ خطيئةٍ اجترحتم؟

لقد آمنّا بتسوية الصفوف إيماناً عميقاً، غير أن هذا خارج المسجد، لا داخله، ألا ترى معي إبداع التسوية في الجيش والمدرسة؟!

هنا يقال: إنّها رمز القوة والنظام والطاعة والرقيّ! ولكنها في المسجد شكليات وقشور وتفاهات لا تُجدي ولا تفيد!

لإنجاز معاملاتنا بسرعة في الدوائر والمؤسسات، ولتجنّب المشاكل والاختلافات؛ لا بد من النظام والاصطفاف، أمّا أنْ نُحقّق هذا في المسجد؛ ليدرأ عنا الفُرقة والاختلاف فلا يسأل عنه، ناسين أو متجاهلين وعيد رسول الله ﷺ بهذا.

* * *

عدم تسوية الصفوف يؤدّي إلى اختلاف القلوب

عن أبي مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**استووا**[١] **ولا تختلفوا؛ فتختلفَ قلوبكم**»[٢].

وقد جاءت الكلمة الأولى من الحديث: «**استووا**» في صيغة الأمر، والأمر يفيد الوجوب إلاّ لقرينةٍ تصرفه، والقرائن المؤكدة للوجوب كثيرة[٣]، منها: الحديث السابق: «**أحسِنوا إقامة الصفوف في الصلاة**».

ومنها أيضاً ما تراه في نفس الحديث؛ وهو النهي عن الاختلاف، وهو قوله ﷺ: «**ولا تختلفوا**»، والنهي يفيد التحريم إلاّ لقرينةٍ تصرفه كذلك.

ولقد اجتمع الأمر والنهي معاً في هذا الحديث؛ فكان كلّ منهما قرينة مؤكّدة للآخر.

لقد أمَر رسول الله ﷺ بتسوية الصفوف، وحذّر من عدم الائتمار بأمره، لأنّ ذلك يُفْضي للخلاف؛ كما في الحديث: «**أقيموا**[٤] **صفوفكم، فوالله لتقيمُنّ صفوفكم؛ أو ليخالفنّ الله بين قلوبكم**»[٥].

وفي رواية: «**أو ليخالفنّ الله بين وجوهكم**»[٦].

والفاء في: «**تختلف**» هي فاء السببية، فيكون معنى الحديث: الاختلاف في تسوية الصفوف سبب في اختلاف القلوب.

---

(١) أي: اعتدلوا. «بذل المجهود» (٤/٣٢٦).

(٢) أخرجه مسلم: ٤٣٢.

(٣) وسأعقد لها باباً مستقلاً ـ إن شاء الله تعالى ـ.

(٤) أقيموا؛ أي: عدّلوا وسوّوا؛ كما في «الفتح».

(٥) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٦١٦) وغيره، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٥١٢).
وجاء في «فيض القدير»: «قال الطيبي: الوجه: أنّ المراد باختلاف الوجوه؛ اختلاف الكلمة وتهييج الفتن، ولعله أراد الفتن التي وقعت بين الصحابة».

(٦) أخرجه البخاري: ٧١٧، ومسلم: ٤٣٦.

فلماذا يقول القائل: إنّ تسوية الصفوف والحديث عنها يُفرّق الأمّة!

أهُمْ في ريب من هذا؟! فلقد أقسَم لهم رسول الله ﷺ - وهو الصادق المصدوق -؛ فهل ترى لهم من تصديق؟

ولقد صرّح - عليه الصلاة السلام - بمؤكدات كثيرة في هذا النص وغيره؛ منها اللام، ونون التوكيد الثقيلة في الكلمتين: (تقيم) و (يخالف)، ثمّ عطف التوكيد على التوكيد، ولكنهم يمرّون عنها مُعرضين.

كيف يجتهدون في موارد النصوص؟!

وليت الأمر يقف عند هذا فحسب؛ بل إنّ اجتهادهم يغاير الفهم الصحيح الصريح، فإنَّ أدنى الناس معرفة بالفقه والعربية، لو قرأ أحاديث تسوية الصفوف؛ لفهم أنّ عدم تراصّ الصفوف وإقامتها؛ يؤدي إلى اختلاف القلوب وتفرُّقها.

فمن أين جاءهم ذلك الاجتهاد - وهم ينهون عنه وينأون - الذي يأمرهم بترك الحديث عن تسوية الصفوف لتأتلف القلوب؟

لم يكن الاختلاف غائباً عن بال النّبيّ ﷺ - وما ينبغي له - بل لقد كان - عليه الصلاة والسلام - أسبق منا معرفةً وعلماً به. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾[1].

ولقد ذكَر الرسول ﷺ الاختلاف في كثير من النصوص، وبألفاظ متعددة، منها: **«فتختلف قلوبكم»**، **«أو ليخالفنّ الله بين قلوبكم»**، **«أو ليخالفنّ الله بين وجوهكم[2]»**[3].

ومع عِلمه ﷺ بالاختلاف وأسبابه وكراهيته له؛ لم يضرب صفحاً عن

---

(١) النجم: ٤.

(٢) جاء في «النهاية»: «..يريد أن كلاً منهم يُصرَف وجهه عن الآخر، ويوقع بينهم التباغض؛ فإنّ إقبال الوجه على الوجه من أثر المودّة والألفة».

(٣) أخرجه البخاري: ٧١٧، ومسلم: ٤٣٦، وتقدّم.

الأمر بتسوية الصفوف، كي يريح المسلمين من الجدال والنزاع فيه، ثمّ ليُحفظوا من تفرّق القلوب نتيجة المخالفة!

كلُّ ذلك لم يَثْنِه عن الأمر بذلك، ولم يصدّه البتةَ، وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ أدرى منّا بمصلحة الأمّة، وأفهم منّا بالمهمّ والأهمّ، ولكنّه ظلّ يُحذِّر من الاختلاف الناتج عن عدم التسوية، بما يؤكد أنّه لا محيص من تسوية الصفوف، ولا مفرّ من إقامتها، ولا مهرب من الحديث عنها.

أمّا من يرى أنّ الحل الصحيح لا يكون إلا بغضِّ الطرف عن تسوية الصفوف، وأخواتها من الموضوعات، ثمّ التحدّث عن قتال الأعداء، ومحاربة هجماتهم الشرسة على اختلاف أنواعها ـ وما نحن لها بمُهَوِّنين ـ ؛ فهذا شأنه كمن رأى أن الصلاة أهم من الصيام وغير ذلك، فأنكر عمّن يتحدث عن أهمية الصيام، وتحريم التعامل بالرّبا، بِحجّة أنّ الناس قد أضاعوا الصلوات، وفرَّطوا فيها!!

وهذا مخطىء بالتأكيد، فالواجبات كثيرة ومتعددة ومتنوعة، والمسلم مُطالَب بأداء ما استطاع منها، ولا يحلّ لنا أن نضرب بعضها ببعض، فتصحيح العقيدة واجب والجهاد في سبيل الله واجب، والدعوة إليه واجبة، والتيقّظ لمخطّطات الأعداء واجب، ومحاربة الغيبة والنميمة واجبة، وبِرّ الوالدين واجب، وتسوية الصفوف واجبة.

وكيف نجاهد ونصدّ ونذبّ عن الدين، ونحن متفرّقون متنازعون؟!

وها نحن نرى النزاع والشقاق قد غزا الأمّة؛ حتّى إخوانَنا المجاهدين ـ مع قلتهم وندرتهم ـ! نعم؛ إنّهم متفرّقون مختلفون، فوا حرّ قلباه، ثمّ وا حرّ قلباه!!

ولا تنسَ أنّ الشياطين التي تُحرّك أصحاب المذاهب الهدّامة؛ هي الشياطين ـ أو من صنفها ـ التي تعيش في الفُرُجات، وتقوم في الخلل بين صفوف المسلمين، حتّى تُخالف بين القلوب، وتُباعد بينها، لِتظل على غير الوفاق، ولئلا تقدر على تحطيم أصحاب المذاهب العَفِنة، والعقائد الزائفة، ذلك لأنّ الشياطين تعلمُ أنّ في تسوية الصفوف تآلفَ القلوب والوجوه، وإذا

ما حصل التآلف والحبُّ بين المسلمين؛ كان ما يقهر شياطين الإنس والجنّ، وهذا ما يحسبون حسابه، ويخشون وقوعه.

* * *

عدم تسوية الصفوف يؤدي إلى هلاك الأمّة

اتضحَ لنا من خلال حديث النّبيّ ﷺ ـ بما لا يدَعُ مجالاً للشك ـ أنّ عدم تسوية الصفوف يؤدي إلى الاختلاف، والذي يقود إلى الفشل والهلاك وذَهاب الريح والقوة، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[1][2]، ويقول رسول الله ﷺ: «**لا تختلفوا؛ فإنّ من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**»[3].

ومن خلال الجمع بين النصوص؛ يكون المعنى: «**استووا ولا تختلفوا؛ فتهلكوا وتفشلوا وتذهب ريحكم**».

أوَ أكثرَ من هذا الهلاك نريد؟! أم أشدَّ من هذا الفشل ننتظر؟! فها نحن وقد تداعت علينا الأمم؛ كما تداعت الأكَلَة على قصعتها، وها هي بلادنا تُحتل، والأعداء يطمعون فيما بقي، وغَدونا لا حول لنا ولا قوة بين الأمم، لا يُسمع لنا صوتٌ إلا في الشكوى والأنين وطلب الإنصاف، وكفّ الزحف والهجوم عنّا، وأصبحنا شِيَعاً وأحزاباً ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[4].

لقد تفرّقت القلوب، وتعطّل الجهاد، وكأنّه لم يبق لنا منه إلا الكلام عنه، فحتّامَ نظل هكذا في الفُرقة والاختلاف والضياع؟! أما آن لقلوبنا أن

(١) أي: قوّتكم وحدّتكم وما كنتم فيه من الإقبال» «تفسير ابن كثير».

(٢) الأنفال: ٤٦.

(٣) أخرجه البخاري: ٢٤١٠.

(٤) المؤمنون: ٥٣.

تخشع لذكر الله وتعاليم ديننا؟! أما آن لكم ـ يا صفوة الناس وأحاسنهم ! ـ أن تأتلفوا وتتحابوا؟!

فهيّا بنا نُقبل على تسوية الصفوف.

قُدُماً لنؤلّف بين القلوب ـ بإذن الله تعالى ـ؛ فما أشد خطر الألفة على شياطين الجنّ والإنس.

❋ ❋ ❋

ما ورَد في مخالفة الوجوه

عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لتُسوُّنَّ صفوفكم؛ أو ليخالفَنّ الله بين وجوهكم**»[(١)].

قال النووي ـ رحمه الله ـ في «شرح مسلم»: «معناه: يوقع بينكم العداوة والبغضاء واختلاف القلوب، كما تقول: تغيَّر وجه فُلان عليّ؛ أي: ظهر لي من وجهه كراهة لي، وتغيّر قلبه عليّ، لأنّ مخالفتهم في الصفوف مخالفة في ظواهرهم، واختلاف الظواهر سبب لاختلاف البواطن».

قلت: وكذلك كان، فأنت ترى العداوة والبغضاء، وظهور الكراهية في الوجوه، واختلاف الظواهر والبواطن، وإذا ما جاء أحدهم يلصق مَنكِبه بمنكب صاحبه أو قدمه بقدمه؛ أعرض ونأى بجانبه، وظهرت الكراهية في وجهه؛ لأنّه يرى أنه قد أزعجه وضايقه.

وكذلك الحريص على تسوية الصفوف؛ فإنه قد تغيّر عليه الوجه، وأخذ قلبه في كراهية من لم يستجب لأوامر النّبيّ ﷺ، وهو في بُغضه هذا مأجور غير مأزور، لا سيّما وقد ذكَّر وذكّر، ولكن لا حياة لمن ينادي، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «**من أحبّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله،**

---

(١) أخرجه البخاري: ٧١٧، ومسلم: ٤٣٦، وتقدّم.

ومنع لله؛ فقد استكمل[١] الإيمان»[٢].

وثبت أنّ رجلاً جاء إلى ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ فقال: «إنّي أحبّك في الله، قال: فاشهد عليّ أنّي أبغضك في الله!

قال: ولِمَ؟! قال: لأنّك تُلَحّن في أذانك، وتأخذ عليه أجراً»[٣].

والنتيجة المؤلمة هي الاختلاف ونقصان المحبة، ثمّ ينادي من ينادي للمحبة والألفة، ولكن الاختلاف ماضٍ فينا؛ ما دمنا تنكّبْنا هدْي النبيّ ﷺ، ولن تعود الألفة ويرجع الإخاء؛ إلاّ أن نؤوب إلى ربنا ـ تعالى ـ ونطيع أوامر رسوله ﷺ.

* * *

رؤية النّبيّ ﷺ صفوفَ المصلين من وراء ظهره[٤]

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: أقيمت الصلاة، فأقبَل علينا رسول الله ﷺ بوجهه، فقال: **«أقيموا صفوفكم وتراصّوا؛ فإنّي أراكم من وراء ظهري»**[٥].

أفحسبتم أن رؤية النّبيّ ﷺ للصفوف من وراء ظهره من العبث؟ حاشا لله تعالى؛ فإنّ فيها الإكرام والإنعام للأمّة؛ حتى تُحْسن تسوية صفوفها،

---

(١) وهذا من الأحاديث التي تنقض الإرجاء، وتُبيّن زيادة الإيمان بالطاعة ونقصانه بالمعصية، وأنّ الإيمان يتضرّر بعدم قيام العبد بالأعمال الظاهرة والباطنة، وأنّ استكمال الإيمان لا يكون إلا بهذا.
أمّا ادّعاء استكمال الإيمان بمجرّد المعرفة أو قول اللسان دون القلب، أو اعتقاد القلب وقول اللسان وإخراج العمل عن مسمّى الإيمان؛ فهذا كله من ضلالات المرجئة وبدعهم العقدية المنكرة.

(٢) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٣٩١٥)، وانظر «الصحيحة» (٣٨٠).

(٣) انظر «الصحيحة» تحت الحديث (٤٢).

(٤) هذه من خصوصيات النّبيّ ﷺ في الصلاة دون غيرها.

(٥) أخرجه البخاري: ٧١٩.

فتأتلف القلوب ولا تختلف؛ لأنّه ﷺ يراهم من وراء ظهره؛ كما يرى من أمامه، والنفس البشرية تزيد الاهتمام والإتقان ـ مع المراقبة والمتابعة ـ ما لا تفعله في سوى ذلك.

* * *

ما جاء في البنيان المرصوص

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾[1].

جاء في «تفسير ابن كثير» ـ رحمه الله تعالى ـ: «**قال قتادة: ألم ترَ إلى صاحب البنيان كيف لا يُحبُّ أن يختلف بُنيانه؟! فكذلك الله ـ عزّ وجلّ ـ لا يحب أن يختلف أمره، وإنّ الله صفَّ المؤمنين في قتالهم، وصفّهم في صلاتهم، فعليكم بأمر الله؛ فإنّه عصمةٌ لمن أخذ به**».

بيّن الله ـ تبارك وتعالى ـ أنّه يحبّ الذين يُقاتلون في سبيله صفّاً؛ يلتصق بعضهم ببعض، ويتضامّون ويتراصّون، شأنهم شأن البنيان المرصوص؛ كما في الحديث: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشدّ بعضه بعضاً**»[2].

وتأمّل قول قتادة ـ رحمه الله ـ: «وإنّ الله صفّ المؤمنين في قتالهم، وصفّهم في صلاتهم».

فقد عطف صفّهم في الصلاة، على صفّهم في القتال، فذكر البُنيان المرصوص في القتال والصلاة.

كم نعتني بالبنيان والسقف والجدران، نحرص على المقادير الجيدة من

---

(١) الصف: ٤.

(٢) أخرجه البخاري: ٢٤٤٦، ومسلم: ٢٥٨٥، زاد البخاري ـ رحمه الله ـ: «ثمّ شبّك بين أصابعه».

الموادّ القوية المحسّنة، ونبحث عن المُشرفين والعاملين الأقوياء الأمناء، ونُنْفِق في ذلك الأموال الكثيرة، ونَحْذَر من أقلّ خللٍ فيه؛ لِما فيه من الخطر على حياة أمّهاتنا وآبائنا وأبنائنا وأهلينا، ونهتمّ ببنيانها وجمالها، بل نبالغ في ذلك ونغلو؛ فَلِمَ لا نهتمّ ببنيان الإيمان... ببنيان المجتمع المسلم... ببنيان الجماعة المسلمة؟!

وهل ترضى عن وجود مِثل هذا الخلل الذي أحدثْته في صفّ المسلمين؛ أن يكون في بيتك!

لا والله؛ إنك لا ترضى أدنى منه... إنك تخشى تسرُّب الماء والبرودة والهواء والحشرات... فكيف تخشى ما يفسد دنياك ولا تخشى ما يفسد آخرتك؟!

إذا علمْتَ هذا ـ يرحمك الله ـ؛ فقد سهل عليك أن تعرف قوله ﷺ: **«خِياركم ألينكم مناكبَ في الصلاة»**[١].

وذلك أن ليِّن المنكِب مُطيع ربّه ـ سبحانه ـ ،مطيع رسوله ﷺ، وما فعل هذا؛ إلا عن علم ومعرفة، لا عن خبط عشواءَ، ولا بُد أن يكون مألفة، **«ولا خير فيمن لا يَألف ولا يُؤلف»**[٢]، ولا بُدّ أن يكون قد سمع كلام النّبيّ ﷺ في رصّ الصفوف وتسويتها، وما يترتّبُ على ذلك من اختلاف القلوب، فهو تقيّ وَرِعٌ، يخشى الفُرقة والنّزاع، ويُحب الجماعة والاتّفاق، ليّن القلب والفؤاد؛ إذ لِينُ المنكب، ما أتى إلاّ مِن المضغة الآمرة الناهية في الجسد كُلّه، والتي قال فيها النّبيّ ﷺ: **«ألا وإنّ في الجسد مضغة**[٣]**، إذا صَلَحت صَلُح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب»**[٤].

---

(١) أخرجه أبو داود «صحيح أبي داود» (٦٢٤)، وهو صحيح لغيره كما في «صحيح الترغيب والترهيب» (٤٩٧).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» وغيره، وانظر «الصحيحة» (٤٢٦).

(٣) المُضغة: هي القطعة من اللحم، قدْر ما يمضغ. «النهاية».

(٤) أخرجه البخاري: ٥٢، ومسلم: ١٥٩٩.

وإنّما جاءت خيريّة منكبه من خيريّة قلبه؛ إذ أن قلبه هو الذي أوعز بالأوامر لمنكِبه وقدمه وركبته وكعبه؛ أن تلصق بمنكب وقدم وركبة وكعب صاحبه في الصلاة.

جاء في «بذل المجهود» (٣٣٨/٤): «معناه[١]: أنّه إذا كان في الصفّ وأَمَره أحد بالاستواء، ويضع يده على مَنكِبه؛ ينقاد ولا يتكبّر، فالمعنى أسرعكم انقياداً. قال الخطّابي: معناه: لزوم السكينة والطمأنينة بحيث لا يلتفت، ولا يجاوز مَنكِبه مَنكِبَ من بجنبه، ولا يمنع من أراد دخولاً في صفٍّ لسدّ فرجة، أو لضيق مكان، بل يُمكّنه من ذلك، ولا يدفعه بمَنكِبه».

قلت: فهذا يُرتجى منه أن يكون أشدّ الناس طاعة لقائده المسلم حين يأمره وهو في ساحة الجهاد أن يصدّ أو يهجم.

وأمّا ذاك الذي إذا قرّب أحدهم مَنكِبه من مَنكِبه، أو قدمه من قدمه، ينفر كأنّه بغل شموس[٢]، فكيف تأمن عليه ألا يفرّ عند هجوم الأعداء؟!

وذلك الذي يقول لأهل العلم: «**إنّ تسوية الصفوف قشور ومظاهر وتفاهات**»، يتضايق ممن يلصق به، يريد مزيداً من الراحة والتوسّع، ذو صدر ضيّق حرج؛ كأنما يصعّد في السماء، يصعب التفاهم معه، يُؤوّل أحاديث النّبيّ ﷺ، ويَفرّ من العمل بها؛ فكيف لا يؤوّل هذا كلامَ القائد في المعركة، ويخرج عن طاعته؟! بل إنّه لذلك أشد تأويلاً، وأكثر فراراً، والذي يُملي عليه بالفتوى هواه، عافانا الله من الخِذلان.

ولكنّ ليِّني المناكب يُدركون معنى: «**إنّا لله وإنا إليه راجعون**»؛ فيعلمون أن مناكبهم ورُكبهم وأبدانهم، كلّها لله ـ سبحانه وتعالى ـ فيقومون بما أمرهم به رسول الله ﷺ من التراصّ في أي جزء من أجزاء الجسم، دون حرج في النفس، ومن غير أن يطيل ترحال الخاطر في الفرار من الطاعة.

* * *

(١) أي: حديث: «**خِياركم ألينكم مناكب في الصلاة**».

(٢) إشارة إلى قول أنس ـ رضي الله عنه ـ وسيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ.

تسوية الصف وإقامته من تمام الصلاة وحُسنها

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**سوُّوا صفوفكم؛ فإنّ تسوية الصفّ من تمام الصلاة**»[١].

وفي رواية: «**فإنّ تسوية الصفوف من إقامة الصلاة**»[٢].

وفي رواية: «**فإنّ إقامة الصفّ من حُسن الصلاة**»[٣].

***

الترغيب في وصل الصفوف والتخويف من قطعها

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أقيموا الصفوف، وحاذوا بين المناكب، وسدّوا الخلل[٤]، ولينوا[٥] بأيدي إخوانكم، ولا تذروا فُرُجات للشيطان. ومن وصَل صفّاً[٦]؛ وصَله الله[٧]، ومن قطع صفّاً[٨]؛ قطعه الله**»[٩].

---

(١) أخرجه مسلم: ٤٣٣.

(٢) أخرجه البخاري: ٧٢٣.

(٣) أخرجه البخاري: ٧٢٢، ومسلم: ٤٣٥.

(٤) الخَلل: ما يكون بين الاثنين من اتساع عند عدم التراصّ. قاله المنذري ـ رحمه الله ـ في «الترغيب والترهيب».

(٥) أي: إذا وضع اليد عليكم للتقدم والتأخّر؛ فلِينوا له، وانقادوا ولا تستنكفوا منه. «بذل المجهود» (٤/٣٣٣).

(٦) بوقوفه فيه، وسدّ فرجة منه.

(٧) برحمته ورفْع درجته. «فيض القدير».

(٨) بأن كان فيه فخرج منه لغير حاجة، أو جاء إلى صف، وترك بينه وبين مَن بالصف فرجة بلا حاجة. «فيض القدير» (٢/٧٥).

(٩) أخرجه أحمد في «مسنده»، وأبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٦٢٠)، والنسائي «صحيح سنن النسائي» (٧٨٩)، وصحّحه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٤٩٥).

وفي الحديث: «**وما من خطوة أحبّ إلى الله؛ من خطوة يمشيها العبد، يصل بها صفّاً**»[١].

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الله - تعالى - وملائكته يصلُّون على الذين يَصلِون الصفوف، ومن سَدَّ فرجة؛ رفَعه الله بها درجة**»[٢].

* * *

تخلّل الشياطين بين الصفوف

عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «**رُصّوا صُفوفكم، وقاربوا بينها، وحاذُوا بالأعناق؛ فوالذي نفسي بيده؛ إني لأرى الشيطان يدخل من خلل الصّف؛ كأنها الحذَف**[٣]»[٤].

فلنتأمّل هذه النصوص، ثمّ لنسأل أنفسنا: من الذي يتخلل الفرجات؟

والجواب في قوله ﷺ: «**ولا تذروا فُرجات للشيطان**».

ومن هو الشيطان؟ تعرَّفْهُ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[٥].

ولا يغيب عن بال المسلم أنّ المساجد أحبّ البقاع إلى الله تعالى؛ لقوله ﷺ: «**أحبُّ البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها**»[٦].

---

(١) أخرجه أبو داود، وهو صحيح لغيره، كما في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٠٧).
(٢) أخرجه أحمد في «مسنده»، وابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٨١٤).
(٣) الحَذَف: هي الغَنم الصغار الحجازية. وقيل: هي صغار جُرد، ليس لها آذان ولا أذناب» «النهاية».
(٤) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٦٢١)، والنسائي، وصححه شيخنا - رحمه الله - في «صحيح الترغيب والترهيب» (٤٩٤).
(٥) فاطر: ٦.
(٦) أخرجه مسلم: ٦٧١.

والصلاة من أفضل الأعمال إلى الله تعالى، فكيف بك في أحب البقاع والأوقات[1] والأعمال؛ تبتعد عن إخوانك، وتقترب من الشياطين، تُقصي إخوانك، وتُدْني أعداءك؟!

كيف بك تستضيف الشياطين في بيوت الأتقياء المؤمنين[2]؟!

لقد حذّر النبيّ ﷺ من ترك الفرجات؛ لأنّ الشياطين تسارع إليها كأولاد الضأن الصغار.

بل إنّه أقسَم بالله ـ تعالى ـ الذي بيده نفسه الكريمة الطاهرة على ذلك ـ وإنّه لقَسَمٌ لو تعلمون عظيمٌ؛ ففيه من معاني عبودية وتذلّل الرّسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ الشيء الكثير لله ـ تعالى ـ إذ إنّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعلم حقّ العلم ما يترتّب على كون نفسه بيد الله الخالق البارىء العزيز الجبار المتكبر ـ سبحانه وتعالى ـ.

وبعد هذا القسم ـ وهو أعلى أساليب التوكيد ـ جاء ـ عليه الصلاة والسلام ـ بمؤكدّات أخرى، وهي حرف التوكيد إنّ ثمّ (اللام) في: «**لأرى**»، ثمّ بلّغ لنا ما رآه مصوّراً مشبّهاً بمحسوس ملموس.

وهذا كُلّه من مُعايِن، و«**ليس الخبر كالمعاينة**»[3] وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ يرى ما لا نرى ـ كما قال في غير هذه المناسبة ـ: «**إنّي أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون**»[4].

فكيف بعد هذا ارتضينا الشياطين، وأبَيْنا المؤمنين؟ إذا اقترب الأخ المسلم منّا ابتعدنا ونفرنا، وإذا اقترب منّا الشيطان الرجيم فَرِحنا!

* * *

---

(١) إشارة إلى حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «سألت رسول الله ﷺ أيّ العمل أفضل؟ قال: **الصلاة لوقتها**...» أخرجه البخاري: ٥٢٧، ومسلم: ٨٥.

(٢) إشارة لقوله ﷺ: «المسجد بيت كل تقيّ»: أخرجه الطبراني في «الكبير» وغيره، وحسّنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٧١٦).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده»، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «المشكاة» (٥٧٣٨).

(٤) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (١٨٨٢)، وابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٧٨)، وحسّنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٣٨٠).

أجر من سدّ الفُرُجات

من أجل ذلك وغيره؛ رفَع الله درجة لمن سدّ فرجةً، وبنى له بيتاً في الجنة، وذلك لما روته عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: **«من سدّ فرجة؛ رفعه الله بها درجة، وبنى له بيتاً في الجنة»**(١).

وعن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«خِياركم ألينكم مناكبَ في الصلاة، وما من خطوة أعظم أجراً؛ من خطوة مشاها رجل إلى فرجة في الصف فسدّها»**(٢).

***

الردّ على من يستغرب تخلّل الشياطين بين الفُرُجات

يعجبُ بعض الناس عندما يسمع تخلّل الشيطان بين الفرجات، ويا عجباً من عجبه! إذ لو استغرب هذا غير المسلم لهان الأمر، وأمّا أن يصدر هذا من مسلم فلا يُقبل؛ لأنّ الإيمان بما أخبر عنه الصادق المصدوق؛ من ثمرة الإيمان بنبوة ورسالة محمد ﷺ! ومن ذلك:

ما رواه أبو سعيد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا تثاءب أحدكم؛ فليضع يده على فيه؛ فإن الشيطان يدخل مع التثاؤب»**(٣).

ومن ذلك قوله ﷺ: **«لا تقل: تَعِس الشيطان؛ فإنّه يعظم حتى يصير مثل البيت، ويقول: بقوّتي صرعته، ولكن قل: بسم الله، فإنك إذا قلتَ ذلك؛ تصاغر حتى يصير مثل الذباب»**(٤).

---

(١) أخرجه المحاملي في «الأمالي»، وأحمد، وابن ماجه دون قوله: «بنى له بيتاً في الجنة»، وانظر «الصحيحة» (١٨٩٢)، و «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٠٥).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط»، وانظر «الصحيحة» (٢٥٣٣)، و «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٠٤).

(٣) أخرجه البخاري: ٣٢٨٩، ومسلم: ٢٩٩٥، واللفظ له.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده»، وأبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٤١٦٨)، وغيرهما.

فها نحن قد سمعنا من النّبيّ ﷺ أن الشيطان يدخل مع التثاؤب عن طريق الفم، ومرّة يعظُم حتى يصير مثل البيت، وأخرى يتصاغر حتى يكون مثل الذباب، وهو يدخل في الفُرجات.

وحذار أن يتطرّق الشكُّ إلى نفسك! فهذا ينبىء عن فسادٍ في القلب، وعدم التسليم لأوامر الشرع الحنيف.

* * *

من الأدلّة على وجوب تسوية الصفوف

وأمّا الأدلة على وجوب تسوية الصفوف؛ فكثيرة، ومنها:

١ ـ أفعال كثيرة في النصوص، وردَت بصيغة الأمر، ومنها:

«أحسِنوا إقامة الصفوف»(١).

«سوّوا صفوفكم»(٢).

«أقيموا صفوفكم»(٣).

«رُصّوا صفوفكم، وقارِبوا بينها»(٤).

«حاذوا بالأعناق»(٥).

«تراصّوا»(٦).

«استووا»(٧).

«حاذوا بين المناكب»(٨).

(١ ـ ٨) تقدّم تخريجها.

«سُدّوا الخلل»[١].

٢ ـ أفعال اقترنَت بـ(لام الأمر):

«لتقيمُنّ صفوفكم، أو ليخالفِنّ الله بين قلوبكم»[١].

«لتسوُنّ صفوفكم، أو ليخالفنّ الله بين وجوهكم»[١].

٣ ـ ورود (لا الناهية) في بعض الأحاديث، والنهي يفيد التحريم إلا لقرينة تصرفه ـ كما تقدّم ـ والقرائن جاءت مؤكدة لا صارفة.

وإليك بعض الأمثلة على (لا الناهية):

«لا تذروا فُرجات للشيطان»[١].

«لا تختلفوا؛ فتختلفَ قلوبكم»[١].

«لا تختلفْ صدوركم؛ فتختلفَ قلوبكم»[٢].

«لا تختلفْ صفوفكم؛ فتختلفَ قلوبكم»[٣].

٤ ـ ما يقع من عدم تسوية الصفوف من مخالفة القلوب والوجوه كما تقدّم.

٥ ـ قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **«إياي والفُرَج»**؛ يعني: في الصلاة[٤].

٦ ـ إنكار أنس ـ رضي الله عنه ـ عدم إقامة الصفوف؛ كما روى عنه بُشَيْرُ بن يَسَارٍ الأنصاري:

---

(١) تقدّم تخريجها.

(٢) أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه»، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥١٣).

(٣) أخرجه ابن حبان وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥١٣).

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير»، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (١٧٥٧)»

«أنه قَدِم[١] المدينة، فقيل له: ما أنكرتَ منا منذ يوم عهدتَ رسول الله ﷺ؟ قال: ما أنكرتُ شيئاً إلا أنكم لا تقيمون الصفوف»[٢].

٧ ـ التهديد بالقطيعة من الله تعالى لمن يقطع الصفوف، كما في الحديث: **«من وصَل صفاً وصله الله، ومن قطَع صفاً؛ قطعه الله»**[٣].

والتهديد بالقطع والقطيعة لا يكون لتاركِ مستحبّ.

٨ ـ ضرْب عمر وبلال ـ رضي الله عنهما ـ أقدام من لم يُسوّوا الصفوف، كما سيأتي[٤] ـ إن شاء الله تعالى ـ.

وبه استدل ابن حزم على الوجوب، كما في «الفتح».

٩ ـ وصْف أنس ـ رضي الله عنه ـ لمن لم يُسوّ الصف، بأنّه بغل شَموس[٥].

❋ ❋ ❋

علماء قالوا بوجوب تسوية الصفوف

١ ـ الإمام البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ وقوله في أحد الأبواب من «صحيحه»: (إثم من لم يتمّ الصفوف).

٢ ـ الإمام ابن خزيمة ـ رحمه الله تعالى ـ كما هو ظاهر من العناوين التي صدّرها في «صحيحه»؛ وهي:

---

(١) أي: أنس ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) أخرجه البخاري: ٧٢٤.
ومن هذا الحديث أخَذ الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ بالوجوب؛ كما أشار إلى ذلك الحافظ في «الفتح».

(٣) تقدّم.

(٤) انظر «نداء إلى الأئمة والخطباء والوُعّاظ».

(٥) سيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ.

(باب الأمر بتسوية الصفوف قبل تكبير الإمام)[١].

(باب الأمر بإتمام الصفوف الأولى)[١].

(باب الأمر بالمحاذاة بين المناكب والأعناق)[١].

(باب الأمر بسدّ الفُرج)[١].

(باب التغليظ في ترك تسوية الصفوف تخوُّفاً لمخالفة الربّ ـ عزّ وجلّ ـ بين القلوب)[١].

٣ ـ الإمام ابن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ ؛ قال في «المحلّى» (٤/٧٥): (تسوية الصف إذا كان من إقامة الصلاة؛ فهو فرض؛ لأنّ إقامة الصلاة فرض؛ وما كان من الفرض فهو فرض).

٤ ـ الحافظ المنذري ـ رحمه الله تعالى ـ كما هو ظاهر من قوله في «الترغيب والترهيب»: (الترهيب من تأخُّر الرجال إلى أواخر صفوفهم، وتقدُّم النّساء إلى أوائل صفوفهن، ومن اعوجاج الصفوف).

٥ ـ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ فقد قال في «مجموع الفتاوى» (٢٣/٣٩٤): «ولو لم يكن الاصطفاف واجباً؛ لجاز أن يقف واحد خلف واحد، وهلمّ جرّاً...».

٦ ـ الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ في مواطن وتعليقات في الباب السابق فقد قال: «ومع القول بأن التسوية واجبة؛ فصلاة من خالف ـ ولم يُسوّ ـ صحيحة».

٧ ـ الإمام الصنعاني؛ قال ـ رحمه الله تعالى ـ في «سُبل السلام» ـ بعد ذكر عدّة أحاديث في الباب ـ: «وهذه الأحاديث والوعيد الذي فيها؛ دالّة على وجوب ذلك، وهو ممّا تساهل فيه الناس...».

٨ ـ الإمام الشوكاني ـ رحمه الله ـ وقد صرّح بذلك في كتابه «نيل

---

(١) انظر (٣/٢٠ ـ ٢٤) منه.

الأوطار» في باب (الحث على تسوية الصفوف ورصّها وسدّ خلَلِها)؛ قائلاً «قوله: «**سوّوا صفوفكم**». فيه أنّ تسوية الصفوف واجبة.

٩ ـ شيخنا الإمام الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ كما صرّح بذلك في كتابه «سلسلة الأحاديث الصحيحة»[١].

* * *

كيف نُسوّي صفوفنا؟

يبيّن لنا أنس ـ رضي الله عنه ـ كيف كانت تسوية الصفوف في عهد النّبيّ ﷺ فيقول: «**وكان أحدُنا يُلْزِقُ مَنكِبه بمَنكِب صاحبه، وقدمه بقدمه**»[٢].

وفي رواية: «**فلقد رأيت أحدنا يُلْصِقُ مَنكِبه بمَنكِب صاحبه، وقدمه بقدمه، فلو ذهبت تفعَل هذا اليوم؛ لنفرَ أحدكم كأنّه بَغْل شَمُوس**»[٣].

وفي قول للنعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ: «**فرأيت الرّجل يلزق مَنكِبه بمَنكِب صاحبه، وركبته بركبة صاحبه، وكعبه بكعبه**»[٤].

ولا بُدّ أن نحاذيَ بين المناكب والأعناق؛ لقوله ﷺ: «**وحاذوا بالأعناق**[٥]»، وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**وحاذوا بين المناكب**»[٥].

ويُفهم مما سبق؛ أنّ تسوية الصفوف وتراصّها تعني:

---

(١) انظر ما كتبه ـ رحمه الله ـ تحت الحديث (٣٢).

(٢) أخرجه البخاري: ٧٢٥.

(٣) انظر رقم (٣١) من «الصحيحة».

(٤) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٦١٦) وغيره، وعلّقه البخاري في «كتاب الأذان» (باب ـ ٧٦)، وانظر «الصحيحة» (٣٢).

(٥) تقدّم تخريجهما.

١ ـ إلصاق مَنكب المرء بمنكب صاحبه، وقدمه بقدمه، وركبته بركبته، وكعبه بكعبه.

٢ ـ مراعاة المحاذاة بين المناكب والأعناق والصدور، بحيث لا يتقدّم عُنق على عُنق، ولا مَنكِب على مَنكِب، ولا صدْر على صدْر.

وأمّا من وسّع ما بين قدميه؛ فقد منَع التصاق مَنكِب صاحبه بمنكِبه، وركبته بركبته، وكعبه بكعبه، فيَحسُن بك أن تلتفت لموقع الإمام، فترصّ من تلك الجهة قدمك بقدم صاحبك، وكعبك بكعبه، وركبتك بركبته، ومَنكِبك بمَنِكبه، ثمّ تنتظر مِنْ صاحبك من الجهة الأخرى؛ أن يفعل ما فعلت مع صاحبك بالجنب، وتدعوَه للاقتراب إذا ابتعد.

أمّا أن تمدَّ رجلك لتدركه؛ فهذا يسبب عدم التصاق المنكبين والكعبين والركبتين من الجهة الأخرى، ولا يبقى التصاق القدمين، وهذا غير كافٍ.

واحذر أن تُشكِّل قدماك رقم (٧ سبعة)؛ لأنّ هذا يمنع إلصاق كعبك بكعب صاحبك، وأيّ علّة في عدم تحقيق التراصّ المطلوب؛ فإنّ الخطأ يعود إلى توسيع فتحة القدمين، فتنبّه!

❋ ❋ ❋

تراصّ الجماعة المكوّنة من إمام ومأموم واحد

من المشتهر عند الكثير من النّاس: أنّه إذا صلّى الرّجلان جماعة؛ فإنّ الإمام يتقدّم عن المأموم قليلاً، وهذا يُنافي التراصّ الوارد في النصوص المتقدّمة.

قال البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ في «صحيحه»: (باب يقوم عن يمين الإمام بحذائه سواءً إذا كانا اثنين)[١]! ثمّ أورد حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «بتُّ في بيت خالتي ميمونة، فصلّى رسول الله ﷺ العشاء،

(١) انظر «كتاب الأذان» (باب: ٥٧).

ثمّ جاء فصلّى أربع ركعات، ثمّ نام، ثمّ قام، فجئت فقمتُ عن يساره، فجعلني عن يمينه[١]، فصلّى خمس ركعات، ثمّ صلّى ركعتين، ثمّ نام، حتى سمعت غطيطه[٢] - أو قال: خطيطه[٣] - ثمّ خرج إلى الصلاة».

... وعن ابن جريج قال: قلت لعطاء: الرجل يُصلّي مع الرّجل، أين يكون منه؟ قال: إلى شقّه الأيمن» قلت: أيحاذي به حتى يصُفّ معه، لا يفوت أحدهما الآخر؟ قال: نعم، قلت: أتحبّ أن يساويه، حتى لا تكون بينهما فُرجة؛ قال: نعم»[٤].

***

ما جاء في النّهي عن الصلاة بين السواري

عن عبدالحميد بن محمود قال: «صلّيتُ مع أنس بن مالك يوم الجمعة، فدُفعنا إلى السواري، فتقدّمنا وتأخرنا، فقال أنس: كنا نتقي هذا على عهد رسول الله ﷺ»[٥].

وفي رواية لمعاوية بن قُرَّةَ عن أبيه قال: «كنّا نُنهى أن نَصُفّ بين

---

(١) قال شيخنا الألباني - رحمه الله تعالى - في «مختصر البخاري» (٤٧/١): «قلت: يعني بحذائه كما في «المسند»، وقد خرّجته في «الصحيحة» (٦٠٦)»، وقال في «المختصر» أيضاً (ص١٨٠): «قلت: إشارة إلى الردّ على من يقول باستحباب تقدُّم الإمام على المأموم قليلاً... [و] وقف رجل [وراء عمر - رضي الله عنه -]، فقرّبه حتى جعله حذاءه عن يمينه، رواه مالك، وانظر حديث صلاة النّبيّ ﷺ في مرضه بالصحابة، وجلوسه عن يسار أبي بكر حذاءه رقم (٣٦٦)».

(٢) الغطيط: الصوت الذي يخرج مع نَفَس النّائم، وهو ترْديده حيث لا يجد مساغاً. «النهاية».

(٣) الخطيط قريب من الغطيط. «النهاية».

(٤) انظر «الفتح» (١٩١/٢).

(٥) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٦٢٥)، والنسائي «صحيح سنن النسائي» (٧٩١)، وانظر «الصحيحة» (٣٣٥).

السواري على عهد رسول الله ﷺ، ونُطرَد عنها طرداً»[١].

قال البيهقي: «وهذا ـ والله أعلم ـ لأنّ الأسطوانة تحول بينهم وبين وصل الصف»[٢].

ولا يخفى على المتأمّل ما تُحدِثُه الصلاة بين السواري من قطع الصفوف، وعدم التراصّ والالتصاق.

وتقدّم الحديث: **«من وصَل صفّاً وصَله الله، ومن قطَع صفّاً، قطَعه الله»**.

وقد ورد في الحديث السابق كلمة: «نُطرَد»، وهو ممّا يُشعر بالتحريم، ثمّ إيراد المفعول المطلق «طرداً» ممّا يزيده تأكيداً.

* * *

صلاة المنفرد خلف الصف

عن علي بن شيبان قال: «صلّينا خلفه ـ يعني: النّبيّ ﷺ ـ فقضى نبيّ الله ﷺ الصلاة، فرأى رجلاً فرداً يُصلّي خلف الصف، فوقف عليه نبيّ الله ﷺ حتى قضى صلاته، ثمّ قال له: **«استقبِل صلاتك؛ فلا صلاة لفرد خلف الصفّ»**[٣].

وعن وابصة بن معبد: أنّ رسول الله ﷺ رأى رجلاً صلّى خلف الصفّ وحده، فأمَره أن يُعيد الصلاة»[٤].

---

(١) أخرجه ابن ماجه «صحيح سنن ابن ماجه» (٨٢١)، وابن خزيمة، وابن حبان، وغيرهم، وانظر «تمام المنّة» (ص٢٩٦)، و«الصحيحة» (٣٣٥).
(٢) انظر «الصحيحة» (٣٣٥).
(٣) أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» (١٥٦٩)، وانظر «الإرواء» (٥٤١).
(٤) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٦٣٣) وغيره، وانظر «الإرواء» (٥٤١).

وأمّا من يجذب إليه رجلاً من الصفّ؛ فلا يصحّ فِعْله، وهذا من مساوىء التعامل مع الأحاديث غير الثابتة؛ ومنها:

«إذا انتهى أحدكم إلى الصف وقد تمّ، فلْيجْبِذْ إليه رجلاً يقيمه إلى جنبه»(١).

ومنها ما رُوي عن وابصة بن معبد ـ رضي الله عنه ـ: «أنّ رجلاً صلّى خلف الصف وحده، فقال له النّبيّ ﷺ: **«ألا دَخلْتَ في الصفّ، أو جذَبْتَ رجلاً صلّى معك؟! أعدِ الصلاة»**(٢).

قال شيخنا ـ رحمه الله ـ تعليقاً عليه: «إذا ثبت ضعف الحديث؛ فلا يصحّ حينئذ القول بمشروعيّة جذب الرّجل من الصفّ ليصفّ معه؛ لأنّه تشريع بدون نصّ صحيح؛ وهذا لا يجوز، بل الواجب أن ينضمّ إلى الصف إذا أمكَن؛ وإلاّ صلّى وحده، وصلاته صحيحة؛ لأنّه ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾(٣).

وحديث الأمر بالإعادة محمول على ما إذا قصّر في الواجب، وهو الانضمام إلى الصف وسدّ الفُرَج، وأمّا إذا لم يجد فرجة؛ فليس بمقصّر، فلا يعقل أن يحكم على صلاته بالبطلان في هذه الحالة».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: «من قول العلماء: إنّه لا تصحّ صلاة المنفرد خلف الصفّ؛ لأنّ في ذلك حديثين عن النّبيّ ﷺ.

وقال أيضاً ـ رحمه الله تعالى ـ: «فإنّ صلاة الجماعة سُمّيت جماعة؛ لاجتماع المصلّين في الفعل مكاناً وزماناً، فإذا أخلّوا بالاجتماع المكاني أو الزماني، مثل أن يتقدّموا أو بعضهم على الإمام، أو يتخلّفوا عنه تخلّفاً كثيراً

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط»؛ وقد ضعفه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الضعيفة» (٩٢١).

(٢) أخرجه أبو يعلى في «مسنده»، وإسناده ضعيف جدّاً، كما في «الضعيفة» (٩٢٢) لشيخنا ـ رحمه الله ـ.

(٣) البقرة: ٢٨٦.

لغير عذر؛ كان ذلك منهيّاً عنه باتفاق الأئمّة، وكذلك لو كانوا متفرقين غير منتظمين، مِثل أن يكون هذا خلف هذا، وهذا خلف هذا؛ كان هذا من أعظم الأمور المنكَرة، بل قد أُمِروا بالاصطفاف، ولو لم يكن الاصطفاف واجباً؛ لجاز أن يقف واحد خلف واحد، وهلم جرّا، وهذا ممّا يعلم كل أحدٍ عِلماً عامّاً أنّ هذه ليست صلاة المسلمين.

فإذا كان الجمهور لا يصحّحون الصلاة قُدّام الإمام، إمّا مطلقاً، وإمّا لغير عذر، فكيف تصحّ الصلاة بدون الاصطفاف! فقياس الأصول، يقتضي وجوب الاصطفاف، وأنّ صلاة المنفرد لا تصحّ»[١].

***

التوكيل في تسوية الصفوف

عن عمر ـ رضي الله عنه ـ «أنّه قد كان يُوكِّل رجلاً بإقامة الصفوف، ولا يكبّر، حتى يُخبر أن قد استوت الصفوف»[٢].

وجاء في «الموطأ»[٣]: حدَّثني مالك عن عمّه أبي سهيل بن مالك عن أبيه أنّه قال: كنت مع عثمان بن عفّان ـ رضي الله عنه ـ فقامت الصلاة، وأنا أكلّمه في أن يفرض لي، فلم أزل أكلّمه، وهو يسوّي الحصباء بنعليه، حتى جاءه رجال، قد كان وكّلهم بتسوية الصفوف، فأخبروه أنّ الصفوف قد استوت، فقال لي: استو في الصفّ، ثمّ كبّر»[٤].

***

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٣/٣٩٣) بحذف.
(٢) انظر «المصنف» (٤٧/٢) لعبد الرزاق ـ رحمه الله ـ (٢٤٣٧، ٢٤٣٩).
(٣) انظر «المنتقى شرح موطأ مالك» (٢٨٦/٢) للقاضي أبي الوليد الباجي».
(٤) وهذا أثر صحيح، كما أخبرني بذلك شيخنا الألباني ـ رحمه الله ـ.

الرّد على من يقول:
«رَصُّ الصفوف يأتي بالوسوسة ويمنع الخشوع»

إنّ ممّا يعجب له المرء؛ أنّه إذا قام أحدهم يتحدّث عن تسوية الصفوف؛ قال القائل منهم: «إنّه يُودي إلى الوسوسة، والانشغال بالمناكب والأقدام عن الخشوع في الصلاة»!! فأقول: ـ طالباً العون من الله تعالى ـ:

١ ـ إنّما يكون الخشوع بذهاب الشياطين، لا بمجيئها، فتسوية الصفوف تُذهبها، وعدمها يَجلبها، وترك إقامة الصفوف هو الذي يأتي بالوساوس والانشغال عن الصلاة.

٢ ـ إنّ عدم اتباع أوامر الله ـ تعالى ـ ونبيّه ﷺ سبب في حرمان الهدى والخشوع والطمأنينة، لا العكس.

٣ ـ ربّما يقع شيء يسير من الوسوسة في بداية الأمر، وهذا من الشيطان؛ لِيصرفك عن تسوية الصفّ، وذلك لعدم التعوّد، والصعوبات في البدايات معروفة، وسيزول هذا الأمر بالتصميم والمتابعة ـ إن شاء الله تعالى ـ.

***

نداء ونصيحة للمصلّين

وهأنذا أوجّه ندائي لإخواني المصلين: أن يتقوا الله تعالى، وأن يُبادروا إلى تسوية الصفوف، ويستجيبوا للأئمّة، حين يطلبون منهم ذلك، وأن يتواصوا بهذا، وأن يلينوا بأيدي إخوانهم، كما أوصى بذلك رسول الله ﷺ.

وكم يلين الإنسان مِنّا لرئيسه أو مديره في العمل؛ من أجل الدنيا ودراهمها ومتاعها، ولكنّنا لا نملك معهم إلا الطاعة والتنفيذ!

ومن الناس من يطيع مسؤوله في العمل، ولو كان ذلك في معصية الله ـ سبحانه ـ.

إنّه يطيعه ويُلين له القول من أجل رزق العيال! أفلا نلين بأيدي إخواننا في الصلاة؛ لننال رضوان الله ـ تعالى ـ ومحبّته، وليصلُح أمر الأمّة والفرد؟!

صِلوا الصفوف، ألا تحبون أن يصلكم الله ـ تعالى ـ؟! ولا تقطعوها؛ فيقطعكم الله ـ سبحانه ـ.

واعلموا أن الله ـ سبحانه ـ جعَل مصلحة الأمّة بأيديكم: ائتلافها وقوتها، اختلافها وضعفها، فحيَّ على الائتلاف والقوة، وحَذَارِ من التفرق والضعف، وبادروا إلى تسوية الصفوف ورصّها؛ ففيها الائتلاف والقوة والاتحاد.

عظّموا أوامر الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وانظروا من تعصون! إنها معصية الله العظيم القدير العزيز الجبار المتكبر.

إنّ ربّ العرش العظيم ـ سبحانه ـ يأمرك على لسان رسوله ﷺ؛ أفلا تأتمر؟! وإنّه ـ عزّ وجلّ ـ ينهاك؛ أفلا تنتهي؟!

حَذارِ من الكِبْر؛ فقد قال رسول الله ﷺ: **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من كِبْر»**(١)؛ فإن الكثير من الناس ـ مع الأسف ـ لا يمنعهم من تسوية الصفوف إلاّ الكِبر.

إيّاك أن تكون سبباً في التفريق بين القلوب والوجوه، فترْكُك إقامة الصفوف أعظم سبب في ذلك، وأحسِن إقامة الصف؛ فإنّ إقامة الصف من حُسن الصلاة.

واحذر أن تُسْكِن الشياطين في المساجد، فأنت بهذا تُقصي إخوانك، وتُدني أعداءك، والفرجات مكانهم، فإياك وإياك... واحرص على سدها؛ ليرفع الله ـ عزّ وجلّ ـ درجتك، ويبني لك بيتاً في الجنّة، وسارِع إلى أعظم الخطوات، وأحبّها إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ كما أخبَرنا بذلك نبيّنا ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم: ٩١.

كن من أفاضل الناس وخِيارهم، فخِيارهم، ألينهم مناكبَ في الصلاة.

* * *

نداء للأئمة والخطباء والوعّاظ والدُّعاة

إنّني لأوجّه ندائي لإخواني الأفاضل ـ خِيار الناس وأحاسنهم، من الأئمّة والدّعاة والخطباء والوُعّاظ، بل وكل منْ له صِلة بالناس وجموعهم ـ: أن يكثروا من الحديث عن تسوية الصفوف، وبيان أثر ذلك في حياة الأمّة.

كما أوجّه ندائي إلى إخواني الأفاضل ـ الذين لهم الصدارة في إمامة الناس ـ: أن يُشرفوا بأنفسهم على تسوية الصفوف، مُستنِّين بُسنّة النّبيّ ﷺ، مهتدين بهديه، فقد ثبَت عن النّبيّ ﷺ إشرافه على تسوية الصفوف ورصّها، والقيام بذلك بنفسه؛ كما في حديث أبي مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا[1] في الصلاة، ويقول: **استووا ولا تختلفوا؛ فتختلف قلوبكم**»[2].

وعن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان رسول الله ﷺ يسوّي صفوفنا، حتى كأنّما يسوّي بها القِداح[3]، حتى رأى أنّا قد عَقَلنا عنه، ثمّ خرج يوماً، فقام حتى كاد يكبّر، فرأى رجلاً بادياً صدرُه من الصف فقال: «**عباد الله! لتُسوّنّ صفوفكم، أو ليخالفنّ الله بين وجوهكم**»[4].

وعن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان رسول الله ﷺ

---

(١) أي: يُعَدِّلُنا فيها. «شرح النووي».

(٢) أخرجه مسلم: ٤٣٢.

(٣) القِداح: جمع قِدْح، وهو خشب السهم المبريّ، وذلك قبل أن يُجعل فيه النصل والريش. والمراد: شدّة الاستواء والاعتدال. «بذل المجهود» (٤/٣٣٠).

(٤) أخرجه مسلم: ٤٣٦.

يأتي ناحية الصفّ، ويُسوّي بين صدور القوم ومناكبهم، ويقول: «**لا تختلفوا؛ فتختلف قلوبكم؛ إنّ الله وملائكته يُصلّون على الصفّ الأول**»(١).

وفي رواية: «**لا تختلفْ صدوركم؛ فتختلفَ قلوبكم**»(٢).

ما كان رسول الله ﷺ يقول بلسانه: «**استووا**»؛ ثمّ يكبر ويترك الخلل والفرجات ـ كما يفعل إخواننا الأئمّة الآن ـ!! لقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يأتي الصفّ من ناحية إلى ناحية، يمسح المناكب والصدور والعواتق.

وصحّ عن عمر ـ رضي الله عنه ـ: أنّه ضرب قدم أبي عثمان النهدي لإقامة الصف(٣).

وكان إذا مرّ بين الصفّين قال: استووا، حتى إذا لم يرَ فيهم خَللاً؛ تقدّم فكبّر»(٤).

وثبتَ عن سُوَيْد بن غَفَلَة أنه قال: «**كان بلال يسوّي مناكبنا، ويضرب أقدامنا في الصلاة**»(٥).

وقال ابن حزم: «**ما كان عمر وبلال يضربان أحداً؛ على ترك غير الواجب**»(٦).



---

(١) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٦١٨)، والنسائي «صحيح سنن النسائي» (٧٨١)، وغيرهما، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٤٩٣).

(٢) أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» (١٥٥٦)، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥١٣)، وتقدّم.

(٣) انظر «المصنف» لعبدالرزاق ـ رحمه الله ـ (٢/٤٧/٢٤٣٦)، و«الفتح» (٢/٢١٠).

(٤) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري: ٣٧٠٠.

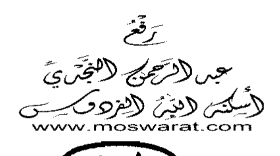
(٥)(٦) أخرجه عبدالرزاق (٢/٤٧/٢٤٣٥)، وابن أبي شيبة (٣٥٣٤)، وانظر «الفتح» (٢/٢١٠).

فقه الدعوة وتزكية النفس

(١٣)

كيف تحكم نفسك وأهلك
ومن تلي أمورهم بحُكم الله

بقلم
حسين بن عودة العوايشة







كيف اتخذ اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله!

قال الله - تعالى - في حقّ اليهود والنّصارى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ[1] وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا[2] لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾[3].

وقد كان ذلك بتحليل الحرام، وتحريم الحلال؛ كما في حديث عدي بن حاتم - رضي الله عنه -، قال: أتيت النّبيّ ﷺ وفي عُنُقي صليب من ذَهَب، فقال: «يا عَدِيُّ! اطْرَحْ عَنكَ هَذا الوَثَن»، وسمعْتُه يقرأ في سورة براءة: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قال: **«أما إنّهم لم يكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ؛ ولكنَّهُم كانوا إذا أحلُّوا لهُم شيئاً استَحَلُّوه، وإذا حَرَّمُوا عليهم شيئاً حرَّمُوه»**[4].

---

(١) ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يُحِلُّون لهم ما حرَّم الله، فيَحلّونه، ويُحرّمون عليهم ما أحَلّ الله فيُحرمونه، ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل فيتبعونهم عليها.
وكانوا أيضاً يغلون في مشايخهم وعبّادهم، ويعظمونهم، ويتخذون قبورهم أوثاناً، تُعبد من دون الله، وتُقصد بالذبائح، والدعاء والاستغاثة. «تفسير السعدي».

(٢) أي: الذي حرّم الشيء فهو الحرام، وما حلّله فهو الحلال، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ. «تفسير ابن كثير».

(٣) التوبة: ٣١.

(٤) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٧١).

وفي رواية: «جاء عديّ بن حاتم إلى النّبيّ ﷺ - وكان قد دان بالنصرانية قبل الإسلام - فلمّا سَمع النّبيّ ﷺ يقرأ هذه الآية، قال: يا رسول الله! إنهم لم يعبدوهم، فقال: «**بلى؛ إنهم حرَّموا عليهمُ الحلال، وأحلّوا لهم الحرام فاتّبعوهم؛ فذلك عبادتهم إيّاهم**»[١].

فقد كان الأحبار والرهبان يحرّمون الحلال ويُحلّلون الحرام، وأتباعهم يتلَقَّوْن عنهم ذلك ويتقبّلونه؛ فسمّاها الله - تعالى - عبوديّة. وليس الأمر - كما ينصرف الذهن لأول وهلة - أنهم كانوا يعبدونهم بصلاة وطواف ونحْو ذلك.

فمن هذا الحديث العظيم؛ يتضح لنا أن الحُكم بغير ما أنزل الله - عزّ وجلّ - ضرْب من ضروب العبادة، وقد يبلغ الإنسان في أحوال ما - أن يكون عابداً غير الله - تعالى - في تحاكمه إلى غير شرْعه - سبحانه -.

***

كيف يكون الحُكم لله - سبحانه -؟

يكون ذلك بتحريم الحرام، وتحليل الحلال[٢].

ولا بُدّ لمعرفة الحلال والحرام من عِلم، ورحم الله من قال:

العِلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابة ليس بالتمويه
ما العِلم نصبك للخلاف سفاهة ... بين الرسول وبين قول فقيه

فلنتحاكم إلى الله - تعالى - في الصلاة.

---

(١) حديث حسن خرّجه شيخنا - رحمه الله - في «المصطلحات الأربعة في القرآن» (ص١٨ - ٢٠).

(٢) أمّا الآراء التي تصدر عن أهل العِلم اجتهاداً؛ فلا يَرِد القول هنا أنها حرَّمت حلالاً، أو أحَلَّتْ حراماً؛ بل إنّ صاحبها مأجور بحسب الخطأ أو الصواب، كما في الحديث المتفق عليه: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب؛ فله أجران، وإن أخطأ فله أجر**».

ولنتحاكم إلى الله ـ تعالى ـ في الصيام.

ولنتحاكم إلى الله ـ تعالى ـ في الزكاة.

ولنتحاكم إلى الله ـ تعالى ـ في الحجّ.

ولنتحاكم إلى الله ـ تعالى ـ في الزِّفاف.

ولنتحاكم إلى الله ـ تعالى ـ في الجنائز.

ولنتحاكم إلى الله ـ تعالى ـ في اللباس.

ولنتحاكم إلى الله ـ تعالى ـ في الطعام والشراب.

ولنتحاكم إلى الله ـ تعالى ـ في أمور الفرد، والأسرة، والمجتمع، والأمّة.

ولنتحاكم إلى الله ـ تعالى ـ في الاقتصاد.

ولنتحاكم إلى الله ـ تعالى ـ في السِّلم والحرب.

ولنتحاكم إلى الله ـ تعالى ـ في كلّ شؤون حياتنا، ولنقُلْ بكلّ ثقةٍ:

لَمْ يتحاكم إلى الله...

لَمْ يتحاكم إلى الله ـ تعالى ـ من نادى بحُكم الإسلام منهاجاً ونظام حياة؛ ولكنّه أغلى مهرَ ابنته، وبالَغ في الشروط الماديّة؛ حتى يؤمِّن مستقبل ابنته ـ بزعْمه ـ!

ولم يتحاكم إلى الله ـ تعالى ـ من نادى بحُكم الإسلام منهاجاً ونظام حياة؛ ولكنّه خضَع للعادات والتقاليد المخالفة للدّين في شؤون الأفراح.

ولم يتحاكم إلى الله ـ تعالى ـ من نادى بحُكم الإسلام منهاجاً ونظام حياة؛ ولكنّه اتّبعَ في أمر الجنائز عادات مجتمعه؛ جاهلاً ـ أو متجاهلاً ـ هدي النّبيّ ﷺ في ذلك.

ولم يتحاكم إلى الله ـ تعالى ـ من نادى بحُكم الإسلام منهاجاً ونظام حياة؛ ولكنّه خالَف الهدي النّبوي في الكثير من العبادات، والمعاملات والسلوك.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(١)].

قال البغوي في «تفسيره»: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾: ما القضاء والأمر والنهي [إلا لله]. انتهى.

...﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ مهما كان هذا الشيء صغيراً أو كبيراً، قليلاً أو كثيراً؛ فالقضاء والأمر والنّهي فيه لله ـ تعالى ـ وقد يُخالَف حُكم الله تعصُّباً لقرابة أو عشيرة، أو حُبّاً لمال أو تجارة أو حزبٍ أو جماعة أو شيخ، أو نحو ذلك من الأمور.

فلا بُدّ إذن من معرفة النصوص التي تحرِّم وتحلّل، وتأمر وتنهى، فنُحرِّم ما حرّم الله، ونحلّل ما أحلّ الله، ونأتمر بأمر الله، وننهى عمّا نهى الله ـ سبحانه ـ ويلزم من هذا بذلُ الجهد في العلم، والجُثِيِّ على الرُّكب عند أهل العلم، والغوص في بطون الكتب والإفادة من علماء الأمّة السّالفين؛ كلّ ذلك حسب القُدرة والاستطاعة، فمنهم العالم المعلّم ومنهم الطالب المُتعلِّم، ومن لم يكن من أهل العزيمة؛ فلا يتصدرنّ فتوىً ولا تعليماً؛ ولكن عليه أن يتعلّم، وحذارِ أن تكون من المعوِّقين، الناقدين، الهالكين.

وهذا كلُّه يقودنا إلى:

ضرورة التمحيص والتحقيق والبحث

إنَّ تحقيق التحاكم إلى ما أنزل الله ـ تعالى ـ لا يَتِمُّ أبداً دون تمحيص، أو تحقيق، أو تحرٍّ، أو بحث[(٢)]، وذلك أنّ الدين: قال الله ـ

---

(١) يوسف: ٤٠.

(٢) ولستُ أُطالب النّاس كلّهم أن يكونوا علماء، ولا يعزُبُ عن ذهني الحكمة المعروفة: «إذا أردت أن تُطاع؛ فاطلب ما يُستطاع»، وما كلّ شيء اتّفق على ضرورته وأهمّيته يُطلب من كلّ الناس؛ ولكن هذا الأمر من الفروض الكفائية، يُجزىء به قيام من قدر عليه؛ ولكن يجدر انتفاع من لم يقدر ممن يقدر.

تعالى ـ قال رسول الله ﷺ، قال الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ.

أمّا الكذب؛ فلم يتطرَّق ـ والحمد لله ـ إلى كتاب الله ـ عزّ وجلّ ـ؛ ولكن لا غنى لنا عن تمحيص التفسير والتأويل؛ الذي يُبيّن مراد الله ـ تعالى ـ لأن عدم فِعْل هذا يؤدِّي إلى المخالفة عن تحقيق التحاكم إلى الله ـ سبحانه ـ.

ولا بُدّ كذلك من تحقيق وتمحيص السّنّة؛ لأنّ قولنا: قال رسول الله ﷺ؛ دِينٌ، فإذا كُذب على النّبيّ ﷺ فقد كُذب على الله ـ سبحانه ـ وبهذا شُرِع من الدين ما لم يأذن به الله،وأفضى عدم التمحيص إلى الحُكم بغير ما أنزل الله ـ سبحانه ـ.

إنّنا نبغض الملاحدة والشيوعيّين؛ لأنهم تنكّبوا عن منهج الله وخالَفوا عن سبيله، وهم يُقرّون أنهم يُحاربون الإسلام ويبعدون عن الله ـ سبحانه ـ؛ فكيف بمن تنكّب عن منهج الله ـ عزّ وجلّ ـ وخالف عن سبيله، ويزعم أنه يتقرّب إلى الله ـ سبحانه ـ ويخدم الدين بذلك!

۞ عجباً لمن يسخر من التحقيق والتمحيص!

والعجب ـ كلّ العجب ـ من قوم يسخرون مِمّن يهتمّ أو يدعو إلى مَنهَج التمحيص والتحقيق والتصفية.

هذه الأمور ـ في زعْمه ـ تُعيق عن العمل!

ولكن أيّ عمل هذا؟ آلعمل الصالح أم الطالح؟

إنْ كان يريد العمل الصالح ـ ولا يجوز إرادة سواه ـ فما هو هذا العمل الصالح؟ وكيف يكون العمل صالحاً؟ أبالعقل والهوى؟ أم بالنّقْل والنّص؟

قال أبو سليمانَ الدّارانيُّ: **«ليس ينبغي لمن أُلهِمَ شيئاً من الخير أنْ يعمَل به حتى يسمعه في الأثر، فإذا سمِعَه في الأثر عَمِل به، وحمدَ الله**

حتى وافق ما في قلبه[١]».

لقد ورد ذكر العمل الصالح في كتاب الله ـ سبحانه ـ في مواطِنَ كثيرة، من ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[٢].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في «تفسيره»: «﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾: ما كان مُوافقاً لشرع الله. ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾: وهو الذي يُراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان رُكنا العمل المُتقبَّل، لا بُدّ أن يكون خالصاً لله، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ».

فالعمل الصالح ـ إذن ـ هو الذي يُوافق شرع الله ـ سبحانه ـ ولا يكون كذلك إلا إذا كان على شريعة رسول الله ﷺ، وهذا لا يتسنّى ولا يتأتّى إلاّ بالتّمحيص والتّحقيق.

فلا يكوننّ همّك كثرة العمل كيفما اتّفق؛ لأنّ عملك قد يكون مخالفاً لهدي النّبيّ ﷺ، وليكن همّك العمل الصالح الموافق شريعة الله ـ سبحانه ـ.

الحُكم والتحاكم بغير ما أنزل الله ـ سبحانه ـ: كُفر، وظُلم، وفِسق.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٣].

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير»، العنكبوت: ٦٩.

(٢) الكهف: ١١٠.

(٣) المائدة: ٤٤، قال البغوي في «تفسيره»: «رُوي عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: والظالمون والفاسقون؛ كلّها في الكافرين، وقيل: هي على الناس كلّهم، وقال ابن عباس وطاوس: ليس بكفر يَنقُل عن المِلّة؛ بل إذا فعَلَه؛ فهو به كافر، وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر، قال عطاءُ: هو كُفرٌ دون كُفرٍ، وظُلمٌ دون ظُلم، وفِسق دون فِسق، وقال عكرمة: معناه: ومن لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به؛ فقد كفر، ومن أقرَّ به ولم يحكُم به؛ فهو ظالم فاسق.
=

....

= وسُئل عبدالعزيز بنُ يحيى الكنانيُّ عن هذه الآيات، فقال: إنّها تقع على جميع ما أنزل الله لا على بعضه، وكلّ من لم يحكم بجميع ما أنزل الله فهو كافر ظالم فاسق، فأمّا من حَكَم بما أنزل الله من التوحيد وترْك الشرك، ثمّ لم يحكم ببعض ما أنزل الله من الشرائع، لم يستوجب حُكم هذه الآيات.

وقال العلماء: هذا إذا ردّ نصّ حُكمِ الله عِيَاناً عمداً، فأمّا من خفي عليه أو أخطأ في تأويل؛ فلا».

وقال ابن الجوزي في «زاد المسير»: «اختلف العلماء فيمن نزلت على خمسة أقوال:

أحدها: أنّها نزلت في اليهود خاصة، رواه عبيد بن عبدالله عن ابن عباس، وبه قال قتادة. **والثاني**: أنها نزلَت في المسلمين، روى سعيد بن جبير عن ابن عباس نحْوَ هذا المعنى.

والثالث: أنها عامّةٌ في اليهود، وفي هذه الأمّة: قاله ابن مسعود، والحسن، والنَّخْعي، والسدي.

والرابع: أنّها نزلت في اليهود والنصارى، قاله أبو مجلز.

والخامس: أنّ الأولى في المسلمين، والثانية في اليهود، والثالثة في النصارى، قاله الشعبي.

وفي المراد بالكفر المذكور في الآية الأُولى قولان:

أحدهما: أنه الكفر بالله ـ تعالى ـ.

والثاني: أنه الكفر بذلك الحُكم، وليس بكفر ينقُل عن المِلّة.

وفصْل الخطاب: أنّ من لم يحكُم بما أنزل الله جاحداً له، وهو يعلم أنّ الله أنزله ـ كما فعلت اليهود ـ فهو كافر، ومن لم يحكم به ميلاً إلى الهوى من غير جحود؛ فهو ظالم وفاسق».

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في «تفسيره»: «قال السدي: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يقول: ومن لم يحكم بما أنزلتُ فترَكَه عمداً، أو جار ـ وهو يعلم ـ فهو من الكافرين به. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قال: من جحد ما أنزل الله فقد كفر ومن أقرَّ به ولم يحكم فهو ظالم فاسق، رواه ابن جرير. ثمّ اختار أنّ الآية المراد بها أهل الكتاب أو من جحَد حكُم الله المنَزَّل في الكتاب، وقال عبدالرزاق، عن الثوري، عن زكريا، عن الشعبي: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ قال للمسلمين.

[قال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٦/١١٤): «وابن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس، لكنّه جيّدٌ في الشواهد»]. وقال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى: حدثنا عبدالصمد: حدثنا شعبة عن ابن أبي السفر عن الشعبي: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾=

....

= ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: هذا في المسلمين، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قال: هذا في اليهود، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قال: هذا في النصارى، وكذا رواه هشيم، والثوري، عن زكريا بن أبي زائدة، عن الشعبي.

وقال عبدالرزاق ـ أيضاً ـ: أخبرنا معمَّر؛ عن ابن طاوس، عن أبيه، قال: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم﴾ ـ... الآية ـ قال: هي به كُفر، قال ابن طاوس: ليس كمن يكفُر بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله.

وقال الثوري عن ابن جريج، عن عطاء؛ أنه قال: كُفر دون كُفر وظُلم دون ظلم، وفسق دون فسق. رواه ابن جرير. وقال وكيعٌ عن سعيدٍ المكي عن طاوس: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾؛ قال: ليس بكفر ينقل عن الملة، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمّد بن عبدالله بن يزيد المقري: حدثنا سفيان بن عيينة، عن هشام بن حجير، عن طاوس، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: ليس بالكفر الذي تذهبون إليه، ورواه الحاكم في «مستدركه» من حديث سفيان بن عيينة، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

وقال الألوسي في «روح المعاني»: «ولعلَّ وصفَهم بالأوصاف الثلاث باعتبارات مختلفة: فلإنكارهم ذلك وُصِفوا (بالكافرين)، ولوضعهم الحُكم في غير موضعه وُصفوا (بالظالمين)، ولخروجهم عن الحقّ وصِفوا (بالفاسقين)، أو أنهم وُصفوا بها باعتبار أطوارهم وأحوالهم المنضمّة إلى الامتناع عن الحكم، فتارة كانوا على حالٍ تقتضي الكفر، وتارة على أخرى تقتضي الظلم أو الفسق».

وأخرج أبو حميد وغيرُه عن الشعبي أنّه قال: الثلاث الآيات التي في المائدة أولها لهذه الأمّة، والثانية في اليهود، والثالثة في النصارى، ويلزم على هذا أن يكون المؤمنون أسوأ حالاً من اليهود والنصارى، إلا أنّه قيل: إنّ الكفر إذا نسب إلى المؤمنين حُمِل على التشديد والتغليظ، والكافر إذا وصف بالفسق والظلم أشعر بعتوّه وتمرّده فيه. ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن المنذر، والحاكم ـ وصححه ـ والبيهقي في ـ «سننه» ـ عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ أنّه قال في الكفر الواقع في أُولى الثلاث: إنه ليس بالكفر الذي تذهبون إليه إنه ليس كفراً ينقل عن المِلّة؛ كُفر دون كُفر.

والوجه: أنّ هذا كالخطاب عامٌّ لليهود وغيرهم، وهو مُخرجٌ مَخْرَج التغليظ، أو يلتزم أحد الجوابين، واختلاف الأوصاف لاختلاف الاعتبارات، والمراد من الأخيرين منها الكفر أيضاً عند بعض المحققين، وذلك بحملهما على الفسق والظلم الكامِلَين، وما=

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[(١)].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[(٢)].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾[(٣)].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا[(٤)] ﴿٦٥﴾﴾[(٥)].

وقد ورد في سبب نزولها ما جاء عن عروة، قال: «خاصم الزُّبير

= أخرَجه الحاكم وصححه، وعبدالرزاق، وابن جرير عن حذيفة ـ رضي الله تعالى عنه ـ: أن الآيات الثلاث ذُكرت عنده، فقال رجل: إن هذا في بني إسرائيل، فقال حذيفة: نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل إن كان لكم كلُّ حلوة، ولهم كل مرة، كلا؛ والله لتسلكنّ طريقهم قدّ الشراك ـ يحتمل أن يكون ذلك ميلاً منه إلى القول بالعموم، ويحتمل أن يكون ـ كما قيل ـ: ميلاً إلى القول بأن ذلك في المسلمين، وروي الأول عن علي بن الحسين ـ رضي الله تعالى عنهما ـ إلا أنه قال: كُفر ليس ككفر الشرك. وفسقٌ ليس كفسق الشرك، وظُلم ليس كظُلم الشرك».
وقال الشنقيطي ـ رحمه الله ـ في «أضواء البيان»: «واعلم؛ أنّ تحرير المقام في هذا البحث: أنّ الكفر والظلم والفسق كلّ واحد منها ربما أطلق في الشرع مراداً به المعصية تارة، والكفر المخرج من الملّة أخرى ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ معارضةً للرسل وإبطالاً لأحكام الله؛ فظُلمه وفسقه وكُفره كلّها كُفر مُخرجٌ عن الملة، ومن لم يحكُم بما أنزل الله معتقداً أنه مُرتكب حراماً فاعل قبيحاً فكُفره وظُلمه وفسقه غير مخرج عن الملة،... ظاهر القرآن يدلّ على أنّ الأولى في المسلمين، والثانية في اليهود، والثالثة في النصارى، والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، وتحقيق أحكام الكلّ هو ما رأيت ـ والعلم عند الله ـ تعالى ـ».

(١) المائدة: ٤٥.
(٢) المائدة: ٤٧.
(٣) النساء: ٦٠.
(٤) أي: فيما يقع بينهم من اختلاف.
(٥) النساء: ٦٥.

رجلاً من الأنصار في شَريج من الحرّة[١]، فقال النّبيّ ﷺ: «**اسقِ يا زبيرُ، ثمّ أرسِل الماء إلى جارك**»، فقال الأنصاريُّ: يا رسول الله! أنْ كان ابنَ عمّتك» فتلوّن وجهه، ثمّ قال: «**اسقِ يا زبير! ثم احبِس الماء حتى يرجع إلى الجَذرِ، ثمّ أرسل الماء إلى جارك**»، واستوعى النّبيّ ﷺ للزُّبير حقّه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري وكان أشار عليهما بأمر لهما فيه سَعَة، قال الزُّبير: فما أحسِبُ هذه الآيات إلاّ نزلت في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾»[٢].

التحاكم بما أنزل الله في كلّ الأمور

إن النصوص الآمرة بالتحاكم بما أنزل الله عامّة شاملة كل أمر، وقد قال رسول الله ﷺ: «**من رأى منكم منكراً؛ فليغيره بيده، فإن لم يستطع؛ فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[٣].

فكلّ منكر رآه المسلم، وجب تغييره ـ على المراتب السابقة ـ ؛ من تحريم حلال، أو تحليل حرام، أو مواقعة خطيئة، أو ابتداع في الدين.

وليس هناك من دليل يُعفي مَنْ نادى بالحكم ـ نظاماً ومنهاج حياة ـ من تغيير ما ذكرتُ من المنكرات.

ثمّ إنّ الأُمّة التي ربّت نفسَها على الطاعات والاستجابة لأَمر الله؛ هي الأمّة التي تفوز بالسعادة في الدّارَين: سعادةِ الخلافة في الأرض، وسعادةِ الجنّة والآخرة، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٤].

---

(١) الشريج: مسيل الماء» «الفتح» والحرّة: موضع معروف في المدينة، وفي اللغة: «أرض ذات حجارة سود نخرة؛ كأنها أحرقت بالنّار» «مختار الصحاح».

(٢) أخرجه البخاري: ٤٥٨٥، ومسلم: ٢٣٥٧.

(٣) أخرجه مسلم: ٤٩.

(٤) الرعد: ١١.

وفي الحديث: «**إذا تبايعتم بالعِينة**[(١)]**، وأخذتم أذناب البقر**[(٢)]**، ورضيتم بالزّرع، وتركْتم الجهاد: سلَّط الله عليكم ذُلاًّ؛ لا ينزِعُه حتى ترجعوا إلى دينكم**»[(٣)].

لقد ذكَر رسول الله ﷺ أسباب الذُّلِّ والهزيمة؛ من تبايع بالعينة، وانشغالٍ بالزّرع عن الجهاد في سبيل الله ـ تعالى ـ فما هو سبيل الخلاص؟!

هذا الدّاء؛ فما الدواء؟

أنبقى في العِينة؟

أنظلّ في الزّرع تاركين الجهادَ في سبيل الله؟

أنستمرُّ في الجهل بالدِّين؟

وإذا نهى ناهٍ عن العِينة؛ أيُقال له: هذا ليس وقتَه، وهذه لبابٌ وقُشور؟! أَوَ ليس تسليط الذلِّ مرتبطاً بالعينة والتعامل الماليّ المحرَّم؟!

فكيف يُزاح عنّا الذلُّ ونحن نتعامل بما حرَّم الله ـ سبحانه ـ؟!

«**...حتَّى ترجِعوا إلى دينكم**».

العلاج بيِّنٌ واضح... حتّى ترجِعوا إلى دِينكم[(٤)].

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «كونوا ربَّانيّين»: حلماءَ فقهاء علماءَ، ويقال: الربّاني: الذي يُربّي الناس بصغار العِلم قبل كباره[(٥)].

---

(١) المراد بالعينة: أن يبيع من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مُسمّى، ثمّ يشتريها بأقلَّ من الثمن الذي باعها به» «النهاية».

(٢) كناية عن الاشتغال عن الجهاد بالحرث. «فيض القدير».

(٣) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٢٩٥٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى»، والطبراني وغيرهم، كما قال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «السلسلة الصحيحة» (رقم١١).

(٤) عن كتابِي «مواقف الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ» (مقتل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ).

(٥) ذكره البخاري معلقاً بصيغة الجزم. كتاب العِلم (باب العلم قبل القول والعمل)، وقال الحافظ في «الفتح» (١٦١/١): «قول (قال ابن عباس) هذا التعليق وصلَه ابن أبي=

وأخيراً أقول:

لا بُدّ ممّن يُدرِّس العقيدةَ والتوحيد والأسماء والصفات، أن يهدف من تدريسه إفادة السامع وتصحيح اعتقاده؛ معتقداً أنّ هذا أول تأسيس قواعد بنيان الحُكم الإسلامي.

ولا بُدّ ممّن يُصلّي أن يُخْلِص في صلاته، ولا يعتقد أنّ هذا العمل مبتوت عن السعي لقيام حُكم الله؛ بل هو لَبِنَةٌ من لبناته.

ولا بُدَّ لمن يصحّح منهج الاتّباع أنْ يعلم أنّ أثر هذا عظيم في قيام حُكم الله ـ سبحانه ـ.

ولا يبعُد عنّا كيف كانت الآيات الكريمة تنزل قبل قيام دولة الإسلام؛ آمِرةً رسول الله ﷺ أن يُنذر، ويقوم الليل، ونحو ذلك، ولا يخالج نفوسنا أدنى شكٍّ أنّ الله ـ تعالى ـ لا يعجزهُ أن يكون للإسلام دولته وصولته دون ذلك كلّه. ولكن لنعلم أنّ هنالك سنّةً ماضية لا مفرّ منها في إقامة حُكم الله ـ تعالى ـ وشرعه في الأرض.

* * *

= عاصم أيضاً بإسناد حسن، والخطيب بإسناد آخر حسن.

وقد فسّر ابن عباس «الرباني» بأنّه الحكيم الفقيه، ووافقه ابن مسعود فيما رواه إبراهيم الحربي في غريبه عنه: بإسناد صحيح، وقال الأصمعي والإسماعيلي: الرباني نسبة إلى الرب، أي: الذي يقصد ما أمره الربُّ بقصده من العلم والعمل، وقال ثعلبٌ: قيل للعلماء: ربانيون؛ لأنهم يربون العلم، أي: يقومون به، وزيدت الألف والنون للمبالغة.

والحاصل: أنه اختُلف في هذه النسبة: هل هي نسبة إلى الرب أو إلى التربية، والتربية على هذا للعلم، وعلى ما حكاه البخاري لتعلّمه.

والمراد بصغار العِلم ما وضُح من مسائله، وبكباره ما دقّ منها. وقيل: يُعلمهم جُزئياته قبل كلّياته، أو فروعه قبل أصوله، أو مقدِّماته قبل مقاصده.

وقال ابن الأعرابي: لا يقال للعالم ربّاني حتى يكون عالماً مُعلِّماً عاملاً».

التحاكم بما أنزل الله هو الطاعة والاستجابة

إنّ مَن يتأمّل قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ؛ عندما وضَعَ زوجه وصبيَّها الرضيع؛ في أرض لا أنيس فيها ولا ماء ـ امتثالاً لأمر الله ـ سبحانه ـ يجد فيها العبَر والدروس الوفيرة؛ فإنّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد امتثَل أمْر ربّه بوضْع زوجه والصبيّ الرضيع في تلك الأرض المُقفرة المُجدبة، ولم يَقُل مُعترِضاً: ما الحِكمةُ من هذا الشيء؟ وما الفائدة من هذا الأمر؟ بل إنّه سارع للطاعة والاستجابة.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: **«لمّا كان بينَ إبراهيم وبين أهله ما كان، خرَجَ بإسماعيل، ومعهم شَنَّة[1] فيها ماء، فجعلتْ أُمُّ إسماعيل تشرَبُ من الشنَّةِ فيَدِرُّ لبنُها على صبيها، حتى قدِمَ مكة فوضعها تحت دوحةٍ، ثمّ رَجع إبراهيم إلى أهلِه، فاتَّبَعَتْهُ أمُّ إسماعيل حتى لما بلَغوا كداءَ نادته من ورائه: يا إبراهيم إلى من تترُكنا؟ قال: إلى الله، قالت: رضيت بالله، قال: فرجعت فجَعلَت تَشرَبُ من الشَّنَّة، ويدِرُّ لبنُها على صبيها، حتى لما فَنِيَ الماء قالت: لو ذَهَبْتُ فنظرْتُ لعلّي أُحسّ أحداً، قال: فذَهَبت، فصعِدَتِ الصّفا، فنظرت ونظَرَت هل تُحسُّ أحداً؟ فلم تحِسّ أَحداً.**

فلما بَلَغت الوادي سَعت وأتَتِ المروة، ففعَلتْ ذلك أشواطاً، ثمّ قالت: لو ذهبْتُ فنظرتُ ما فعَلَ ـ تعني: الصبيّ ـ فذهبَتْ فنظرتْ فإذا هو على حاله كأنهُ يَنشغ[2] للموت، فلم تُقرَّها نفسُها، فقالت: لو ذهبْت فنظرْتُ لعلّي أُحسُّ أحداً، فذهبَتْ فصعِدتِ الصفا فنظرَت ونظرَت فلم تحسَّ أحداً، حتى أتمَّتْ سبعاً[3]، ثمّ قالت: لو ذهبتُ فنظرتُ ما فعل، فإذا هي بصوتٍ،

(١) هي القربة الخَلَق الصغيرة؛ يكون الماء فيها أبرد من غيرها. «الوسيط».
(٢) أي: شهِق وغُشي عليه. «النهاية».
(٣) وفي رواية للبخاري: رقم (٣٣٦٤)، قال ابن عباس: قال النبيّ ـ عليه السلام ـ: «فلذلك سعى الناسُ بينهما».

فقالت: أغِثْ إن كان عندك خيرٌ، فإذا جبريلُ، قال: فقال: بعَقِبه[١] هكذا، وغَمزَ عَقِبَه على الأرض، قال: فانبثقَ الماء فدَهَشت أُمُّ إسماعيل فجعلت تَحفِز[٢]، قال: فقال أبو القاسم: لو تركته كان الماء ظاهراً، قال: فجَعَلَت تشربُ من الماء ويدُر لبنُها على صبيّها، قال: فمرَّ ناسٌ من جرْهُمَ ببطنِ الوادي، فإذا هم بطَيرٍ، كأنهم أنكروا ذلك، وقالوا: ما يكون الطيرُ إلا على ماء، فبعثوا رسولهم فنظَر، فإذا هم بالماء فأتاهم فأخبرَهم، فأتَوا إليها، فقالوا: يا أُمَّ إسماعيل! أتأذَنينَ لنا أن نكون معكِ ـ أو نسكُنَ معك ـ؟ فبلغَ ابنُها فنكحَ فيهم امرأة، قال: ثمّ إنهُ بدا لإبراهيم فقال لأهله: إني مطَّلع تركتي، قال: فجاء فسلّم فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأتهُ: ذهبَ يصيدُ، قال: قولي له إذا جاء: غَيِّر عتبة بابك، فلما جاء أخبَرته، قال: أنتِ ذاك؛ فاذهبي إلى أهلِك، قال: ثمّ إنه بدا لإبراهيم فقال لأهله: إني مطَّلعٌ ترِكَتي، قال: فجاء فقال: أين إسماعيلُ؟ فقالت امرأتهُ: ذهب يصيد، فقالت: ألا تنزلُ فتطعَم وتشرب؟ فقال: وما طعامكم وشرابُكم؟ قالت: طعامنا اللحم وشرابُنا الماء، قال: اللَّهمَّ بارِكْ لهم في طعامهم وشرابهم، قال: فقال أبو القاسم ﷺ: «بركةٌ بدعوة إبراهيم».

قال: ثمَّ إنّه بَدا لإبراهيمَ فقال لأهلِه: إني مُطَّلع تَركتي، فجاء فوافق إسماعيل من وراء زمزم يُصلح نَبْلاً له، فقال: يا إسماعيلُ! إنَّ ربَّك أمرَني أن أبني لهُ بيتاً، قال: أطع ربّك، قال: إنه أمرَني أن تعينني عليه، قال: إذن أفعَلُ ـ أو كما قال ـ قال: فقاما فجعل إبراهيمُ يبني وإسماعيل يُناوله الحجارة، ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٣][٤].

---

(١) وفي رواية للبخاري: برقم (٣٣٦٤): «فبَحث بعقبيه ـ أو قال: بجناحه ـ».

(٢) الحفز: الحثّ والإعجال: وفي رواية للبخاري: رقم (٣٣٦٤): «فجعلت تُحوِّضُهُ» قال في «الفتح» (٦/٤٠٢) في رواية ابن نافع: فدهشت أمّ إسماعيل فجعلت تحفِر، وفي رواية «الكشميهني» من رواية ابن نافع: تحفن بنون بدل الراء، والأول أصوب، وفي رواية عطاء بن السائب: «فجعلت تفحص الأرض بيديها».

(٣) البقرة: ١٢٧.

(٤) أخرجه البخاري: ٣٣٦٥.

... لقد كانت زوجه تسأله: يا إبراهيم إلى من تتركنا؟ وفي بعض روايات البخاري: فقالت له مراراً: وجعل لا يلتفتُ إليها، فقالت له: آلله أمرَكَ بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يضيّعنا، وفي رواية: رضيتُ بالله، فلم تقل له بعد ذلك هنالك أوّليات... ولو صحبتنا معك لأفَدْنا في الدعوة إلى الله، وهو خير من ترْكنا في هذه الصحراء المُقفرة!

وهكذا إذا عَلِمنا أنّ الأمر من الله؛ فلا يَسعُنا إلا الطاعة والاستجابة؛ كما كان الأمر مع أمّ إسماعيل، فقد أخذَت أم إسماعيل تسعى من الصفا إلى المروة، بين أملٍ في الحصول على الماء وبين خوفٍ على ولدها الذي شهق للموت.

قد يتأكّد عند الواهمين قول قائل: «**ها هي مصيبة الموت تحيط بالولَد، فما الذي أفاده الأب وزوجه وولده من كلِّ ذلك**»!

ولكن هذا هو الجهاد والمجاهدة، والصبر والمصابرة، ولماذا النّظرة المادّية ـ وما أردى أمّتنا والله سوى هذه النظرة القاتلة والموازين الفاسدة ـ.

فلنقُل: إنها الاستجابة.

ولنقل: إنّها الطاعة لله ـ عزّ وجلّ ـ.

فما هي ثمرة هذه الاستجابة؟

إنّ الثمرة ليست لإبراهيم وزوجه وولده فحسب؛ بل إنها لكلّ الموحِّدين على وجه الأرض حتى تقوم الساعة.

إن المسلمين يأتون من مشارق الأرض ومغاربها بأعداد كثيرة، وهم في حبورٍ وابتهاج؛ لأنهم يسْعَوْن بين الصفا والمروة، في المكان الذي سعت فيه أُمُّ إسماعيل؛ ليُدربوا أنفسهم على الاستجابة لأوامر الله ـ سبحانه ـ.

إنهم يستشعرون كيف كانت أُمُّ إسماعيل تسعى هناك في ألمٍ وحُزن؛ تُقدّم طاعة ربّها على كلّ شيء.

انبثق ماء زمزم بإذن الله ـ عزّ وجلّ ـ بما فيه؛ من الشفاء، والبركة، والفضيلة، وحَرِصَ المسلمون على الاستزادة منه ونقْلِه إلى ديارهم مهما نأت وتباعدت.

بنى إبراهيم وابنه ـ عليهما الصلاة والسلام ـ البيت الحرام، بما فيه من فضل مضاعفة الصلاة، وأَجْر الطّواف، واستجابة الدّعاء...

إنها ثمرة الاستجابة لله ـ تعالى ـ.

إنّها ثمرة الطاعة لله ـ سبحانه ـ.

فلنحكُم نفوسنا بالاستجابة ونمنعْها عن العصيان والظُّلم، وإن كان في ظاهر الاستجابة عناءٌ، أو تعب، أو موتٌ.

فهل نحن مذّكرون؟

وهل نحن مُعتبرون؟

وكذلك قصة إلقاء موسى ـ عليه السلام ـ في اليمّ!

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾[1].

إذا خِفْت عليه فألقيه في اليمِّ! ولا تخافي ولا تحزني! لا عجب، لا عجب، أتعجب من أمر الله ـ سبحانه ـ!

لقد أمر الله ـ عزّ وجلّ ـ أُمَّ موسى أن تُلقِيَ رضيعها في اليمّ، فلم يسَعْها إلاّ الاستجابةُ.

هذا عَمَلٌ ظاهره الجنون فيما يقتضيه النظر المجرّد؛ لا يفيد موسى ولا أُمّه، ولكن خاتمته إفادةٌ لا تخطر ببال بشر.

لقد كان من ثمرة الاستجابة أن رُدَّ إلى أُمِّه؛ كي تقرّ عينها ولا تحزن، ولتعلَمَ أنّ وعد الله حق، وليكون من أولي العزم من الرُّسل.

(١) القصص: ٧.

لا تَقُلْ: ما فائدة هذا الأمر؟... ولكن قل: آلله - تعالى - أمرني بهذا؟... أرسوله أمرني بهذا؟... هل هنالك نصٌّ ثابت في هذه المسألة؟

إنّ الفائدة كل الفائدة، والسعادة كل السعادة؛ في الاستجابة لأمر الله، وإن كان في ظاهره التعب والعناء؛ وإنّ الضرر كلّ الضرر، والشقاء كل الشقاء؛ في التنكّب عن أمر الله، وإن كان في ظاهره الراحة والسعادة.

ولماذا هذه القصص في الكتاب والسّنّة؟

أللتسلية واللهو؟

بل للادكار والاعتبار.

إنّها لتثبيت الأفئدة والقلوب.

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[1].

الردّ على من يقول: «هذه جزئيّات تُعطّل الدّعوة إلى قيام حُكم الله - سبحانه - وهناك أولوّيات»[2].

١ - ما من شيء مهما عظُم أمره؛ إلاّ وهو جزءٌ من كُلّ وفَرْع من أصل، فالكلّ يتجزأ والأصل يتفرّع، حتى إنّ شهادة (لا إله إلا الله) جُزءٌ من الشهادتين وبَعض من ذلك، وزيادة في الإيضاح أقول:

إنّ وجود المجتمع الإسلامي الذي يحكمه الخليفة المسلم؛ أُمنيَّة كلّ مسلم عاقل؛ فهو كمن يتمنّى أن يعيش في قصر ضخم، فكيف السبيل إلى هذا القصر، ولَمّا يُبْن!

---

(١) هود: ١٢٠.

(٢) لا مجال لإنكار قاعدة: «... تقديم الأهم على المهم» و«الأولويّات... ولكن لا نُريد أن نجعل هذا سلاحاً للاعتراض على العاملين؛ فنعطلّ الأهم والمهمّ، والأصول والفروع؛ ولا يبقى سوى الكلام والشعارات والتغنّي على أمجاد العاملين الفاضلين. ثمّ إن كانت هناك عوائق عن العمل بالأهمّ؛ أفنترك المهمّ لذلك؛ بل عمل المهمّ يُمكّن من عمل الأهمّ.

وليكن همّنا دائماً أن نتقي الله ما استطعنا، فإذا ضاق الأمر ولا مجال إلا لأمرٍ واحد نعلمه، قدّمنا الأهم على المهم والفرض على النّفل... إلخ.

لا بُدّ أوّلاً من التعميق لتأسيس القواعد وإحكام البنيان، وشأن من يُقسّم الأمور إلى جزئيات وكلّيات وأُصول وفروع وقشور ولباب؛ كشأن من اعترض على الحفْر والنّزول والتعميق فقال: أتهبطون ولا تصعدون؛ وتنزلون ولا ترتفعون! لقد أخّرتم بناء القصر!

وكمن رأى كميّةً من الحديد مُلقاة في موضع، وكميّةً من الرمل في موضع، وكميّة من اللّبِن في موضع وكميّة من الأخشاب في موضع...

فقال متألماً: وماذا يُغني هذا الحديد من هذا القصر! أو هذا الرمل من البنيان المنشود؟ ما الذي تفعله هذه اللبنات! إنها لا تُبلغ المطالب، ولا تحقّق الرغبات!... هيهات لما تفعلونه هيهات!

ولكننا لو جمَعْنا هذه الأجزاء المبعثرة وغيرها؛ لكوّنت القصر الكبير، وبذلك نيلَت الأماني وتحققت المطالب.

وهكذا الشّأن مع ما يُسمّى جزئيات وفروع! فإذا نظرْتَ إلى كلّ عملٍ بمفرده استصغرتّه وقلتَ: ماذا يُسهم هذا في بناء المجتمع المُسلم وقيام حُكم الله ـ تعالى ـ في الأرض!

فمن نظر إلى درس في التوحيد، أو صَدَقةٍ يسيرة، أو صلاة ركعتين، أو أمْرٍ بمعروف، أو إحسان، أو نهي عن مُنكر أو بدعة... قال: هذه الأجزاء مُبعثرة، لا تُحطّم كيان المجتمع الجاهلي، ولا تقيم بنيان المجتمع الإسلامي؛ ولكن إذا جمعْت هذه الأجزاء أيقنْتَ أنها تُكوِّن الكلّ، وأن الكلّ قد تألّف منها، فهذه وغيرها أجزاء من بُنيان المجتمع الإسلامي... وهذه وغيرها أجزاء من حُكم الله ـ عزّ وجلّ ـ وشرْعه.

ما أسهلَ التّحدُّثَ عن شمولية الإسلام وكماله[1].

---

(١) ولا ينبغي أن يُنكر على من يتحدّث عن شموليّة الإسلام بوعي وعلم؛ وعن الاهتمام بالدعوة إلى قيام حُكم الله ـ عزّ وجلّ ـ، وهذا مطلب كل مسلم، ولكن ينبغي أن نحقّق ما استطعنا من هذا بالطاعات المقدورة على مختلف أنواعها؛ كما لا ينبغي أن يشغلنا التحدث بالشمولية والدعوة إلى قيام حُكم الله عن العمل الصالح الدائم الدائب.

إنّ التحدث عن هذا يستطيعه الجاهل والصغير قبل العالم والكبير.

إنّ التحدّث ـ مجردَ التحدّث ـ عن بناء القصر الواسع لا يبني قصراً، كما أن التحدّث ـ مجرد التحدّث ـ عن شموليّة الإسلام لا يُقيم دولته، فحيَّ على العلم والعمل، والإخلاصِ والصبر، والمجاهدة والثبات.

وأخيراً:

إنّما الكُلُّ بأجزائه والأصل بفروعه، فالأجزاء ليست مستقلّة بغيرها؛ ولكنّها متعلّقة بالكُلّ، والفروع ليست منفصلة وحدها ولكنّها موصولة بالأصل.

وهكذا لو كان هنالك مجتمع إسلامي؛ ويحكمه بحُكم الله ـ عزّ وجلّ ـ خليفة فاضل؛ فما هو تصوّرنا لسمات الأسرة المسلمة في هذا المجتمع؟

... الوعي العلمي الشرعي؛ في التوحيد والفقه، والسلوك.

الألفاظ الحسنة الطيبة.

حُسن الخُلُق والتعامل.

المحافظة على الشعائر والطاعات والعبادات.

اللباس الإسلامي يزدان به الرجال والنساء.

إطابة المطعم والمشرب.

الحِرص على عدم الاختلاط.

... إلى غير ذلك ممّا أمر الله ـ سبحانه ـ به.

وماذا إذا لم يكُنِ الخليفة مسلماً! هل من الممكن تحقيق ما سبق ذِكره أو ما تيسَّر منه!

فهذا واجب كل راعٍ ـ أو قُل ـ إن شئت: حاكم أصغر ـ يُربِّي نفسه وأبناءه ومن يستطيع على ذلك.

معاذَ الله أن يكون حديثي للتهوين من شأن الخليفة المسلم، فلا شك أنّ لوجوده أثراً كبيراً في التغيير؛ ولكن الحديث عمّن يُبلغه لسان حاله إلى

الأمر بترك العمل؛ لعدم وجود الحاكم المسلم؛ لأن ذلك ـ في زعْمه ـ يَشْغَلُ عن قيام حُكم الله ـ تعالى ـ!

نعم؛ هناك أمورٌ لا تتمُّ إلاّ بالحاكم المسلم لا ينبغي أن يُغضَّ الطّرْفُ عنها، وأيضاً هناك أمورٌ لا تتمّ إلا بمجاهدة النفس؛ مِن قبل المحكوم والرّعية، فإنَّ:

كلّ شخص حاكم وسيّد:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**كلُّ نفسٍ من بني آدم سيّدٌ، فالرّجل سيّدُ أهله، والمرأة سيّدةُ بيتها**»[(١)].

وفي الحديث: «**كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤول عن رعيته: الإمام راعٍ وهو مسؤول عن رعيّته، والرجل راعٍ في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولةٌ عن رعيتها، والخادم راعٍ في مالِ سيِّده وهو مسؤول عن رعيته...**»[(٢)].

وهكذا؛ فكلّ شخص راعٍ، وحاكمٌ، وسيّد، وآمر، ووالٍ في بيته؛ عليه مسؤوليات كبيرة لا بُدّ منها؛ سواء وُجد الحاكم المسلم أم لم يوجد.

والإسلام عُرىً كما في الحديث: «**لتُنقضَن عُرى**[(٣)] **الإسلام عُروةً عُروة، فكلّما انتقضت عُروة؛ تشبَّث الناس بالتي تليها، فأوّلهن نقْضاً الحُكم**[(٤)] **وآخرهنّ الصلاة**»[(٥)].

---

(١) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» وغيره، وهو حديث صحيح، خرّجه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٢٠٤١)، وقال: «هذا إسناد صحيح على شرط مسلم».

(٢) أخرجه البخاري: ٨٩٣، ومسلم: ١٨٢٩.

(٣) العُروة: ما يُستمسك به ويُعتصم.

(٤) هذا يدل على أهميّة الحُكم والحاكم، وأنّه بنقص الحُكم يسهل نقض العرى الأُخرى؛ ولكنّ إعادة البناء تحتاج إلى السعي لإقامة حُكم الله ـ تعالى ـ؛ يسبقها تربيةٌ للفرد والأسرة والمجتمع.

(٥) أخرجه أحمد، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم وصحّحه وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٦٩).

إذن؛ فالإسلام أجزاءٌ متماسكةٌ؛ من أهمّها الحُكم ويتضمّنها الصلاة، والزكاة، والحجّ... إلخ. فالعملَ العملَ، والصبرَ، والصبرَ، والثباتَ، الثباتَ!

والإنسان المسلم لا يُعفى من تحقيق التحاكم بما أنزل الله ـ تعالى ـ في نفسه وأهله ومن يستطيع؛ لأنّه مشغول بالدعوة إلى إقامة الحكم منهاجاً؛ ونظام حياة، ودستور دولة!

وهناك أمور يُتَّهم فاعلها أو من يدعو إليها، أنّه ممَّن يُعطِّلون قيام حُكم الله ـ سبحانه ـ نظاماً ومنهاجاً؛ كالدعوة إلى تصحيح العقيدة والتصفية والتربية... إلخ.

ولعلك تجد اعتراضاً من عددٍ من الناس يقولون عن تسوية الصفوف[1] مثلاً: هذه الأمور ليس وقتها هذه الأيام؛ ولكن من تأمّل هذا الأمر وتدَبّره؛ يجد عكْس ذلك، إذ رسول الله ﷺ يقول: «**استووا ولا تختلِفوا، فتختلفَ قلوبُكم**»[2].

وعن النّعمان بن بشير، قال: قال النّبيّ ﷺ: «**لتُسوُّنَّ صفوفكم، أو ليخالفنَّ الله بين وجوهكم**»[3].

وعن النّعمان بن بشير ـ أيضاً ـ، قال: أقبَلَ رسول الله ﷺ على الناس بوجهه، فقال: «**أقيموا صفوفكم ـ ثلاثاً ـ، والله لتُقيمنّ صفوفكم، أو ليخالفنّ الله بين قلوبكم**»[4].

لقد بيَّن النّبيّ ﷺ أنّ عدم تسوية الصفوف؛ يُفضي إلى اختلاف القلوب، لا العكس ممّا يزعمونه أنّ الحديث عن تسوية الصفوف يُبعثِر القلوب ويشغل عن الكلّيات!

---

(١) انظر رسالتي «تسوية الصفوف وأثرها في حياة الأُمّة».

(٢) أخرجه مسلم: ٤٣٢.

(٣) أخرجه البخاري: ٧١٧، ومسلم: ٤٣٦.

(٤) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٦١٦)، وابن حبان في «صحيحه».

كما أنّ اختلاف القلوب، يقود إلى الفشل والهلاك وذَهاب الريح والقوة، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «**لا تختلفوا فإنّ من كان قبلكم، اختلفوا فهلكوا**»[2].

والمعنى من خلال الجَمْع بين النّصوص: «**استووا ولا تختلفوا؛ فتهلكوا، وتفشلوا وتذهب ريحكم، ويتغلّب عليكم عدوّكم**».

أمّا من يرى أنّ الحل الصحيح وإقامة حُكم الله في الأرض؛ لا يكون إلا بغضِّ الطرف عن تسوية الصفوف، وأخواتها من الموضوعات، ثمّ التحدّثِ عن قتال الأعداء، ومحاربة الهجمات الفكرية الشرسة! فهذا كمن رأى أنّ الصلاة أهم من الصيام وغير ذلك، فأنكَر عمّن يتحدّث عن أهمية الصيام، وتحريم التعامل بالرّبا، بحجّة أنّ الناس قد أضاعوا الصلوات، وفرَّطوا فيها، ـ وهذا مخطىءٌ بالتأكيد ـ فالواجبات كثيرةٌ ومتعددةٌ ومتنوعةٌ، والمسلمُ مُطالبٌ بأداء ما استطاع منها.

ولا داعي لضرب بعضها ببعض: فالجهاد في سبيل الله واجب، والدعوة إليه واجبة، ومحاربة العقائد الشرسة واجبة، ومحاربة الغيبة والنميمة واجبة، وبرّ الوالدين واجب، وتسوية الصفوف واجبةٌ، كل أولئك كان المسلم عنه مسؤولاً بحَسْب استطاعته.

أمّا قولهم: هناك أولويّات، وهناك مهمٌّ وأهمّ؛ فهذا صحيح، وهذا طيّبٌ لتنسيق هذه الطاعات والمسابقة إلى الخيرات، لا لتعطيل العمل الصالح.

وإذا فُتح هذا الباب؛ لم يُنْهَ عن منكر، ولم يؤمر بمعروف، سوى قول القائلين: حُكم الله، حُكم الله، حُكم الله!

---

(١) الأنفال: ٤٦.

(٢) أخرجه البخاري: ٢٤١٠.

وكذلك ما من مهمّ إلا وفوقَه أهمّ منه، وهذا باب لا يوصد حتى في الشهادتين، فلعلّ قائلاً يقول: شهادة (لا إله إلا الله) أهمّ من شهادة (محمّد رسول الله ﷺ)!

فوجود الأهمّ لا يُلغي المهمّ؛ ولكن إذا ضاقت الأمور، فلم يكن من مجال إلاّ لأمر واحد؛ قدّمنا الأهم على المهمّ؛ كما نقدّم الفريضة على النّافلة.

وإن لم يكن الأمر كذلك ـ وهو الأصل ـ حَرَصنا على أداء المهمّ والأهمّ حسبما تيسّر؛ في ضَوْء قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾[1]. وفي ضوء قوله ﷺ: «**من رأى مِنكم مُنكراً؛ فليغيّره بيده، فإن لم يستطع؛ فبلسانه، فإن لم يستطع؛ فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[2].

ولا ينبغي أن ننسى أيضاً القاعدة الأصوليّة: «**لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة**».

فإذا سمعتَ شخصاً يذكر حديثاً موضوعاً، فهل تنتظر قيام حُكم الله نظاماً ودستوراً؛ حتى تقول له: لقد ذكرتَ قبل سنين حديثاً موضوعاً!

ومن يضمن حياتك أو حياته، حتى يكون للإسلام دولة؟ ومن يضمن تذكُّرَك كلّ المنكرات التي وجَبَ النهي عنها، أو الأوامر التي تعيَّن عليك الأمر بها؟

وكذلك إذا رأيت من قارف منكراً من المنكرات؛ فهل تنتظر قيام دولة الإسلام حتى تراجعه في ذلك! أم تمُضي الحديث الشريف المتقدّم: «**من رأى منكم منكراً...**»؛ فقد جاءت كلمة (منكراً) نَكِرة، إذ قد يصغُر المُنكر وقد يكبر ويعظم.

وهذا منهج الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ،

---

(١) البقرة: ٢٨٦.
(٢) أخرجه مسلم: ٤٩، وتقدّم.

وتأمّل من ذلك قصّة مقتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وفيها: «فاحتُمِل إلى بيته[١]، فانطَلَقْنا معه، وكأنَّ الناس لم تُصِبْهم مصيبة قبل يومئذ، فقائل يقول: لا بأس، وقائل يقول: أخاف عليه.

فأُتِي بنبيذٍ[٢]، فشربه، فخرَجَ من جوفه، ثمّ أُتِيَ بلبنٍ، فشربه، فخرج من جُرحه، فعلموا أنّه ميّتٌ.

فَدَخلْنا عليه، وجاء الناس، فجعلوا يُثْنون عليه.

وجاء رجل شابٌّ، فقال: أبشِر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك؛ من صحبة رسول الله ﷺ، وقِدَمٍ في الإسلام ما قد عَلِمْتَ، ثمّ وَليتَ فعدلتَ، ثم شهادة.

قال: «ودِدْتُ أنّ ذلك كفافٌ لا عليَّ ولا ليَ».

فلمّا أدبَر إذا إزاره يمسُّ الأرض، قال: ردُّوا عليَّ الغلام.

قال: «يا ابن أخي! ارفع ثوبك؛ فإنه أبقى[٣] لثوبك، وأتقى لربِّك»[٤].

... «يا ابن أخي! ارفع ثوبك؛ فإنّه أبقى لثوبك، وأتقى لربِّك».

... إنّه يأمر برفع الثوب وتقصير الإزار!

هل دعا بدعوتِه هذه وهو يأكل الطعام والفاكهة والحلوى؟

لا... لا... إنَّه يدعو لدعوته تلك وهو في أخطر الأحوال.

يقول مقولته هذه؛ والمسلمون في كرب شديد، وألم عميق.

---

(١) أي: عمر ـ رضي الله عنه ـ.
(٢) قال الحافظ في «الفتح»: «المراد بالنبيذ المذكور: تمرات نُبذت في ماء، أي: نُقعت فيه، كانوا يفعلون ذلك لاستعذاب الماء».
(٣) في رواية: (أنقى) بالنون.
(٤) أخرجه البخاري: ٣٧٠٠، والتعليقات الآتية من كتابي «قصة مقتل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ (ص١٢ وما بعدها).

يقول مقولته وهو يستقبل الموت ويودّع الحياة!

إنّ المسلمين مشغولون بأمر الخلافة.

إنّهم مشغولون بحال عمر.

إنّهم مشغولون بمصيبة عظيمة، عبّر عنها عمرو بن ميمون بقوله: «... **وكأنّ الناس لم تُصِبْهُم مصيبةٌ قبل يومئذ**».

قالها في وقْتٍ طُعِن فيه من الصحابة ثلاثة عشر رجلاً؛ مات منهم سبعة.

«هذا الحال الأليم والوضع العصيب لم يمنع عمر أن ينهى عن رفع ثوب، أو يأمر بتقصير إزار[1]».

فكيف بمن يقول: ليس الآن وقت النهي عن إسبال الثياب، ولا النهي عن البدع، ولا الحثّ على الأخذ بصحيح الحديث وترْك ضعيفه، ولا التكلُّم عن أمثال هذه الموضوعات؟!

فاعتبروا يا أولي الألباب والأبصار.

هذه هي الصورة الصحيحة لتعظيم الله ـ تعالى ـ.

هذه هي الصورة الصحيحة لتعظيم أوامر الله ـ تعالى ـ.

إذا كُنت ممّن يعتزُّ بعمر ـ رضي الله عنه ـ؛ فهذا هو سبيله، وهذه هي طريقته.

سبيلُه تعظيم أوامر الله ـ تعالى ـ.

طريقُه تعظيم أوامر الرسول ﷺ.

إنَّه لا يُقسِّم الدين إلى قشور ولُباب.

إنّها الطاعة لله ـ سبحانه ـ في كلّ أمرٍ بلَغَهُ من كتاب الله ـ تعالى ـ أو سنّة رسول الله ﷺ.

---

(١) قاله بعض إخواننا الأفاضل في بعض مواعظهم بمعناه.

كم ترَكنا كثيراً من الأوامر بحجة الانشغال بالجهاد!

كم اعترضْنا على من ينهى عن بدع وضلالات؛ لأننا نرى أنّها فرعيّات تَشْغَلُ عن إقامة حُكم الله ـ تعالى ـ في الأرض!

فأين الجهادُ الذي جاهَدْنا؛ والحُكمُ الذي حقّقْنا؟!

فلا نحن جاهدنا وأقَمْنا حُكم الله ـ تعالى ـ في الأرض، ولا نحن اجتنبنا البِدَع والمنهيّات.

ولستُ أرى تعارُضاً بين هذا وذاك، فلنعدَّ الإعداد الصحيح للجهاد في سبيل الله، ولنَسْعَ لقيام حُكم الله ـ تعالى ـ في الأرض، ولْنقُمْ بالنهي عن البدع والضَّلالات والمنكرات، ولنأمر بالمعروف والخير... فأين التعارض؟!

عدم وضوح حُكم الله في أذهان عدد من الدعاة والمربّين في الكثير من المسائل سبب في قولهم: «هذه جزئيات».

إنّ عدم وضوح بعض المسائل في أذهان عددٍ لا بأس به؛ من المسلمين؛ سببٌ في قولهم: هذه جزئيات، وهذه خلافيات، وهناك أهمّ من هذا؛ لأنهم لم يعرفوا حُكم الله في تلك المسائل، فَنَجَمَ عن هذا عدم تعظيم الأمر والآمر من غير قصْد.

ومن الأمثلة على ذلك: أنّ أحد الأفاضل من كبار الدّعاة في بعض الجماعات الإسلامية، قال لي مرّةً بعد صلاةٍ: «**تقبّل الله**[1] **أم ستقول: إنّها بدعة**» وبعد حوارٍ قُلت له: أريد منك أن تأتيني بمثال واحدٍ على بدعة في الدين، ولتختر ما شئت من الأمثلة، فوالله ما استطاع أن يأتي بشيءٍ، بالرغم من دراسته العالية، ونشاطه في الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ؛ لماذا؟ لأنّ المنهج العلمي عنده، غامضٌ ومِثْل هذا الأخ الفاضل كثير.

---

(١) هذه العبارة دون التزام جائزة؛ استقراءً من القواعد الأصولية كما أفادنا شيخنا ـ رحمه الله ـ أمّا التزامها؛ فيحتاج إلى دليل، إذ الأصل في الأمور التعبديّة المنع إلاّ أن يَرِدَ الدليل.

كيف ذلك؟

لأنهم يعتمدون في إلغاء البدعة على النّصوص العامّة، كما ذكر بعض أهل العلم(١)، فهم يحتَجّون - مثلاً - بجواز جهر المؤذن بالصلاة على النّبيّ ﷺ وإلحاقها بالأذان؛ بقوله - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾(٢).

ويحتجّون أيضاً بجواز ذِكر الله - تعالى - بصوت مرتفع بشكل جماعي التزاماً؛ بقوله - تعالى -: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾(٣)، وبقوله ﷺ: «**عليكم بالجماعة؛ فإنّما يأكل الذئب من الغنم القاصية**»(٤).

وهذه آيات كريمةٌ وأحاديث شريفة لا يجوز ردّها؛ ولكن يُردُّ الاستدلال بها في هذه المواطن وأمثالها.

في مثل هذا نقول: ماذا إذا صلّى رجلٌ فريضة العشاء خمس ركعات، أتقولون بشرعيّة ذلك؟ فإن قالوا: «**لا**» - وليس لهم إلا ذلك - قلنا: فإنّ للصلاة منزلة عظيمة في الدين، والآيات والأحاديث كثيرة على ذلك.

وكلّما أكثر العبد السجود؛ ازداد اقتراباً من الله - تعالى -.

قال - سبحانه -: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾(٥) وقال ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد**

---

(١) وسيأتي كلام عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله - في ذلك - إن شاء الله - تعالى -.

(٢) الأحزاب: ٥٦، ويحتجّون أيضاً بحديث مسلم: ٣٨٤: «**إذا سمعتم المؤذن؛ فقولوا مِثل ما يقول، ثمّ صلّوا عليّ...**»، والحديث لا يفيد ما أرادوه؛ إذ الخطاب للمستمعين هذا أولاً، وأمّا ثانياً: فيقول ﷺ: «**فقولوا مِثل ما يقول، ثمّ صلوا عليّ**»؛ فلو كان المؤذن يصلي عليه - ﷺ -؛ لما قال - عليه الصلاة والسلام -: «**ثمّ صلوا عليّ**»، ولكان قوله فقولوا مِثل ما يقول: كافياً؛ لأنه يتضمن الصلاة عليه - عليه الصلاة والسلام -.

(٣) البقرة: ١٥٢.

(٤) وهو حديث حسن: أخرجه أحمد، وأبو داود، والنَّسائي، وابن خزيمة، وابن حبان في - «صحيحيهما» -، والحاكم، وانظر «نقد نصوص حديثية» (ص١٣) و«صحيح الترغيب والترهيب» (٤٢٧).

(٥) العلق: ١٩.

من ربه وهو ساجد؛ فأكثروا الدعاء»[١].

فإن قالوا: «ولكن لم يرد عن رسول الله ﷺ أنّه صلّى فريضة العشاء خمساً»، قلنا: «ذلك ما كنّا نبغي»، فهل ورد ـ فيما سبق من مسائِلَ ـ نصوص خاصَّة فيها؟

هل ورد عن رسول الله ﷺ أنّه أمر أحد مؤذّنيه أن يجهر بالصلاة عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ؟! وهل ورد ذلك عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فِعْل ذلك؟!

نعم؛ قد قال ربنا ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾، وهذه أُنزلت على رسول الله محمّد ﷺ قبل غيره من البشر، وهي الحقّ من ربنا ـ سبحانه ـ، ولكنّه لم يأمر بلالاً أو غيره بالصلاة عليه بعد الأذان جهراً، ولا فعَل هذا أحد من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فيما علمت.

هذا مع تَكْرر الأذان ما قد عَلِمْنا، فلو فَعَله رسول الله ﷺ وأصحابه لنُقل لنا، وإذ لم يُنقل؛ فقد دلّ على عدم وروده.

من هنا لم يستطع صاحبنا أن يأتيَ بمثال واحد على بدعة، لأنّه يعتمد النصوص العامّة؛ فإن جاء بمثالٍ واحد على بدعة، سلّطت عليه النصوص العامّة في إبطال هذه البدعة، كما سلّط هو هذه النصوص في إبطال البدع الأُخرى، لذلك لا بُدّ من تأصيلٍ لفهم مدلول البدعة، فإن أقْررنا بوجودها، سألنا عن السبيل لنميِّز بينها وبين السُّنّة، ولا يكون هذا ـ فيما أرى ـ إلا في مطالبتنا بالنص الخاص على العبادة الخاصة، كمن يريد أن يؤذّن لصلاة الجِنَازة أو العيدين؛ فيحتجّ بفضل الأذان، فنقول له: ولكن هل ورد عن النّبيّ ﷺ أو أصحابه أذانٌ لصلاة الجِنَازة أو العيدين!

وكمن يُريد أن يصلّيَ السنن الرواتبَ جماعة، محتجّاً بالحديث: **«عليكم بالجماعة...»** فنقول له: هل ورد عن النّبيّ ﷺ أو أصحابه فِعْلُ ذلك؟!

---

(١) أخرجه مسلم: ٤٨٢.

فإذا لم نفعل هذا؛ كانت كلّ عبادة سائغة دون دليل ولا برهان، ولا يكون للبدعة وجود.

وهذا ما أشار إليه الخليفة الخامس ـ عمرُ بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ.

«فعن أبي الصلت قال: كتب رجل إلى عمر بن عبدالعزيز يسأله عن القدر، فكتب:

أمّا بعد؛ أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتباع سنّة نبيّه ﷺ، وترك ما أحدث المحْدِثون بعد ما جرت به سنته، وكفوا مؤنته، فعليك بلزوم السنّة؛ فإنها لك ـ بإذن الله ـ عصمة.

ثم اعلم أنّه لم يبتدع الناس بدعة، إلاّ قد مضى قبلها ما هو دليل عليها، أوعبرة فيها؛ فإنَّ السّنّة إنما سنَّها من قد عَلِم ما في خلافها؛ من الخطأ، والزّلل، والحمق، والتعمّق، فارْض لنفسك ما رضي به القوم...»[(١)].

والخلاصة: لا بُدّ من دليل خاص للعبادة الخاصة، لأن البدعة تستند على النص العامِّ، وقول عُمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ «ثمّ اعلم أنّه لم يبتدع الناس بدعة، إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها أو عبرة فيها»؛ فصْلٌ في ذلك، والله الموفق.

* * *

من تعرّف توحيد الأسماء والصّفات حقّ التعرُّف كان أدرى الناس بمسألة الحُكم بما أنزل الله ـ تعالى ـ

إنّ الذي يعتقد أنّ الله سميع، بصير، عليم، قدير، ليس كمثله شيء...؛ لهو أولى الناس أن يعلم أنّ حُكم السميع ليس كحكم من دونه في السمع، وحكم البصير ليس كحكم من دونه في البصر، وحُكم العليم،

(١) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٣٨٥٦).

ليس كحكم من دونه في العِلم، وكما أنّه ليس كمثله شيء في ذاته وأسمائه وصفاته؛ فليس كحكمه حُكم، وليس كتشريعه تشريع.

ومن الخطأ أن نفْصل بين توحيدٍ وتوحيدٍ، وأن نضرب النصوص ببعضها.

عن ابنِ عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أمَا إنّه لم تهلك الأمم قبلكم حتى وقعوا في مثل هذا، يضربون القرآن بعضه ببعض، ما كان مِنْ حلال فأحِلّوه، وما كان من حرامٍ فحرموه، وما كان من متشابه فآمنوا به»**[١].

* * *

المعاصي مجلبةٌ جَوْرَ السلطان والحُكْمُ بغير ما أنزل الله ـ تعالى ـ

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«يا معشر المهاجرين! خمسٌ إذا ابتليتم بهنّ ـ وأعوذ بالله أن تُدركوهن ـ: لم تظهر الفاحشة في قوم ـ قطُّ ـ حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهِمُ الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مَضَوْا، ولم يَنْقُصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسنين[٢] وشدة المؤنة وجَوْر السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يُمطروا، ولم يَنْقُضوا عهد الله وعهد رسوله، إلا سلّط الله عليهم عدوّاً من غيرهم؛ فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمّتهم بكتاب الله، ويتخيروا ممّا أنزل الله، إلاّ جعل الله بأسهم بينهم»**[٣].

---

(١) حديث صحيح أخرجه الطبراني في «الكبير» وغيره، وهو من «صحيح الجامع» (١٣٣٤)، وانظر ـ لزاماً ـ «الصحيحة» (١٥٢٢).

(٢) جمع سَنَة وهو الجدب والقحط.

(٣) أخرجه ابن ماجه، وأبو نعيم في «الحلية»، وغيرُهما، وهو حديث صحيح، خرّجه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (١٠٦).

فمِمّا ذكَره رسول الله ﷺ: «... **ولم ينقضوا المكيال والميزان؛ إلا أُخذوا بالسنين وشدّة المؤنة، وجور السلطان عليهم**».

فالمعاصي مجلَبةٌ جور السلطان والحُكم بغير ما أنزل الله ـ سبحانه ـ.

❋ ❋ ❋

أَحُكمٌ ومواجهة للمذاهب الفكرية الفاسدة بغير عِلم!

كيف نُقيم حُكم الله بدون علم؟!

وعلى أيّ مذهب يكون ذلك! ألا يحتاج هذا إلى علماء وطلّاب عِلم؟!

ألا يحتاج إلى تحقيق وتمحيص، كما ذكرت؟!

ألا يحتاج إلى جَلَدٍ وصبر؟!

ألا يحتاج إلى تنفيذٍ وعملٍ وتربية؟!

... وإلى كلّ أخ فاضل أراد الخير والفضيلة، ومحاربة الفساد والانحراف أقول:

بارك الله لك في هذه الجهود؛ ولكن لا تنسَ أن تحمل سلاح العلم.

بمَ تهدمُ العقائد الزائفة؟! إنّك ـ والله ـ لا تستطيع هذا بغير عِلم، كم من شخص ناقش أولئك فدُحر مغلوباً بسبب الجهل وقلّة العلم!

هب أنّك استطعت هدْم العقيدة المنحرفة؛ فهل لديك العقيدة الصحيحة والمنهج الصحيح؟

أهناك خيرٌ من الكتاب والسّنّة وهدْي السلف الصالح؟!

ألا يحتاج هذا إلى علماء وطلاب علم وكُتُب؟!

ألا يحتاج هذا إلى تمييز الثابت من غير الثابت منه؟!

❋ ❋ ❋



صور من الكِبر والتحقير(١)

رجل يقول: نريد حُكم الله منهاجاً ونظاماً حياة، ولا يعرف حُكم الله في أيسر المسائل، لا يعرفها في صلاته ولا في صيامه... لا يعرفها في اللباس ولا في الزِّفاف ولا في الجنائز...

وهذا يسْخَر من العلماء والكُتُب ويقول: هذه تَشْغَل عن الجهاد وإقامة حُكم الله ـ تعالى ـ!

آخرُ يقول ـ إذا سمع من يدعو إلى حُسن الخُلق ـ: «**هذه جزئيّات**»، أو سمع من يحذّر من بدعة؛ قال: «**هذه جزئيّات**» أو سمع محذراً ممّا لم يثبُت من الحديث؛ قال: «**جزئيّات**»، أو سمع من يُحذّر من التشبه بالمشركين قال: «**جزئيّات**»، أو سمع من يتكلّم في فضل الذِّكر؛ قال: «**جزئيّات**».

وهو في حقيقته لا يميّز الجزئيّات من الكليّات، ولا الفروع من الأصول!

آخر يقول: ـ إذا سمع بعض الأحكام الشرعية ـ: هذه تشغل عن محاربة الأفكار المادّية المنحرفة والمذاهب الفاسدة، وإذا طلبْت منه هدم بعض الأفكار الفاسدة، لم يستطع إلى ذلك سبيلاً.

آخر يقول: هذه الدعوات قاصرة لا شمول فيها؛ أمّا دعوتنا؛ فشاملة كاملة، وهو بهذه النتيجة يُقزّم الدعوات والجماعات وأهل العلِم.

وما حقيقة هذا الشمول في نفسه؟ ما تحصيله في العقيدة؟ ما تحصيله في الفقه؟ ما تحصيله في السياسة ـ التي يكثر من ذكِرها ـ؟! ما تحصيله في الاقتصاد؟ ما تحصيله في علم السلوك؟! إنك تكاد أن تقول عنه: هذا لا يحمل سوى كلمة «الشمول».

---

(١) تقدَّمت هذه الأمور مبثوثة في البحث، فأحببتُ أن تكون مجتمعة في موطن واحد.

آخر يقول: لا سبيل إلاّ بخليفة راشد، وأيّ موضوع خلا هذا فهو قِصر نظر وضيق أُفُق.

آخر يقول: سبيلنا العلم والاتباع وعدم التقليد، ولست تراه إلا مُقلِّداً متعصباً، لا يعرف العلم ولا العلم يعرفه، وليس له سوى هذا الشّعار: يُجهّل، ويبدّع، ويُضلّل؛ دون عِلم أو معرفة.

آخر؛ لسان حاله يقول: أمور المظهر والظاهر ـ كاللباس واللحية ونحو ذلك ـ؛ تُحكم بالنيّة الحسنة ومُسايرة المجتمع، أما حُكم الله ـ تعالى ـ ففي أمورٍ غيْرِها.

آخر يقول عن العديد من مسائل الشرع: «**هذه قشور**»[1]! ولا تراه عَمِل بما اقتنع أنّه (اللُّباب)؛ وإنما هو احتجاج للتفلّت من بعض الأمور الشرعية.

ونصيحتي لمن شأْنُه الانتقادُ أن يسأل نفسه؟ ماذا قدَّمْتُ لنفسي وأهلي وللمسلمين؟ ماذا قدّمتُ من عمل صالح؟! وماذا بدَّدْتُ من عملٍ طالح؟!

وأُذَكِّر بحديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرّةٍ من كبر**»؛ قال رجل: «إنّ الرجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسناً ونعلُه حسنةً».

قال: «**إنّ الله جميل يحبُّ الجمال؛ الكِبر بَطَر الحق**[2] **وغَمْطُ الناس**[3]»[4].

كما أُذكّر بقوله ﷺ: «**ثلاثٌ مهلكات، وثلاث منجيات، ثلاث**

---

(١) وأنا أعجب ـ والله ـ من هذه التسمية التي تفضي إلى تحقير بعض الدين، وما أحْسَنَ قوْلَ أحدهم: «لو سلّمنا لهم بصحّة هذا التعبير فنقول: وهل يُحفظ اللّباب إلا بالقشور»!

(٢) أي: دفْعه وردّه.

(٣) أي: احتقارهم.

(٤) أخرجه مسلم: ٩١.

مهلكات: شحٌّ مُطاع، وهوى مُتّبع، وإعجاب المرء بنفسه، وثلاث مُنجيات: خَشْية الله في السرّ والعلانية، والقصد في الفقر والغنى[١]، والعدل في الغضب والرّضا»[٢].

فتأمّل كيف كان إعجاب المرء بنفسه من المهلكات، والعدل في الغضب والرّضا من المنجيات، فنسأل الله أن يرزقنا العدل في كلّ شيء، وفي الحُكم على الدعوات والجماعات؛ في غضبنا ورضانا، وأن ينصرنا على هوى نفوسنا؛ إنّه على كل شيء قدير.

وأذكِّر ـ أخيراً ـ نفسي وإخواني بهذا النصِّ العظيم:

عن مصعب بن سعد، عن أبيه ـ رضي الله عنه ـ: إنّه ظهر أنّ له فضلاً على من دونه من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال النّبيّ ﷺ: **«إنّما ينصرُ الله هذه الأُمة بضعيفها؛ بدعوتهم، وصلاتهم، وإخلاصهم»**[٣].

وفي الحديث: **«ابغوني[٤] الضعفاء؛ فإنما تُرزقون وتنصرون بضعفائكم»**[٥].

---

(١) أي: التوسّط فيهما. «فيض القدير».

(٢) حديث حسن بمجموع طُرُقه، انظر تفصيله في «الصحيحة» (١٨٠٢).

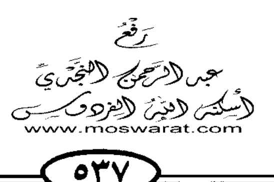
(٣) أخرجه النسائي وغيره، وهو في البخاري وغيره دون ذِكر الإخلاص؛ كما قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٥٤/١): وهو حديث صحيح مخرّج في «الصحيحة» (٤٢٣/٢).

(٤) ابغوني: بالوصل من الثلاثي، فهو مكسور الهمزة أي: اطلبوا لي طلباً حثيثاً، يقال: ابغني مطالبي: اطلبها لي، وفي رواية بالقطع من الرباعي فهو مفتوح الهمزة، أي: أعينوني على الطلب، يُقال: أبْغيتك الشيء: أي: أعَنْتُك على طلبه، قال القاضي: أي اطلبوا لي وتقربوا إليّ بالتقرّب إليهم، وتفقُّد حالهم، وحفظ حقوقهم، والإحسان إليهم، قولاً وفعلاً واستنصاراً بهم.
قال الراغب: والضّعف يكون في البدن، وفي النَّفْس، وفي الحال، وهو المراد هنا. عن «فيض القدير».

(٥) أخرجه أبو داود، والنسائي، والترمذي وغيرهم، وهو حديث صحيح مخرّج في «الصحيحة» (٧٧٩).

وهكذا ينصر الله هذه الأُمَّة بضعيفها، فلا ينبغي أن نحتقر الضعيف ونتكبّر عليه، إذ بدعوته وصلاته وإخلاصه نُنصر ونُرزق ـ بإذن الله سبحانه ـ ولا ينبغي أن نحتقر عملاً صالحاً أبداً ولا يجوز أنْ نزدَرِيَ خيراً قدّمَه أيٌّ مسلم من المسلمين؛ قلّ أو كثُر.







الخاتمة

هذا ما تيسَّر لي من الكتابة في موضوعنا هذا؛ والحمد لله على عونه وتوفيقه، وأسأله ـ سبحانه وتعالى ـ الهدى والسداد في الأمور كُلِّها، وأن يُلهمني العمل بما كتبت، وأن يتقبّل مني ذلك، وأن ينفع به المسلمين والمسلمات في مشارق الأرض ومغاربها؛ إنّه هو السميع العليم.



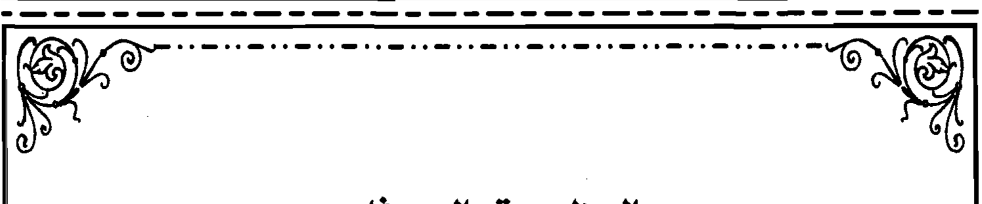
فقه الدعوة وتزكية النفس

(١٤)

المظهرية الجوفاء وأثرها في دمار الأُمّة

بقلم
حسين بن عودة العوايشة





المظهرية الجوفاء

* «إذا زخرفتم مساجدكم...»:

عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: «**إذا زخرفتُم مساجدكم، وحلَّيتُم مصاحفكم؛ فالدَّمار عليكم**»(١).

لمن الخطاب:

كلمة مرعبةٌ مخيفة... إنَّها الدّمار... أو شيء آخر؟

لا، بل الدمار، ولمن؟ أليهود؟ أو النصارى؟ أو المشركين؟

لا، ليس هؤلاء هم المرادين هنا، ولكنَّ المرادين هم المسلمون! وهذا واضح بيّن من خلال النصّ: «**...عليكم**».

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»، وانظر تخريجه في «الصحيحة» (١٣٥١). هذا وقد رجّح شيخنا ـ رحمه الله ـ رفْعه ومما اعتمد عليه شيخنا في ذلك: ما رواه ابن أبي شيبة في «المصنّف» وذكر إسناده مرفوعاً، بيْد أنّي لم أره مرفوعاً في النسخة التي بين يديّ، فلا أدري إنْ كان في نسخة مخطوطة الظاهرية قد ورد مرفوعاً، وهي النسخة التي اعتمدها شيخنا ـ رحمه الله ـ أو في طبعاتٍ أخرى!

أقول: فإن كان وهو مرفوع؛ فيه إرسال، فكيف إذا لم يكن مرفوعاً، وعلى كلّ حال فإنْ ثبتَ رفْعه في «المصنّف» فنفسي تطمئنّ إلى الحُكم عليه بما قال شيخنا ـ رحمه الله ـ، وإن لم يثبت رفْعه فيه فإنني أطمئن أنه موقوف، ونعود إلى قول شيخنا ـ رحمه الله ـ: وهو وإن كان موقوفاً فله حُكم الرفع؛ لأنّه لا يُقال من قِبَل الرأي واللهُ ـ تعالى ـ أعلم.

بل إنَّ الخطاب لأهل المساجد والمصاحف!!

وا كرباه! وا حزناه! هل آل الأمر بأصحاب المساجد والمصاحف أن يكونوا في دمار؟! أليس في المصاحف من النور والشفاء والرحمة ما يدفعُ عنهم ذلك الدَّمار؟! أو ليست المساجد بيوت الأتقياء؟! أو ليس من هذه البيوت، قد كان الإشعاع والنصر والسؤدد والمجْد؟!

فأين العلَّة؟

المسألة هيِّنة سهلة، هيَّا بنا نتأمل كلمتين خفيفتين على اللسان، ثقيلتين في الدلالة والبيان: «**زخرفتم**»، «**حلَّيتم**».

حال المسلمين اليوم:

بلى يا إخوتي! إنها الزخرفة... أجل إنَّها التحلية...

تعالوا بنا نسأل أنفسنا: هل زخرفْنا المساجد وحلَّينا المصاحف؟

الجواب: تشهده الأعين، وليس الخبر كالمعاينة، وهذا الأمر لا يحتاج إلى دليل:

وليْس يصِحُّ في الأذْهان شيءٌ ... إذا احْتاج النَّهار إلى دليل

لقد سيم المسلمون الخسْف... لقد رَكِبْنا الهوان وامتطانا الذلُّ... انظر إلى التذبيح والتقتيل والتشريد في أنحاء الأرض، انظر إلى أعداء الله كيف يتحكَّمون بالمسلمين؛ يُذَبِّحون الأبناء، ويقَتِّلون الشيوخ والأطفال، وبعد أن كانت الأرض تابعة لحكم المسلمين وسلطانهم؛ أصبحت الأمة ينهشها الاحتلال والاستعباد، تتداعى عليها الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها.

أنَّى اتَّجهتَ إلى الإسلام في بلدٍ ... تَجِدْهُ كالطَّيْرِ مقْصُوصاً جناحاهُ

كيف كان المسلمون بالأمس؟

ارجع إلى الماضي العريق؛ لتعلم كيف كان امتداد ديار المسلمين يتغير يوماً بعد يوم؛ بفتوحات مشرقة، وانتصارات مشرِّفة.

ثمّ اقرأ الصحف اليومية، وما إخالك تُسرُّ من خبر واحد عن الأُمة الإسلامية!

لِمثلِ هذا يذوب القلب من كمَدٍ إنْ كان في القلْبِ إسلامٌ وإيمانُ

كان المسلم يجوب البلاد من أدناها إلى أقصاها، لا يسأله سائل، ولا يردُّه أحد، الأرض أرض الله، وهو عبد الله، كل أرض حلَّ بها الإسلام؛ أُحلَّ للمسلم أن يزورها، ويسكن فيها، ويجعلها دار إقامته.

متى دخل على المسلمين هذه الاصطلاحات البالية: هيئة الأمم المتحدة، مجلس الأمن، الجمعية العمومية؟!

إنَّ التمسح بقبور الأنبياء لا يجوز، فكيف التمسح بأعتاب مجلس الأمن؟!

إنَّ التوسل بالصالحين وأئمتهم حرام، فكيف التوسُّل بأئمة الضلال والكفر؟!

يا مجلس الأمن بل يا مُقْلِقَ الأمن مُذْ لاحَ وجْهُكَ لَمْ نَعْرِفْ سوى الوَهَنِ

إذن فليس هناك إلا الدمار؛ نراه، نسمع به، نقرأ عنه.

يا أمَّة الإسلام! ما الذي حلَّ بك؛ وفيك المصحف العظيم والسنَّة المطهَّرة؟!

ما الذي أصابك يا خير أمة أخرجت للناس؟!

إنَّ من الدَّمار الذي عمَّ بنا؛ أنّنا لم نعلم سبب الدَّمار!

كم نتباهى في زخرفة المساجد وتحلية المصاحف؟!

ويمضي الأمر هكذا... يتنافس فيه المتنافسون، ويتسابق المتسابقون!

وإذا ما خلا المسجد من التكلُّف والزخرفة؛ عُدَّ مسجداً حقيراً في نظر الأكثرين.

وكأنَّ المصاحف لا تحلو ـ عند أغلب الناس ـ إلا بالتحلية والتزيين، وهُم بذلك يظنُّون أنهم يُحسنون صُنعاً.

ماذا لو رأينا مسجداً متواضعاً، عارياً من الزينة التي ألبَسْناها أكثر المساجد، مكسوّاً بالتواضع، بناؤه لا يكلِّف عشر معشار ما تُكَلِّفه المساجد الأخرى؟! أننشد حوله القصائد التي تبكي الأطلال؟ أم نُعْرِض عنه؟ وأيّ الأمرين فعلْنا أخطأنا.

. . . وأحلاهما مُرُّ.

كيف كان مسجد النّبيّ ﷺ؟

لا بُدَّ أن نتعرَّف على مسجد النّبيّ ﷺ... ألا يسعنا ما وسِعَه ووسِعَ أصحابه؟!

ممَّ كان سقفُ مسجده ﷺ؟

لقد كان من جريد النخل، وربما سجد ﷺ في طين وماء.

عن أبي سلمة ـ رضي الله عنه ـ قال: «**انطلقتُ إلى أبي سعيد الخدري، فقلتُ: ألا تخرج بنا إلى النَّخل نتحدَّث؟ فخرج، فقال: قلت: حدّثني ما سمعت من النّبيّ ﷺ في ليلة القدر.**

قال: اعتكف رسول الله ﷺ عشْر الأول من رمضان، واعتكفنا معهُ، فأتاه جبريل، فقال: إنَّ الذي تطلب أمامك؛ فاعتكف العشر الأوسط.

فاعتكفنا معه، فأتاه جبريل، فقال: إنَّ الذي تطلب أمامك.

قام النّبيّ ﷺ خطيباً صبيحة عشرين من رمضان، فقال: «**من كان اعتكف مع النّبيّ ﷺ فليرجع؛ فإني أُريتُ ليلة القدر، وإني نُسّيتُها، وإنّها في العشر الأواخر في وتر، وإني رأيتُ كأني أسجد في طين وماء**».

وكان سقف المسجد جريد النَّخل، وما نرى في السماء شيئاً، فجاءت قَزْعة، فأمطرنا، فصلّى بنا النّبيّ ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ وأرنبته[1]؛ تصديق رؤياه»[2].

---

(١) أي: طرف أنفه.

(٢) أخرجه البخاري: ٨١٣، ومسلم: ١١٦٧.

وفي رواية لمسلم: «حتى سال سقفُ المسجد، وكان من جريد النخل، وأقيمت الصلاة، فرأيت رسول الله ﷺ يسجد في الماء والطين».

كان سقف المسجد جريد النّخل، وربما سال السقف حين تمطر، وكان النّبيّ ﷺ يسجد في الماء والطين.

وكيف أمر النّبيّ ﷺ أصحابه الكرام - رضي الله عنهم - أن يبنوا مسجده؟ ذلك ما يوضِّحه بقوله لأصحابه - رضي الله عنهم -: **«ابنوه عريشاً كعريش موسى»**؛ يعني: مسجد المدينة[1].

وكان ﷺ قادراً على أن يأمرهم ببنائه قصراً مزخرفاً مزَوَّقاً، فلما ترك ذلك - عليه الصلاة والسلام - كان تركه سنّة؛ تحمل الخير والبركة والنجاة والفوز، «وخير الهدي هدي محمد ﷺ».

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما أُمِرتُ بتشييد المساجد»** قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: **«لتُزخْرِفُنّها كما زخرفت اليهود والنصارى»**[2].

وعن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد»**[3].

وها نحن نرى التباهي والتفاخر والتنافس والتسابق في تزيين المساجد وزخرفتها وتحليتها...

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النّبيّ ﷺ قال: **«من بنى لله مسجداً، ولو كمِفْحص[4] قطاة لبيضها، بنى الله له بيتاً في الجنّة»**[5].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا، وابن أبي شيبة، وغيرهما، وحسّنه شيخنا - رحمه الله - في «الصحيحة» (٦١٦).

(٢) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٤٣١)، وذكر البخاري - رحمه الله - أثر ابن عباس معلّقاً في (كتاب الصلاة) «باب بنيان المساجد».

(٣) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٤٣٢) وغيره.

(٤) المفحص: حفرة تحفرها القطاة - وهي نوع من اليمام - في الأرض لتبيض وترقد فيها.

(٥) أخرجه أحمد والبزار، وصححه شيخنا - رحمه الله - في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٧٢).

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من بنى لله مسجداً، كمِفحص قطاة أو أصغر؛ بنى الله له بيتاً في الجنّة»**[١].

وأمر عمر ـ رضي الله عنه ـ ببناء المسجد، وقال: «أكِنَّ[٢] الناس من المطر، وإياك أن تحمِّرَ أو تصفِّر فتفتن الناس»[٣].

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: «يتباهون بها، ثمّ لا يعمرونها إلا قليلاً»[٤].

ما الذي خرّجه مسجد النّبيّ ﷺ؟

ماذا لو رأينا مسجد النبيّ ﷺ ماثلاً أمامنا كما قرأنا عنه؟!

أليس هو المسجد الذي خرّج الرجال؟ أليس هو المسجد الذي خرّج الفاتحين والأبطال؟ أليس هو المسجد الذي أنجب القادة؟ أوليس منه شعَّ النور وتحقّق النصر؟

أجل؛ إنه مسجدٌ قدم لنا الدروس في الإيثار والمحبة والتضحية والبطولة والسعادة، قدّم لنا وقدّم، وقُلْ إن شئت: إن الأرض التي نسكن؛ من أصلاب من عمروا هذا المسجد.

إنه مسجد عنايته تربية النفوس وصقلها وتهذيبها.

نعم؛ إنّها العناية بالباطن... العناية بالجوهر... العناية بالإنسان.

لا غرابة إذن أن يكون الدّمار على أمَّة تعتني بالجدران، وتتناسى الإنسان، تعتني بالزينة والنقوش، وتتعامى عن الأخلاق والسلوك، وإن كان

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه»، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٧١).

(٢) أي: اجعل المسجد على صفةٍ تصونهم من المطر.

(٣) ذكره البخاري معلّقاً بصيغة الجزم «كتاب الصلاة» (باب بنيان المسجد).

(٤) ذكره البخاري معلّقاً بصيغة الجزم «كتاب الصلاة» (باب بنيان المسجد)، ووصله أبو يعلى في «مسنده»، وابن خزيمة في «صحيحه»، وانظر «الفتح» (٥٣٩/١).

الأمر كذلك؛ فهلمَّ بنا نُلبِس الدواب أحسن الملابس، ونُسكنها خيار المساكن، فهل تخرج عن جنسها؟!

وها نحن الآن في مساجد ضخمة، نسجد على البُسُط الوثيرة المزركشة، والذي وُضع على البلاط الساحر الجميل، السقوف فيها قويّة، لا يتسرَّب منها نقطة ماء، فيها من وسائل التكييف والتبريد والتدفئة ما يريح البدن، ولا أحدِّثك عما تكلِّفه المساجد، فالأرقام كبيرة كثيرة، والمبالغ هائلة عظيمة، وأما عن الزخرفة والزينة؛ فلا أظنُّك تحتاج فيها إلى كلام، وكأنها أهمُّ ما في المساجد، أو كأنها الوسيلة الدعائية المعاصرة لجذْب الناس لها، وإقناعهم بها.

ولو جئت تعدُّ الصفوف في صلاة الفجر ـ عفواً بل المصلين ـ ما احتاج الأمر إلى عناء أو مشقَّة.

ولو جئت تقارن النفوس التي تربَّت على الزخرفة والزينة والتَّنَعُّم في هذه المساجد، مع الجيل الذي كان يسجد في الماء والطين؛ لوجدْت العجب العجاب، لعلَّك لا تصدِّق أنه يعرف الإسلام؛ إنك ترى جيلاً يريد الجنّة ـ بل الفردوس ـ دون أن تغبرَّ ملابسه، أو يشاك بشوكة.

إنك تسمع بالإيثار، والوفاء، والتضحية، وتقرأ أحسن القصص عنه، لكنّك تشتهي أن ترى عيناك من ذلك شيئاً، وهذا يُذكِّرنا بقوله ـ تعالى ـ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾[1].

فما أكثر أقوالنا وما أقلَّ أفعالنا[2]! وما أقلَّ أقوال الصحابة وما أكثر أفعالهم!

ما الذي فعَلَه أولئك الذين صلَّوا تحت سقوف جريد النّخل؟ وما هي الفتوحات التي حقَّقوها والبلدان التي وصلوها؟ وماذا فعل الذين صلّوا في

---

(١) الصف: ٣.

(٢) وهذا لا يعني انعدام أهل الخير والإيثار والتضحية، فهنالك ـ والحمد لله ـ من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ـ تعالى ـ.

المساجد المزخرفة المزيَّنة؟ وإلى أيِّ مدى طارَدَهم المحتلُّ الغاشم والعدوّ الظالم؟!

كيف كان القرآن في عهد النّبيّ ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ؟

كيف كان القرآن في عهد النّبيّ ﷺ وأصحابه؟ ومتى جُمِعَ؟ وكيف كان حال المسلمين قبل أن يجْمَعَ كهيئته اليوم؟ وكيف حالنا بعد أن جُمع وزُيِّن وحُلِّي؟ أم أنّنا أفلسْنا، فلم يبْق لنا إلا الاهتمام بالزخرفة والتَّحلية؟!

لو كان الشرع جميلاً في نفوسنا؛ ما احتجْنا إلى تزيين الجُدران والأوراق، فهذا التزيين يدلُّ على افتقارنا إلى الجمال، فلا نطلبه إلا على الأشياء!

إن الزخرفة والتزيين والتحلية قد شغلت قلوب الناس، فالنساء ـ مثلاً ـ يخرجن إلى الشوارع بألوان تتعدَّد، فالحمرةُ على الشفاه، والمساحيق البيضاء على الخدود، والظلال الخضراء على العيون، وظلت النفوس تتوق وتحنُّ إلى الألوان الباقية؛ فوجدوها في الثياب!

ولم يقف الأمر على هذا الحد، بل تعدّت الزخرفة والتحلية إلى المساجد والمصاحف!!

موقف عمر ـ رضي الله عنه ـ من المظهرية:

نظنُّ أن عزَّتنا وسعادتنا بالنُّقوش والزِّينة، وننسى قول النّبيّ ﷺ: «**أيُّما أهل بيت من العرب والعجم، أراد الله بهم خيراً، أدخل عليهم الإسلام، ثمّ تقعُ الفتنُ كأنّها الظُّلل**[١]»[٢].

وروى الحاكم من طريق ابن شهاب؛ قال: «خرج عمر بن الخطاب

---

(١) الظلل: واحدتها ظلّة، كل ما أظلّك أراد كأنّها الجبال والسُّحُب. «النهاية».

(٢) أخرجه أحمد والحاكم وغيرهما، وصحّحه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٥١).

إلى الشام، ومعنا أبو عبيدة بن الجراح، فأتوا على مخاضة[١] وعمر على ناقة، فنزل عنها، وخلع خفَّيه، فوضعهما على عاتقه، وأخذ بزمام ناقته، فخاض بها المخاضة.

فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين! أأنت تفعل هذا؟! تخلع خُفَّيك وتضعهما على عاتقك، وتأخذ بزمام ناقتك وتخوض بها المخاضة؟! ما يسرُّني أنَّ أهل البلد استشرفوك!

فقال عمر: أَوْهِ[٢]! لو يقل ذا غيرك يا أبا عبيدة؛ جعلته نَكالاً[٣] لأمَّة محمد ﷺ، إنّا كنَّا أذلَّ قوم، فأعزّنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزَّ بغير ما أعزَّنا الله به، أذلَّنا الله».

وفي رواية: «يا أمير المؤمنين! تلقاك الجنود وبطارقة الشام وأنت على حالك هذه؟! فقال عمر: إنّا قوم أعزَّنا الله بالإسلام، فلن نبتغي العزَّ بغيره».

وقفةٌ مع قول أبي عبيدة ـ رضي الله عنه ـ: «يا أمير المؤمنين! أأنت تفعل هذا؟! تخلع خُفَّيك وتضعهما على عاتقك وتأخذ بزمام ناقتك وتخوض بها المخاضة؟! ما يسرُّني أنَّ أهل البلد استشرفوك...»، «..تلقاك الجنود وبطارقة الشام وأنت على حالك هذه؟!».

ربما قال قائل: إنه قول كل واحد منا... إنه مطلب صحيح، موائم للعصر، ملائم للتقدُّم!

ولكن؛ ما موقف عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وما أدراك ما عمر؟!... ذلك الرجل الذي فرَّت منه شياطين الإنس والجنّ، ذلك الرجل العظيم، البطل، الفاتح، العادل، التقي، صاحب رسول الله ﷺ، ثاني

---

(١) الخوض: المشي في الماء، والموضع مخاضة: وهو ما جاز الناس فيها مشاة وركباناً. «لسان العرب».

(٢) كلمة يقولها الرجل عند الشكاية والتوجُّع، وبعضهم يفتح الواو مع التشديد فيقول: **«أوَّه»**. **«النهاية»**.

(٣) أي: عِبرة.

خلفاء المسلمين، ذلكم الذي أعزَّ الله المسلمين في حياته، ثمّ نُكبوا بموته؛ فقد جاءت الفتن وفُتِحَت أبوابها بعد موته ـ رضي الله عنه ـ.

ماذا قال ـ رضي الله عنه ـ؟ «أوْهِ! لو يقل ذا غيرك أبا عبيدة؛ جعلته نكالاً لأمة محمد ﷺ، إنا كنَّا أذلَّ قومٍ، فأعزّنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزّ بغير ما أعزَّنا الله به؛ أذلّنا الله».

«كنّا أذل قوم»... كان الكفر، وكان الشرك، كانت الأصنام، كان التوسل بغير الله، كانوا قبائل متفرقة يغزو بعضها بعضاً، وكأنك ترى الشرَّ حبيب قلوبهم، وبهجة نفوسهم.

قومٌ إذا الشرُّ أبْدى ناجِذَيْهِ لهم ... طاروا إليه زُرافاتٍ ووُحْدانا
لا يسألون أخاهم حين يَنْدُبُهم ... في النَّائِبات على ما قال بُرهانا

وإذا لم يجدوا من يغزونه؛ فما العمل؟

وأحياناً على بكر أخِينا ... إذا ما لم نجِدْ إلا أخانا

كان القتل، وكان الوأد، وكان الضَّعف والخور، وكانت أيامها دولتا الفرس والروم، وكأنَّ العرب لم يكونوا أمام الدولتين شيئاً مذكوراً.

لم يقل: كُنّا أذلّة، ولكنه قال ـ رضي الله عنه ـ: **«إنا كنّا أذل قوم»**.

ما الانقلاب الذي حصل في حياة الأمة؟ كيف تبدلَّ الأمر غير الأمر؟ لقد أصبحوا سادة وقادة وأبطالاً.

أبالزخرفة والزينة؟! أم بالنقوش والألوان؟! أم بحُسن الملبس والمظهر؟! أم بكثرة المال والبنيان؟!

الجواب يسير غير عسير: **«فأعزّنا الله بالإسلام»**.

إنه الدين الحنيف، يُعزُّ من اعتنقه، ويُذلُّ من تركه... إنها أجيال طَعمت العزَّة من تمسكها بالإسلام، رضيتْ بالله ـ تعالى ـ ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً، رضيت بذلك القلوب، ونطقتْ بذلك الألسن، وعملت بمقتضى ذلك الجوارح... إنها أجيال لا كالأجيال.

عجبْتُ لمن يطلب المال والخبز من الله ـ تعالى ـ ويطلب العزَّة من غيره!

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾(١)؟!

﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾(٢).

فيا عَجباً كيف يُعصى الإلـ ـهُ أمْ كيفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ
وفي كُلِّ شيءٍ لَهُ آيةٌ تَدُلُّ على أنّه واحِدُ

وماذا لو رأينا في عصرنا الحاضر رجلاً يخلع خفَّيه، ويضعهما على عاتقه، آخذاً بزمام الناقة، خائضاً مخاضة ماء؟!

ما مكانة هذا الرجل في القلوب! ما تصنيف عمله! لعلّه يعمل في أحقر الأعمال؛ إنه ليس مثقّفاً أو ذا شهادة.

هذا إذا ألقينا له البال...

ولكنَّ هذه المعاني والأفكار تمرُّ سريعاً في لحظات، فمن هو حتى يُؤبه له، أو يُلْتَفَت إليه؟!

إنَّ هذا الرجل حريٌّ إذا خطب ألا يُنْكَح، وإذا قال ألا يُسمع لقوله!

وماذا لو كان هذا الرجل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ؟!

هل تتبدّل الأقوال والمفاهيم والموازين؟!

كيف لا وقد بُدِّلت مواقع الأرض في عهده؟!

كيف لا وقد تبدّل في عصره عَفَن العقائد ونتنها؛ إلى عقيدة الإسلام ونور التوحيد؟!

ألسنا نسعى أن نكون على منهاج الخلفاء حتى ننجو؟ ذلك لأنهم كانوا

---

(١) النمل: ٦٠.

(٢) يوسف: ٣٩.

على منهاج النّبيّ ﷺ، ولم يأت النّبيّ ﷺ بشيء من عنده، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[١] إذن؛ فاتباع هذا السبيل هو اتباع لأوامر الله ـ تعالى ـ.

هل فاتنا قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝١١٥﴾[٢]؟.

ومن هم المؤمنون؟

لقد شهد الله ـ تعالى ـ للصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بالإيمان، فمن ذا الذي يشهد لسواهم في عصرنا الحاضر!

الشخصية الإسلامية تؤثِّر ولا تتأثر:

إنه درس عظيم، نتعلَّمه من صاحب رسول الله ﷺ، درس الثِّقة بالنفس، وهو أساس في بناء الشخصية المسلمة.

إنَّ الإنسان المسلم لا ينبغي أن يكون كريشة في فلاة؛ يقلِّبها المجتمع ظهراً لبطن، إن استحسن أمراً استحسنه معه، وإن استقذر أمراً استقذره معه.

إنّ المسلم الداعي الواعي لهو القائد الذي يقود الناس؛ يُعَلِّمهم، ويربِّيهم، ويؤثِّر فيهم.

إنه يستقي الخُلُق من القرآن والسنَّة، فالحَسَن عنده ما حسَّنه الشَّرع، والقبيح ما قبَّحَهُ الشرع.

إنَّهُ يؤثِّر ولا يتأثَّر... إنه يقود للخير ولا يُقاد للشر... إنه المعلم والمربِّي والقائد.

---

(١) النجم: ٣ ـ ٤.

(٢) النساء: ١١٥.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[(١)].

بلى؛ إنّ أقواله أحسن الأقوال، وأفعاله أحسن الأفعال، فلم التأثر إذاً من قول القائلين أو الناقدين من أين استقوا هذه الانتقادات؟ وما ميزان العيوب والذنوب!

الفهم الصحيح للعزَّة:

إنَّ العزَّة تنبع من داخل الإسلام لا من خارجه، فإذا ما سمعت شخصاً يأتيك بفهم للعزّة والتقدّم، أو يعترض عليك من أفعال؛ زعماً منه أنها لا تليق؛ فقل له: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[(٢)]، ثمّ لا تنس أن تتلو عليه قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾[(٣)].

إن المنافقين أولياء الكافرين؛ يزعمون ويدّعون أنَّ العزَّة تُبْتغى من الكفار... إنّهم لم يبتغوها من الله ـ تعالى ـ لضعف عقيدتهم، وخراب أفئدتهم، فراحوا إلى الكافرين يبتغونها منهم، وأتوا إلينا بمقوِّمات لها، وموازين عجيبة، تخالف العزّة التي يريدها الله ـ تبارك وتعالى ـ ويرضى عنها.

موازين العزة عند غير المسلمين:

أما يرون أنَّ الملابس الأروبية الآن، هي رمز التقدّم والحضارة والمدنيّة والفهم والتطوُّر والذكاء؟!

وكيف يرونَ ربطة العنق؟

---

(١) فصِّلت: ٣٣.
(٢) البقرة: ١١١.
(٣) النساء: ١٣٨ ـ ١٣٩.

قالوا: لا يضعها إلا فهيم!

لقد استوردنا السيارات والطائرات والملابس من الشرق والغرب... ومعها العزّة المزعومة... فماذا نفعل بقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾(١)؟.

هؤلاء لا يؤمنون بالرسول ﷺ، ولا بأحاديثه، ولا بالموازين التي وردت بها، فمقوِّمات العزة عندهم نابعة من عقيدتهم الفاسدة، فلماذا لا يقول كلٌّ واحد منا لهم: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾(٢)؟.

إنَّ الله ـ تعالى ـ يفتح باب العزّة فيقول: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾(٣)، ونحن نلجأ إلى غيره سبحانه!!

هؤلاء يعدون الرسول ﷺ والمؤمنين أذلّة، فقد أصدروا قواعد في العزَّة وأصَّلوا فيها أصولاً، ولحقوا بعبدالله بن أبيّ بن سلول رئيس المنافقين(٤) لمَّا قال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾، وربنا ـ سبحانه وتعالى ـ يقول القول الفصل: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾، وربنا ـ سبحانه وتعالى ـ يقول القول الفصل: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾(٥).

فلنستمدَّ العزة إذن من الله ـ تعالى ـ ومن سنَّة رسول الله ﷺ، ولْنَبْحث عنها عند المؤمنين، فإن كنا نؤمن بالله ـ تعالى ـ فلماذا لا نسلك سبيل التصديق والإيمان؟! أو ليس هو سبحانه القائل: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؟! لماذا نسلك سبيل الذين لا يعلمون؟! لا يعلمون حقيقة

(١) النساء: ١٣٩.
(٢) الكافرون: ٦.
(٣) فاطر: ١٠.
(٤) انظر صحيح البخاري (٤٩٠٧)، وصحيح مسلم (٢٥٨٤).
(٥) المنافقون: ٨.

النّبيّ ﷺ... لا يعلمون حقيقة الإيمان والمؤمنين... يسمُّوننا أذلة... ومع ذلك نرضى عنهم، ونحبُّهم، ونأخذ عنهم موازين العزة الزائفة!!

أليست الفتاة العفيفة البِكر في ميزان هؤلاء رجعية متأخرة؟! كيف تأخَّر فضُّ بكارتها لولا أنها متوحِّشة؟!

ما ميزان الأخلاق عند هؤلاء؟ ما شعورهم تجاه من خالفهم في اللباس؟ إنّه مُعَقَّد، حتى بلغ الأمر بنا، أننا لا نجرؤ على ارتداء الملابس العربية المتَّفقة مع سمات الزيِّ الإسلامي!

۞ عوداً إلى قول عمر ـ رضي الله عنه ـ: «لو يقل ذا غيرك أبا عبيدة؛ جعلته نكالاً لأمة محمد ﷺ»:

لقد عفا عمر عن أبي عبيدة ـ رضي الله عنهما ـ لما لَه عنده من مقام وقدر، وهل يكون ذلك العقاب لغير ذنبٍ عظيم؛ أن يُجْعَل المرءُ نكالاً لأمّة محمد ﷺ؟

فما هو الذنب الذي فعله؟...

إن عمر ـ رضي الله عنه ـ يرى أن ذلك الفكر سامٌّ، لو سرى في حياة الأمّة لأودى بحياتها... إنّه يتوعّد أنْ يجعلَ من يقول هذا ـ أو مثله ـ نكالاً لأمّة محمد ﷺ.

وهكذا كانت العِزَّة ودام المجد في عهد خليفةٍ راشدٍ عظيم؛ كان يسير على هذه السنّة العظيمة.

كان يزن ما يسمع من الكلمات، ويُصوِّب ما ينبغي تصويبه... كيف لا وقد قال فيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **«لو كان بعدي نبيٌّ لكان عمر بن الخطاب»**[1]!

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي والحاكم وغيرهم، وحسّنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٣٢٧).

إنه الإلهام الذي ذكره النّبيّ ﷺ في الحديث: **«قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم أناس محدَّثون، فإن يكُ في أمتي أحدٌ منهم؛ فهو عمر بن الخطاب»**[١].

ها نحن الآن نغرق في أقوال وكلمات وأصول وقواعد وموازين، تربو بكثير عن هذه العبارة في معانيها، بل لا وجه للمقارنة، تلك التي أوحتها شياطين الإنس والجنِّ من شتَّى البقاع!

نغرق في الأقوال، وليتنا في هذا الموطن ممَّن يقولون ما لا يفعلون.

المظهرية الجوفاء لا تخدم مصلحة الأمة:

قالها أبو عبيدة ـ رضي الله عنه ـ وما قالها عن هوى أو حظِّ نفس؛ إنه أراد مصلحة الأمّة... إنه رجل قائد، يريد أن يكون الإنسان المسلم ـ ولا سيما الخليفة ـ عزيزاً مكرماً أمام البشرية، يريد أن يكون الخليفة مهيب الجانب، مصون الشخصية، ولذلك قال لعمر ـ رضي الله عنه ـ: «تلقاك الجنود وبطارقة الشام، وأنت على حالك هذه!».

«ما يسرُّني أنَّ أهل البلد استشرفوك»!

كيف تلقاه الجنود وهو بذلك الحال؟! كيف تلقاه بطارقة الشام وهو في ذلك المنظر؟! كيف يستشرفه أهل البلد وهو على تلك الهيئة؟! لا بُدَّ أن يظهر عمر ـ رضي الله عنه ـ عزيزاً قويّاً كريماً عظيماً أمام الناس.

إنه لم يُرِدْ إلا رضوان الله ـ تعالى ـ... إنّه لم ينظر إلا لمصلحة الأمة، وصيانة شخصية عمر جزء منها.

ولكن؛ هل رجَّح أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ هذه المصلحة؟ هل تنازل عمّا رآه الحق والصواب بل إنّه حول المصلحة يُدندن، إنه ما قال الذي قاله؛ إلا لحياة الأمة وسعادتها ومجدها، وإلا فبأيٍّ لسان كان يتحدّث

---

(١) أخرجه البخاري: ٣٦٨٩، ومسلم: ٢٣٩٨.
وفي «صحيح مسلم» قال ابن وهب: تفسير محدثون: ملهمون.

عمر ـ رضي الله عنه ـ؟ بأي ضمير تكلّم؟ أبضمير المفرد أم الجمع؟ فلنتدبَّر المقولة ولنتأمَّل العبارة:

«إنّا كنّا أذلَّ قوم، فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزَّ بغير ما أعزنا الله به، أذلَّنا الله».

علامَ تدل كلمة (إنَّا) وجارتها بالجنب (كنّا)، ثمّ كلمة (قوم)، أتدل هذه على مفرد؟ علام تدل كلمة (نطلب) و (أعزَّنا) ، و(أذلنا)؟...

بلى؛ إنه ينظر من منظار مصلحة الأمة، ولو كان ينظر لمصلحته الخاصة؛ لشكر أبا عبيدة ـ رضي الله عنه ـ ولَلَبِس أحسن الثياب، وطَعِم أحسن الطعام، وقُضِي الأمر!

تأمُّلاً في مواقف هؤلاء الرجال؛ كم يُؤثِّرون في الرّعية؟ كم يُلاقون من الأتباع والأحباب؟ ما أجمل أن يأتي التطبيق من هذا الصنف؛ ممّن يكونون في مقام القدوة من ذوي المناصب والولاية والجاه والسلطان!

وهكذا مضى الصّادقون من ذلك الجيل الفريد على نفس السبيل، مهما كانت مناصبهم.

عن عبدالله بن شقيق؛ قال: «كان رجل من أصحاب النّبيّ ﷺ عاملاً بمصر، فأتاه رجل من أصحابه، وهو شَعِث[1] الرأس مُشْعانٌّ[2]؛ قال: ما لي أراك مشعاناً وأنت أمير؟! قال: كان ينهانا عن الإرفاه. قلنا: ما الإرفاه؟ قال: الترجُّل كل يوم»[3].

وله طريق أخرى عن يزيد بن هارون عن الجريري عن عبدالله بن بريدة: «أنَّ رجلاً من أصحاب النّبيّ ﷺ رحَلَ إلى فضالة بن عبيد وهو بمصر، فقَدِمَ عليه وهو يمدُّ ناقة له، فقال: إنّي لم آتك زائراً، وإنَّما أتيتك

---

(١) أي: متفرّق الشعر.

(٢) هو منتفش الشعر، ثائر الرأس.

(٣) أخرجه النسائي وغيره، وصحّحه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٥٠٢).

لحديثٍ بلغني عن رسول الله ﷺ، رجوتُ أن يكون عندك فيه علم» فرآه شعثاً، فقال: ما لي أراك شَعثاً وأنت أمير البلد؟ قال: إنَّ رسول الله ﷺ كان ينهانا عن كثير من الإرفاه[١]. ورآه حافياً فقال: ما لي أراك حافياً؟ قال: قال: إنّ رسول الله ﷺ أمرنا أن نحتفي أحياناً»[٢].

دهشةٌ شديدة تسارع إلى الذهن؛ أن يرى الأمير ثائر الرأس، شعثاً، مشعاناً، حافياً!

ولكن الدهشة تزول؛ إذا عِلِمْنا أن هذا من أحوال المسلم، فهو يحتفي وينتعل، ويمتشط ويدع ذلك، إنه يشعر بقوَّة الشخصية والثقة، يُحسُّ بأنَّ هذه المظهريات لا تتحكَّم به أو تأسِر شخصيَّته، بل إنّه هو الذي يحكمها ويأسرها، أما الموازين المعاصرة؛ فقد جعلت هذه الأشياء أساساً في الحكم على شخصيّة الإنسان وقيمته، ويا لها من مقاييس!

ماذا لو خرج العلامة حافياً بين الناس؟ أينقص عِلمه؟! أم يقلُّ قدرُه؟!

ماذا لو انتعل الغبيُّ الجاهل أحسن النّعال؟ أيصبح عالماً فقيهاً نابغة؟!

ماذا لو لبس المعتوه أحسن الثياب وأجملها؟ أيغدو ذا لب فهيم؟!

لقد اكتفى الناس الآن بارتداء الملابس الحسنة، والامتشاطات الساحرة، ووضع العطور المنعشة، ثمّ إنّهم إذا خلوا بمحارم الله ـ تعالى ـ انتهكوها.

هؤلاء عندنا أفاضل الناس! ما أظرفهم وما أحسنهم! ولربّما لم يكن في قلب أحدهم مثقال ذرَّة من خردل من إيمان!!

---

(١) المراد هنا: كثرة التدهُّن والترجُّل والتنعُّم، بدليل الرواية السابقة، وأصل المعنى: التوسع في المشرب والمطعم ولين العيش. وانظر «النهاية».

(٢) أخرجه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وانظر «الصحيحة» (٥٠٢).
وتابع يزيد بن هارون حمادُ بن سلمة عند البيهقي في «الشعب»، وروايته عنه قبل الاختلاط، فصحّ الحديث. والحمد لله.
وقد أودع هذه الفائدة شيخُنا ـ رحمه الله تعالى ـ في الطبعة الجديدة.

لا بُدَّ من الثقة بالنفس:

لا بدَّ من الثِّقة بالنفس، لا بدَّ من بناء الشخصية الإسلامية بناءً شامخاً، على أساس ثابت قويٍّ، لا تُزعزِعه العواصف، ولا تخدشه الصواعق.

وإن كان أهل الضلالة والعمى قد وثقوا بأنفسهم، ولم يستحيوا مما ينبغي الاستحياء منه؛ فما ظنُّنا!

إنَّهم لم يستحيوا من التشبُّه بالنساء، ولا من المجاهرة بالزنى، ولا من إقرار اللواط في قراراتهم وقوانينهم، فأي قُبح أعظم من هذا؟! ألسنا أوْلى منهم بهذه الثِّقة ونحن على الحقِّ؟!

المراوحة في التنعُّم:

إنَّ اللباس الحسن والترجُّل والتطيُّب من الأمور المشروعة، ومن زينة الحياة الدُّنيا؛ متَّع الله بها عباده، على ألا تكون هي الأساس والأصل والميزان والمقياس؛ في الحكم على الناس.

ولنحذر أن تقودنا هذه المباحات؛ إلى احتقار من لم ينعم بها، أو ابتُلي بحرمانها، أو ترك شيئاً منها تواضعاً لله ـ سبحانه ـ.

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ قال: «**لا يَدْخُل الجنّة من كان في قلبه مثقال ذرَّةٍ من كِبْر**».

قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة.

قال: «**إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال، الكِبْر: بَطَر الحق**[١]**، وغَمْط الناس**[٢]»[٣].

---

(١) أي: دفع الحقّ.

(٢) احتقارهم.

(٣) أخرجه مسلم: ٩١.

لقد خشي الصحابة ـ لشفافية قلوبهم ـ أن يكون التجمُّل في اللباس من الكِبْر، فبيَّن رسول الله ﷺ أن هذا من الجمال الذي يحبُّه الله ـ تعالى ـ ثمّ بيّن لهم الكِبْر وحقيقته، وعرَّفه لهم ليجتنبوه، فالكِبْر هو ردُّ الحق ودفعه، واحتقار الناس وازدراؤهم.

إنّه لَيُخشى على من داوم على الترجُّل والامتشاط والتنعُّم وارتداء الملابس المكويَّة والأنيقة؛ أن يحتقر ويسخر ممّن ترك شيئاً منها.

فمن المناظر المرفوضة في مجتمعنا، أن يُرى المرء بثوب غير مكويٍّ، أو شعر غير مُرَجَّل، بل إنَّ مثل هذه الأمور تثير عندهم السخرية والاستهزاء... وهذا هو الكِبْر الذي حذّر منه رسول الله ﷺ.

لقد بيّن لنا رسول الله ﷺ ثواب من يترك اللباس تواضعاً لله ـ تعالى ـ مع القدرة عليه؛ في الحديث الذي يرويه عنه معاذ بن أنس ـ رضي الله عنه ـ إذ يقول فيه ﷺ: «**من ترك اللباس تواضعاً لله وهو يقدر عليه؛ دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق، حتى يخيَّرَ من أيّ حُلَل الإيمان**[1] **شاء يَلبَسُها**»[2].

فالمراوحة بين التنعُّم والترك في اللباس ونحوه، تجمع بين فضيلتين: الإحساس بنعم الله ـ سبحانه ـ ووجوب شُكْره، وتحقيق التواضع وعدم السخرية من الناس.

وصية رسول الله ﷺ بالمساكين:

بل إنّ لقاء المساكين والفقراء، من الوسائل الطيبة، التي تحقّق التواضع، وتحطّم موازين المادّية الزائفة والمظهرية الجوفاء، ونحن نرى هذا في وصية رسول الله ﷺ لأبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ إذ يقول: «أوصاني

(١) أي: من أيّ حُلل أهل الإيمان، كما قال العلماء.

(٢) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٠١٧)، وأحمد والحاكم وغيرهم، وحسنه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٧١٨).

خليلي بسبع: بحُبِّ المساكين، وأن أدنو منهم، وأن أنظر إلى من هو أسفل مني، ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأن أصِلَ رَحمي وإنْ جفاني، وإن أُكْثِرَ من قول: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، وأن أتكلّم بمرٍّ الحق، وأن لا تأخذني بالله لومة لائم، وأن لا أسأل الناس شيئاً»[١].

لقد أوصى الرسول ﷺ بسبع، تحتاج كلُّها إلى مجاهدة نفسٍ عظيمة، فقد أوصى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالقناعة والزهد في الدُّنيا، وقول الحق والشجاعة وعدم المداهنة والمجاملة، وكفِّ الطلب وعدم السؤال، وصلة الرحم وإن بادر بالجفاء والقطيعة، والإكثار من قول: لا حول ولا قوّة إلا بالله، وعدم الحسد.

بيْد أن النّبيّ ﷺ بدأ وصيته بحبِّ المساكين، والدنوّ منهم، وهو ليس بالأمر السهل؛ لأنّ تنفيذه وإمضاءه يحتاج إلى تطهير القلوب من الكِبْر والعُجب؛ كما أنّه يتطلَّب كثرة الزيارات، وإنّه ليسيرٌ على من يسّره الله له، عسيرٌ لما سوى ذلك؛ فإنَّ زيارة المساكين لا ترتبط بمصلحة ماديّة، أو نفعٍ عاجل.

فلا تنسَ ـ يرحمك الله ـ أن تدعوَ بدعاء النّبيّ ﷺ: **«اللّهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين»**[٢].

۞ الضعفاء والفقراء هم أهل الجنّة:

لقد عظمت المظاهر في القلوب، وضعف إقبال القلوب على الله ـ سبحانه وتعالى ـ فها نحنُ نعظِّم المادة والشهوات وأصحاب الأموال والجاه تعظيماً شديداً؛ ربَّما فاق حبّنا لأصحاب التديُّن، وإنّك ترى حبَّ من يحمل لقب (الدكتور) يفوق حبَّ من لا يحمله، وإن تقدّم غنيٌّ وفقير للزَّواج؛ قُدِّم

---

(١) أخرجه الطبراني، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٨١١)، وانظر «الصحيحة» (٢١٦٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه وغيره، وانظر «الصحيحة» (٣٠٨)، وللشيخ علي حسن عبدالحميد ـ حفظه الله ـ جزء خاصٌّ في تخريجه.

الغني وإن قلَّ التزامه بدينه، وأُغفلَ الفقير الذي يُرضى عن دينه وخُلُقه.

إن شريعة الله ـ سبحانه ـ تعتني بتربية النفوس وتزكيتها عناية عظيمة، وإنَّنا للننسى أو نتناسى أو نجهل أو نتجاهل قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[1].

إنها دعوة لجهاد النفس، دعوةٌ للصبر ورباط القلب مع الصالحين والأتقياء، ولو كانوا فقراء ضعفاء مساكين، ذلك لأنهم يريدون وجهه ـ سبحانه ـ وإنَّ الله ـ تعالى ـ ينهى عن تجاوز العيون والأنظار إلى سواهم؛ ابتغاء زينة الحياة الدُّنيا.

حقّاً؛ أن الأمر يحتاج إلى صبر، ويفتقر إلى ثبات.

وهل غاب عن قلوبنا أن هؤلاء الضعفاء الفقراء هم أهل الجنّة؟!

ذلك ما يرويه حارثة بن وهب ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**ألا أُخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف[2] مُتضعَّف[3] لو أقسم على الله لأبرّه، ألا أخبركم بأهل النار؟ كلُّ عُتُلٍّ[4] جوّاظ[5] مُستكبر**»[6].

هذا خير من ملء الأرض من مِثل هذا:

وعن سهل بن سعد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال: مرَّ رجل

---

(١) الكهف: ٢٨.

(٢) ضعيف: ذو نفس ضعيفة؛ تواضعاً وضعف حال في دنياه.

(٣) أي: يستضعفه الناس ويحتقرونه.

(٤) جاء في «اللسان»: «العُتُل: الشديد الجافي والفظّ الغليظ من الناس، والعتلّ: الشديد، وقيل: الأكول المَنوع، وقيل: الشديد من الرجال والدواب».

(٥) هو الجَموع المَنوع، وقيل: الضخم المختال، وقيل غير ذلك.

(٦) أخرجه البخاري: ٤٩١٨، ومسلم: ٢٨٥٣.

على رسول الله ﷺ، فقال لرجل عنده جالس: «**ما رأيك في هذا؟**» فقال: رجل من أشرف الناس، هذا ـ والله ـ حريٌّ إن خطب أن يُنكح، وإنْ شَفع أن يُشفَّع. قال: فسكت رسول الله ﷺ» ثمّ مرَّ رجل، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما رأيك في هذا؟**» فقال: يا رسول الله! هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حريٌّ إن خطب أن لا يُنكَح، وإنْ شفع أن لا يُشفَّع، وإن قال أن لا يُسمع لقوله. فقال رسول الله ﷺ: «**هذا خير من ملء الأرض مِن مِثل هذا**»[١].

هذا هو ميزان المظهرية في كل عصر ومصر، يُفْتح الباب على مصراعيه لكل غنيٍّ ثريٍّ، أو ذي سلطان، أو جاه، أو منصب[٢]؛ للنكاح، والاستماع، والاحترام، وتوصد الأبواب أمام الفقراء؛ قولاً، ونكاحاً، واستماعاً، واحتراماً.

يا لسحر المال واللباس والمظهرية! كم قَتَل وقَتَل! ولكنّه لم يدفع الدِّية ولم يؤخذ منه الثأر.

عجباً عجباً! لماذا يُقدَّم هؤلاء في القول والنّكاح والتصدُّر؟ آلمال قدَّمهم؟ فلا داعي إذا أن نعلِّم أبناءنا ونربيهم، حسبُنا أن نصبَّ عليهم المال، وندلَّهم على طرق اكتسابه! أم اللباس صدَّرهم؟ فلا حاجة إذن أن نسلك أساليب الفضيلة والأخلاق، ولنستزد من مصانع اللباس والأقمشة!

لقد أراد رسول الله ﷺ أن يُصحِّح الموازين، فبيَّن أنَّ ذلك الرجل، الذي لا يُلتَفَتُ إليه، ولا يُسمع لقوله؛ خيرٌ من ملء الأرض من مثل ذلك الذي لفت الأنظار، وجذب الأبصار.

إنّ الدَّمار ليحيط بالأمّة، التي لا تعرف لمن تسمع وتُنْصِت، ولا تعلم

---

(١) أخرجه البخاري: ٦٤٤٧.

(٢) لا يعني هذا أنني أغفل دور الأغنياء الشاكرين الأتقياء، فهؤلاء يقدمون للمجتمع الإسلامي ما يعجز عن تقديمه الفقراء المخلصون، وسيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ تحت عنوان: (أغنياء لم تخدعهم المظهرية).

من تُزوِّج ممَّن تأبى، ولا تُنزل الرجال منازلهم.

إن الهلاك ليحيق بالمجتمع، الذي يستمع لمن لا يُحسن القول، ويُعرض عن أهله وأصحابه.

... «هذا خيرٌ من ملء الأرض من مثل هذا»...

كلمات النبوّة في حروف من نور، تُبَدِّد الظلمات، وتحطِّم الموازين الفاسدة.

وهكذا؛ لو أنّ الله ـ سبحانه ـ قدَّر أن تُملأ الأرض، من مثل هذا الغني المحبوب المرغوب المحسود؛ لما كان ذلك يعدل ذلك الفقير الضعيف.

فلتردِّد قلوبنا بكلِّ ثقة واطمئنان قول رسول الله ﷺ: «**إنّ الله لا ينظُرُ إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظُرُ إلى قلوبكم وأعمالكم**»[١].

فالعبرة كل العبرة بصلاح القلوب والأعمال، لا بالصور والأموال، ولا بالمظاهر والشكليّات، فالله ـ تعالى ـ هو الذي خَلَق صُورنا، وهو ـ سبحانه ـ الذي رزقنا، ولكنّه ـ عزّ وجلّ ـ لا ينظر إلى هذا ولا إلى ذاك.

فما بالُنا ننظُرُ كل النظر إلى الصور والأموال؟! ما بال الأعين قد عميت عن العمل والعطاء؟!

❀ نصر الأمة مرتبط بالضعفاء:

إنها دروس وعِبَرٌ، نتعلَّمها من هذا الحديث... إنها قصَّة تتكرَّر...

كم نعظِّم ونبجِّل من مثل ذلك الرجل الشريف، ونستصغر من مثل ذلك الضعيف!

كم نُنْكِحُ بناتنا ذوي الشهادات، ونترك أصحاب الصلوات!

---

(١) أخرجه مسلم: ٢٥٦٤.

كم نزوِّجهُنَّ من أصحاب المناصب والسلطان، ونذر رجال التقوى والإيمان!

كم نقبل شفاعة أصحاب الأموال، ونرفض شفاعة الفقراء.

أفلا نتذكَّر قول رسول الله ﷺ: «**إنّما ينصُرُ الله هذه الأمّة بضعيفها؛ بدعوتهم، وصلاتهم، وإخلاصهم**»[1]؟.

نعم؛ إنَّ نصر الأمة مرتبط بالضعفاء والمساكين؛ بدعوتهم وصلواتهم، وإخلاصهم. وماذا ـ بربِّكم ـ يقابل النّصر إلا الهزيمة؟

جديرٌ بنا أن نزوِّج بناتنا لهؤلاء، وأولى بنا أن نسمع كلامهم، ونقبل شفاعتهم.

سبحان ربّنا كيف تبدّلت الموازين غير الموازين، والمقاييس غير المقاييس؟!

لقد غدا صبُّ الاهتمام على ذوي السلطان والجاه والمال والمناصب؛ طريقنا القويم إلى النصر! إنه السبيل إلى قيام المجتمع الإسلامي ـ زعموا ـ! ولا نبالي بالفقراء والضعفاء والمساكين، ومنّا من يسوّغ هذا، فيقول: هؤلاء قد اطمأننا على حُسن إسلامهم، فنريد الاهتمام بمن لم يحسن إسلامهم!!

❁ ترى الرجل النحيف فتزدريه:

وفي هذا المقام؛ يسرُّني أن أُورد قصيدة الشاعر عباس بن مرداس، إذ يقول:

ترى الرَّجُل النَّحيف فتزدريهِ ... وفي أثوابه أسَدٌ مزيرُ[2]
ويُعجِبُك الطَّرِيرُ[3] فتبتليه ... فيُخلِف ظنَّك الرَّجل الطَّرِيرُ

---

(١) أخرجه النسائي «صحيح سنن النسائي» (٢٩٧٨) وغيره، وهو في البخاري برقم: (٢٨٩٦) دون ذكر الإخلاص، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٥).

(٢) العاقل الحازم.

(٣) ذو المنظر والرُّواء والهيئة الحسنة.

فما عِظم الرِّجال لهم بِفَخْر ... ولكن فخرُهُم كرمٌ وخيرُ
بُغاث[١] الطَّيْرِ أكثَرُها فِرَاخاً ... وأُمُّ الصَّقْرِ مِقْلاتٌ[٢] نزورُ[٣]
ضِعاف الطّير أطولُها جُسوماً ... ولَمْ تَطُلِ البُزارةُ ولا الصُّقُورُ
لقد عَظُم البعيرُ بغير لُبٍّ ... فلم يَسْتغْنِ بالعِظم البَعيْرُ
يُصرِّفهُ الصَّغِيْرُ بكُلِّ وَجْهٍ ... ويَحْبِسُهُ على الخسْفِ[٤] الجريرُ[٥]
وتضربه الوليدة بالهراوى[٦] ... فلا غِيَرٌ لَدَيْهِ ولا نكيرُ
فإنْ أكُ في شِراركم قليلاً ... فإنّي في خياركم كثيرُ

رضى الله ـ تعالى ـ لرضى المتَّقين وغضبه لغضبهم:

سبحان الله! كيف غفِلنا عن قوله ﷺ: **«رُبَّ أشعثَ أغبرَ، مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرّه»**[٧]؟!

كم قَرُب هذا من الله ـ تعالى ـ مع أنّه بعيد من النّاس، مدفوع بالأبواب.

عن عائذ بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ: «أنَّ أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال ـ رضي الله عنهم ـ في نفر، فقالوا: والله ما أخَذَت سيوف الله من عُنُق عدّو الله مأخذها[٨]. قال: فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيِّدهم؟ فأتى النّبيّ ﷺ، فأخبَره، فقال: **«يا أبا بكر! لعلّك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم؛ لقد أغضبت ربّك»**.

---

(١) ما لا يصيد منه.
(٢) التي لا يعيش لها ولد، أو التي تضع واحداً ثمّ لا تحمل.
(٣) من النَّزر، وهو القليل.
(٤) الذل.
(٥) الحبل.
(٦) جمع هراوة: وهي العصا.
(٧) أخرجه مسلم: ٢٦٢٢.
(٨) وكان كافراً في الهدنة، بعد صلح الحديبية.



وأتاهم أبو بكر، فقال: «يا إخوتاه! أغضبتُكم؟ قالوا: لا؛ يغفر الله لك يا أُخيَّ»[(١)].

لقد عظَّمَ الله من شأن عباده المؤمنين المتّقين، إنه ليرضى ـ سبحانه ـ لرضاهم، ويغضب لغضبهم، ذلك لأنهم يمشون على نور من الله ـ تعالى ـ وهؤلاء ربَّما ارتدوا الملابس الزهيدة، إن غابوا لم يُسأل عنهم، وإن حضروا لم يُؤبه لحضورهم.

تأمل ـ رحمك الله ـ كيف كان يوجِّه رسول الله ﷺ الأمّة؛ من خلال خليفة المسلمين الراشد الأول، فيقول له: «**يا أبا بكر! لعلك أغضبتهم**»، لقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ حريصاً ألا يغضب أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ وإنَّ غضبهم ليغضبه ويحزنه ويؤلمه.

وهكذا ينبغي لكلِ مسلم؛ أن يخشى غضب إخوانه، ويسعى لكسب رضاهم وودِّهم، في ظلِّ مرضاة الله ـ عزّ وجلّ ـ.

إنَّه لا سبيل لمرضاة الله ـ تعالى ـ بتجاهل المؤمنين الطائعين.

إنَّ ادّعاء حبِّ الله ـ تعالى ـ والحرص على رضاه، دعاوى لا تُصدَّق إلا باتِّباع الكتاب والسنَّة، وحبِّ الطائعين المؤمنين.

فاحذر إذن أن تُغِضبَ إخوانك المتّقين، فيمسّك غضب الله ـ تعالى ـ.

زِنْ قولك وفعلك وسلوكك معهم، وحذارِ حذارِ من الزيغ والضلال.

۞ تاملات في قوله ـ تعالى ـ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١﴾:

قال الله ـ تعالى ـ:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧ وَأَمَّا مَن

---

(١) أخرجه مسلم: ٢٥٠٤.

جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾(١).

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «**أُنزل** ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾﴾ في ابن أمِّ مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ، فجعل يقول: يا رسول الله! أرشِدْني. وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يعرِض عنه ويُقْبِل على الآخر، ويقول: «**أترى بما أقول بأساً؟**» فيقول: لا؛ ففي هذا أُنزِل»(٢).

لعلَّ رسول الله ﷺ حرص على إسلام رجلٍ من عظماء المشركين؛ ليقوى الدين به، فينتشر النور ويعمّ الهدى، ويجيء ابن أمّ مكتوم الأعمى ـ رضي الله عنه ـ يبتغي الإرشاد من رسول الله ﷺ، ولكنَّ رسول الله ﷺ أعرض عنه، وأقبل على الآخر.

غير أن الأمر لم يمض على حاله، فإنّ الله ـ عزّ وجل ـ أنزلَ من فوق سبع سموات في ذلك قرآناً؛ ليوجِّه عبده ورسوله ﷺ... نزَّله بحقِّ رجل أعمى.

أيُّ دين هذا الذي يحبُّ المساكين والفقراء والضعفاء؛ يرفع درجاتهم في الدُّنيا قبل الآخرة؟

إنّه الدين العظيم، الذي يقدّم ذلك المسكين الأعمى على المبصر العظيم.

ولم يمض الأمر سرّاً، فيحلّ الابتسام مكان العبوس، وينتهي الأمر، بل تتنزّل على رسول الله ﷺ في ذلك آيات عظيمة، يتلوها المسلمون في كل زمان، وهم في هذا يردّدون قصة ذلك الأعمى ـ رضي الله عنه ـ وما فيها من فوائد وعِظات، ودروسٍ وعِبَر.

---

(١) عبس: ١ ـ ١٢.
(٢) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٥١) وغيره.

أغنياء لم تخدعهم المظهرية:

وفي هذا المقام لا بُدَّ من ذكر دور إخواننا الأغنياء ممّن داسوا على المظهريَّات الجوفاء؛ بأقدام راسخة ثابتة، ذلك لما تضمُّه قلوبهم من يقينٍ بالله - تعالى - وإيمان به - سبحانه -.

إنهم كما قال الله - تعالى - فيهم: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾[(١)].

هؤلاء قدّموا من أموالهم للفقراء والمساكين، وفي مجالات الدعوة ونشر العلم، لم تمنعهم الدنيا وزينتها، ولا المظاهر وبريقها، من احترام الفقراء والمساكين والبائسين.

هؤلاء موجودون - وإنْ عُدُّوا أقلّ من القليل - في كل عصر ومصر بإذن الله - تعالى -.

وإنّك لتحسدهم[(٢)] على ما هم فيه من خير؛ كما قال ﷺ عنهم: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء[(٣)] الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً، فهو يُنفقه آناء الليل وآناء النهار**»[(٤)].

إنهم يسابقون بالأموال والأعمال، لقد ذهبوا بالدرجات العلى والنعيم المقيم؛ كما في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: جاء الفقراء إلى النّبيّ ﷺ، فقالوا: ذهب أهل الدُّثور[(٥)] من الأموال بالدرجات العلى والنعيم المقيم: يصلُّون كما نصلِّي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضلٌ من الأموال يحجُّون بها ويعتمرون، ويجاهدون، ويتصدَّقون.

---

(١) النور: ٣٧.
(٢) المراد بالحسد هنا الغبطة، وهو تمنِّي المثل لا تمنِّي زوال النعمة.
(٣) أي: ساعات.
(٤) أخرجه البخاري: ٧٥٢٩، ومسلم: ٨١٥.
(٥) جمع دَثْر: وهو المال الكثير.

قال: «**ألا أحدِّثُكم بأمرٍ إنْ أخذتُم به أدركْتُم من سبقَكم، ولم يدرِكْكُم أحدٌ بعدَكم، وكنتم خير من أنتم بين ظهرانَيه؛ إلا من عمل مثله: تسبّحون وتحمَدون وتكبِّرون خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين**».

فاختلفنا بيننا، فقال بعضنا: نسبِّح ثلاثاً وثلاثين، ونحمد ثلاثاً وثلاثين، ونكبِّر أربعاً وثلاثين.

فرجعتُ إليه، فقال: «**تقول سبحان الله والحمد لله والله أكبر، حتى يكون منهنَّ كلهنّ ثلاث وثلاثون**»[1].

زاد مسلم في رواية: «فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلْنا ففعلوا مثله! فقال رسول الله ﷺ: «**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**».

وهكذا كانت لهم يد السَّبق في الأموال والأعمال.

رفض المظاهر الإسلامية وتقديس المظاهر الخاوية:

إنّنا نشهد تناقضات غريبة، سببها تعظيم المظاهر والماديّات، وإغفال النظرة الصائبة للشريعة الإسلامية.

فممّا يُشعل نار العجب في الصدور: أنَّ الإسلام حين يأمر بالاهتمام ببعض المظاهر؛ تجد من يدعو إلى التفلُّت من هذا بحجَّة الاهتمام بالباطن، وأنَّ المظهرية لا فائدة تُرجى من ورائها ـ زعموا ـ!

فإذا خاطبتهم عن اللحية ـ وهي مظهر من المظاهر ـ قالوا: ليست العِبْرة بالشَّعر، ولكنّها بالإيمان الذي يعمرُ القلوب!

وإذا قلت لهم: «**ما أسفل الكعبين من الإزار ففي النار**»[2]؛ قالوا: هذه قشور!

---

(١) أخرجه البخاري: ٨٤٣، ومسلم: ٥٩٥.

(٢) أخرجه البخاري: ٥٧٨٧ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

وإن دخل أحدهم مجلساً ولم يقم له بعضهم؛ اشتدَّ غيظُه، ونسي حبَّ القلوب، وطلب الاحترام الظاهر بالقيام!

وإن قيل لهم: مصافحة الأجنبية ومن يحل لهم زواجها حرام؛ قالوا: النفوس عفيفة ونقيّة!

وإن جاء الفقير الذي يُرضى عن دينه وخلقه للزَّواج من ابنتهم؛ صارت العبرة بالظاهر، واستغنوا عن نقاء الباطن، والمهم أن يكون ذا مال أو منصب أو جاه!

وإذا طُلب منهم رصُّ الصفوف وتسويتها؛ قالوا: هذه شكليات، ولكنهم عندما جاءهم من يخطب ابنتهم آمنوا بالشكليّات، عقَّدوا الأمور، وضاعفوا المهور، سوَّوا صفوفهم في حفلاتهم ومدارسهم، ومعاهدهم ومعسكراتهم، أما في المسجد فلا؛ لأنّه من الشكليات!

۞ خلاصة وإيضاح في المظهرية:

كيلا نخلط في هذا الأمر، لا بدَّ لنا أن نعلم أنَّ من المظاهر ما يجب فعله؛ كإعفاء اللحية، وستر العورة، وإقامة الصلاة... وهذه وردت فيها نصوص صريحة صحيحة، وليس لنا فيها مراوحة أو ترك.

ثمّ هناك مظهرية يراوح فيها المسلم بين التنعُّم والترك؛ لئلا تطغى على باطنه، وتصبح غايته وضالّته المنشودة؛ كترجيل الشعر، والتدهن، والتوسُّع في المشرب والمطعم.

ومظهرية أخرى أعلن الإسلام عليها الحرب، وهي أن نَزِن الناس بميزان المنصب والجاه واللباس والزينة والترف.

۞ الجمود على ظاهرية القانون وتاويل الآيات والأحاديث:

يا عُبَّاد المظهرية! إنكم تجمدون على ظاهريَّة القانون وحرفيَّتِه، فلا مفرَّ لكم من إمضائه وتنفيذه، على جميع الأحيان والأحوال.

كم لاقى الناس من صنوف العذاب في المعاملات والمراجعات من خلالكم! كم كانوا يقاسون ويعانون من جمودكم على ظاهرية القانون مع أنَّ في الأمر سعة لا تضرُّ بأحد من خلْق الله ـ تعالى ـ! ولكنَّكم تصرُّون على المظهرية والظاهر! أمّا آيات الله ـ تعالى ـ وأحاديث النبيّ ﷺ؛ فما أسرع ما تؤوّلونها! وما أشدَّ اجتهادكم في تعطيلها من خلال قولكم: «**الدين يسر**»، «للحديث فقه»! فاتقوا الله ـ سبحانه ـ في عباده؛ فإنكم عنهم ستُسألون.

ضعف الحياء من الله ـ تعالى ـ يؤدي إلى طلب الزينة:

إنَّ ضعف الحياء من الله ـ تعالى ـ أدّى بنا إلى طلب زينة الحياة الدنيا، فإن من استحيا من الله ـ تعالى ـ حقَّ الحياء؛ ترَك زينة الحياة الدنيا.

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**استحيوا من الله ـ تعالى ـ حقَّ الحياء، من استحيا من الله حق الحياء؛ فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة؛ ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل ذلك؛ فقد استحيا من الله حقّ الحياء**»[١].

إنَّ سعْي الناس الحثيث وراء زينة الدُّنيا؛ أنْساهم الآخرة، فقلَّ بذلك حياؤهم من الله ـ سبحانه ـ.

إنّه لا بُدّ لمن أراد الآخرة من ترك زينة الحياة الدُّنيا، وهو سبيلُ تحقيقِ الحياء الحقّ من الله ـ تعالى ـ هذا هو السبيل ولا سبيل سواه.

نظرات في مظهرية قارون:

ولنا في قصَّة قارون عِبرة وعظة، إذ يقول الله ـ تعالى ـ في كتابه العظيم: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ

(١) أخرجه أحمد والترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٠٠) وغيرهما.

وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾(١).

فقد خرج قارون على قومه في زينةٍ عظيمة، وتجمُّلٍ باهر ساحر؛ من مراكب وملابس، ممَّا دفع أهل الدنيا وأحبابها إلى التمنِّي والتشهِّي والتحسُّر على حِرمانهم؛ متمثِّلاً في قولهم: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾.

وحسب هؤلاء من الذِّم قول الله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾....

إنَّ حُبَّ الزِّينة، وتعلُّق القلب بها مرتبط بحب الدُّنيا، فعلى قدْر حبِّها تكون الزينة زيادةً ونقصاً، وبهذا نفهم قوله ﷺ: «**من أراد الآخرة؛ ترك زينة الحياة الدنيا**».

أمّا الذين أوتوا العلم؛ فلهم شأن غير هذا، فماذا كان قولهم؟... ﴿وَيۡلَكُمۡ﴾.

كلمة عظيمة خرجت من أفواه طيبة طاهرة، فيها من التهديد والوعيد والتعنيف ما فيها لأولئك المفتونين.

ثم ماذا؟ ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ﴾.

أي: جزاء الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة خيرٌ مما تشاهدون وتعاينون.

وهذه فائدة العلم، يُعلِّق القلب بالآخرة، ويُنقذه من زينة الدنيا الفانية.

إنَّ رؤية أولئك الزينة جعلتهم يتمنَّون مثلها، أمّا أهل العلم؛ فقد أقرَّت فطرتهم بجمال تلك الزينة، بيْد أنهم علموا أن ما في الآخرة خير مما رأوا،

---

(١) القصص: ٧٩ ـ ٨١.

فنجّاهم الله ـ تعالى ـ بعلمهم النافع، وقاموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولمَن هذا الثواب؟ لمن آمن وعمل صالحاً، وتوَّج أعماله بالصبر.

إنها دعوةٌ للإيمان والعمل الصالح والصبر، وهي تُفهِم أيضاً أن تمنِّي الزينة ينافي ذلك كلَّه.

ثمّ يقول ـ سبحانه ـ في حقِّ قارون: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾.

يُبيّن الله ـ تعالى ـ كيف كانت عاقبة قارون وزينته التي صدَّت عن سبيل الله كثيراً، فقد خسف الله ـ سبحانه ـ به وبداره الأرض، ولم يجدْ من ينصره أو ينفعه أو يُنقذه، وكانت عاقبته الخذلان والهلاك ـ عياذاً بالله تعالى ـ.

وهذه تذكِّرنا بسنّة الله في دول الدُّنيا؛ فإنّها تبدأ قويّة الشوكة، ثمّ إذا أخذت تغلو في الزينة والترف؛ كانت مطمع الطامعين، وموئل الغزاة المحتلّين، وكانت نهايتها بداية دولة أخرى؛ تبدأ بالجدّ والحزم والمثابرة، فتعمّر زمناً على هذا، ثمّ تتبع سابقتها في الزينة والترف واللهو، فتبدأ نهايتها لبداية دولة أخرى... وهكذا.

هذا في الدُّنيا، أمّا في الآخرة؛ فلا تسلْ عن العذاب والخزي والخُسران، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

ثمّ يقول ـ سبحانه ـ في حقِّ من تمنَّى مثل ما أوتي قارون: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ[1] ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾[2].

---

(١) قيل: معناها: «ويلك اعلم أن»، ولكن خفف فقيل: «وَيْك»» وقيل: معناها: «ويكأن»؛ أي: ألم تر أنّ؟ وقيل أيضاً: «وي كأنّ»، ففصلها وجعل حَرف «وي» للتعجب أو للتنبيه؛ و (كأنّ) بمعنى: «أظنُّ وأحسب» عن «تفسير ابن كثير».

(٢) القصص: ٨٢.

يُبيّن الله ـ سبحانه وتعالى ـ حال الذين تمنّوا مكان قارون؛ بعد أن عاينوا ما حلَّ به.

لقد علموا أن المال والزينة لا يدلان على رضى الله ـ سبحانه ـ عن صاحبهما، فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وهذه مأساة أهل الدُّنيا ومحبيها، يظنُّون أنَّ من أوتي الزينة؛ فقد حاز السعادة بحذافيرها، وأنَّ الله ـ تعالى ـ سيديم عليه العطاء والرضوان.

ثمّ ماذا كان قولهم؟ ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾.

فلولا لُطفُ الله ـ تعالى ـ لَخَسَف بنا كما خسف به، بسبب ما اجترَحْنا من خطيئة التمنِّي، وقد أنقَذَنا ـ سبحانه ـ بعدم إعطائنا مثل زينته، وعرَّفنا على حقيقة أمره، ونهاية حاله.

ثمّ كان ختام قولهم: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

أيقنوا أنّ تلك الزينة الخاوية لا تؤدِّي إلى الفلاح، لا في الدُّنيا ولا في الآخرة، كما أنها نابعة من الكفر، صادرة من الإلحاد، ذلك لأن دينَ الكفار دنياهم، ودنياهم دينهم، فلا هَمَّ لهم إلا الزينة والعلوُّ والمتعة والتلذُّذ على أيِّ وجه من الوجوه.

ثمّ يقول ـ سبحانه ـ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٨٣﴾[1].

إنَّ الدار الآخرة ونعيمها المقيم؛ من حظِّ من لا يريد علوّاً في الأرض ولا فساداً.

كم من الناس يريدون العلوَّ بالزينة والترف والإسراف؟ إنّهم يسعون للعلوِّ في زينة الطعام أو الشراب أو الركوب أو الملابس أو الحفلات، وإنَّ قارون كان ممّن يسعون للعلو في الزينة، حتى تمنَّى مكانه من تمنَّى.

***

(١) القصص: ٨٣.

نماذج من المظهريات

المظهرية في الأفراح:

لقد عظُمت الشَّكليات في أمور الأفراح، حتى إنها آذَت من يريد أن يُعِفَّ نفسه، وأغلقت سبيل الزواج على كثير من الشباب، وأقْصتْ تفكيرهم عن ذلك؛ لما فيه من التكاليف غير المستطاعة.

ويتمَّثل ذلك في المعجَّل، والمؤجّل، والأثاث المطلوب، وحفل الزّفاف، وبلَغَ الأمرُ غايته في التّباهي، حتى قالوا: إنّ مهْر ابنة فلان كذا وكذا.

وإن كان هنالك من بقيَّة خير في أُناس، لم تطمئن نفوسهم للتغالي في المهور، وطلبوا أقلَّ مما يطلب الناس، لكنّهم قالوا: قولوا أمام الناس: إنَّ مهر ابنتنا كذا وكذا.

ومن المؤلم المُبكي أن تكلّف الإنارة والإضاءة في الأفراح، في بعض البلاد، مبالغ طائلة، تُطعِم آلاف الجوعى، فلا حول ولا قوة إلا بالله - تعالى -.

وأمّا عن الطعام الذي يكبُّ فلا تسأل؛ كأكوام الأرز، واللحوم، وأصناف الشراب، وغير ذلك.

وابتُلِيَ بهذا الكثير الكثير، ممّن عُدُّوا من الملتزمين، وتعذَّروا بأعذار واهية؛ منها: أنّهم لا يستطيعون حيلةً مع أهليهم ومجتمعهم، ففشا المنكر ولم يُنكَر.

وربّما استدان المرء مالاً لهذا، ولعلّه في غير هذه المناسبة لا يجرؤ أن يدعو إلى الطعام شخصاً واحداً؛ لصعوبة حاله، وقلّة ماله.

فكيف به والمجتمع يريد أن يفرض عليه دعوة العشرات أو المئات ممّن لا همَّ لهم إلا البحث عن الشهوات ولو على حساب الناس؟

كيف به وهو ينظر إلى أكوام الطَّعام تُرمى وقلبه يغلي حسرة على ما رَكبه مِن دَيْن! كيف به وفكره يتقلَّى بالهموم، وهو يسأل نفسه: كيف ومتى أسد هذا الدَّين؟

فاتَّقوا الله أيها المسلمون! فكم من أفواه تُسدُّ جوعتها بالأطعمة المهدورة؟

وكم من حاجات تُقضى بهذه الأموال المسفوكة؟

المظهرية في المآتم[1]:

فإذا أصاب أحدهم الموت؛ تضاعفت المصائب، وتعاظمت المتاعب، وتنازع الناس لدعوة أهل الميّت مع جموع كثيرة كثيرة؛ ليسجّل ديناً في رقاب الفقراء، فتُصنع كمّيّات هائلة من الطعام، وربّما تقصّد بعض صغار العقول، شراء اللحوم المجمّدة المستوردة؛ المحرَّمة أو المشبوهة منها ـ نظراً لانخفاض ثمنها ـ ثمّ شراء الرؤوس لتصديرها فوق الطعام حتى تُحْسب ذبائح!

ثمّ يُؤكل ما يُؤكل، ويُلقى ما يُلقى، غير مأسوف عليه؛ إلا من تكلّف عليه من الفقراء، أو استدان إلى أجل غير مسمّى!

وهل تنحصر الدّعوة للطّعام على أهل الميت فحسب؟ لا، ولكن معهم أعداد كبيرة.

وتنقلب دار أهل الميّت في بعض البلاد الإسلامية إلى فندق ومطعم، كما يستنفر ذوو الميت؛ لخدمة الناس وتأمين طلباتهم وقضاء حاجاتهم.

---

(١) هناك رسالة قيمة نافعة بعنوان: «منكرات المآتم والموالد»، فارجع إليها إن شئت، وهي رسالة أصدرتها وزارة الأوقاف المصرية، بقلم طائفة من علماء الأزهر، حقّقها وقدَّم لها وعلّق عليها الشيخ محمود مهدي استانبولي ـ رحمه الله تعالى ـ.

فأين ذهبنا بحديث رسول الله ﷺ: **«اصنعوا لآل جعفر طعاماً؛ فإنّه قد أتاهم ما يَشْغَلُهم»**[(١)]؟!

ولقد صدق من قال:

ثلاثة تَشْقى بهنَّ الدار ... العُرسُ والمأْتَمُ ثمَّ الزَّارُ[(٢)]

وهناك مظهريات قبل الوفاة وبعدها، وعند غَسْل الميت، وعند التكفين والخروج بالجنازة، وعند الدفن والتعزية، وزيارة القبور[(٣)]، وأقتصر من مظهريات المآتم الكثيرة على كلماتٍ تتعلّق بالتعزية[(٤)]:

وذلك في أمرين:

أولاً: عند القبور: وهذا مما يُبكي القلوب ويُدْمِيها؛ فأنت ترى أبناء المتوفّى وأحبابه؛ يتركون فقيدهم الغالي في أشد حاجته إليهم، ليتسأنس بهم وينتفع بدعائهم؛ تراهم يتركونه ليصطفّوا لاستقبال المُعزّين!

ثانياً: تخصيص مكان للتعزية والاجتماع فيه:

وليت شعري! ما الذي يفعله المجتمعون للعزاء؟! تدخين وكلام في أمور الدُّنيا، وقلَّما تسمع ـ مع الأسف ـ كلمة نافعة تقرِّب إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ أو تذكِّر به ـ سبحانه ـ.

---

(١) أخرجه أحمد، وأبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٢٦٨٦)، والترمذي «صحيح سنن الترمذي» (٧٩٦)، وانظر «أحكام الجنائز» (ص٢١١).

(٢) حفلة راقصة تُقام لطرد الأرواح الخبيثة التي تمسُّ بعض الأجسام! وأشير في «المعجم الوسيط» إلى أنها كلمة عاميَّة.

(٣) وقد فصّل شيخنا ـ رحمه الله ـ القول فيها في كتابه القيّم «أحكام الجنائز» تحت عنوان (بدع الجنائز).

(٤) عن جرير بن عبدالله البَجلي ـ رضي الله عنه ـ قال: «كنا نرى الاجتماع إلى أهل الميت وصنيعة الطعام بعد دفنه من النياحة». أخرجه أحمد وابن ماجه، وصححه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «أحكام الجنائز» (ص٢١٠).

إنه لقاء كأيِّ لقاء؛ أسعار الفاكهة، أو الخضار، أو الغلاء، أو أمور التجارة، أو البيع أو الشراء.

وغالباً ما يدور هذا ـ وأعظم منه ـ وأشرطة تسجيل القرآن تعلو بالتلاوة، غير مبالين أو مكترثين.

وإذا جئت تنكر عليهم مبدأ الاجتماع للتعزية؛ اشمأزَّت قلوب الذين لا يحبُّون السنة!

ولا أدري ما الذي يستفيده المصاب من حضور هؤلاء، وما الذي يأتيه منهم إلا التعب والنصب، أفلا يكفيه ما يشغله؟!

المظهرية في الزيارات والدّعوات:

ومن مظاهر الاستقبال واللقاء، والانصراف والوداع، تقبيل الرجال بعضهم البعض، وكذا النساء، وتراهم يفعلون هذا وقلوبهم قد مُلئت جفاء[1]، وقد غاب عن معرفتهم أو قلوبهم؛ نهي رسول الله ﷺ عن ذلك؛ كما في حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: «قال رجل: يا رسول الله! الرجل منَّا يلقى أخاه أو صديقه؛ أينحني له؟ قال: «لا...» قال: فيأخذ بيده ويصافحه؟ قال: «نعم»[2].

ليت شعري! هل يريد هؤلاء أن يُحقّقوا المحبَّة والألفة بمخالفة هدي رسول الله ﷺ! وأنَّى لهم ذلك!

فها نحن نرى البغضاء والكراهية والحسد والحقد تدبُّ في نفوس هؤلاء؛ إنهم يريدون أن يُطمئِنوا أنفسهم بأداء الواجب نحو أصحابهم وأقاربهم بالتقبيل والعناق؛ متعامين عن السبيل القويم في أداء الواجب؛

(١) لا أقول هذا رجْماً بالغيب، ولكنني أقوله ممَّا أراه من الأثرة والبخل وعدم إعانة المحتاجين من أقاربهم وإخوانهم، أضف إلى ذلك ما يبدو منهم من غيبة وقدح في الظهور لمن يعانقونه بالصُّدور.

(٢) أخرجه الترمذي، وابن ماجه وغيرهما، وخرّجه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (١٦٠).

بالصلة، والتزاور، والعفو، والصفح، والإيثار، والتناصح، وبذل المال.

وفي الزيارة؛ أوجب المجتمع الهدية على الزائر، حتى إن بعض الفقراء، حُرموا زيارة أقاربهم؛ تحرُّجاً من هذا الأمر.

وتتمثل مظهريَّة الدعوات؛ في تعدُّد أصناف الطعام وأشكاله، حتى كأنه أصبح من العيب الاقتصار على النّوع الواحد منه، وطغى الإسراف على هذا الأمر، وفشا هذا الحال، حتى في أهل المساجد والدعاة، ومن هم في مقام القدوة، وأُلقي في أماكن القمامة كميات وكميات من الطعام، تبكيها أفواهٌ محرومة وبطون خاوية.

ولما كان أمر الدعوة للطعام كما قلتُ؛ لم يتجرأ الكثير الكثير على دعوة إخوانهم وأحبابهم؛ لما يلحقهم من تكاليف مادية، أضف إليها معاناة الزوجة من إعداد هذه الأصناف، وما يتبعه من مشقَّة في تنظيف الصحون والأواني الكثيرة.

وقد يتردّد عدد من الكرماء اليوم في دعوة من يدعوهم، فكيف بمن دونهم؟ ذلك أمر لا يرِد في قاموسهم أبداً! إلا لمناسبة فرضَها عليهم المجتمع، يخشون فيها الافتضاح، أو أن يقال عنهم: بخلاء!

لعلّك تستطيع أن تعدَّ الدّعوات التي تُدعى إليها في العام، بل وربَّما في العمر.

كيف هذا ورسول الله ﷺ يقول: «**خِياركم من أطعم الطعام**»[1]؟!

المظهرية في الدوائر والمؤسسات والشركات:

ومن المظهريات التي انتشرت انتشار النّار في الهشيم؛ مظهريات الدوائر والمؤسسات والشركات في أقطار الأرض، فترى الجمود الشديد على

(١) أخرجه أحمد، وابن سعد، والحاكم وغيرهم، وهو قويّ بعدد من الطُّرُق ذكرها شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٤٤).

حرفية القانون[1] دون تفهُّم أو تبصُّر، هؤلاء المتشدِّدون أنفسهم يؤوِّلون ـ على هواهم ـ نصوص الشريعة، ويحاربون الجمود على النص، ويقاتلون ظاهرية الأدلَّة، ويقولون دائماً: **«إنَّ مراد الشريعة التيسير»!**

المظهرية في التجارة:

واستفحلت المظهرية في التجارة، فرفعت زركشة بعض الأشياء الأسعار، وراجت بعض الأصناف في السوق، فاستغلَّ بعضهم ترويج بضاعته؛ بجعل المظهر الخارجي لها شبيهاً لتلك الأصناف، بحيث يُشكِل على المشتري التمييز بين الصنفين، ومن قدِر على ذلك؛ فقد وقع في نفسه أن البضاعتين سواء في الجودة والحُسن.

وهناك صنف ممّن لا خلاق لهم، نظروا في الكتب ـ ولا سيما الإسلامية منها ـ نظرة تجارية، فقاموا بتغييرات طفيفة، وغيَّروا العنوان أو الغلاف، وكتبوا أسماءهم عليها[2].

ومثلهم بعض الناشرين، قاموا باختيار العنوان الجذّاب والغلاف البرّاق، ولو خلا الكتاب من العلم والفائدة، وربما ادّعوا ـ كذباً وزوراً ـ أنها من تحقيق بعض المشاهير من المؤلفين أو المحققين.

وكثرت المظهريات في تجارة اللحوم، ولمّا رأى تجّارها تحرُّج عددٍ من الناس؛ مِنْ أكل ما لم يذبح الذبح الشرعي منها، لجؤوا إلى طريقة خبيثة، وهي استخدام عبارة: **«لحم حلال»**، أو «ذبح على الطريقة الشرعية».

---

(١) مضت إشارة لطيفة بهذا بعنوان: «الجمود على ظاهرية القانون، وتأويل الآيات والأحاديث».

(٢) ومن ذلك الصنف شخصٌ يُدعى علي الطهطاوي، من مصر، قام بسرقة كتابي «القبر عذابه ونعيمه»، وكتَب عليه اسمه، وكان في الطبعة الأولى قليل الخبرة بالمظاهر والشكليات، ولكنّه أجاد بعد الطبعة الأولى، فسمّى الكتاب: **«أهوال القبور وما بعد الموت»**، وسرق فيه كتابي، وأضاف له إضافات لا إخالها إلا مسروقة من كتب أخرى، والله أعلم.

وحكى لي أحد الأصحاب عن وصول سيارة كبيرة محمّلة باللحوم إلى بلد إسلامي، فأعيدت السيارة إلى البلد المصدِّر، حرصاً على استيراد اللحوم المشروعة، فلمّا أنْ بلغَ ذلك التاجر الماكر قال: «لقد فاتنا أن نتصرف»!فوضع الملصقات على نفس البضاعة، وكتب عليها: «ذُبحت على الطريقة الإسلامية»! ثمّ أُدخلت اللحوم نفسها إلى تلك البلاد.

وأراد أحدهم أن يتوثّق من شركة توزّع اللحوم بأسعار مخفضة، فاتصل بالشركة، وقال: «نريد إجراء مقابلة صحفيَّة وتصوير تلفازي لعملية الذبح»، فما كان جوابهم إلا أن قالوا: «لا داعي لقدومكم؛ فإننا نستورد هذه اللحوم، ونقوم بتعليبها وتغليفها، ثمّ نكتب عليها: حلال»!!

المظهرية في المدارس:

وأمّا المظهرية الخاوية في المدارس؛ فحدّث عنها ولا حرج، ففي الإذاعة المدرسية لحن في قراءة القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، فضلاً عن كلام البشر، ثمّ تعقبها برامج لا يُعرف أولها من آخرها، ولا آخرها من أولها، والمهم هو الاستمرار في الإذاعة المدرسية[(١)].

والمنهاج المقرَّر المطوَّل في بعض المواد كالأسد المفترس يطارد المدرِّس، فلا همَّ لهذا المطارَد البائس إلا أن يُنقذ نفسه من هذه المسؤولية، وبذلك تفوته التربية والإفادة، هذا عند مدِّرسي التربية الإسلامية واللغة العربية؛ فضلاً عن غيرهم.

وأمّا مطيّة الكثير من العاجزين والجاهلين والمنافقين ـ وبئست المطيّة ـ أن يُردِّدوا كلمة (العملية التربوية)، فإذا أرادوا أن ينفذوا إلى مأرب من المآرب، أو مقصد من المقاصد؛ قالوا: «العملية التربوية تقتضي كذا وكذا....

---

(١) وأنا أدعو لاستثمارها الاستثمار السليم، وتوظيفها التوظيف الصحيح، فكلمات يسيرة قليلة تنفع وتجدي، وتصحِّح المسار والسلوك، خير من جعجعة لا يعْقبها طِحن.

وفي الوسائل التعليمية[١]؛ يعصرك الألم وأنت ترى المدرسة تغصُّ بها، وفيها ما فيها من الأخطاء النّحويَّة، وقد تُكُلِّف عليها، ودُفِع فيها مبالغ ومبالغ، تراها وكأنك لا تراها.

إنها وسيلة ناجحة لتزيين المدرسة، أما الثمرة المرادة والعلم والفائدة؛ فلا منزلة لها ولا مكانة في هذا الموضع!

ما الذي تدعو إليه هذه الملصقات والوسائل؟ ذلك أمر لا يعرفه الراعي ولا الرعيَّة!

فرحات غامرة تخالج من يشرفون على المدارس حين يأتي الزائرون والمسؤولون وهم يرون الوسائل والملصقات المزركشة المزخرفة، بالإضافة إلى حفل صغير من كلمات لبعض المجدّين وأصناف من الطعام والحلوى تختم بها الزيارة؛ تعطي انطباعات النجاح، والتفوق والتقدّم، وقد خفي عنهم ما خفي.

كذا فلْيَجِلَّ الخَطْبُ وليَفْدَح الأمرُ فليس لعينٍ لم يَفِضْ ماؤها عُذْرُ

ومما يدمي القلوب، أن تُعقد ندوات ومحاضرات لمدرِّسي اللغة العربية؛ في بعض البلاد الإسلامية، فتسمع ممّن يُشرف عليها ما لا ينبغي أن تسمع؛ من التكلُّم بغير فصيح القول، واللجوء إلى تسكين ما حقّه التحريك؛ إلا ما قلَّ وندر.

فأين الثمرة من دراسة وتدريس اللغة العربية؟ وأين الأهداف التربوية المزعومة؟ لا يكاد العاقل يُصدِّق هذا!

أما عن دفتر التحضير[٢]؛ فالكلام فيه يطول، لكن ينبغي أن تكون

---

(١) لا يعني هذا إنكار الوسيلة التعليمية واستخدام ملصقات الحائط النافعة على إطلاقها؛ فإن لها وظائف طيّبة تخدم المادة، وتُذلِّل الصعب بإذن الله ـ سبحانه ـ ضمن أوقات وأمكنة وشروط محدَّدة.

(٢) لا أنكر بأيِّ حال التحضير العلمي والإعداد الذهني المُجدي ـ وليس لي ولا لغيري ذلك ـ فهذا من الأمور التي لا يتمُّ النفع إلا بها.

هناك دراسة جادّة للتخلّص من مظهرية هذا الدفتر، والإفادة مما يلزم.

نصيحة للموجّهين:

وأودُّ أن أنصح الإخوة الموجّهين بالإقبال والمثابرة على العلم النافع، بحيث يشعر المدرّس أنه أمام عالم، يتلقّى منه ويستفيد؛ كالطالب؛ مهما جدَّ واجتهد فإنه يشعر أنه دون أُستاذه علماً وفهماً ومعرفة.

أريد من الأخ الموجِّه ألا تكون سلطته على المدرّس من قِبَل مهنته ومسؤوليته، بل بغزارة العلم، وسعة المعرفة، وكثرة الاطلاع، وهذا ما نفتقده مع بالغ الأسف، ومن هنا تنشأ التحفُّظات والخصومات بين المدرّس والموجِّه؛ لأن المدرّس يشعر أنه أمام شخص مثله، وربما دونه، علماً وتجربة، غير أنّه حُكِم له بسبب الوظيفة.

إنَّ تدوين ملاحظات عن شخص يُلقي درساً، أمر غير عسير يستطيعه أي مدرس.

إنَّ الشعور ليُراوِد المدرّسين أنَّ ما يُكتب من التوجيهات أمور شكلية يدوّنها الموجهون، يريدون بذلك ملء سطور يثبتون فيها أنّهم قاموا بالواجب.

ولعلّ الأمر الذي يُعْذِرُ به الموجّهون أنفسهم، أنّهم يريدون الحفاظ على الوظيفة التي يُسِّرت لهم؛ في وقت يبحث الناس فيه عن مثلها أو دونها فلا يجدون.

إن ألسنة البعض منهم لتكاد تنطق بهذا، فيقولون للمدرّسين: «**ذرونا نتعامل بأمان وإياكم، نكتب ونوجّه وننتقد وننفّذ ما جاء من تعليمات؛ ولو كنّا غير مقتنعين بها**».

وهذا لا يعني أنَّ الإخوة المدرّسين مبرؤون ـ ولم أنصِّب نفسي للنقد والمقارنة والتقويم ـ ولا أبخسهم حقهم، فمنهم من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ـ تعالى ـ ومنهم من لا يُحسن أداء عمله إلا ما دُمْتَ عليه قائماً،

ومنهم من يترك الأثر السيىء في نفوس الطلاب؛ لسوء سلوكه وألفاظه وأفعاله.

إنني لا أكتب لأنتصر لفريق دون آخر، أو لمهنة دون أخرى... إن الأمر لأشد من ذلك... إن المرمى لأسمى وأعلى.

إن الأمر يمسُّ مصلحة الأمة على مر الأيام والأزمان... إنه يتعلّق بتربية الأجيال... وإنها لمسؤولية عظيمة سنُسأل عنها بين يدي الله ـ تعالى ـ.

فلنحاسب أنفسنا قبل أن نُحاسَب، ولنسأل أنفسنا:

ما الفساد الذي أصلحناه؟

ما الأخطاء التي صوبناها؟

ما الذي قدّمناه وأفَذْنا به؟

هل لغيابنا خطر على سلوك وتربية وتعلّم الطلاب؟ أم أنّ وجودنا وغيابنا سواء؟!

المظهرية في حب النّبيّ ﷺ:

وممّا ابتليت به أمّتنا ادّعاء حبِّ النّبيّ ﷺ، والتعبير عنه بأساليب لم تَرِد في دين الله ـ تعالى ـ:

منها مسح الرأس والوجه وما تيسّر من الجسد؛ عندما يُذكَر رسول الله ﷺ! وقد تجد فاعل ذلك يتعامل بالربا، وربّما تخرج زوجته أو ابنته بلباس فاضح!

ومنها معاداة كثير من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ إخلاصاً لحبِّ النّبيّ ﷺ وأهل البيت!! ادّعاءً وافتراءً أن الصحابة قد كفروا بالله ـ تعالى ـ إلا ثلاثةً منهم.

ومنها الصلاة على النّبيّ ﷺ في مواطن وأماكن مخصَّصة لم يأمرنا فيها النّبيّ ﷺ بذلك، ولم يفعلها أحدٌ من أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ.

وإنّما حبُّ الله ـ تعالى ـ بطاعته واتِّباع رسوله ﷺ، وحبُّ النّبيّ ﷺ باتباع أوامره واجتناب نواهيه.

قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾[1].

ولهذا الأمر العظيم أضرب مثلين توضيحاً وتبييناً:

رجل اشتدَّ به المرض، فأخرج الوصية لابنه الكبير؛ يوصيه بها؛ أن يعتني بأمّه، ويترفّق بإخوانه الصغار، ويتّقي الله ـ تعالى ـ بما تركه من مال.

مات الأب، واغرورقت عينا ولده بالدموع، ورثى لحاله الحاضرون، ثمّ جاء للوصيّة، فقبّلها، وتمسّح بها وتبرّك! وذهب بها إلى خطّاط لم يُرَ له مثيل، فخطّط كل حرف بلون، ودفع على الوصية وتكلَّف؛ لتخرج بألوان جذّابة برّاقة تسرُّ الناظرين، ثمّ ذهب بها إلى مُتَفنّن في الأضواء، قد بذَّ نظراءه وأقرانه في الإبداع، فجعل الحروف تضيء وتبرق وتنير، وهي بذلك تسحر العيون، وتسلب الألباب، ثمّ وضعها في صدر المجلس؛ يقبِّلها صباحاً ومساء، ويبكي عندها فقد أبيه.

يسمع الابن أنين أمه العجوز خافتاً، فلا يلّبي ولا يلتفت، ويأتي لإخوانه الصغار، فيوسعهم ضرباً، ويشبعهم شقاء وعناء، وأما عن الأموال التي اؤتمن عليها؛ فقد بسط يده كل البسط في كل حرام ومشبوه.

وولدٌ آخر أقبل على الوصية دون تقبيل، ومن غير زخرفة ولا تزيين، يلبي أمر أمه، ويخدمها حقَّ الخدمة، يفرح لفرحها ويبكي لبكائها، يعتني بإخوانه، ويتابع أمورهم، ويتلطّف بهم ويترفّق.

وأما في المال الموروث؛ فكان يعتدل في الإنفاق، ويجعل ذلك في وجوه الخير والبرّ فيما يُرضي الله ـ تعالى ـ.

... فأيُّ الولدين أبر بأبيه؟!

---

(١) آل عمران: ٣١.

أذلك الذي كان يقبّل الوصيّة، أم ذلك الذي تركها على حالها؟!

أذلك الذي أمضى ما في الوصية؛ وعمل بمقتضاها، أم ذلك الذي خالف الوصيّة؟

وماذا تُغني الزينة والزخرفة والتقبيل؛ إذا لم يكن للعمل والتنفيذ وجود؟!

تدبّروا القول أيها الناس، ولا تغرَّنّكم الزخرفة ولا تخدعنّكم المظهريات ولا الشكليات.

المظهرية في الفتاوى:

ومن أشدّ ما تعانيه الأمّة؛ أولئك الذين يتصدَّرون للفتاوى والإمامة والخطابة والإرشاد، وليسوا لهذا بأهل، فلبسوا الملابس الخاصة؛ تلك التي توهم أنَّ مرتديها من العلماء، ولمّا كانوا يعانون من ضيق الوقت بحُكم العمل أو الوظيفة، أو من ضعف القدرة على إدامة النظر في الكتب، أو من ضعف الفهم، أضِف إلى هذا خجلهم أن يقولوا لما لا يعلمون: لا أعلم؛ وجدوا أنفسهم ينصاعون لتلبيس الشيطان، فأفتوا بلا علم، واعتمدوا آراءهم المجرّدة، فأصبح يفتي كل ذي لحية أو عمامة!!

ولعل أشدّ ما يؤذي هؤلاء المتشبِّعين بما لم يُعطوا والمتحلّين بما لم يؤتوا: أن يسألوا عن الدليل والبرهان والنصّ، وعندئذ لا يجدون لهم من سبيل؛ إلا أن يرموا السائلين بالتعصُّب والتنطع، فناصبوا أهل العلم الصادقين العداء، ووصفوهم بالتشدّد والمخالفة والإتيان بالغرائب والعجائب، ذلك لأنهم لم يطّلعوا على ما اطّلعوا عليه، ولم يتعرّفوا إلى ما تعرّفوا إليه.

وإذا ما تحرَّكت بذرة الخير في قلوب أصحاب الأهواء، وشعروا بالحرج من الفتاوى؛ رفع الشيطان لهم راية «الدين يسر»، فزال الحرج من النفوس، وانهمرت الفتاوى كالمطر!

فإذا علمْت هذا ـ يرحمك الله ـ لم ترَ عجباً أن يتخرّج الشخص من

كليّة الشريعة؛ وهو لا يُحسن أحكام الترتيل، وقد يحمل شهادة «الماجستير» و «الدكتوراه» وتراه ينقُل الأحاديث الضعيفة والموضوعة؛ لأنّه لا يميّز بين الصحيح والسقيم منها.

ومن الشيء العجاب؛ أن يقول أحدهم في خطبته: «روى ابن الجوزي في الموضوعات»، ويبني على قوله أفكاراً ومعاني وسلوكاً؛ ظنّاً منه أنّ كتاب «الموضوعات» مصدر من المصادر الصحيحة، أو مرجع من المراجع الثابتة؛ كقول القائل: «روى البخاري في صحيحه»، فلا حول ولا قوة إلا بالله ـ تعالى ـ.

وإذا قلت لهم: هذا حديث ضعيف، أو موضوع؛ قالوا: أأنت أعلم أم ابن كثير؟ وفاتهم أنّ الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ قد ضعّف الرواية، ولكنّهم قرؤوا المتن ولم يقرؤوا ما يعقبه من الإسناد، وظنّوا أنّ مجرّد الإتيان بالسّند يعني التصحيح.

ورأى هؤلاء أنّهم ليسوا بأهلٍ لدراسة علم الحديث ومصطلحه، وشقّ عليهم فهمه واستيعابه، فاكتفوا بتصحيح كل ما وافق عقولهم، وشنّوا الحرب على أهل هذا العلم الشريف، واتّهموهم بأنّهم محدِّثون لا فقهاء!

وإذا قيل لهم: «هذا حديث ضعيف»؛ قالوا: «يجوز رواية الأحاديث الضعيفة في فضائل الأعمال والعمل بها»! ولكن؛ هل عرف هؤلاء الشروط والقيود لهذا التجويز؟ أم أنهم يعرفون ما يوافق هواهم ويستر حالهم؟

فإذا جاز ذِكْر الأحاديث الضعيفة؛ فهل جاز ذكر الأحاديث الموضوعة والمكذوبة؟ وهل بلغتُم من العلم ما تميّزون به بين الضعيف والموضوع؟

أم بلغتُم من الفقه ما تفرِّقون به بين ما وافق القواعد الشرعية الصحيحة ممّا لم يوافقها، وهل يندرج تحت أصلٍ ثابت من الدين أم لا يندرج؟

هل عرف هؤلاء ـ أصلاً ـ أن هذا ضعيف أو موضوع؟ إنهم لا يعرفون ذلك، ولكنّهم يذكرون النصَّ معتقدين ثبوته، فإن جئت تبيِّن لهم ضعْف الحديث قالوا: «يجوز العمل بضعيف الحديث»!

والنتيجة المحتّمة لقولهم هذا، تفضي بهم إلى تجويز رواية أي شيء يُنسب إلى النّبيّ ﷺ؛ وتجويز تأليف الأحاديث كذلك، طالما يُراد بذلك الخير فإلى الله ـ تعالى ـ المشتكى.

ولجأ الكثير الكثير إلى أسلوب القصص والحكايات، والتوسُّع في الأمثال؛ ليغطّي قلة العلم والمعرفة والاطلاع.

ورأى هؤلاء الخطابة والوعظ والتدريس أمراً هيناً سهلاً، فهم مستعدّون لمخاطبة الناس في أيّ وقت من الأوقات، لا يفتقرون لإعدادٍ أو تحضير، معلوماتهم لا تزيد ولا تنمو؛ يغطُّون على هذا الأمر كله برفع الصوت وتحريك العواطف، حتى بلغ الأمر بأحدهم أن قال: «الخطابة لُعبتي»، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وأودُّ بهذه المناسبة؛ أن أُذكِّر هؤلاء بأمر عساه يغيِّر ما بهم من حال، وذلك عندما جاء بعض الناس لربيعة الرأي وهو من شيوخ الإمام مالك ـ رحمهما الله تعالى ـ يطلبون منه أن يترفّق بنفسه ويتلطّف بحاله، حين رأوا شدّة إقباله على العلم، فقال: «سمعت بعض أشياخنا يقولون: «إنّ العلم لا يُعطيك بعضه؛ إلا إذا أعطيته نفسك كلّها».

فهيَّا أيها الخطباء! خاطبوا أنفسكم بهذه الكلمات قبل كل شيء، وهيّا معشر الوعّاظ! عِظوا أنفسكم بهذه العبارة الناجحة النافعة، وهيّا أصحاب الفتاوى! أفتوا أنفسكم بهذه المقولة الطيبة قبل أن تُفتوا الناس، فهذا هو سبيل السداد والهدى والرشاد بإذن الله ـ تعالى ـ.

۞ علاقة المظهرية بالتحايل:

ولا تنس أخي المسلم ـ هداني الله وإيّاك ـ أنّ التّحايل الذي يُفضي إلى تحريم الحلال وتحليل الحرام يعتمد على المظهريات، ويرتكز على الشكليات.

من ذلك حيلة اليهود في صيد السمك، فقد حرّم الله ـ تعالى ـ عليهم صيد السمك يوم السبت، وابتلاهم الله ـ تعالى ـ بتوافره ذلك

اليوم وانعدامه في غيره، وفي هذا يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾[1].

فقالوا: إنّما حرّم الله علينا الصيد يوم السبت، ولم يحرّم علينا احتجاز السمك فيه، وكذلك فعلوا، واصطادوها في غير ذلك اليوم بزعمهم! فاستحقّوا لعنة الله ـ تعالى ـ لتحايلهم ومكرهم وخبثهم.

وحرّم الله ـ تعالى ـ على اليهود ـ بظلمهم ـ الشحوم، فأذابوها وباعوها وأكلوا ثمنها؛ فقد قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ في حقّهم: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾[2].

وتمثل التحايل في الإذابة والبيع، وهما شكليّتان، فالإذابة غيَّرت الشكل، والبيع عندهم سوّغ الأكل!

وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: **«قاتَلَ الله اليهود؛ إنَّ الله ـ عزّ وجلّ ـ لما حرّم عليهم الشحوم جملوها، ثمّ باعوها، فأكلوا أثمانها»**[3].

ويقول أيضاً فيهم ﷺ: **«لعن الله اليهود؛ إنّ الله حرّم عليهم الشحوم، فباعوها وأكلوا ثمنها، وإنّ الله إذا حرّم على قومٍ أكل شيءٍ؛ حرّم عليهم ثمنه»**[4].

ومن صور التّحايل أن يسمّي القوم الشيء المحرّم باسم المباح أو الجائز، ظانّين بذلك أنهم يُحسنون صُنعاً؛ كتسمية الخمر مشروبات روحية،

---

(١) الأعراف: ١٦٢.

(٢) النساء: ١٦٠ ـ ١٦١.

(٣) أخرجه البخاري: ٤٦٣٣، ومسلم: ١٥٨١.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده»، وأبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٢٩٧٨) وغيرهما.

وفي الحديث: «**ليشربنّ أُناسٌ من أمّتي الخمر يسمُّونها بغير اسمها**»[١].

ولم يقِف الأمر عند الخمر فحسب، بل جاوزه إلى تسمية الرقص والغناء المحرّم فنّاً، والكذب والدّجل لباقة وكياسة، والربّا فوائد، والفَسَقَة والفَجَرة كواكب ونجوماً.

المظهرية تقتل العمل:

إنّ من يتأمّل في أمر محبّي المظهرية؛ يرى أنهم من العاجزين الذين لا يقْوون على العمل؛ إنّهم يأوون إلى الشكليات؛ ليقعدوا عن العمل الصحيح المثمر الطّيب، وإنّك ترى أحدهم يدّعي حبّ الله ـ تعالى ـ ورسوله ﷺ من غير أن ترى منه طاعة صحيحة أو سلوكاً حسناً، وإنّما يتّبع هوى نفسه، ويتمنّى على الله الأماني، وكأنّه واثق من دخول الجنّة بلا حساب أو عذاب؛ كقول اليهود والنصارى ـ كما أخبر القرآن العظيم عنهم ـ: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾[٢].

ألا ليتهم قرؤوا قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾[٣].

وليتهم قرؤوا قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[٤].

فقد أقسم الله تعالى قسماً عظيماً: أن لا إيمان للمرء حتى يجعل شريعته ـ سبحانه ـ قوام عيشه، وسلوك أركانه وجنانه، ومنهاج حياته؛ دون حرج أو تبرُّم أو ضيق، مع التسليم والإذعان والخضوع له ـ سبحانه ـ.

---

(١) أخرجه أحمد، وأبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٣١٣٥)، وابن ماجه وغيرهم، وانظر «الصحيحة» (٩٠).
(٢) البقرة: ١١١.
(٣) آل عمران: ٣١.
(٤) النساء: ٦٥.

وهناك من يدّعي حبَّ القرآن، فيكتفي بتقبيله وتعليقه في صدر المجلس، دون العمل بمقتضاه، من غير أن يأتمر بأمره، أو ينتهي بنهيه.

ولئن نسيت فلن أنسى ما جرى ذات يوم، حين أخذتُ زوجتي إلى إحدى الطبيبات للمعالجة، فأحببت الاستفادة من زمن الانتظار، فسألت الطبيبة عن مُصحف؛ لأقرأ فيه ما تيسَّر من الآيات، فقالت: ليس عندي مصحف، ولكن يا حاج! هذه العيادة ملأى بالآيات والقرآن الكريم ـ تعني الملصقات والمعلقات ـ!

كِبْرٌ ومجاراة في المجتمع:

لا شكَّ أنَّ الكِبْر ـ أو شيئاً منه ـ هو الذي يحفز الشخص للظهور أمام الناس بمظهر يأبى فيه التواضع، ويحب فيه العلوّ والظهور، فكم من الناس قد استحيوا أن يركبوا السيارات المتواضعة، زهيدة الثمن، وكرهوا أن يُشاهَدوا إلا وهم في سيارات فارهة مرتفعة السعر، حتى إن أحد هؤلاء قال لصاحبه يوماً: «**انظر إلى هذا العدد من السيارات ـ وكان عنده قرابة الأربع أو الخمس ـ ولكنّي مدين بآلاف الدنانير، وأضطرُّ أن أفعل هذا لمجاراة المجتمع**».

وقال أحد النّاصحين لصاحبه: «**هذه السيارة مكلفة، وثمنها مرتفع، فلو اقتنيت دونها؛ لأجزأت وقضت الحاجة**».

فقال له: «**إنّني بحكم عملي وعلاقاتي الاجتماعية مضطر لاقتناء مثل هذه السيارة، وإن لم أفعل لا أحظى بإلقاء السلام من الأصحاب**».

لا تغرَّنَّكم الكثرة يا أصحاب المظاهر الخاوية:

اقرؤوا القرآن العظيم، تجدوه يذمّ الكثرة ويمتدح القلة.

أمّا في القلّة؛ فاسمعوا قوله ـ سبحانه ـ:

١ - ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾(١).

٢ - ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾(٢).

٣ - ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾(٣).

٤ - ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾(٤).

٥ - ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾(٥).

٦ - ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٦).

٧ - ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾(٧).

وقال - سبحانه وتعالى - في ذمّ الكثرة:

١ - ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾(٨).

٢ - ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾(٩).

٣ - ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾(١٠).

٤ - ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾(١١).

---

(١) سبأ: ١٣.

(٢) هود: ٤٠.

(٣) ص: ٢٤.

(٤) الواقعة: ١٣ - ١٤.

(٥) البقرة: ٢٤٦.

(٦) النساء: ٨٣.

(٧) السجدة: ٩.

(٨) التوبة: ٢٥.

(٩) الحج: ١٨.

(١٠) المائدة: ٣٢.

(١١) المائدة: ٤٩.

٥ - ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[(١)].

٦ - ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾[(٢)].

٧ - ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾[(٣)].

٨ - ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾[(٤)].

٩ - ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[(٥)].

١٠ - ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[(٦)].

١١ - ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(٧)].

١٢ - ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[(٨)].

١٣ - ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[(٩)].

١٤ - ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[(١٠)].

١٥ - ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾[(١١)].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«عُرضَت عليّ الأمم، فرأيت النّبيّ ومعه الرهط، والنّبيّ ومعه الرّجل والرّجلان، والنّبيّ وليس معه أحد، إذ رُفع لي سوادٌ عظيم، فظننتُ أنّهم**

---

(١) الأنعام: ١١٩.

(٢) يونس: ٩٢.

(٣) الروم: ٨.

(٤) يس: ٦٢.

(٥) البقرة: ٢٤٣.

(٦) الأنعام: ١١٦.

(٧) الأعراف: ١٨٧.

(٨) هود: ١٧.

(٩) العنكبوت: ٦٣.

(١٠) الإسراء: ٨٩.

(١١) الأنعام: ١١١.

أمّتي، فقيل لي: هذا موسى وقومُه، ولكن انظر إلى الأفق، فإذا سوادٌ عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سوادٌ عظيم، فقيل لي: هذه أمّتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنّة بغير حساب ولا عذاب، هم الذين لا يسترقون(١)**، ولا يتطيّرون، ولا يكتون، وعلى ربّهم يتوكّلون»**(٢).

وعن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«يجيء النّبيّ يوم القيامة ومعه الرجل، والنّبيّ ومعه الرّجلان، والنّبيّ ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك»**(٣).

وعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّ الإسلام بدأ غريباً وسيعود كما بدأ... فطوبى للغرباء»**. قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: **«الذين يَصْلحون إذا فسد الناس»**(٤).

وهكذا امتدح الله ـ تعالى ـ القلّة، فقليل من يشكر، وقليلٌ من يؤمن، وقليل من لا يبغي، وقليل من لا يتولّى في الحرب، وقليل من لا يتبع الشيطان، والصالحون هم الغرباء.

وذمّ الله ـ تعالى ـ الكثرة، فلم تغنِ عن المسلمين شيئاً حين أعجبتهم يوم حنين، وكثير حقّ عليه عذاب الله ـ سبحانه ـ والمسرفون هم الكُثْر في الأرض، والفسق والغفلة هما الغالبان على الناس، والكثيرون على الكفر والشرك، وأكثر الناس من غير الشاكرين، وأكثر الناس يجهلون ولا يعلمون.

---

(١) ولم أورد كلمة «لا يرقون»؛ لشذوذها سنداً ومتناً.
قال شيخنا ـ رحمه الله تعالى ـ في «صحيح الجامع» (٣٩٩٩) تعليقاً على هذا الحديث: «قوله: «لا يرقون» هو مما تفرّد به مسلم دون البخاري وغيره، ثم هو شاذٌّ سنداً ومتناً؛ كما بيّنته في محلٍّ آخر، وحسبك دليلاً على شذوذه أنّ النّبيّ ﷺ قد رقى غيره أكثر من مرة».

(٢) أخرجه البخاري: ٥٧٥٢، ومسلم: ٢٢٠.

(٣) أخرجه أحمد، وابن ماجه، وصحّحه شيخنا ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٢٤٤٨).

(٤) أخرجه أحمد، وابن ماجه، والترمذي، وغيرهم، وانظر «الصحيحة» (١٢٧٣).
وأخرجه مسلم من حديث: أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ برقم (١٤٥) دون قوله: **«قيل: من هم يا رسول الله...»**.

ويجيء النّبيّ يوم القيامة ومعه الرهط، والنّبيّ ومعه الرجل، والنّبيّ ومعه الرجلان، والنّبيّ ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك، فأتباع الأنبياء والرسل قليلون، وأتباع الشيطان والهوى كثيرون.

وعن سفيان الثوري أنّه بعث ليوسف بن أسباط قائلاً: **«يا يوسف! إذا بَلغك عن رجل بالمشرق أنه صاحب سنّة؛ فابعث إليه بالسلام، وإذا بلَغك عن آخر بالمغرب أنّه صاحب سنّة، فابعث إليه بالسلام، فقد قلَّ أهل السنة والجماعة»**(١).

فتنة المظهريّات عند الدّجّال:

ولا يغيبنَّ عن البال أنَّ الدّجَّال يأتي الناس من طريق المظهريات والشكليّات والمادِّيات، فيُفتن فيه الناس، ويتَّبعونه، ويعبدونه من دون الله ـ تعالى ـ.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«ألا أحدّثُكم حديثاً عن الدّجّال ما حدَّث به نبيٌ قبلي قومه؟ إنّه أعور، يجيء معه بمثال الجنّة والنار، فالتي يقول: إنها الجنّة هي النار، وإني أنذركم به كما أنذر به نوح قومه»**(٢).

وفي الحديث: **«إنّ الدّجّال يخرج، وإنَّ معه ماء وناراً، فأمّا الذي يراه الناس ماءً؛ فنار تحرق، وأمّا الذي يراه الناس ناراً؛ فماء باردٌ عذب، فمن أدركه منكم؛ فليَقَعْ في الذي يراه ناراً؛ فإنه عذب طيّب»**(٣).

وعن النّواس بن سمعان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«غيرُ الدّجّال أخوفني عليكم، إن يخرجْ وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإنْ يخرج ولستُ فيكم فامرؤٌ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم؛ إنّه**

---

(١) أخرجه اللالكائي في «السنة» (رقم٥٠).

(٢) أخرجه البخاري: ٣٣٣٨، ومسلم: ٢٩٣٦.

(٣) أخرجه البخاري: ٣٤٥٠، ومسلم: ٢٩٣٤، ٢٩٣٥.

شابٌ قَطَطٌ[١]، إحدى عينيه كأنها عنبة طافية[٢]، كأني أشبّهه بعبد العُزّى بن قَطَن، فمن أدركه منكم؛ فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف؛ إنّه خارجٌ خَلَّةً[٣] بين الشام والعراق، فعاث[٤] يميناً، وعاث شمالاً، يا عباد الله! فاثبتوا».

قالوا: يا رسول الله! ما لَبْثُهُ؟

قال: «**أربعون يوماً، يومٌ كسنة، ويومٌ كشهر، ويومٌ كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم**».

قالوا: يا رسول الله! فذلك اليومُ كسنةٍ أتكفينا فيه صلاةُ يوم؟

قال: لا؛ اقدُرُوا له.

قالوا: وما إسراعه في الأرض؟

قال: **كالغيث استدبرته الريح[٥]، فيأتي على القوم، فيدعوهم، فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتُنْبت، فتروح عليهم سارحتهم[٦] أطول ما كانت درّاً[٧]، وأشبعه ضروعاً، وأمدّه خواصر[٨] ثمّ يأتي القوم، فيدعوهم، فيردُّون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون ممْحِلين[٩] ليس بأيديهم شيءٌ من أموالهم. ويمرُّ بالخَرِبة[١٠]، فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل[١١]. ثمّ يدعو رجلاً ممتلئاً**

(١) أي: شديد جعودة الشعر.
(٢) أي: ناتئة مرتفعة، ذهب نورها إلا بصيصاً منه.
(٣) أي: طريقاً بينهما.
(٤) العيث: أشد الفساد، والإسراع فيه.
(٥) قال ابن الملك: «الجملة (استدبرته الريح) حال أو صفة للغيث، و(ال) فيه للعهد الذهني، والمعنى: أنَّ هذا مثال لا يدرك كيفيته، ولا يمكن تقدير كميته». «التحفة».
(٦) المال السائم، والماشية التي تذهب إلى المرعى.
(٧) أي: لبناً.
(٨) لامتلائها من الشبع.
(٩) المحل: انقطاع المطر، وما ينجم عنه من يبوسة الأرض والكلأ.
(١٠) الموضع الخراب.
(١١) أي: جماعته.

شباباً[١]، فيضربه بالسيف، فيقطعه جَزْلتين[٢] رَمية الغَرَض(١٠)، ثمّ يدعوه، فيُقبل ويتهلّل وجهه يضحك. فبينما هو كذلك إذ بعَثَ الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مَهرودَتين[٣]، واضعاً على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدّر منه جُمانٌ[٤] كاللؤلؤ، فلا يحلُّ لكافرٍ يجد ريح نفَسِه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لُدٍّ، فيقتله، ثمّ يأتي عيسى قومٌ قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم، ويحدّثُهم بدرجاتهم في الجنّة»[٥].

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ قال: «ليس من بلدٍ إلا سيطؤه الدّجّال؛ إلاّ مكة والمدينة، وليس نقب من أنقابها إلا عليه الملائكة صافّين تحرسُها، فينزل بالسَّبخة، فترجف المدينة ثلاث رجفات، يخرج إليه منها كلُّ كافرٍ ومنافقٍ»[٦].

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: «يتبع الدّجّال من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطّيالسة[٧]»[٨].

وعن المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ﷺ: «ما سأل أحدٌ رسول الله ﷺ عن الدّجّال أكثر ممّا سألته، وإنّه قال لي: «ما يضرُّك؟»

---

(١) أي: في عنفوان شبابه.
(٢) أي: قطعتين.
(١٠) الغَرَض: الهدف الذي يُرمى إليه، والمراد: مقدار ما بينهما رمية الهدف.
(٣) أي: ثوبين مصبوغين.
(٤) أي: الحبات من الفضة؛ تُصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار.
(٥) أخرجه مسلم: ٢٩٣٧.
(٦) أخرجه البخاري: ١٨٨١، ومسلم: ٢٩٤٣ واللفظ له.
(٧) في «لسان العرب»: «الطيلس والطيلسان: ضرب من الأكسية، وقيل: تالشان، وهو كل ثوب أخضر».
وفي «الوسيط» ـ بحذف يسير ـ: «الطّالسان: ضرب من الأوشحة يلبس على الكتف، أو يُحيط بالبدن، خالٍ من التفصيل أو الخياطة [تالسان أو تالشان]».
(٨) أخرجه مسلم: ٢٩٤٤.

قلت: إنّهم يقولون: إنّ معه جبل خبز ونهر ماء! قال: «**هو أهون على الله من ذلك**»[١].

وعن هشام بن عامر ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة أمرٌ أكبر من الدّجّال**»[٢].

وهكذا يلحظ المتأمِّل عِظَم فتنة الدّجّال، فليس هناك من فتنة أكبر من فتنته؛ بين خلق آدم إلى قيام الساعة.

معه نهر ماء، وجبل خبز، يأتي بمثال الجنّة والنار.

إسراعه في الأرض كالغيث استدبرته الريح.

يقول للسماء: أمطري؛ فتمطر، وللأرض: أنبتي، فتنبت، ذلك لمن آمن به، وأما من ردَّ عليه قوله وكفر به؛ فإنها الفتنة بالجذْب والمحْل وانعدام المال.

من الأرض الخراب يُخرج الكنوز بقوله: أخرجي كنوزك.

يطأ البلاد كلّها إلا مكّة والمدينة، تتبعه الآلاف المؤلفة.

مظهريات كثيرة هائلة مرعبة مدهشة، انخدع بها كثير من الناس، فآمنوا به، واتَّبعوه، وعبدوه من دون الله ـ تعالى ـ.

مظهريات كثرة الأتْباع، مظهرية الطعام والشراب، مظهرية السرعة، مظهريات خارقة للعادة!

بيْد أنَّ العاقل اللبيب لا يغيب عن باله، ولا يذهب عن ذهنه قول رسول الله ﷺ: «... **فإنْ ألبسَ عليكم فاعلموا أنَّ ربّكم ليس بأعور، وأنّكم لن تروا ربّكم حتى تموتوا**»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري: ٧١٢٢، ومسلم: ٢٩٣٩.

(٢) أخرجه مسلم: ٢٩٤٦.

(٣) جزء من حديث أخرجه أحمد، وأبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٣٦٣٠)، وقال شيخنا ـ رحمه الله ـ في «المشكاة» (٥٤٨٥) إسناده جيد.

كما لا يغيب عن فؤاده أيضاً قوله ﷺ: **«ما من نبيٍّ إلا وقد أنذر أمّته الأعور الكذّاب، ألا إنّه أعور، وإنّ ربّكم ليس بأعور، ومكتوبٌ بين عينيه (ك ف ر)»**[١].

وفي روايةٍ لمسلم: **«مكتوب بين عينيه: كافر، يقرؤه كل مؤمن، كاتب وغير كاتب»**[٢].

أوليست هذه كافية لدحْضِ كل مظهريَّات الدّجّال وفتنته؟

أولى به قبل أن يقوم باستعراضاته وإبراز قُدراته المزعومة؛ أن يُزيل كلمة الكفر من بين عينيه، وأن يُذهِبَ العور الذي أحلَّه الله ـ سبحانه ـ به.

أيريدُ العاقل اللبيب أكثر من هذا؛ ليكفر بالدّجّال ويثبت على إيمانه بالله ـ تعالى ـ؟

ولنا وقفة مع رجل من المؤمنين، مع نموذج من النماذج الفاضلة، التي ينبغي أن نضعها في أفئدتنا، وبين ناظرينا، ذلك الرجل الذي قال عنه رسول الله ﷺ: **«هذا أعظم الناس شهادةً عند ربِّ العالمين...»**.

فكيف نال هذه المنزلة؟! وبِمَ استحق بفضل الله هذه الشهادة؟!

يجيبنا عن هذا أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ فيما يرويه عن رسول الله ﷺ إذ يقول: **«يخرج الدّجّال فيتوجّه قِبَله[٣] رجلٌ من المؤمنين، فتلْقاه المسالح[٤] ـ مسالح الدّجال ـ فيقولون له: أين تعمِد[٥]؟ فيقول: أعمد إلى هذا الذي خرج. قال: فيقولون له: أومَا تؤمن بربّنا؟ فيقول: ما بربّنا خفاء! فيقولون: اقتلوه. فيقول بعضهم لبعض: أليس قد نهاكم ربُّكم أن تقتلوا أحداً دونه؟**

---

(١) أخرجه البخاري: ٧١٣١، ومسلم: ٢٩٣٣.

(٢) أخرجه مسلم: ٢٩٣٤.

(٣) أي: جهته.

(٤) الخفراء والطلائع.

(٥) تذهب وتقصد.

فينطلقون به إلى الدّجال، فإذا رآه المؤمن؛ قال: يا أيها الناس! هذا الدّجال الذي ذكر رسول الله ﷺ، فيأمر الدّجال به، فيُشَبَّحُ[١]، فيقول: خذوه وشجُّوه. فيوسَعُ ظهره وبطنه ضرباً، فقول: أوما تؤمن بي؟ فيقول: أنت المسيح الكذّاب. فيؤمر به، فيؤشر[٢] بالمنشار من مفرقه[٣] حتى يُفرّق بين رجليه، ثمّ يمشي الدّجال بين القطعتين. ثمّ يقول له: قم. فيستوي قائماً، ثمّ يقول له: أتؤمن بي؟ فيقول: ما ازددتُ فيك إلا بصيرة. ثمّ يقول: يا أيها الناس! إنّه لا يفعل بعدي بأحد من الناس، فيأخذه الدّجال ليذبحه، فيُجعل ما بين رقبته إلى تَرقُوته[٤] نحاساً، فلا يستطيع إليه سبيلاً، فيأخذ بيديه ورجليه، فيقذف به، فيحسب الناس أنّما قذفه إلى النار، وإنما أُلقي في الجنّة».

فقال رسول الله ﷺ: **«هذا أعظم الناس شهادة عند ربّ العالمين»**[٥].

سأله جند الدّجّال: أوما تؤمن بربنا؟ فما جوابه؟

...ما بربّنا خفاء!

فكيف خفي إذاً على كثير من الناس؟!

إنّه تفقّه في كتاب الله ـ سبحانه ـ وسنّة رسول الله ﷺ، فإيمانه أكثر رسوخاً من الجبال الراسيات، وهو أكبر من أن تزحزحه شبهات الدّجال.

إنَّ هذا الرجل المؤمن حين رأى الدّجّال حَذّر منه بقوله: «يا أيها الناس! هذا الدّجّال الذي ذكر رسول الله ﷺ»... إنّه يتذكر أحاديث رسول الله ﷺ المتعلّقة بالدّجّال، يتذكّر تحذيره ـ عليه الصلاة والسلام ـ فينزله منزله، ويضعه موضعه.

---

(١) أي: يُمدّ على بطنه.
(٢) أي: ينشر.
(٣) أي: وسط رأسه، وهو الموضع الذي يُفرق فيه الشعر.
(٤) هي العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق.
(٥) أخرجه مسلم: ٢٩٣٨.

وماذا بعد أن يوسع ظهره وبطنه ضرباً؟

ثمّ ماذا بعد أن سأله الدّجّال: أتؤمن بي؟

الجواب بديع، جواب مؤمنٍ بالله ـ تعالى ـ جواب من اعتصم قلبه بالله ـ سبحانه ـ جواب من اعتصم بسنة النّبيّ ﷺ... «أنت المسيح الكذاب».

فيلتهبُ قلب الدّجّال غيظاً ويشتعل صدره غضباً، فيأمر بالمنشار ليؤشر من مفرق رأسه حتى يفرّق بين رجليه، ثمّ يمشي عدوُّ الله ـ تعالى ـ بين القطعتين، ثمّ يقول له: قم.

وهنا تتجلّى الفتنة، ويا لها من فتنة! يستوي المؤمن قائماً، فيسأله الدّجّال: أتؤمن بي؟ فيكون جوابه: ما ازددت فيك إلا بصيرة، ما ازددت فيك إلا كُفراً، ما ازددتُ بالله إلا إيماناً وتوحيداً.

إنّه الإيمان بالله ـ تعالى ـ على بصيرة، وأنْعِمْ به من إيمان!

ولم ازدادت بصيرتُه وعظُم إيمانه؟ لأنّ هذا الذي يجري، قد تقدّم معه في حديث رسول الله ﷺ، وليس هذا فحسب؛ فإنّه يعلم أنّ الدّجّال لن يُسلّط على أحدٍ بعده أيضاً، فيبلّغ هذه الأمانة قبل فراقه الحياة بقوله: «**يا أيها الناس! إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس**».

وهكذا حطّم ذلك المؤمن الصادق جبال المظهريات وأودية الشكليات بتمسُّكه بكتاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ وسنّة رسول الله ﷺ.

كم يُفتَنُ بالدّجّال من أحد! وكم يرتدَّ من أناس! وكم يكفر ويضلَّ من الخلق بالكثرة والخوارق والمظاهر! لأنهم لم يجعلوا النصوص في القلوب؛ للتمييز بين الحق والباطل، بل اتّخذوا الشكليات والمظاهر سبيلاً لهم وطريقاً، فضلُّوا وتاهوا وضاعوا، ألا بئس السبيل الذي نهَجُوه، والطريق الذي اختاروه.

۞ أمراض يُعانيها محبُّو المظهريّات والشكليّات:

١ ـ الرياء.

٢ ـ الكِبْر من أن يُروا على حال متواضعة.

٣ ـ غمط الناس واحتقارهم.

٤ ـ حبُّ العلوِّ.

٥ ـ ضعف الشخصيّة والثّقة بالنفس.

٦ ـ الخوف من الناس، وقلّة الخشية من الله ـ تعالى ـ.

٧ ـ العلم بالدّنيا والجهل بالدّين.

٨ ـ القعود عن العمل والنفور منه.

نداء إلى الحكام والمحكومين في العالم الإسلامي

اتّقوا الله في المظاهر التي تكلّف آلاف آلاف الدراهم؛ في مظاهر لا تجدي ولا تنفع.

اتّقوا الله في أموال المسلمين، يوم تقفون بين يدي الواحد القهار، يوم لا درهم ولا دينار.

اتّقوا الله في الفقراء والمساكين.

اتّقوا الله في الأرامل والثكالى.

اتّقوا الله في المكروبين والملهوفين.

اتقوا الله واعلموا أنكم تحيون بدون هذه الشكليات والمظاهر.

هناك أفواه تنتظر لقيمات المتصدّقين.

هناك دموع ترتقب شفقة المتعطّفين.

إنّ المظاهر والشكليات تدمِّر اقتصاد الأمّة الإسلامية فاحذروها.

جمّعوا ما تضيّعونه للشكليات سلاحاً للأمّة، فأمّتنا مستهدفة.

اذكروا قوله ﷺ: «**إنّ الشيطان يحضُرُ أحدكم عند كل شيء من شأنه، حتى يحضره عند طعامه، فإذا سقطت من أحدكم اللقمة؛ فليُمط ما كان بها من أذى، ثمّ ليأكلها، ولا يدَعْها للشيطان، فإذا فرغ؛ فليلْعَق**

أصابعه؛ فإنّه لا يدري في أيّ طعامه تكون البركة»[١].

«... إذا سقطت من أحدكم اللقمة؛ فليُمطْ ما كان بها من أذى، ثمّ ليأكلها، ولا يدعها للشيطان»«فكيف بمن يُسقِطُ ويُلقي أكوام الطعام في المزبلة؟!

كيف بمن يُطعم الشياطين ما لذَّ وطاب من المأكولات؟!

احذروا الإسراف في مناسباتكم وحفلاتكم وأعيادكم، في استقبالكم ووداعكم، في أثاثكم ولباسكم.

احذروا إضاعة المال في أيّ شيء ترونه يُدخل البهجة في نفوسكم، ما كان في معصية الله ـ تعالى ـ مخافة أن تدخل الحسرة في قلوبكم يوم القيامة.

انظروا أين تنفقون الأموال؛ فرسول الله ﷺ يقول: «**لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربّه حتى يُسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه؟ وعن شبابه فيما أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه ؟ وفيما أنفقه؟ وماذا عمل فيما عَلِم؟**»[٢].

❋ ❋ ❋

أيتها المظهرية



حسْبُك حسْبُك!

فقد غزوتِ المذياع والرائي[٣].

(١) أخرجه مسلم: ٢٠٣٣.
(٢) أخرجه الترمذي «صحيح سنن الترمذي» (١٩٦٩)، وأبو يعلى في «مسنده»، والطبراني في «الكبير» و«الصغير»، وانظر «الصحيحة» (٩٤٦).
(٣) أي: التلفاز.

غزوت الشارع والسوق والبيت.

غزوت المساجد والمصاحف...

وقبل كل هذا؛ غزوت الأفئدة والقلوب.

رأيتك في المدارس، في دفاتر التحضير، في موازين التقويم، في الوسائل التعليمية.

رأيتك في الاستقبال والوداع.

رأيتك في المعاهد والجامعات والمكاتب والدوائر والقرارات والقوانين.

رأيتك تقطّعين الأرحام، وتُوقعين بين الأقارب والأحباب.

رأيتك تُهلكين الفقير؛ في استقبال الضُّيوف، وفي صنع الطعام.

رأيتك في الأفراح؛ تمصِّين مال الأغنياء، وتحلبين مال الفقراء، وتذلّينهم بالدّيون.

رأيتك في المآتم؛ لا ترحمين غنياً أو فقيراً، تستمتعين بالإسراف، وصرف المال بغير الحق.

رأيتك في الحفلات تمتطين النِّفاق، وتركبين الكذب، وترتدين الأثواب الزاهية، وتحرِّكين الأيادي للتصفيق.

رأيتك في تقديم المحاضرين؛ تمتدحين أبرز أعمالهم؛ لتقطِّعي ظهورهم، وتذبحي إخلاصهم، وتحبطي أعمالهم.

رأيتك تُمتطين لكل باطل.

رأيت أنصارك من المنافقين والكسالى والمرجفين والجاهلين، ورأيت أعداءك من المؤمنين العاملين المخلصين العالمين.

رأيتهم يسخِّرونك لكل باطل وفاسد.

رأيتك حيث لا ينبغي أن تكوني.

أيتها المظهرية!

كم ذُرِفتْ من جرَّائك الدموع وأفلست الجيوب!

كم نافقتْ لأجلك النفوس وكذبت الألسنة!

كم عُبِدْتِ من دون الله - تعالى -!

كم قُدْتِ من خلق الله - تعالى - إلى النار!

كم دمرتِ ودمّرت في المجتمع!

كم هتَكْتِ من سترٍ، وضيّعْتِ من عباد!

كم مَنعتِ من هدايا، وحرمتِ من صلات!

كم وكم عطَّلت من نكاح وزواج!

كم سددت من سُبُل الخير، وكم فتحت من سُبُل الشر!

وقانا الله منك، يا مهجة الشيطان الرجيم!

تمّ بحمد الله - تعالى -

انتهيت - بفضل الله - تعالى - من النظر فيه وتنقيحه لإعادة طبعه؛ يوم الخميس في عمّان ٢٦ من شهر صفر عام (١٤٢٣) هـ.

وكتب:

حسين بن عودة العوايشة



فقه الدعوة وتزكية النفس

(١٥)

الفصل المبين في مسألة الهجرة ومفارقة المشركين

بقلم
حسين بن عودة العوايشة






من النصوص المتعلّقة بالهجرة ومفارقة ديار الشرك والمشركين

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٠)﴾[١].

قال ابن كثير في «تفسيره» (١/٥٥٥): «...قال الضحاك: نزلت[٢] في ناس من المنافقين؛ تخلّفوا عن رسول الله ﷺ بمكة، وخرجوا مع المشركين يوم بدر؛ فأصيبوا فيمن أُصيب، فنزلت هذه الآية الكريمة عامّة في كلّ من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة؛ وليس متمكّناً من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه مرتكب حراماً بالإجماع، وبنصّ هذه الآية حيث يقول ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ أيّ: بترك الهجرة ﴿قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ﴾ أي: لِمَ مكثتم ها هنا وتركتُم الهجرة».

(١) النساء: ٩٧ ـ ١٠٠.

(٢) أي: الآية (٩٧) من سورة النساء.

وقـولـه: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا[(١)] كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ وهذا تحريض على الهجرة وترغيب في مفارقة المشركين...».

قال الألوسي ـ رحمه الله ـ في «روح المعاني» (١٢٦/٥) بعد قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾: «استدلّ بعضهم بالآية على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكّن الرجل فيه من إقامة دينه، وهو مذهب الإمام مالك، ونقل ابن العربي وجوب الهجرة من البلاد الوبيئة أيضاً».

وجاء في كتاب «العبرة ممّا جاء في الغزو والشهادة والهجرة» (ص٢١٧) لأبي الطيب صديق حسن البخاري: «وقد استُدلّ بهذه الآية[(٢)]، على أنّ الهجرة واجبة على كلٍّ من كان بدار الشرك، أو بدار يُعمل فيها بمعاصي الله جهاراً؛ إذا كان قادراً على الهجرة، ولم يكن من المستضعفين؛ لما في هذه الآية من العموم، وإن كان السبب خاصّاً... وظاهرها عدم الفرق بين مكان ومكان وزمان وزمان».

وفيه أيضاً: «قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ لمّا نزلت هذه الآية؛ هاجر إلى أرض الحبشة قوم، وبقي قوم فيهم رسول الله ﷺ؛ فهاجروا إلى المدينة الشريفة، ووجبت الهجرة على كل مفتون؛ لا يقدر على إظهار دينه».

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ

---

(١) المراغم: مصدر، تقول العرب: راغَم فلان قومه مُراغَماً ومُراغَمة، وقال ابن عباس: المُراغم: التحوّل من أرض إلى أرض، وكذا رُوي عن الضحاك والربيع بن أنس والثوري.
وقال مجاهد: مُراغماً كثيراً: يعني: متزحزحاً عمّا يكره.
وقال سفيان بن عيينة: مراغماً كثيراً: يعني بروجاً، والظاهر ـ والله أعلم ـ أنّه المنع الذي يتخلّص به، ويراغم به الأعداء. «تفسير ابن كثير».

(٢) أي: قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾[1].

جاء في «نيل الأوطار» (١٧٨/٨): «**قال الخطابي... إنّ الهجرة افترُضت لمّا هاجر النبيّ ﷺ إلى المدينة إلى حضرته للقتال معه وتعلّم شرائع الدين، وقد أكّد الله ذلك في عدة آيات حتى قطع الموالاة بين من هاجر ومن لم يهاجر، فقال:** ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ فلمّا فتحت مكة ودخل الناس في الإسلام من جميع القبائل، انقطعت الهجرة الواجبة وبقي الاستحباب، وقال البغوي ـ رحمه الله ـ في «شرح السنّة»: «يُحتمل الجمع بطريق أُخرى فقوله: «**لا هجرة بعد الفتح**» أي: من مكة إلى المدينة».

قال ابن كثير في «تفسيره» (٣٤٣/٢): «**ومعنى قوله:** ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أي: إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت الفتنة في الناس وهو التباس الأمر واختلاط المؤمنين بالكافرين؛ فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل».

قال الألوسي في «روح المعاني» (٣٨/١٠): ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: تحصل فتنة عظيمة فيها، وهي اختلاف الكلمة وضعف الإيمان وظهور الكفر.

﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾: وهو سفك الدماء على ما رُوي عن الحسن، فالمراد فساد كبير فيها».

وقال في «روح المعاني» (٣٧/١٠) أيضاً: «في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟﴾ هم المهاجرون الذين هجروا أوطانهم وتركوها لأعدائهم في الله؛ لله ـ عزّ وجلّ ـ».

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا

---

(١) الأنفال: ٧٢ ـ ٧٣.

هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونيّة، وإذا استنفرتُم فانفِروا»[١].

جاء في «تحفة الأحوذي» (٥/٢١٤) وغيره: **«لا هجرة بعد الفتح»** أي: فتح مكة.

قال الخطابي وغيره: كانت الهجرة فرضاً في أوّل الإسلام على من أسلم، لقلّة المسلمين بالمدينة، وحاجتهم إلى الاجتماع، فلمّا فتح الله مكّة، دخل الناس في دين الله أفواجاً، فسقط فرض الهجرة إلى المدينة، وبقي فرض الجهاد والنّية على من قام به أو نزل به عدوّ» انتهى.

وقال (ص٢١٥) منه: **«وكانت الحكمة أيضاً في وجوب الهجرة على من أسلم لِيَسلَم من أذى ذويه من الكفار، فإنهم كانوا يعذّبون من أسلم منهم؛ إلى أن يرجع عن دينه...**

وهذه الهجرة باقية الحُكم في حقّ من أسلم في دار الكُفر، وقدِر على الخروج منها».

«ولكن جهاد ونيّة» قال الطيبي: هذا الاستدراك يقتضي مخالفة حُكم ما بعده لما قبله، والمعنى أنّ الهجرة التي هي مفارقة الوطن التي كانت مطلوبة على الأعيان إلى المدينة انقطعت، إلا أنّ المفارقة بسبب الجهاد باقية، وكذلك المفارقة بسبب نيّة صالحة، كالفرار من دار الكُفر، والخروج في طلب العِلم، والفرار بالدين من الفتن، والنيّة في جميع ذلك».

جاء في «بذل المجهود في حل أبي داود» (١١/٣٧٢): «... وأمّا قوله[٢] فمعناه: لا تنقطع الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام إلى يوم القيامة».

---

(١) أخرجه البخاري: ١٨٣٤، ومسلم: ١٨٦٤ من حديث عائشة هكذا بتمامه، وهو عند مسلم: ١٣٥٣ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ دون قوله: «بعد الفتح».

(٢) أي: قول رسول الله ﷺ: **«لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة...»** وسيأتي تخريجه ـ إن شاء الله ـ.

وجاء فيه أيضاً: «... **عن الخطابي قال: كانت الهجرة في أوّل الإسلام فرضاً، ثمّ صارت مندوبة، وذلك قوله ـ تعالى ـ:** ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ﴾ نزل حين اشتدّ أذى المشركين على المسلمين عند انتقال رسول الله ﷺ إلى المدينة، فأُمروا بالانتقال إلى حضرته، فيكونوا معه، فيتعاونوا إذا حزَبَهم أمر، ويتعلّموا منه أمر دينهم ويتفقّهوا فيه، وكان عظُم الخوف في ذلك الزمان من قريش ومُظاهري أهل مكّة، فلمّا فُتحت مكة، زال المعنى وارتفع وجوب الهجرة، وعاد الأمر فيها إلى الندب فهُما هجرتان: فالمنقطعة منهما هي الفرض، والباقي هي النّدب».

عن سمرة بن جندب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من جامع المُشرك وسكن معه، فإنه مثلُه**»[1].

قال في «نيل الأوطار» (١٧٧/٨): «فيه دليل على تحريم مساكنة الكفار ووجوب مفارقتهم».

عن جرير بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا بريءٌ من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين**» قالوا: يا رسول الله، لِمَ؟

قال: «**لا تراءى ناراهُما**»[2].

قال ابن الأثير في «النهاية»: «أي: يلزم المسلم ويجب عليه أن يُباعد منزله عن منزل المشرك، ولا ينزل بالموضع الذي أُوقدت فيه ناره؛ تلوح وتظهر لنار المشرك إذا أوقدها في منزله، ولكنّه ينزل مع المسلمين في دارهم؛ وإنما كره مجاورة المشركين لأنّهم لا عهْد لهم ولا أمان، وحثّ المسلمين على الهجرة».

وقال: «... ناراهما مختلفتان، هذه تدعو إلى الله، وهذه تدعو إلى الشيطان فكيف يتفقان!».

---

(١) أخرجه أبو داود وغيره، وهو حديث حسن لغيره؛ مُخرّج في «الصحيحة» (٢٣٣٠).

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وغيرهما، وهو حديث صحيح مخرّج في «الإرواء» (١٢٠٧).

وعن جرير ـ رضي الله عنه ـ أيضاً قال: «بايعْت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنّصح لكل مسلم، وعلى فراق المشرك»[(١)].

وجاء في كتاب «العبرة» (ص٢٢٦): «قال ابن حجر المكّي في «فتاواه الحديثيّة»: معناه أنّه يلزم المسلم أن يُبعد منزله عن منزل المشركين أي: الحربيين، ولا ينزل بموضع إذا أوقدت فيه نار؛ تلوح وتظهر النار التي يوقدونها في منزلهم؛ لأنّ النارين متى ترائيا؛ كان معدوداً منهم، وقد تقرّر أنّ الهجرة واجبة من دار الحرب بشروطها، وإسناد التراءي إلى النارين مجاز؛ من قولهم: «داري تنظر إلى دار فلان» أي: تقابلها.

ووجه المناسبة بين العلّة والمعلول في إقامتهم بينهم تكثير سوادهم، وأنّهم لو قصدهم جيش غزاة، ربما منعهم منهم رؤية نيران المسلمين مع نيرانهم، فإنّ العرب كانوا عند تقابل الجيوش؛ يعرفون كثرتها برؤية النيران؛ كما وقع ذلك في إرسالهم لرؤية جيشه ﷺ بمرّ الظهران عند قصْده مكة لفتحها، فلمّا كان في إقامة المسلمين بين أظهر المشركين هذا المحذور العظيم؛ وهو منْع المسلمين من غزوهم أو عدم إدخال مُرعب عليهم؛ بريء من المقيم بين أظهرهم لكونه سبباً لعدم جهادهم».

جاء في حاشية الإمام السّندي (١٤٨/٧): «وصُحبة المشرك قد تؤدي إلى الشرك، والبيعة على ترك الشرك تتضمّن البيعة على ترْك ما يؤدي إليه، فصارت متضمّنة للبيعة على ترْك صُحبة المشرك. والله أعلم».

وفي الحديث: **«كلّ مسلم على المسلم محرّم، أخوان نصيران، لا يقبل الله ـ عزّ وجلّ ـ من مشرك بعدما أسلم عملاً؛ أو يُفارق المشركين إلى المسلمين»**[(٢)].

وعن معاوية ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تنقطع**

---

(١) أخرجه النسائي وغيره، وهو حديث صحيح مخرّج في «الإرواء» (٣١/٥).
(٢) أخرجه النسائي (٣٥٨/١)، وابن ماجه (٢٥٣٦) شطره الثاني وإسناده حسن، وانظر «الإرواء» (١٢٠٧).

الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»[١].

وفي الحديث: **«لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفّار»**[٢].

***

ممّا جاء في دار الإسلام ودار الكفر

دار الإسلام: ما ظهرت فيها الشهادتان والصلاة، ولم تظهر فيها خصلة كفرية إلا بجوار[٣].

قال في «السيل الجرار» (٤/٥٧٥): «أقول: الاعتبار بظهور الكلمة، فإن كانت الأوامر والنواهي في الدار لأهل الإسلام؛ بحيث لا يستطيع من فيها من الكفار أن يتظاهر بكُفره؛ إلا لكونه مأذوناً له بذلك من أهل الإسلام؛ فهذه دار الإسلام، ولا يضرُّ ظهور الخصال الكفرية فيها، لأنّها لم تظهر بقوة الكُفّار ولا بصولتهم؛ كما هو مُشاهد في أهل الذمّة من اليهود والنصارى، والمعاهدين الساكنين في المدائن الإسلامية، وإذا كان الأمر بالعكس فالدّار بالعكس.

وجاء في كتاب «العبرة ممّا جاء في الغزو والشهادة والهجرة» (ص٢٣٣): «وقد سئل العلامة محمّد بن إسماعيل الأمير - رحمه الله - عن دار الكفر، هل هي كما عرف من مفاهيم الكتب أنّها ما ظهرت فيها خصلة كفرية من غير جوار؛ فإن كانت كذلك فلزم مثل أنّ عدن وما والاها أنها ديار كُفر؛ مع أنّ أكثر أهلها من المسلمين؛ تقام فيهم الجمعة والجماعة،

(١) أخرجه أبو داود «صحيح سنن أبي داود» (٢١٦٦)، والدارمي، والنسائي في «السنن الكبرى»، والبيهقي، وأحمد، وغيرهم، وهو حديث صحيح مخرّج في «الإرواء» (١٢٠٨).

(٢) أخرجه النسائي «صحيح سنن النسائي» (٣٨٨٩).

(٣) أي: بأمان وعهد.

ولكن الشوكة فيها للإفرنج، وكذلك نظائرها من بلاد الهند، فما الذي يترجح عندكم؟

فأجاب ـ رحمه الله تعالى ـ بما نصُّه: إنّ الإمام المهدي[١] ـ رحمه الله تعالى ـ ذكر في كتابه «القلائد»[٢] أنّ دار الكفر ودار الإسلام ثابتتان بالإجماع، وإنّما الخلاف في تفسيرهما، فقال الأكثر وهم الهادويّة: إنّ دار الإسلام ما ظهرت فيها الشهادتان والصلاة، ولم تظهر فيها خصلة كفرية ولو تأويلاً[٣] إلا بجوار وذمّة من المسلمين، كإظهار اليهود والنصارى في أمصار المسلمين.

وقال المؤيد بالله وغيره من أهل البيت وأبو حنيفة: بل دار الإسلام ما ظهرت فيها الشهادتان والصلاة، ولو ظهرت فيها الخصال الكفرية من غير جوار.

قيل: والعبرة في الدار بالغلبة والقوة، فإن كانت القوة للكفار من سلطان أو رعيّة، كانت الدار دار الكفر، وإن كانت القوة للمسلمين كانت دار الإسلام.

وقيل: بل العبرة بالكثرة، فإنْ كان الأكثر مسلمين فهي دار الإسلام، وإنْ كان الأكثر كُفّاراً فهي دار كُفر.

وقيل: الحكم للسلطان، فإن كان كافراً كانت الدار دار كُفر؛ ولو كانت الرعيّة كلهم مؤمنين، وإن كان مُسلماً كانت الدار دار إسلام، ولو كانت الرعيّة كلهم كفاراً.

وأمّا الأقطار التي استولى عليها المسلمون، وغلبوا عليها منذ الفتوحات الإسلامية أيام الدولتين الأمويّة والعباسية، وهلمّ جرّا؛ فبعد ظهور

(١) هو أحمد بن يحيى بن المرتضى اليمني المتوفّى سنة (٨٤٠هـ).
(٢) وهو كتاب «القلائد في تصحيح العقائد».
(٣) انظر ردّ الشوكاني على كلمة (تأويلاً) في «السيل الجرار» (٥٧٦/٤)، وسيأتي ـ بإذن الله سبحانه ـ في أقوال العلماء في الهجرة.

كلمة الإسلام بهذا المعنى هي دار الإسلام، إذ الأصل في كل قُطر من أقطار الإسلام بعد ظهور كلمة الإسلام؛ أن يكون إسلام أهله من البقاء على يقين؛ فلا يرتفع عنه إلا بيقين.

فمتى عَلِمنا يقيناً ضروريّاً بالمشاهدة أو السماع تواتُر أنّ الكفار؛ استولوا على بلد من بلاد الإسلام التي تليهم، وغلبوا عليها وقهروا أهلها، بحيث لا يتمّ لهم إبراز كلمة الإسلام إلا بجوار من الكُفّار ـ **صارت دار حرب وإن أقيمت فيها الصلاة ـ**».

يتبيّن لنا مما تقدّم أنّ أكثر الأقوال التي قيلت في تمييز دار الإسلام من دار الكفر، تتعلّق بظهور الشهادتين والصلاة وإبراز الأوامر والنواهي، وغَلَبة المسلمين وقوّتهم وكثرتهم[1] وحُكم سلطانهم، وعدم ظهور خصال كفرية إلا بأمان وعهْد من المسلمين.

* * *

علاقة الهجرة بالجهاد

ولا بُدّ لنا أن نعلم أنّ الهجرة لله ـ تعالى ـ تقترن بالجهاد، ولا فصْل بينهما، بل هي أول مرحلة من مراحل الجهاد، لأنّ الذي هاجر متأذّياً من المشركين لن يخلد إلى الدنيا ويثّاقل إلى الأرض، بل سيكون الجهاد همّه، والقتال في سبيل الله غايته؛ لينال مرضاة الله ـ عزّ وجلّ ـ.

ومن تأمّل كتاب الله ـ عزّ وجلّ ـ رأى اقتران كلمة (الجهاد) بكلمة (الهجرة)، فانظر الآيات الآتية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾[2].

---

(١) ولا عبرة بالكثرة إلا إذا كانت قويّة غالبة؛ تستطيع إظهار دين الله ـ عزّ وجلّ ـ.
(٢) البقرة: ٢١٨.

فاقتران الهجرة بالجهاد بيّن، ولم يَرِدْ فصل بين كلمة (هاجروا) و (جاهدوا) بالاسم الموصول إذ لم يقُل الله سبحانه: إنّ الذين آمنوا والذين هاجروا والذين جاهدوا في سبيل الله!.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ۖ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾[١].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾[٢].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾[٣].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ ۚ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾[٤].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾[٥].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾[٦].

---

(١) آل عمران: ١٩٥.
(٢) الأنفال: ٧٢.
(٣) الأنفال: ٧٤.
(٤) الأنفال: ٧٥.
(٥) التوبة: ٢٠.
(٦) النحل: ١١٠.

فالأصل إذن اقتران كلمة (الجهاد) بـ (الهجرة).

أمّا الآيات التي لم يرِد فيها اقتران الهجرة بالجهاد؛ فهي آيات قليلة، وردَ فيها توبيخ من لم يهاجر، كقوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾(١).

فهل يطالب بالأكثر من لم يأتِ بالأدنى.

ومثلها قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٢).

وكقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾(٣)، فهل يطلب الجهاد ممّن لم يهاجر؟!

وورد في بعض المواطن الترغيب في الهجرة، فلم تقترن بلفظ الجهاد كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾(٤).

وغالب الآيات وردت في سورة النساء لأنّ السياق يتحدّث عمّن تخلّف عن الهجرة، والله أعلم.

وعندما علَّل الكثير من العلماء استحباب الهجرة؛ لمن قدر على إظهار دينه(٥) ولم يخش الفتنة، ذكروا تكثير المسلمين والإعداد للجهاد في سبيل الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

ومن أراد البحث عن مسألة الهجرة فإنّه يجدها في (كتاب الجهاد) من كتب العلماء والفقهاء؛ لِمَا بينهما من صِلَةٍ وارتباط.

* * *

(١) النساء: ٩٧.
(٢) النساء: ٨٩.
(٣) الأنفال: ٧٢.
(٤) النساء: ١٠٠.
(٥) سيأتي تفصيل هذا الباب الآتي ـ إن شاء الله تعالى ـ.

من أقوال العلماء في الهجرة[١]

اعلم - رحمني الله وإيّاك - أنّ أقوال العلماء التي توجب الهجرة لمن قَدِرَ عليها وخشي الفتنة، ولا يُمكنه إظهار دينه بين الكفّار كثيرة، فاكتفيت بإيراد ما استطعته من ذلك، وذكرْت كذلك ما تيسّر لي ذكرُه؛ ممّن يرون استحباب الهجرة لمن قدر عليها، مع تمكّنه من إظهار دينه بين الكُفّار.

مذهب الجمهور في الهجرة:

قال العلامة أبو الطيب صدّيق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري في كتاب «العبرة» (ص٢٣٣): «قال الموزعي[٢] في «تيسير البيان»[٣]: قال الجمهور: تجب الهجرة من سائر بلاد الحرب إلى دار الإسلام؛ على من لا يقدر على إظهار دينه، ولا تجب على من يقدر عليه بعشيرة، أو رياسة؛ كما جاز ذلك للعباس - رضي الله عنه - لكن يستحبُّ له المهاجرة.

وكذا الحكم في الهجرة في زمننا؛ تجب عليه إن كان لا يتمكّن من إظهار دينه، وتستحبُّ إن كان يتمكّن من إظهاره.

والبدعة تجري مجرى الكفر في وجوب الهجرة واستحبابها، وأمّا سائر

---

(١) هناك عدّة أقوال للعلماء لم أذكرها هنا؛ لأنّي ذكرتها في (باب من النصوص المتعلّقة بالهجرة ومفارقة ديار الشرك) إلا قول ابن العربي ذكرته هناك مختصراً.

(٢) نسبة إلى (موزع) كمجمع؛ قرية كبيرة باليمن على طريق الحاج من عدن، متوفى نحو (٨٢٠هـ) «الأعلام» (٢٨٧/٦) ونعته السخاوي في «الضوء اللامع» (٢٢٣/٨) بـ «الإمام الأصولي».
وقد وقع في هذا الكتاب بالراء وفي «الأعلام» و «العبرة» بالزاي.

(٣) كتاب «تيسير البيان لأحكام القرآن» لجمال الدين محمد بن علي بن عبدالله المعروف بابن نور الدين، فرغ منه سنة (٨٠٨هـ). «إيضاح المكنون» (٣٤٣/١). وهو مخطوط؛ المجلد الأوّل منه بالبصرة في خمسمائة صفحة، فرغ من تأليفه سنة (٨٠٨هـ). «الأعلام للزركلي» (٢٨٧/٦).

المعاصي فيستحب، ولا تجب الهجرة لأجلها، إلا أن يغلب عليها الحرام؛ فإنّ طلب الحلال فرض».

وقال الإمام الصنعاني في «سبل السلام» (٧٩/٤) بعد إيراد حديث: «**أنا بريء من كلّ مسلم يقيم بين المشركين**»: «والحديث دليل على وجوب الهجرة من ديار المشركين من غير مكّة، وهو مذهب الجمهور».

قال أبو بكر محمّد بن عبدالله المعروف بابن العربي المتوفى سنة (٥٤٣هـ) في «أحكام القرآن» (٤٨٤/١) في مسألة الهجرة[1]:

«... وهي تنقسم إلى ستة أقسام:

الأول: الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام...

الثاني: الخروج من أرض البدعة.

قال ابن القاسم: «سمعت مالكاً يقول: لا يحلّ لأحدٍ أن يقيم ببلد سُبَّ فيها السلف».

قال ابن العربي: وهذا صحيح؛ فإنّ المنكر إذا لم يُقدر على تغييره نزل عنه، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾[2].

وقد كنت قلتُ لشيخنا الإمام الزاهد أبي بكر الفهري: ارحل عن أرض مصر إلى بلادك. فيقول: لا أُحبُّ أن أدخلَ بلاداً غلب عليها كثرة الجهل وقلّة العقل.

---

(١) ومن أهمّ أنواع الهجرة ما كان في طلب العلم، وما أكثر ما قام به المخلصون العاملون ـ والتاريخ بهذا حافل ـ فقد تركوا الأهلين والأقربين والأوطان والملذّات تقرّباً من الله ـ تعالى ـ ومسارعة إلى جنّة عرْضها السماوات والأرض، يجوبون البلاد، ويقطعون المفاوز والصحارى، ويتحمّلون الصعاب والعناء.

(٢) الأنعام: ٦٨.

فأقول له: فارتحل إلى مكة؛ أقم في جوار الله ورسوله؛ فقد علمتَ أنّ الخروج عن هذه الأرض فرض؛ لما فيها من البدعة والحرام.

فيقول: وعلى يدي فيها هُدىً كثير، وإرشادٌ للخلق، وتوحيدٌ، وصدٌّ عن العقائد السيئة، ودعاء إلى الله - عزّ وجلّ -.

الثالث: الخروج عن أرض غلب عليها الحرام؛ فإنّ طلب الحلال فرض على كل مسلم.

الرابع: الفرار من الإذاية في البدن، وذلك فضلٌ من الله - عزّ وجلّ - أرخص فيه، فإذا خشي المرء على نفسه في موضع؛ فقد أذِن الله - سبحانه - له في الخروج منه، والفرار بنفسه؛ ليخلّصها من ذلك المحذور[(١)].

الخامس: خوف المرض في البلاد الوخمة، والخروج منها إلى الأرض النزهة[(٢)].

السادس: الفرار خوف الإذاية في المال؛ فإنّ حرمة مال المسلم كحرمة دمه والأهل مثله أو آكد.

قال ابن قدامة المقدسي - رحمه الله - المتوفى سنة (٦٣٠هـ) في «المغني» (١٠/٥١٥): «**فالنّاس في الهجرة على ثلاثة أضرب**:

أحدها: من تجب عليه، وهو من يقدر عليها، ولا يمكنه إظهار دينه، ولا تمكنه إقامة واجبات دينه مع المقام بين الكفار، فهذا تجب عليه الهجرة لقول الله - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾[(٣)].

---

(١) واستدلّ على ذلك بفرار إبراهيم وموسى - عليهما الصلاة والسلام -.

(٢) وذكر قصة الرعاة حين استوخموا المدينة، وأذن لهم النّبيّ ﷺ بالتنزّه إلى السرح، واستثنى من ذلك الطاعون.

(٣) النساء: ٩٧.

وهذا وعيد شديد يدلُّ على الوجوب، ولأنّ القيام بواجب دينه واجب على من قدر عليه، والهجرة من ضرورة الواجب وتتمّته، وما لم يتمّ الواجب إلا به فهو واجب.

الثاني: من لا هجرة عليه، وهو يعجز عنها؛ إمّا لمرض أو إكراه على الإقامة أو ضعف من النساء والوِلدان وشبههم، فهذا لا هجرة عليه لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾[1].

ولا توصف باستحباب لأنها غير مقدور عليها.

والثالث: من تستحب له ولا تجب عليه وهو من يقدر عليها، لكنّه يتمكن من إظهار دينه، وإقامته في دار الكفر، **فتستحب له؛ ليتمكّن من جهادهم وتكثير المسلمين ومعونتهم**، ويتخلّص من **تكثير الكفار ومخالطتهم، ورؤية المنكر بينهم**... ولا تجب عليه لإمكان إقامة واجب دينه بدون الهجرة، وقد كان العبّاس عمّ النّبيّ ﷺ مقيماً بمكة مع إسلامه.

وقال الإمام مجد الدين أبو البركات ـ رحمه الله ـ المتوفى سنة (٦٥٢هـ) في «المحرر» (٢/١٧٠): «والهجرة من دار الحرب مستحبة لمن أمكنه إظهار دينه بها».

وقال الإمام محمّد بن أحمد الأنصاري القرطبي المتوفى سنة (٦٧١هـ) في كتابه «الجامع لأحكام القرآن» (٥/٣٤٨) بعد قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾: «قال مالك: هذه الآية دالّة على أنّه ليس لأحد المقام بأرض يُسبُّ فيها السّلف[2]؛ ويُعمل فيها بغير الحقّ».

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ المتوفى سنة (٦٧٦هـ) في «روضة الطالبين» (١٠/٢٨٢): «المسلم إذا كان ضعيفاً في دار الكفر؛ لا يقدر على إظهار الدين؛ حرُم عليه الإقامة هناك، وتجب عليه الهجرة إلى دار الإسلام، فإنْ لم يقدر على الهجرة فهو معذور إلى أن يقدر».

---

(١) النساء: ٩٨ ـ ٩٩.

(٢) تقدّم.

وجاء في «مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية» ـ رحمه الله ـ (٢٨/٢٤٠) المتوفى سنة (٧٢٨هـ): وسئل ـ رحمه الله ـ عن بلد «ماردين» هل هي بلد حرب أم بلد سِلم؟ وهل يجب على المسلم المقيم بها الهجرة إلى بلاد الإسلام أم لا؟ وإذا وجبت عليه الهجرة ولم يهاجر؛ وساعد أعداء المسلمين بنفسه أو ماله، هل يأثم في ذلك؟ وهل يأثم من رماه بالنّفاق وسبّه أم لا؟

فأجاب: الحمد لله، دماء المسلمين وأموالهم محرّمة حيث كانوا في «ماردين» أو غيرها، وإعانة الخارجين عن شريعة دين الإسلام محرّمة؛ سواء كانوا أهل «ماردين» أو غيرهم، والمقيم بها إن كان عاجزاً عن إقامة دينه وجبت الهجرة عليه، وإلا استُحبّت ولم تجب».

وقال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ المتوفى سنة (٨٥٢هـ) في «الفتح» (٦/١٩٠) في شرح حديث «لا هجرة بعد الفتح»: «... **فمن به**[١] **من المسلمين أحد ثلاثة:**

الأول: قادر على الهجرة منها؛ لا يمكنه إظهار دينه ولا أداء واجباته؛ فالهجرة منه واجبة.

الثاني: قادر لكنّه يمكنه إظهار دينه وأداء واجباته، فمستحبّة لتكثير المسلمين بها ومعونتهم، وجهاد الكفار **والأمن من غدرهم والراحة من رؤية المنكر بينهم.**

الثالث: عاجز يُعذر من أسر أو مرض أو غيره؛ فتجوز له الإقامة، فإن حَمل على نفسه وتكلّف الخروج منها أُجر».

وقال العلامة علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي[٢] ـ

---

(١) أي: البلد الذي لم يفتحه المسلمون.

(٢) قال أبو الفلاح عبدالحي بن العماد الحنبلي، مترجماً له في كتابه «شذرات الذهب» (٧/٣٤٠) في وفيّات سنة (٨٨٥هـ): «وفيها علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان بن أحمد بن محمّد المرداوي السعدي الصالحي الحنبلي، الشيخ الإمام العلامة المحقّق، المتفنّن أعجوبة الدهر شيخ المذهب وإمامه ومصحّحه ومنقّحه، بل شيخ الإسلام على الإطلاق ومحرّر العلوم بالاتفاق».

رحمه الله ـ المتوفى سنة (٨٨٥هـ) في كتاب «الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام المبجّل أحمد بن حنبل» ـ رحمه الله تعالى ـ (١٢١/٤): وتجب الهجرة على من يعجز عن إظهار دينه في دار الحرب؛ بلا نزاع في الجملة.

ودار الحرب: ما يغلب فيها حُكم الكفر ـ زاد بعض الأصحاب منهم صاحب «الرعايتين» و«الحاويتين» ـ أو بلد بُغاة أو بدعة؛ كرفْض واعتزال.

قلتُ ـ أي العلامة المرداوي ـ رحمه الله ـ: «وهو الصواب، وذلك مقيّد بما إذا أطاقه، فإذا أطاقه وجبت الهجرة...».

ثمَّ قال تعليقاً على عبارة (وتستحبُّ لمن قدر عليها): «**هذا المذهب، وعليه جماهير الأصحاب، وجزم به في «الهداية»** و«المذهّب» و«مسبوك الذهب» و«الخلاصة» و«المغني» و«الشرح» و«المحرر» و«الوجيز»، وغيرهم وقدّمه في «الفروع» وغيره، وقال ابن الجوزي تجب عليه وأطلق.

وذكر العلامة المناوي ـ رحمه الله ـ المتوفّى سنة (١٠٣١هـ) في «فيض القدير» (٤٣٨/٦) كلام الحافظ إقراراً، ولم يورد سواه اعتراضاً أو إنكاراً.

وقال الإمام مرعي بن يوسف الكرمي ـ رحمه الله ـ المتوفّى سنة (١٠٣٣هـ) في «دليل الطالب»: «والهجرة واجبة على كل من عجَز عن إظهار دينه بمحلٍّ؛ يغلب فيه حُكم الكُفر والبدع المضلّة، فإنْ قدر على إظهار دينه **فمسنون**»[(١)].

وقال الشيخ العلامة منصور بن يونس بن إدريس البهوتي ـ رحمه الله ـ فقيه الحنابلة في وقته ـ المتوفّى سنة (١٠٥١هـ) في كتاب «شرح منتهى الإرادات» (٩٤/٢): «ويجب على عاجز عن إظهار دينه بمحلّ يغلب فيه حُكم كُفر، أو يغلب فيه حُكم بدع مضلّة كاعتزال وتشيّع؛ الهجرة أي: الخروج من تلك الدّار إلى دار الإسلام والسنّة؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ الآيات.

(١) انظر «منار السبيل في شرح الدليل» (٢٧١/١).

وعنه ﷺ: **«أنا بريء من مسلم بين مشركين؛ لا تراءى ناراهما»**[١] رواه أبو داود والترمذي، أي: لا يكون بموضع بين أهل المعاصي.

وسنّ هجرة لقادر على إظهار دينه بنحو دار كُفر؛ ليتخلّص من تكثير الكفّار، ويتمكّن من جهادهم».

وقال الإمام العلامة الشوكاني ـ رحمه الله ـ المتوفى سنة (١٢٥٥هـ) في «السيل الجرار» (٤/٥٧٦): «... وإن كانت الفائدة وجوب الهجرة عن دار الكُفر؛ فليس هذا الوجوب مختصاً بدار الكُفر؛ بل هو شريعة قائمة، وسُنّة ثابتة عند استعلان المنكر، وعدم الاستطاعة للقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعدم وجود من يأخذ على أيدي المنتهكين لمحارم الله، فحقٌّ على العبد المؤمن أن ينجو بنفسه ويفرّ بدينه، إن تمكّن من ذلك، ووجد أرضاً خالية عن التظاهر لمعاصي الله، وعدم التناكر على فاعلها، فإنْ لم يجد فليس في الإمكان أحسن ممّا كان، وعليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، كما أرشد إلى ذلك الصادق المصدوق فيما صحّ عنه.

وإذا قدر على أن يُغلِق على نفسه بابه، ويضرب بينه وبين العصاة حجابه؛ كان ذلك من أقلّ ما يجب عليه».

وقال (ص٥٧٧) منه: «فإن كان التظاهر بالمعاصي في غير بلده أقل ممّا هو ببلده؛ كان ذلك وجهاً للهجرة».

ثم شرح قول المهدي: «إلا لمصلحة» (ص٥٧٧) منه فقال: «فوجهه ظاهر، فإنّها إن كانت المصلحة العائدة على طائفة من المسلمين ببقائه ظاهرة؛ كأن يكون له مدخل في بعض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو في تعليمه معالم الخير؛ بحيث يكون ذلك راجحاً على هجرته وفراره بدينه فإنّه يجب عليه ترْك الهجرة، رعاية لهذه المصلحة الرّاجحة؛ لأنّ هذه

---

(١) في سنن أبي داود «صحيح سنن أبي داود» (٢٣٠٤): **«أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين»** قالوا: يا رسول الله لمَ؟ قال: **«لا تراءى ناراهما»**.

المصلحة الحاصلة له بالهجرة على الخصوص؛ تصير مفسدة بالنسبة إلى المصلحة المرجوّة بتركه للهجرة».

ملاحظات:

١ ـ إنّ الشوكاني في شرحه وإقراره قول المهدي ـ رحمهما الله تعالى ـ لم يذكر هذا الرأي أصلاً لكلّ المسلمين، إذ يجب على من لم يقدر على إظهار دينه بين الكفّار أن يهاجر، ولكن ما ذُكر ها هنا لصنف معيّن من الناس، وطائفة محدّدة من المسلمين؛ قويّة في دينها ودعوتها ومعرفتها أمور الدين، فقد ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم معالم الخير.

٢ ـ وهؤلاء بالطبع سيكونون عوناً لمن عجز عن الهجرة، ولمن لم تجب عليه، إذ الأصل الهجرة كما تقدّم.

٣ ـ إذا تحقّق هذا عمليّاً ـ لا نظريّاً ـ فإنّ للرأي قوّته في عدم الهجرة، وهي مخالفة لما ذكَره الونشريسي ـ رحمه الله ـ في الرسالة التي أفردها في هذه المسألة؛ كما سيأتي إن شاء الله ـ تعالى ـ.

٤ ـ هذا أحد قولي الشوكاني ـ رحمه الله ـ.

فقد قال ما يخالفه في «نيل الأوطار» (١٧٨/٨) في ردّه على الماوردي ـ رحمه الله ـ حين قال: «إذا قَدِر على إظهار الدين في بلد من بلاد الكفر، فقد صارت البلد به دار إسلام[1]؛ فالإقامة فيها أفضل من الرحلة عنها؛ لما يُترجّى من دخول غيره في الإسلام».

---

(١) هنا الخلاف في تحديد دار الإسلام من دار الكفر، وقد اشترط الماوردي ـ رحمه الله ـ القدرة على إظهار الدين، وقال: فقد صارت البلد به دار إسلام، وبهذا ينتهي النّزاع.
وممّا عرّف العلماء به دار الإسلام: «ما ظهر فيه الشهادتان والصلاة، ولم تظهر فيها خَصْلة كُفريّة من غير جوار».
وقوله هذا يُفهم كثرة المسلمين وقوّتهم واضمحلال الكفر وأهله، وبذلك يُظهرون الدين، وبذلك صارت البلد دار إسلام، ولا أحسب أحداً يقول: الرحيل من دار الإسلام خير من الإقامة فيها، ولذا استحبّ العلماء هجرة القادر على إظهار دينه في دار الكفر، لتكثير المسلمين وللإعداد للجهاد في سبيل الله ـ تعالى ـ

فقد كان رد الشوكاني ـ رحمه الله ـ: «ولا يخفى ما في هذا الرأي من المصادمة لأحاديث الباب القاضية بتحريم الإقامة في دار الكفر».

فلمّا كان عمله في «نيل الأوطار» شرح أحاديث المنتقى والتوسّع فيها؛ كان متأثراً بالنُّصوص، بيْد أنّه في «شرح كتاب الأزهار» كان في صدد شرح عبارات المهدي ـ رحمه الله ـ والتوسُع فيها ـ مع علمي بمخالفاته له في العديد من الأمور فكان من أمره ما كان.

خُلاصة كلام الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ :

في هذه الفتوى مجال للاجتهاد وفي الأمر سعة، وهي ليست لكلّ المسلمين، وإنّما لنفر قليل قويّ في دينه وعلمه ودعوته يخدم فيها من لم تجب عليه الهجرة أو من لم يستطِعها، ومتى لمس أيّ شخص أو خشي الافتتان في الدين؛ فقد وجبت عليه الهجرة من ديار الكُفر.

وقال الشوكاني أيضاً في «نيل الأوطار» (١٧٩/٨): «(باب بقاء الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام): وقد حُكي في«البحر» أنّ الهجرة عن دار الكفر واجبة إجماعاً؛ حيث كان حمل على معصية فعل أو ترك، أو طلبها الإمام تقوية لسلطانه».

وقال الإمام أبو الطيب صديق حسن البخاري ـ رحمه الله ـ المتوفّى سنة (١٣٠٧هـ) في كتاب «العبرة ممّا جاء في الغزو والشهادة والهجرة» (ص٢٣٩): «قال الشيخ جمال المكّي في بعض فُتياه: الهجرة التي تكون من المسلم لإصلاح دينه إلى مكّة أو غيرها من مدن الإسلام فإنها باقية، وثابت حُكمها مدى الدهر والأيام، كما نصّ عليه الأئمة الأعلام.

قال إسماعيل الحقّي ـ رحمه الله ـ في تفسيره «روح البيان» عند قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾: الآية الكريمة إرشاد إلى وجوب المهاجرة من موضع لا يتمكن الرجل فيه من إقامة أمر دينه، بأيّ سبب كان.

وقال الحرادي في «تفسيره»: فيه دليل على أنّه لا عُذر لأحد في المقام على المعصية في بلد لأجل المال والولد والأهل، بل ينبغي أن يفارق

وطنه؛ إن لم يمكنه إظهار الحق فيه؛ ولهذا روي عن سعيد بن جبير أنّه قال: إذا عُمل بالمعاصي في أرض فاخرج منها».

واستأنف أبو الطيب قوله (ص٢٤٠) منه: «وأمّا حُكم من ينتقل إلى هذه البلدة المأخوذة التي استولى عليها أهل الكفر، فهو عاص فاسق مرتكب لكبيرة من كبائر الإثم؛ إنْ لم يرض بالكُفر وأحكامه، فإن رضي بها ـ ونعوذ بالله منه ـ فهو كافر مرتد، تجري عليه أحكام المرتد.

وليتأمّل العاقل أنّه ما الحامل لهذا المسلم على النقلة من دار الإسلام الخالية عن الكفار؛ إلى الدار التي أخذها الكفار، وأظهروا فيها كُفرهم، وقهروا من فيها بأحكامهم الطاغوتيّة الكفرية؛ إلا الزيغ وحبّ الدنيا التي هي رأس كلّ خطية، وجمْع حطامها من غير مبالاة بحفظ الدين، وعدم الأنفة من إهانة التوحيد، ومحبة جوار أعداء الله على جوار أحبّائه، والله ـ تعالى ـ يقول: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، ويقول: ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]، ويقول: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾[2].

فيتأمّل قوله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾، وهذا حُكم من بُلي بمجاورتهم، فما بالك بحُكم من تكلّف النّقلة لجوارهم، فكيف يُشك في ضلاله وفساد دينه، والعياذ بالله ـ تعالى ـ.

وقال (ص٢٥٠) بحذف: «وأمّا أن تكون دار إسلام استولى عليها الكفار، ووجب علينا مقاومتهم واستنقاذها من أيديهم، فحامل البضائع والميرة[3] إليهم عاصٍ لله ورسوله، مرتكب كبيرةً، فيُزجر عن ذلك فإن لم ينزجر؛ عزّره الحاكم، فمن له ولاية من المسلمين، ولو يحبسه ويمنعه عن السير إليها، فإن لم يمتنع جاز ردّ حمْله من الطريق؛ محاصرة للكفار، وهو باق على ملك صاحبه ولا يجوز قتْله، بل يدفع عن ذلك بالأحسن الذي لا

---

(١) الأنعام: ٦٨.

(٢) النساء: ١٤٠.

(٣) المِيرة ـ بكسر الميم ـ: جلب الطعام.

يؤدي إلى مؤلم، ومن يعينه على ذلك، فهو شريكه في الإثم، سواء كانت إعانته بقول أو فِعل.

وأمّا جهةٌ ملَكها الكفار وفيها المسلمون متوطنون بأموالهم وأولادهم، أسكُونهم[1] في بلادهم هذه التي قد مُلكت جائزة أم لا؟ وهل هم سالمون من الإثم؛ مع أنّهم غير راضين بذلك، ويباغضون ذلك الكافر، ويرون قعودهم في بلادهم كالضرورة؟... ومع ذلك إذا عزموا على التحول فلا يدان لهم عليه، وما حُكمهم وحُكم من يحبهم من هؤلاء ويبغضهم ومن يمتثل أمرهم؛ وهم عالمون أنّ حُكمهم مخالف لشريعة الإسلام؟ وما حكم المتوطن بها إذا حُكم عليه بغير شريعته الإسلامية؟ بل بقانون الكفر؛ هل يمتثل ويرضى ويسكن أو يعصي ويهاجر؟

فالجواب أنّه يعلم حكم ذلك مما نقصّه عليك من كلام علمائنا ـ رحمهم الله تعالى ـ:

قال في «المنهاج» وشرحه «التحفة» ما لفْظه: «والمسلم بدار كُفر أي: حرب، ويظهر أنّ دار الإسلام التي استولوا عليها كذلك إن إمكنه إظهار دينه؛ ولم يرْج ظهور الإسلام استُحبّ له الهجرة إلى دار الإسلام؛ لئلا يكثر سوادهم وربما كادوه، ولم تجب بقدرته على إظهار دينه، ولم يحرم هناك مقامه؛ لأنّ من شأن المسلم بينهم القهر والغلبة لا العجز.

ومن ثمّ لو رجا ظهور الإسلام بمقامه، ثمّ كان مقامه أفضل، أو قدِر على الامتناع والاعتزال... ولم يرْج نصرة المسلمين بالهجرة، كان مقامه واجباً لأنّ محلّه دار إسلام، فلو هاجر لصار دار حرب، ثمّ إنْ قدر على قتالهم ودعائهم إلى الإسلام لزم، وإلا فلا.

والظاهر أنّه يتعذّر عود هذه الدار دار كفر، وإن استولوا عليها؛ كما صرّح به الخبر الصحيح:

---

(١) قال في «اللسان» : «سكن بالمكان يسكُن سُكنى وسكوناً: أقام» قال كثير عزّة:
وإن كان لا سُعْدى أطالت سُكونَهُ ولا أهلُ سُعْدى آخرَ الدهر نازلُه

«الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه»[١].

فقولهم: لصار دار حرب: المراد به صيرورته كذلك صورة لا حُكماً، وإلا يمكنه إظهار دينه، أو خاف فتنة في دينه، وجبت الهجرة إن أطاقها وأَثِم بالإقامة، فإن لم يُطقها فمعذور لقوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالُوٓاْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ الآية.

وللخبر الصحيح: **«لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار»**[٢].

فقد تقرر أنّ أهل البلد المذكور؛ **إنْ أمكنهم إظهار دينهم وأمِنوا الفتنة، ولم يرجوا نصرة المسلمين استحبّت لهم الهجرة، وإن أمكنهم الاعتزال وإظهار الدين والذب**[٣] **عن أنفسهم وجب عليهم المقام**، وإن لم يمكنهم إظهار دينهم أو خافوا فتنة في دينهم وجبت عليهم الهجرة إن أطاقوها.

وهذا حاصل الكلام في أهل البلدة المذكورة، ويُعلم منه أنّ من وجبت عليه الهجرة أَثِم بالإقامة، ومن لم تجب عليه لا إثم عليه بالإقامة، ومن لا إثْم عليه؛ فإيمانه كامل إن أتى بأمور الإيمان كلها، ومن هو آثم بالمقام فإيمانه ناقص، وإن أتى بأمور الإيمان كلّها.

ويُعلم من ذلك أيضاً أنّ التفاوت معلوم بحسب الحب والبغض القلبيين، والممتثل لأمرهم بغير إكراه ولا استضعاف عاص، ومن امتثَل إكراهاً وقلبه كاره فهو غير آثم، فحُكم الإكراه على ما دون الكفر حُكم الإكراه على الكفر.

نعم؛ من أُكره وهو قادر على الهجرة عصى؛ لأنّه هو الذي أعانهم بالمقام بين أظهرهم، والله أعلم.

---

(١) أخرجه الدارقطني في «سننه»، والبيهقي، ومحمّد بن هارون الروياني في «مسنده»، وغيرهم. وهو حسن لذاته في «الفتح» (٣/٢٢٠)، ولغيره في «الإرواء» (١٢٦٨).

(٢) تقدّم في (باب من النصوص المتعلّقة بالهجرة).

(٣) ينبغي الانتباه إلى إمكان إظهار الدين، والذب عن النفس؛ فيكون لديهم من الإعداد والقوة؛ ما يدرأ استئصال الشّأفة والقضاء التامّ.

وقال (ص٢٤١) وما بعدها في نفس الكتاب: «وأمّا حُكم جباية الأموال إلى هذه البلدة، وإحيائها وتشييد البنيان فيها؛ فالواجب المقرّر المعتبر شرعاً في مثل هذه البلدة المأخوذة مقاومة الكفار من أهل البلد، ومن كان على دون مسافة القصر منها، ومن كان فوقها يلزمه الموافقة لأهل ذلك المحلّ؛ بقدر الكفاية إن لم يكْف أهلها، هذا حُكم مِثل هذه البلدة».

وعبارة «المنهاج» مع شرحه «التحفة» الثاني: «من خالى الكفار يدخلون بلدة لنا، كان خطباً عظيماً، فيلزم أهلها الدفع بالممكن من أي شيء أطاقوه، فإن أمكن التأهّب للقتال؛ وجب الممكن في دفْعهم؛ حتى على فقير وولد وتدين[1] وعبد وامرأة فيهما قوة، وإلا يمكن تأهّب للقتال، فمن قُصد منا دفع عن نفسه بالممكن، ومن هو دون مسافة القصر من البلد، وإن لم يكن من أهل الجهاد؛ كأهلها في تعيين وجوب القتال، ومن على المسافة المذكورة فما فوقها، يلزمهم إن وجدوا زاداً وسلاحاً ومركوباً الموافقة بقدر الكفاية؛ إن لم يكف أهلها ومن يليهم دفعاً وإنقاذاً لهم» انتهى.

فإن كان الواجب في حقّ المسلمين أهل البلد المذكورة ومن دون مسافة القصر عيناً ـ ومن فوقها كفاية ـ هو المقاومة للكفار المذكورين، وإنقاذ من فيها من المسلمين وإخراجهم منها بالمحاربة والمحاصرة والمضايقة الشديدة، كما أمر الله ـ تعالى ـ في كتابه بقوله عز قائلاً: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ﴾...[2] الآية وهي في الكفار الذين ببلدهم ـ فما حُكم من أخذوا بلدتنا، وكسروا بيضتنا، واستباحوا حُرمتنا، إلا ذلك، بل لهم منه بالأحقّ وإلا وجب الأخرى[3].

فمن شدَّ الرّحال وزمّ السفن والأجمال إلى هذه الدار وحمل إليها

---

(١) كذا الأصل ولعلّها (مدين).

(٢) التوبة: ٥.

(٣) كذا الأصل ولعلّ الصواب: «بالأحقّ والأوجب والأحرى» وهذه من ملاحظات أحد طُلاب العِلم.

الأمتعة والأبذار، وأحيا أسواقها بالبيوعات وشوارعها بالروحات والغدوات، وعمّر فيها البنيان وشيّد بها العمران، فقد خالف الشريعة المحمدية ونبذ العهود الإلهية، ورضي بأحكام الجاهلية: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾[1].

وقد سئل ابن سيرين عن رجل يبيع داره من نصراني، يتخذها بيعة؟ فتلا قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[2] الآية.

فكيف حُكم من يتولاهم بجلب الميرة[3] والبضائع والأموال؛ التي تقوّيهم وتشدّ شوكتهم على الإسلام، وبمن يذل لعزتهم ويتضعضع لصولتهم ويخضع لأحكامهم، فأنّى له بعد ذلك التسمّي بعنوان الإيمان والإسلام، وقد استسلم لأحكام الكفر، أيبتغون عندهم العزّة؟ فإنّ العزّة لله جميعاً! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا[4]...﴾[5] الآية، فالبطانة: الدّخلاء والأخلاء يصدق على اتخاذهم كُتاباً، وحسّابين، وبوّابين، ومأمين، إلى غير ذلك من أصناف البطانة[6]، علّل ـ سبحانه ـ النهي عن ذلك؛ بأنّهم يحبون مشقّتنا وقد

---

(١) آل عمران: ٨٣.

(٢) المائدة: ٥١.

(٣) الميرة: الطّعام يجمع للسفر ونحوه. «الوسيط».

(٤) ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾: أي لا يقصرون ولا يتركون جهدهم فيما يورثكم الشر والفساد، والخبال: الشر والفساد. «شرح البغوي».

(٥) آل عمران: ١١٨.

(٦) ومن هذا الباب كان عمر ـ رضي الله عنه ـ يكره العلوج ـ وهم الرجال من كُفار العجم ـ أن يتسرّبوا بالمسلمين ويختلطوا بهم، كما في «صحيح البخاري» (٣٧٠٠) في قصّة مقتله ـ رضي الله عنه ـ: وقد طُعن ثلاثة عشر رجلاً من المسلمين وطُعن عمر ـ رضي الله عنه ـ نفسه، قال عمرو بن ميمون: «فلما انصرفوا قال: يا ابن عباس انظر من قتلني. فجال ساعة، ثمّ جاء فقال: غلام المغيرة. =

ظهرت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر، فلا يعزّون بعد إذ أهانهم الله، ولا يقرّبون بعد إذ أبعدهم الله ـ تعالى ـ.

وحاصل القرآن مقاطعة الكفار من جميع الوجوه، ومباينتهم في كافة الأحوال؛ فلا مواصلة بيننا وبينهم قطّ.

وأمّا القوم الذين في بلاد الإسلام من المسلمين، ويدّعون أنّهم من رعية النصارى ويرضَون بذلك ويفرحون به، وأنهم يتخذون لسفنهم بيارق ـ وهي التي تسمى الرايات مثل رايات النصارى ـ إعلاماً منهم بأنهم من رعاياهم، فهؤلاء قوم أُشربوا حبّ النصارى، واستحضروا عظمة مُلكهم وصولتهم، ولاحظوا الذي أقرّ الدنيا بأيديهم التي هي حظهم من الدنيا والآخرة، وقصّروا نظرهم على عمارة الدنيا وجمْعها، وأنّ النصارى أقوم لحفظها ورعايتها؛ فإنْ كان القوم المذكورون جُهّالاً؛ يعتقدون رفعة دين الإسلام وعلوّه على جميع الأديان، وأنّ أحكامه أقوم الأحكام، وليس في

= قال: الصّنع[أ]؟ قال: نعم، قال: قاتله الله؛ لقد أمرت به معروفاً، الحمد لله الذي لم يجعل ميتتي بيد رجل يدّعي الإسلام، قد كنت أنت وأبوك تحبّان أن تكثر العلوج بالمدينة ـ وكان العبّاس أكثرهم رقيقاً ـ» فقال إن شئت فعلتُ ـ أي: إن شئت قتلْنا ـ. قال: «كذبت[ب]، بعدما تكلّموا بلسانكم، وصلّوا قبلتكم، وحجّوا حجّكم». ويفهم من هذا النّص؛ اعتراض عمر ـ رضي الله عنه ـ على العلوج، مخافة تسرّب الأخطار على المسلمين، وخشية إيقاع الأذيّة في دينهم وأخلاقهم وأبدانهم؛ هذا وهم تحت حُكم المسلمين، بل كانوا تحت حُكم عمر ـ رضي الله عنه ـ الذي تفِرُّ منه الشياطين، وبه، أغلق الله باب الفتنة، وحين يتكلّم هذا الصنف بألسنتنا، ويُصلُّون صلاتنا، ويحجّون حجّنا؛ فنحن في خطر؛، ومن أبرز الأمثلة على ذلك قتْلهم خليفة المسلمين، فكيف إذا كنّا تحت حُكمهم وسُلطانهم، وتكلّمْنا بألسنتهم، وفُتنّا بعقيدتهم، وبُهرنا بحضارتهم!

(أ) يُقال: رجل صنع وامرأة صَناع، إذا كان لهما صنعة يعملانها بأيديهما ويكسبان بها» «لسان العرب».

(ب) أي: أخطأت، وفي «لسان العرب»: «وقد استعملت العرب الكذب في موضع الخطأ»، وقال الحافظ في «الفتح»: «وأهل الحجاز يقولون: (كذبت) في موضع أخطأت».

قلوبهم مع ذلك تعظيم للكفر وأربابه؛ فهم باقون على أحكام الإسلام، لكنّهم فسّاق مرتكبون لخطب كبير؛ يجب تعزيرهم عليه وتأديبهم وتنكيلهم.

ومن حُكِم عليه بغير الشريعة المحمدية إن كان يلزم عليه تحليل حرام أو تحريم حلال شرعاً؛ فلا يجوز له قبوله ولا امتثاله، وعليه ردّ ذلك وكراهته؛ إلا أن يكره عليه بما يسمّى إكراهاً شرعاً، وإن حُكم عليه بما يوافق الشريعة المحمدية قبل ضرورةً، وليس له أن يمتهن نفسه بتعريضها لأحكامهم؛ وهو يقدر على الهجرة، وإلا كان في ذلك إذلالاً للدين، واستخفافاً بالإسلام والمسلمين، والله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[1].

۞ وقال الشيخ إبراهيم بن محمد بن سالم بن ضويّان ـ رحمه الله تعالى ـ المتوفّى سنة (١٣٥٣هـ) في شرح عبارة الشيخ مرعي في «منار السبيل في شرح الدليل» (٢٧١/١): «فإن قدر على إظهار دينه فمسنون» أي: استُحبّ له الهجرة ليتمكّن من الجهاد، وتكثير عدد المسلمين.

۞ وقد توّسع أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد التلمساني الونشريسي المتوفّى سنة (٩١٤هـ)[2] فكتب كتابه العظيم «أسنى المتاجر في

---

(١) النساء: ١٤١.

(٢) كان حقّه أن يوضع بعد العلامة المرداوي ـ رحمه الله تعالى ـ وفق تاريخ الوفيّات، ولكنّي رأيت تأخيره لطول مبحثه.

وهو أحمد بن يحيى بن محمد الونشريسي التلمساني، أبو العباس* العالم العلامة، حامل لواء المذهب المالكي على رأس المائة التاسعة*[أ] أخذ من علماء تلمسان كالإمام أبي الفضل قاسم العُقباني، والإمام محمد بن العبّاس والعالم الخطيب الصالح ابن مرزوق الكفيف، والغرابلي، والمرّي وغيرهم.

ودرس على جماعة من الأعلام، وكان يقول الحق لا تأخذه في الله لومة لائم، غضب عليه السلطان أبو ثابت الزياني، وأمر بنهْب داره، فخرج إلى فاس، وقال

(أ) ما بين نجمتين من قول أحمد بابا التمبكتي في «نيل الابتهاج» وذكره حسين مؤنس في مقدّمة مبحثه».

بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر[(١)]»[(٢)].

ومما جاء في الكتاب: «**بسم الله الرحمن الرحيم، صلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليماً.**

= الإمام محمد بن غازي حين مرَّ به أحمد الونشريسي يوماً بجامع القرويين: «لو أنّ رجلاً حلف بطلاق زوجته؛ أنّ أبا العباس الونشريسي أحاط بمذهب مالك: أصوله وفروعه، لكان بارّاً في يمينه، ولا تطلق عليه زوجته».

كان مُشاركاً في فنون من العلم، إلا أنّه أكبّ على تدريس الفقه فقط، فيقول من لا يعرفه: إنه لا يعرف غيره، وكان فصيح اللسان والقلم؛ حتى كان بعض من يحضر تدريسه يقول: لو حضره سيبويه لأخذ النّحو من فيه، أو عبارة نحو هذا.

وتخرَّج على يديه عدد وافر من الفقهاء الذين بلغوا درجات عالية في التدريس والقضاء والفُتيا.

ألّف كتباً عديدة منها:

١ـ «المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب» اثنا عشر جزءاً.

٢ـ «إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك».

٣ـ «القواعد» في فقه المالكية.

٤ـ «الولايات» في مناصب الحكومة الإسلامية.

٥ـ «الفروق» في مسائل الفقه.

٦ـ «المنهج الفائق والمنهل الرائق في أحكام الوثائق».

٧ـ «نوازل المعيار».

٨ـ «القصد الواجب في معرفة اصطلاح ابن الحاجب».

٩ـ «حلّ الرّبقة عن أسير الصفقة».

وقد تَرجَمت له كتب كثيرة منها: «**نيل الابتهاج**» و «نفح الطيب» للمقري، و «فهرس الفهارس»، و «معجم المطبوعات»، و «هدية العارفين» وغير ذلك كثير وردت في كتاب «الأعلام» ومقدّمة «المعيار المعرب» ومنهما استفدْت هذه الترجمة.

(١) وقد استفدت عنوان هذا الكتاب والضّميمة التي تليه من الأخ الفاضل: الشيخ (مشهور بن حسن) ـ حفظه الله ونفع به ـ.

(٢) انظر «المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب» (١١٩/٢).

كتب إليَّ الشيخ الفقيه المعظّم الخطيب الفاضل القدوة الصالح، البقيّة، والجملة الفاضلة النقية، العدلُ الأرضى أبو عبدالله بن قطيّة، أدام الله سموّه ورقيه، بما نصّه:

الحمد لله وحده: جوابكم[(١)] يا سيدي (ـ رضي الله عنكم ـ ومتّع المسلمين بحياتكم) في نازلة، وهي: أنّ قوماً من هؤلاء الأندلسيين الذين هاجروا من الأندلس، وتركوا هناك الدور والأرضين والجنات والكرمات، وغير ذلك من أنواع الأصول، وبذلوا زيادة على ذلك كثيراً ـ من ناض المال[(٢)]، وخرجوا من تحت حُكم الملّة الكافرة، وزعموا أنهم فرّوا إلى الله ـ سبحانه ـ بأديانهم، وأنفسهم وأهليهم وذريّاتهم، وما بقي بأيديهم أو أيدي بعضهم من الأموال، واستقرّوا بحمد الله ـ سبحانه ـ بدار الإسلام، تحت طاعة الله ورسوله، وحُكم الذّمة المسلمة، ندموا على الهجرة بعد حصولهم بدار الإسلام وتسخّطوا وزعموا أنهم وجدوا الحال عليهم ضيّقة، وأنّهم لم يجدوا بدار الإسلام، التي هي دار المغرب هذه ـ صانها الله وحرس أوطانها، ونصر سلطانها ـ بالنسبة إلى التسبّب في طلب أنواع المعاش على الجملة، رفقاً ولا يسراً ولا مرتفقاً، ولا إلى التصرّف في الأقطار أمناً لايقاً، وصرّحوا في هذا المعنى بأنواع من قبيح الكلام الدّال على ضعف دينهم، وعدم صحة يقينهم في معتقدهم، وأنّ هجرتهم لم تكن لله ورسوله ـ كما زعموا ـ وإنما كانت لدنيا يصيبونها عاجلاً عند وصولهم، جارية على وفق أهوائهم، فلمّا لم يجدوها وفق أغراضهم، صرّحوا بذّم دار الإسلام وشأنه، وشتّم الذي كان السبب لهم في هذه الهجرة وسبّه، وبمدح دار الكفر وأهله، والندم على مفارقته، وربما حفظ عن بعضهم أن قال على جهة الإنكار للهجرة إلى دار الإسلام؛ التي هي هذا الوطن صانه الله: «**إلى ها**

---

(١) يريد ما جوابكم؟

(٢) النّاض: النّض الدرهم الصامت، والنّاض من المتاع ما تحول ورقاً أو عيناً. عن «الأصمعي». وهو اسم الدرهم والدنانير عند أهل الحجاز، والناض والنض، وإنما يسمونه ناضاً إذا تحول عيناً، بعدما كان متاعاً، وناضّ المال: ما كان ذهباً أو فضة أو وَرِقاً. «لسان العرب».

هنا يهاجر من هناك؟ بل من ها هنا تجب الهجرة إلى هناك!» وعن آخر منهم ـ أيضاً ـ أنه قال: إن جاء صاحب «قشتالة» إلى هذه النواحي نسير إليه؛ فنطلب منه أن يردّنا إلى هناك ـ يعني: إلى دار الكفر ـ ومعاودة الدخول تحت الذمّة الكافرة كيف أمكنهم.

فما الذي يلحقهم في ذلك من الإثم، ونقص رتبة الدين والجرحة؟

وهل هم به مرتكبون المعصية ـ التي كانوا فرّوا منها ـ إن تمادوا على ذلك، ولم يتوبوا ولم يرجعوا إلى الله ـ سبحانه ـ منه؟

وكيف بمن رجع منهم بعد الحصول في دار الإسلام؛ إلى دار الكفر والعياذ بالله؟

وهل يجب على من قامت عليه منهم بالتصريح بذلك، أو بمعناه شهادة أدب أو لا؟ حتى يتقدّم إليهم فيه بالوعظ والإنذار، فمن تاب إلى الله ـ سبحانه ـ تُرِك، ورُجي له قَبول التوبة، ومن تمادى عليه أُدّب أو يُعرض عنهم، ويُترك كل واحد منهم وما اختاره؟ فمن ثبّته الله في دار الإسلام راضياً، فله نيّته، وأجره على الله ـ سبحانه ـ ومن اختار الرجوع إلى دار الكفر، ومعاودة الذمّة الكافرة، تُرك يذهب إلى سخط الله، ومن ذمَّ دار الإسلام منهم تصريحاً أو معنى تُرك وما عوّل عليه؟

بَيّنوا لنا حُكم الله ـ تعالى ـ في ذلك كلّه، وهل من شروط الهجرة ـ ألا يهاجر أحد ـ إلا إلى دنيا مضمونة، يصيبها عاجلاً عند وصوله، جارية على وَفق غرضه حيث حلّ أبداً من نواحي الإسلام؟ أو ليس ذلك بشرط، بل تجب عليهم الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، إلى حُلو أو مُرّ، أو وُسع أو ضيق، أو عُسر أو يُسر، بالنسبة إلى أحوال الدنيا، وإنما القصد بها سلامة الدين والأهل والولد مثلاً، والخروج من حُكم الملّة الكافرة إلى حُكم الملّة المسلمة، إلى ما شاء الله من حلو أو مرّ، أو ضيق عيش أو سعته، ونحو ذلك من الأحوال الدنيويّة، بياناً شافياً مجوّداً مشروحاً كافياً، يأجُركم الله ـ سبحانه ـ والسلام الكريم يعتمر مقامكم العليّ، ورحمة الله ـ تعالى ـ وبركاته.

فأجبتُه بما هذا نصُّه:

«الحمد لله ـ تعالى ـ وحده، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد بعده.

الجواب عمّا سألتم عنه، والله ـ سبحانه ـ وليُّ التوفيق بفضله: إنّ الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام، فريضة إلى يوم القيامة، وكذلك الهجرة من أرض الحرام والباطل بظلم أو فتنة، قال رسول الله ﷺ: «**يوشك أن يكون خير مال المسلم غنمٌ يتبع بها شعف الجبال**(١) **ومواقع القطر، يفرّ بدينه من الفتن**».

أخرجه البخاري و «الموطأ»(٢) وأبو داود والنّسائي، وقد روى أشهب عن مالك: «لا يقيم أحد في موضع يُعمل فيه بغير الحق»، قال في «العارضة»(٣): «فإن قيل: فإذا لم يوجد بلد إلا كذلك؟

قلت: يختار المرء أقلها إثماً، مثل أن يكون البلد فيه كُفر، فبلد فيه جور خير منه، أو بلد فيه عدل وحرام، فبلد فيه جور وحلال خير منه للمقام، أو بلد فيه معاص في حقوق الله؛ فهو أولى من بلد فيه معاص في مظالم العباد».

۞ يرى الونشريسي عدم جواز الإقامة إلا في حالة العجز عن الهجرة بكل وجه(٤).

الأدلّة من القرآن الكريم:

ولا يُسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين استولى الطاغية ـ

---

(١) شعفة كل شيء أعلاه، وجمعها شعاف، أي: رأس جبل من الجبال.

(٢) كذا الأصل.

(٣) أي: «**عارضة الأحوذي في شرح الترمذي**» لأبي بكر محمد بن العربي.

(٤) كلّ هذه العناوين للأستاذ: (حسين مؤنس) ناشر هذا المبحث ومحقّقه في (معهد الدراسات المصرية) (المجلد الخامس) (١٢٧٨هـ ـ ١٩٥٧م)، بحذف وتصرّف يسيرين.

لعنه الله تعالى ـ على معاقلهم وبلادهم إلا تصوّر العجز عنها بكل وجه وحال، لا الوطن والمال، فإنّ ذلك كلّه مُلغىً في نظر الشرع.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾[1].

فهذا الاستضعاف المعفوّ عمّن اتّصف به غير الاستضعاف المعتذر به في أول الآية وصدرها، وهو قول الظالمي أنفسهم: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾، فإنّ الله ـ تعالى ـ لم يقبل قولهم في الاعتذار به، فدلّ على أنهم كانوا قادرين على الهجرة من وجه ما، وعفا عن الاستضعاف الذي لا يُستطاع معه حيلة ولا يُهتدى به سبيل، بقوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ﴾ و ﴿عَسَى﴾ من الله واجبة.

فالمستضعَف المعاقَب في صدر الآية؛ هو القادر من وجه، والمستضعَف المعفوُّ عنه في عجزها؛ هو العاجز من كل وجه، فإذا عَجَز المبتلى بهذه الإقامة عن الفرار بدينه، ولم يستطع سبيلاً إليه، ولا ظهرت له حيلة ولا قدرة عليها بوجه ولا حال، وكان بمثابة المُقعد أو المأسور، أو كان مريضاً جداً أو ضعيفاً جداً ـ فحينئذ يُرجى له العفو، ويصير بمثابة المُكره على التلفظ بالكفر، ومع هذا لا بدَّ أن تكون له نيّة قائمة أنّه لو قدر وتمكّن لهاجر، وعزْم صادق مستصحَب؛ أنّه إن ظفر بمُكْنَة وقتاً ما فيهاجر.

وأمّا المستطيع بأيّ وجه كان، وبأيّ حيلة تمكّنت فهو غير معذور، وظالم لنفسه إن أقام حسبما تضمّنته الآيات والأحاديث الواردات:

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[2].

---

(١) النساء: ٩٨ ـ ٩٩.

(٢) الممتحنة: ١.

وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾(١).

وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾(٢).

[وأورد المصنّف العديد من الآيات في عدم اتخاذ الكافرين أولياء].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾(٣).

وقال ـ تعالى ـ: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾(٤).

والظالمون أنفسهم في هذه الآية السابقة؛ إنّما هم التاركون للهجرة مع القدرة عليها، حسبما تضمّنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ فظُلمهم أنفسهم إنّما كان بتركها، وهي الإقامة مع الكفار وتكثير سوادهم.

وقوله: ﴿تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فيه تنبيه على أنّ الموبّخ على ذلك

---

(١) آل عمران: ١١٨.
(٢) آل عمران: ٢٨.
(٣) النّساء: ٩٧ ـ ٩٩.
(٤) المائدة: ٨٠ ـ ٨١.

والمعاقب عليه؛ إنّما هو من مات مُصرّاً على هذه الإقامة، وأمّا من تاب عن ذلك وهاجر، وأدركه الموت ولو بالطريق[١]؛ فتوفّاه الملك خارجاً عنهم، فيرجى قبول توبته وألا يموت ظالماً لنفسه.

ويدلّ ذلك أيضاً على[٢] قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٣].

فهذه الآيات القرآنية كلّها أو أكثرها، ما سوى قوله: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ إلى آخرها نصوص في تحريم الموالاة الكفرانية.

وأمّا قوله ـ تعالى ـ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾[٤].

فما أبقت متعلّقاً إلى التطرّق لهذا التحريم، وكذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾[٥].

---

(١) لعلّه يشير بهذا إلى قصة الرجل الذي قتل مائة نفس وأراد التوبة، كما في «صحيح البخاري» (٣٤٧٠)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٦)، وفي الحديث فوائد كثيرة منها ما ذكَره الحافظ في «الفتح» (٦/٥١٧) بقوله: «وفيه فضل التحوّل من الأرض التي يصيب الإنسان فيها المعصية؛ لما يغلب بُحكم العادة على مِثل ذلك، إمّا لتذكّره لأفعاله الصادرة قبل ذلك والفتنة بها، وإمّا لوجود من كان يعينه على ذلك ويحضّه عليه، ولهذا قال له الأخير: **«ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء»** ففيه إشارة إلى أنّ التائب ينبغي له مفارقة الأحوال التي اعتادها في زمن المعصية، والتحوّل منها كلّها والاشتغال بغيرها».

(٢) كذا الأصل ولعلّها: **«ويدلّ على ذلك أيضاً»**.

(٣) النساء: ١٠٠، ونص الآية: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾.

(٤) المائدة: ٥١.

(٥) المائدة: ٥٧.

۞ يرى الونشريسي أنّ من أجاز هذه الإقامة مارق من الدين ومفارق لجماعة المسلمين.

وتكرار الآيات في هذا المعنى، وجرْيُها على نسق ووتيرة واحدة؛ مؤكد للتحريم، ورافع للاحتمال المتطرّق إليه، فإنّ المعنى إذا نُصّ وأكّد بالتكرار؛ فقد ارتفع الاحتمال لا شكّ، فتتعاضد هذه النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية والإجماعات القطعية على هذا النهي، فلا تجد في تحريم هذه الإقامة، وهذه الموالاة الكفرانية، مخالفاً من أهل القبلة المتمسكين بالكتاب العزيز؛ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد.

فهو تحريمٌ مقطوعٌ به من الدين؛ كتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير، وقتْل النفس بغير حقّ، وأخواته من الكليات الخمس؛ التي أطبق أرباب المِلل والأديان على تحريمها، ومن خالف الآن في ذلك، أو رام الخلاف من المقيمين معهم والراكنين إليهم، فجوّز هذه الإقامة واستخفّ أمرها واستسهل حُكمها فهو مارق من الدين ومفارق لجماعة المسلمين، ومحجُوج بما لا مدفع فيه لمسلم، ومسبوق بالإجماع الذي لا سبيل إلى مخالفته وخرْق سبيله.

۞ رأي أبي الوليد بن رشد الجدّ: تحريم الإقامة:

واستأنف الونشريسي ـ رحمه الله ـ إجابته قائلاً: قال زعيم الفقهاء القاضي أبو الوليد بن رشد ـ رحمه الله ـ في أوّل «كتاب التجارة إلى أرض الحرب» من مقدّماته: «فرض الهجرة غير ساقط، بل الهجرة باقية لازمة إلى يوم القيامة، واجب بإجماع المسلمين على من أسلم بدار الحرب؛ أن لا يقيم بها، حيث تجري عليه أحكام المشركين، وأن يهجرها، ويلحق بدار المسلمين؛ حيث تجري عليه أحكامهم، قال رسول الله ﷺ: «**أنا بريء من كلّ مسلم مقيم مع المشركين**»[١].

(١) تقدّم تخريجه.

إلا أنّ الهجرة؛ لا يحرَّم على المهاجر بها الرجوع إلى وطنه إن عاد دار إيمان وإسلام، كما حُرّم على المهاجرين من أصحاب رسول الله ﷺ، الرجوع إلى مكة للذي ادّخره الله لهم من الفضل في ذلك.

قال: فإذا وجب بالكتاب والسنّة وإجماع الأمة؛ على من أسلم بدار الحرب أن يهجره ويلحق بدار المسلمين، ولا يثوي بين المشركين ويقيم بين أظهرهم، لئلا تجري عليهم أحكامهم؛ فكيف يُباح لأحد الدخول إلى بلادهم؛ حيث تجري عليه أحكامهم في تجارة أو غيرها، وقد كره مالك ـ رحمه الله ـ أن يسكن أحد ببلد يُسبّ فيه السّلف، فكيف ببلد يُكفر فيه بالرحمن، وتُعبد فيه من دونه الأوثان؟ لا تستقرّ نفس أحد على هذا، إلا مسلِمٌ مريض الإيمان». انتهى[(١)].

الأدلة من الحديث الشريف:

وأمّا الاحتجاج على تحريم هذه الإقامة من السّنّة؛ فبما خرّجه الترمذي، أنّ النّبيّ ﷺ بعث سريّة إلى خثعم، فاعتصم ناس بالسجود، فأسرع فيهم القتل، وبلغ ذلك النّبيّ ﷺ؛ فأمر لهم بنصف العقل[(٢)] وقال: **«أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين»**، قالوا: يا رسول الله، ولم؟ قال: **«لا تتراءى ناراهما»**[(٣)].

وفي الباب أنّ النّبيّ ﷺ قال: **«لا تُساكنوا المشركين ولا تجامعوهم، فمن ساكنهم أو جامعهم فهو منهم»**[(٤)].

---

(١) أي: كلام ابن رشد ـ رحمه الله تعالى ـ.

(٢) قال في «النهاية»: «... أمّا العقل فهو الدّية، وأصله: أنّ القاتل كان إذا قتل قتيلاً جمع الدّية من الإبل؛ فعقلها بفناء أولياء المقتول، أي: شدّها في عُقلها ليُسلمها إليهم ويقبضوها منه؛ فسُمّيت الدّية عَقْلاً بالمصدر».

(٣) صحّ دون الأمر بنصف العقل؛ كذا في «صحيح سنن الترمذي»، وانظر «الإرواء» (١٢٠٧)، وتقدّم.

(٤) ضعيف بهذا اللفظ وهو صحيح بلفظ: «من جامع المشرك وسكن معه، فإنّه مثله»، وتقدّم، وانظر «الصحيحة» (٢/٢٣١).

والتنصيص في هذين الحديثين على المقصود؛ بحيث لا يخفى على أحد؛ ممن له نظر سليم وترجيح مستقيم، وقد ثبتا في الحِسان من المصنّفات الستّة التي تدور عليها رحى الإسلام.

قالوا: ولا معارض لهما، لا ناسخ ولا مُخصِّص ولا غيرهما، ومقتضاهما لا مُخالف لهما من المسلمين، وذلك كاف في الاحتجاج بهما، هذا مع اعتضاضهما بنصوص الكتاب وقواعد الشرع، وشهادتهما لهما.

وفي «سنن أبي داود» من حديث معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها**»[1].

شكوى بعض المهاجرين إلى أرض الإسلام من ضيق المعاش زغْم فاسد وتوهّم كاسد، ولا رخصة لأحد في الرجوع إلى بلاد النصارى بحال.

وما ذكر في السؤال من حصول الندم، والتّسخّط لبعض المهاجرين من دار الحربيين إلى دار المسلمين، لما زعموه من ضيق المعاش وعدم الانتعاش؛ زغْم فاسد وتوهّم كاسد في نظر الشّريعة الغرّاء، فلا يتوهّم هذا المعنى ويعتبره ويجعله نصب عينيه إلا ضعيف اليقين، بل عديم العقل والدين.

وكيف يتخيّل هذا المعنى؛ يُدلى به حجّة في إسقاط الهجرة من دار الحرب؟ وفي بلاد الإسلام ـ أعلى الله كلمته ـ مجال رحب للقويّ والضعيف والثقيل والخفيف، وقد وسّع الله البلاد؛ فيستجير بها من أصابته هذه الصدمة الكفرانية، والصاعقة النصرانية في الدين والأهل والأولاد؟ فقد هاجر من عِلْية الصحابة وأكابرهم ـ رضوان الله عليهم ـ إلى أرض الحبشة فراراً بدينهم من أذى المشركين من أهل مكة، جماعة عظيمة، ورفقة كريمة، منهم جعفر بن أبي طالب، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة بن الجراح، وحال أرض الحبشة ما قد عُلم.

(١) تقدّم تخريجه.

وهاجر آخرون إلى غيرها، وهجروا أوطانهم وأموالهم وأولادهم وآباءهم ونبذوهم وقاتلوهم وحاربوهم؛ تمسّكاً منهم بدينهم ورفضاً لدنياهم.

فكيف بعرَضٍ من أعراضها لا يُخلُّ تركه بالتكسب بين أظهر المسلمين، ولا يؤثر رفضه في متسع المسترزقين؟! ولا سيّما بهذا القطر الديني المغربي ـ صانه الله، وزاده عزاً وشرفاً، ووقاه من الأغيار والأكدار وسطاً وطرفاً ـ فإنّه من أخصب أرض الله أرضاً، وأشبعها بلاداً طولاً وعرضاً، وخصوصاً حاضرة فاس، وأنظارها ونواحيها من كلّ الجهات وأقطارها.

ولئن سلم هذا الوهم وعدم صاحبه ـ والعياذ بالله ـ العقل الراجح، والرأي الناجح والفهم، فقد أقام علماً وبرهاناً على نفسه الخسيسة الرّذِلة؛ بترجيح عرض دنيوي حطامي محتقر، على عمل ديني أُخروي مدّخر، وبئست هذه المفاضلة والأرجحية! وخاب وخسر من آثرها ووقع فيها!

أمّا علم المغبون في صفقته، النّادم على هجرته من دار يُدعى فيها التثليث، وتُضرب فيها النّواقيس، ويُعبد فيها الشيطان، ويُكفر بالرحمن، أنْ ليس للإنسان إلا دينه؟ إذ به نجاته الأبدية وسعادته الأُخروية، وعليه يبذل نفسه النفيسة فضلاً عن جملة ماله! قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾[1].

۞ رأيه أنّ المقيم بأرض النصارى مرتكب معصيةً كبيرة وهو معاقب بالعذاب الشديد إلا أنّه غير مخلّد في النار هذا ما يتعلق بهم من الأحكام الدنياوية[2]، وأما الأُخراوية[3] المتعلقة بمن قطع عمره، وأفنى شيبه وشبابه في مساكنتهم وتولّيهم ولم يهاجر، أو هاجر ثمّ راجع وطن الكفر، وأصرّ على ارتكاب هذه المعصية الكبيرة؛ إلى حين وفاته والعياذ بالله، فالذي عليه

---

(١) المنافقون: ٩.

(٢)(٣) قال في «مختار الصحاح» بعد كلمة الدنيا: «والنسبة إليها (دُنياوي)، وقيل: (دُنيوي) و (دُنيِيّ).

أهل السّنّة وجمهور الأئمة؛ أنهم معاقبون بالعذاب الشديد، إلا أنهم غير مخلدين في العذاب.

۞ حكم المسلم الذي يزدري دار الإسلام ويُفضّل عليها بلاد النصرانية الخزي في العاجلة والآجلة وما ذكرتم عن سخيف العقل والدّين من قوله: «**إلى ها هنا يهاجر؟**» في قالب الازدراء والتهكّم، وقول السفيه الآخر: «**إن جاء صاحب (قشتالة) إلى هذه النواحي نسير إليه**» إلى آخر كلامه البشيع، ولفظه الشنيع، لا يخفى على سيادتكم ما في كلام كلّ واحد منهما من السماجة في التعبير، كما لا يخفى ما على كل منهما في ذلك من الهجنة وسوء النكير، إذ لا يتفوّه بذلك ولا يستبيحه؛ إلا من سفه نفسه وفَقَد ـ والعياذ بالله ـ حسّه، ورام رفع ما صحّ نقله ومعناه، ولم يخالف في تحريمه أحد في جميع معمور الأرض الإسلامية؛ من مطلع الشمس إلى مغربها؛ لأغراض فاسدة في نظر الشرع، لا رأس لها ولا ذنب، فلا تصدر هذه الأعراض الهَوَسية إلا مِن قلبٍ استحوذ عليه الشيطان، فأنساه حلاوة الإيمان ومكانه من الأرطاب[1]، ومن ارتكب في هذا وتورّط فيه، فقد استعجل لنفسه الخبيثة الخزي المضمون في العاجل والآجل، إلا أنّه لا يُساوي في العصيان والإثم والعدوان، والمقت والسماجة والإبعاد والاستنقاص، واستحقاق اللائمة والمذمّة الكبرى التارك للهجرة بالكليّة، بموالاة الأعداء والسكنى بين أظهر البعداء، لأنّ غاية ما صدر من هذين الخبيثين عزم، وهو التصميم وتوطين النفس على الفعل، وهما لم يفعلا».

خاتمة قول الونشريسي: وليكن هذا آخر ما ظهر كتْبُه من الجواب على السؤال المقيّد، الموجّه من قِبل الفقيه المعظم، الخطيب الفاضل القدوة الصالح البقية والجملة الفاضلة النقية السيد أبي عبدالله بن قطيّة، أدام الله سموّه ورقيّه.

---

(١) أي: من اللين وما يستمتع به من حلاوة الإيمان، و(الأرطاب) كلمة تُقال لنضيج البُسر قبل أن يصير تمراً، وذلك إذا لان وحَلا.

وينبغي أن يُترجم هذا الجواب ويسمّى بـ «أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر».

والله أسأل أن ينفع به ويضاعف الأجر بسببه.

قاله وخطّه العبد المستغفر الفقير المسلم: عبيدالله أحمد بن يحيى بن محمّد بن علي الونشريسي ـ وفّقه الله ـ.

وكان الفراغ من كتْبه يوم الأحد التاسع عشر لذي قعدة الحرام، من عام ستة وتسعين وثمانمائة، عرّفنا الله خيره».

❁ ضميمة فتوى أخرى للونشريسي في شأن رجل أراد المقام في الأندلس ليخدم إخوانه المسلمين ويتكلّم باسمهم ويخاصم عنهم[1]:

وكتب إليّ الفقيه أبو عبدالله المذكور أيضاً بما نصُّه: «الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله. جوابكم يا سيدي ـ رضي الله عنكم ـ، ومتّع المسلمين بحياتكم ـ في نازلة وهي:

رجل من أهل مرْبلَّة[2] معروف بالفضل والدين، تخلّف عن الهجرة مع أهل بلده؛ ليبحث عن أخ له؛ فُقد قبلُ في قتال العدو بأرض الحرب، فبحث عن خبره إلى الآن فلم يجده وأيس منه، فأراد أن يهاجر، فعرض له سبب آخر، وهو أنّه لسانٌ وعون للمسلمين المساكين الذمّيين حيث سُكناه، ولمن جاورهم أيضاً من أمثالهم بغربيَّة الأندلس، يتكلّم عنهم مع حُكّام النصارى؛ فيما يعرض لهم معهم من نوائب الدهر، ويُخاصم عنهم، ويخلّص كثيراً منهم من ورطات عظيمة، بحيث أنّه يعجز عن تعاطي ذلك

(١) ذكرها في كتاب «المعيار المعرب والجامع المُغرب عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب» عقب الفتوى الأولى مباشرة.
(٢) مربلّة: ميناء صغير في الأندلس على شاطىء البحر الأبيض المتوسط.

عنهم أكثرهم، بل ما يجدون مثله في ذلك الفنّ إن هاجر، وبحيث أنّه يلحقهم في فقْده ضرر كبير إن فقدوه.

فهل يرخّص له في الإقامة معهم تحت حُكم الملّة الكافرة لِما في إقامته هناك من المصلحة لأولئك المساكين الذميّين، مع أنّه قادر على الهجرة متى شاء؟ أو لا يرخّص له؟ أو لا رخصة لهم أيضاً في إقامتهم هناك، تجري عليهم أحكام الكفر، لا سيّما وقد سمح لهم في الهجرة، مع أنّ أكثرهم قادرون عليها متى أحبّوا؟

وعلى تقدير أن لو رُخّص له في ذلك، فهل يُرخّص له أيضاً في الصلاة بثيابه حسب استطاعته؟ إذ لا تخلو في الغالب عن نجاسة لكثرة مخالطته للنّصارى، وتصرُّفه بينهم، ورقاده وقيامه في ديارهم؛ في خدمة المسلمين الذميّين حسبما ذكرْت.

بيِّنوا لنا حُكم الله في ذلك مأجورين مشكورين ـ إن شاء الله تعالى ـ والسلام الكثير يعتمد مقامكم العليّ، ورحمة الله ـ تعالى ـ وبركاته».

فأجبته بما نصُّه[١]:

الحمد لله ـ تعالى ـ وهذا الجواب، والله ـ تعالى ـ ولي التوفيق بفضله:

إنّ إلهنا الواحد القهار، قد جعل الخزية والصّغار، في أعناق ملاعين الكفار، سلاسل وأغلالاً يطوفون بها في الأقطار، وفي أمّهات المدائن والأمصار، إظهاراً لعزّة الإسلام وشرف نبيّه المختار، فمن حاول من المسلمين ـ عصمهم الله ووقّرهم ـ انقلاب تلك السلاسل والأغلال في عنقه، فقد حادَّ الله ورسوله، وعرّض بنفسه إلى سخط العزيز الجبار، وحقيق أن يُكبكبه الله معهم في النار.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ

---

(١) وخلاصة إجابته ـ رحمه الله ـ عدم الجواز لأن ذلك يتنافى مع عزّة الإسلام.

عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾[1]، فالواجب على كل مؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر؛ السعي في حفظ رأس الإيمان؛ بالبعد والفرار عن مساكنة أعداء حبيب الرحمن، والاعتلال بإقامة الفاضل المذكور؛ بما عرض من غرض الترجمة بين الطاغية وأهل ذمّته من الدجن العصاة؛ لا يخلّص من واجب الهجرة، ولا يُتوهّم معارضة ما سُطّر في السؤال من الأوصاف الطردية لحُكمها الواجب؛ إلا متجاهل أو جاهل معكوس الفطرة، ليس معه من مدارك الشرع خبرة، لأنّ مساكنة الكفار من غير أهل الذمّة والصغار لا تجوز ولا تباح ساعة من نهار، لما تنتجه من الأدناس والأوضار، والمفاسد الدينية والدنيوية طول الأعمار، منها أن غرض الشرع أن تكون كلمة الإسلام وشهادة الحقّ قائمة على ظهورها، عالية على غيرها، منزّهة عن الازدراء بها، ومن ظهور شعائر الكفر عليها، ومساكنتهم تحت الذل والصغار؛ تقتضي ولا بد أن تكون هذه الكلمة الشريفة العالية المنيفة سافلة لا عالية، ومزدرى بها لا منزّهة، وحسبك بهذه المخالفة للقواعد الشرعية والأصول، وبمن يتحمّلها ويصبر عليها مدّة عمره من غير ضرورة ولا إكراه.

❀ الإقامة في حكم النصارى تحُول دون كمال الصلاة:

منها أنّ كمال الصلاة، التي تتلو الشهادتين في الفضل والتعظيم والإعلان والظهور؛ لا يكون ولا يُتصوَّر؛ إلا بكمال الظهور والعلوّ والنزاهة من الازدراء والاحتقار في مساكنة الكفار، وملابسة الفجّار تعريضها للإضاعة والازدراء والهزء واللعب.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾[2].

(١) المجادلة: ٢١.

(٢) المائدة: ٥٨.

وحسبك بهذه المخالفة أيضاً[١].

وتُعطِّل الزكاة: ومنها إيتاء الزكاة، ولا يخفى على ذي بصيرة وسريرة؛ أنّ إخراج الزكاة للإمام؛ من أركان الإسلام وشعائر الأنام.

وأمّا إخراجها لمن يستعين بها على المسلمين؛ فلا يخفى أيضاً ما فيه من المناقصة للمتعبدات الشرعية كلّها.

وتُعطِّل الصيام: ومنها صيام رمضان، ولا يخفى أنّه فرض على الأعيان وزكاة الأبدان، وهو مشروط برؤية الهلال ابتداء وانقضاء، وفي أكثر الأحوال إنّما تثبت الرؤية بالشهادة، والشهادة لا تؤدى إلا عند الأئمة وخلفائهم، وحيث لا إمام ولا خليفة ولا شهادة [......][٢] الشهر إذ ذاك مشكوك الأول والآخر في العمل الشرعي.

وتحُول دون الحج: ومنها حجّ البيت، والحجّ وإن كان ساقطاً عنهم لعدم الاستطاعة، لأنها موكولة إليهم.

وتمنع من الجهاد: [ومنها الجهاد][٣] فالجهاد لإعلاء كلمة الحق، ومحو الكفر من قواعد الأعمال الإسلامية، وهو فرض على الكفاية، وعند مسيس الحاجة، ولا سيما بمواضع هذه الإقامة المسؤول عنها وما يجاورها، ثمّ هم إمّا [تاركوه من غير][٤] ضرورة مانعة منه على الإطلاق [فهم][٥]

---

(١) إذا تدّبرنا هذا؛ عقلنا نهي النّبيّ ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو، كما في «صحيح البخاري» (٢٩٩٠)، ومسلم (١٨٦٩).
وفي رواية له: «**مخافة أن يناله العدوّ**».
قال الحافظ في «الفتح (٦/١٣٤): «قال ابن عبدالبر: أجمع الفقهاء أن لا يُسافر بالمصحف في السرايا والعسكر الصغير المخوف عليه، واختلفوا في الكبير المأمون عليه، فمنع مالك أيضاً مُطلقاً، وفصّل أبو حنيفة، وأدار الشافعية الكراهة مع الخوف وجوداً وعدماً، وقال بعضهم كالمالكية، واستدلّ به على منع بيع المصحف من الكافر لوجود المعنى المذكور فيه، وهو التمكن من الاستهانة به، ولا خلاف في تحريم ذلك، وإنما وقع الاختلاف هل يصح لو وقع ويؤمر بإزالة مُلكه عنه أم لا؟».

(٢) بياض في الأصل.

(٣)(٤)(٥) هذه الإضافات من حسين مؤنس ليستقيم السياق.

كالعازم على تركه من غير ضرورة، والعازم على الترك من غير ضرورة كالتارك قصداً مختاراً، وإما مقتحِمون نقيضه بمعاونة أوليائهم على المسلمين، إما بالنفوس وإمّا بالأموال، فيصيرون حربيين مع المشركين، وحسْبك بهذه مناقضة وضلالة.

هذه الإقامة تضع من أمر الإسلام وتعرض للاستغراق في مشاهدة المنكرات:

وقد اتضح بهذا التقرير نقْص صلاتهم وصيامهم وزكاتهم وجهادهم، وإخلالهم بإعلاء كلمة الله وشهادة الحق، وإهمالهم لإجلالها وتعظيمها وتنزيهها عن ازدراء الكفار وتلاعب الفجار، فكيف يتوقف متشرّع أو يشكّ متورّع في تحريم هذه الإقامة؛ مع استصحابها لمخالفة جميع هذه القواعد الإسلامية الشريفة الجليلة، مع ما ينضمّ إليها ويقترن بهذه المساكنة المقهورة؛ مما لا ينفكّ عنها غالباً من التنقيص الدنياوي، وتحمُّل المذلّة والمهانة؟ وهو مع ذلك مخالف لعهود عزّة المسلمين ورفعة أقدارهم، وداعٍ إلى احتقار الدين واهتضامه، وهو ـ أي: ما ينضمّ إلى ما تقدّم ـ أمور أيضاً تصطكّ منها المسامع، منها الإذلال والاحتقار والإهانة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**لا ينبغي لمسلم أن يُذِلَّ نفسه**»(١).

وقال: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**»(٢).

ومنها الازدراء والاستهزاء، ولا يتحمّلها ذو مروءة فاضلة من غير ضرورة، ومنها السبّ والأذيّة في العرض، وربما كانت في البدن والمال، ولا يخفى ما فيه من جهة السنّة والمروءة.

ومنها الاستغراق في مشاهدة المنكرات والتعرض لملابسة النجاسات وأكل المحرمات والمتشابهات.

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه وأحمد وغيرهم، وهو حديث صحيح مخرّج في «الصحيحة» (٦١٣).

(٢) أخرجه البخاري: ١٤٢٧، ومسلم: ١٠٣٤ وغيرهما.

الخوف من نقض النصارى لعهودهم: ومنها ما يتوقع مخوفاً في هذه الإقامة، وهو أمور أيضاً، منها:

نقْض العهد من الملك، والتسلط على النفس والأهل والولد والمال، وقد رُوي: أنّ عمر بن عبدالعزيز نهى عن الإقامة بجزيرة الأندلس، مع أنها كانت في ذلك الوقت رباطاً لا يجهل فضله، ومع ما كان المسلمون عليه من العزّة والظهور ووفور العدد والعُدد، لكن مع ذلك نهى عنه خليفة الوقت؛ المتفق على فضله ودينه وصلاحه ونصيحته لرعيته؛ خوف التغرير.

فكيف بمن ألقى نفسه وأهله وأولاده بأيديهم؛ عند قوّتهم وظهورهم وكثرة عددهم ووفور عُددهم؛ اعتماداً على وفائهم بعهدهم في شريعتهم، ونحن لا نقبل شهادتهم بالإضافة إليهم، فضلاً عن قبولها بالإضافة إلينا، وكيف نعتمد على زعمهم بالوفاء مع ما وقع من هذا التوقع، ومع ما يشهد له من الوقائع عند من بحث واستقرأ الأخبار في معمور الأقطار.

الخوف على النفس والأهل والولد والمال من شرارهم:

ومنها الخوف على النفس والأهل والولد والمال أيضاً من شرارهم وسفهائهم ومغتاليهم، هذا على فرض وفاء دهاقينهم وملكهم، وهذا أيضاً تشهد له العادة ويُقرُّ بها الوقوع.

الخوف من الفتنة في الدين: ومنها الخوف من الفتنة في الدين، وهب أنّ الكبار العقلاء قد يأمنونها، فمن يؤمِّن الصغار والسفهاء وضعفة النساء؛ إذا انتدب إليهم دهاقين الأعداء وشياطينهم.

الخوف على الأبضاع والفروج، إشارة إلى حادث كَنّة المعتمد بن عباد:

ومنها الخوف من الفتنة على الأبضاع والفروج، ومتى يأمن ذو زوجة أو ابنة أو قريبة وضيئة؛ أن يعثر عليها وضيء من كلاب الأعداء وخنازير البعداء، فيغرَّها في نفسها ويغرّها في دينها، ويستولي عليها وتطاوعه، ويحال بينها وبين وليّها بالارتداد والفتنة في الدين، كما عرض لكَنَّة

المعتمد بن عباد ومن لها من الأولاد، أعاذنا الله من البلاء وشماتة الأعداء.

الخوف من غلبة عاداتهم ولغتهم ولباسهم على المقيمين بينهم، حالة أهل أبله:

ومنها الخوف من سريان سيرهم ولسانهم ولباسهم وعوائدهم المذمومة؛ إلى المقيمين معهم بطول السنين، كما عرض لأهل «أبله» وغيرهم، وفقدوا اللسان العربي جملة(١)، وإذا فقد اللسان العربي جملة فُقدت متعبداته، وناهيك من فوات المتعبدات اللفظية، مع كثرتها وكثرة فضْلها.

الخوف من التسلط على المال بإحداث الوظائف الثقيلة والمغارم المجحفة:

ومنها الخوف من التسلّط على المال، بإحداث الوظائف الثقيلة والمغارم المجحفة المؤدية إلى استغراق المال، وإحاطة الضرائب الكفرية به في دفعة واحدة، في صورة ضرورة وقتية أو في دُفَع، وإما استناداً إلى تلفيق

---

(١) استولى المسلمون على أبله (Avila) عام (١٤٥هـ - ٧٦٢م) أيام عبدالرحمن الداخل، وظلّوا يحكمونها حتى (٢٥٠هـ - ٨٦٤م) من أيام الأمير محمد حين انتزعها منهم الفونسو الثالث ملك ليون، ثم استردها المسلمون بعد فترة قصيرة، وظلت في حوزتهم حتى سقطت في يد (الفونسو السادس) ملك (قشتالة وليون) بعد استيلائه على طليطلة بثلاث سنوات أي سنة (٤٨١هـ - ١٠٨٨م) وكانت غالبية سكان البلد إذ ذاك من المسلمين؛ فاستقدم الفونسو أعداداً كبيرة من الليونيين والاشتوريين والجليقيين والبسكيين فامتلأت بهم البلد، وأصبح غالبية أهله نصارى وأخذت أعداد الجماعة الإسلامية تقلّ، ولكنها احتفظت بشخصيتها(أ)، مَثَلها في ذلك مثَل جماعة شقوبية (segovia)، وقد فقدت الجاليتان اللغة العربية، فلم يبق لديهم منها إلا ألفاظ ورسم الحروف، وقد ظلت الجماعة الإسلامية في كل من البلدين حتى القرن السابع عشر» حسين مؤنس.

(أ) هذا تناقض بيّنٌ لقوله السابق: «احتفظت بشخصيتها» فإذا فقدت الأمة لغتها؛ فماذا بقي لها من شخصيّتها؟!

من العذر والتأويل، لا تستطاع مراجعتهم فيه ولا مناظرتهم عليه، وإن كان في غاية من الضعف ووضوح الوهن والفساد، فلا يُقدِم على ذلك خوفاً من أن يكون سبباً لتحريك دواعي الحقد، وداعية لنقض العهد، والتسلّط على النفس والأهل والولد، وهذا يشهد له الوقوع عند من بحث، بل ربما وقع في موضع النازلة المسؤول عنها وفي غيره غير مرة.

الخلاصة: تحريم هذه الإقامة: فقد ثبت بهذه المفاسد الواقعة والمتوقّعة تحريم هذه الإقامة، وحظر هذه المساكنة المنحرفة عن الاستقامة؛ من جهات مختلفة متعاضدة، مؤدية إلى معنى واحد، بل نقل الأئمة حُكم هذا الأصل إلى غيره لقوّته وظهوره في التحريم، فقال إمام دار الهجرة أبو عبدالله مالك بن أنس ـ رضي الله عنه ـ: «**إنّ آية الهجرة تعطي أنّ كل مسلم؛ ينبغي أن يخرج من البلاد التي تغيّر فيها السنن، ويعمل فيها بغير الحق**»، فضلاً عن الخروج والفرار من بلاد الكفرة وبقاع الفجرة، ومعاذ الله أن تركن لأهل التثليث أمّةٌ فاضلة توحّده، وترضى بالمقام بين أظهر الأنجاس الأرجاس وهي تُعظّمه.

فلا فسحة للفاضل المذكور في إقامته بالموضع المذكور للغرض المذكور، ولا رخصة له ولا لأصحابه؛ فيما يصيب ثيابهم وأبدانهم من النجاسات والأخباث، إذ العفو عنها مشروط بعسر التوقّي والتحرّز، ولا عسر مع اختيارهم للإقامة والعمل على غير استقامة. والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم، وبه التوفيق.

وكتب مسلّماً على من يقف عليه من أهل لا إله إلا الله العبد المستغفر الفقير الحقير، الراغب في بركة من يقف عليه، وينتهي إليه عبيدالله أحمد بن يحيى بن محمّد بن علي الونشريسي ـ وفقه الله ـ. انتهى كلام الونشريسي ـ رحمه الله تعالى ـ.

* * *

۞ وقد تضمّنت بعض الأشعار العربية الحثّ على الهجرة.

من ذلك: قول شاعر الأندلس ابن العسّال:

حُشّوا رواحلكم يا أهل أندلسٍ — فما المقام بها إلا من الغلطِ
السلك يُنثر من أطرافه وأرى — سلك الجزيرة منثوراً من الوسط
من جاور الشرك لا يأمن عواقبه — كيف الحياة مع الحيات في سفط[(١)]

وممّا تقدّم لنا ذكره يتبيّن لنا ما يأتي:

أوّلاً: إجماع أهل العلم على وجوب الهجرة؛ لمن استطاعها، وقد افتتن في دينه، ولم يقدر على إظهاره وفِعْل الطاعات.

ثانياً: أنّ أقوال أهل العلم تنصّ على استحباب الهجرة؛ لمن أمِن الفتنة، وقدر على إظهار دينه.

ومن العلماء الذين صرّحوا باستحباب الهجرة؛ لمن أمِن الفتنة، وتمكّن من إظهار دينه:

١ ـ الجمهور كما ذكر الموزعي في «تيسير البيان».

٢ ـ ابن قدامة.

٣ ـ مجد الدين أبو البركات.

٤ ـ النووي كما في «المنهاج»[(٢)].

٥ ـ شيخ الإسلام ابن تيمية.

٦ ـ الحافظ ابن حجر العسقلاني.

٧ ـ علاء الدين المرداوي في كتاب «الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام المبجّل أحمد بن حنبل» (١٢١/٤) وقال:

هذا المذهب، وعليه جماهير الأصحاب، وجزم به في «الهداية» و«المذهب» و «مسبوك الذهب» و «الخلاصة» و«المغني» و «الشرح» و

(١) «نفح الطيب» للمقري (٣٥٢/٤)، والسفط: وعاء يوضع فيه الطيب ونحوه من أدوات النساء. «الوسيط».
(٢) ونقل ذلك عنه أبو الطيب صديق بن حسن البخاري في «العبرة» كما تقدّم.

«المحرر» و «الوجيز» وغيرهم وقدّمه في «الفروع» وغيره.

٨ ـ ابن حجر الهيتمي كما في «تحفة المحتاج»[١].

٩ ـ المُناوي.

١٠ ـ مرعي بن يوسف الكرمي.

١١ ـ يونس بن إدريس البهوتي.

١٢ ـ الشوكاني.

١٣ ـ إبراهيم بن محمّد بن سالم بن ضويان.

واستحب المهدي صاحب كتاب «الأزهار» الإقامة لمصلحة راجحة، فصّل الشوكاني القول فيها، وهذا لطائفة محدّدة قويّة في دينها وعلمها ودعوتها؛ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتُعلِّم الناس الخير.

أما الونشريسي فله رسالة خاصة في نقْض هذا الرأي.

ثالثاً: ينبغي أن يُحمل استحباب العلماء للهجرة لمن أمِن الفتنة على الوضع الحقيقي، وحصْره وعدم التوسع به، فإذا أمِن الرجل الفتنة وقدر على أداء الطاعات، فهل زوجه كذلك؟ وهل أبناؤه كذلك؟ وهل بناته كذلك؟ وهل أبواه كذلك؟ فلا تحسبنّ الرجل فرْداً عزباً لا صِلَة له بأحد، ولكن انظر إليه ومن يعول.

وبهذا تفهم ما يدندن حوله العلامة الونشريسي ـ رحمه الله تعالى ـ في مبحثه النافع، وبهذا نكون قد أفدنا من أقوال علمائنا وفهِمْناها حقّ الفهم.

رابعاً: رأى البعض وجوب الهجرة من بلاد الكفر؛ لمن أمن الفتنة وقدر على إظهار دينه.

خامساً: عدم وجوب الهجرة لمن لم يستطعها.

سادساً: لا أعلم أحداً من أهل العلم قال بعدم الهجرة والبقاء في بلاد

---

(١) نقله عنه صاحب «العبرة» أيضاً.

الكفر؛ إذا فتن في دينه ولم يقدر على أداء الطاعات.

سابعاً: لا تقتصر الهجرة على ترْك الأرض التي حكَمهَا المشركون، بل ذكر العلماء الهجرة من الأرض التي يُسبُّ فيها السلف وتغلب عليها البدع أو المعاصي، وهناك عِدّة أنواع للهجرة[1].

ثامناً: إذا لم يوجد بلد إلا ويُعمل فيه بغير الحق، فإنّ المسلم * يختار أقلّها إثماً، مثل أن يكون البلد فيه كُفر، فبلد فيه جور خير منه، أو بلد فيه عدل وحرام، فبلد فيه جور وحلال خير منه للمقام، أو بلد فيه معاصٍ في حقوق الله؛ فهو أولى من بلد فيه معاصٍ في مظالم العباد *[2] أو بلَد يَستخفي حُكّامه بالكفر والعلمانية، فهو أولَى من بلد يجهر حكّامه بذلك، أو بلد يدعي حكّامه أنّهم يحكمون بحكم الله، فهو أولى من بلد يُنكر حكّامه ذلك، أو بلد يُعمل فيه بالقليل القليل من أحكام الله؛ ويُتخلّق فيه ببعض أخلاق الإسلام، فهو خير من بلد يحكمه اليهود أو النصارى، وبلد فيه المساجد ودور القرآن أولى من بلد تكثر فيه الكنائس والبيَع ومعابد الكفران والأوثان.

هل حديث «لا هجرة بعد الفتح» ناسخ للنصوص التي أوجبت الهجرة؟

١ ـ لا بُدّ لنا لنتعرّف الإجابة أن نستحضر الآيات القرآنية في ذلك، ومنها قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾[3].

فهل عُدِم المستضعفون في الأرض؟ وهل أمِن كلّ النّاس على دينهم في كلّ أقطار الدنيا؟

---

(١) تقدّم كلام ابن العربي ـ رحمه الله ـ في ذلك في (باب من أقوال العلماء في الهجرة).

(٢) ما بين نجمتين من كلام الونشريسي ـ رحمه الله ـ في «أسنى المتاجر» وقد تقدّم.

(٣) النساء: ٩٧.

٢ ـ يوضح مدلولَ حديث **«لا هجرة بعد الفتح»** النصَّ الآتي:

عن عطاء بن أبي رباح قال: «زُرت عائشة مع عبيد بن عمير الليثي، فسألناها عن الهجرة؟ فقالت: لا هجرة بعد اليوم[(١)]، كان المؤمنون يفرُّ أحدهم بدينه إلى الله ـ تعالى ـ وإلى رسوله ﷺ، مخافة أن يفتن عليه، **فأمّا اليوم فقد أظهر الله الإسلام**، واليوم يَعبدُ ربّه حيث شاء، ولكن جهادٌ ونيّة»[(٢)].

قال الحافظ في «الفتح» (٧/٢٢٩): «قوله: «فسألها عن الهجرة؟» أي: التي كانت قبل الفتح واجبةً إلى المدينة، ثمّ نُسخت بقوله: **«لا هجرة بعد الفتح»** اهـ.

لقد قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: **«لا هجرة بعد اليوم»** وماذا تعني كلمة (اليوم) وماذا وراءها؟ وهل أيّامهم كأيّامنا في القوة والمنعة؛ فإن كان كذلك فقد انقطعت عنّا أيضاً.

ويوضح ذلك قولها: «كان المؤمنون يفرّ أحدهم بدينه إلى الله ـ تعالى ـ وإلى رسوله ﷺ، مخافة أن يُفتن عليه، فأمّا اليوم؛ فقد أظهر الله الإسلام، واليوم يعبد ربّه حيث شاء، ولكن جهاد ونيّة».

فانظر قولها ـ رضي الله عنها ـ: **«فأمّا اليوم؛ فقد أظهر الله الإسلام»** فلماذا الهجرة من ديار أظهر الله فيها الدين وجعل فيها مناسك الحج والعمرة ومتّع المسلمين بمتعة الطواف وما فيه من ثواب، وضاعف لهم أجر الصلاة في المسجد الحرام إلى غير ذلك من الفضائل والخصائص.

ثمّ قالت ـ رضي الله عنها ـ: **«واليوم يعبد ربّه حيث شاء...»** فإن كان حالُنا كحالهم نعبد الله ـ عزّ وجلّ ـ حيث شئنا؛ فقد انقطعت عنّا الهجرة.

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ في «الفتح» (٧/٢٢٩): «قوله: «كان

---

(١) وفي رواية: **«انقطعت الهجرة منذ فتح الله على نبيه مكّة»**، انظر «مختصر البخاري» (٢/٥٥١) برقم (١٦٥٨).

(٢) أخرجه البخاري: ٣٩٠٠.

المؤمنون يفرّ أحدهم بدينه... إلخ» أشارت عائشة إلى بيان مشروعية الهجرة، وأنّ سببها خوف الفتنة، والحُكم يدور مع علّته، فمقتضاه أنّ من قدر على عبادة الله في أيّ موضع اتفق؛ لم تجب عليه الهجرة منه وإلا وجبت، ومن ثمّ قال الماوردي: إذا قدر على إظهار الدين في بلد من بلاد الكفر فقد صارت البلد به دار إسلام، فالإقامة فيها أفضل من الرحلة منها؛ لما يترجّى من دخول غيره في الإسلام»[١].

وقال أيضاً في «الفتح» (٧/٢٢٩): «وقد أفصح ابن عمر بالمراد؛ فيما أخرجه الإسماعيلي بلفظ: «انقطعت الهجرة بعد الفتح إلى رسول الله ﷺ؛ ولا تنقطع الهجرة ما قوتل الكُفّار».

٣ ـ كلمة «بعد الفتح» مدلول العزّة والقوّة والمنعة، فأي بلد يفتحه المسلمون ويُحكم به بشرع الله ـ عزّ وجلّ ـ فلا يرد بحث مسألة الهجرة منه.

٤ ـ ويؤكّد عدم النسخ قوله ﷺ: **«لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»**[٢].

وأيضاً قوله ﷺ: **«لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكُفّار»**[٣].

وهذا ما يتفق مع الواقع الذي يعيشه المسلم في أيّ زمان ومكان، فما دام للكُفر صولة وجولة، ويخشى المسلم الفتنة على دينه، ولا يتمكّن من أداء الطاعات، فهل يُؤمر بالبقاء في ديار الكُفر لقوله ﷺ: **«لا هجرة بعد الفتح»**؟!

وقد تقدّم معنا ما جاء في «تحفة الأحوذي» (٥/٢١٤) وغيره، وهو قوله: **«لا هجرة بعد الفتح»** أي: فتح مكة.

قال الخطابي وغيره: كانت الهجرة فرضاً في أول الإسلام على من

---

(١) سيأتي هذا القول ـ إن شاء الله تعالى ـ مع بيان مدلوله ومناقشته في ظلّ فقه دار الإسلام ودار الكُفر.
(٢)(٣) تقدّم تخريجه.

أسلم، لقلّة المسلمين بالمدينة، وحاجتهم إلى الاجتماع، فلمّا فتح الله مكّة، دخل الناس في دين الله أفواجاً، فسقط فرض الهجرة إلى المدينة، وبقي الجهاد والنيّة على من قام به أو نزل به عدو. انتهى.

وأيضاً (ص٢١٥) منه: «وكانت الحكمة أيضاً في وجوب الهجرة على من أسلم لِيَسلَم من أذى ذويه من الكفار، فإنّهم كانوا يعذّبون من أسلم منهم؛ إلى أن يرجع عن دينه ...**وهذه الهجرة باقية الحُكم في حقّ من أسلم في دار الكُفر، وقدر على الخروج منها**».

«**ولكن جهاد ونيّة**» قال الطيبي وغيره: «هذا الاستدراك يقتضي مخالفة حُكم ما بعده لما قبله، والمعنى: أنّ الهجرة التي هي مفارقة الوطن التي كانت مطلوبة على الأعيان إلى المدينة انقطعت، إلا أنّ المفارقة بسبب الجهاد باقية، وكذلك المفارقة بسبب نيّة صالحة، كالفرار من دار الكُفر، والخروج في طلب العلم، والفرار بالدين من الفتن، والنيّة في جميع ذلك».

وتقدّم أيضاً قول البغوي ـ رحمه الله ـ في «شرح السُّنّة»: «يحتمل الجمع بطريق أُخرى؛ فقوله: «**لا هجرة بعد الفتح**» أي: من مكّة إلى المدينة»، وذكر ذلك الحافظ في «الفتح» (٢٢٩/٧) وغيره.

وقال النووي ـ رحمه الله ـ كذلك في «رياض الصالحين»: «**معناه: لا هجرة من مكّة لأنها صارت دار إسلام**»[١].

قال المناوي ـ رحمه الله ـ في «فيض القدير» (٤٣٨/٦) تحت رقم (٩٩٢٧): «(**لا هجرة بعد فتح مكّة**) أي: لأنّها صارت دار إسلام، وإنما تكون الهجرة من دار الحرب، فهذا معجزة له، فإنّه إخبار بأنّها تبقى دار إسلام واستغناء المسلمين عن ذلك، إذ كان معظم الخوف من أهله، فالمراد: لا هجرة بعد الفتح لمن لم يكن هاجرَ قبله، أمّا الهجرة من بلاد الكُفر فباقيةٌ إلى يوم القيامة».

---

(١) انظر (باب الإخلاص وإحضار النيّة).

٥ ـ إنّ من يتدّبر حديث النّبيّ ﷺ: «**المسلم من سَلِم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**»[(١)]؛ يدرك سرّ ما في الهجرة من خيرات ومنافع، فالمهاجر في التعريف النبوي من هاجر ما نهى الله عنه؛ فعلى المسلم أن يسعى لهجْر المنهيات في نفسه وواقعه ما أمكنه ذلك.

❁ وأخيراً...

لقد نقل الإمام الصنعاني ردّ الجمهور على من قال: «إنّ حديث «لا هجرة بعد الفتح» عام ناسخ لأحاديث الهجرة» فقد جاء في «سبل السلام» (٧٩/٤) بعد حديث: «**أنا بريء من كل مسلم يقيم بين المشركين**»[(٢)].

قوله: «والحديث دليلٌ على وجوب الهجرة من ديار المشركين من غير مكّة، وهو مذهب الجمهور؛ لحديث جرير، ولما أخرجه النّسائي عن طريق بهز بن حكيم عن أبيه عن جده مرفوعاً:

«لا يقبل الله من مشرك عملاً بعد ما أسلم أو يفارق المشركين»[(٣)].

ولعموم قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[(٤)] الآية.

وذهب الأقل إلى أنّها لا تجب الهجرة وأنّ الأحاديث منسوخة؛ للحديث الآتي وهو قوله: عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهادٌ ونيّة**»» متفق عليه.

قالوا: فإنّه عامٌّ ناسخ لوجوب الهجرة الدال عليه ما سبق، وبأنّه ﷺ لم يأمر من أسلم من العرب بالمُهاجرة إليه، ولم يُنكر عليهم مُقامهم ببلدهم، ولأنّه ﷺ كان إذا بعَث سرية قال لأميرهم: «**وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال)؛ فأيتهنّ ما أجابوك فاقبل**

---

(١) أخرجه البخاري: ١٠، ومسلم: ٤٠.
(٢)(٣) تقدّم تخريجه.
(٤) النساء: ٩٧.

منهم وكفّ عنهم، ثمّ ادعهُم إلى الإسلام؛ فإن أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم، ثمّ ادعهم إلى التحوّل من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنّهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أَبَوا أن يتحولوا منها؛ فأخبِرهم أنّهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حُكم الله الذي يجري على المؤمنين»[1].

فلم يوجب عليهم الهجرة، والأحاديث غير حديث ابن عباس محمولة على من لا يأمن على دينه، قالوا: وفي هذا جمْع بين الأحاديث.

وأجاب من أوجب الهجرة بأنّ حديث: «**لا هجرة**» يُراد به نفْيُها عن مكة، كما يدل له قوله: «بعد الفتح»، فإنّ الهجرة كانت واجبة من مكّة قبله، وقال ابن العربي: «الهجرة هي الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام، وكانت فرضاً على عهد رسول الله ﷺ واستمرت بعده لمن خاف على نفسه، والتي انقطعت بالأصالة؛ هي القصْد إلى النّبيّ ﷺ حيث كان».

❁ **فخلاصة القول في هذه المسألة: هو انقطاع الهجرة الواجبة من مكّة، وبقاؤها على التفصيل السابق، وأنّ حديث: «لا هجرة بعد الفتح»** غير ناسخ لنصوص الهجرة.

❋ ❋ ❋

الأرض غالية ولكنّ الدين ودماء المسلمين أغلى

لا ريب أنّ ديار المسلمين غالية، ولكنّ الدين والدماء أغلى، وما أحسن ما قاله عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ وقد نظر يوماً إلى الكعبة: **«ما أعظمك وأعظم حرمتك! والمؤمن أعظم حرمة منك»**[2].

---

(١) سياق الحديث من «صحيح مسلم» (١٧٣١).

(٢) أخرجه الترمذي وابن حبان، وهو حديث حسن مخرج في «غاية المرام» (٤٣٥).

ومَن مِن المسلمين يرضى أن يُنتهك عرضه؟ أو تُفعل الفاحشة في ابنته أو أخته؟ أو أن تفتن في دينها وأخلاقها؟!

هل في الهجرة إضاعة للأرض؟

إنّ تطبيق الجزء في ظلّ الكلّ الفاسد؛ قد يبدو مضحكاً، لكن هذا لا يُلغي القول بفساد الجزء، ولا بُدّ من بيان أهميّة الجزء في ظلّ الكلّ، مع بيان أهميّة العمل بالكلّ أيضاً.

مثال على ذلك:

إنّ القول بتحريم الربّا، من الأمور البيّنة التي لا خلاف فيها.

وقد يدعو بعضُ الغيورين الأشخاص العاملين في المصارف والمؤسسات الربوية إلى ترْك هذه الأماكن، فيحتجّ المحتجون بقولهم: إنّ تفريغ العاملين كلهم من هذه المؤسسات؛ يُفضي إلى تعطيل مصالح الناس وكثرة السرقات وقتْل أصحاب الأموال، وكما قالوا في مسألة الهجرة: أين يذهب الناس؟ فسيقولون: «أين نضع أموالنا؟ وكيف نحمي أنفسنا؟ وماذا تفعلون باقتصاد الأُمّة الذي سينهار؟ وإذا فُرِّغت هذه المؤسسات من المسلمين فستُملأ من المُلحدين والمنحرفين»!

فأقول ـ وبالله أستعين ـ:

إنّ خطّة العلاج في رأيي؛ أن نأمر العاملين في هذه المؤسسات بتركها، وترْك كل ما يتعلّق بالربا، مع السعي إلى توفير المصارف الصحيحة المشروعة غير الربويّة، مع ما هو معلوم من صعوبة تحقق الشّطر الأخير في ظلّ واقعنا المؤلم.

بيْد أنّ عدم تحقيق هذا لا يُلغي القول بوجوب ترْك المؤسسات الربوية.

وهل يظنّ ظانٌّ أَننا لو قُمنا بحملات إعلامية مكثّفة في بيان تحريم الربا وخطره؛ من خلال الكتب والمطويّات والأشرطة والمحاضرات

والخُطَب؛ هل يظنُّ استجابة المسلمين بتمامها وكمالها، وأنّنا لن نجد من يعمل في هذه المصارف والمؤسسات والشركات؟!

... وهكذا فواقعنا يقول: إنّ الخوف كلّ الخوف من تفريغنا المؤسسات كلّها لغير المسلمين سببٌ في انهيار الاقتصاد الإسلامي، وهذا لا يصحّ أبداً.

وكل ما سبق من قول ووصْف لما يُخشى وقوعه، لا يُلغي القول بوجوب ترْك المؤسسات الربوية، وبيان تحريم التعامل بها على اختلاف صورها وأشكالها.

والذي نال قصب السّبق في ظل تناطح الآراء وتضارُبها إنّما هو ذلك العدد القليل الذي ترك العمل في مجال الربا؛ امتثالاً لأمر الله ـ عزّ وجلّ ـ وابتغاء مرضاته.

إنّه ليس من الصواب في شيء ـ إذن ـ أن نشنّع على من أمر بترك مؤسسات الربا ومصارفه؛ بزعم التخوف على مصلحة الأمّة واقتصادها.

وكذلك مسألة الهجرة؛ يبدو التحدُّث عنها مضحكاً لأول وهلة؛ لأنّ المسلمين سيُفرِغون الأرض لأعداء الله ـ تعالى ـ!

ولكن إذا كان القول بالهجرة مع الإعداد للجهاد في سبيل الله ـ تعالى ـ زالت الغرابة، وعدم تحقيق هذا لا يلغي القول بفتوى الهجرة؛ كما مضى في مسألة ترْك العاملين المصارف الربوية.

وهكذا تظلّ معرفة الحكم الشرعي مسألة لا غنى عنها؛ تبدأ بها القلّة، ثم السعي لتكثير العدد، ثم المجاهدة والتضحية والإعداد اللازم لقيام حُكم الله ـ تعالى ـ في الأرض، وهذا التدرّج لا بُدّ منه، أمّا إلغاؤه بزعم الواقع المرير فليس صحيحاً، لأننا ينبغي أن نُخضِع الواقع للشرع؛ لا الشرع للواقع.

وهل بلغت استجابة المسلمين اليوم ممّن يقيمون تحت نير الكُفّار، أن يحزّموا أمتعتهم إذا سمعوا فتوى الهجرة؛ فيطيروا منها زرافات ووحدانا؟!

إن هذا بعيد بعيد ـ مع الأسف ـ فها هم الخطباء قد تكلّموا في تحريم الربا، فهل أُغلقت مصارفه؟!

وها هم قد تكلّموا في تحريم الاختلاط وخطره؛ فهل تلاشى؟!

وها هم قد تكلّموا في الغناء والعزف والمجون؛ فهل انعدم؟!

وها هم قد تكلّموا في تحريم الغيبة والنميمة؛ فهل استجاب الناس؟!

نعم؛ هناك استجابة لكلّ ما ذكرْت؛ ولكنّها قليلة ضئيلة...

إذا بلغ الأمر بالأمّة أن تنهض إلى هذا الحدّ، فتعمل كلّها بما تراه يُرضي الله ـ سبحانه وتعالى ـ مضحيّة بكل شيء؛ فقد أمست الأحوال غير الأحوال، والأمور غير الأمور؛ لأنّ هذه الاستجابة هي الطريق الوحيد للنصر والعزّ والمجد والسؤدد.

إنّ هذه لأمارات التغيير في النفس، والتي تؤذن بالنّصر، كما قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

أمّا كيف نظفر بتغيير واقعنا وأحوالنا؛ فقد نستشعر له بعض الصُّور، وقد لا نستطيع ذلك، ولكنّ إيماننا بالله ـ عزّ وجلّ ـ يجعلنا نُسلّم تسليماً، ونوقن أنّ الله ـ سبحانه ـ لا يُخلف الميعاد، وأنّ الذي يرزقنا الطعام من حيث لا نحتسب بالسعي الحلال؛ يرزقنا النصر من حيث لا نحتسب أيضاً؛ بالسعي الصحيح والإيمان الصادق والعمل الصائب.

❋ ❋ ❋

ممّا قيل فيمن يمدح حال اليهود والنصارى

قال العلامة أبو الطيب صديق بن حسن البخاري في كتاب «العبرة» (ص٢٤٥): «وأمّا من يمدح النصارى، ويقول إنّهم أهل العدل، أو يحبّون

(١) الرعد: ١١.

العدل، ويُكثِر ثناءهم في المجالس، ويُهين ذِكر السلطان للمسلمين، وينسب إلى الكفار النّصيفة وعدم الظلم والجور؛ فحُكم المادح أنّه فاسق عاصٍ مرتكب لكبيرة؛ يجب عليه التوبة منها والندم عليها؛ إذا كان مدْحه لذات الكفار من غير ملاحظة صفة الكفر التي فيهم.

فإنْ مدحَهم من حيث صفة الكفر فهو كافر، لأنّه يمدح الكفر الذي ذمّه جميع الشرائع.

وقد حذّر رسول الله ﷺ من مدْح المسلم بما لا يعلمه المرء، فقال: وقد سمع قوماً يمدحون شخصاً: «**لقد قطعتم عنق الرجل**»[1]. أي: أهلكتموه.

وأمّا مدْح العدل بما فيه تزكية له عند حاكم أو تعريفاً بشأنه؛ فهو جائز بل قد يجب.

وحاصله أنّ مدح الكفار لكفرهم ارتداد عن دين الإسلام، ومدْحهم مُجرّداً عن هذا القصد كبيرة يُعزّر مرتكبها؛ بما يكون زاجراً له.

وأمّا قوله: إنّهم أهل عدل؛ فإن أراد أنّ الأمور الكفرية التي منها أحكامهم القانونية عدل، فهو كُفر بواح صراح، فقد ذمّها الله ـ سبحانه ـ وشنّع عليها؛ وسمّاها عُتوّاً وعناداً وطغياناً، وإفكاً وإثماً مبيناً، وخسراناً مبيناً وبهتاناً.

والعدل إنّما هو شريعة الله التي حواها كتابه الكريم وسنّة نبيّه الرؤوف الرحيم، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾[2].

فلو كانت أحكام النصارى عدلاً؛ لكانت مأموراً بها، ولزم على ذلك التناقض والتدافع في الردّ عليهم، قال ـ تعالى ـ: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾[3].

---

(١) أخرجه البخاري: ٢٦٦٢، ومسلم: ٣٠٠٠.

(٢) النحل: ٩٠.

(٣) المائدة: ٥٠.

فالله - سبحانه - حُكمه هو الحسن لا غيره، فأنّى يكون لحُكم النصارى حُسن؟! لأنّ كلّ عدل حسن، وكلّ جور قبيح، والحسن ما حسنّه الشرع، والقبيح ما قبّحه الشرع لا العقل.

وقال - تعالى -: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾[1] وهؤلاء سمّوا ما أمرهم الله بالكفر به عدلاً، وغلوا في ضلالهم، ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾[2].

وإن أرادوا العدل المجازي الذي هو عمارة الدنيا؛ بترك الظلم الذي هو تخريب الدنيا؛ فلا يلزم منه الكفر، لكنّه يزجر عن ذلك الزجر البليغ».

وقال - رحمه الله - (ص٢٤٨): «... فمن أهان السلطان ورفع قدْر الكفر وأرباب الطغيان أهانه الله، ومن يُهن الله فما له من مُكرم، فإن أهان السلطان من حيث رعاية الإسلام، ومدح النصارى واليهود رعاية الكفر صار مرتداً، وإن مدَح من حيث العمارة الدنيوية وضبْطها وحماية الرعية عن المظالم وبذل الأموال في إقامة الناموس الدنيوي؛ وعزة الدعوى؛ فينسب النصارى إلى القيام بذلك، والسلطان إلى القصور فيه؛ كان هذا المادح ممّن غلب عليه حب العاجلة على الآجلة، وأُشرب قلبه حبّ الحطام الفاني، وبعُد مرماه عن مراعاة سِمَة الإسلام، فهو بدنياه مغرور، ومُحب العاجلة ومؤثرها على الآجلة مفتون مأزور، أعاذ الله إخواننا المسلمين عن ذلك.

قال - تعالى -: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠﴾ [3].

وهذا المغرور ما درى، من جهله وغباوته وبلادته وحماقته وسفاهته، أنّ حفْظ الدنيا الذي حصله برعاية النصارى؛ فوّت عليه أضعافاً مضاعفة من دينه، بل ربّما جرّه إلى انطماس معالم الدين بالكليّة، فإنّه بمخالطته للكفار المذكورين؛ عمّت عليه معاملاتهم وقوانينهم الضلالية، فارتكب الربا، ورأى

---

(١)(٢) النساء: ٦٠.

(٣) الشورى: ٢٠.

الخمر والخنزير، وسمع ثالث ثلاثة، وتكاسل عن الصلوات بحكم الوفاق، ورأى الزنا وسمع الخنا، ورضي بالمكوس بأنواعها، واستحسن تنظيماتهم الجائرة، واستمرّ على ذلك حتى صار له مألوفاً لا يستنكره ولا يستهجنه ألبتّة.

وربّما مع طول التمادي اعتقد حلّه بغلب الجهل، فقد حُرِم دينه من حيث حصّل دنياه، والدنيا والآخرة ضرّتان...».

هذا وفي «الروضة النواوية» في (باب الردّة) ما لفْظه: «ولو قال معلّم الصبيان: إنّ اليهود خير من المسلمين بكثير؛ لأنّهم يقضون حقوق معلّمي صبيانهم كفَر».

وجاء في «أسنى المتاجر»: «وما ذكرتَ عن هؤلاء المهاجرين من قبيح الكلام، وسبّ دار الإسلام، وتمنّي الرجوع إلى دار الشرك والأصنام، وغير ذلك من الفواحش المنكرة التي لا تصدر إلا من اللئام، يوجب لهم خزي الدنيا والآخرة ويُنزلهم أسوأ المنازل، والواجب على من مكّنه الله في الأرض ويسّره؛ أنّ يقبض على هؤلاء؛ وأن يُرهقهم العقوبة الشديدة، والتنكيل المبرح؛ ضرباً وسجناً حتى لا يتعدّوا حدود الله».

وجاء فيه أيضاً: «وما ذكرتم عن سخيف العقل والدّين من قوله: «إلى ها هنا يهاجر؟!» ـ في قالب الازدراء والتهكّم ـ وقول السفيه الآخر: «إن جاء صاحب «قشتالة» إلى هذه النواحي نسير إليه»... إلى آخر كلامه البشيع ولفظه الشنيع، لا يخفى على سيادتكم؛ ما في كلام كلّ واحدٍ منهما من السماجة في التعبير، كما لا يخفى ما على كلّ منهما في ذلك من الهجنة وسوء النكير؛ إذ لا يتفوّه بذلك ولا يستبيحه إلا من سَفِه نفسه، وفقد ـ والعياذ بالله ـ حسّه»[1]. اهـ

قلت: إنّ المسلم ينبغي أن يكون واسع الأفق؛ فلا يُحسن الظنّ باليهود والنصارى، فهم مغضوب عليهم ضُلال، إنّنا نعلم أنّ اليهود قد

(١) تقدّم بتمامه في (باب أقوال العلماء في الهجرة).

أرادوا التحايل على الله ـ عزّ وجلّ ـ أفيعجزهم التحايل على البشر؟! أم يُعجزهم التحايل على مَن كان تحت حُكمهم وسيطرتهم ونفوذهم؟!

إنّهم التُّجار الفُجار، تُجّار الدين والدم والمال، وكلّ شيء عندهم بحساب، فما أعطوك من شيء أخذوا منك أضعافه، فلا تنظر إلى ما أُعطيته من تنفيس كلمة أو أداء ركعة؛ إذا سمحوا لك بذلك.

ولكن انظُر إلى ما أخذوا منك وسلبوا، وانظر إلى ما أَلِفْتَ من كُفر وشِرك وفسوق.

ومهما رأيت من بلاء وكرب وبُعد عن الدين في ديار المسلمين؛ فعند اليهود والنصارى أضعاف مضاعفة، وإنّ رؤية صليب أو صليبين في مدينة؛ لأهون من رؤية عشرين صليباً فيها، وفي كلٍّ شرّ.

وتذكّر قول الشاعر:

حنانيك بعض الشرّ أهوَن من بعض








الخاتمة

يلحظ القارىء من خلال هذا البحث تعظيم علماء الأمّة دينَ الله ـ تعالى ـ وخوفهم أن يفتتن المسلمون في دينهم من قبل الأعداء.

ويرون الهجرة من الأرض التي غلب عليها اليهود والنصارى، لا زُهداً في ممتلكات المسلمين ـ إذ هم أحرص الناس على مصلحة الأمّة ـ ولكن للحِفاظ على دينهم وأعراضهم وأخلاقهم وسلوكهم ودمائهم.

وهم يُحذّرون من أن يألف المسلمون الكُفر ومظاهره، ويخشون أن يُكادوا أو يقهروا أو يتطبّعوا.

وهم يرون أنّ الهجرة طريق الجهاد وسبيل العزّة والمجد.

وقد أوجب علماؤنا على كلّ مسلم خشي الفتنة، ولم يتمكّن من أداء الطاعات أن يهاجر، واستحبّوها لمن أمنها وتمكّن من أداء الطاعات.

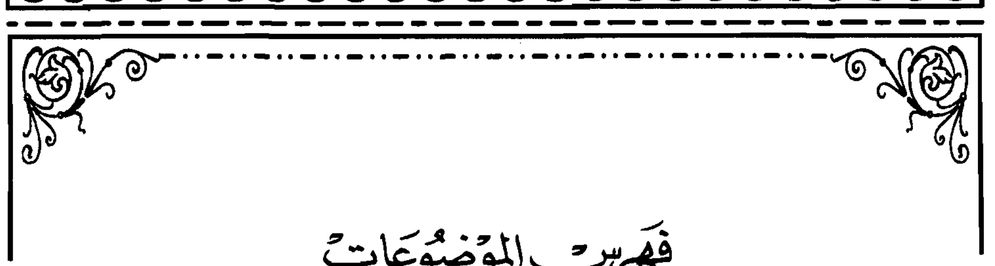
وقد فصّل العلامة الونشريسي ـ رحمه الله ـ القول في أمر الفتنة في ضوء الفقه الشرعي الدقيق والواقع المرير ـ كما تقدّم ـ فأثبت عدم جواز الإقامة، ببراهين ساطعات، وحجج باهرات، من خلال واقع الزوجات والأبناء والذريات.

هذا آخر ما وفّقني الله ـ تعالى ـ لكتْبه، وأرجو الله ـ تعالى ـ أن يتقبّله منّي وأن ينفع به إخواني المسلمين، إنّه سميع مجيبٌ.

وكتب:

حسين بن عودة العوايشة





فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدّمة	٥
سلسلة فقه الدعوة وتزكية النفس (١): الإخلاص	٧
ماذا يُشترط للعمل حتى يُقبل؟	٩
الأمر بالإخلاص والتحذير من الرياء والشرك	١٠
تحذير من الشيطان وبيان مكائده	١١
التوسل بالإخلاص لله في الأعمال	١٣
نجاة يوسف بسبب الإخلاص	١٥
قصة الغلام المؤمن	١٦
قصة إبراهيم وزوجه عند البيت	١٩
من الإخلاص أن تعمل الصالحات مع خوف عذاب الآخرة	٢١
لماذا تُستجاب دعوة المظلوم والمضطر؟ وما معنى فرَّغ قلبه لله؟	٢٢
في مصاحبة أهل الإخلاص والانتفاع بإخلاصهم	٢٦
من أنواع الرياء	٢٧
ما يتوهم أنه رياء وشرك وليس كذلك	٢٨
١ ـ حمد الناس للرجل على عمل الخير	٢٨
٢ ـ نشاط العبد بالعبادة عند رؤية العابدين	٢٨
٣ ـ تحسين وتجميل الثياب والنعل ونحوه	٢٩
٤ ـ عدم التحدث بالذنوب وكتمانها	٢٩
٥ ـ اكتساب العبد الشهرة من غير طلبها	٣٠

الموضوع | الصفحة

فضائل الإخلاص في الأعمال ٣٠
۞ ١ ـ الإخلاص في التوحيد ٣٠
۞ ٢ ـ الإخلاص في النية ٣١
۞ ٣ ـ الإخلاص في الصلاة ٣١
۞ ٤ ـ الإخلاص في السجود ٣١
۞ ٥ ـ الإخلاص في قيام رمضان ٣٢
۞ ٦ ـ الإخلاص في قيام ليلة القدر ٣٢
۞ ٧ ـ الإخلاص في حب المسجد ٣٢
۞ ٨ ـ الإخلاص في الخروج للصلاة ٣٢
۞ ٩ ـ الإخلاص في الانتظار في المسجد ٣٣
۞ ١٠ ـ الإخلاص في القول كما يقول المؤذن ٣٣
۞ ١١ ـ الإخلاص في الصوم ٣٣
۞ ١٢ ـ الإخلاص في الزكاة ٣٤
۞ ١٣ ـ الإخلاص في الصدقة ٣٤
۞ ١٤ ـ الإخلاص في الحج ٣٥
۞ ١٥ ـ الإخلاص في طلب الشهادة ٣٥
۞ ١٦ ـ الإخلاص في الرباط ٣٥
۞ ١٧ ـ الإخلاص في تجهيز الغزاة ٣٥
۞ ١٨ ـ الإخلاص في الجهاد ٣٦
۞ ١٩ ـ الإخلاص في التوبة ٣٦
۞ ٢٠ ـ الإخلاص في الاستغفار ٣٧
۞ ٢١ ـ الإخلاص في البكاء ٣٧
۞ ٢٢ ـ الإخلاص في الذكر ٣٧
۞ ٢٣ ـ الإخلاص في الصدق ٣٨
۞ ٢٤ ـ الإخلاص في الصبر ٣٨
۞ ٢٥ ـ الإخلاص في التوكل ٣٨
۞ ٢٦ ـ الإخلاص في الحب ٣٩

الموضوع | الصفحة

۞ ٢٧ ـ الإخلاص في الزيارة في الله ٣٩
۞ ٢٨ ـ الإخلاص في طاعة الوالدين ٤٠
۞ ٢٩ ـ الإخلاص في ترك المنكر لله ٤٠
۞ ٣٠ ـ الإخلاص في أداء الأجر ٤٠
۞ ٣١ ـ الإخلاص في النية ولو لم يعمل إذا لم يستطع ذلك ٤١
۞ ٣٢ ـ الإخلاص في الزهد ٤١
۞ ٣٣ ـ الإخلاص في التواضع ٤١
۞ ٣٤ ـ الإخلاص في بناء المساجد ٤١
۞ ٣٥ ـ الإخلاص في زيارة مسجد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ للتعلم والتعليم ٤٢
۞ ٣٦ ـ البذْل لله والمنْع لله ـ سبحانه ـ ٤٢
۞ ٣٧ ـ الإخلاص في اتباع جنازة المسلم ٤٢
۞ ٣٨ ـ الإخلاص في إطعام الطعام ٤٣
۞ ٣٩ ـ الإخلاص في الدعاء ٤٣
في علاج الرياء والاستبراء منه ٤٤
۞ ١ ـ معرفة عظمة الله ـ تعالى ـ وأسمائه وصفاته والإلمام بالتوحيد ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ٤٤
۞ ٢ ـ معرفة ما في القبر من عذاب ونعيم ٤٦
۞ ٣ ـ معرفتك للأحاديث التي تبين عذاب النار ٥١
۞ ٤ ـ معرفتك ـ ما استطعت ـ لما أعد الله ـ تعالى ـ للمتقين في الجنة ٥٣
۞ ٥ ـ تذكُّر الموت وقِصَر الأمل ٥٥
۞ ٦ ـ معرفة قيمة الدنيا وعدم بقائها ٥٦
۞ ٧ ـ الدعاء ٥٧
۞ ٨ ـ خوفك أن تكون فترة الرياء خاتمة عملك ٥٨
۞ ٩ ـ الإكثار من أعمال الخير غير المشاهدة وعدم الإخبار عنها لغير ضرورة ٥٨
۞ ١٠ ـ مصاحبة من ترى فيهم الإخلاص والصلاح والتقوى ٥٩

الموضوع	الصفحة

۞ ١١ ـ الخوف من الرياء ٥٩
۞ ١٢ ـ الفرار من ذم الله ٦٠
۞ ١٣ ـ حبك أن يذكرك الله ـ تعالى ـ وتقديم ذلك على حب ذِكر الخلق لك ٦٠
۞ ١٤ ـ معرفة ما ينفر منه الشيطان ٦٠
فيما ينفر منه الشيطان ٦١
من الثمرات الحاصلة من الإخلاص لله ـ تعالى ـ ٦٧
من الويلات الناتجة من الرياء ٧٠
ما يُتوهم أنه إخلاص وليس كذلك ٧٢
أحاديث في الإخلاص والتحذير من الرياء من «صحيح الترغيب والترهيب» ٧٣
أقوال طيبة في الإخلاص ٧٦
من الأقوال التي رويت عن السلف والصالحين في النية والإخلاص والتحذير من الرياء ٧٧
سلسلة فقه الدعوة وتزكية النفس (٢): التحذير من الشيطان وبيان مكايده والتحصُّن منه ٧٩
صيغة الاستعاذة ٨٣
۞ معنى الاستعاذة ٨٤
۞ الاستعاذة من الهمز والنفخ والنفث؛ استعاذة من كل شرّ ٨٩
من مكايد الشيطان لبني آدم ٨٩
۞ بعْثُ إبليس سراياه ومتابعته لأعمالهم الخبيثة ٨٩
۞ سَعيُه الدائم في الإغواء والإضلال ٩٠
۞ لكل شخص قرينُه من الجنّ ٩٠
۞ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ٩١
۞ قَذْفُهُ السوءَ أو الشيء في قلب الإنسان ٩١
۞ حضور الشيطان عند كل شيء من شأن الإنسان ٩١
۞ اجتهاده على المؤمن عند الموت ٩١

الموضوع	الصفحة
۞ طعْنه كلَّ مولود إلا مريم وابنها	٩٢
۞ انتشار الشياطين بعد الغروب	٩٢
۞ مشاركته الإنسان في المبيت والطعام والشراب	٩٢
۞ تشكيكه العباد بالله ـ عزّ وجلّ ـ وسائر أمور الاعتقاد	٩٢
۞ أمْرُهُ العَبْدَ بالكفر	٩٣
۞ التوسل بالقبور والصالحين والأولياء	٩٤
۞ الأخذ بالأحاديث غير الثابتة، وعدم الاهتمام بالتحقيق والتمحيص، أو الأخذ عن أهل الاختصاص في هذا الفنّ	٩٤
۞ قعوده لابن آدم بطريق الإسلام والهجرة والجهاد	٩٤
۞ غَرْسُه التحزّب والتعصّب المذهبي في النّاس	٩٥
۞ استخدام الحِيَل لإسقاط الواجبات، وتحليل المحرّمات، وقَلب الحق باطلاً والباطل حقّاً	٩٥
۞ كُرْه النصيحة وعدم تقبُّلها	٩٥
۞ رضاه من المسلم بما يُحَقِّرُهُ	٩٥
۞ التحريش بين المصلّين	٩٦
۞ تخويفه المسلم بالفقر إذا أراد الإنفاق في سبيل الله، وأمْره إيّاه بالفحشاء	٩٦
۞ الاهتمام بجمع المال والتوسّع في المشاريع التجاريّة بزعْم التقرّب إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ	٩٦
۞ مبيته على خَيشوم الإنسان	٩٧
۞ عقْده ثلاثَ عُقَد على قافية رأس الإنسان إذا هو نام	٩٧
۞ تلعُّبُه بالإنسان في المنام وما يأتي من تهاويل	٩٨
۞ تبوّله في الأُذن	٩٩
۞ حضوره بين الإنسان وقلبه في الصلاة للوسوسة	٩٩
۞ اختلاسه من صلاة العبد	٩٩
۞ مروره بين يَدَيِ المصلّي	١٠٠
الوسوسة في الطهارة والوضوء والصلاة ومخارج الحروف	١٠٠

الموضوع	الصفحة
۞ من الأمور التي تجلب الشيطان وإغواءه	١٠٠
١ ـ هَجْرُ كتاب الله العظيم وذِكْرِهِ سبحانه	١٠٠
٢ ـ التنكُب عن طريق السنّة واتباع البدعة	١٠١
٣ ـ عدم الإخلاص لله ـ تعالى ـ	١٠١
٤ ـ اتباع الهوى والشهوات	١٠١
٥ ـ حب العلوّ أو الفساد	١٠٢
۞ من فوائد الاستعاذة قبل الشروع في قراءة القرآن	١٠٤
۞ في الاستعاذة تحصُّن من جميع المنهيّات والمحظورات، وفيها دفْع الشبهات والشهوات	١٠٧
۞ فيما يبعد الشيطان وينفّره	١٠٩
۞ في التحصّن من الشيطان بذكر الله ـ تعالى ـ	١١٢
۞ التفقه في الدين حماية من الشيطان	١١٣
۞ من صور الاستعاذة	١١٤
۞ فليكن لنا في السلف قدوة في محاربة الشيطان	١١٨
سلسلة فقه الدعوة وتزكية النفس (٣): أوّليات العلم والعمل والدعوة أو وشْي الحلل في مراتب العلم والعمل	١٢١
آياتٌ في جَزاء الأعمال	١٢٣
۞ إزالة المعيقات عن العلم والعمل	١٢٧
۞ والآن ما العمل؟	١٢٩
بعض ما ورد في إزالة العوائق	١٣٠
الواجبات قبل السُّنن والمُستحبَّات	١٣٢
بمن تبدأ؟	١٣٢
من أُقدِّم في الدعوة؟	١٣٧
من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه	١٣٨
ما هو أثر النصيحة والموعظة؟	١٤٠
تدبُّر النُّصوص أوَّلُ العمل	١٤٢
الدعاء ثمرة العمل	١٤٣

الموضوع	الصفحة

تعوّذ النبيّ ﷺ من عِلْم لا ينفع ١٤٦
عذاب من لا يعمل بعلمه ١٤٧
تقع الفتن حين يُتعلّم العِلم لغير العمل ١٤٨
أمارة العلم النافع ١٤٩
نداء إلى العلماء وطُلاب العلم ١٥٠
نداء إلى الدعاة وأئمة المساجد ١٥٢
نداء إلى المؤلّفين والنّاشرين ١٥٥
نداء إلى التّجار ١٥٧
أقوال طيبة منْ كتاب «اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي ـ رحمه الله تعالى ـ ١٥٨
الخاتمة ١٦٥
سلسلة فقه الدعوة وتزكية النفس (٤): القبر عذابه ونعيمه ١٦٧
ما يكون قُبيل قبض الرّوح ١٦٩
ما يكون عند مجيء الموت ١٧٠
ما يكون بعد قبض الرّوح ١٧١
العذاب الجسمي للعصاة في القبر ١٨٥
من الذنوب التي يعذب عليها العصاة في القبر ١٨٩
الأنبياء والبرزخ ١٩١
ما ينتفِع به الميّت بعد موته ١٩٥
ما يُنجي من عذاب القبر أو فتنته ١٩٧
سلسلة فقه الدعوة وتزكية النفس (٥): الصلاة وأثرها في زيادة الإيمان وتهذيب النفس ١٩٩
ما يجب على المسلم في صلاته ٢٠١
۞ **أولاً**: أن تكون موافقة صلاة النبيّ ﷺ ٢٠١
۞ **ثانياً**: أن يُراعي الخشوع فيها. ٢٠٢
۞ ٢ ـ تدبُّر معاني الكلمات التي تتعلق بالصلاة. ٢٠٦
۞ ٣ ـ ترك الذنوب والمعاصي والآثام ٢٠٦

الموضوع	الصفحة
۞ ٤ ـ تجنّب كثرة الضّحك، فإنها مميتة للقلب وخشوعه.	٢٠٧
۞ ٥ ـ اختيار العمل المناسب	٢٠٨
۞ ٦ ـ عدم الانشغال الزّائد بالدُّنيا	٢٠٨
۞ ٧ ـ الإكثار من قراءة القرآن الكريم وما ثبت من الأذكار والأدعية، والمرقّقات	٢٠٩
۞ ٨ ـ أن يأتي الصلاة مبكراً	٢٠٩
۞ ٩ ـ رصّ الصّفوف وتسويتها	٢٠٩
۞ ثالثاً: أن يحافظ على مواقيتها، ويحذر من تأخيرها وتضييع وقتها ..	٢١٠
۞ رابعاً: أن يحافظ على صلاة الجماعة فيها	٢١٣
فضل الصلاة وتكفيرها للخطايا والسيئات	٢١٥
۞ مما يستفاد من هذه الأحاديث	٢٢١
الصلاة وأثرها في ترك الذنوب وتربية النّفس	٢٢٢
ما جاء في الخشوع وحسْن الصلاة وثواب ذلك	٢٢٤
فضل قيام الليل وأثره في زيادة الإيمان	٢٢٦
۞ مما يستفاد من هذه الأحاديث	٢٣٠
تواصي الزوجين بقيام الليل	٢٣٢
أحبُّ الصلاة إلى الله	٢٣٢
إقبال الله ـ تعالى ـ بوجهه على عبده في الصلاة	٢٣٢
الاستعانة بالصلاة	٢٣٣
ارتباط الصلاة بشؤون الحياة	٢٣٤
صلاة الضعفاء وارتباطها بنصر الأمّة	٢٣٨
في الصلاة راحة وطمأنينة	٢٣٨
ماذا في مرض موت النّبيّ ﷺ؟	٢٣٩
دروس وعِبَر	٢٤٠
أنزل الله ـ تعالى ـ المال لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة	٢٤١
ما جاء فيمن ترك الصلاة	٢٤٣
من فاتته صلاة، فكأنّما وُتِر أهله وماله	٢٤٣

الموضوع	الصفحة

التدريب على الخشوع في الصلاة ٢٤٤
عوائق الخشوع ٢٤٤
فوائد جديرة بالاهتمام ٢٤٧
فضل الصلاة في مساجد مخصوصة ٢٥١
فضل المشي إلى المساجد ٢٥٢
۞ مِمّا يُستفاد من هذه الأحاديث ٢٥٥
۞ فضيلة لزوم المساجد والجلوس فيها ٢٥٦
التغليظ في التخلّف عن الجماعة، وأثرها في إنقاص الإيمان ٢٥٨
۞ ممّا يستفادُ من هذه النّصوص ٢٥٨
۞ ماذا نفعل لكي نبكِّر بالصلاة؟ ٢٥٩
۞ فضل انتظار الصلاة بعد الصلاة ٢٥٩
۞ ممّا يستفاد من هذه الأحاديث ٢٦٢
۞ من فوائد الخشوع ٢٦٣
الخاتمة ٢٦٥
سلسلة فقه الدعوة وتزكية النفس (٦): مصيبة موت النّبيّ ـ ﷺ ـ وأثرها في حياة الأمّة ٢٦٧
موت رسول الله ﷺ أعظم المصائب ٢٦٨
ما قدَّمه ﷺ من خير أكثر ممّا قدَّمه أيُّ قريب أو حبيب ٢٧٠
شعورُ الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ عند موت النّبيّ ﷺ ٢٧١
بكاء أُمِّ أيمن لموته ﷺ وتهييجُها أبا بكر وعمر ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ على البكاء ٢٧٥
الرسول ﷺ أمنة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ٢٧٦
الردّ على من يقول: «موته ﷺ ليس بمصيبةٍ، والكتاب والسنة بين أيدينا!» ٢٧٧
ماذا بعد موت النّبيّ ﷺ؟ ٢٨٠
تدبُّر الوصية ٢٨٢
سلسلة فقه الدعوة وتزكية النفس (٧): وصيّة مودع ٢٨٥
ماذا بعد موت النّبيّ ﷺ؟ ٢٨٧

الموضوع	الصفحة
قيمة الوصيّة	٢٨٩
أوصيكم بتقوى الله	٢٩٢
۞ وإنّه من يعش منكم فيسرى اختلافاً كثيراً	٢٩٥
فما العلاج؟	٢٩٦
لا يجوز الاعتماد على القرآن استقلالاً	٣٠٠
من أَخَذَ عن الصحابة فقد أَخَذَ عن القرآن الكريم	٣٠٢
۞ أهي سنَّة واحدة أم سُنّتان	٣٠٣
ما هو موقفنا من البدع إذا كثُر الاختلاف وعَظُم؟	٣٠٥
فإن كُلّ بدعة ضلالة	٣٠٦
الردّ على من يُقسّم البدعة إلى حسنة وسيئة	٣٠٧
خطَر البدعة	٣١٠
اقتصار النّبيّ ﷺ في وصيّته في المناهي على اجتناب البدعة فقط	٣١٣
الخاتمة	٣١٤
سلسلة فقه الدعوة وتزكية النفس (٨): الدعاء	٣١٥
فضل الدّعاء	٣١٧
آداب الدعاء	٣١٧
۞ ١ ـ الجزم فيه واليقين على الله بالإجابة	٣١٧
۞ ٢ ـ الإلحاح فيه	٣١٨
۞ ٣ ـ الدعاء في كل الأحوال	٣١٨
۞ ٤ ـ عدم الدعاء على الأهل والمال	٣١٨
۞ ٥ ـ أن لا يسأل غير الله	٣١٩
۞ ٦ ـ أن يجعل الداعي صوته بين المخافتة والجهر	٣١٩
۞ ٧ ـ أن يسأل الله ـ تعالى ـ بأسمائه الحسنى	٣١٩
۞ ٨ ـ الاعتراف بالذنب	٣٢٠
۞ ٩ ـ عدم تكلّف السّجع في الدّعاء	٣٢٠
۞ ١٠ ـ التضرّع والخشوع والرّغبة والرّهبة	٣٢١
۞ ١١ ـ التّوبة ورد المظالم	٣٢١

الموضوع	الصفحة

۞ ١٢ ـ الدعاء بصالح الأعمال ٣٢١
۞ ١٣ ـ الدعاء ثلاثاً لثبوته عن النّبيّ ﷺ ٣٢١
۞ ١٤ ـ الصلاة على النّبيّ ﷺ ٣٢٢
۞ ١٥ ـ استقبال القبلة ٣٢٢
۞ ١٦ ـ رفْع اليدين ٣٢٣
۞ ١٧ ـ الوضوء قبله ٣٢٣
۞ ١٨ ـ البكاء فيه ٣٢٤
۞ ١٩ ـ إظهار الافتقار إلى الله ـ تعالى ـ والشكوى إليه من الضّعف والضيق والبلاء ٣٢٥
۞ ٢٠ ـ اغتنام الأوقات ومختلف الأحوال والأوضاع التي يستجاب فيها للدّاعي. ٣٢٥
ساعات وأحوال وأوضاع يستجاب فيها للعبد ٣٢٦
لماذا لا يُستجاب الدعاء؟ ٣٣٣
۞ ١ ـ الاستعجال في الدعاء ٣٣٣
۞ ٢ ـ حكمة ربّانية ٣٣٣
۞ ٣ ـ الدعاء بإثم أو قطيعة ٣٣٤
۞ ٤ ـ أكْل الداعي من مأكل حرام، وشربه من مشرب حرام، ولبْسه من لباس حرام. ٣٣٤
۞ ٥ ـ عدم الجزم في الدعاء ٣٣٤
۞ ٦ ـ ترك الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ٣٣٤
۞ ٧ ـ استيلاء الغفلة والشهوة وهوى النفس ٣٣٥
۞ ٨ ـ عدم الخشوع في الصلاة ٣٣٥
۞ ٩ ـ ارتكاب بعض الذنوب المخصوصة ٣٣٥
أدعية قرآنية ٣٣٥
أدعية مختارة يُمكن الدّعاء بها في الحجّ والعُمرة والاعتكاف والسّاعات المستجابة... ونحو ذلك ٣٣٧
أدعية مُستجابة ٣٤٣

الموضوع	الصفحة
من الأحاديث الضّعيفة والموضوعة في الدّعاء	٣٤٩
۞ ١ ـ حسبي من سؤالي عِلْمه بحالي» لا أصل له.	٣٤٩
۞ ٢ ـ توسّلوا بجاهي فإنّ جاهي عند الله عظيم» لا أصل له.	٣٤٩
۞ ٣ ـ الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين ونور السماوات والأرض	٣٥٠
۞ ٤ ـ كان رسول الله ﷺ إذا رفع يديه في الدعاء لم يحطّهما حتى يمسح بهما وجهه» ضعيف.	٣٥١
۞ ٥ ـ الدعاء مخّ العبادة» ضعيف.	٣٥١
من الدعوات المنهيّ عنها	٣٥١
۞ ١ ـ الدّعاء بتعجيل العقوبة في الدّنيا	٣٥١
۞ ٢ ـ الدّعاء بتعجيل الموت	٣٥٢
۞ ٣ ـ لعْن إنسان بعينه أو دابّة	٣٥٢
۞ ٤ ـ سبّ المسلم بغير حق	٣٥٣
۞ ٥ ـ سبّ الأموات	٣٥٣
۞ ٦ ـ سبّ الحمى	٣٥٣
۞ ٧ ـ سبّ الريح	٣٥٤
۞ ٨ ـ سبّ الديك	٣٥٤
۞ ٩ ـ الدعاء بـ(مطرنا بنَوء كذا وكذا)	٣٥٤
۞ ١٠ ـ الدعاء بـ(ما شاء الله وشاء فلان)	٣٥٥
۞ ١١ ـ الدعاء على الأهل والمال	٣٥٥
۞ ١٢ ـ الدعاء بإثم أو قطيعة رحم	٣٥٥
أحاديث ومسائل متفرقة في الدعاء	٣٥٥
الدعاء ثمرة العمل	٣٦٠
من أقوال السّلف في الدعاء	٣٦٣
سلسلة فقه الدعوة وتزكية النفس (٩): البكاء من خشية الله	٣٦٥
البكاء من خشية الله	٣٦٧
التحذير من قسوة القلب	٣٦٩
البكاء رحمةٌ جعلها الله في قلوب العباد	٣٧٠

الموضوع	الصفحة

بكاء النبي ﷺ ٣٧١
بكاء الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ٣٧٤
بكاء أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ ٣٧٤
بكاء عمر ـ رضي الله عنه ـ ٣٧٥
بكاء عثمان بن عفّان ـ رضي الله عنه ـ ٣٧٦
بكاء عائشة ـ رضي الله عنها ـ ٣٧٦
بكاء أمّ أيمن وتهييجها أبا بكر وعمر ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ على البكاء ٣٧٨
بكاء عبدالرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ ٣٧٨
بكاء سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ ٣٧٨
بكاء أبي هاشم بن عُتبة ـ رضي الله عنه ـ ٣٧٩
السبيل إلى البكاء من خشية الله ـ تعالى ـ ٣٨٠
۞ أولاً: تقوى الله ـ سبحانه ـ والمجاهدة فيه والإخلاص له ٣٨٠
۞ ثانياً: العلم ٣٨٠
۞ ثالثاً: ذكر الموت ٣٨٢
۞ رابعاً: التفكّر بأهوال ما بعد الموت ٣٨٣
۞ خامساً: زيارة القبور ٣٨٥
۞ سادساً: اجعل الآخرة همّك ٣٨٦
۞ سابعاً: تدبُّر القرآن العظيم ٣٨٧
۞ ثامناً: الاهتمام باستماع قراءة القرآن الكريم الخاشعة المؤثّرة، والاستكثار من قراءة كتب الرقائق ٣٨٨
۞ تاسعاً: الإكثار من الأذكار وقراءة القرآن العظيم ٣٨٨
۞ عاشراً: الاستغفار ومحاسبة النّفس ٣٨٨
۞ حادي عشر: إحسان الصلاة ٣٩٠
۞ ثاني عشر: التباكي ٣٩١
۞ ثالث عشر: الاستماع إلى المواعظ ٣٩٣
۞ رابع عشر: تطهير القلب من أدران الغل وأوحال الحسد وأوساخ الغش ٣٩٤

الموضوع	الصفحة

۞ خامس عشر: الإكثار من النوافل ٣٩٤
۞ سادس عشر: التقلّل من الدنيا والزّهد فيها ٣٩٥
۞ سابع عشر: رحمة اليتيم وإعانته ومسْح رأسه وإطعامه ٣٩٨
۞ ثامن عشر: الإقلال من الضّحك ٣٩٨
۞ تاسع عشر: الخوف من عدم قَبول الأعمال ٣٩٨
مواقف وأقوالٌ مأثورة في البكاء من خشية الله ـ تعالى ـ والحزن والتذكير بالآخرة. ٣٩٩
من ثمرات البكاء من خشية الله ـ تعالى ـ ٤٠١
سلسلة فقه الدعوة وتزكية النفس (١٠): سورة المطفّفين وأثرها في السلوك وتزكية النفس ٤٠٣
ويلٌ للمطفّفين ٤٠٥
﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ ٤٠٦
﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾. ٤١٠
﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾. ٤١٦
﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ[1] ۝١٥﴾ ٤١٧
﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦﴾. ٤١٨
سلسلة فقه الدعوة وتزكية النفس (١١): الغيبة وأثرها السيئ في المجتمع ٤٢٧
من النُّصوص الدَّالة على تحريم الغيبة ٤٢٩
۞ ما هي الغيبة؟ ٤٣٠
الإجماع على تحريم الغيبة وأنّها من الكبائر ٤٣٠
كيف لُبِّس على الناس في الغيبة؟ ٤٣١
من الأسباب الباعثة على الغيبة وعلاجها ٤٣٣
تأمّلات في أحاديث ترهِّب من الغيبة ٤٣٧
تحريم استماع الغيبة ٤٤١
۞ فوائد من هذه النصوص ٤٤١

الموضوع	الصفحة
المستمع للغيبة والمغتاب سواء	٤٤٣
ما جاء في ردِّ الغيبة ودفعها ونصر المسلم بالغيب	٤٤٣
ريح الذين يغتابون المؤمنين	٤٤٥
عذاب المغتاب في القبر	٤٤٥
المغتاب جبان ضعيف الشخصية	٤٤٥
المغتاب ناقص الإيمان	٤٤٦
الغيبة تُعطِّل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٤٤٧
ما يُباح من الغيبة	٤٤٨
الأمور التي ينبغي مراعتها عند الغيبة المباحة	٤٥٢
التوبةُ من الغيبة	٤٥٣
أمور لا تُظنُّ أنّها غيبة وهي غيبة	٤٥٤
من مساوىء التّساهل في غيبة العاصي	٤٥٨
احذر غيبة الأخرق	٤٥٩
أشدّ من الغيبة	٤٥٩
غِيبةٌ بغير اللّسان	٤٦١
مجاهدةُ الغيبة مِن أفضل الجهاد	٤٦٢
أقوال طيّبة في ذمّ الغيبة	٤٦٣
سلسلة فقه الدعوة وتزكية النفس (١٢): تسوية الصفوف وأثرها في حياة الأمّة	٤٦٥
الأمرُ بإحسان تسوية الصفوف	٤٦٧
لن ندخل الجنة حتى نسوِّيَ الصفوف	٤٦٨
اهتمامنا بالمظاهر في كل شيء إلا الطاعات، لا سيما مظهر تسوية الصفوف	٤٦٩
عدم تسوية الصفوف يؤدّي إلى اختلاف القلوب	٤٧١
عدم تسوية الصفوف يؤدي إلى هلاك الأمّة	٤٧٤
ما ورَد في مخالفة الوجوه	٤٧٥
رؤية النّبيّ ﷺ صفوفَ المصلين من وراء ظهره	٤٧٦

الموضوع | الصفحة

ما جاء في البنيان المرصوص ٤٧٧
تسوية الصف وإقامته من تمام الصلاة وحُسنها ٤٨٠
الترغيب في وصْل الصفوف والتخويف من قطْعها ٤٨٠
تخلُّل الشياطين بين الصفوف ٤٨١
أجر من سدّ الفُرُجات ٤٨٣
الردّ على من يستغرب تخلّل الشياطين بين الفُرُجات ٤٨٣
من الأدلّة على وجوب تسوية الصفوف ٤٨٤
علماء قالوا بوجوب تسوية الصفوف ٤٨٦
كيف نُسوِّي صفوفنا؟ ٤٨٨
تراصّ الجماعة المكوّنة من إمام ومأموم واحد ٤٨٩
ما جاء في النّهي عن الصلاة بين السواري ٤٩٠
صلاة المنفرد خلف الصف ٤٩١
التوكيل في تسوية الصفوف ٤٩٣
الرّد على من يقول: «رَصُّ الصفوف يأتي بالوسوسة ويمنع الخشوع» ... ٤٩٤
نداء ونصيحة للمصلّين ٤٩٤
نداء للأئمّة والخطباء والوعّاظ والدُّعاة ٤٩٦
سلسلة فقه الدعوة وتزكية النفس (١٣): كيف تحكم نفسك وأهلك ومن تلي أمورهم بحُكم الله ٤٩٩
كيف اتخذ اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله! ٥٠١
كيف يكون الحُكم لله ـ سبحانه ـ؟ ٥٠٢
لَمْ يتحاكم إلى الله... .... ٥٠٣
۞ ضرورة التمحيص والتحقيق والبحث ٥٠٤
۞ عجباً لمن يسخر من التحقيق والتمحيص! ٥٠٥
۞ الحُكم والتحاكم بغير ما أنزل الله ـ سبحانه ـ: كُفر، وظُلم، وفِسق. ٥٠٦
۞ التحاكم بما أنزل الله في كلّ الأمور ٥١٠
التحاكم بما أنزل الله هو الطاعة والاستجابة ٥١٣

الموضوع	الصفحة
۞ الردّ على من يقول: «هذه جزئيّات تُعطّل الدّعوة إلى قيام حُكم الله ـ سبحانه ـ، وهناك أولوّيات»	٥١٧
۞ كلّ شخص حاكم وسيّد	٥٢٠
۞ عدم وضوح حُكم الله في أذهان عدد من الدعاة والمربّين في الكثير من المسائل سبب في قولهم: «هذه جزئيات»	٥٢٦
۞ ثم اعلم أنّه لم يبتدع الناس بدعة، إلاّ قد مضى قبلها ما هو دليل عليها، أوعبرة فيها	٥٢٩
من تعرَّف توحيد الأسماء والصّفات حقَّ التعرُّف كان أدرى الناس بمسألة الحُكم بما أنزل الله ـ تعالى ـ	٥٢٩
المعاصي مجلبةٌ جَوْرَ السلطان والحُكْمُ بغير ما أنزل الله ـ تعالى ـ	٥٣٠
أَحُكْمٌ ومواجهة للمذاهب الفكرية الفاسدة بغير عِلم!	٥٣١
صور من الكِبر والتحقير	٥٣٢
الخاتمة	٥٣٧
سلسلة فقه الدعوة وتزكية النفس (١٤): المظهرية الجوفاء وأثرها في دمار الأمّة	٥٣٩
المظهرية الجوفاء	٥٤١
۞ لمن الخطاب	٥٤١
۞ حال المسلمين اليوم	٥٤٢
۞ كيف كان المسلمون بالأمس؟	٥٤٢
۞ كيف كان مسجد النّبيّ ﷺ؟	٥٤٤
۞ ما الذي خرّجه مسجد النّبيّ ﷺ؟	٥٤٦
۞ كيف كان القرآن في عهد النّبيّ ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ؟	٥٤٨
۞ موقف عمر ـ رضي الله عنه ـ من المظهرية	٥٤٨
۞ الشخصية الإسلامية تؤثّر ولا تتأثر	٥٥٢
۞ الفهم الصحيح للعزَّة	٥٥٣
۞ موازين العزة عند غير المسلمين	٥٥٣

الموضوع	الصفحة

- عوداً إلى قول عمر ـ رضي الله عنه ـ: «لو يقل ذا غيرك أبا عبيدة؛ جعلته نكالاً لأمة محمد ﷺ» ٥٥٥
- المظهرية الجوفاء لا تخدم مصلحة الأمة ٥٥٦
- لا بُدَّ من الثقة بالنفس ٥٥٩
- المراوحة في التنعُّم ٥٥٩
- وصية رسول الله ﷺ بالمساكين ٥٦٠
- الضعفاء والفقراء هم أهل الجنّة ٥٦١
- هذا خير من ملء الأرض من مِثل هذا ٥٦٢
- نصر الأمة مرتبط بالضعفاء ٥٦٤
- ترى الرجل النحيف فتزدريه ٥٦٥
- رضى الله ـ تعالى ـ لرضى المتَّقين وغضبه لغضبهم ٥٦٦
- تأملات في قوله ـ تعالى ـ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ ٥٦٧
- أغنياء لم تخدعهم المظهرية ٥٦٩
- رفض المظاهر الإسلامية وتقديس المظاهر الخاوية ٥٧٠
- خلاصة وإيضاح في المظهرية ٥٧١
- الجمود على ظاهرية القانون وتأويل الآيات والأحاديث ٥٧١
- ضعف الحياء من الله ـ تعالى ـ يؤدي إلى طلب الزينة ٥٧٢
- نظرات في مظهرية قارون ٥٧٢

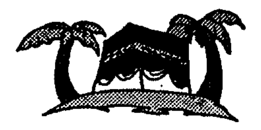
نماذج من المظهريات ٥٧٦

- المظهرية في الأفراح ٥٧٦
- المظهرية في المآتم ٥٧٧
- المظهرية في الزيارات والدّعوات ٥٧٩
- المظهرية في الدوائر والمؤسسات والشركات ٥٨٠
- المظهرية في التجارة ٥٨١
- المظهرية في المدارس ٥٨٢
- نصيحة للموجّهين ٥٨٤
- المظهرية في حب النبيّ ﷺ ٥٨٥

الموضوع | الصفحة

۞ المظهرية في الفتاوى ٥٨٧
۞ علاقة المظهرية بالتحايل ٥٨٩
۞ المظهرية تقتل العمل ٥٩١
۞ كِبْرٌ ومجاراة في المجتمع ٥٩٢
۞ لا تغرَّنَّكم الكثرة يا أصحاب المظاهر الخاوية ٥٩٢
۞ فتنة المظهريّات عند الدّجال ٥٩٦
۞ أمراض يُعانيها محبُّو المظهريّات والشكليّات ٦٠٢
۞ نداء إلى الحكام والمحكومين في العالم الإسلامي ٦٠٣
أيتها المظهرية ٦٠٤
۞ أيتها المظهرية! ٦٠٤
۞ أيتها المظهرية! ٦٠٦
سلسلة فقه الدعوة وتزكية النفس (١٥): الفصل المبين في مسألة الهجرة ومفارقة المشركين ٦٠٧
من النصوص المتعلّقة بالهجرة ومفارقة ديار الشرك والمشركين ٦٠٩
۞ وهذه الهجرة باقية الحُكم في حقّ من أسلم في دار الكُفر، وقدِر على الخروج منها». ٦١٢
ممّا جاء في دار الإسلام ودار الكفر ٦١٥
علاقة الهجرة بالجهاد ٦١٧
من أقوال العلماء في الهجرة ٦٢٠
۞ مذهب الجمهور في الهجرة ٦٢٠
۞ ملاحظات ٦٢٧
۞ خُلاصة كلام الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ ٦٢٨
الأدلّة من القرآن الكريم ٦٣٩
۞ ضميمة فتوى أخرى للونشريسي في شأن رجل أراد المقام في الأندلس ليخدم إخوانه المسلمين ويتكلّم باسمهم ويخاصم عنهم ٦٤٨
۞ الإقامة في حكم النصارى تحُول دون كمال الصلاة ٦٥٠
الخوف على النفس والأهل والولد والمال من شرارهم ٦٥٣

الموضوع	الصفحة
الخوف على الأبضاع والفروج، إشارة إلى حادث كَنّة المعتمد بن عباد	٦٥٣
الخوف من غلبة عاداتهم ولغتهم ولباسهم على المقيمين بينهم، حالة أهل أبله	٦٥٤
الخوف من التسلط على المال بإحداث الوظائف الثقيلة والمغارم المجحفة	٦٥٤
۞ هل حديث «لا هجرة بعد الفتح» ناسخ للنصوص التي أوجبت الهجرة؟	٦٥٨
۞ وأخيراً...	٦٦٢
۞ فخلاصة القول في هذه المسألة	٦٦٣
الأرض غالية ولكنّ الدين ودماء المسلمين أغلى	٦٦٣
۞ هل في الهجرة إضاعة للأرض؟	٦٦٤
ممّا قيل فيمن يمدح حال اليهود والنصارى	٦٦٦
الخاتمة	٦٧١
فهرس الموضوعات	٦٧٣






رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


9 789953 815220